

عبد الله الطيّب

المُرَشِّدُ

إِلْفَهُمْ أَشْعَارُ الْعَرَبِ وَصَنَاعَتَهَا

فِي الْأَغْرَاضِ وَالْأَسَالِيبِ

الجزء الرابع (القسم الثاني)

الهدى

إلى جميع من أعانوا على خلق هذا
الكتاب ، بما تَوَلَّوْهُ من إرشادي وتعليمي
ونَقَدِي ، أُوَلِّمُ أَبِي رَحِمَهُ اللهُ .

عبدالله الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم القسم الثاني

مدح الرسول صلى الله عليه وسلم
قال تعالى جل من قائل في كتابه المحكم العزيز: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.»

ومما حفظ به كتاب الله عرفان العربية وتذوق جزالة أساليبها، وكان من كبار علماء اللغة والنحو والأدب حفظة لكتاب الله أخذت عنهم القراءة والرواية والتفسير كأبي عمرو بن العلاء والكسائي وقالون فقد ذكروا أنه كان نحوي المدينة على زمانه وهو تلميذ نافع والأصمعي، وكان من رواة قراءة نافع، والفراء وأبي عبيدة ومكانها في معاني القرآن ومجازه وتفسيره غير خاف. وكان الطبري محمد بن جرير مقدما في النحو والعربية وهو من حفظة الكتاب العزيز قراءة وتفسيرا. وكان ابن جني صاحب الخصائص ورواية أبي الطيب هو أيضا صاحب المحتسب الذي إنها هو حاشية وشرح موجز جيد وتعليق على كتاب السبعة لابن مجاهد. والأمثلة في هذا الباب أكثر من أن تحصر وتخصى.

ولأمر ما كثر استشهاد أهل التفسير بالشعر الصحيح من لدن ابن عباس رضي الله عنهما إلى زمان أبي عبيدة والفراء ومن بعدهما. من ذلك أن الشعر الصحيح الجزل فيه روح البيان العربي. وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين. وقال تعالى: «إنا أنزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون» (يوسف) وقال تعالى: «إنا جعلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون» (الزخرف) وقال تعالى: «نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين» (الشعراء).

وبعض أهل السفسطة ربما زعم أن من ألفاظ القرآن ما ليس بعربي وهذا هو الضلال المبين. ولو سلمنا جدلا أن امثال استبرق من ألفاظ القرآن لسن عربيات، فماذا عسى أن يستنتج من ذلك مستنتج أورود كلمة اللون في شعر الأعشى يجعله فارسيا، وذلك حيث قال:

بالون يضرب لي يهز الإصبع

أو مجيء كلمة الكرد في قول الفرزدق
وكنّا إذا الجبار صعر خده ضربناه فوق الأثنين على الكرد

أي العنق يجعل شعر الفرزدق غير عربي؟

أم لا يزيد أحيانا في بلاغة الكلم البليغ أن يجاء فيه بكلمة ذات دلالة واضحة في لغة أخرى لكي تنتقل بعض الوان تلك الدلالة إلى السياق الذي هي فيه ؟
ذلك واضح سائغ في كل اللغات إلى الآن .

على أنه ينبغي أن نذكر أن مكة كانت ملتقى تجارة العالم كله آنذ فكم من كلمة صهرتها ألسن العرب فيها فصارت عربية - هذا على تقدير التسليم أن العرب استعارت أمثال قنطار ودينار لتدير به تجارتها ، وقوله تعالى : «والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة» يدل على اطمئنان الكلمة في بحبوحة العربية .

على أن العربية لغة قديمة الأصول والروم والفرس واليونان كل أولئك أحدث عهدا في الوجود الحضاري من العرب - عادهم وثمودهم وجرمهم وقطورائهم وأميمهم وطسمهم وجديسهم وعماليقهم بله حمير وسبأ واليمن الأقدمين .

قال أبو عبيدة (وقد ذكروا أنه كان شعوبيا واتهموه بمذهب الخوارج وهلم جرا) (١)
قال في أوائل كتابه بعد البسملة : قالوا إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، وتصادق ذلك في آية من القرآن وفي آية أخرى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه ، وعمما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص . وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الاعراب ومن الغريب والمعاني . وقال رحمه الله في فصل تال : «نزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن " طه " بالنبطية فقد أكبر ، وإن لم يعلم ما هو ، فهو افتتاح كلام وهو اسم للسورة وشعار لها ، وقد يوافق اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها . فمن ذلك الاستبرق بالعربية وهو الغليظ من الديباج والفرند وهو بالفارسية استبره وكوز وهو بالعربية جوز وأشباه هذا كثير . ومن زعم أن «حجارة من سجيل» بالفارسية فقد أعظم ، ومن قال إنه سنك وكل ، إنما السجيل الشديد .»

(١) راجع مقدمة محقق مجاز القرآن الاستاذ محمد فؤاد سزكين - قال تحت عنوان مذهبه في مقدمته ص ١٠ / ١ (الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م بيروت) تكاد تتفق كلمتهم على أن أبأ عبيدة كان من الخوارج وأنه كان يكتم ذلك ولا يعلنه إلخ - قلت فقد قالوا فيه بالظن . ثم يقول الاستاذ سزكين (ص ١١) ونسبة أبي عبيدة إلى مذهب الخوارج تارة وإلى القول بالقدر تارة أخرى تكشف عن صلته بمعاصريه وتدل على أنه لم يكن محبوبا بينهم إلخ - نقول كان من علماء العربية واعتمد على ما قاله جماعة من كبار علماء أهل السنة كمحمد بن جرير ومحمد بن اسماعيل رحمهم الله أجمعين .

وقد اهتم جار الله محمود بن عمر الزنجشري بأمر البلاغة العربية عامة، وبلاغة القرآن خاصة، ومهد لتفسيره الجليل بعمل معجمه البلاغي النادر المشال «الأساس - أساس البلاغة». ؟ مما يدل على أنه مهّد به تفسيره لقوله تعالى : «إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون» فقد قال إن المرأة لا يقال لها مفندة لأنها لم يكن لها عقل وهي شابة وهذا الوجه بعينه جاء في عبارة "الأساس" ولعل "الفائق" مما مهّد به أيضا. وقد ألف تفسيره وهو مجاور بمكة. وقد اعتمد على ابن جرير. إلا أن مذهبه في بيان البلاغة القرآنية كأن قد انفرد به. واستشهاده بالشعر غزير. وكان مما ذهب اليه الاستشهاد بشعر حبيب وأبي الطيب، يجعل مايقولانه بمنزلة ما يرويانه. وما سوغ له ذلك إلا ما أحسه بجودة ذوقه من تمكنهما من جزالة القول. وما كل علامة راوية بمستطيع جزل الكلام إن رام قوله. ما عدا الزنجشري أن استأنس بها أورد من شعر فحول المحدثين إذ لم يكن خافيا عليه أنه لا يصح الاستشهاد بكلامهم على شيء من نحو أو صرف أو لغة. وقد سلك مسلك الزنجشري رحمه الله جماعة منهم مثلا صاحب "مغني اللبيب" ومن الأوائل من تشدد أحيانا فكره الاستشهاد بمن لا شك في فصاحته كالذي ذكره أبو الفرج من طعن يونس في ابن قيس الرقيات مثلا .

علم الأوائل كله كان مداره على صحة الرواية عن مشافهة. وكان الحديث ادق العلوم رواية. وأعوصها طريقا فيها. وكان سيبويه شيخ النحاة رحمه الله قد طلب الحديث أول الأمر. ثم لما خطأه حماد بن سلمة في حديث "ليس أبا الدرداء" عدل الى درس النحو. فلم يكن ليستشهد على مسائل النحو بما لم يكن على معرفة حققة بوجوه صحة روايته من علوم الحديث. وقد عدل عن متابعتها كما ترى. وقد كان قرأ القرآن على حفظته ورواته ويذكر اسماءهم في كتابه. وقد روى الأشعار وسمع مشافهة من العرب. فعول على هذا الذي كان يعلمه ويعلمه علمائه. وقد كان عاصم بن أبي النجود، أحد شيوخ أبي عمرو [وهو شيخ سيبويه] حجة في القرآن جلس يعلمه بالكوفة أربعين سنة بعد أبي عبد الرحمن السلمي وهذا جلس من قبل يعلمه أربعين سنة وعن الصحابة الاجلاء أخذ - وذكروا أن عاصم لما أدركته الوفاة كان يردد قوله تعالى «ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق» يحقق القاف تحقيقا حتى قبض الله روحه. مع هذا لم يكن عاصم بحجة عند أهل الحديث مع إجماعهم على قرآنه وصلاحه وعلمه فتأمل .

ليس الأمر أن الحديث كان يروي بالمعنى، فلذلك لم يستشهد به النحويون كلا. كان من رواة الحديث رجال هم من جيل من يستشهد بكلامه بلاريب. كالشيوخ الذين عنهم أخذ الإمام مالك. وقد قيل ذلك في مالك نفسه وزعموا أن دجاجة جمع

دجال لم يعرفه أهل اللغة إلا منه في خبر يذكرونه له فيما بينه وبين ابن اسحاق ، وابن اسحاق ممن وثقه مسلم والبخاري . فلعل هذا الخبر ألا يصح والله تعالى أعلم . إنما ذكرناه استيفاء للحجة فيما ذكرناه من فصاحة أهل رواية الحديث الأولين الذين عنهم أخذ أمراء جرحه وتعديله ومعرفة صحيحه من ضعيفه .

وما أرى إلا أن سيبويه رحمه الله كان يعلم أحاديث كثيرة . ولكن تخرج ان يستشيد بها لم يجز عليه مشافهة . وكان في القوم دقة في التحصيل ، ومراقبة لله فيه ، وحرص على تجويد ما يقبلون عليه من عمل .

واقندى سيبويه من أخذوا الكتاب عن سعيد بن مسعدة وكان صدوقا . هذا - قدمنا أن عرفان العربية وتذوق جزالة أساليبها مما حفظ الله به كتابه . وقد وعد ووعدته الحق أنه حافظه . والقصيدة المحكمة هي المفتاح الأول لعرفان العربية وأهدى المسالك الى تذوق جزالة أساليبها . من أجل هذا ما استأنس الزمخشري بشعر أبي تمام وأبي الطيب وهو في معرض الإرشاد الى نكت بلاغة القرآن . وقد تعلم قوله أن المعري إنما يرى لقول الله تعالى «إنها ترمي بشرر كالقصر» حيث قال هو :

جـراء-ساطعة الذوائب في الدجى تـرمي بكل شرارة كطـراف

والمقامة على فضلها ، بين يدي القصيدة جارية تخدمها . وأبى الله ، وهو أعلم بمراده ودقائق حكمته . أن تزول القصيدة المحكمة ومكانها فيما وعد به من حفظ كتابه مكانها ، ولا سيما حين جعلت تحيط بدار الإسلام الغوائل ، وأشرعت الصليبية إليها الأسنة من رومها وروسها وفرنجتها وصقالبها وبلغارها وأصناف من عددهم أبو الطيب في شعره كقوله :

وكيف ترجى الروم والروس هدمها	وذا الطعن اساس لها ودعائم
وقوله : يجمع الروم والصقالب والبلد	فغار فيها وتجمع الأجيالا
وتوافيهم بهم في القنا الصم	م كما وافت ، العطاش الصلالا

وسددت التار إليها سهامها ، وخيف عليها كل الخوف من الاجتياح . في معركة بغداد سنة ٦٥٦ هـ وهي التي كانت القاضية على دولة بني العباس ، سقط بقريته صرصر وهي من سواد بغداد شهيدا مقبلا غير مدبر على ما كان من ضرره .

وما أعفاه الله به من مباشرة القتال ، الإمام يحيى الصرصري^(١) ، رحمه الله ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه - وهو الذي يقول :

ركب الحجاز ومنك الخير مأمول	هل عندك اليوم للمشتاق تنويل
علل بيا طاب للبطحاء من خبر	ذا الوجد إن كان يشفي الصب تعليل
هل ربة الستر بعد النأي دانية	أم حبلها بعد طول القطع موصول
أم هل تحل مطايانا بساحتها	وربعها الرحب بالأحباب مأهول
ونقتضى بالمصل والصفاء ومنى	دنيا تصرم حين وهو عمطول
وهل تجد بنعمان الأراك لنا	من المواهب أسمال رعابيل
وهل تحب بننا بين العقيق الى	سلع رواحل تحدوها الأراجيل
مضبرات القرى كوم كرائم لا	يسأمن من دأب قود مراقيل

رعابيل أى مزق ينظر فيه الى قول كعب :

تفرى اللبان بكفيها ومدرعها	مشقق عن تراقبها رعابيل
والأراجيل ينظر الى قوله :	
منه تظل سباع الجو ضامرة	ولا تمشي بواديه الأراجيل

وقوله مضبرات بالضاد المعجمة من التضبير وهو القوة والقرى الظهر وتأمل جودة رنين قوله "كرائم" مع سبق راء القرى من قبل ويجىء "مراقيل" من بعد وهي جمع مرقال والإرقال ضرب من العدو وبه سمى هاشم بن عتبة المرقال إذ كان يرقل بالراية في صفين وهو يرتجز

أعوور يبغي أهله محلا	قد عالج الحياة حتى ملا
يتلهم بذي الكعوب تلا	لا بد أن يفلا أو يفلا
وقال النابغة في البائية :	
إذ استنزلا عنهن في الحرب أرقلا	الى الموت إرقال الجمال المصاعب
مراقيل أى مسرعات	
بالنقى أعظمها والدر حالية	ومن كلال ومن هزل معاطيل

(١) أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري - ذكر صرصر ياقوت في البلدان أنها من سواد بغداد .

هكذا في طبعة المجموعة وأحسبه خطأ وقد فسره الشارح بأن النقي هو المخ والدر الحليب وأعظمها ضبطه ضبط اسم التفضيل بفتح الظاء بعد عين ساكنه وهذا كله لا يستقيم إذ لا معنى لأن تكون حالة بالحليب عظمها ، ثم معاطيل لأنها جمع لا تصلح خبراً لأعظمها إلا علي أن نؤول أن " أعظمها " عدده أكثر من واحدة أو تقدمه مبتدأ الوجه عندي أن البيت صوابه هكذا إن شاء الله .

بالنقى أعظمها والدو حالة ومن كلال ومن هزل معاطيل
فالهزل مقابل للنقى وهو المخ وكون أعظمها بضم الظاء أي عظامها فيها النقي دلالة على أنه لا هزل بها . والكلال مقابل الدو وهو القفر والصحراء وإذا كان الدو لها حليا مع مخ عظامها دل ذلك على مواصلتها للسير وهي قادرة عليه غير ذات كلال - فهي عاطلة من الكلال ومن الهزل .

خصوص لها أرب تحت الدجى وإذا أشد ———— تند المهجير وضم القسور الغيل
القسور الأسد ، وكانت في طريق الحج السباع والمخاوف ، فانظر كيف كان حرص المسلمين على أداء شعائهم فكيف أساء المعري حيث قال ما قال

تحكين نفث نعام راعهن ضحى زعر وينفرن والصوان مبتول
يلبزن صم الحصى لبزا ومدرجها خط عليه فمقروط ومشكول

كلا هذين البيتين فيها تحريف من ناسخ - تحريف كثير ولعل الصواب هكذا إذ هو أشبه بالمعنى والرسم يحتمله كالذي مر من " الدو " لما بين التواو والراء من شبه :

يحكين نفر نعام راعهن ضحى زعر وينفذن والصوان مبتول
ينبذن صم الحصى نبذا ومدرجها خط عليه فمقروط ومشكول

ذلك بأن النفاذ يماثله البتل أى القطع والنفر يشاكله الذعر ويناسبه واللبز باللام بعيدة لأن الحصى لا يلبز ولكن ينبذ أى يقذف ويرمى به

إذا الحداة بسلع عرضوا فلها على السجى ودوام السير تبغيل
نحن شوقا وأنى لا نحن إلى حمى الرسول النجيات المراسيل

فهذه المقدمة التي مرت ليست من قرى صناعة المقامات والبديع وأوصاف الشموع
وضروب العبت بالمحسنات واللعب اللفظي والمعنوي، ههنا أنفاس فحولة من الشعر
شبيهة بأنفاس فحول صدر الإسلام والمحدثين المشهود لهم بالتقدم، وكالقدماء لا يجد
الشاعر عسرا في الاستهلال بالديار والنسيب، إذ الديار التي تيمت قلبه ذكرها هي
الكعبة الشريفة والمشاعر والمعرف ومنى ورباع مكة المقدسات والقبر الزكي والروضة
والمسجد والحرم وأحد والبقيع وقبا ومشاهد دار الهجرة العظام.

تأمل هذا التعبير النبيل الجزل :

هل ربة الستر بعد النأي دانية أم حبلها بعد طول القطع موصول
وهل تجد بنعمان الأراك لنا من المواهب أسمال رعابيل
والشاهد قوله «من المواهب أسمال رعابيل» - فالأسمال الرعابيل من صفة الثياب،
والأسمال أيضا بقايا الماء في الركايا، وكل هذه الظلال من المعاني مرادة ههنا

قال المعري :

جلبت من الشامين أطيب جرعة وأنزرها والقوم بالقفر ضلال
يلوذ بأقطار الزجاجة بعدما هريقت لما أهديت في الكثر أمثال

يصف قبلتها أنها أطيب جرعة على قلتها حتى إنها لا تزيد على ما تبقى في أقطار
الزجاجة بعد أن يراق ما فيها

فلن زعموا أن الهجير استشفهم إليها فمنها في المزايد أسمال

أي بقايا، وما أرى إلا أن الصرصري رحمه الله يشير إلى ما ذكره أبو العلاء ههنا من
معنى المواهب، وكان لأولى الضرر خاصة بأبي العلاء فرط ولع وإن اختلفت مذاهبهم

لاتفاقهم في باب التعمق في اللغة وآدابها ، فهذا الذي صنعه الصرصري من خفي التضمين وبارعه .

وجلى أن الصرصري رحمه الله يجارى "بانت سعاد" وتستثير بصيرته بضوء قوافيها ومعانيها ، غير أن مجازاة الصرصري لـ «بانت سعاد» ههنا ومجازاة غيره من مداح الرسول صلى الله عليه وسلم لها ، كالבוصري في لاميته :

الى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول
وابن جابر الأندلسي في لاميته :
بانت سعاد فعقد الصبر محلول والدمع في صفحات الخلد مبدول

وجماعة غيرهم أورد من نظمهم في مجاراتها صاحب المجموعة النبهانية رحمه الله - وفيهم الزمخشري صاحب الكشف والفيروز ابادى صاحب القاموس - كل ذلك أريد به أول من كل شيء التبرك ، وذلك أن كعب بن زهير رحمه الله نال بها عفوا وجائزة وذكرنا حميدا وقد ضاهى في الجودة مذهب أبيه مع ما له من حرارة أنفاس الشباب - على أن أباه كما يعلم القارىء الكريم أصلحه الله ، شديد الأسر ، قوي الروح ، متين الأنفاس .
ولقد أحسن الإمام يحيى الصرصري إذ يقول في أخريات لاميته

ياسيد الناس في الدنيا وسيدهم يوم القيامة منك الخير مأمول
حبرت فيك قصيدا حسن مدحك في رؤوس أبياتنا الحسنى أكاليل

رؤوس الأبيات عنى بها الروى ، كما يقال للفواصل رؤوس الآى ، وجعل القوافي كالأكاليل لمقاطع الأبيات هنا ، لمكان هذا القرى في مدحة كعب ، وقد فصل هذا المعنى ووضحه في ما بعد :

نظمتها وزن من قد قال مبتدئا "بانت سعاد فقلبي اليوم متبول"
تبركا باتباعي ما نحاه ولم أبغ المضاهاة أين الطول والطول
لقد علا كعب كعب كل ممتدح فمن يفاضل يوما فهو مفضول

لعلها " فمن يفاضله " ومن جازمة ويجوز ما ههنا على معنى والذي " يفاضل " فهو مفضل وما أشبه أن تكون هاء الضمير قد غفل عنها في الطبع والتصحيح أو أخطأها الناسخ وذلك أن الرنة بها أقوى وأشبه بنغم الصرصري الفحل :

لقد علا كعب كعب كل ممدح فمن يفاضله يوما فهو مفضل
سبقا وفضلا وإنشادا مشافهة وبردة قصرت عنها السرايل
لكنني إن يك التسوييف قصر بي وقيل إنك مبعوث ومسئول

يشير الى قول كعب : " وقيل إنك منسوب ومسئول "

أقول للواعظ المهدي نصيحته أقصر في شافع في الحشر مقبول
محمد خير مبعوث بمرحمة وجاهه الغمر للراجين مبذول
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
ونلت القارئ الكريم الى قوله : « سبقا وفضلا وإنشادا مشافهة » ثم ذكر البردة فكل هذا شاهد كما ترى بمعنى التبرك .

وقد نهج البوصيري نهج الصرصري في الإقرار لكعب بن زهير بالسبق المطلق لأن كلامه عربي جزل أصيل - غير أنه أعطى نفسه فضيلة المشابهة له في أمرين ، أولا مدح الرسول صلى الله عليه واله وسلم خالصا فيه وثانيا رجاء العفو عند الله سبحانه وتعالى بجاهه عليه الصلاة والسلام ، وذلك أن كعبا قد استحق القتل قبل أن يتقدم بمدحته هذه فنال بها العفو والرضا والجائزة : قال :

ها حلة بخلال منك قد رقت ما في محاسنها للعب تحليل
جاءت بحبي وتصديقي إليك فما حبي مشوب ولا التصديق مدخول
أى كما حب كعب وتصديقه كانا غير مشوبين ولا مدخولين إذ وفد معتذرا وفي الناس من يتهمه بذلك كما يدل عليه قوله :

أنبت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذرا والعذر عند رسول الله مقبول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها موعاظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وقد كثرت في الأقاويل
كذلك أنا حبي غير مشوب وتصديقي غير مدخول وما سلكك مسلك كعب في الروي والبحر وأنا أبغي انتحال كلامه أنزين به . أو مباراته أباهي بذلك ولكني وجدتكم

غفرت له وحقنت دمه ففاز بمكانة الصاحب فهو لى بذلك قدوة وحسبي شافعا أنى
أرمني إلى غرض كغرضه وهو صدق المدح فيك والتماس العفو من الله بجاهك :
ها حللة بخلال منك قد رقت ما في محاسنها للعب تليل
جاءت بحبي وتصديقي اليك وما حبي مشوب ولا التصديق مدخول
ألبستها منك حسنا فازدهت شرفا بها الخواطر منا والمناويل
فتح التاء من ألبستها أجود وأشبه بمعنى البيت إذ منه الخواطر والمناويل (جمع منوال)
التي تم بها نسج القصيد وقد لبست حسنا من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم
فالنية هي التي أكسبت خواطره وملكته الشرف الذي ازدهاها فازدهت به - وهذا المعنى
ينظر الى قول الصرصرى

حبرت فيك قصيدا حسن مدحك في رؤوس أبياتها الحسنى أكاليل
والتشابه في أن مدحه صلى الله عليه وسلم هو المستمد منه الحسن ثم يقول البوصيرى ،
وهذا يقوي به معنى صدق حبه :

لم انتحلها ولم أغضب معانيها وغير مدحك مغضوب ومنحول
وما على قول كعب أن توازنه فربما وازن الدر المثاقيل
أى المثلقال وزن بعينه وليست موازنته لمقدار من الدر بجاعلته مماثلا له في القيمة
والحسن - وقد فسر مراده من بعد أن تقصيره عن كعب ليس في صدق المدح وجودته
ولكن عند كعب من الجزالة والفصاحة والأصالة في ذلك ما ليس عنده :
وهل تعادله حسنا ومنطقها عن منطق العرب العرباء معدول
وليس المولد مهما يسم قدره في هذا المدى ببالغ مبلغ العربي .

وما غاب عن الإمام شرف الدين فضل كعب بالصحبة والمشافهة والإنشاد، فهذا على
أنه ضمنه معنى عروبه الأصيلة وأنه نال العفو بما قال من رسول الله صلى الله عليه
وسلم عفوا مباشرا عن لقاء ، قد ذكره صريحا من بعد ، ولم يفصل فيه تفصيل الصرصرى
لما أغنى به هذا بوضوحه فيه عن كل مزيد - رحمها الله الرحمة الواسعة .
ثم يقول البوصيرى :

وحيث كنا معا نرمي الى غرض فحبذا ناضل منا ومنضول
الناضل كعب وهو المنضول كما تقدم من قوله :
إن أقف آثاره إني الغداة بها على طريق نجاح منك مدلول

لما غفرت له ذنبا وصنت دما لولا ذمامك أضحى وهو مظلوم
رجوت غفران ذنب موجب تلفي له من النفس إملاء وتسويل
وليس غيرك لي مولى أو ملىه بعد الإله وحسبي منك تأميل
ولي فؤاد محب ليس يقنعه غير اللقاء ولا يشفيه تعليل

فهذا شاهد قولنا إنه ذكر فضل كعب باللقاء صريحا

متى تجوب رسول الله نحوك بي تلك الجبال نجيات مراسيل
فأنثني ويدي بالفوز ظافرة وثوب ذنبي من الآثام مغسول
أما قوله رحمه الله «لم انتحلها» فقد نبه به على اختلاف الوجه الذي سلكه في مدح
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجه قصيدة كعب وإن تشابها في حسن الثناء عليه
وطلب العفو من عنده صلى الله عليه وسلم . وقد جعل البوصيري مكان النسب في
أول قصيدته طلب سبيل التوبة والاعتراف بالندم على ما فرط فيه :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مشغول
في كل يوم ترجي أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويق محلول
ومما يعجب في مطلع هذه القصيدة قوله :

فجرد العزم إن الموت صارمه مجرد بيد الأمال مسلول
واقطع حبال الأمانى التى اتصلت فلإنما حبلها بالزور موصول
هذا كقول كعب «ان الأمانى والأحلام تضليل»

أنفقت عمرك في مال تحصله وما على غير إثم منك تحصيل
ورحت تعمردارا لابقاء لها وأنت عنها وإن عمرت متقول
جاء النذير فشمير للمسير بلا مهل فليس مع الإنذار تمهيل
وصن مشيبك عن فعل تشان به فكل ذى صبوة بالشيب معذول
لا تنكرنه ففي الفودين قد طلعت منه الثريا وفوق الرأس إكليل

والثريا والإكليل كلاهما كما تعلم من نجوم السماء ثم أخذ البوصيري في طريق هو
خريته ولنا إلى ذلك أوبة إن شاء الله تعالى .

وقال ابن جابر الأندلسي الضرير :

وقد أتيت بضعفي ما أتاك به كعب على أن باعي ماله طول

هذا يقتدي فيه بيحيى الصرصرى

فإن قبلت ونالتني مراحم قد نالته لم يبق لي من بعدها سول
وإن كعبا علينا إذ غدا سيبا لكعب خير بيمن الله مشمول
ولبرهان الدين القيراطي رحمه الله (توفي سنة ٧٨١ هـ) لامية كعبية الروي نظمها نظم
علماء الفقه سنة ٧٦٤ هـ يقضى بها حق ما علمه الله بجهد منه يلتبس به الأجر
ويكون فيه زكاة له ، أولها :

جرح الجفون بقذف الدمع تعديل والحب شاهده المجروح مقبول
تأمل الجرح والتعديل - هاتان عبارتان من اصطلاح أهل الحديث . ثم القذف والقاذف
لا تقبل شهادته لكن الجفون إذا قذفت الدمع فجرحها قذفه حتى صارت تبكي دما
فذلك لها تعديل - وآخر هذا الاجتهاد الفقيري الوقيري بعد أبيات زدن على مائة ما
يدل على أن الشيخ الصالح لم يكن الشعر له فنا ولكننا اقتحم طريقه يرجو به لنفسه
صلاحا بمديح رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال :

يا سيد الرسل قد قدمت من كلمي مدحا محياه من ذكراك مصقول
صيرت لفظي لألفاظ الوري ملكا لتاجه بلآلى الزهر تكليل
لا يريد هنا افتخارا على الشعراء بأن لفظه كالملك بين ألفاظهم فالشيخ رحمه الله أقر
نفسا وأكرم تواضعا من ذلك . يقول كلفت لفظي أن يصير ملكا على هذه الألفاظ التي
يستعملها الناس فينظمها فتكون له تاجا من لآلى النجوم الزهر - بضم الزاي وسكون
الهاء - وأخذ المعنى من قول الآخر :

ليت الكواكب تدنولي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
إن كان أخذه .

بكم هديت سبيلا للمديح لكم أمسي امرؤ القيس عنه وهو ضليل
أى ضل عنه امرؤ القيس بشعر قاله في الباطل وحمل به لواء الشعراء الى النار - قالوا
وكان يكثر من وأد البنات خوفا من العار إذ كان محاربا محاربا فعل هذا هو سبب ترديه
في النار والله أعلم وعمل هذا من شنيع صنيعه يصحح أن البيتين :

فقد اختلس الطعنة لا يدمي لها نصلى

كجيب الدفنس الورهاء ريعت وهي تستفلي

له لا لامرء القيس الكندي الآخر - (ابن عباس) لما فيهما من الدلالة الخفية أن هذه
الدفنس هي المؤودة .

وقد قدمت بأبياتي عسى سبب أنجوبه محكم الإبرام مفتول
السبب الحبل والإحكام والإبرام من نعوت الحبال لا من قولهم محكمة النقض والإبرام
فهذا من استعمالات عصرنا

لولاك يأبها البحر البسيط ندى ماطاب لي في بحور الشعر تفعيل
وكانه رحمه الله كان يترنم بكل بيت ويقطعه وينظر ذلك بتفعيل

والقول ما قاله كعب وإن حسنت من المعارض في المدح الأقاويل
أي مدح رسول الله عليه الصلاة والسلام لكعب القدم الأعلى ففاضلنا
ولى وإن فاق حسن النسج منه على أذبال بردته العلياء تسذيل
رحمه الله وأثابه خيرا

وقال شمس الدين النواجي من رجال المائة التاسعة (توفى ٨٥٩هـ) وشعره متوسط
يذكر كعبا في أخريات كلامه :

قدمت بين يدي نجواي من كلمى هدية فضلها لي منك مبذول
لامية راق معنى مدحها ولها من بحر جودك يوم العرض تنويل
فبحرها وقوافيها اذا انتظمت كأنه منهل بالراح معلول
في بعض أوصاف خير الخلق قد قصرت باعي وان كان نظمي فيه تطويل
هذا من اتباع للصرصري

ولم أعارض بقولي من تقدمني منهم وان عذبت مني الأقاويل

لايعنى أنها عذبت فيمدح بذلك نفسه ، ولكن على معنى على تقدير التسليم بأنها
عذبت منها الأقاويل

كعب له في مديح المصطفى قدم سباقية وبخير الخلق تفضيل
يعنى بلقبائه وإنشاده أمامه ومشافهته له صلى الله عليه وسلم.

وروضة ابن زهير طاب مغرسها فزهرها بندى كفيه مطلول
وإن نسجت على منوال بردته طراز مدح له بالدر تكليل
فإنه كان مفتاحا لباب هدى لنابه في ديار الخلد تأهيل
إن لم أفز بقبول في متابعتي «بانت سعاد» «فقلبي اليوم متبول»

ولانريد بعد أن نستقصى ذكر كعب في ما جوريت به لاميته المباركة . غير أنه عسى ألا
 تغفل في هذا الباب - باب مجارة الفقهاء ومشايخ اللغة لكعب رضى الله عنه - عن
 لاميات الزمخشري وأبي حيان الأندلسي وصاحب القاموس مجد الدين الفيروز ابادى .
 وثلاثتهم لم يشيروا الى كعب اكتفاء بظهور ذلك من ركوهم بحره ورويه أما الزمخشري
 فمطلع كلمته :

أضاء لي بالنوى والقلب متبول نجدي برق بنار الحب موصول

ولم يسلم في أولها رحمه الله من جهد عمل واستقام له الروي في آخرها ، لإفصاحه عما
 تضمنه فؤاده من حماسة وغضب للحق - قال :

يا خاتم الرسل إن الطُّول منك على راجي الشفاعة يوم الحشر مأمول
 فهل يجيب فتى لا حبل ذمته واه ولا عقده في الصدق محلؤل
 ولا اشتكت دخلا منه مناصحة ولا مناصح إلا وهو مدخول

فهذا تعريض بالخصوم كما ترى .

ثم مضى غاضبا على سبيل التعريض وشكوى الخصوم الى الرسول صلى الله عليه
 وسلم :

مامست الكأس يمناه ولا صدمت فاه وكلهم بالراح معلول
 والعرض ريط يمان في الصوان وإن تملك يده مصونا فهو مبذول

قوله والعرض ريط يمان عبارة فصيحة ومعها صدق يصل إلى القلب ينبىء به عن حال
 نفسه في العفاف .
 ثم يقول :

وإن يل العمل المسخوط آونة فبينما العمل المرضي معمول

وعجيب من يلتمس الشفاعة أن يعتذر بهذا الاعتذار الذي تحالطه أرواح اعتزاز عما
 بدر منه من الذنوب . ولا يخفى أنه يضمن قوله هذا نوعا من الإشارة الى قوله
 تعالى : « وءاخرن اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وءاخر سيئا عسى الله أن يتوب
 عليهم إن الله غفور رحيم » [التوبة] وقوله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك
 ذكرى للذاكرين » [هود] .

ومكان الاعتزاز أنه جعل ذلك له حقاً . وكان أشبه بما هو بسبيله من التعبد بالمديح النبوي أن لو غلب التواضع والتسليم لله ، والتعويل كل التعويل على تأميل النجاة من طريق الشفاعة ، لا من طريق أن ما عمله من مسخوط سيمحوه أن ذلك قد وقع منه «بينما العمل المرضي معمول» . وإنما يذهب العمل المرضي بالعمل المسخوط إن صحبه القبول من المولى تعالى وصحب هذا العفو . وعمل قوله «المرضي» يحتمل شيئاً من الدلالة على القبول والله تعالى أعلم .

وطاء أعقاب قوم ما لهم عمل في نصره الدين والإسلام مجهول لهم ضمائر للتفكير قارعة . وألسن كلها بالذكر مشغول عنى بهؤلاء المعتزلة أنهم أهل فكر في خلق السماوات والأرض . وأنهم أهل ذكر بما أتقنوا من أبواب علوم الكلام . وأصل هذه المعاني من الجاحظ أن المعتزلة كانوا هم الحارسين للدين الذابين عنه بما انتصوا دونه من سيوف حجة الكلام .

موحدون إلهها أنت صفوته مصدقوك فلا غالتهم غول
يشير الى مقالة المعتزلة أنهم أهل العدل والتوحيد . وقوله «أنت صفوته» رجع فيه الى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يخلو في هذه الالتفاتة من إدالة بتوحيده مخالطها حب لنبيه صلى الله عليه وسلم . وله في ذلك صوت بالصدق الصارح جهير ، جهارة جانب الخطابة والمقولة العقلية أقوى فيها من جانب الحرارة الشعرية . وقوله :
«فلا غالتهم غول» من قول عبدة بن الطبيب :

ان التي ضربت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول

ولا يصلح «غالتهم غول» في الموضع الذي وضعها فيه الزمخشري كصلاح «غالت ودها غول» ههنا - على ما احتال به الزمخشري من مذهب الدعاء وما عناه من الإشارة والتضمين .

أم لا يخلو رحمه الله في مجيئه بقوله : «فلا غالتهم غول» - بما فيه من دعاء وإشارة وتضمين - ههنا من نوع اعتذار عن هذا الاعتزاز بالاعتزال والدفاع عن الفرقة القائلة به؟ وكأنه ههنا يلتفت من خطاب النبي صلى الله عليه وسلم والتقرب إليه ، إلى هذا الاعتذار ذي الاعتزاز والافتخار معا ، ذي المظهر المتحدي بالاعتزال لسائر من حوله من أهل السنة ، المتراجع ، أو كالمترجع عن التحدي بهذا الدعاء :
..... فلا غالتهم غول

في نفس الوقت .

هل كان الزمخشري معتزلاً حقاً؟ أم هذا الاعتزال حلة جعلها مظهر لقوة شخصيته وحرية فكره واعتداده بخلافته سيويوه وجهابذة لغة العرب وفحول البيان المتقدمين؟ إن زال عن رمى أغراض الهدى فرق تلهو مضللة قالت لهم زولوا هل عنى أهل السنة؟ استبعد ذلك . وأشبه أن يكون عنى أعداءه الذين تسببوا في أخذه بسبيل الهجرة . وقد ضمن ههنا قافيته من قول كعب :
في فتية من قريش قال قائلهم يبطن مكة لما أسلموا زولوا
إلا أنه قد انحرف بالتضمن شيئاً عن وجهه ، إذ قائلو القولة «زولوا» في بيته هم الفرقة المضللة وعند كعب هم أهل الهدى

فقوس قومي بالتقوى مـ وترة وسهمهم باتباع الحق منصول

وفي هذين البيتين اللذين جعلهما خاتمة القصيدة ، على جودة معناهما وملاءمته لأن يكون من باب حسن المقطع ، تعب تكلف في الصياغة . يشهد بذلك أنه احتاج إلى وصف الفرق وهي في آخر صدر البيت : «إن زال عن رمى أغراض الهدى فرق» بجملتين أولاهما وصف ثالث هو الحال - مضللة - والجملة الثانية «قالت لهم زولوا» غير واضحة لملاءمة الصياغة لما قبلها . وكأن أصل المعنى : «إن زال عن رمى أغراض الهدى فرق قالت لهم زولوا فإنهم لم يزولوا عن ذلك لأن أقواسهم موترة بالتقوى ولها نصول من اتباع الحق» ثم جاءت الجملة «تلهو مضللة» معترضة . وهو مذهب خطابي مستقيم في جدل الكلام ، ولكنه ذو تعسف وتكلف في طريقة الشعر .

لأريب أن الزمخشري بعيد كل البعد عن التقية . إلا أن يكون قد اتخذ من مظهر الاعتزال ستراً لبعض التشيع . . بعض يسير ، ربما ، - لا كما صنع ابن أبي الحديد من بعد إذ يزعم أنه من أهل العدل والتوحيد وهو محتب في بجوحة من الرفض .

أبو العلاء ذو التقية والتهيب أشعر شاعراً بمدى بعيد من الزمخشري ، مع قوة الشبه بينهما في علم العربية واللغة وفهم أسرار البيان . وزمان ما بين الرجلين غير جد بعيد . ولعل القارئ الكريم ذاكر ههنا في هذا الموضع ما كنا قلناه من أن قضية الصدق في الشعر - أو قل الصدق الشعري - من أعسر القضايا وأعوصها لمن يروم لها شرحاً وتوضيحاً . لا يكفي في وصف الصدق الشعري أن يقال إنه حماسة وطرح تهيب وغرف من تجارب النفس .

لابد مع ذلك من طرب وترنيم إيقاع وذهول عن هذه النفس التي بها الصدق ولها طرح
التهيب وعنهما التعبير. من هذا كله عند المعري ذي التقية والدهاء والمراوغة قدر عظيم
هو الذي به تفوقه شاعرا ومزاحمته للفحول. وفي مثل قوله :

خليلي لا يخفى انحساري عن الصبا فحلا إساري قد أضر بي الربط
ولي حاجة عند العراق وأهله فإن تقضيها فالجزاء هو الشرط
وفي مثل قوله :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهلني بالعراق على شفا رزي الأماني لا أنيس ولا مال
مقل من الأهلين يسر وأسرة كفى حزنا بين مشت وإقلال

من صدق الشاعرية (ترنمها وطرح تهيبها وغرفها من تجاربها وذهولها) ما ليس شيء مثل
شيء منه عند الزمخشري رحمه الله . شعر الزمخشري رحمه الله شعر العلماء والمعري شاعر
أولا، على تبخره في العلم وبين العلماء .

هذا : وكان أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي نزيل مصر (توفي ٦٨٤ هـ) ممن يرون
كالزمخشري من قبل أنهم آلت إليهم خلافة سيبويه وعلم كتابه . وكان صاحب تفسير
ذا بسط فيه وهو البحر المحيط . وفيه من النحو مسائل وأقاويل . ولكثير من معاصرنا
به شغف ولأصحاب رسائل الجامعات الآن عليه أيما عكوف . وجامع البيان أمبلا
بغرائب مسائل النحو من البحر المحيط لما عند ابن جرير من قوة ميل إلى طريقة
الكوفيين مع حذقه أقاويل نحاة البصرة ، الخليل والأخفش وسيبويه وأصحابهم انظر
مثلا وقفته عند الآية : « قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة آية الأنعام »
فإن له فيها تفصيلا أكثر مما في معاني الفراء ، جاء فيه بمقالات من سيبويه ومن أبي زيد
الأنصاري وغيرهما . وما خلا أبو حيان رحمه الله من بعض غفلات سذاجة العلماء ،
كما في تفسيره قوله تعالى من سورة : " والضحي " : « ووجدك ضالا فهدى » إذ زعم أن
تفسير « ووجدك ضالا فهدى » قد أهمه ثم إنه غفا فرأى في المنام قائلا يقول له إنها على
تقدير حذف مضاف أي وجد رهطك ضالا ، فصحا فكتب ذلك على الفور أو كما
قال ، وله قصيدة طويلة يذكر فيها علمه بسيبويه ويعرض ببعض معاصريه من أهل
مصر . وقد كان له بأندلسيته اعتزاز - وكانت الأندلس ثغر جهاد ، فمن شَرَّق منها يريد
الحجَّ كان بذلك جامعا بين الغزو وأداء الفريضة فتانك فضيلتان يزيد بهما على أكثر

قَصَاد البيت من أهل المشرق . قال في اللامية التي جارى بها كعبا رضي الله عنه :

وإذ قضيت غزاة فأتنتف عملا للحج فالحج للإسلام تكميل
واصل سراك بسير يا ابن أندلس والطرف أدهم بالأشطان مغلول

يعني السفينة - ينظر بعض النظر إلى قول أبي الطيب يصف سفن سيف الدولة :

دهم فوارسها ركاب أبطنها مكدودة وبقوم غيرها الألم

وأصل دهم أبي الطيب من دهماء علقمة التي حاركها بالقتب محزوم .

ثم يقول في نعت سفينته التي هي طرف أي حصان أدهم مغلول بالأشطان أي الحبال :

يلاطم الريح منه أبيض يقق له من السحب المريد إكليل
يعلو خضارة منه شامخ جلل سام طغى وهو بالنكباء محمول
أحسب أن الصواب «سام طفا» بالفاء أخت القاف لا الغين المعجمة أخت العين
المهملة - حتى يقول من بعد :

ما زالت الموج تعليه وتخفضه حتى بدا من منار الثغر قنديل
فكبر الناس إعظاما لربهم وكلهم طرفه بالسهد مكحول
وصافحوا اليد بعد اليم وابتدروا سبلا بها لجناب الله توصيل
ثم يقول :

يسوقهم طرب نحو الحجاز فهم ذوو ارتياح على أكوارها ميل
شعث رؤوسهم ييس شفاههم خوص عيونهم غرث مهازيل

لأبي حيان كما للزنجشري شخصية قوية . غير أنه دون الزنجشري حدة ذكاء ووقدة حماسة
صدق ألا أن عنده نشوة طرب وليست نشوة الطرب وحده ببالغة مبلغ إichاء رنات حاق
الشعر ههنا أيضا أمر فيه استعصاء على الشرح والتوضيح كأمر الصدق الشعري .
هذا وأول قصيدة أبي حيان فيه نظر إلى أول كلمة ابن زريق :

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
وهو قوله :

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول العقل مختبل والقلب متبول

وكانت عينية ابن زريق كأنها نظمت بالأندلس^(١) وقول أبي حيان: «فما ذو الحب معذول» ضعيف جدا. إذ أكثر ما يعذل أهل الحب - ولله در البوصيري إذ يقول:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة
منى إليك ولو أنصفت لم تلم
وقول ابن زريق «فإن العذل يولعه» تنمة حسنة لما بدأ به. وما يعجب من عينيته، وكلها معجب، مقالته هذه الحزينة جدا في أولها:

جاوزت في نصحه حدا أضربه فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا قد كان مضطلعا بالخطب يحمله يكفيه من روعة التفنيد أن له ما أب من سفر إلا وأزعجه تأبى المطالب إلا أن تكلفه كأنها هو في حل ومـرتحل وما مجاهدة الإنسان واصله قد قسّم الله بين الناس رزقهم لكنهم كلفوا حرصا فلست ترى والحرص في الرزق - والأرزاق قد قسمت والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه أستودع الله في بغداد لي قمرا	من حيث قدرت أن العذل ينفعه من عنفه فهو مضنى القلب موجهه فضلعت بخطوب البين أضلعه من النوى كل يوم ما يروعه عزم إلى سفر بالرغم يزمره للرزق سعيًا ولكن ليس يجمعه موكل بفضاء الله يذرعه رزقا ولا دعة الإنسان تقطعه لم يخلق الله مخلوقا يضيعه مسترزقا ومدى الغايات يقنعه — بغي ألا إن بغي المرء يصصره عفوا ويمنعه من حيث يطمعه بالكرخ من فلك الأزرار مطلععه
--	---

وكان موضع ذكر هذه الأبيات في مكان مما تقدم أو مكان أنسب مما يلي وعسى أن يكون موقعها ههنا بين أشعار هؤلاء العلماء، قبل أن نصير إلى حاق شعر المديح النبوي عند مجيده، مما يستراح إليه، عملا بمذهب أمير الأدباء وشيخ أهل التأليف أبي عثمان رحمه الله.

(١) وإنما نظمت ببغداد وألحقت بها أسطورة أندلسية وأحسبها في طبقات السبكي بسند قوى.

هذا وعلى ما كان بين الزمخشري وأبي حيان من شبه ، كان بينهما نوع من تنافر ، كأن أبا حيان ، وزمانه متأخر عن زمان الزمخشري بنيف ومائة سنة ، كان يغار من سمعة هذا وما أحرز من منزلة في مراتب أهل اللغة والتفسير والنحو . وقد تتبعه في مواضع مما جسر به كتلحينه قراء أبي عمرو بإدغام الراء في اللام ، وتخطئته أبا شعيب السوسي في مفصله حيث أدغم الضاد في الشين في آية النور . وما عدا الزمخشري في الذي صنع مذاهب القدماء . ونقد القراءات عند ابن جرير كثير لا يرى بأسا في أن يصرح باستحسان ما يستحسن منها وكراهية ما لا يستحسن . وغلب على المتأخرين اتباع سبعة ابن مجاهد والثلاثة المكمل العشرة . ولأبي حيان تسليم ورع في هذا الباب . وعنده رحمه الله من بركة أهل السنة وانكسار تواضعهم . اختلاط ذلك بما لعلماء اللغة والنحو من شراسة تباه أحيانا كثيرة من العجب . ثم كانت لأبي حيان جمحات شاعر ربما خرجت به من طريق التعبد بالمدح النبوي إلى المألوف من أساليب الشعراء في الوصف والنسيب - قال مثلا في أوائل القصيدة :

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول	العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمرا من خوط قامتها	فما اثنى الصب إلا وهو مقتول
جميله فصل الحسن البديع لها	فكم لها جمل منـه وتفصيل
فالنحر مرمرة والنشر عنبرة	والشعر جوهرة والريق معسول
والطرف ذو غنج والعرف ذو أرج	والخصر مخطف والمتن مجدول
هيفاء ينبس في الخصر الوشاح لها	درماء تخرس في الساق الخلاخيل
من اللواتي غذاهن النعيم فلا	يشقين أبأؤها الصيد البهاليل

ثم يقول بعد أن استمر به الغزل شوطا رحمه الله :

فعد عن ذكر لبنى إن ذكر كهـا على التثائي لتعذيب وتعليل

ولعل الغزل الذي مر مناسب لما صار إليه بعد من ذكر الجهاد - ثم هو مناسب لما كان عليه آخر الأندلس من قتال الكفرة المستمر :

فشق حيزوم هذا الليل ممتطيا	أخا حزام به قد يبلغ السول
أقب أقود يعزى للوجيه له	وجه أغرو في الرجلين تحجيل
حفر حوافره معر قوائمه	ضمر أياطله والذيل عثكول

أما صاحب القاموس مجد الدين الفيروز آبادي ^(١) فقد كان من معرفة غريب اللغة لدى ذروة شاهقة إلا أنه كان عظيم الثقة بما يقول كثير التعقّب للجوهري وقد لهج بنقد صاحب الصّحاح لهجاً، والعلماء مجمعون على تقديم الصّحاح على سائر ما صنّف بعده من المعاجم، والقاموس من أنفس المراجع واخصرها وأوضحها وأكثرها فوائد وغناء.

من شواهد عظيم ثقة الفيروز آبادي بما يقول مقدّمته التي يقول في تحميدها «الحمد لله منطلق البلغاء باللغة في البوادي ومودع اللسان ألسن اللسن الهوادي ومخصص عروق القيصوم وغضى القصيم بما لم ينله العبر والجادي»، ثم بعد سجعات إنما من كقواف لالتزامه روبا واحدا قال في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «باعث النبي الهادي، مفحما باللسان الضادي كل مضادي» ^(٢) مفحما لا تشينه الهجنة واللكنة والضوادي، محمد خير من حضر النوادي وأفصح من ركب الخوادي ^(٣) وأبلغ من حلب العوادي ^(٤)، بسقت دوحة رسالته فظهرت على شوك الكوادي ^(٥) واستأسدت رياض نبوته فعبت في المأسد الليوث العوادي صلى الله عليه وسلم عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الدآدي الخ»
فمما قاله في نسيب القصيدة وأولها:

هل حبل عزة بعد البين موصول أو بارق الوصل بين البين مأمول
وهذا كمطلع كلمة عبدة بن الطيب
هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
وكانه يوهم بمجاراتها دون لامية كعب وجاء منها بقوله:

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل
ولكنه اقتدى بكعب بلا ريب - إذ جاء له:
إن الصباية بعد الشيب تضليل

(١) ولد بفارس سنة ٧٢٩ هـ في ربيع الثاني وتوفي باليمن يزيد في ٢٠ من شوال سنة ٨١٧ أو ٨١٦ هـ.

(٢) مضادي، مخالف

(٣) الخوادي: الإبل من خدى البعير يخدي.

(٤) العوادي: الإبل

(٥) الكوادي هي الكدى أى الأراضي الصلبة. عيت: أعجزت وأعيت. الدآدي الليال المظلمة وهي ليال آخر الشهر وهكذا فسرها صاحب القاموس في باب الهمزة مفردا دأداء ودنداء ودؤدؤ بتثليث الدال الأولى وفتح الثانية أو ضمها.

فهذا من كلام كعب ، وله :

والأمر من ربه لا شك مفعول

وهذا من كلام كعب - وقال :

وقال جيهلا قد رام جابر كرم سؤرا فسيروا إليه يا عياهيل

وهذا من قول كعب : « قال قائلهم ببطن مكة » ، والحديث هنا في كلام مجد الدين رحمه الله عن شاة جابر رضى الله عنه

وقوله : « إلا وفيها حصاة منه زهلول » من قول كعب : « أقراب زهاليل » وهذا باب يطول فمما قاله في نسيب القصيدة وأغرب :

وليلة بت ذا حزن وذا قلق	والدم والدمع مطلول ومهطول
وخامر النفس من تردد زفرتها	هول وخبل وعلعول وعقبول
أما وعيني في الهجران تسلفها	بالدمع دجلة والسيحون والنيل
قد حفلتها حفولا طفلة كملت	في الحسن قد صانها لطف وتحفيل ^(١)
رقراقة بضة حوراء هيكله	دعجاء بلجاء زانتها الأكاليل
رعبوبة رثدة لفاء هيضلة	شبناء لمياء مثواها البراغيل ^(٢)
نجلاء برجاء هيفاء مخصرة	شما قنواء بين الغيد عطبول
خود مهفهفة عطا هبنكة	هركولة وثناياها معاسيل ^(٣)
والخلق ذو بهج والخلق ذو غنج	والطرف ذو دعج والثغر معسول

(١) حفلتها ملأها بالدمع

(٢) الهيضلة النصف كما في القاموس وينبغي أن يكون عنى بها أنها جسيمة كأنها نصف والبراغيل قرى الريف واحدها برغيل بكسر الباء .

(٣) عطا أى عطاء بتشديد الطاء المهملة أى طويلة . هبنكة بتشديد النون أى ذات كسل .

والوجه ذو بلج والثغر ذو فلج
والخصر في زعج والقلب في دمج
مياسة لو تمشت عرقلى نزلت
إن الحمايط من صدغيك قد لسعت
لبانة منك يا لمياء لو قضيت
فتأمل أصلحك الله .

ولصاحب القاموس ولع بذكر ما له معان من الإحماض - ذلك جلي في القاموس قلت
كلمة تخلو مما يمت إليه كل الخلو
وقال في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :
وأبلج الوجه هلقام له شمم

وأدعج العين مـزدان بها الميل
الميل المروء . الهلقام الأسد . والإغراب في الهلقام كما ترى . أبيات المدح على الجملة أقل
إغرابا مما قبلها ونظم فيها من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم عددا . وأسلوب
القصيدة شعر علماء . وسط . فرحه الله وأثابه .
هذا -

واعلم أيها القارئ الكريم أصلحك الله أن نقادنا أهملوا باب المديح النبوي وقسمتهم
لأطوار الشعر العربي بعد زمان صدر الإسلام هكذا :

(١) العصر العباسي الأول

(٢) العصر العباسي الثاني

(٣) العصر العباسي الثالث

(٤) عصر الإنحطاط

(٥) النهضة

(٦) العصر الحديث

- (١) قوله في دمج أراه تحريفا صوابه رهج والخمخ هنا مقارب لمعنى الغنج . مرطول مدهون .
(٢) العرقلى كالحيزلى . العرقال في القاموس من لا يستقيم على رشده ويمكن حمل المعنى هنا عليه وهو بعيد وأراه محرفا من
عرقاة أى أصل عروق القلب : «عرقاة قلبى»
(٣) الحمايط جمع حطيط بفتح الحاء أى الحية وأراد عقارب الصدغ اذ الحية تلدغ والعقرب تلسع ومثل هذا جائز فقد
سموا القدم حافرا في ضرورة الشعر والحماطة سواد القلب ، ذكرها المعرى في أول رسالة الغفران .

ولا يخفى أن هذه القسمة تتضمن عنصراً من الرغبة المريضة أن يتسبب الناس إلى أوروبا وحضارتها وأن يكونوا امتداداً منها وجزءاً لا يتجزأ. الأوروبيون يؤرخون عصورهم هكذا:

- (١) العصر الكلاسيكي وينتهي بسقوط رومة سنة ٤٧٦ م
 - (٢) العصر المظلم من ٤٧٦ م إلى القرن التاسع الميلادي
 - (٣) العصر الأوسط من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الخامس عشر الميلادي
 - (٤) النهضة القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر الميلادي
 - (٥) العصر الحديث، القرن السادس عشر الميلادي
- فالحافظو بيت الشاعر وهو السهروردي:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فصلاح
أو معناه، شبهوا سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بسقوط رومة. ثم ران الظلام. ثم جاءت النهضة. ثم هانحن أولاء في العصر الحديث. والتأريخ الإسلامي والعربي معاً يكذبان هذه التصنيفة الخاطئة لعصورنا. لقد كان أخذ التتار بغداد وإخراهم لها كارثة. ولكنه قد قامت بعد بغداد دول إسلامية قويات. وامتدت رقعة الإسلام. ونبع فيها العلماء والأدباء. ما بني التاج محل ولا مراصد سمرقند إلا بعد سقوط بغداد. وازدهر الإسلام. وتمبكتو في القرن التاسع والعاشر الهجري. وازدهرت بلاد المغرب بالمعارف والعلوم وضروب ما ينسب إلى الحضارة وتنسب الحضارة إليه من القرن الخامس إلى أن تغلبت أوربة بدفعة الاستعمار في القرن الماضي الميلادي. وانتشر الإسلام في بلاد جاوة والماسين وقرع العثمانيون أبواب فينا بصلاصل الحديد. وفي هذا العصر الذي يقال له عصر الانحطاط برز السيوطي وابن حجر وابن تيمية وابن القيم وابن الخطيب وابن خلدون وهذا بعد باب واسع. وفي الشعر كان في هذه الفترة شعراء المديح النبوي المفلقون. وهؤلاء أهمهم المستشرقون عمداً وهم في ذلك معذورون. من يلوم مستشرقاً على ألا يؤرخ لمن يقول:

جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشراً فادعوا من جهلهم لله فيه حلولا
ولكن المسلمين غير معذورين إذ أهملوا درس هذا الشعر. ونحن هاهنا إنما نريد أن ننبه على مكانه. ثم هو جزء جوهري من تأريخ الشعر العربي، إهماله خطأ في باب الدرس.

عظيم . ورحم الله الدكتور زكى مبارك وأسكنه فراديس الجنان ، فقد نبه على مكان المديح النبوى بكتاب له فيه . ورحم الله شوقيا والبارودي وجيلهما رحمة الله عليهم ورضوانه فقد انتفعوا بالمديح النبوي ونفعوا به ، على من قيل فيه أفضل الصلاة والتسليم .

أطوار المدحة النبوية وبعض أمرها :-

أطوار المدحة النبوية على وجه التقريب لا الحصر أربعة ، طور الدعوة ، طور السياسة ، طور التعبد الممهد ، طور النضج الذى جعلها سيدة القصيد بعد أن ذهب بهاء قصيدة المدح وما يمت إليها .

أما طور الدعوة فقد كانت قصيدة المدح النبوي فيه جزءا لا يتجزأ من الشعر العربي آنئذ ومن أقدم ما وصلنا من قصيد الدعوة ما نسب إلى أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأشهر ذلك جميعه القصيدة اللامية التى يقول فيها :-

كذبتهم وبيت الله نبزى محمدا ولما نطأ عن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل (١)

ومنها وهو بيت مشهور:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

مقال ابن هشام إن أكثر أهل العلم ينكرونها له لا ينفياها به كلها ولكن أكثرها إذ هي ذات طول . ولا بد لذلك من أصل وقد رواها ابن اسحاق عن مصادر روايته وابن اسحاق وثقه الشيخان . والذين روى عنهم ابن اسحق من جيل العرب الخلف من أخذوا عنه صحيحه ومنحوله يستدل به بلاريب .

ومن شعراء العرب ممن لم يسلم ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعشى الكبير وكلمته مشهورة :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

وأدخله بها أبو العلاء فردوس رسالة الغفران .

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر والرجز جماعة . ومن كان مع المشركين يهجو المسلمين ثم أسلم وحسن إسلامه ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة كأبي سفيان بن الحارث وعبدالله بن الزبيرى وكعب بن زهير صاحب اللامية الغراء .

(١) أولها فيها ذكروا:

خليل مــــا أذننى لأزل عــــاذل بصــــواء فى حق ولا عند بــــاطل
وأوردها البغدادى مشروحة فى الخزانة (طبعة بولاق) ج ١ - ٢٥٢ واعتمد على شرح السهيلي فى الروض الأنف .

أما الأنصار فمع ما قدمناه من أن شعرهم جزء لا يتجزأ من شعر العرب في أول الإسلام فإنه كان مختلفا عن شعر الأيام والنقائض والمفاخرات بأنه كان ملتزما بالقرآن والدعوة - كقول عبدالله بن رواحة رضى الله عنه :

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أن ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما أتاك من حسن تثبت موسى ونصرا كالذى نصروا
ومما ينسب إلى حسان رضى الله عنه :

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأئذ لنا نارا وبشر جنة وعلمنا الإسلام فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربى وخالقى بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا سواك إلهها أنت أعلى وأجد

وقد اضطر شعراء قريش والمشركون إلى مواجهة الدعوة بما ينقضونها به . وقد نهى الإسلام في أيام بدئه عن رواية أشعارهم ، ثم لما ضرب الإسلام بجران تذوكر منها ، من ذلك فإن مثلا مما قيل في رثاء قتلى بدر (وقد مر الاستشهاد به أو ببعضه وهو من الرثاء المبدوء بنوع من النسب) :-

ألت بالتحية أم بكر فحيوا أم بكر بالسلام
ألا يا أم بكر لا تكبرى على الكأس بعد أخى هشام
وبعد أخى أبيه وكان قرما من الأقوام شراب المدام

فجعل شرب المدامة فضيلة وكان الإسلام آنذ قد ذمها إلا أنها لم تحرم إذ قيل هذا الشعر وحمزة سيد الشهداء رضى الله عنه حي ويبدد فعل بالقوم الأفاعيل .

ألا من مبلغ الرحمن عنى بأنى تارك شهر الصيام

فإن صح هذا البيت له فقد جاء بالرحمن سخرية ومغاظة - قال تعالى ، «وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله الا هو عليه توكلت وإليه متاب» - وكان رمضان قد فرض

إذا ما الرأس زایل منكبيه فقد شبع الأنيس من الطعام

هذا على مذهبههم . قال تعالى : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت»

أيوعدنا محمد أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

هكذا رواية البخاري للبيت وكنت أحسب أن رواية البيت ما في رسالة الغفران «أيوعدنا ابن كبشة» وأن أصحاب الحديث حوروه تأدبا، وبعد التأمل أرى أن رواية أصحاب الحديث هي الصحيحة، وكانوا أهل دقة، وقد رووا من كلام المشركين ألفاظا . ولم يكن اسم الرجل الذي نيزوا بمشابهة أقواله نبينا عليه الصلاة والسلام كبشة ولكن أبو كبشة ولا يستقيم الوزن بابن أبي كبشة، فيكون الشاعر جاء به كما رواه البخاري وكما في السيرة . كان أبو كبشة فيما رووا يعبد الشعري . وفي كتاب الله : «وأنه هو رب الشعري» - فستان مقال النبي صلى الله عليه وسلم إذ دعا قومه ومقال أبي كبشة . وقيل أبو كبشة كنية السعدي زوج حليلة، ويجوز، وهذا ليس مما ينز به أحد، وإشار أبي العلاء هذه الرواية مما ينس ببعض ما كان يخامره رحمه الله وعفا عنه، فقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في رسالة الغفران على لسان جنه حيث قال :

مكة أقوت من بني الدريس	فما لجنبي بها من حيس
وكسرت اصنامها عنوة	فكل جبت بنصل رديس (١)
وقام في الصفوة من هاشم	أزهر لا يغفل حق الجليس
يسمع ما أنزل من ربه الـ	قدوس وحيا مثل قرع الطيس (٢)
يجلد في الخمر ويشتد في الـ	أمر ولا يطلق شرب الكيس (٣)
ويرجم الزاني ذا العرس لا	يقبل فيه سؤلة من رئيس
وقال حسان رضي الله عنه :	

(١) كل جبت أي كل صنم مردوس أي بفأس

(٢) أي مثل قرع النحاس

(٣) الكيس : النبيذ، كان المعري ينكر بهذا على من أجاز شرب النبيذ .

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء
 ينازعن الأعنسة مصغيات على أكتافها الأسل الظماء
 تظل جيانا متمطرات تلطمهن بالخمير النساء
 قالوا لما دخلت خيل المسلمين مكة جعلت النساء تلطمهن بخمرهن (جمع خمار
 المفرد بكسر الخاء وفتح الميم بعدها الف والجمع بضمهما) فكان هذا مما نظر فيه حسان
 بعين البصيرة والكشف والهمزية التي منها هذه الأبيات من جيد شعره ومشهوره - قال
 رضي الله عنه :

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
 وإلا فاصبروا لجلاد يوم يعز الله فيه من يشاء
 وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء
 وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء
 شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاء
 وقال الله قد سيرت جندا هم الأنصار عرضتها اللقاء
 ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء

عنى أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهذا قبل إسلام أبي سفيان هذا

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

ويمكن أن يعتبر شعر الأنصار من حيث التزامه بدعوة الإسلام ودفاعه عنها مقدمة
 وتمهيدا لما افتتن فيه الشعراء من بعد من ضروب أساليب الشعر المدافع عن مذاهب
 الفرق والجماعة وهلم جرا

ثم أمر آخر كان شعر الأنصار به مختلفا عن أشعار الأيام والمفاخرات ولم تكن شعراء
 الكفرة قادرة على أن تجاريهم فيه ، وإن جارتهم في الدفاع عن قضايا كفرها ، وهو التعبد ،
 وذلك لصدق إيمان الأنصار ، واعتقادهم بحق أن ما يقولونه ينصرون به رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ، مقربهم إلى الله ، وهو عبادة .

شعر الجوارى الذي استقبلن به الرسول صلى الله عليه وسلم يقلن :-

نحن جوار من بني الأنصار يا حبيذا محمد من جار

مراد به التعبد لا اللهو إذ لا يخفى أن استقباله صلى الله عليه وسلم والابتهاج به عبادة . وكذلك قول النساء والصبيان في استقباله بالنشيد :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمير المطاع

وقد سبقت الإشارة إلى وضوح معاني التعبد في شعر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه نحو قوله :

لاهم ان الأجر أجر الآخرة	فارض عن الأنصار والمهاجرة
ونحو: لاهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
ونحو: خلوا بني الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير في رسوله

وقد حفظ له رجز بمؤته ويده الراية حتى استشهد :

أقسمت يا نفس لتنزلنّه	طائفة أو لتكرهنّه
إن أجلب القوم وشدوا الرنة	مألى أراك تكرهين الجنة

وكما قدمنا لم يكن شعراء المشركين ليستطيعوا هذا المسلك ، وإنما كانوا ينطقون بلسان الملأ من قريش ، وهؤلاء كانوا أهل حمية لا دين . قال تعالى : «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» [الأنفال] .

إلا ما كان من أمر أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وكان امرأ منافقاً ، كفر قلبه وآمن لسانه . وشعره الذي يتدين به ، من أجل ذلك ، خال من حرارة انفاس الإيثار الصادر عن القلب . ولعل آخر كلمة له مما روه من كلامه :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبدا لك لا ألما

وإنما قالها على حين لا تقبل توبة ، على الأرجح .

قال تعالى : «إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيماً . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً . »

وقال تعالى : واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناہ ءایاتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون . « [الاعراف] فيذكر أن هذه الآيات نزلت في أمره وقيل غير ذلك . فإن تكن في أمره فهو خبر قاطع في هلاكه وما كان قوله الذي قال إلا لها لث به ، كما يلهث الكلب ، ونعوذ بالله من سوء المنقلب .

طور السياسة

هذا هو الطور الثاني من أطوار المدحة النبوية . وغير خاف أن الطور الأول منه جانب سياسى - إلا أن جانب التعبد والجهاد لإعلاء كلمة الدين هو المعنى والمقصد الأول ، وما سواه فرع منه ، إذ لم تكن السياسة نفسها آنئذ إلا فرعاً من إقامة الدعوة - وما يشهد بهذا ما مر من كلام حسان رضى الله عنه في الهمزية وكلام ابن رواحة

رضى الله عنه . ونحو قول كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم في سورة التوبة ، رضى الله عنه :-

نطيع نبينا ونطيع ربنا	هو الرحمن كان بنا رؤوفا
فإن تلقوا إلينا السلم نقبل	ونجعلكم لنا عضدا وريفا
وإن تابوا نجاهدكم ونصبر	ولا يك أمرنا عشا ضعيفا

واختلاف هذا الطور عما قبله كامن في أن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مراد به جانب نصر دعوة سياسية بعينها ، هي دعوة آل البيت وشيعتهم الذين كانوا يرون أن الإمامة لا تكون في حى سواهم إلا غصبا إذ هم أهل الحق .

مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في شعر هؤلاء كان مذهباً به مذهب الاستنجاد بدعاء يتوسلون فيه به لينصرهم الله على من غصبوا آلهم حقهم ، فهذا جانب ديني تعبدي ، وكان مذهباً به أيضاً مذهب استنهاض همم المسلمين لرعاية حقه ومن حقه أن يحفظوا عهد الله إليهم في آلهم إذ قال سبحانه وتعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » - وأن يجاربوا من حاربهم ، وألا يروا أحداً صالحاً للإمامة غيرهم وهلم جرا ، فكل هذا جوانب سياسية .

الكميت بن زيد الأسدي صاحب الهاشميات أبرز من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الوجه السياسي . ولعل من رثاء حسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكون مما مهد له ولن سبقوه كأبي الأسود الدؤلي وقد روي له قوله :

يقول الأزدلون بنو قشير طوال الدهر ما تنسى عليا
أحب محمدا حبا شديدا وعباسا وحمزة والوصيا
فإن يك جبهم رشدا أصبه ولست بمخطيء إن كان غيا

فقد شمل بحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حبه لعميه ولعلي رضى الله عنهم . ولم يكن حسان رضى الله عنه ممن عرف له تشيع ، وكان فيه حب لعثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه ، وقد رثاه بقوله المشهور :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسيحا وقرآنا

غير أنه في رثائه رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد له أنفاس حزن شديد لعله مستمد من شعور الأنصار أنهم قد غلبتهم قريش على أمر رياسة الدولة الاسلامية وسياستها بعد بيعه سيدنا أبي بكر رضى الله عنه يوم السقيفة وانصراف الناس عن سيد الخزرج سعد بن عبادة رضى الله عنه - قال رضى الله عنه :-

ما بال عينك لاتنام كأنها كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدي أصبح ثاويا يا خير من وطىء الحصى لاتبعد

المهدي هنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا البيت من أقدم ما جاء فيه هذا اللفظ ، وهو ليس في القرآن ، ولكنه ورد في بعض الحديث

وجهي يقيك الترب لهفي ليتني غيبت قبلك في بقيع الغرقـد

البقيع فيه قبور أهل المدينة وفيه من قبور الصحابة عدد رضوان الله عنهم أجمعين وفيه قبر فاطمة الزهراء وقبر العباس وقبر عثمان بن عفان رضى الله عنهم وأرضاهم .

فظللت بعد وفاته متلدا متلدا يا ليتني لم أولد

هذا الشعر شديد انفعال العاطفة لتأمله . وحسان الذي يقول «يا ليتني لم أولد» كان إذ قال هذا ابن سبعين سنة أو زاد عليها

يا ليتني صبحت سم الأسود	أأقيم بعدك بالمدينة بينهم
في روحة من يومنا أو في غد	أو حل أمر الله فينا عاجلا
محضا ضرائب كريم المحتد	فتقوم ساعتنا فنلقى طيبا
ولدت له محصنة بسعد الأسعد	يا بكر آمنة المبارك بكرها
من يهد للنور المبارك يهتد	نورا أضاء على البرية كلها
في جنة تنبي عيون الحسد	يارب فاجعنا معا وبنينا

فهذا تعريض بمن يكون حديث عهد بالإسلام وفي ضميره للأنصار عداوة، وقد حف أهل الردة بالمدينة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بقليل فلولا ما هدى الله إليه سيدنا أبا بكر من التشمير، ولكن الله سلم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم.

يا ذا الجلال وذا العلى والسود	في جنة الفردوس فاكتبها لنا
إلا بكيت على النبي محمد	والله أسمع ما بقيت بهالك
بعد المغيب في سواء الملحد	يا ويح أنصار النبي ورهطه
سودا وجوههم كلون الإثم	ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا
وفضول نعمته بنا لم تجحد	ولقد ولدناه وفيها قبره
أنصاره في كل ساعة مشهد	والله أكرمنا به وهدى به
والطيون على المبارك أحمد	صلى الإله ومن يحف بعشره

هذه القصيدة من نفيس شعر حسان وجيده . والأسى على ما صار إليه أمر الأنصار جلى كما ترى . وفي شرح نهج البلاغة شعر سياسي ذو لهجة شديدة منسوب إلى حسان - تناول رجال قريش ونسب بعضهم إلى نوع من حمية الجاهلية كقوله :

وعكرمة الشاني لنا ابن أبي جهل^١

وهذا الشعر منحول . ومما يكون جراً على انتحاله وانتحال أمثاله ما في هذه المراثية (١) من مستكن معاني السياسة مع ما هي مشتملة عليه من اللوعة والحزن العميق . روى أبو عبيدة بيت يا ويح أنصار النبي إلخ هكذا :

(١) لا نعلم ، أن المراثية منحولة . كلا . ولكن صحتها جرأت من ينتحل ما ينتحله محذوا على نموذجها .

وقيل أفرطت بل قصدت ولو
إليك ياخير من تضمنت الـ
(أي العائون بفتح العين المهملة والياء)
لج بتفضيلك اللسان ولو
أنت المصطفى المحض المهذب في النـ
ولو كان لم يقل فيه عليه السلام إلا مثل قوله :

وبورك قبر أنت فيه وبوركت
لقد غيبوا برا وحزما ونائلا
به وله أهل بذلك يثرب
عشيرة وارك الضريح المنصب
فلو كان لم يمدحه عليه السلام بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب لما
كان ذلك بالمحمود، فكيف مع الذي حكينا قبل هذا؟! هـ كلام الجاحظ .
قلت وماخفي عن الجاحظ مراد الكميت وهو القائل :

يشيرون بالأيدي إلى قلوبهم
فطائفة قد كفرتنى بحبكم
ألا خاب هذا والمشيرون أخيب
وطائفة قالوا مسيء ومذنب
فالكميت لايعني أنهم يعيرون مدحه المصطفى عليه الصلاة والسلام ولكن حبه آل
البيت وغلوه في ذلك وهو بعد القائل :

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكا
ألوم يوما أبا بكر ولا عمرا
بنت النبي ولا ميراثه كفرا
الله أعلم ماذا يحضران به
يوم القيامة من عذر اذا اعتذرا

فهذا الذي كان ينكره الناس على الكميت لاجبه النبي صلى الله عليه وسلم
ولامدحه له ، ومراده غير خاف ، فالذى عابه به الجاحظ على هذا فيه نظر . وأما عيبه
عليه «لقد غيبوا برا إلخ» أنها كما يمدح به الرجل الكريم من عامة العرب ، فهو أيضا
فيه نظر ، لأن الكميت ما عدا أن اتبع حسان في مراثيته الجيدة حيث قال :

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
وبورك لحد منك ضمن طيبا
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه التراب أيد وأعين
عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلما وعلمنا ورحمة
عشيرة علوه الثرى لايسود

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يكسون من تبكي السموات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوما رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد

صلى الله عليه وسلم .

والعجب لابن قتيبة قال : «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبين . ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على أجل الآخرة» . هـ

وزعم ابن قتيبة أن الكميت شديد التكلف في الشعر كثير السرقه . ولو كان هذا حقا ما كان شعره ليعجب الفرزدق في الخبر الذي روه ، اللهم إلا أن يكون الخبر مكذوبا وهذا بعيد . ومما يعجب لأمره من كلام ابن قتيبة أول شيء قوله «آل أبي طالب» وقوله «في الطالبين» والكميت نفسه يقول :

يا ويح أنصار النبي ونسله بعد المغيب في سواء الملحد

استشهد به في موضعين أو ثلاثة من مجاز القرآن . ونسله ورهطه كلتاها روى ومتقاربتا المعنى إلا أن نسله أخص والمعنى يا ويح أنصاره ويوح نسله أو رهطه ويجوز يا ويح أنصار نسله أو رهطه . وإن يكن أبو عبيدة قد كان كما زعم بعضهم به ميل إلى رأي الخوارج فرواية نسله أشبه إذ ذلك لا يتجاوز فاطمة رضي الله عنها وكان بقاؤها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم قليلا . وما كان أبو عبيدة ليستشهد بهذا البيت في تفسير القرآن وينسبه إلى حسان إلا وهو من ذلك على ثقة .

كان في أكثر الأنصار ميل إلى علي كرم الله وجهه وقد أصيب المسلمون على أيام يزيد بن معاوية بمقتل الحسين رضي الله عنه وبوقعة الحرة . وقد جعل الكميت من صلة ما بين الأنصار وآل البيت حجة يجادل بها . قال :

وقالوا ورثناها أبانا وأمنّا ومــــا ورثتهم ذاك أم ولا أب
ولكن مواريث ابن آمنه الذي أقر له بالفضل شرق ومغرب
بك اجتمعت انسابنا بعد فرقة فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب
يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيها بكيل وأرحب
ولانتشلت عضوين منها يجابر وكان لعبد القيس عضو مؤرب

علام إذن زرنا الزبير ونافعا	بأسيا فنا بعد المقانب مقنب
وشاط على أرماحنا بادعائها	وتحويلها عنكم شيب وقعنب
وإلا فقولوا غيرها تتعرفوا	نواصيها تردى بنا وهي شزب
ولم يكن الأنصار عنها بمعزل	ولا غيبا عنها إذ الناس غيب
هم رثموها غير ظأر وأشبسوا	عليها بأطراف القنا وتحذبوا
فلان هي لم تصلح لحي سواهم	فإن ذوي القربى أحق وأقرب

في هذه الأبيات من البائية «طربت وما شوقا إلى البيض» بعض البيان لما تقدم ذكره من أمر المزج بين مدحه صلى الله عليه وسلم وقضايا السياسية التي كانت تحترب عليها الفرق آنئذ - الزبير ونافع وشيب وقعنب هؤلاء من زعماء الخوارج، وكانوا يرون تقديم الصالح من المسلمين للإمامة لا يشترطون كونه قرشياً. ومكان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله «بك اجتمعت أنسابنا» لا يخفى. وهذا يشبهه قول الآخر:

دعى ألقوم ينصر مدعيه	ليلحقه بذى الحسب الصميم
أبي الإسلام لا أب لى سواه	إذا افتخروا بقيس أو تميم

قال الجاحظ في كتابه الحيوان :

« ومن المديح الخطأ الذي لم أر قط أعجب منه قول الكميت بن زيد وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، فلو كان مديحه لبني أمية لجاز أن يعيبه بذلك بعض بني هاشم ، ولو مدح به بعض بني هاشم لجاز أن تعيبه العامة أو لو مدح به عمرو بن عبيد لجاز أن يعيبه المخالف ، ولو مدح المهلب لجاز أن يعيبه أصحاب الأحنف - فأما مديح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يسوؤه ذلك حيث قال : -

فاعتتب الشوق في فؤادي والشعـ	ر إلى من إليه معتتب
إلى السراج المنير أحمد لا	يعدلني رغبة ولا رهـ
عنه إلى غيره ولو رفع النـ	س إلى العيون وارتقبوا

(ههنا كما تري شيء من التضمين)

بني هاشم رهط النبي فلأنني بهم ولهم أرضى مـراراً وأغضب
فلم يقسمهم إلى طالبيين وغير طالبيين وقد ذكر سيدنا العباس «عم نبينا» - صلى
الله عليه وسلم - فقد أساء ابن قتيبة في هذا التخصيص الذي الكميت بريء
منه، ولا ريب، كان الكميت يدافع عن قضية آل البيت ويرى علياً كرم الله وجهه
أحق الصحابة بالخلافة فهذا قد مرد سادة بني العباس الخلفاء من بعد المنصور على
إنكاره وحمل من استطاعوا حمله على القول بذلك فقالوا:

أني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثـة الأعمام
فصار شعر الكميت ولا سيما هاشمياته مرغوباً عنه لديهم . فهل جاء ابن قتيبة
بمقاله هذا مصانعة لأهل الدولة؟
والذي صنعه الجاحظ قريب منه ، والجاحظ أقوى عذراً إذ كان من رجال الدولة
أقرب .

ومما يزيد العجب عجباً أن ابن قتيبة حين استشهد بما قال هو إنه يستجاد من
شعر الكميت، لم يجيء بشيء مما قاله في بني أمية إلا قوله في هشام :
مصيب على الأعواد يوم ركوبه لما قال فيها مخطيء حين ينزل
وهذا يذمه به من اللامية الهاشمية التي ذم فيها بني أمية فقال :

تحل دمـاء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل
وجاء بأبيات من البائية فقال ويستجاد له قوله في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم :
يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيـل وأرحب
ولانتشلت عضوين منها يجابر وكان لعبد القيس عضو مؤرب
فإن هي لم تصلح لحي سواهم إذن فذوو القربي أحق وأقرب

الهجرة . وكتاب الإمامة والسياسة إن كان حقا من تأليف ابن قتيبة يشعر بميل فيه إلى علي كرم الله وجهه . فيكون ما ذكره عن الكميت من باب التقية والله أعلم .
واستشهد على سرقة الكميت بأبيات من رائيته في بني أمية - وقد زعم أنفا أنه كان يجيد مدحهم ، وأي جودة لما هو سرقة بيّنة - فتأمل . وأفة الرأي الهوى .
كان الكميت شاعرا مجيدا وهاشميات في آل البيت من روائع شعره ، وقد كن مما اندكت به صروح ملك بني أمية . وقد قتل من أجلها وتذرع إلى ذلك بعصبيته لمضر وهجائه لقبائل اليمن في الكلمة النونية التي يقول فيها :

فما أعنى بــــــذلك أسفليكم ولكني عنيت به الذويننا

وقد صرح بعض شعراء الشيعة بعد الكميت بهجاء الصحابة ، فعل هذا مثلا السيد الحميري فكان ذلك مما جعل الناس ينفرون من رواية شعره ، إلا من كان له في ذلك هوى .

وقد حبيت الهاشميات الناس في الشعر الحزين الذي يذكر مقاتل أهل البيت وما أصيبوا به من قبل طغيان بني أمية . فصار القول في ذلك كأنه طرف من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم .
كالذي اشتهر من أمر نائبة دعبل الخزاعي :

مدارس آيات خلّت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
ديار علي والحسين وجعفر وحمزة والسجاد ذي الثغفات

قال عبدالله بن المعتز «وهو صاحب القصيدة :

مدارس آيات خلّت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

وهي أشهر من الشمس ولا حاجة بنا إلى تضمينها ولا تضمين شيء منها . وهو صاحب النائية الأخرى التي أولها :

طرقتك طارقة المنى ببيات لا تظهرني جزعا فأنت بدات
في حب آل المصطفى ووصيه شغل عن اللذات والقنيات

إن النشيد بحب آل محمد أزكي وأنفع لي من القينات
فاحش القصيد بهم وفرغ فيهم قلبا حشوت هواه باللذات
واقطع لبانة من يريد سواهم في حبه تحلل بدار نجاة

وهي أيضا طويلة مشهورة فتركنا إيرادها .
ولم يكن ابن المعتز يخلو من نصب ما ولم يسلم من لهوجة وتمريض ما في ترجمته
لدعليل ، وهو معذور إذ هجا أجداده . وزعم المعري أن دعبلا كان في تشيعه كاذبا .
قاله أعلم أي ذلك كان .

وعلى طريق دعليل في التائية سلك ابن الرومي في الجيمية :

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج

وفيهما معا أمل التبرك والنفس السياسي ، وكأن المعري يزعم أنه كان كاذبا إذ قال
إنه على مذهب غيره من الشعراء وهذا أخف من مقاله في دعليل إذ قال : « ما يلحقني
الشك في أن دعليل بن علي لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع » . [ص ٤٢٠ رسالة
الغفران]

الطور الثالث

وهو طور التعبد الممهد . نعني بالممهد أنه قد كان توطئة لطور نضج القصيدة
النبوية ، وصار حينئذ التماس التعبد بها طريقا مهيئا .
ويدخل في مجال شعر التعبد أصناف كثيرة كلها يصح أن تعتبر من قبيل التمهيد
لقصيدة المدح النبوي الناضجة . منهن ما كان في الصدر الأول . وقد أورد صاحب
أنساب قريش شعرا كثيرا لعباد قريش ، مما يشهد بأن أمر الروحانيات في شعر العرب
قديم .

وفي النقاد ولع أن يجعلوا بداية الفكر العربي والإسلامي كله من عند القرن
الثالث ، يحاكون في هذا المستشرقين . وإنما أتى المستشرقون من إصرارهم على أن يجعلوا
أمر تطور حضارة المسلمين شبيها بما كان من تأريخ النصراني ، إذ مرت مائتان من
السنين قبل أن يتلبس أمر النصرانية وأناجيلها على نهج واضح . فلزم عندهم أن يكون
أمر المسلمين وحضارتهم كذلك .

فمن ههنا مثلاً جاءت قصة التفرقة بين الزهد والتصوف والأوصاف المعنوية
والأوصاف الحسية إلى آخر الباطل الذي يسرف فيه المسرفون . ولماذا يطلب المسلم
معاني الروحانية وشهود أنوار الحق عز وجل من الهند ومن اليونان ومن الفرس وعنده

كتاب الله سبحانه وتعالى يقرأ فيه : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » ويقرأ فيه : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » ويقرأ فيه : « سبحانه الذي أسرى بعبده » ويقرأ فيه : « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً » ويقرأ فيه « قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرثد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر » . ويقرأ فيه : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » ويقرأ فيه : « ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من ءايات ربه الكبرى » .

وقال تعالى : « ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

يدخل في مجال التعبد نحو قول الراجز :

الحمد لله الذي أعفاني وكل خير صالح أعطاني .

رب المثاني والآي والقرآن

وقول الآخر :

وَبِمِثْنٍ بَعْدَهَا قَدْ أُمِيتَ	حَلَفْتُ بِالسَّيْعِ اللَّوَاتِي طَوَلْتُ
وَبِالطَّوَّاسِيمِ الَّتِي قَدْ ثَلُثْتُ	وَبِمِثْلَانِ ثَنَيْتُ فَكُـرْتُ
وَبِالْمَفْصَلِ اللَّوَاتِي فَصَلْتُ	وَبِالْحَوَامِيمِ الَّتِي قَدْ سَبَعْتُ

وزهديات أبي العتاهية على ما قيل فيه وزهديات أبي نواس وأشعار أهل العقائد والتصوف كشعر الحلاج وما يروى له :

ياسر سر يـدق حتى يحل عن وصف كل حي
وظاهرا باطنا تبدى من كل شيء لكل شيء
يا جملـة الكل لست غيري فما اعتـذاري إذا إلي

وقد فشت أساليب أهل التصوف التي في أشعارهم وأدعيتهم حتى تطرف
باستعمالها الشعراء قبل زمان الحلاج وبعده وقد جاءت من أشعار المولدين في شعر أبي
نواس مثل قوله :

خلقت لأدم قبل طيتته فتقدمته بخطوة القبل

وقد عاصر الجاحظ أبا نواس وذكر أنه أسن منه وقد ورد ذكر المتصوفة في كلامه
مرات .
وفي شعر حبيب :

لا تسقني ماء الملام فلأنني صب قد استعذبت ماء بكائي

وتقدم الحديث في هذا وما يمجراه ، وقد ذكرنا من قبل نار الأجنة التي كانت
تشاهدها بصائر القلوب ، قلوب العشاق من لدن امرئ القيس إلى جميل إلى أبيات
عبيد الله حيث ذكر حب عثمة فقال :

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

وفي أبيات الحلاج الحلول . وأصاب المعري إذ لم يعد أن في أبيات الحلاج معنى
جديدا حقا إذ الناس كما قال قد عبدوا الحجر . فهذا بلا ريب من عنصر توهمهم حلول
الإله فيه . ويلحق بهذا الضرب مقال فرعون : " أنا ربكم الأعلى " .

واكتفى أبو العلاء بوقفة عند صياغة الأبيات ، قال : فلا بأس بنظمها في القوة
ولكن قوله " إلي " عاهة في الأبيات يعني " إلي " بكسر الياء ، وأبو العلاء يعلم أن هذه
قراءة حمزة في : « وما أنتم بمصريخي » فانصرف بشيء من خبث خفي من نقد الحلاج إلى
الطعن في قراءة من السبعة التي اختارها ابن مجاهد والقراءة كما قال شيخ النحو في

كتابه هي السنة ، فهذا يجعلها بلا ريب محتج بها لا عليها . أحسب أن لو كان أبو العتاهية حلي زهدياته بشيء من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مع إدمانه قرع باب الديانة من طريق التذكير بالموت لكانت دخلتها من ذلك بركة ونور، ولسلم إذن من تهمة الزندقة التي اتهمه بها بعضهم ، ذلك إذ رجحوا أنه بذكره الموت دون البعث كأنها أسر في نفسه كغرابه - وقد احتاط أبو نواس في زهدياته إذ يقول :

لا يجتلى الحوراء من خدرها إلا أمرؤ مـيزانه راجح

جعل مكان المديح النبوي يقوي في النفوس متصلا بالعبادة مستقلا عن السياسة والتشيع . وما قواه أن أساسه ودعامته حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمر ذلك من أمر الكتاب والسنة قريب . قال تعالى : «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم» والاتباع لا يصح بلا حب ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الطريق للمعرفة ، والمعرفة لا تتم إلا بعون الله وتوفيقه ، ورأس الحكمة مخافة الله ، واتقوا الله ويعلمكم الله ، ولا يعرف الإنسان نفسه إلا بالحكمة ، فإذا عرفها أحبها الحب الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى ، فلم تستول عليه شهواتها فيصرفه هواها عن سبل الرشاد . وسبيل الرشاد السنة . ومن زعم أنه يتبع السنة وليس في قلبه حب الذي سنّها فهو غير صحيح الإيمان . لأن الاتباع بلا محبة هوا . فنسأل الله الهداية إنه سميع قريب مجيب . وما يشهد بأن أمر المديح النبوي قد قوي جدا وأن تعلق الناس به قد كان شديدا على زمان أبي العتاهية وأبي نواس مقال الجاحظ الذي أنكر به ما أنكر على الكميّ بن زيد حيث قال «فأما مدح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يسوءه» ؟

ويذكر أن أبا الطيب سنل لم لم يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ليم في ذلك فاعتذر بأن قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى من أن يبلغه مدحه أو بشيء من هذا المعنى ، وقد رأيت في أحد دواوين أبي الطيب بيتين له في مدحه صلى الله عليه وسلم أو الاعتذار عن ذلك وند عني موضعها من بعد .

وقال الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في مقدمة المجموعة النبهانية في المدائح النبوية (طبعة بيروت في المطبعة الأدبية سنة ١٣٢٠هـ) في مقدمته لها في الفصل الثامن (ص ١٧) : «قال بعض العلماء إن سبب عدم مدح البعض من مشاهير الشعراء كالمتنبي وأبي تمام والبحري للنبي صلى الله عليه وسلم إنما هو علمهم أنهم عاجزون

عما يليق به صلى الله عليه وسلم من المدح فتركوا مدحه أدبا معه عليه الصلاة والسلام
 اهـ أقول لا شك في عجزهم عما يليق به صلى الله عليه وسلم من المدح وعجز الناس
 كافة عن ذلك بل عجز الخلق أجمعين عن معرفة فضائل سيد المرسلين وكنه كمالات
 حبيب رب العالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا
 الله تعالى فلا يقدر على وصف هذا العبد الكريم إلا سيده العظيم عز وجل . ولكن
 ذلك لا يمنع الشعراء من مدحه للتقرب إلى رضاه ورضا موله سبحانه وتعالى بقدر
 استطاعتهم فإن الله تعالى شرع لنا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أن نحمده تعالى
 ونشكره ونثنى عليه مع عجزنا كمال العجز عما يجب له ويليق به سبحانه وتعالى كما قال
 صلى الله عليه وسلم وهو سيد الحامدين والشاكرين والمثنين على الله تعالى ، لا أحصى
 ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . وكم مدح النبي صلى الله عليه وسلم نظما ونثرا
 من أئمة أمته من الصحابة فمن بعدهم ، سادات أجلاء الواحد منهم أكثر أدبا مع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفة بما يليق به من ملء الأرض مثل المتنبي
 وأمثاله ، ولكن السبب الصحيح الذي أراه لعدم مدحهم له عليه الصلاة والسلام أن
 مدحه من جملة الطاعات والعبادات فيحتاج للتوفيق من الله تعالى للعبد حتى يتيسر
 له فعله ، وهؤلاء وأشباههم لم يوفقوا لهذه الطاعة العظيمة لعدم تأهلهم لها بسبب ما
 اتصفوا به من أخلاق الشعراء من نحو توغلهم في الكذب بأبلغ العبارات في المدح إن
 رضوا والذم إن غضبوا ، فضلا عن تعديهم على أعراض الناس وقذفهم المحصنات
 والتشبيب بمعين النساء والغلمان ونحو ذلك من السفاهات وكفى بذلك مانعا لهم من
 مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ما لم يتوبوا إذ الظلام والنور ضدان ففى آن واحد لا
 يجتمعان وكونهم من أكابر الشعراء لا يقتضي تأهلهم لعبادة الله بمدح عبده ونبيه
 وحبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم ، فإننا نرى كثيرا من الأغنياء لا يحجون ولا يزكون ولا
 يتصدقون ، ونرى بعكسهم كثيرا من الفقراء كما نرى كثيرا من الأقوياء لا يصلون ولا
 يصومون ولا يقومون الليل ، ونرى بعكسهم كثيرا من الضعفاء وما ذلك إلا بسبب توفيق
 الله تعالى لكثير من الفقراء والضعفاء ، وعدم توفيقه لكثير من الأغنياء والأقوياء ،
 فكذلك يقال هنا يجرم المتنبي وأمثاله من الشعراء من هذا الخير العظيم في مدح النبي
 الكريم صلى الله عليه وسلم ويرزقه كثير من العلماء والصلحاء ممن بضاعتهم في
 الشعر قليلة بتوفيق الله تعالى لهم . اهـ . الفصل الثامن (ص ١٩) .
 مقال الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في جلته لا غبار عليه . غير أنه ربما صح
 عليه الاستدراك في أشياء ، سوي الذي سبق من زعمنا أن المديح النبوي طور خلص

إليه خلوصاً آخر الأمر بعد أن خبت جذوة القصيدة المادحة وما أشبهها مما هو من
 سنخها كقصيدة الفخر وشكوى الحال والمراثي الحسان: من ذلك أن طاعة الله في غير
 عزائم التي جاء بها الكتاب وهدت إليها السنة واتلأب عليها أمر العبادة والعمل
 الصالح، باب واسع. وأن هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين ذكرهم، أبا تمام وأباد عبادة وأبا
 الطيب، كانوا أهل جد على وجه العموم، وأمرهم في دينهم أعلم به خالقهم، ولعلمهم
 فائزون برضاه. وقد خدموا بشعرهم رؤساء وأمراء من أهل الجهاد والذود عن حياض
 الإسلام. وروح الجهاد في بائية أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب

جلية لا تحتاج إلى دليل - وفيها يذكر وقعة عمورية:

أبقيت جد بني الإسلام في صعد والمشركون وذار الشرك في صبب
 وفيها مما فيه تأكيد لمعني الجهاد:

لو كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو ذمام غير منقضب
 فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب

والمدح المستكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم هنا كما ترى
 وقال في مدح الخليفة وما مدحه إلا بالجهاد هنا:

أجبتُه معلنا بالسيف منصلتا ولو أجبت بغير السيف لم تجب
 حتى تركت عمود الشرك منعفرا ولم تعرج على الأوتاد والطنب
 وقال في كلمة مدح بها عمرو بن طوق فصرح في أثناء مدحه بمدح الرسول صلى الله
 عليه وسلم يذكره أن له به - لو اقتدى بسنته أسوة حسنة:-

لك في رسول الله أعظم أسوة وأتمها في سنة وكتساب
 أعطى المؤلف القلوب رضاهم كملا ورد أخايد الأحزاب
 فقول «أعظم أسوة» هو شاهدنا ههنا.
 وقال في رائة مقتل الأفشين:

هذا الرسول وكان صفوة ربه ما بين باد في الأنام وقارى

وقال في إحدى مدائحه :

سلام الله عدة رمل خبت على ابن الهيثم الملك اللباب

وأرى أنه أخذ هذا الأسلوب في التسليم من طريقة الصلاة والسلام في المديح النبوي وأن ذلك في النبويات المتعبد بها كان معروفا شائعا في زمانه . على أن هذا المذهب له في العربية أصول قديمة كما في قول الآخر «ألا فاسلمى ثم اسلمي ثم اسلمي» ولكن قولهم عدة كذا وعدد كذا مذهب نبوي والله أعلم .
وقال البحري :

إن لم يبلغك الحجيج فلا رموا في الجمرتين ولا سقوا في زمزم

فهذا دعاء من قلب مسلم وقد سبق منا القول أن نفس هذه الديباجة للبحري مما اقتدي به مداح الرسول صلى الله عليه وسلم فيها بعد - وقال :

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما برزت من الصفوف وكبروا
وإنما ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن المتوكل برز في برد النبي صلى الله عليه وسلم - وذلك قوله :

وبرزت في برد النبي مذكرا بالله تنذر تارة وتبشر

فالقصد من البحري ههنا إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ضمنا ، كما تري ، وإنما جعل مدحه الخليفة فرعاً من ذلك وطرفاً
وقال أبو الطيب في سيف الدولة :

فمن كان يرضى اللؤم والكفر ملكه فهذا الذي يرضي المكارم والربا
وقال :

هتيا لضرب الهام والطعن في العدا وراجيك والإسلام أنك سالم

وقال :

أرى المسلمين مع المشركين _____
وأنت مع الله في جانب
كأنك وحدك وحدته
_____ من إمام لعجز وإمارة
قليل القرقاد كثير التعب
ودان البرية بابن وأب

وقال :

فباتوا لخالقهم سجدا ولو لم تغث سجدا للصلب

وشعر المنتبي في الجهاد المقصود به رفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الشهادة كثير،
وصدق روحه فيه يشهد بانه ما أراد به الدنيا - وذلك وإن لم يصرح فيه بمدح النبي
صلي الله عليه وسلم فقد صرح فيه بنصر دين الله، وذلك نصر لرسول الله صلي الله
عليه وسلم - فنأمل أن يدخله ذلك في زمرة من عزروه ونصروه . وإن يكن إساءة في
بعض أمره، كالذي اتهم به من دعواه في صباه، وكقوله يمدح أحد الأشراف
العلوين :

وأبلغ آيات التهامي أنه أبوك وأبى مالكم من مناقب
عما اضطرتة إليه مذاهب المبالغة المفرطة ، فقد أحسن في جهاديته كل الإحسان :-
مثلا قوله

غلى له المرج منصوبا بصارخة له المنابر مشهودا بها الجمع
وهل تشهد الجمع إلا بإعلان النداء وفيه الشهادتان اللتان هما ركن الإسلام الأول؟
وبعد فقيمة الإنسان ما يحسنه . وهؤلاء الثلاثة قد فرغوا بأنفسهم للشعر وأبلغ ما قالوه
مستمد من صميم بيان العربية الذي يدرك به أمر معجزة بيان القرآن ولئن كان الذي
وقع لهم من الحكم والأمثال - وما منهم إلا له قول يتمثل به - من باب الحكمة التي من
يؤتمها فقد أوتي خيرا كثيرا ، فلهم بهذا إن شاء الله فضل بين .
وقد جاء أبو العلاء بقطعة نبوية في لزومياته أولها :

دعاكم إلى خير الأمور محمد وليس العوالي في القنا كالسوافل

وأغلب الظن أن قومه كانوا يعجبون من أمره شاعرا يتحدث في ذم الدنيا ولا يمدح رسول الله عليه الصلاة والسلام - فقد مدحه في رسالة الغفران وهنأ ونونيته في سقط الزند :

عللاني فإن بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفاني

فيها من روح المديح وإن كان جرى به على وجه من وجوه الميل إلى التشيع وهو قوله :

أحد الخمسة الذين هم الاغر — راض في كل منطق والمعاني

ومن أقدم مدائح التعبد رائية الزمخشري (توفي رحمه الله سنة ٥٣٨ هـ) التي مطلعها :

قامت لتمنعني المسير تماضر أني لها وغرار عزمي باتر
شامت عقيقة عزمتي فحنينها رعد وعيناها السحاب الماطر

وهي في جملتها من فصيح الكلام وفيها أبيات جياذ وعواطف طيبة وصدق تجود معه المعاني .

والزمخشري قد عزم على هجرة أوطانه إلى بيت الله الحرام لا لأداء الفرض وحده ولكن للمجاورة عند البيت الحرام بعد أداء الفريضة وزيارة القبر الشريف . بدأ الزمخشري كلمته بحماسة أعلن بها تحديه لتماضر وفخر عليها بأنها إن تك ظبية فهو ليث العرين . ثم أمرها أن تصبر . ثم خلى سبيلها غير مبال ما تقول عنه في شكواها . وما يخلو الزمخشري من أن يكون ضمن تماضر هذه معني الدنيا وزهرتها غير أنه رحمه الله ما كان يخلو من جانب خشن إلى النساء والرفق بهن مما أمر به المولي عز وجل وذلك قوله سبحانه وتعالى :

«وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا»
من تخشين الزمخشري لتماضر، وينبغي أن نحملها معني الدنيا، «حتى يتم عندنا إن شاء الله معني إعراضه وتخشينه :

حني رويدا لن يرق لظيية وبغامها ليث العرين الزائر

سيأكلها إن كان جائعا وإلا فإنه سيق — فلعلك ان تلمح في المعني هنا بعض .
الاضطراب

أرخي قناعك يا قماضر وامسحي عينيك صابرة فلاني صابرة
هذا البيت تخالطه رقة ، ومصدرها قوله «أرخي قناعك» فإنها إن تكن ممن يحل له
فكشفها قناعها أشبه بحال الطبيعة ، فما يكون أمره إياها بإغداق القناع - وارخاؤه
إغداقه - إلا أن وجهها وعينيها أثرتا فيه ، فلاذ بهذا الأمر الذي ظاهره خشونة وباطنه
رقة . وإن تكن محرما فهو زجر دفعته إليه رقة مستكن الحب ، حب الأخت والأم
والمحرم ، والعرب كانت مما تذكر بناتها وما إلى ذلك في باب السفر كقول الراعي :

قالت خليدة ما عراك ولم تكن أبدا إذا عرت الشئون سنولا
أخيلد إن أباك ضاف وساده همان باتا جنبه ودخيلا
وقال الأعشى :

تقول ابنتي حين جد الرحيل أرانا سواء ومن قد يتم
والزخشري من أعلم الناس كان بالعربية وبالشعر

لـو أشبهت عبارات عينك لجة وتعرضت دوني فلاني عابـر
أخذ هذا من رائية وضاح اليمن ، ولكنه أخذ جيد وجانب العاطفة فيه قوي
إنى لذو جد كما جربتني صلب وبعض الناس رخو فاتر

وقع في الطبع خطأ إذ هو هناك «إنى لذو وجد كما جربتني صلب» وهذا لا يستقيم به
المعنى وإنما هو لذو جد وهذا البيت كأنه أراد به أن يستمر في معنى ليث العرين
ومضاء العزم ، ولو كان تنبه للأمر رحمه الله لكان قد تبين له أنه قد فرغ من المعنى كله
عند قوله «فلاني عابر» فإن رام زيادة بعد ذلك فلإنما تحسن إن جاءت غنائية محضة ، وهذا
باب قل من يحسن طرقة ، بله أن يؤذن له - مثلا قول البحرى :

إنى وإن جانبت بعض بطالتي وتوهم الواشون أني مقصر
ليروقنى سحر العيون المجتلى ويشوقنى ورد الحدود الأحمر
البيت الأول تام معناه ، ولكن الشاعر احتال على التغمي بجعله شرطاً يحتاج إلى
جواب ، ثم لما أتم المعنى والغناء معا صرف شعره إلى المدح إذ لم يبق في الذي كان
بصدده من زيادة لمستزيد - وقال أبو تمام :

إن كان مسعود سقى أطلالهم سيل الشئون فلست من مسعود

فهذه نهاية تشعرك أنها آخر الكلام ، ثم إذا بالشاعر يزيد معنى آخر يتغنى به ويترنم ويفتن

رحلوا فكان بكاي حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لييد

فهو من لييد لا من مسعود ، وعنى به ذا الرمة أو عنى به أخاه لقول ذى الرمة ، كما مر بك أيها القارئ الكريم من قبل :-

قـد عـجـبـت أخت بني عبيد

وہـزئت منى ومن مسعود

رأت غلامي سفير بعيد

يـدّرعـان الليل ذا السـودود

مثل ادراع اليلمق الجديـد

و وقد جاء الزخشي بعد البيت الذي زعم فيه أنه صلب وبعض الناس رخو فاتر بأبيات وسط هن قوله :

إن عن لي أمر فلي عن رفضه ناه وبالإقدام فيه أمر

وعنى أمرا من الجد ولكن عبارته كما ترى عامة فلا تفيد الدلالة القاطعة على معنى الجد الذي هو مراده إن شاء الله . هذا وبعض الأمور مما يجب على العاقل رفضه وألا يقدم عليه . قال تعالى : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » - استشهدنا بالآية للدلالة على أن الأمر يقع على الشيء وعلى ضده ونقيضه .

فإذا عزمتم على تقارب نهضتي أمضى العزيمة حدي المتناصر
أى الذي ينصر بعضه بعضا وفي القافية كما ترى قلق

والجد شيمة من له عرق إذا عدت عروق ذوي المرائر طائر

قال الشارح الشيمة الطبيعة والعرق أصل كل شيء والمرائر جمع مريرة وهي العزيمة وأصلها الحبل المفتول والطائر المرتفع - انتهى قلت لا يظهر المعنى على هذا الوجه ، وقد

ذكر الشارح رحمه الله أنه نقل القصيدة من ديوانه الخط (ج ٢ - ص ١٣١ - ١٣٥) - هل يريد إذا استمر ذوو المراثي في سيرهم الجاد فإن له عرقا يطير به طيرانا ؟ يجوز هذا الوجه على بعد ويكون يعني بالطيران هنا منتهى الغلو في السرعة وقد يسوغ هذا التأويل ذكره المهري من بعد وهو الجمل السريع النجيب ، منسوب إلى مهرة التي تنسب إليها الإبل المهرية النجب .

ما فضل المهري إلا أنه بالجد في طي المراحل ماهر

ذهب هنا من مذاهب أهل البديع إلى حسن التعليل - ثم بعد هذه الأبيات التي كما قدمنا لم يزد بها كبير شيء على قوله يفتخر «إني لذو جد» رجع إلى حديث تماضر:

سيرى تماضر حيث شئت وحديثي إني إلى بطحاء مكة سائر

تماضر اسم الخنساء . وما ذهب الزمخشري إليه ولكنني أحسبه ذهب إلى معنى تماضر سلمى بن ربيعة حيث يقول :

حلت تماضر غربة فاحتلت	فلجا وأهلك باللوى فالحلة
وكان في العينين حب قـرنفل	أو سنبلا كحلت به فانهلت
زعمت تماضر أننى إـمـا أمت	يسدد أبنوها الأصاغر خلتي
تربت يداك وهل رأيت لقومه	مثلى على يسري وحين تعلقى
رجلا إذا ما النائبات غشينة	أكفى لمعضلة وإن هي جلت

والأبيات من مشهور الفخر وجيده وهي مما اختاره أبو تمام في الحماسة فإلى هناك نظر جار الله رحمه الله - أما قوله : «سيرى تماضر» فقد جرى به قول الضبي «تربت يداك» وكأنه أخذه من قول الخطيئة :

سيرى أمام فإننا الأكثرين حصى والأكرمين اذا ما ينسبون أبا

فجعل مكان أمانة تماضر وهي المزجورة في قول الضبي ، وجعل مكان الحث في قوله سيرى معنى الزجر الذي في «تربت يداك» وإنما دعا عليها ومراده زجرها لا أن تصب عليها لعنة ما .

فاختيار تماضر لم تمل عليه القافية بل فيما أرى من أجله جعلت القافية هكذا إذ قد
تقصم الزمخشري رحمه الله شيئا من نفس هذه الكلمة المختارة

سيرى تماضر حيث شئت وحدثنى إني إلى بطحاء مكة سائر
ضبط في المجموعة بفتح همزة أن على أن هذا حديثها والوجه القوى وهو المقصود إن
شاء الله الكسر أى اذهبي أنى شئت وحدثنى الناس أنى فارقتك - إني سائر إلى بطحاء
مكة، هذا عزمي وأنا به صارج . يدلك على أن هذا كلام مستأنف تعلق ما بعده به :

حتى أنيخ وبين أطماري فتى للكعبة البيت الحرام مجاور
متعوذ بالركن يدعوه ربه يشكو جرائر بعدهن جرائر
يشكو جرائر لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال كجائر

ظاهر الشكوى أنه يشكو جرائر جررها عليه غيره، إذ لم يعين أنه صاحبها . ثم كأنه في
البيت التالي لبيت الركن يلوم نفسه مع بقاء الإيهام بجواز كون الجرائر من غيره، والذي
يشعر بلوم نفسه قوله لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال - فكان هذا تأمل منه لنفسه
وفيه بعض نفس انكسار . يقوى هذا الوجه الذي نذهب إليه قوله من بعد :

والله أكبر رحمة والله أكبر — بر نعمة وهو الكريم القادر
وأحق ما يشكو ابن آدم ذنبه وأحق من يشكو إليه الغافر
فدل بهذا أنه قد عنى نفسه وإن كان قد بدأ بما يوهم شكوى ذات عموم

فعسى المليك بفضلته وبطولته يكسو لباس البر من هو فاجر

يلاحظ على صياغة الزمخشري الصحة وقصد الفصاحة ولكنه بالتزامه ذلك ربما جاء
بالكلام جافا غير عذب الرزين - قوله " لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال " فيه تعب
صناعة وتكلفها لأنه لما شبه الذنوب في الكثرة بالحصى بالغ فكبر هذا الحصى فجعله
جبالا لأن الذنوب كبائر وفي كبائر هنا معنى الكبر الذي في الجبال لا معنى الكبر الذي
يجعل صاحبه في منزلة بين المنزلتين على رأي المعتزلة، فكان قوله حصى كبائر أى كبار
مثل الجبال يحترس به أن تظن كبائر من نوع الفواحش اللواتي هن من كبائر الإثم .
وقوله يكسو لباس البر من هو فاجر فالفاجر ضد البر بفتح الباء فمن لبس لباس البر
بكسر الباء فهو بر بفتحها . وهنا أيضا عمل وتعب . وقوله : « وأحق من يشكو إليه
الغافر » إن أراد بالغافر المولى سبحانه وتعالى وهذا من أسماؤه لقوله تعالى : « غافر الذنب

وقابل التوب» فهو لا بأس به ، وإن أراد أحق من يشكو إليه من يغفر ذنبك ففيه نظر .
والعرب تقول : أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك . والذي يصح به المعنى ويستقيم أن
يريد بالغافر الله عز وجل ، وإيهام قصد عموم المعنى بدخل في سنخ صياغة هذا
البيت نوعاً من ضعف

يامن يسافر في البلاد متقبلاً إني إلى البلد الحرام مسافر

عجز البيت حسن لأنه تغن بتكرار المعنى الذي سبق «إني إلى بطحاء مكة سائر» ولكن
الصدر ضعيف ، أولاً لأن النداء خارج عن السياق ، إذ السياق يقتضى أن يكون
ينادى تهاضر وما يشبه معناها . فقد ترك زجرها ليزجر غيرها وهذا تشويش - ويمكن
أن يعتذر له بما تقدم ذكره من أن تهاضر رمز للدنيا وزهرتها وطلب متاعها الفاني ،
فقلوه :

يامن يسافر في البلاد متقبلاً

كأنه يقول به : «يا من غرته تهاضر» أى الدنيا فخرج يطوف في الأفاق يريد المال والجاه .

إن هاجر الإنسان عن أوطانه فالله أولى من إليه يهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع بالدين دنياه فنعم التاجر
تأله ما البيع الربيع سوى الذي عقد التقى وكل بيع خاسر

نظم هذه الأبيات مستقيم ، إلا أنها قليلة الرونق وذلك أنها لم تعد أن نظمت بعض
معاني آي الكتاب كقوله تعالى : «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز
العظيم» ونظم معاني الآي مسلك مزلة ، والحاذق من يقصد قصد الاقتباس
والإشارة ، إذ أن المصباح لا يضيء في الشمس ، وبلاغة القرآن ضوء شمسها غامر
باهر ، ولا ريب أن الزمخشري قصد إلى معنى الاقتباس ، فسلك بما سلكه من نظم المعاني
القرآنية مسلوكاً يجعل شعره تعليمي المعدن ، فذلك يكسبه من الجفاف ويذهب ببيع
الرونق . ثم يقول رحمه الله ، يشكو الذنب ، بانكسار عابد ، على أنها انكسار فيها
جانب من شدة نفس العالم اللغوي التي لا تفارق الزمخشري رحمه الله :

خربت هذا العمر غير بقية فلعلني لك يا بقية عامر
وعهدتني في كل شر أولاً فلعلني في بعض خير آخر
في طاعة الجبار أبذل طاقتي فلعلني فيها لكسرى جابر
تأمل الطباق في كل بيت - ولكنه سهل سائغ ، ونفس شاعر ينظم هذه الأبيات فيه

أروح من أدب وصدق في حضرة المولى سبحانه عز وجل :

سأروح بين وفود مكة وافدا حتى إذا صدروا فما أنا صادر

هذا كأنه يخاطب به نفسه ، ولذلك حسن شيئا موقع العزم والجزم به ، إذ لو كان مراده مخاطبة غيره لكان لزمه الاحتراس بذكر الأمل والمشية ، وقد جاء بهذا المعنى فيما بعد ، فدل بذلك أنه ههنا إنما يخاطب نفسه - غير أنه قبل أن يصل إلى موضع ذلك أطال في تفسير قوله « فما أنا صادر » أنه يريد به المجاورة ، وقد سبق أن قال ذلك ، وهذا كما لا يخفى مذهب نثرى يصير به ناظمه في طريقة الشعر إلى ما وسموه بالإخلاء - غير أن في اطناب الزغخشري الذي أطنبه نغمة حزن خفية ، كأنه بها يعزى نفسه على فراق تناصر ، هاته التي تحتل الكناية عن الوطن وزهرة الدنيا جميعا

بفناء بيت الله أضرب قبتي حتى يحل بي الضريح القابر

يعني حتى أحل به ، والعبارة فصيحة في مذهب العربية ولا ريب أن الزغخشري تعمدها ألقى العصا بين الخطيم وزمزم لا يطيبيني إخوة وعشائر
عنى بالخطيم البيت كله

ضيفا للمولى لا يخل بضيفه ويريه أقصى ما تمنى الزائر
حسبي جوار الله حسبي وحده عن كل مفخرة يعد الفاخر
لا يخفى أن ههنا تطويلا ونفسا خطايا ما عدا به تكرار الفكرة التي تقدمت ومع أن هذا التوكيد يخاطب به نفسه قد عدا به الاعتدال المؤثر حقا .

سأقيم ثم وثم تدفن أعظمي ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

هذا مما عجل به الزغخشري في طلبه توكيد المعنى ، معنى الجوار الذى بدأ به ، فغفل من حيث لم يشعر - أم قد شعر - من قوله تعالى : « وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير » وهي مما لا يغفل عنه ، فكان قد تذكر وتنبه ، فمن أجل ذلك قال من بعد ذلك مباشرة :

يأليت شعري والحوادث جمة والغيب فيه للحكيم سرائر

هذا كما ترى كالاستدراك والتذكر

والعبد يحرق أن ينفذ عزمه ووراء عزم العبد حكم قاهر
هل في قضاء الله أي قادم أم القرى وإلى البنية ناظر
والنظر إلى الكعبة عبادة

فمقبل الحجر المسح ملصقا خدى به وعليه دمعي قاطر

وإنما يقبل الناس الحجر اقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي وضعه في موضعه بعد أن أوشكت قبائل قريش أن تقتل حرصا منها ألا تنفرد واحدة منها بشرف وضعه - فكفاهم الله ذلك بمحمد الأمين ، إرهابا بما أعده له من وحيه وإكرامه بأن يكون خاتم الأنبياء المرسلين الداعي إلى توحيد الله لا نشرك به شيئا " إليه أدعوا وإليه متاب " - صلى الله على نبينا وسلم تسليما وعلى آله وصحبه

ثم أخذ الزمخشري يصف نفسه حاجا قائما بما يقوم به الحاج

فبذلك البيت المطهر طائف في ثوبي الاحرام أشعث حاسر
فمبادر للسعي ما بين الصفا والمروة والعبد المجد مبادر
التعبير مستقيم غير أن في نظم البيت عناء وقلة رونق في الديباجة - كأنها إلى تخشين
النظم التعليمي أقرب . ويعتذر لذلك بما يخالطه من أرب التعبد .

فمراقب نقر الحجيج إلى منى فإلى منى قبل المعرف نافر

أي نافر إلى منى قبل يوم عرفة والمعرف بضم الميم وفتح الراء مشددة

بهم يباهي الله في ملكوته أهل السموات العلى ويفاخر
حتى إذا دلتك بـراح فطارق جمعا فمنه إلى المحصب نافر
جمعا : أى مزدلفة . طارق أى آتٍ ليليل ليذكر الله عند المشعر الحرام ويجمع فيها بين
المغرب والعشاء جمع تأخير . دلتك براح بكسر الباء وراح جمع راحة وفيه قولان ذكرهما
الطبري عند تفسير آية الإسراء فمن قال غربت قال إن المأمور بصلاتها المغرب ومن قال
مالت عن الزوال قال إن المأمور بها صلاة الظهر ورجح الطبري القول الأول وبكليهما
قليل وبراح بوزن قطام قليل اسم للشمس وبراح بكسر الباء من مسح العينين لمعرفة
الزوال أو المغيب يدل ذلك المرء عينيه لاتقاء الشعاع والذي هنا براح بفتح الباء إذ ليس في
الحاء تنوين وأنشدوا - ذكره الطبري والقرطبي وصاحب المجاز جميعا :

هذا مقام قدمي رباح ذبيب حتى دلتك بـراح

وآية الإسراء هي « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن
الفجر كان مشهودا » .

والوقوف بعرفة الواجب الذي الإخلال به فيه الدم هو ما بين الزوال إلى الليل ولا يجزئ
الوقوف قبل الزوال - هذا في مذهب مالك ، أعنى كونه واجبا ، والوقوف الذي هو أحد
أركان الحج التي لا حج للمرء بدونها هو عند مالك ما يكون في جزء من الليل فإن نفر
قبل الغروب فلا حجة له وعند غيره يجزئه الوقوف بعد الزوال .

وقوله « بهم يباهى »، أخذه من الحديث ومعنى المباهاة جلي أي يرى الله الملائكة حجاج بيته شعنا غبرا وهم بذلك أبهى منهم، إذ لا يخفى أن الملائكة لا يباهون الله عز وجل إذ هم عبيده " يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون " . ويفآخر اضطرت الزمخشري إليها القافية ويمكن تأويلها على قريب من نفس المعنى في عسر.

فمجممر فمقصر أوحالتق نحر النهار فللنسيكة ناجر
وفي الجناس « نحر - ناجر » عمل كعمل المعرى وجهد علماء وكان المسلمون إلى زمان قريب يؤثرون الحلق على ترك الشعر سائبا كما يفعل الناس اليوم . وإنما سيب الناس شعورهم بتقليد الأفرنج ، ثم إذا بعضهم يظن ويفطنهم إلى أن ذلك كان من عمل العرب .
وكان بدو البجاة عندنا ولا يزال ذلك دأبهم يتركون شعرهم ينمو على الرؤوس ويسقونه الدهن .

وقال ابن الطثرية يصف شعره :

فيهلك مدرى العاج في مدلهمة إذا لم تفرج مات غما صؤاها
والصؤاب صغار القمل^(١) .
وكان ثور أخوه قد عاقبه بحلق رأسه إذ تعدى مرارا على إبله فنحر منها فقال في هذه الكلمة :

فأصبح رأسي كالصخرة أشرفت عليها عقاب ثم طارت عقابها
وقال الشنفرى :
ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفشاعيه في رمضائه تتململ
نصبت له وجهي ولا كن دونه ولاستر إلا الأتحمي المرعبل
وضاف إذا هبت له الريح طيرت لبائد من اطرافه ما ترجل
بعيد بمس الدهن والفلي عهده له عبس عاف من الغسل محول
نحر النهار أوله

وحلق الرأس الذي كان يفعله الرجال في أكثر بلاد افريقية تبركا بعمل الحج بالنسبة إلى حال أكثرهم أصبح وأدخل في حاق النظافة ، ومن سيب عملا بما كانت عليه عادة العرب في غير الحج وجاءت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أفرع فوجه الصواب والبركة في ما قصد إليه ظاهر ومثل هذا لا ريب يلتزم بالنظافة التي سن الشرع

(١) راجع التماسه عزاء بين الشعراء للمؤلف ص ١٣٥ - ١٣٧

وإنما الأعمال بالنيات ، وفي خبر الحديبية ما يشعر بتفضيل الحلق على التقصير في العمرة ثم جعل الله سبحانه وتعالى لهما معا الفضيلة في قوله تعالى : لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تحافون (الفتح) .
وقال الزنجشري من بعد فأخذ في مدح النبي صلى الله عليه وسلم جاعلا الزيارة تمة لما كان من أداء الفريضة ، وكأن الحاج حين يقصد المدينة يقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هاجر ، وبعض أهل الفضل والعزم الصحيح يتعمدون سلوك طريق الهجرة يتبركون بذلك :-

ومتى تضم قنود رحلي ضامرا يهفو به نحو المدينة ضامرا
عنى بالضامر الأول نفسه وبالضامر الثاني بعيره
ماض على الظلما يخبطها إلى بلد أضاء به السراج الزاهر
يهوى إلى قبر النبي محمد خبيبا كما زف الظليم النافر
أما يهوى فقرآنية (سورة ابراهيم) وأما " الظليم النافر " فجأهلية - وكان ينبغي أن يلتمس تمام البيت بغير قوله « كما زف الظليم النافر » إذ كأنه غير تام الملاءمة لما سبق ، لأن الهوي تناقضه حركة النفار ، فتأمل .

لله ميت بالمدينة قبره قصر مشيد والقصور مقابر
المراد من المعنى ظاهر ولكن الاداء قاصر ، إذ من القبور ما يبنى كالقصور كتاج محل . ولكن مراده أنه قصر في القلوب والأرواح معمور بالمحبة النابعة من صدق التقوى والإيمان ، ولا معنى للموازنة من بعد إذ شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك . ويأبى الزنجشري رحمه الله إلا أن يقحم بعض ما كان يشعر به من تبرم ممن لم يكن عنهم ذارضا .

لله ميت كل حي لم يكن بهداه حيا فهو عظم ناخر

هذا البيت بحمد الله جيد ومعانيه من القرآن - قوله تعالى : أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ (الانعام) وقوله تعالى (ائذا كنا عظاما نخرة) [النازعات] وقرأ الكسائي " ناخرة " وقال الطبري إنها أعجب القراءتين إليه ، وكان الزنجشري رحمه الله كثير الاتباع للطبري في تفسيره جزاها الله عن هذا العمل الحميد خيرا .

ثم أخذ الزنجشري بعد هذا البيت الجميل في ذكر معنى قريب من نفسه ، وذلك أنه كان اعرج فلا يقدر على الغزو وكان ذلك زمان جهاد لإيراز الصليبيين أنيابا

عصلا ، أخذوا بها بيت المقدس ، فما اشبه اليوم بالبارحة ، إن الله على كل شيء قدير .

إن لم أنله ولم يكن مني له بسنان رحمي أو لساني ناصر
يعني إن لم أكن من أهل ذلك الزمان فأسعد بنيل رؤياه كما سعد الصحابة
الأبرار ، فأجاهد كما جاهدوا بالسنان واللسان .

فأنا النصور لوحيه بدلائل وجهه اليقين بهن أبلج زاهر

ثم من ههنا رجع إلى أمر نفسه وترك ما كان فيه من المديح ، وهذا أشبه بمذهب
القصيدة ، إذ كلها مبنية على ما عزم عليه من هجرة الأوطان والمجاورة بالبيت الحرام -
غير أن ههنا التفاتا من باب التعبد المحض الذي كان ينبغي أن يرومه الى نوع من
مقارعة الخصوم . وقد يعتذر له في هذا بأنه قد استفاد من ذكر النبي صلى الله عليه
وسلم نشوة وإيجابية وشجاعة فؤاد ، وقد صدق في هذا الذي ذكره عن تفسيره وما هو
ملحق بالتفسير من علوم اللغة والأدب ، أساسه ، وفائقه ، ومفصله فكل أولئك ذو فوائد
جمة تمت إلى فهم التنزيل والسنة بسبب متين .

من يلقيهن بفهمه فكأنها في مسمعيه الوحي غض ناصر

غض فيها إشارة إلى قول ابن مسعود رضي الله عنه .

ويهمز من أملى إذا جن الدجى أملى كما همز الجناح الطائر

التشبيه هنا ضعيف البنية غير متناسب مع ما قبله ، وذلك أن الطير لا ترفرف إذا
جن الدجى ولكنها تفعل ذلك عند اقتراب الصباح وإنما يذكر من الطير مع الليل
البوم وما أشبه مما يكره أن يشبه به المرء نفسه .
والجن من سراء الليل . فأعجب لما روي من قول الآخر :

أتوا ناري فقلت منون اتم فقالوا الجن قلت عموا صباحا

في أبيات ، والراجح أن يكون هذا مصنوعا ، لأن النار لا توقد مع الصباح والجن
ليليون ، وإنما حذني هذا على قول الآخر :

ونار قد حضأت بعيد وهن
سوى تحليل راحلة وعين
اتوا ناري فقلت منون قالوا
وقلت الى الطعام فقال منهم
بدار لا أريد بها مقام
أكلتها مخافة أن تنام
سراة الجن قلت عموا ظلاما
زعيم نحسد الإنس الطعاما

وزعم أهل الكتاب فيما سطوروا من كتابهم أن الملائكة أكلت من العجل الحنيد لما
أرسلوا وهم في طريقهم إلى تدمير قوم لوط . فتأمل .
قال الزمخشري :

والله أكرم أن يرى متجردا من حلتى نعماء عبد شاكر
جعلها حلتين تشبيها بكساء الحج . يدلك على ذلك قوله " متجردا " ، إذ الحاج
يتجرد من المخيط والمحيط :

يارب إني أستجرك في الذي نطت الرجاء به وأنت الخائر
هكذا استجرك في المطبوعة وما أرى إلا أنه أستخرك بالخاء المعجمة أي أنا
استخرك وأنت سبحانه تختار لي .

وإليك أرغب في النهوض بهمتي حتى أفي بجميع ما أنا ناذر
وهذا مقطع حسن للقصيدة ، ومقطعه على قول من قال إن المقاطع هي أواخر
الآيات ، أيضا حسن .

وقريب من زمان الزمخشري ، سابق له إذ هو من رجالات آخر القرن الخامس
(توفي سنة ٥٠٧ هـ) الأبيوردي الشاعر ، الأموي السفياي نسباً وكان يقول في نسب نفسه
المعاوي نسبة إلى معاوية رحمه الله . وله في المجموعة النبهانية قصيدة جاري بها " بانث
سعاد " ، نبوية ، عمد فيها إلى الفاظ ضخام ، ولم يخل من أنفاس أموية إذ نسب النبي
صلى الله عليه وسلم قرشيا ليدخل بذلك بنو أمية وأجداده منهم في حيز هذا الشرف
، ولا ريب أنهم كانوا في قریش يعاسيب ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل البيت ، إلا أم
حبيبة رضي الله عنها وما كان لمعاوية رحمه الله من جهة الصهر ، وقد رام يزيد أن يعتذر
عن قتل الحسين صلوات الله عليه ولا عذر له حيث قال :
بيني وبين حسين الله والرحم

ولم يرع لا الرحم ولا الله سبحانه عز وجل فقصمت عنقه وهو في أوج ما كان
يظن لنفسه من نصر - وأول كلمة الأبيوردي :

خاض الدجى ورواق الليل مسدول برق كما اهتز ماضي الحد مصقول
أشيمه وضعيعي صارم خذم ومحملي برشاش الدمع مبلول
وصدق من نعت الأبيوردي بأنه صاحب الفاظ لا معان فأول هذا البيت من أبي
الطيب وآخره من امرئ القيس .

ومن غزلها بعد أن ذكر السير - وإنما جاء بالغزل بعد السير لجعله المحبوبة ذكرى

وطيفا -

واعتاده من سليمي وهي نائية ذكر يورقه والقلب مبتول
ربا المعاصم ظمأى الخصر لا قصر يزري عليها ولا يزرى بها طول
فالوجه ابلج واللبات واضحة وفرعها وارد والمتن مجدول
كأنها ريقها والفجر مبتسم فيما أظن بصفو الراح معلول

فهذا منهج كعب، وقال النبهاني في مقدمة مجموعته (١): «والذي عليه الاكثرون أن التشبيب بمعين غير من محل له من زوجة أو جارية، وبغير معين، جائز لأن المقصود منه تحسين الشعر وترقيقه على عادة الشعراء، وسماحه جائز أيضا ان لم يفتتن به سامعه بان يهيجه الى المعصية أو يطبقه على من يحرم تمتعه به، هذا في مطلق الغزل، وهو في المدائح النبوية غير مستحسن مطلقا، لأن الغزل ولو في غير معين، المشتمل على وصف الحدود والقود والارداق وما أشبه ذلك من اوصاف النساء والغلمان التي من هذا القبيل، وما يجري للعاشق مع المعشوق من السفاهات والترهات هو مما يأبى ذكره الذوق السليم، والطبع المستقيم، في مقدمة قصيدة يمدح بها احد العلماء العاملين، والأولياء العارفين، فضلا عن سيد الأنبياء والمرسلين، وصفوة خلق الله أجمعين، صلى الله عليه وسلم أما قصيدة "بانت سعاد" التي اتخذها دليلا بعض من سلك هذا المسلك واستحسنه وهو في نفسه غير حسن فهي لا تصلح دليلا لذلك لأن ناظمها كعب بن زهير رضي الله عنه كان قبل اسلامه شاعرا جاهليا، فنظمها على طريقته قبل ان يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسلم على يديه ويعرف اداب الاسلام، وما ينبغي ان يخاطب به سيد الأنام عليه الصلاة والسلام وقرار النبي صلى الله عليه وسلم له ولغيره على ذلك لعله لهذا السبب وقرب عهدهم بالجاهلية وعوائدها مع علمه صلى الله عليه وسلم انهم لم يقصدوا بغزلهم معينا، وإنما هو شيء جرى على

قاعدتهم فلا يترتب عليه محذور ، وحينئذ لا حاجة الى الجواب بان سعاد هي زوجته ابنة عمه وقد طالت غيبته عنها ، لان تشبيب الرجل بزوجه وان كان جائزا الا انه يخل بالمروءة كما هو ظاهر ونقله في الزواجر عن بعض الفقهاء . ولو صدرت منه هذه القصيدة بعد اسلامه واجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته احكام الدين وآداب المسلمين ، ولزوم كمال التأدب في خطاب سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، لربما كانت تصلح ان تكون دليلا لمن سلكوا هذا المسلك ويدل على ما قلته انه رضي الله عنه لم يحصل منه مثل هذا التشبيب بعد اسلامه ولا من احد من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم كحسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم من شعراء الصحابة رضي الله عنهم في مقدمة شعر مدحوا به النبي صلى الله عليه وسلم إلا مع قرب عهدهم بالجاهلية وعواندها ، اما بعد ذلك فلم يرو عن أحد منهم شيء من هذا القليل . وكيف يكون ذلك وهم أوفر الناس عقولا واعظم الناس ادبا مع الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) وقد قال الله تعالى : «يا أيها الذين ءامنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » أترأهم بعد ان سمعوا هذا يضعون سفاهات الغزل بالنساء واوصافهن المتهجنة موضع الصدقة في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حاشاهم ثم حاشاهم ، ونحن مع ما بيننا وبينهم من الفرق العظيم في كل وصف جميل عقلا وشرعا ، ندرك بالبداهة عدم استحسان ذلك . ١ . هـ

وقد حذف الغزل من همزية حسان وأثبت نعت الخمر فلم يجيء من غزله إلا

بقوله :

لشعثاء التي قد تيمته	فليس لقلبه منها شفاء
كأن سيئنة من بيت رأس	يكون مزاجها عسل وماء
إذا ما الأشربات ذكرن يوما	فهن لطيب السراح الفداء

ولا يمكن أن يزعم لحسان أنه قال هذه القصيدة وهو حديث عهد بإسلام فقد قيلت في فتح مكة ومسلمو المدينة قد أسلم منهم العدد الصالح على يد أوائل الأنصار من أهل البيعة الأولى كأُسعد بن زرارة رضي الله عنه .

ولحسان في ميمية بدر غزل منه قوله :

بنيت على قطن أجم كأنه	فضلا إذا قعدت مداك رخام
فهذا من نعت الجسم لا يخفى . وفي الأبيات الهمزية قول حسان رضي الله عنه :	
كأن سيئنة من بيت رأس	يكون مزاجها عسل وماء

على أنيــــابها أو طعم غص من التفاح هصره اجتــــاء
على فيها إذا ما الليل قلت كواكبـه ومال بها الغطاء

فإن يكن النبي صلى الله عليه وسلم سمع هذه الأبيات من حسان رضى الله عنه فليس بصواب أن نحرم سماعها، إلا أن يكون الشيخ يوسف رحمه الله قد ثبت عنده أنه لم يسمعها الرسول عليه الصلاة والسلام. ويعذر رحمه الله إن يكن حذفها ليقوي بذلك حجته المتقدمة: ولعله قرأ الهمزية في نسخة ليست هذه الأبيات فيها — قال المعري في رسالة الغفران يخاطب حسان رضي الله عنه على لسان ابن القارح: «ويحك، أما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول كان أسجح مما تظنون إلخ»

قال تعالى جل من قائل: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك»

ونقل النبهاني عن ابن حجة في الفصل الرابع من مقدمته بعد أن مهد بأنه يستحسن لمن يمدح النبي صلى الله عليه وسلم أن يشبب بذكر الديار الحجازية ومعالمها إلخ قال: «قال العلامة تقي الدين بن حجة في خزانة الأدب في شرح البيت الأول من بديعته وهنا فائدة وهو أن الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضاءل ويتشبيب مطربا بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والعذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر ويطرح محاسن المرد والتغزل في ثقل الردف ورقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العذار وما أشبه ذلك وقل من يسلك هذا الطريق من أهل الأدب. ١، هـ

عابوا أبا الطيب لقوله:

إني على شغفي بها في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

فقل ما معناه أى عفاف هذا الذى يذكر السراويلات؟

ولقد أعجب من هذين الفاضلين اذ ينهيان عن ذكر الخدود والقُدود والأرداف ولا يخلو كلامهما من بعض الأنس إلى ذكر ذلك، ولا سيما ابن حجة إذ لم يكد يدع شيئا من صفة ما يشتهي وتأمل قوله «وبياض الساق وحمرة الخد».

وأحشم من ذلك، وحق له ذلك قول الباعونية: «ويتعين في غزل المديح النبوي أن يحتشم فيه ويتشبيب بذكر الجهات الحجازية من سلع ورامة والبان والعلم وذى سلم وما في معناها ويطرح ذكر التغزل في الردف والقُد والخد ونحو ذلك فإن سلوك هذا

(١) راجع كتاب التماسه عزاء ص ٢٢٨ وهامش خزانة الأدب لابن حجة طبعة مصر ١٣٠٤ هـ
تصوير بيروت ص ٣١٢.

الطريق في المدح النبوي مشعر بقله الأدب ، وحسب العاقل قول الله تعالى : «ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» ١. هـ

على أن الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله كأن قد رجع عما قطع به من أن الغزل في المدائح النبوية على الوجه الذي نصه ، سوء أدب إذ قال في الفصل السادس : «كنت عزمت أن لا أضع في هذه المجموعة شيئا من القصائد التي وقع التشبيب فيها بوصف الولدان والنساء الحسان لئلا أكون شريكا لناظميها فيما يلحقهم من الملام بتغزلهم بها ذكر في مقدمة مديح النبي عليه الصلاة والسلام ثم رأيت ذلك في كثير من غير القصائد فلم تسمح نفسي بحرمان المجموعة من ذلك الدر النظيم وحرمان أولئك الأفاضل من هذا المقام الكريم والفضل العظيم بإدخالهم هنا في جملة مداح هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم . ولئن أساءوا ورحمهم الله وعفا عنهم من تلك الجهة بعض الاساءة ، فقد أحسنوا من جهة مديحهم للنبي صلى الله عليه وسلم كل الإحسان . وقد قال صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة تمحها . وفي حديث آخر : رفع عن أمتي الخطأ والنسيان . ولا يخلو أمرهم من إحدى هذين .

وعلى كل حال فقد فازوا بأعظم الحسنيين ، مع أن مقاصدهم في تغزلهم بتلك الحبيبة وذلك المحبوب لا يطلع عليها إلا اعلام الغيوب . بل الظاهر المتعين أنهم ليس مرادهم ما يتبادر للأفهام من ذلك الكلام . مع أننا نعلم أن تغزلات الشعراء منذ عهد الجاهلية إلى الآن هي جارية هذا المجرى بدون أن تعاب من أحد من أهل هذه الصنعة بل يعدون ذلك من محاسنها وإنما جاءها العيب الذي شرحناه من جهة رعاية الأدب اللازم مع النبي صلى الله عليه وسلم ولولا ذلك لجاءت على القياس ولم يكن فيها بأس وقد غلبت عليهم رعاية الصنعة الشعرية فجزوا على قاعدتها بدون سوء قصد ولا فساد نية ولذلك رجعت عن عزمي الأول وأدخلتها في هذه المجموعة كغيرها راجيا من الله تعالى ثم من النبي صلى الله عليه وسلم العفو عني وعنهم والقبول مني ومنهم ان الحسنات يذهبن السيئات وإنما الأعمال بالنيات ١. هـ

قلت قولنا بعد أبيات الأبيوردي الأربعة فهذا منهج كعب ربا أغنى عن الإطالة ، غير أن كلام الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في غاية الأهمية ، لما فيه من تقرير قوة الصلة بين القصيدة القديمة وهذه النبوية التي خلفتها ، ولا يخفى ما في الرجوع الذي رجعه من ساحة النفس ومن استشعار بركة الأرب الذي من أجله صمم مجموعته النفيسة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

هذا :

ونقف يسيرا عند قول الأبيوردي رحمة الله عليه :

كأنها ريقها والفجر مبتسم فيما أظن بصفو الراح معلول
فقوله والفجر مبتسم يشير به إلى المعنى الذي يكرره الشعراء من ذكر طيب رائحة الفم
بعد الرقاد عند الفجر والغالب أن تتغير رائحة الفم انثذ - قال الإشكري يصف ثغر
رابعته :

أبيض اللون لذيذا طعمه طيب الريق إذ الريق خدع

قال الشارح ^(١) يقال خدع ريقه إذ تغير

وقوله فيما أظن احترس به من ناقيدي الغزل وفيه نظر إلى دفاع المعرى عن حسان في ،
رسالة الغفران واستمر يعتذر عن غزله فقال :

صدت ووقرنى شيبى فما أربى صهباء صرف ولا غيداء عطبول ،
وحال دون نسيبي بالدمى مدح تحيرها برضا الرحمن موصول ،
أزيرها قرشيا في أسرته نور ومن راحتيه الخير مأمول ،

هنا مع مجازاة كعب ومحاكاته (نظر إلى «النور يستضاء به» أو «لسيف يستضاء به» وإلى ،
«والعفو عند رسول الله مأمول») ، مع هذا نظر شديد إلى الكميت وأخذ منه .

قوله : وقرنى شيبى ، من قول الكميت : ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

وقوله : «فما أربى صهباء صرف ولا غيداء عطبول»

من كلمات الكميت : «طربت وما شوقا - ولا لعبا - ولم يلهنى دار إلخ»

وقول الأبيوردي : «أزيرها قرشيا إلخ»

من قول الكميت :

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بني حواء والخير يطلب

بني هاشم رهط النبي فإننى بهم ولهم أرضى مـراراً وأغضب

فجعل الأبيوردي قرشيا مكان قول الكميت بني هاشم ، فهذا ما قدمناه من معنى
أمويته .

على أنه رحمه الله قد سار في سائر المدحة على منهج منبىء بأن القصيدة النبوية على
زمانه قد اتلأت على منهاج واضح : النسيب الرمزي أو ما بمجراه وقد يستغنى عنه ،
التخلص إلى مدحه صلى الله عليه وسلم ، الاختتام بالصلاة عليه وذكر أصحابه -

(١) شرح الأنباري الكبير ص ٣٨٣ .

قال الأبيوردي :

يا خاتم الرسل إن لم تخش بادرتي على أعاديك غالتني إذن غول
والنصر باليد مني واللسان معا ومن لوى عنك جيذا فهو مغذول
وكل صحبتك أهوى فالهدى معهم وغرب من أبغض الأخيار مفلول
هذا من الحديث : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . ثم خلص إلى الخلفاء
الأربعة ومضى على منهج أهل السنة أنهم خير الصحابة أو كما قال اللقاني في الجوهرة :
وخيرهم من ولي الخلافة وأمرهم في الفضل كالخلافة

ثم خصص الشيخين بجمعهما معا ومفهوم ضمنا أن أبا بكر رضى الله عنه هو
المقدم ، وأحسب أن سبب هذا التخصيص أراد به الطعن في الروافض على وجه من
التعريض :

وأقتدي بضجيعك اقتداء أبي كلاهما دم من عاداه مطلول
وهل عنى بقوله «أبي» آبائي أم كان أبوه ذا موقف في هذا الاقتداء عرف به ، فأراد
الأبيوردي أن يدل على مكان قدم هذا الاعتقاد عنده ؟
ومن كعثمان جودا والساح له عبء على كاهل العلياء محمول
وأين مثل علي في بسالته بمأزق من يرده فهو مقتول
أى من مثل علي في الشجاعة وخوض المأزق التي يخاف فيها الهلاك وواردها
مقتول . الكلمة بلا شك مأزق ميم وألف بهمزة وزاي وميم لا ألف بلا همزة وذال
معجمة ، فهذه لا معنى لها . وينظر الأبيوردي إلى قول أبي تمام :

والحرب قائمة في مأزق لحج تجشو الكباة به صغرا على الركب

وفي عبارة الأبيوردي على قوة تبدو في صناعة لفظه قصور عن أداء المعنى على تمامه .
وأخر القصيدة :

إني لأعذل من لم يصفهم مقمة والناس صنفان معذور ومعذول
فمن أحبههم نال النجاة بهم ومن أبى جهم فالسيف مسلول
والمعنى المراد حسن إلا أن اللفظ مقصر عنه ، إذ القسمة في كلا البيتين غير صحيحة إذ
ليس الناس صنفين : معذور ومعذول ولكن معذور وغير معذور؛ أو معذول وغير
معذول فيدخل في (غير معذور) من هو ملوم ومن هو ليس بحاجة أن يعذر إذ لم يقع
منه ما يوجب ذلك ، (على أن أكثر ما يستعمل «غير معذور» للدلالة على الملوم ولكن
قصدا إلى معنى القسمة المنطقية الصحيحة .) وهذا أظهر في معذول وغير معذول إذ
يدخل في (غير المعذول) من كان معذورا ومن لم تكن به حاجة لأن يعذر أو نحو ذلك
مما يشعر بسبق خطأ أو ذنب .

وقوله فالسيف مسلول لا يقابل (نال النجاة بهم) لأن السيف قد يسل ولا يقع ، والمعنى الصحيح أن من أحبهم نال النجاة بهم ومن أبى حبهم لم ينل النجاة وكان مصيره الهلاك .

ورحم الله الأبيوردي فقد رام بما صنع سبيل الثواب ، وإنما الأعمال بالنيات ، وهو بعد من أقدم كبار الشعراء في زمانه ، نظم قصيدة خالصة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح أصحابه رضى الله عنهم أجمعين .
ويقوى ما ذهبنا إليه من أن مدحة الأبيوردي قد سار بها على نهج قد استقامت عليه بنية القصيدة النبوية ما صنعه المعري وهو أسبق من الأبيوردي في القطعة اللزومية

دعاكم إلى خير الأمور محمد	وليس العولى فى القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحا	وشهب الدجى من طالعات وأفل
وألزكم ما ليس يعجز حمله	أخا الضعف من فرض له ونوافل
وحث على تطهير جسم وملبس	وعاقب فى قذف النساء الغوافل
وحرم خمرأ خلت الباب شربها	من الطيش ألباب النعام الجوافل
يجرون ثوب الملك جر أوانس	لدى البدو أذيال الغواني الروافل
فصلى عليه الله ما ذر شارق	وما فت مسكا ذكره فى المحافل

هذا البيت الأخير من صميم أسلوب القصيدة النبوية . و ما قبله سار به أبو العلاء على مذهب الخطباء الوعاظ إذ لا يخلو قوله دعاكم وحداكم و ألزكم من جفاء ؛ وكان أدخل في المدح لو قال : دعانا ، حدانا ، ألزمتنا ، فلم يبد كأنها قصد إلى أن يخرج نفسه . والوجه ما قدمنا أنه ذهب مذهب الخطباء الوعاظ ، وكمذهب أبى العتاهية في نحو:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب

ولكن أبا العتاهية كان نديها داهية يعرف كيف يتأتى إلى القبول لدى نفوس ملوكه الذين يعظهم — فسرعان ما ترك الخطاب إلى ضمير المتكلمين الجماعة ثم إلى ضمير المتكلم الواحد :

لمن نبى ونحن إلى تــــراب	نصير كما خلقنا من تــــراب
ألا يا موت لم أر منك بدا	أبيت فــــلا تحيف ولا تحابى
كأنك قد هجمت على مشيى	كما هجم المشيب على شبــــابى

ويا دنيائي مالى لا أرانى أسومك منزلا إلا نبأى
وعلى كثرة ما يبدأ بحمد الله ويسبحان الله لا تجد أبا العتاهية يذكر النبي صلى الله
عليه وسلم أو يصلى عليه بعد أن بدأ بالحمدلة
قصيدته ذات الأمثال بدأها بالحمد فبلغ به تسعة أبيات فيها بلغنا منها :

الحمد لله على تقديره	وحسن ماصرف من أموره
الحمد لله بحسن صنعه	شكرا على إعطائه ومنعه
يغير للعبد وإن لم يشكـره	ويستر الجهل على من يظهره
خوف من يجهل من عقابه	وأطمع العامل في ثوابه
وأوجد الحجة بالإرسال	إليهم في الأزمـن الخوالي
نستعصم الله فخير عاصم	قد يسعد المظلوم ظلم الظالم
فضلنا بالعقل والتدبير	وعلم ما يأتى من الأمور
يا خير من يدعى لدى الشدائد	ومن له الشكر مع المحامد
أنت إلهى وبك التوفيق	والوعد يبدى نوره التحقيق

ثم يجىء بعد :

حسبك مما تبغيه القوت	ما أكثر القسوت لمن يموت
إن كان لا يغنيك ما يكفيكـا	فكل ما فى الأرض لا يغنيكـا
الفقر فيما جاوز الكفافا	من عرف الله رجا وخافا

ولو صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الحمدلة لكان ذلك لكلامه زينا .
وقوله وإن لم يشكره مذهب في العربية جيد ، أى لم يشكره بسكون الراء وضم الهاء ثم
نقل ضمة الهاء إلى الراء ومن شواهد سيبويه :

عجبت والـدهر كثير عـجبه من عنـزى سبني لم أضربـه
وقوله :

فضلنا بالعقل والتدبير	وعلم ما يأتى من الأمور
-----------------------	------------------------

عجزه فيه نظر، إذ المعنى مقبول إن أراد به التفكير في العواقب وليس التفكير في العواقب
علما بالغيب وإن اتفق فيه الحدس الصائب أحيانا، إذا لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه
وتعالى .

فهذا موضع مأخذ على قول أبي العتاهية :-
وعلم ما يأتي من الأمور

وموضوع آخر قوله :

وأنجد الحجة بالإرسال عليهم في الأزمن الخوالى
كان عليه أن يتبع ذلك ما منَّ الله به على خلقه أجمعين وعلينا نحن معشر المسلمين
خاصة من إتمام نعمته بإرساله بعد تلك الأزمن الخوالى سيدنا محمداً على فترة من
الرسول ، هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، صلى الله عليه وسلم
تسليماً .

هذا ومن قديم المدح و أنضجه ويقوى ما قدمناه ذكره اللامية الشقراطية أوردها
النبهاني في ص ١٣٨ في قافية اللام (المجلد الثالث) وهى من مائة وخمسة وثلاثين بيتاً

رصينة السبك صريحة في المدح النبوية عميقة الفهم للسيرة ، كثيرة البديع
والشقراطية من الغربي من رجال الخامس الهجرى توفى سنة ٤٩٦ هـ . وقد أورد هذه
اللامية أيضاً صاحب المنهاج الواضح (١) فى آخره ، ومطلعها :

الحمد لله منا باعث الرسل هدى بأحمد منا أحمد السبل
خير البرية من بدو و من حضر وأكرم الخلق من حاف ومتعل
توراة موسى أتت عنه فصدقها إنجيل عيسى بحق غير مفتعل

وقد أفاض مادحو الرسول صلى الله عليه وسلم من بعد في أمر البشارة ومن أوسعهم
وأجودهم قولاً في ذلك الامام البوصيرى رحمه الله .

أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت بما رأوا ورووا في الأعصر الأول
ثم ذكر خبر المولد النبوي والمعجزات ثم ذكر المعراج فمما قال فيه :

عرجت تخرق السبع الطباق إلى مقام زلفى كريم قمت فيه على
وفي القافية هنا جهد ما وقل مثل ذلك في هذه القصيدة
ومما قال في قتلى بدر :

غادرت جهل أبى جهل بمجهلة وشاب شبية قبل الموت من وجل

(١) المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح ألفه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد صالح بن
نصارت الماجرى المغربى طبع مصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٥٢ م .

لأنه لقي حمزة أسد الله وسيد الشهداء رضى الله عنه

وعتبه الشوك لم يعتب فتعطفه منك العواطف قبل الحين في مهل
وعقبة الغمر عقباه لشقوته أن ظل من غمرات الموت في ظلل

أي عقبة بن أبي معيط ووصفه بالغمر جيد بالغ والغمر الذي لا تجربة له ومن
أهل الطيش لذلك .
وأخر القصيدة قوله :

وصل رب وواصل كل صالحة على صفيك في الإصباح والأصل
عليه صل صلاة لا انقطاع عدا الحصى وعديد الرمل ثم صل
واحفظ على القلب منى حسن خلته واغفر لعبدك عبد الله وابن علي

فهو أبو محمد عبد الله بن علي أبي زكريا الشقراطي المغربي رحمه الله .
يدخل في باب طور التمهيد الذي صارت بعده مدحة الرسول صلى الله عليه

وسلم هي القصيدة الحقة ومادحه صلى الله عليه وسلم هو الشاعر الحق ما جعل
بعض مداحه عليه الصلاة والسلام يفتنون فيه من البديع . مع العلم بأن افتنائهم هذا
قد جاء بعد أن قطع البديع أشواطاً من فرط التكلف والتصنيع نجد لديهم من الأريحية
إلى ما يفتنون فيه ما يذكرنا بنشوة البديعيين الأوائل . ولا ريب أن مرد ذلك إلى روح
التعبد وسماحة النفس فيه ببذل الجهد التماساً للأجر .

فمن ذلك صنيع الوزير أبي زيد الفازازي الأندلسي من رجال أوائل القرن السابع
الهجري صاحب العشرينيات ، وهي قصائد من عشرين بيتاً كل منها ، نظمها على
حروف المعجم ، يبدأ البيت بالحرف ويختم به ، فهو مطلع البيت ومقطعه - مثلاً من
الكلمة التي اختارها له النبهاني في المجموعة :

سلام كعرف الروض أخضله الندى على خير مخلوق من الجن والإنس
سليل خليل الله خاتم رسله وفي الختم منع للزيادة في الطرس
سبوق بلا أين قريب بلا مدى عليم بلا خط حفيظ بلا درس
سري المزاي ظاهر البأس والندى كريم السجاي طاهر الجسم والنفس
سري برته والجهر نور وحكمة وقد سبق التطهير للقلب في الحس

يعني خبر شق الصدر كما في حديث المعراج وحديث أيامه صلى الله عليه وسلم
عند حليلة السعدية

سرى نحو مولاه وجبريل صاحب فناهيك من قدسين في حضرة القدس
وذكر النبهاني في مقدمته لهذه القصيدة أنه أي الفازازي أنشأ ديوانه سنة ٦٠٤ هـ
وحدث به في الحرم المكي سنة ٦٢٤ هـ - فذلك قبل سقوط بغداد كما ترى .
قال النبهاني في مقدمته في الفصل السابع : « اعلم أن مداح النبي صلى الله عليه
وسلم في كل عصر ومصر كثيرون لا يحصيهم عد ، ولا يحيط بهم حد ولو جمعت مدائح
أهل عصر واحد منهم لبلغت عدة مجلدات ، وكثير منهم نظموا في ذلك دواوين على
أنحاء مختلفة وبعضهم التزم في شعره أمورا لا تلزمه كالوترى والطرائفي والفازازي ومن
تبعهم كالشهاب أحمد المنيني الشامي فقد نظموا عشرات وعشرينيات على حروف
المعجم والتزموا أن يكون أول حرف في كل بيت كحرف القافية وبعضهم جعل جميع
القصيدة حروفا مهيمنة والبعض جعلها على عدة قواف وغير ذلك من تفننات الشعراء
فجاءت قصائدهم في الغالب غير سالمة من وصمة التكلف » ١ هـ .

والوترى من رجال القرن السابع في النصف الثاني منه وتاريخ وفاته لعله سنة
٦٦٢ هـ (الذي في وترياته المطبوعة بالدار البيضاء ٢٦٦ هـ وأغلب الظن أن هذا مراد
لتقرأ المئين فيه من جهة اليمين) وفي المجموعة النبهانية أنه أكمل نظم وترياته
بالأندلس سنة ٦٥٢ هـ واكمّلها تهذيبا بمصر سنة ٦٦١ هـ وإنما سميت الوترىات لأنه
زاد على عدد الفازازي واحدا فجعل كل قصيدة من واحد وعشرين بيتا وبهذا التوتير
سمي الوترى وهو مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الواعظ البغدادي . وقد
أورد النبهاني وترياته كلها في مجموعته مع ما فيها من ظاء وشين وغين في القوافي - قال :
« قال وقد ظهر لي الآن أن أذكرها جميعها لقوله في خطبتها أنه رأى النبي صلى الله عليه
وسلم بعد فراغه منها وهي في يده الشريفة ومعه جماعة من أصحابه عرف منهم أبا بكر
الصدّيق رضي الله عنه قال فلما رأيته قام إلى ضاحكا مستبشرا إلخ ما قاله في ص ٢٨٧
من الجزء الأول من المجموعة . وهي تسع وعشرون قصيدة جعل فيها لام الألف قافية
وكان حقه أن يجعلها مقصورة وقد تنبّه الشيخ النبهاني لهذا ، وله بعد وجه إذ مراده
إظهار مكان الألف التي ليست بهمزة ولو كان قد جعلها ألفا مقصورة لسلمت من أن
يلتبس أمرها باللاميات وهي التي أولها ^(١) :

(١) طبعة دار الفكر، الدار البيضاء غير مؤرخة ص ٣١ .

لأحمد فضل لا يعهد ولا يحصى ومن ذا يعد القطر أو يحصر الرملا
لأعظم رسل الله قدرا ومنزلا وأوفاهم عزا وأعلاهم فضلا

ومن أشهر الوتريات، ما كان ينشده المداح عندنا إلى زمان غير جد بعيد سينيته
التي أولها^(١).

سلام سلام لا يجد انتشاره على من له نور يزيد على الشمس
سلوا زمرة الأملاك عن عرس أحمد وكيف جلوه في السماء على الكرسي
سواء وأفلاكها وحجبا يجوزها وما زال حتى باشر العرش باللمس
سرى وسما يغى السمو على السما فأكرم بالإيجاء في حضرة القدس
سليل خليل الله لله قد دنا وخص من الرحمن مولاة بالأنس
سقاء بكأس الوحي فوق سمائه فساد على الأملاك والجن والإنس
سعادتنا إذ رد بالبشر راجعا ومن بعد خمسين الصلاة إلى الخمس
سماوية أمست فضائل أحمد فوالله ما تحصى بحفظ ولا درس
وفي كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري رحمه الله كلمات عدد ملترم
فيها ما لا يلزم على طريقة المعري، نظمن في التبرك بمثال نعله عليه الصلاة والسلام،
وكان شكل المثال ربما رسم وتبرك به على نحو من كتابة التهايم والمعوذات .
ومن أقرب المهملات من المنظومات عهدا :

ألا واصل الله السلام المرددا

من نظم العلامة الفاهاشم الفلاقي من رجال النصف الأول من القرن المنصرم
(الهجري) وشطرها الشيخ ولد الشيخ الطاهر المجذوب رحهم الله أجمعين فصار
المطلع المشطر:

ألا واصل الله السلام المرددا لأكرم رسل الله طرا وأسعدا

وقد خلص اسلوب النظم على حروف المعجم من الفصيحة إلى الدارجة فاقتدى
بديعيوها بمشابهته، مثل كلمة المادح :

ياناس لنصل على نبينا كونه علينا اشفق من أيننا

(١) نفسه ص ٢٧ واعتمدنا على النبهانية الجزء الثاني ص ٢٦٢ .

بالألف ابتدينا وما غيينا وهلم جرا

ومن أغرب أنواع الالتزام صنيع ابن جابر الأندلسي في رائية نسجها على روي أبي
قرودة :

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وشى اليمنة الحبرة

فجاء فيها بسور القرآن تباعا، قال في أولها :

في كل فاتحة للقول معتبرة	حق الثناء على المبعوث بالبقرة
في آل عمران قدما شاع مبعثه	رجاهم والنساء استوضحوا خبره
قد مد للناس من نعماء مائدة	عمت فليست على الأنعام مقتصرة
أعراف نعماء ما حل الرجاء بها	إلا وأنفال ذلك الجود مبتدرة
به توسل إذ نادى بتوبته	في البحر يونس والظلماء معتكرة
هود ويوسف كم خوف به أمانا	ولن يروع صوت الرعد من ذكره
مضمون دعوة إبراهيم كان وفي	بيت الإله وفي الحجر التمس أثره
وهكذا حتى يقول :	

والكافرون إذا جاء الورى طردوا	عن حوضه فلقد تبت يد الكفرة
إخلاص أمداحه شغلي فكم فلق	للصبح أسمعت فيه الناس مفتخره
أزكي صلاتي على الهادي وعترته	وصحبه وخصوصا منهم العشرة
صديقهم عمر الفاروق أحزمهم	عثمان ثم علي مهلك الفجـرة

وهكذا . وكان ابن جابر (توفي سنة ٧٨٠هـ) مولعا بالبديع والتزام ما لا يلزم
مفتنا في ذلك وله المقصورة التي التزم فيها قبل الألف حروف المعجم أولها :

بادر قلبي للهوى وما أرتأى لما رأى من حسنهما إنا قد رأى
ثم بعد عشرة أبيات انتقل إلى الباء بعدها الألف اللينة ثم إلى التاء وهكذا حتى
استوفى حروف المعجم الثمانية والعشرين فبقى له التاسع والعشرون وهو الألف اللينة
ولا تستطيع قبل مثلها فجاء بلام الألف جريا على عادة تعليم الهجاء، ليست ألفها
ألف إطلاق ولكن ألف لين هكذا :

والآن قد أكملتها في مدحه مقصورة يقصر عنها من خلا

ثم بعد أربعة أبيات من هذا الضرب جاء بتسعة قبل الألف فيهن راء ثم بسبعة قبل الألف فيهن دال .

وفي المقصورة أبيات حسان، وهي طويلة تدل على تمكن من اللغة واقتدار على النظم، وقد فخر في أوائلها فقال وذكر شوقه إلى وطنه :

لولا اشتياقي لديار كرمت
ومدح من أرجو بأمداحي له
عنى الرسول عليه الصلاة والسلام :

لم أجعل الشعر لنفسى خلعة
ياضيعة الأبواب في دهر غدا
ولم يحش فكرى به ولا غشا
فيه فتيت المسك يعلوه الخشى

أى بحر البقر - ثم يقول :

أنسا الفتى لا يطبيني طمع
لا أسأل النذل ولو أنى به
حسبي بنو عبد مناف بهم
يغنى من استغنى وينجو من نجا

فإن يكن عنى ببني عبد مناف آل البيت فيجوز أن يكون مراده بني هاشم وبني المطلب، على أنه لو قال بنو هاشم ويمكن أن يستقيم بذلك الوزن كأن يقول مثلاً " إذهب بهم " لفهم أن بنى المطلب متضمنون فيهم، وإن يكن عنى كل بنى عبد مناف فقد دخل فيهم بنو أمية، ولعله كان لهم بحكم أندلسيته ذا هوى -
ومما فيه أنفاس أندلسية قوله فى مقدمة النسب :

يارب ليل قد تعاطينا به
فى روضة تعانقت أغصانها
نادمت فيها من بنى الحسن رشا
أيام كان العيش غضا حسنه
أى زمــــــــــــــــان ومحل للمنى
ما ضاق مغناه بنا ولا نبا

ومن جيد مدحه للمصطفى عليه الصلاة والسلام :

صلى عليك الله يا من جاهه
يامن جرى من كفه الماء ومن
يوم الحساب ملجأ لمن عصى
حن لله الجذع وسبح الحصى

وقوله :

إن يقض يعدل أو متى يسأل يهب وإن يقل يصدق وإن يعد وفي
مالي لا أضفى له المدح وقد أضفى به الحق علينا قد ضفنا
ومما فخر به في مقدمة القصيدة :

أننا الفتى لا يطيبني مطمع فأبذل الوجه لئيل يرتجى
فهذا في معنى ما قدمناه من أن أصحاب الملكات الجيدة أحسوا كساد سوق
التكسب بالمدح فانصرفت هم كثير ممن هدى الله منهم إلى التماس الأجر عند الله
بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مما حثهم وقوى عزهم في هذا الباب
داعي الجهاد الذي كان يدعوهم ليدودوا عن دار الإسلام بالمال والأنفس والسنان
والبيان ، إذ قد أحرق بها في المشرق والمغرب بأس أعدائها من الصليبيين وغيرهم من
الكفرة ، فكانت القصيدة النبوية مما تستثار به الهمم وتعزى به النفوس ، وتشرح لنشيد
الصدور ، وتعرف بوجوه بلاغته وجوه بلاغة الكتاب العزيز ، وذلك من أهم ما حياه الله
عز وجل من أسباب حفظه . « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

طور النضج

وصلت القصيدة النبوية أوجها ونضجها على أيدي جماعة من مداح الرسول عليه
الصلاة والسلام كانوا شعراء مطبوعين لهم في الشعر باع طويل ، ومع ذلك انصرفوا
بقوى ملكاتهم كلها إلى تجويد المدح النبوي دون غيره من سائر أغراض الشعر يدفعهم
إلى ذلك حب عميق لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره على الدين الحنيف إذ
دعاهم داعي الجهاد وتيسير من الله سبحانه وتعالى وتوفيق (١) .

الوترى والغازي وابن جابر ومن سلك سبيلهم يمثلون جانب البديع واللتزميات
من مداح الرسول عليه الصلاة والسلام . والزنجشري وأبو حيان والفيروز آبادي يمثلون
جانب العلماء الغالب على منهجهم أسلوب العلماء من مداح الرسول عليه الصلاة
والسلام . وهؤلاء قد تصفوا ديباجة أساليبهم حيناً ولكن الغالب عليهم نظم العلماء وقد
مرت بك أمثلة ذلك في أبيات من لامية الفيروز آبادي وغيره ومما لا بأس بالاستشهاد به
في هذا المجزى دالية الحافظ ابن حجر التي أولها :

ياسعد لو كنت امرأ مسعودا ما كان صبرى في النوى مفقودا
وسهرت أرتقب النجوم كأننى في الأفق أطلب للحبيب عهدا

(١) ينبغي أن ننبه هنا على مكان الوزير ابن أبي الخصال الأندلسي (٤٦٥ - ٥٤٠ هـ) بين كبار مداح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد نوقشت بأخرة رسالة عنه بجامعة سيدى محمد بن عبد الله بفاس تدل على أن بخزانة القرويين من شعره مجموعة صالحة .

فإنه خلص في آخرها إلى باب تعليمي محض حيث قال بعد ذكره الآل والصحابة
رضى الله عنهم والإشارة إلى تابعيهم بإحسان :

من كل حبر تابع سنن الهدى ولى على أثر الهداة حميدا
مثل البخاري ثم مسلم الذي يتلووه في العليا أبو داودا
فاقت تصانيف الكبار بجمعه الـ أحكام فيها يئذل المجهودا
قد كان أقوى ما رأى في بابـه يأتي به ويحرر التجويدا
فهذا فصل في علوم الحديث ونقدها كما ترى .

وقد نظم الوزير ابن الحكيم وابن زمرك تلميذ ابن الخطيب وعدوه الموقع به من
بعد وابن خلدون صاحب التأريخ والجاه الديواني بالمشرق والمغرب ولسان الدين بن
الخطيب وغيرهما من أهل الجاه ووزراء الملوك ومن بمنزلتهم في المدح النبوي تبركا وتعبدًا
وتقوى أو تزينا بذلك وتقية كل من وجهته التي هو موليا بحسب النية التي كان
ينويها . وقد كان ابن خلدون رحمه الله شاعرا لطيف الדיباجة والبائية التي أوردها له
النبهاني من الكلام الحسن ، مطلعها :

أسرفن في هجرى وفي تعذبي وأطلن موقف عبرتى ونحيبي
وأبين يوم الين وقفة ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كتيب
وهي تسعة وثلاثون بيتا أربعة عشر منها في مقدمة النسيب فيها وشى من بديع
كقوله :

غربت ركائبهم ودمعى سافح فشرقت بعدهم بماء غروبي

فهذا من قول البحترى « بالأمس تغرب من جوانب غرب » وأحسبه على بائية
البحترى « كم بالكثير من اعتراض كتيب » هذا قوله ههنا .
كقوله : يستعذب ألص الملام وإننى ماء الملام لـدي غير شريب
والقافية قلقة وأول الكلام يشير به إلى قول حبيب :

لا تسقنى ماء الملام فلإننى صب قد استعذبت ماء بكائى
وماء البكاء ذو ملوحة ونسج أبي تمام دقيق

ما هاجنى طرب ولا اعتاد الجوى لولا تذكر منزل وحبيب

يشير إلى «قفا بك» -

ويقول في المدح :

ياسيد الرسل الكرام ضراعة تقضى منى نفسى وتذهب حوى
عاشت ذنوبى عن جنابك والمنى فيها تعللنى بكل كذوب
هب لي شفاعتك التى أرجو بها صفحا جميلا عن قبيح ذنوبى
إن النجاة وإن أتيت لأمرىء فبفضل جاهك ليس بالتشبيب

هل يعتذر بهذا عن تشبيهه في أول هذه القصيدة أو عن سائر ما اعتاده الشعراء من البدء بالتشبيب؟ أحسب هذا أشبه بما كان يغلب على ابن خلدون رحمه الله من التأمل الناقد، وقد بسط من ذلك في مقدمته ما بسط

إنى دعوتك واثقا بإجابتي ياخير مدعو وخير مجيب
قصرت فى مدحى فإن يك طيبا فبما لذكرك من أريج الطيب

كان لسان الدين بن الخطيب ^(١) وابن خلدون متعاصرين ، وكأن قد كان بينهما من أشياء الغيرة وهنواتها ما يكون بين المتنافسين غير أن ابن الخطيب كان أعمق بحراً في فنون البلاغة والشعر ، وهو صاحب التوشيح المشهور:

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلصة المختلس

وقد كان ، مع كونه من أهل الوزارة والكتابة والتصنيف في مختلف العلوم والفنون ، من أدخل هؤلاء في حاق زمرة جماعة مداح الرسول صلى الله عليه وسلم الذين خلصوا بذوات أنفسهم إليه ، جيد المذهب فيه ، ومن جياذ مدائحہ ، وذكر النبهياني أنها لم

(١) توفي ابن الخطيب سنة ٧٧٦هـ وابن خلدون سنة ٨٠٦هـ وابن الحكيم الرندى كانت وفاته في أوائل القرن الثامن وزار المدينة سنة ٦٨٤هـ وكانت وفاته قتيلا رحمه الله وقتل معه شاعره ابن خميس التلمساني رحمه الله .

يوردها صاحب نفح الطيب :

وحدا إلى ذات اليمين ومالا
سعيًا لدعوته وخاض الآلا
ويجر أذيال الوشيج طولا
كنف العفاة وأحسب الآمالا

والبين بينهم وبينى حـالا
أغنى وأقنى واجتبى وأنـالا
لم ألف للطمع المخل مجالا
لأولى النهى سبحانه وتعالى

ترك العرارة والكثيب شمالا
ودعاه داعي العز فابتدر الفلا
يتخير المرعى ويفترع السـرى
حتى توسد أبرد الظل الذي
أى أعطاها كفايتها ثم يقول :

من مبلغ قومي على بعد المدى
أنى قطعت البحر للبحر الذى
فإذا نفضت جوانحي عن مطمع
إلا رضا الله الذى هو غاية
ثم يقول في لوم النفس وروم سبيل الحج والزبارة :

وظلام مسعى تهت فيه ضلالا
من رام غير الله رام محالا
غارت بي الدنيا فقالت لالا
خرقاء تخلط بالنفار دلالا

كم مركب أنضيت في طلب الهوى
وقفت به قدمي على ندمى أسى
إن سـامحت بنعم ونعمى همتى
همنا بشمطاء المفارق لم تزل

عنى بالشمطاء الدنيا . وفي خرقاء نوع من إشارة إلى صاحبة ذى الرمة التي قال فيها :

تمام الحج أن تقف المطايا
على خرقاء واضعة اللثام
وقوله «تخلط بالنفار دلالا» دل به على أنها غير خرقاء في فتنة ذوي الألباب حتى تعزب
بهم عنها أو كما قال :

غطى على الألباب منا سحرها فنرى الحقيقة في الوجود خيالا
ولابن الخطيب أحيانا ولع عبارات الفلسفة والمنطق ، فربما كدر ذلك بعض صفاء
ديباجته شيئا وقد يعلم القارئ الكريم أصلحه الله طعن ابن خلدون على تعاطي
مذاهب الفلاسفة في الشعر حتى لم يعف من نقد بما قاله أبا الطيب المتنبى بله أبا
العلاء فهل ضمن مقاله في ذلك بعض التعريض بابن الخطيب؟

يأليت شعري هل أرى متوسدا كوماً تحبب سببها ورمالا
من كل حالية الطلى تفرى الفلا ظلماً جو ما عرفن كلالا
صارت قسيا بالضمور وفوقها أنضاء صيرها النحول نبالا

ما أرى إلا أنه (وفوقها الأنضاء) إذ ليس هذا مما يمنع من الصرف ويناسب مكان
الألف واللام هنا مكانهما من قوله (بالضمور)

ما زلن في تعب وشدة لوعة حتى بلغن بنا النبي فزالا

ثم أخذ في مدحه عليه الصلاة والسلام فقال :

خير الأنام ومعدن النور الذي نسخ الضلالة بالهدى وأزالا
وغيث أهل الأرض يفرج عنهم ربق الذنوب ويرفع الأغلالا
وطيب أدواء النفوس إذا شكت داء يعز على النفوس عضالا
يا من إذا ركض الجواد بمدحه ملء الأعنة لا يقال تغالى
يا من ملائكة السماء به اقتدت هديا وصلت خلفه أرسالا
إني وصلت بجاهك الأحمى يدي وتخذت حبك عـــــــروة وثمالا
أنت العزيز حقيقة وبضاعتي قد أملت أن توفي المكيالا
حاشا جلالك أن تحيب قاصدا حاشا نوالك أن ترد سؤالا
وعليك يا خير الأنام تحية كالروض صافح عارضا هطالا
تحتص أربعك المعطرة الشذى والصحب والملا العرضى والآلا

ثم ذكر الخلفاء الأربعة وأعانه الملكة الجيدة واندفاعه صدق الإيقاع فأتقن نظم
أسمائهم مع ما يناسب من حسن ثنائهم :

وعلى أبي بكر خليفتك الذي كشف الخطوب ودافع الأموالا
وعلى أبي حفص خليفته الذي فتح الفتوح ونقل الأنفالا
وعلى أبي عمرو بن عفان الذي أغرى بجيش العسرة الأموالا
وعلى علي خير من صرع العسدا يبغي رضاك وجندل الأبطالا
ما فجر فجر النهار فخلته نهرا على مرج الدجنة ساللا
ما لاح إصباح وأشرق كوكب وتعاقت ريح صبا وشمالا
ما غردت ورقاء حتى أطربت ألحانها غصن الرياض فمالا

لعلك فطنت إلى نفس طبيعة الأندلس ههنا

يا هل يبلغني السرى أم القرى فأهل من ميقاتها إهلالا
لعقيلة الدين التي قد أطلعت من مسكة الحجر المقبل خالا

يعنى الكعبة، فجعل الحجر كأنه بخدها وهي عقيلة كريمة، خال - وقد كان الخال
مما يستحسن في حدود البيض الملاح

لله من حلل تشوق وأربع تهدي بطيب نسيمها الضلالا
ما استنشقت نفحات هبات الصبا إلا لأن جرت بها الأذيالا
طابت معاهدها بأكرم مرسل فاق الأنام شمائلها وخلالا
صلى عليه الله ما ذكر اسمه فجلا السنا وكسا الوجود جمالا

فهذه كما ترى ديباجة جزلة عليها من البديع رونق، مع حرارة نفس ونصوع بيان وجودة
زين.

ويذكر عن أحد أمراء الافرنج الإسبان أنه عجب من سادة المسلمين كيف أقدموا على
قتل ابن الخطيب مع فضله الباهر وبيانه الساحر؟ وقد كان رحمه الله من أخريات
إشراقات الأندلس، ومن أشدها وهج ضياء، وفخراً لغرناطة ما أحسبها أخرجت بعده
من يضاهيه أو يدانيه، وما كان ابن زمرك على تجويده لصناعته إلا انعكاسة ضوء لمحة
من بارقه - تأمل مثلاً قوله:

إليك رسول الله دعوة نازح خفوق الحشا رهن المدامع هيان
غريب بأقصى الغرب قيد خطوه شباب تقضى في مراح وخسران
يجد اشتياقا للعقيق وبانه ويصبو إليه ما استجد الجديدان

فهذا يحاكي فيه ابن الخطيب، وليس فيه نفحات صدقه. وله همزية جارى بها:

أرج النسيم سرى من الزوراء سحرا فأحيما ميت الأحياء
أهدى لنا أرواح نجد عرفه فالجو منه معبر الأرجاء

وكان أمر ابن الفارض آتذ معروفا، وعندى أن شعر ابن الفارض وسط إلا ما ندر وفيه
بعد نظر، ثم ليس فيه من المديح النبوي شيء ومن عجب الأمر أن الجزالة إنها تعطى

قيادها مع المديح وما بمجرها فتأمل . وقد يجوز أن يكون ابن زمرك نظر إلى ما ثم من
همزيات مجرورة الروي قديمة ككلمة حبيب :

قدك اتتب أريبت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائي

ومهما يكن من ذلك فإنه ما جاوز نهجا خطايا قليل الرونق ، أشبه شئ بمنظومات
المناسبات التي لا يكون لها قوة تأثير بعد مناسبتها الأولى . ومطلعها :

زار الخيال بأيمن الزوراء فجلا سناء غياهب الظلماء

وأكثر أبيات القصيدة على غرار هذا المطلع لا تكون أجود منه ان لم تكن دونه .
وللسان الدين بن الخطيب شعر نبوي قاله على لسان سلطانه ملك غرناطة الغني بالله
من بني الأحمر محمد بن سلطان بن الحجاج ربما ضمنه من خاص شعوره وصدق محبته
مع الذي اعتذر به على لسان سيده من التقصير عن قضاء واجب زيارة القبر الشريف
بما كان يعدوه من واجب المراقبة وجهاد العدو ، وإنما قصد لسان الدين وسلطانه إلى
وجه من الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم . من ذلك باثيته التي مطلعها :

دعاك بأقصى المغربين غريب وأنت على بعد المزار قريب
والضمير يخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمستغيث هو لسان الدين على
لسان سلطانه كما تقدم وجلي أيضا أنه مستغيث بلسان نفسه أيضا :

مدل بأسباب الرجاء وطرفه غضيض على حكم الحياء مريب
يكلف قرص البدر حمل تحية إذا ما هوى والشمس حين تغيب
لترجع من تلك المعالم غدوة وقد ذاع من رد التحية طيب
ويستودع الريح الشمال شائلا من الحب لم يعلم بهن رقيب
لعلها الشمال بفتح الشين وهو أشبه من أن تقع في بيته شبه ضرورة إذ حق الياء هنا
ظهور الفتحة عليها . وفي الأبيات التالية لهذا البيت أخطاء نسخ أو طبع يشين ما لا
ريب فيه من روايتها واستوائها وصفائها
ومنها :

وما حاجني إلا تألق بارق يلوح بفود الليل منه مشيب
فبت وجفنى من لآلى دمعـه غني وصبرى للشجـون سليب
ومنها

أيا خاتم الرسل المكين مكانه حديث الغريب الدار فيك غريب
عدت عن مغانيك المشوقة للعدا عـارب لا يخفى لمن ديب
حراس على إطفاء نور قدحته فمستلب من دونـه وسليب
بنصرك عنك الشغل من غير منة وهل يتساوى مشهد ومغيب

أى شهودى لا بد منه لمباشرة الجهاد، فإن غبت للزيارة ناب عنى غيري فليس ذلك في القيام بواجب الجهاد كما لو أشهد. ولعل القارى يظن إلى جانب البديع في الاستعارة والطباق والتورية - قوله غريب من قولهم حديث غريب أى نادر نفيس من طرق إسناذه وقوله مستلب وسليب تضمين من بائية علقمة وإشارة إلى قوله :

رغا فوقهم سقب السماء فداحض بشكتـه لم يستلب وسليب
يريد بالإشارة معنى عذاب الله الذى صبه على ثمود .

ولولاك لم يعجم من الروم عودها فعود الصليب الأعجمي صليب
وجاهك بعد الله نرجو فإنه لحظ ملء بالوفاء رغب
عليك صلاة الله ما طيب الفضا عليك مطيل بالثناء مطيب
وما افتر قد للغصون مرنح وما افتر ثغر للبروق شبيب

على جزالة ابن الخطيب فيه تصنيع ووشى كثير وله غرام بذكر النسائم والأغصان والغيث، مما هو، على أصالته في العربية، ذو نفحات اندلسية مغربية . ومن بديعه المصنوع فى هذه البائية قوله :

فقول حبيب إذ يقول تشوقا عسى وطن يدنو إلى حبيب
يعنى حبيب بن أوس فى أول البيت . وقوله :

ويا قادح الزند الشحاح ترفقا عليك فشوقي الخارجى شبيب
أى الذى لا أستطيع رده قد شب - ويشير إلى شبيب زعيم الخوارج على زمان الحجاج . ومما قاله على لسان سلطانه الغنى بالله :

إذا فاتنى ظل الحمى ونعيمه فحسب فؤادى أن يهب نسيمه
وهى أجود وأصفى دياجة من البائية وأحر أنفاسا وأخفى صناعة بديع

ويقنعني أنى به متشبهه فزمرمه دمعي وجسمي حطيمه

المطلع مشعر كما ترى بأرب الشاعر، وهو ما تقدم من شوقه إلى الحجاز، وما يعدو دون ذلك من أمر الجهاد. وجعله دمعته زمزما لملوحة الدمع وجسمه حطيم بالشوق والحطيم من أسماء البيت الحرام تسمية كل بجزء ومنها:

ولم أر شيئاً كالنسيم إذا سرى شفى سقم القلب المشوق سقيمه
نعلل بالتذكار نفساً مشوقة ندير عليها كأسه ونديمه
وما شفىني بالغور قد مرّنج ولا شاقنى من وحش وجرة ريمه
ولا سهّرت عيني لبرق ثنية من الثغر يبدو وموهنا فأشيمه
تأمل رصانة هذه الأبيات مع عذوبة لفظها. وما خلا ابن الخطيب من نظر إلى قول أبي العلاء:

وما شاق قلبي بارق نحو بارق ولا هزني شوق لجارة هزان

والمعري يشترّ لخبر الأعشى مع الهزانية وقد جاء به في رسالة الغفران. والذي أخذه ابن الخطيب نهج الصياغة وصدى إيقاعها ومنها:

ألا يا رسول الله ناداك ضارع على النأى محفوظ الوداد سليمه
مشوق إذا ما الليل مد رواقه تهم به تحت الظلام همومه
إذا ما حديث عنك جاءت به الصبا شجاء من الشوق الحثيث قديمه
أيجهر بالنجوى وأنت سميعها ويشرح ما يخفى وأنت عليمه
وتعوزه السقيا وأنت غياثه وتتلفه الشكوى وأنت رحيمه

تأمل انسياب هذا الكلام وما فيه من شبه بأنفاس فحول المولدين حبيب والوليد وأبي الطيب

بنورك نور الله قد أشرق الهدى فأقماره وضاحية ونجومه
لك انهل فضل الله بالأرض ساكبا فأنواره ملتفة وغيومه

في قوله «فأنواره» معنى الأزهار

ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى خليل الذى أوطاها وكليمه

هنا إشارة إلى المعراج

لك الخلق الأرضى الذى جل ذكره ومجدك في الذكر العظيم عظيمه
يجل مدى عليك عن مدح مادم فموسر در القول فيك عديمه
ويقول على لسان الغنى بالله معتذرا عن تقصيره عن الديار المقدسة :-

عدتني بأقصى الغرب عن تريك العدا جلالقة الثغر الغريب ورومه
تأمل تسميته الأندلس الثغر الغريب ، وقد سبقت الإشارة إلى أن ابن زمرك من طريقة
لسان الدين أخذ

أجاهد منهم في سبيلك أمة هي البحر يعي أمرها من يرومه
لا يخفى ما ههنا من تنبه إلى أن نصر المسلمين بالأندلس لا يتأتى لمن يريد نصرهم إلا
بقوة البحر. وابن الخطيب قوي الإحساس بأن سبيل الأندلس ، ما بقي منها ، إلى
ضياح ، وكذلك كان إحساس ابن خلدون. ولن قبلهما أحس أبو مروان بن حيان على
حين لم تزل قرطبة وطليلة واشيلية كل أولئك تحت سلطان الإسلام ، ولكن الفتنة
التي طوحت بالخلافة الأندلسية وما تبعها من تفرقة دامية العراك هو الذي أوقع في
نفسه هذا الحذر ، وإلى الله تصير الأمور
ويقول في آخرها يخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام :

وأنت لنا الغيث الذي نستدره وأنت لنا الظل الذي نستديمه
ولما نأت داري وأعوز مطمعي وأقلقني شوق يشب جحيمه
بعثت بها جهد المقل معولا على مجدك الأعلى الذي جل خيمه
وكلت بها همى وصدق قريحتي فساعدني هاء الروي وميمه
فهذه طربة حبيبة الشوة

فلا تنسني يا خير من وطىء الثرى فمثلك لا ينسى لديه خديمه
عليك صلاة الله ما ذر شارق وما راق من وجه الصباح نسيمه
وهنا ما تقدم ذكره من النفحة الأندلسية - شاهد ذلك أنك تحس نوع أحساس من

الشاعر بهذا النسيم الذي راق ، لا أنه يقصد إلى تكثير عدد الصلاة بذكر النسيم ليس غير.

وللسان الدين عدا ما ذكرنا مدائح يعرفها حذاق المنشدين وما زالوا يتغنون بها مع ما يتغنى به الذاكرون منهم على سبيل المثال رائيته التي يذكر فيها زيارته القبر الشريف :

الله أكبر جبـذا إكـباره	لاح الهدى وبـدت لنا أنواره
لاحت معالم يشرب وربوعها	مثنوى الرسول وداره وقراره
هذا النخيل وطيبة ومحمد	خير الورى طرا وهأنـا جاره
هذا المصلى والبقيع وههنا	ربع الحبيب وهـذه أثـاره

ومنها :

هدي مواضع مهبط الوحي الذي	تشفي القلوب من الحمى أسـاره
والروضة الفيحاء هب نسيمها	والبان بان ونم عنه عـاره
وتعطرت سلع بساطع طيـها	لم لا يطيب وحولـه مختـاره
بشارك يا قلبي فقد نلت المنى	وبلغت ما تهوى وما تختـاره

ومنها :

أخيـب من قصد الكريم وعنده	حسن الرجاء شعـاره وذـاره
أيـؤم بابك مستقيل عـائر	فيرد عنك ولا يقال عـاره
حاشا جلالك أن يؤلمه امرؤ	فيعود صفرا خيـت أسـاره

رسمت حاشا بالألف بعد الشين في المطبوعة ولا أدري ما وجهه والعرب تقول حاشاك وحاشي لك وفي كتاب الله : " حاش لله ما هذا بشرا " ، تعجب فيه معنى الإكبار قال أبو عبيدة : وقلن حاش لله الشين مفتوحة ولا ياء فيه وبعضهم يدخل الياء في آخره كقوله :

حاشي أبي ثوبان إن به ضنا عن الملحاة والشتـم

ومعناه معنى التنزيه والاستثناء من الشر. قلت أحسب أن من جاء بالألف بعد الشين في الرسم توهمه من قول أبي عبيدة ولا ياء فيه إذ عني أبو عبيدة ياء اللين التي لرسم الألف اللينة ، وذلك أن رسم المصحف العثماني في هذا الحرف بالشين ليس بعدها شيء وكل القراءة إلا أبا عمرو يقرأون بشين مفتوحة فهو المشار اليه بقوله بعضهم من كلام أبي عبيدة وذلك أن أبا عمرو اذا وصل مد فتحة الشين فجاء بألفها اللينة وتكتب ألفا حمراء بعد الشين وأهل الاداء يعلمون ثباتها عند أبي عمرو وصلا لا وقفا

وليس بموضع وقف لكن من اضطر فوقف عنده سكن الشين، فأحسب رسم النبهي لها «حاشا جلالك» أو رسم النساخ من قبل إن يك هكذا مراعاة لرسم المصاحف .
ومن هذه الرائية قوله في أواخرها :

فامنن علي وكن شفيعي والتفت مستنصرا بجلالك استنصاره

وكان تأويله والتفت إلى مستنصر ونصب بنزع الخافض وهو «إلى» وعندي انه قد وقع خطأ من النساخ وهنا وأن الصواب :

فامنن علي وكن شفيعي ولتفت مستنصرا بجلالك استنصاره

أي ولتكن مغنيا لي، وزعم بعضهم أنه لا يجوز مجيء لام الأمر مع المضارع المبدوء بتاء الخطاب بحجة أن فعل الأمر قد أغنى عن ذلك وليس هذا بشيء لقراءة أبي «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا» وهي عشرية في حرف يعقوب عن رويس ذكره صاحب النشر.

صلى عليك الله ما حيا الحيا روض الربا وترنمت أطياره

وتأمل نفحة الاندلس في تحية الحيا روض الربى، وترنم الأطيार .

كان لسان الدين بن الخطيب رحمه الله شاعرا مقلقا ولعل النبهي يشير إليه وإلى ابن نباته المصري وحازم وابن جابر إذ قال في مقدمته أنه يبدأ كل حرف بمديح الأئمة الثلاثة الأبوصيري فالبرعي فالصرصري «ان كان لهم كلام لأنهم أشهر مداحه صلى الله عليه وسلم وان كان قد أتى من أئمة المشاركة والمغاربة من هو مثلهم أو أعلى نظما من بعضهم كما سنقف على ذلك من كلامهم إن شاء الله تعالى ١٠ هـ»

قلت لعل هذا من قول النبهي رحمه الله أن يكون قد احتسب به، ومن اجود من بالمجموعة ابن الخطيب وهو على براعته وصفاء ديباجته وما يتأتى له من الجزالة لا يبلغ مبلغ الثلاثة الأئمة في حاق المدح النبوي، إذ على صدقه فيه، لا يخلو من شائبة بعض أنفاس الدنيا خلاف ما عليه نظم الثلاثة، وقال تعالى جل من قال : «نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم .»

الصرصري والبرعي والبوصيري

أحسب أن هذا ترتيبهم إن شبهناهم تشبيها لا نريد به حقيقة الماثلة ولكن نريد به نحواً من التقريب بثلاثة المولدين الكبار، أبي تمام وأبي عباد وأبي الطيب. أشبههم بأبي تمام الصرصري. وأشبههم بأبي عبادة البرعي، وأشبههم بأبي الطيب البوصيري، وهو المقدم المجمع على تقديمه وتفضيله، والبرعي أشهر من الصرصري والذاكرون بالمديح النبوي أكثر لقصائده إنشادا. وقد كان الصرصري من رجال السابع الهجري في نصفه الأول قتل ببلدته صرصر سنة سقوط بغداد. قتله التتار شهيدا رحمه الله. وكان البوصيري من رجال نفس القرن ولد سنة ٦٠٨ هـ مات في آخره سنة

٦٩٦ هـ. وكان البرعي من رجال الثامن والتاسع كما في البدر الطالع وأشار إليه شارح القاموس في مادة برع ولم يذكر تاريخ مولده أو وفاته وذكر وفاته صاحب البدر الطالع أنها سنة ٨٠٣ هـ وذكرها الزركلي في أعلامه عند عبدالرحيم بن أحمد بن علي البرعي ولكن ذكر أن الذي بأيدي الناس هو ديوانه الصغير وكنت أصبت تاريخ مولده ووفاته من الأستاذ المجمع المفضل الشيخ محمد علي عقبات. من علماء مدينة صنعاء ثم ند عني موضع القصاصة وذكر الشيخ النبهاني رحمه الله أنه من رجالات القرن الخامس ولا احسبه صحيحا لوضوح ما في البدر الطالع وقوته.

للصرصري مقصورة نظم فيها عقيدته، وهي ما كان قائما عليه إجماع أهل السنة وأحسب أن اللقاني في جواهرته المشهورة وغيره من معروف أصحاب المتون المنظومة في العقائد لم يخلوا من استفادة بها ونظمها أمتن من نظمهم بلا ريب كقوله :

ومعجزات الانبياء كلها	ثابتة كيد موسى والعصا
ثم كرامات الولي ما بها	ريب ولو قيل على الماء مشى
وأفضل العالم ممن آمنوا	في كل عصر وزمان قد خلا
أمتك الزهراء خير أمة	وخيرها القرن الذي بك اقتدى
وخير هذا القرن كل سابق	وخيرهم اربعة هم الفراء
من «كل الصيد في جوف الفراء»	

وكل من كان بيد حاضرا	لوقعة ففضله لا يرتقى
وبيعة الرضوان من يشهدا	فهو عظيم الفضل محروس الحمى
والكف عما كان بينهم به	أدين لا أقبل من واثق وشي
وإن أزواجك كلهن في الـ	جنة يفضلن على شمس الضحى

ثم أخذ في نظم ما يدين به من الشرع مما كان عليه أشهر قول أهل السنة .

والصوم والصلاة والزكاة والـ	عمره والحج وبيع وشرا
والنصب والخمر وكل مسكر	وكل مزممار وتحريم الزنا
والأمر بالمعروف والنهي عن الـ	منكر والعرف وتحريم الربا
والسمع والطاعة للأمر في الـ	جور وفي العدل وحرب من بغى
شرع صحيح ثابت يبقى إلى	أن ينقض العلم وينقض المدى

فهذه عقيدتي نظمتها
يعرضها يوم الخميس ملك
أجعلها عندك ذخرا يرثي
عليك يا جابر كسر قد هفا
في المطبوعة الخميس بالخاء المعجمة وما أرى إلا أنه الخميس بالخاء المهملة وهو
يوم القيامة لما فيه من الحر والعرق .

فأسأل لي الرحمن أن يميتني غير مغير إذا الوقت انقضى

فقد مات - ان شاء الله - شهيدا رحمه الله

عساه أن يغفر لي خطيئتي	بفضله ذو الملكوت والغنى
حتى تكون لي بهذا شاهدا	عند الذي يعلم سري ويرى
صلى عليك الله ذو الجلال ما	هبت مع الأسحار أنفاس الصبا

لاحظ الفرق بين طريقة الصرصري في ذكر هبوب الصبا وما مر من ارتياح ونشوة
للطبيعة في كلام ابن الخطيب . ألا ترى هنا أن الصرصري أشد اهتماما بأن هبوب الصبا
في الأسحار وازن بين هذا وبين قول ابن الخطيب مثلا :

عليك صلاة الله ما ذر شارق
وقوله :

صلى عليك الله ما حيا الحيا
وقوله :

عليك صلاة الله ما طيب الفضأ
وما افتر قد للغصون مرنج
عليك مطيل بالثناء مطيب
وما افتر ثغر للبروق شبيب

وأول المقصورة استهلال عذب حسن الانسياب وهو قوله :

ما بين قرب وبعاد وقل
ضاع زماني ووهت شيبتي
واها لأيام شباب ما لها
لكنها غمضى وتبقى حسرة
من لم يكن في غرة الدهر له
و بين ليلت ولعل وعسى
وصوح المخضر منها وذوى
من أوبة بعد الشباب ترنجي
تثبت ما بين الضلوع والحشى
عزم كغرب السيف حين ينتضى

فقلما ينجب في آخره أين البطيء والمغنى في السرى
لو قد كان جاء بجواب الشرط (من لم يكن) في عجز البيت لأشبهه مذهب ابن دريد
في المقصورة، ولكنه بجعله الجواب في بيت تال قد باين ذلك المذهب، وهذا أدل على
ساحة طبعه وأنه لم ينصب من نفسه مجاريا لابن دريد وإن يكن قد أخذ ببحره ورويه

يا ويح عبد ذهبت أوقاته مستغرقات في جهالات الهوى
يسعى إلى الأثام جذلان وقد أحصى عليه الكاتبان ما سعى
ثم سلك الصرصرى من بعد سيلا من الوعظ أصاب فيها من النظر إلى ذكر الحساب
واليوم الآخر. ونظم معاني القرآن والحديث عسر ومزلة أقدام، وقد تعلم كيف تكلف
أبو تمام وقارب شفا الاساءة حيث قال :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثانيا اذ هما في الغار
أصاب الصرصرى رحمه الله شأوا بعيدا من الإجادة في بعض ما تناوله في هذا المجال .
مثلا ما جاء من صفته للنبي صلى الله عليه وسلم إذ قام بلواء الحمد للشفاعة :

مالي مجير ذلك اليوم سوى محمد خير الأنام المجتبى
أول من ينشق عنه قبره وما عليه من سبيل للبلى
يزفه سبعون ألف ملك وهو على البراق ساطع السننا

وهذه الصورة مأخوذة من قصة الاسراء والمعراج
بيده اللواء تحت ظله آدم والأشراف من أهل البهى
وهو شفيع الناس يوم العرق الطـ ساغي وفيه كل وجه قد عنا

جمع هنا بين معاني الحديث والقرآن - قال تعالى : وعنت الوجوه للحي القيوم
وضوعفت سبعين ضعفا شمسـ حرا وقدر الميل جرمها دنا
واشتد فيه غضب الله على من صد بغيا وتعدى وطغى

يوم يقول الأنبياء كلهم نفسى إلا الهاشمي المرتضى
 يقول وهو صادق أنا لها في موقف فيه الخليل قد خشى
 خشى بوزن سعى على لغة طيء في باب فرح وسمع الناقص
 يميز من كان مصدقا به على صراط مزلق من اعتدى
 أعد للعاصين من أمته شفاعته تنقذ من حر لظى
 ومد حوضا قدر شهر عرضه ينقع غلة الصدى عذبا روى
 أكوابه من ذهب وفضة مثل النجوم عددا ومجلى
 أنقى بياضا من صريح لبن ومن مصفى عسل أحلى جنى
 يردده الشعث الرؤوس أولا ورد عنه كل فاجر غوى
 فهذا كما ترى نفس حلو الانسياب، سهل الديباجة، جميل طريقة القصص .
 ومن جواد شعر الصرصرى رحمه الله رائيته التي جعل أولها تشبيها بالكعبة

المشرفة، وأعطاهها صورة المحبوبة الحسنة التي يوافي طيفها فيهيح دوافع الشوق . وقد
 أخذ أصل المعنى من قوة علاقة الدار بالمحبوبة في قديمات قصائد العرب، وأخذ معنى
 خلع صورة الإنسان على الدار من طريقة أبي تمام فمزج جميع ذلك وولد منه ما صار هو
 إليه من المعانى الحسان، لا أشك أن محيي الدين بن عربي أخذ تغزله بالكعبة من
 ههنا، لأن شعر الصرصرى رحمه الله كان ذا سيرورة مشهورا . وتغزل ابن العربي الذي
 جاء به في الفتوحات ليس بجيد حقا، وكان النظم أغلب على طريقته نظما قليل الماء :-
 ونعود بعد إلى ذكر رائية الصرصرى، قال رحمه الله ورضى عنه :

حيثك ألسنة الحيا من دار وكستك حلتها يد الأزهار
 هذا المطلع كما ترى طنان رنان، فيه روح من طنانة أبي تمام :
 الحق أبلج والسيوف عوارى

وقد سبقت منا الإشارة إلى أن في الصرصرى رحمه الله أنفاسا حيوية
 وتعطرت نفحات تربك كلما فض النسيم لطيمة الأسحار
 فهذه الاستعارة حيوية المعدن .

فلأنت معهدي القديم ومألفي وبك انقضت محمودة أوطارى
 لله ما أبقى الأحبة مودعا بشراك للمشتاق من آثار
 لأصرحن اليوم فيك بلوعة كلفت بهاء في الطلـول ونار
 ماكنت بدعا في الصبابة والأسى حتى أوارى زفـرتى وأوارى

ما الحب إلا لوعة تلج الحشا أو مدمع جار لفرقة جار
ومصونة حوت البهاء ستورها سمراء يطرب وصفها سمارى
تأمل أصناف الجناس التي مرت - ثم تأنيث الكعبة ههنا وجعلها عقيلة مصونة
معشوقة :

عريية الأنساب قام بحسنها عذرى وطاب عليه خلع عذارى
جعله الحسن عذرا فيه كالإشارة إلى قول امرأة العزيز: « فذلكن الذي لمتننى فيه » لما قلن
لها: « حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » ثم أخذ بعد في ذكر الطيف :
زارت على بعد المسافة بعدما هوت النجوم ولات حين مزار

يشير هنا إلى قول جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمى بسلام

وأراد جرير أن عليه أن يصلى الفجر ويواصل السير فهذا سبب طرده الخيال، إذ هو
طرد للنوم. ويروى أن السيدة سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين
أخذت عليه، وما أحسب أنه غاب عنها مراده، ولكنها لعلها أخذت عليه بعض
مذاهبه في المدح والهجاء .

أو اخترع الخبر بعض الحذاق

زارت على بعد المسافة بعدما هوت النجوم ولات حين مزار
أنى طوت شقق الفلا وديارها بحمى الحجاز وبالعراق ديارى
أهلا بطيف زائر أهدى لنا ربا ممنعة الحمى معطار
دل بيته هذا أنه لم يطرد الخيال، فجرى قوله « ولات حين مزار » مجرى الدلالة على
الوقت

جادت بوصل واثنت ومحبها عارى المعاطف من ملابس عار
فهذه قرينة مانعة من أن تكون المتغزل فيها امرأة - على أنه ليس في وصال الطيف من
عار. ولا يخفى بعد مكان الجناس .

هل وقفة للركب في عرصاتها وله جوار في أعز جوار
فأقبل الحصباء منها مطفئا جمر الغضى منى بـرمي جمار
فهذا يكشف أن المتغزل بها هي الكعبة
فهنالك لا حجر ولا عار على
ذي الحجر في التقبيل للأحجار

ذو الحجر أي ذو اللب

أم عائد منى بأجدد تربة بالقصد في أكناف خير جدار
ربع به غرر العلا مبذولة للمشتري والأري للمشتار

الأرى هو العسل ومشتاره جانيه والتربة عنى بها قبره صلى الله عليه وسلم

وبه يبين للقلوب حقائق الـ أسرار بسر لم يشن بسرار
ومن ههنا أخذ في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

هو أحمد المختار أحمد مرسل قتال كل معاند ختار
نذب إذا بث الجياد مغيرة علقته بحبل للثبات مغار
بيمينه في الحرب حتف المترى وحياتها في السلم للممتار
هكذا وعندي أن ههنا خطئا من الناسخ وأن الصواب : وحيا بها أي وبها حيا أي غيث
في زمن السلم لطالب جدواها ممتارا ، لأن الغيث يتبعه الخصب والميرة

غمر الندى جلاء أغمار الورى متكفل بهداية الأغمار
جعل المهيمن في مسمع خصمه وقرا وزان صحابه بوقار
وهو المظلل بالغنائم من أذى الـ أسفار والمنعوت في الأسفار
يعنى أسفار أهل الكتاب

وبه تنشر حين سار مهاجرا للغار ذكر فاق نشر الغار
وانهل إكرامه له صوب الحيا والقطر محتبس من الأقطار
فضل البرية كلها ورسابه طود العلا في هاشم ونزار
وما أرى إلا أنه عنى بنزار العرب أجمعين .

والمدح هنا خالص لا يشوبه تباه بشيء من عرض الدنيا أو التفات إليه ، وهذه مزية
مداح الرسول صلى الله عليه وسلم الذين انصرفوا بفنهم كله إلى مدحه عليه الصلاة
والسلام ، لا يشوبونه بغيره ، ووازن بين ما ههنا وما مربك من كلام الزمخشري وابن
الخطيب والأيوردي والفيروزابادي مثلا .

ياهاديا شد الإله بدينه أزرى وشد على العفاف إزاري
يامن به إن عدت في سنة حمى أو زار في سنة حمى أوزارى
يامن حباء يديه محلول الحبي لحبا يسار أو لفك إيسار
لو لم يكن مدحيك من عددي لما أضحي شعاري صنعة الأشعار

وازن بين هذا وبين قول ابن جابر في المقصورة

أنا الفتى لا يطيبني مطمع فأبذل الوجه لنيل يرتجى

وقوله :

لولا اشتياقي لديار كرمتم لبعدها يرثى لنا من قد رثى
ومدح من أرجو بأمداحي له إصلاح ما قد عاث منى وعثى
لم أجعل الشعور لنفسي خلعة ولم يحش فكرى به ولا غشا
يا ضيعة الأبواب في دهر غدا فيه فتيت المسك يعلوه الخشى
فإن ههنا خشونه مع جانب تعزز شخصى ذاتى ، وازن بين هذا وبين شعور النشوة
والفرح النفسى بما حباه الله هذه الهبة حتى جعلها لنفسه صنعة وشعارا إذ مدح النبي
صلى الله عليه وسلم من عدده للدنيا والآخرة .

لو لم يكن مدحك من عددى لما أضحى شعارى صنعة الأشعار
نشر الثناء عليك أطيب نفحة من مسك دارين تفوح بدارى
أرى أن الثناء فاعل لنشر وهو فعل وأطيب مفعول به وأصله صفة لمحدوف ونفحة تميز
أى نشر ثنائى عليك نفحة طيبة أطيب من مسك دارين ، فهي بدارى فائحة . ومن
جعل « نشر » مصدرا والثناء مضاف إليه وأطيب خير المبتدأ جاز ذلك وأحوج إلى
تأويل النشر بمؤنث وليس فى جودة ما ذكرنا ، ورنه ما ذكرنا أجود ان شاء الله
ملاً المهيمن مذ قصدتك مادحا بيساره يمنائى ثم يسارى

تأمل هذا الشكر والحديث بنعمة المولى وصدقه وأريحيته
ونفى بجاهك يا أعز وسائل قتر الهوى عنى مع الإقتـار
فتخذت سبتك المنيرة حجة ومحجـة تهدي لخير منـار
وغدوت محروس الحمى من ضيقة الإعـ سار عند تواتر الأسعار

كأنما أطل على هذا البيت ظل من أبى تمام وذلك قوله :

وتباشروا كتباشر الحرمين في قحم السنين بأرخص الأسعار
وكان الصرصرى يتعمد نوعا من الإلماح بالإشارة إلى هذا البيت ، لأن هؤلاء تباشروا
بالخليفة وابنه الواصل والصرصرى بشراه وتباشره بهذا الشعر النبوي الذى نفعه وحماه
وتتبع قتر ذنبه فمحاه .

حسبى رجاء أننى من أمة بك أصبحت موضوعة الأصار
أنت الزعيم لها وأنت سفيرها ان أقبلت من أطول الأسفار

وذلك ما بين المحشر والممات

ويزيد فيك رجاء قلبي قوة أن صار بي نسب إلى الأنصار
هذا المعنى حاوله من بعد لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه ولم يجيء به سهلا
جيدا كما ههنا

قوم حللت بدارهم فتدعروا بدارهم لرضاك ثوب فخار
فأسأل إلهك لي بعشر محرم جبرا لقلب واجف الأعشار
وشهادتي حق قبيل شهادة فيها الوفاق لأهلك الأطهار

إذ قد استشهد منهم من قد استشهد في أول الإسلام ومن بعد، كسيدنا حمزة وعبيدة
وجعفر وزيد بن حارثة وعلي والحسين وزيد ويحيى رضى الله عنهم أجمعين. وقد
أجبت دعوته. وحسن أولئك رفيقا.

جئنا بهذه القصيدة كاملة لم نحذف منها شيئا ليرى القارئ الكريم كيف أنفاس هذا
النمط الروحي الخالص.

وقد كان في الصرصرى وصاحبيه طول نفس، وقد بيا قال أبو الطيب في ممدوحه الذي
هو علي مجده من سائر أفراد الملوك:

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قائلا فقل

وقد سبقهم من صناعة أبي تمام والبحتري ما مهد لطول النفس عندهم، وكان أبو
الطيب أميل إلى الإيجاز وبذلك تبرزه. وقد سبقهم أكثر من هذين أسلوب تطويل ابن
الرومي الذي كان يتأني إليه بتشقيق المعاني وتفريغها. غير أنه كان يهمل جانب تجويد
اللفظ والإيقاع كما قدمنا.

وفي مادة السيرة النبوية من خبر الجهاد والصبر أيام قبل الهجرة وبعدها والمعراج وما
كان فيه من الأسرار والتجلي وكشف الحجب مجال خصص للقصص وإطالة النفس
من غير ما حاجة إلى التشقيق المعنوي والاحتتيال إلى تفريغه. فأتاحت طبيعة هذه
الخصوبة في مادة السيرة إمكان الجمع بين متانة الأسر وجزالة اللفظ مع انسياب السرد
ولا يخلو صدر القصيدة مع ما جبلت عليه بنيتها من إثارة الإيجاز من اتساع لطول
النفس متى تبيأت أسبابه ومن أجل ذلك طالت المعلقات وبعض قصائد الأوائل
كجرير والفرزدق. إلا أن الإيجاز كما تقدم هو القاعدة الأولى في بيان الشعر وبلاغته.
وأحسب أنه من أجل هذا قال صاحب العمدة في باب اللفظ والمعنى: «والفلسفة
وجر الأخبار باب آخر غير الشعر، فإن وقع فيه شيء منها فبقدر، ولا يجب أن يجعلا

نصب العين فيكون متكئا واستراحة، وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس، وحرك الطباع فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبنى عليه لا ما سواه « ١ . هـ والعجب لابن رشيق مع هذا كاد يميل الى تقديم ابن الرومي على أبي تمام في باب الغوص على المعاني . هذا ، ولما دح الرسول صلى الله عليه وسلم عذر واسع إذ السيرة كلها لذني الإيمان مطربة ، وليس شأن المديح فيها كشأن المديح لمن يكون من ملوك هذه الدنيا الفانية « متاع قليل ولهم عذاب أليم . »
من جياذ الصرصرى ذوات الطول رائيته

ذكر العقيق فهاجه تذكاره صب عن الأحباب شط مزاره

وأول القصيدة تغزل بالديار الحجازية كنى به عن البيت الحرام والقبر الشريف والحج والزيارة ومشاهد الحرمين ثم خلص الى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوصف خلقه وخلقه ومولده وما صاحبه من الإرهاصات ووصف تقواه وسكنته ونبوته وشريعته وما خصه الله به من التشريف والمعجزة وما جاء في الكتب من قبل من التبشير بمقدمه ثم ختم بها كنى عنه في البداية فصرح به في النهاية من نية قلبه أن تجوز به ناقة كوما الى حيث الرباع المقدسة ذات الهدى والسناء ، ويبدو أن نظم هذه الرائية قد كان قبل نظمه التي قبلها إذ يذكر في تلك يسارا ويذكر في هذه عسرة يرجو أن يمن الله عليه بعدها بميسرة .

أما النسيب فقلوه :

ذكر العقيق فهاجه تذكاره صب عن الأحباب شط مزاره
وهفت إلى سلع نوازع قلبه فتضرمت بين الجوانح نـاره
هذه الديار بناحية المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

كلف برامة ما تألق بارق من نحوها إلا بدا إضماره
يشتاق وادبها ولولا جبهها لم يصبه واد زهت أزهاره
شغفا بمن سلك الفؤاد بأسره وبوده أن لا يفك إسماره
لولا هواه لما ثنى أعطافه بان الحجاز ورنده وعمراره
والضمير هنا للنبي صلى الله عليه وسلم والذات المحمدية

يا من ثوى بين الجوانح والحشا منى وان بعدت على دياره
عطفا على قلب بحبك هائم إن لم تصله تصدعت أعشاره
وارحم كئيبيك يقضى نجبه أسفا عليك وما انقضت أوطاره

لا يستفيق من الغرام وكلما حجبوك عنه تهتكت أستاره
ما اعتاض عن سمر الحمى ظلا ولا طابت بغير حديثكم أسماره
والسمر بفتح السين وضم الميم من شجر الحجاز وبنواحي مكة وكانت بيعة الرضوان
تحت سمرة .

هل عائد زمن تضيوع نشره أرجا ورقت بالرضا أسحاره

هذا البيت يدل على أنه حج من قبل ويريد العودة . وذكر الأسحار كما مر بالقارىء
الكريم من قبل مما يتكرر عند المصرى ، وإنما خص الأسحار لمكان صلاة الفجر
ولمجافة أهل الصلاح خاصة للنوم في ساعات السحر المباركة . قال تعالى : « الصابرين
والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » . وللأسحار في الحرمين بركة
وأسرار .

في مريع بقباب سلع مونق بالأنس تهتف بالمنى أطياره
فاق البسيطة عزة ومهابة فسما وعز من البرية جاره
ومن هنا تلخص إلى المديح النبوي في يسر حسن التدفق والانسيا ب :-

يحمى النزيل وكيف لا يحمى فقد حفت بجاه المصطفى أقطاره
أضحى ثرى عرصاته مذ حلها يشفى من الداء العضال غباره
سبحان من جمع المحاسن كلها فيه فتم بهاؤه وفخاره
محاسن المنظر ومحاسن المخبر

جبلت على التشريف طيئته فما نشأت على غير العلى أطواره
وصفت خلائقه وطهر صدره فزكا وطاب أديمه ونجاره

فذكر هنا كرم العنصر وشرف النسب ثم أخذ في قصة المولد وفي صفة الرسول صلى
الله عليه وسلم فاستقام له ذلك على ما بدأ به من حسن تخير اللفظ وسلامة رنين
الإيقاع :

حملته آمنة الحصان فلم تجد ثقلا إلى أن حان منه بداره
ورأت قصور الشام حين تشعشت أنواره وتباشرت حضاره
وضعته مختونا وأهوى ساجدا وكساه حسنا باهرا مختاره
لا بالطويل ولا القصير وإن مشى بين الطوال علتهم أنواره
هذا البيت جيد ، وذلك أنه كان صلى الله عليه وسلم مربوعا ، فكان يطول الطوال ببهاء
الشخصية وقوة حضورها وبهجة نورها .

وإذا تكلل كالجمان جبينه عرقا لأمر عظمت أسراره
فأريجه أذكى وأطيب مخبرا من ريح مسك فضه عطاره
وإذا بدا في حلة يمنية قد زان دائر طوقها إزاره
فالشمس بعد الصحو مشرقة السنا والبدر في فلك الكمال مداره

ثم انتقل إلى صفة خلقه السني عليه الصلاة والسلام :

مقلدا بالسيف ليس مباليا بمن التقى عزت به أنصاره
حلل السكينة والثبات لباسه والبر والإخلاص فيه شعاره

وذلك أن الشعار هو ما يياشر الجسد من الثياب ، وهذا من شريف المعاني أن يكون الثبات والسكينة هو الحلة الظاهرة والإخلاص والبر هو الكساء الباطن .

وضميره التقوى وأوتي حكمة فازداد منها عقله ووقاره
والصدق منه والوفاء طبيعة والعرف والصفح الجميل دثاره
والعدل سيرته وحق شرعه وسيله نهج الهدى ومناره
وشريعة الإسلام ملته وباله حق المين إلى الورى إظهاره

ومن هنا أخذ في مدح الإسلام وقصة أول ظهوره على الشرك وما كان بجزيرة العرب من أديان .

ختم النبوة فهو درة تاجها وطرارز حلتها الثمين عياره
أبقى لستته طريقا واضحا رجباً سواء ليله ونهاره

اعلم أصلحك الله أن سواء تفيد التسوية فإذا جاءت بعدها الهمزة كانت المعادلة بأم وإن لم تجيء الهمزة جئء بالعطف بالسواو . ولا تصلح أو ههنا لأنها للتخيير لا للمعادلة ولا للجمع . قال تعالى : " سواء علينا أجزعنا أم صبرنا " . وقال تعالى " سواء العاكف فيه والباد " وقال تعالى : " سواء محياهم ومماتهم " . ومن الأخطاء الشائعة الآن جعل أو في مثل هذا الموضع .

يمحو سنا الشمس الكسوف وينقص الـ قمر المحاق ويعتريه سراه
وشموس شرعة دينه محروسة من حادث يمحو الضياء غباره
نهج الصواب بجوده ويجوده بعد الدثور تجددت آثاره

تكرار الدال والجيم هنا فيه نظر إلى طريقة القدماء كذي الرمة وزهير كما فيه نظر إلى طريقة أبي تمام .

واستعلن الحق المبين بنوره بجبال فاران وقر قراره

جبال فاران هي جبال مكة بدليل أن أسفار التوراة تزعم أن إسماعيل ترك هو وأمه هاجر ييجولان في صحراء فاران (انظر سفر التكوين ٢١ / ٢١ - وسكن في بركة فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر). والذي عندنا أن الماء الذي أصابته هاجر بجناح الملك هو ماء زمزم فتكون فاران هي أرض مكة وتزوج إسماعيل من جرهم ولا يستبعد أن تكون جرهم قد كانت مثل قریش تتاجر إلى مصر والشام والحبشة. وعند أهل الكتاب أن فاران بناحية سيناء، ولو كانت بناحية سيناء لم يكن أمر إسماعيل ليكون على بعد من سارة وابنها، وقد أرادت سارة إبراهيم على أن يبعد إسماعيل حتى لا يشارك ابنها في الميراث.

وجلا ظلام الحرتين ضياؤه وبه سما نور وأشرق غاره

عنى بالحرتين المدينة

فخرت به خير القبائل هاشم وحوى به المجد الأئيل نزاره

قد يدخل في معنى نزار العرب كلهم ولا يبعد أنه نظر هنا إلى قول ابن الرومي :

كم من أب قد علا بابن ذرا شرف كما على برسول الله عدنان

واجعل بيت ابن الرومي هذا من ضمن ما مهد لمجىء القصيدة النبوية لتخلف قصيدة المدح وما إليها. ثم أخذ الصرصري في ذكر الجهاد وما تبعه من ظهور شمس الدين على الدين كله ولو كره المشركون :

زهرت نجوم السعد في بدر به وتبلغت يوم الرضى أقماره
وشموسه في فتح مكة أشرقت فانجاب عن وجه العلاء قتاره

القتار بفتح القاف عنى بها القتر بالتحريك أي الغبار وظاهر كلام الأخفش في القوافي يفيد أن ذلك مما كانت تفعله العرب وعند سيبويه أن الإشباع في الضم والكسر وقال الآخر:

خذا بطن هرشى أو كلاها فإنه كلا جانبي هرشى لمن طريق

ثم انتشى الأمام الصرصري الى مدح سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فقال :

سعدت به أولاده ونساؤه وصحابه وزكت به أصهاره
وسمت به غلمانـه وإماءه وجــــواوده وبغيره وحماره

ولعل مكان الحمار أن ينكره السمع ، على أن السياق مستقيم به ، ولعله مما يسوغها ما يلابسها من روح السذاجة وقصد الاستيعاب . ويعتذر للصرصري بأنه مع الإطالة قد يقع في القصيدة أن يختل موضع البيت والآيات ولا يقدح ذلك في جودة القصيدة كلها . وقد أخذوا على المتنبي قوله :

إنى على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلها

ولم يمنع ذلك من استجادة هذه الثانية وعدها أبو منصور من إحسانه وجاء بقوله :

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

فقال إن هذا هو البديع الفرد من أبيات القصيدة .

وحوى الفخار سريـره وفراشه وخيامه وقبابه وجداره
وتضوعت أردان برـدته به طيـبا وطـباب رداؤه وإزاره
شهد الكتاب الموسوي بفضله وتحققت وتيقنت أحـبـاره

وقد كان احتدام الحروب الصليبية مما شحذ أذهان المسلمين إلى النظر في مقالات أهل الكتاب ونقد ما ذهب إليه ذاهبهم من باطل التأويل وبيان مكان البشارة فيما جاء من مقالات أنبياء بنى اسرائيل وكتبهم . من ذلك بشارة موسى عليه السلام به ، وحملها أهل الكتاب على أن المبشر به هو عيسى عليه السلام ، وذلك صنعوه بتأويل بعيد .

وقد تناول هذا البحث جماعة من المحققين .

هو شاهد متوكل ومبشر هو منذر متيقن إنذاره
أضحى للأمين حرزا مانعا وضعت به عن وقته أصاره

عن وقته أي عن أمته إذ هي التي آمنت به حين جاء وقت رسالته .

بالشام دولته ومكة ربة الـ حرمات مولده وطية داره
علم اليهود الحق ثمت أنكروا حسدا فأفسد علمهم إنكاره
هذا البيت جيد بالغ، إذ ان العلم إنما يصح ببيان الحقائق، فمتى كتمت أو
غيرت وجد الهوى السبيل إلى الرأي وهو آفته.

تبنا لمن علم اليقين وصده لما استبان له الصواب نفاره
نفاره أي نفوره

وكذلك في انجيل عيسى وصفه في كل عصر تجلى أخيه
عجبا لذي لب راه وكيف لا ينبت عنه لسوقته زناره

كان النصارى يشدون الزنار وهو سير يجعلونه حزاما يشدون به أوساطهم أي
عجبا لهم لماذا يستمرون على كفرهم ولا يطرحون هذا الزي إلى زي المسلمين.

والبعير وشده إلى البيت الحرام من شعار المسلمين - قال أبو الطيب يذكر الروم
وجهاد صاحبه سيف الدولة :

فكلما حلمت عذراء عندهم فلإنما حلمت بالسبي والجمل

وترك الصرصرى حث النصارى على ترك دينهم وعجبه من ذلك وأقبل على ما
يرجوه لنفسه من سبيل النجاة :

وعذافر حرف أمون ترعى مرحا كهيق هاجه ذعاره

قد يبدو أول الأمر هذا الانتقال بعيدا مفاجئا . ولكن متأمله يجد عند التأمل ما
يجمعه بما تقدمه من قوة الصلة من طريق تداعي المعاني على حسب الوجه الذي قدمنا
ذكره . ثم لعل القارئ الكريم يرى كما نرى أنه حين جعل هذا المادح البارع مقدمة
قصيده نسيبا وشوقا إلى الذات الشريفة ، ثم أناله الله كريم الوصال حينما حاز شهود
كمال الذات المحمدية أخذ في المديح الصرف حتى خلص إلى ذكر أهل الكتاب
وعنادهم ، ثم بعد ذلك سلك سبيل الشعراء إذ يتبعون معاني النسيب الارتحال إما إلى
المحبيب وإما عنه ، وهنا الرحلة إلى ديار المحبوب كما لا يخفى ، إلى البيت الحرام وإلى
حرم المدينة الشريف .

وعذافر حرف أمون ترعى مرحا كهيق هاجه ذعاره (١)
كوماء يرفعها السراب كأنها فلك على بحر طمي تياره

(١) عذافر أراد عذافة وهي الناقة القوية وكذلك الحرف والأمن المأمونة العثار والبيق الظليم والذعار بضم الذال وتشديد
العين المخوفون جمع ذاعر

يطوي بها شعب الفلاة مشمر كالسيف للغمرات سن غراره
شهم إذا رام الخطير من العلاء لم يثنه عما يروم خطاره

هذا الفخر في هذا الموضع حسن ، لأنه هنا لا يطلب شيئا من معالي الدنيا وإنما يريد العلاء عند الله بأداء الفريضة ثم الزيارة ، وقد كان الحج محفوفاً بالمشقة والمخاوف . وكان الصرصري رحمه الله من أولى الضرر فوازن بين قوله هذا وقول أبي العلاء :

قالوا كبرت ولم تقصد تهامة في مشاة وفد ولا ركاب أجمال
فقلت إني ضريـر والذين لهم رأي رأوا غير فرض حج أمثالي
شتان ما بين اليزيديين :

يتجشم الوعر المخوف ليأمن الـ خوف الذي بالمرء يلحق عاره
وهو خوف النار وعذاب الله عز وجل . جمع الذي شرفت به أقطاره
يسرى مع الوفد الكرام ليشهد الـ وضعت عن الجاني بـه أوزاره
ففي موقف جم المواهب زاهر

هذا يوم عرفة وموقفه ولذلك ذكر بعده المأزمين والمشعر الحرام .

والمأزمين ومشعرا ذا حرمة ومحصبا بمنى تعدد جماره
والمأزم المضيق قال صاحب القاموس المأزم (بكسر الزاي ^(١)) ويقال المأزمان
مضيق بين جمع وعرفة وآخر بين مكة ومنى .

ويطوف مضطجعا طواف قدومه سبعا بيت عظمت أستاره
الاضطباع هيئة جد من لبس الرداء في الحج وذلك يمكن الحاج من الرمل في
الأشواط الثلاثة .

أبهى من السدياج رونق حجره وعلى اللاكلى فضلت أحجاره
ويسير بعد قضاء مفترضاته ليزور ربعا كرمت زواره
ربعا به نور النبي محمد متلاليء نضرت به نظاره

وقد أنبأنا في آخر القصيدة أنه لم يحج ذلك العام ولم يزر وإنما تذكر تلك الرباع
المطهرة وحن إليها وما هو هذا يهدي إليها المدحة والسلام :

ناديته بالله يا من أسفرت عن بشر وجهه نجاحه أسفاره
وإسفار وجه النجاح عن البشر والبشرى مذهب في الاستعارة حبيبي وهو هنا

(١) الذي في القاموس ضبط القلم وما بين القوسين لنا .

يخاطب الحاج

بلغ هديت إذا وصلت سلام من قامت بشيب عذاره أعذاره
فلم ير الضرر عذرا كما ترى ولكن الكبرة والضعف .

وقل السلام عليك من متعرض لعظيم فضلك رثـة أطماره
يا من جلا قتر الضلال ومن إذا ما أمه العافي انجلى إقتاره
يا من تساوى في المكارم والندى كلتا يديه يمينه ويساره
أخذه من قول الآخر:

كلتا يديه غياث عم نفعهما تستوكفان وما يعرفهما عدم

وهذا البيت يذكر في قصيدة للفرزدق يمدح زين العابدين رضي الله عنه ، وفي
قصيدة للحزین الكناني يمدح بعض بني أمية ويجوز أن أصله للحزین فأخذه الفرزدق
أنت الملىء بكشف ضر غلخف ذي عسرة بندى يديك يساره

وبين اليسار هنا وفي البيت المتقدم مجانسة تامة . وهذا عذر آخر جاء به مع الكبر
والضعف . وتأمل حذق الصناعة وخفاء البديع وجودته في قوله «بكشف ضر غلخف
ذی عسرة» . فهو من أولى الضرر . وقد تخلف بعذر صحيح . ثم هنا إشارة على الذين
خلفوا عام غزوة جيش العسرة وهم الذين ذكروا في قوله تعالى : «وعلى الثلاثة الذين
خلفوا آية براءة» .

جعل الثناء على علاك شعاره فحلت به وتعطرت أشعاره
يرجو النجاة بفضل جاهك في غد في موقف يخشى التوى أبراره

أشار هنا إلى حديث الشفاعة ، حين يقول كل الأنبياء نفسي نفسي وما منهم إلا
يذكر ذنبا أو يعتذر حتى نوح وإبراهيم وموسى وحتى عيسى إذ اعتذر ولم يذكر ذنبا
عليهم السلام أجمعين ثم يصار إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم بالشفاعة
ويسجد لربه ويفتح الله عليه من محامده ومن حسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه علي
أحد قبله ويقول له الله عز وجل «ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي
فأقول أمتي يارب» - هذه القطعة من لفظ الحديث كما رواه البخاري في الصحيح في
التفسير في تفسير سورة بني اسرائيل . وفي الحديث الصحيح «فذلك يوم يعطيه الله
المقام المحمود» وفي الصحيح : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة
التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته
حلت له شفاعتي يوم القيامة»

اللهم اجعلنا بشفاعته صلى الله عليه وسلم من الناجين .
 وقد أوردنا هذه القصيدة كاملة بأرب التنبية إلى صحة ما نزعمه من استواء
 ديباجة هذا المديح وقوة أسره وتمام معانيه وما فيه من روحانية الصدق ونوره .
 وللصرى كلمة رائية طويلة من مجزوء الرجز ذات طرب وإيقاع جوريت من
 بعده على سبيل الاستحسان والتبرك أولها :

جـمـرت نسيم السحـر _____ على متـون الغـدر
 فجـمـدتـها وانثنت _____ أعطاف بسط الزهر
 وقد ترى ذكر السحر هنا . وفي الأبيات أنفاس ربعية سرعان ما صرفها إلى
 الحجاز وبانه وشيحه وععره .

وضمخت ملابس الروض بنشر عطر
 كأنها فضت به _____ ختام مسك أذفر
 أظنها مرت على _____ سمار ذات السحر

وذاات السحر كناية عن ربوع الحجاز فهذا سبب طيها لا أنها مرت على الغدران
 والأزهار

فطـارحتهم وأنت _____ من نحـوهم بخبر
 تسنـده عن أرج الشـ _____ يح وريـا العـرعر
 أملت على بـان النقا _____ ما عندها من أثر
 فرنحتـه طـربـا _____ برمزها المعبر
 فصرح ههنا بذكر الرمز وأنه إنما يريد الكعبة والزيرة والذات المحمدية الباهرة

أذعت يـاريح الصبـ _____ سر هـ _____ مستر
 فرددي ما شئت من _____ حـديتهم وكـرري
 فذكر سـكان الحمى _____ تعلـمة المستهتر
 أه لعيش مـرر لي _____ بين اللـوى والأجفـر
 وزمن كـان بنـعـ _____ سمان ربيع العمـر

ثم أخذ في الحنين إلى ليالى الحج - وموقف عرفة ومبيت مزدلفة وتلك الساعات
 القدسية من زاد العمر

يأليت شعري هل تعو د ليلتي بالمشعر
وهل تزول حسرة الـ فؤاد في محسر

بضم الميم وفتح الحاء وكسر السين مشددة وبطن محسر قرب مزدلفة يسرع فيه الحاج
عندما يجاوز موقف عرفة في سبيله إلى مزدلفة

وهل لأبى سام منى من بى فاشترى
ولو بأبى سام الحيا لمحة بالبصر
فما على من سامها بروحه من غرر
وهل إلى ذات الستو ر أوبة في عمرى
فأجتلى نور الرضا في روض حج نضر
وأجتلى جنبى العلى بلثم ذاك الحجـر
يالك من ليلات قر ب طال فيها سمرى

ولعلها "طاب فيها سمرى" فمثل هذا قد يقع فيه التحريف

لو سمح الدهر بها قضيت فيها وطرى
جاد شعاب الأبطح الـ مكى صوب المطر
وبارك الرحمن في صباح ليل مقمر

فقد جد في السفر بعد النفر ليصل إلى المدينة في ليال مقمرات يطيب بهن
السري :-

يسفر عن وادي العقيق لقرين السفر

ووادي العقيق بالمدينة

مبشرا بطالع السـ عد بخير البشر
بـالعـربى الهاشمي ذي الجين الأزهر

فقوله العربى هنا هو الذى يرجح عندنا أنه عنى بنزار فى الرائيين كل العرب
وذلك أن بنى اسماعيل كلهم راجعون مع نسب أبىهم إلى نسب أمهم أيضا وهى من
جرهم من العرب الأولى .

ثم اندفعت القصيدة من بعد في مدح محض لا ريب كان كأصلح ما يكون مثله
 للتغني العذب الصدوح الخفيف النغم ، ذكر فيه خلق النبي صلى الله عليه وسلم
 وصفة خلقه ومحاسنها ومقامه السامي يوم المحشر فمن أمثله ذلك :

محمد بن هاشم بن غالب بن مضر
 السيد المفضل المعزز الموقر
 الطاهر المنصور والمؤيد المظفر
 أجود بالمعروف من منبجس مشنعجر
 منتخب من معشر أكرم بهم من معشر
 وهم لعمري سادة الناس بكل الأعصر
 ولا سعت أقدامهم إلا لكسب مفخر
 طلق المحيا نوره يكسف ضوء القمر
 صورته الجميلة الأوصاف أبهى الصور
 ليس بفظ عابس جاف ولا متهر
 ميسر مؤلف وليس بالمنفر

سهل القياد قـابل	عـذر الفتى المعتـذر
أرسله الله العظيم	بـالهدى والنـذر
وخصه مشرفا	بمحكمات السـور
ولم يزل مجاهدا	كل غـوي عـمرى
حتى انجلي بنوره	عنا حجـاب القـر
وقهرت أمتـه	أهـلا الفـلا والأبـحـر

ليس له في أول الخلق ولا في الآخر

مناظر أنى وقد فضله بالنظر

الأخر بضم الهمزة والخاء مفتوحة مشددة جمع آخر أي ليس له في الأولين ولا في
 الآخرين مناظر إذ فضله الله بالمعراج والنظر إلى وجهه الكريم

وبالوسيلة التي لغيره لم تخط
وبالشفاعة التي خص بها والكـوثر

وباللواء في المعاد والمقام الأكبر
حتى إذا حان قيام كل ميت مقبر

فإنه أول من يخرج عنـد المنـشـر
بضم الميم أو فتحها فالضم من أنشر قال تعالى : «ثم إذا شاء أنشره». والفتح
من الثلاثي ، قال الأعشى : " يا عجباً للميت الناشر "

وليس تفتح الجنان قبله للبشر
عليه أذكى صلوات الباريء المصور

ثم ذكر الصحابة الكرام رضي الله عنهم

ثم على صاحبه المجل المصدر
صديقه الأتقى أبي بكر وزين المحضر

لعلمه بتاريخ العرب وأخبار قريش وأنسابها مع ما خصه الله به من الايمان
والتصديق والسبق المبين

ثم على المحدث الـ محفهم المبصر
ذي النظر الثاقب والقلب الصدوق عمر
ثم علي البر الشهيد الثابت المصطبر
عثمان ذي النورين من جهز جيش العسر
ثم على ابن عمه البحر الخضم حيدر
دلت على تفضيله الراية يوم خير
ثم على من كان طوع أمره المتندر
من آله وصحبه الغر الكرام الصبر
وتابعيهم بالهدى من أثر ومؤثر

ثم صار إلى حنين نفسه إلى الحج والزيارة والاستغفار ورجاء الشفاعة لتكون
كلمته خالصة في التقوى والعبادة وحب النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه :

يا مزجي الخوص النواجي في الشسوع المقفر
إن جزت عن وادي العقيق نحو سلع فانظر
تلك القباب البيض إن عايتها فكبر
وقف تجاه الحجرة العليا خير الحجر
وحي من خيم في ذاك الجنب الأطهر
تحية طيبة عن العبيد الأصغر
يحیی بن یوسف بن یحیی المذنب المقصر
وقل عبيد بركم ثاوا بأرض صرصر

فقد نسب نفسه كما ترى وهو مذهب للمداح قديم - وقد يعلم القارئ الكريم قول
عمير بن شبيب القطامي :

من مبلغ زفر القيسى مدحته عن القطامي قولاً غير إفراد
وقال عمران بن حطان في كلمته التونية «من بعد ما قيل عمران بن حطان» - وقد
سن مداح الرسول صلى الله عليه وسلم الأولون ذكر أسمائهم وأنسابهم ، فعل ذلك
حسان في كلمته التي قال فيها

ان جدي خطيب جايبة الجؤ لان عند النعمان حين يقوم
وأبي في سميحة القائل الفا صل حين التقت عليه الخصوم
وفعل ذلك كعب حيث قال :

تسعي الوشاة جنايبها وقولهم إنك يا بن أبي سلمى لمقتول

فبذلك اقتدى مداح الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد .

يا صاحب الجاه المديد الشامل المتشر
نحن وإن كنا ذو جرم عظيم خطر
من زمرة منسوبة إليك دون الزمر

فغر عليها واحمها وإن جنت فاستغفر
وإن وهت فقوها أو قهرت فانتصر

وكانما نظر بهذا ببصرة كاشفة إلى ما اقترب من خطر هولاكو، ثم ما من الله به من بعد
من هداية أمم التتار والمغل ومن جاورهم جميعا إلى الإسلام فانتشر في آفاق الأرض كما لم
ينتشر من قبل ، والله غالب على أمره وهو على كل شيء قدير.

قال البرعى رضى الله عنه :-

ضربوا الخيام على الكتيب الأخضر ما بين روضة حاجر ومحجر
وتفيسوا في الأثل ظللا وارتوا من مائه المتسجم المتفجر
واخضر فردوس الخماثل اذ غدا وسرى عليه حيا العريض المطر
فكان لؤلؤ طله رأد الضحي درر متى تسر النسائم تنثر^(١)
هذا من قول أبي الطيب «دنانيرا تفر من البنان»

ولع البشام بنفحة نجديّة تغشى الرياض بعنبر ومعنبر
تأمل هذه الديباجة البحرية

إن النفوس على اختلاف طباعها طمعت من الدنيا بما لم تظفر
وعلى الكريم دلالة عذرية بصرت به فأرتته ما لم ينظر
أى للحب العذرى طريق إلى قلب الكريم يعرفه ويراه فيرى به الكريم ما لم تنظر إليه
عينه ولكن يراه قلبه

يا نازلا بربا الأراك عداك ما ما حملت من وهى وطول تذكري
سل جيرة الجرعا غداة غدت بهم بزل الركائب في الفريق المصحّر

لا تزال كلمة الفريق مستعملة في اللغة الدارجة بمعنى يقارب معنى الخليط والأصل
كما ترى واحد إذ هو ممن يخالطون في المرعي ثم يفارقون . وللبرعى رحمه الله إحساس
دقيق بالطبيعة . وكما الطبيعة التي نحس نفحاتها من ابن الخطيب أندلسية مغربية فيها
نعومة ربيع إقليم البحر المتوسط فالطبيعة التي عند البرعى يمنية عربية ، أثلها الأخضر

وبشامها من أودية اليمن وأخياف جبالها وشعابها ، وفيها من أسر شدتها ما ليس عند
ابن الخطيب . ثم مع إحساس البرعي رحمه الله بجمال الطبيعة قد أذابها كل الذوبان في
نسيب المديح النبوي

سل جيرة الجرعا غداة غدت بهم	بزل الركائب في الفريق المصحر
هل جددوا عهدا بمعهد رامة	أم طنبوا بالشعب شعب العرعر
لله در العيس وهي رواسم	بمروح ومصبح ومهجر
يخرقن من حجب السراب سراقا	ما بين طيبة والمقام الأكبر

هنا هذا النمط بحري وبحرته آخذة من مذهب ذي الرمة بنصيب
ويلجن في لجج الظلام ضوامرا شوقا إلى المزمّل المدثر

صلى الله عليه وسلم

الأبطحى المتقى من غالب	والطاهر الطهر البشير المنذر
الصادق الهادي الأمين المجتبي	والسابق المتقدم المتأخر

متقدم لما سبق من ذكره أنه أول من ينشق عنه قبره ومتأخر لمقام الشفاعة للمذنبين من
أمته عليه الصلاة والسلام

وابن العواتك من سليم إنه	ذو الفخر إجماعا وإن لم يفخر
ملأت محاسنه الزمان وأشرق	بوجوده الأكوان فاسمع وانظر
وتتابع نعم به وتطاولت	رتب تناهت في عراض المشتري

على بحرته البرعي في الديباجة تجده كثير النظر إلى معاني أبي الطيب كما ههنا :

منازل صعدت والفكر يتبعها فجاز وهو على آثارها الشها

ومن بعد يأخذ البرعي في بعض الإلماع إلى أخبار السيرة النبوية الشريفة .
وللمنشدین كلف بالبرعي ، ولولا اشتهاار البردة والهمزية حتى ليس كمثل شهرتها بين
العوام والخواص شيء من المديح لكان البرعي أشهر المداح قاطبة وأسيرهم كلمات ،
لكثرة ما ينشد المنشدون من ديوانه وهو الذي زعم صاحب التاج أنه ديوانه الصغير .
والبرعي مجهول تماما عند من يرون أنهم من الخاصة من المشتغلين بالأدب وتعليمها في
المدارس في عصرنا هذا . وابن الفارض وحده هو المعروف عند هؤلاء بفضل

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
والكلمة اللامية :

ما بين بان المنحنى وظلاله ضل المقيم واهتدى بضلاله
والفائية :

قلبي يحدثنى بأنك متلفي روى فداك عرفت أم لم تعرف
وفيه البيت :

وعلمت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي
وهو ما يجري كبعض مجرى الحكمة . على أن هذه القصائد ليست معروفة حقا عند
المنشدین إلا أبيات الخمرية وأعرف منها الرائية القصيرة .

زدني بفسطاط الحب فيك تحيرا وإذا سألتك أن أراك حقيقة
يا قلب أنت وعدتني في حبههم إن الغرام هو الحياة فمت به
قل للذين تقدموا قبلي ومن عني خذوا وبى اقتدوا ولى اسمعوا
وارحم حشا بلظى هواك تسعرا فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا صبرا فحقك أن تموت وتعدرا
بعدي ومن أضحي لأشجاني يري وتحذروا بصباتي بين الوري

وفي هذه الأبيات كما ترى صناعة وتفكير. وكأن في قوله "يا قلب أنت وعدتني" ما يناقض ما زعمه بعد في قوله "قل للذين تقدموا". ومثل هذا قد أخذوه على كثير في قوله: «أريد لأنسي ذكرها» فقالوا وما له يريد أن ينسي حبها. وقوله "فاسمع ولا تجعل جوابي" هو الذي حجب الناس في هذه الكلمة لما تضمنه من معني الإشارة إلى القرآن وتجلي الحق سبحانه وتعالى للجبل فجعله دكا وخر موسى صعبا. وإن يكن موسى عليه السلام قد قيل له: «لن تراني ولكن..» فالشيخ أولى أن يقال ذلك له إلا على تأويل الرؤية بعد الفوز في الدار الآخرة على حسب اعتقادنا:

ومنه أن ينظر بالأبصار لكن بلا كيف ولا انحصار
هذا في اليوم الآخر. وقوله "ومن أضحي لأشجاني يري" ليس بخال من قلق وتمتة
الأبيات إذ قد استطردها بذكرها:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سري
وهذا بيت القصيدة

وأباح طرفي نظرة أملتها فغدوت معروفا وكنت منكرا
رجع إلى الصناعة والاستعانة بباد هواك

فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال عنه مخبرا
هذا ضعيف لما في قوله غدا لسان الحال من صناعة وعمل

فأدر لحاظك في محاسن وجهه تلقى جميع الحسن فيه مصورا
أصل هذا قول أبي نواس

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد
ونبه إليه شراح أبي الطيب ونقاده أنه أخذه منه في قوله:

نسقوا لنا نسق الحساب مقدا وأتي فذلك إذ أتيت مؤخرًا

وآخر رائية ابن الفارض

لو أن كل الحسن يكمل صورة ورآه كأن مهلاً ومكبراً

قال الشارح: " هذه القصيدة مع شهرتها بين المنشدين في غاية المتانة وفي نهاية البلاغة وقد نظم كثير منهم على موازنتها، قال الشيخ شرف الدين بن عنين الدمشقي رحمه الله تعالى:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو ساعحوني بالكرى

وقال الأديب الوزير أبوبكر بن عمار رحمه الله تعالى:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى:

لم ينقلوا عنى الغرام مزوراً ما كان حبكم حديثاً يفترى

وقلت مطلع قصيدة في دمشق حرسها الله من الآفات:

خذ قصة الأشواق يا حادى السرى ان كنت من أهل الغرام غبراً
وأقرأ صحيفة وجتتي مصفرة تدرى الحديث فمن قرى خبرى درى
وأما قصيدة الشيخ رضه فإنها غاية لا تدرك وطريقة لا تسلك وعقيلة لا تملك " ١٠ هـ.
كلام الشيخ حسن البورينى الشارح (ص ٢٥٧ طبعة مرسلية ١٨٥٣ م) -

قلت ان يكن أراد ابن عمار الأندلسي قتيل المعتمد بن عباد فإن زمانه كان في القرن
الخامس الهجري قبل معركة الزلاقة وزمان ابن الفارض القرن السابع الهجري لوفاته
٦٣٢ هـ وإنما جارى ابن عمار أبا الطيب وهو الأصل وإنما أوردنا كلام ابن الفارض
للتنبية على ما منى لذكره من اشتهاى بين معاصرنا لا لشيء إلا أن المستشرقين كتبوا عنه
وما كتب المستشرقون من كتب منهم عنه - وأحسب من أولئك نيكلسون المستشرق
الانجليزى - إلا التماساً لبعض معاني الحب التصوفى شريطة خلوه من ذكر المصطفى
عليه الصلاة والسلام لنفور القلوب الصليبية من ذلك، ولله درابن الخطيب إذ يقول:

ولولاك لم يعجم من الروم عودها فعود الصليب الأعجمى صليب

وقد كنت أعجب لم لا يذكر معاصرونا البرعى عبدالرحيم وهو أرق رقة من ابن الفارض وأطيع ملكة وأسلم متنا وأجل ديباجة . والسبب أن أكثر ترتيب مواضيع مناهج تاريخ الأدب عندنا منحوف فيه نحو ما وضعه المستشرقون ، وهؤلاء ربما اعترفوا بفضل شاعر كالمعري أو فيلسوف كابن سينا من أبناء الإسلام وبيعض المتصوفة ممن عسى أن يجدوا عنده أنفاس حلول وما أشبه من مذهب وحدة الوجود ، أما ما كان إسلاميا حقا فهم منه شديداً النفور . لذلك نفر من نفر منهم عن أبي الطيب . وكان هؤلاء عن أمثال البرعى من مداح الرسول صلى الله عليه وسلم أشد نفورا . وصدق الله العظيم . قال تعالى جل من قائل : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » [براءة] .

رجع الحديث إلى رائية البرعى

هذا منارك يا محمد قد سما طلعت طلائعه بنور النير
كم نازعتك الفخر سادة مكة حسدا وهل صدف يقاس بجوهر
وفضلتهم بغبار نعلك إنما ينمي بطيب العرق طيب العنصر
هذا جيد بالغ ، لوضوح المعنى ، وتخير اللفظ وقوة رنين الإيقاع وجزالة السبك .

ما نازعتك يد لنيل فضيلة إلا وقال لها علا يدك اقصرى
أو وازنتك أكابر العرب انشت مرجوحة بقلم ظفر الخنصر

هذان البيتان تكرر لما قبلهما . على سلامتهما هما دون ما تقدمهما . وأحسب أن البرعى رحمه الله أتى من جهة قصده إلى الاستيعاب والشمول ، إذ قد ذكر سادة مكة فبداله ، والله أعلم ، أن المعنى يتم بذكر أكابر العرب ، وهذا ما عليه ظاهر القياس ، ولكن المعنى قد تم فلا يحتاج إلى مزيد وإن كان في قوله " مانازعتك يد " بعض التوكيد . وقوله بغبار نعلك أقوى من قلام ظفر الخنصر ، أم ليس قلام الخنصر فسيطا كغيره والفسيط قلامة الظفر أم هو شر مكانا من قلام غيره ؟ - وأقصى ما يؤخذ على الشاعر هنا التطويل لا الضعف ان أخذ ذلك .

ولأنت سر المرسلين وخير من وطىء الثرى من منجد ومغفور
ضربت رواق العز دونك هيبة قصمت عرى المتكبر المتجبر
أحسبه يشير هنا إلى خبر الإراشى وأبى جهل ، وقد جاء البوصيرى بالخبر أتم في الهمزية حيث قال :

وأبو جهل إذ رأى عنق الفحل إليه كأنه العنقاء

واقتضاه النبي دين الإراشى وقد ساء بيعه والشراء

والبوصيرى أمد باعا وأقدر على النظم وجر الأخبار لا من البرعي وسائر المداح النبوين
وحدهم ولكن من كثير من كبار من تقدموا من الشعراء . والذي جاء به البرعي هنا
أشبه بطريقته في الترزم . وكلما أمكنه الترزم مع النظم جاء به سلسا سائغا . ومتى
اضطر إلى تكلفه مسه به ضعف . ومثل ذلك تحسه أحيانا عند الضرري . وقل من
كبار شعراء المولدين من لا يقع له ذلك وقد تتبع النقاد مواطن الضعف عند أبي الطيب
وأبي عباد وأبي تمام جميعا كما تعلم .

وسمت نجومك بالسعود وأشرقت شمس الوجود لحظك المتوفر

لحظك المتوفر تمة لما بدأ به من ذكر النجوم والسعود . ومن أخذ عليه رحمه الله ذكر
نجوم السعود والحظ المتوفر مع سيرة من أكذب قول أصحاب النجوم ، وهوت على
السرقه لمولده الرجوم ، فقد يجد معترذر له مخرجا بقول حسان رضى الله عنه :

يا بكر آمنة المبارك بكرها ولدته محصنة بسعد الأسعد

وإنما هي طريقة كلام حسن ألقتها فصاحة منطق العرب

وأرتك أنوار النبوة ما انطوى في الكون من مكنون سر مضمّر
ووقتك من لفتح السموم غمائم مبسوطه من فوق بدر مزهر

هذا المعنى بديع ، إذ لما جعل الغمام ظلا ، التمس جعل من تحت ظل الغمام نورا ، فهو
وجه الذى ظلله الغمام عليه الصلاة والسلام .

وعليك سلمت الغزالة مذ رأت بك من بديع الحسن أكمل منظر

وذلك أن الغزالة من رموز الحسن :

وأوايد الوحش الكوانس في الفلا نادتك باسم معترف لم ينكر

فقد انتقل هنا ما ترى من السيرة المكية وأخبارها إلى ذكر النبوة والمعجزات

وبيطن كفك سبحت صم الحصى وكذلك حن الجذع يوم المنبر
وبنت عليك العنكبوت بنسجها في الغار توهم أن منهجه برى
في قوله «أن منهجه برى» بعض التعب والصناعة والمعنى أن العنكبوت بنسجها قد

أوقعت في وهم قفزة الأثر أن المنهج المدخل إلى الغار يرى من أثر الناس . وأخذ
الصدر من قول الفرزدق في هجاء جرير:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل
أى أنت وشعرك كنسج العنكبوت وقد تعلم قول الله في ذلك " وإن أوهم البيوت
ليبت العنكبوت " أو إن بيتك ليبت عنكبوت فالذى ضرب عليك ليس ذا عماد
وطنب . وقد أحسن البرعي إذ غير أول ألفاظ البيت فجعل مكان «ضربت عليك»
قوله «وبنت عليك» إذ البناء سقف ، فأفاد بهذا ما صنعتته العنكبوت عند فم الغار
ونقل نسج الفرزدق العنكبوتى من هجائه إلى معنى لا ريب فيه من المدح .

وغدت مغيرة لاثر في الثرى ورق الحمام فعاد غير مؤثر
ضبطها الطابع بشدة الثاء مع كسر وما أرى إلا أن الثاء مفتوحة مشددة أى عاد الثرى
غير ذي أثر باد عليه .

وجعلت شق البدر معجزة لمن في الحى من بـدو رأوه وحضر
ولمدحك الوحي المنزل فصلت آياته بفضائل لم تحصر
كقوله تعالى : «وإنك لعلى خلق عظيم» وقوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم» وقوله
تعالى : «فأنزل الله عليه سكينته»

ومكارم قد عمت الدنيا ندى وهدى وأخرى أخرت للمحشر

وهي : «مقاما محمودا» الذي وعده الله تعالى .

حزت الجلالة والمهابة والعلـا وشفاعة العقبى وحوض الكوثر
يا بهجة الدنيا وعصمة أهلها من كل خطب عباس متنكر
كن من أذى الدارين نصرى واحمى ولنيل ما أرجوه موسم متجرى
واجعل مديحى فيك حبل تواصل بينى وبينك يا رفيع المفخر
فهذا توسل أخذه في سبيل الختام

قل أنت يا عبد الرحيم وكل من واليتـه في ذمة لم تحفر
ولن يلينى صحبة ورحامة بالخير يسا خير الخلائق بشر
وادراً بصولك في نحور حواسدي أبدا وقم بي حيث كنت وشمـر

ومما يدني مدح البرعي من القلوب حرارة توسله بالنبي صلى الله عليه واله
وسلم ، واستغاثته به واستنصاره على أعدائه

وعليك صلى الله يا علم الهدى ما لاح مبتسم الصباح المسفر

الصرصري يستبشر بالأسحار ونسيمها إذ كان رحمه الله أعمى يشم اقتراب
الوقت . والبرعي منفتح البصرة والبصر على جمال طبيعة الكون حوله ، فهذا الصباح
يميط له عن وجهها الحجب .

وعلى قرابتك الكرام وسادة الـ إسلام صحب الخير للمتخير

صلى الله عليه وسلم .

والبرعي رحمه الله كثير الجياد الحلوات السائرات بين المنشدين الى اليوم ، بين من لا
يزالون تهش أسماعهم وتطرب قلوبهم لأنغام المديح النبوي على نهجه القديم
الأصيل . ومما يحب البرعي قرب مأتاه من عقائد العامة ووضوح معانيه مع جهازة رناته
. وسنورد له كلمات ربما استوفينا بعضها بتمامه كهذه التي تقدمت وربما اخترنا من
بعضها - قال رحمه الله :

بانت عن العدو القصوى بواديا واستنشقت ريح نجد في بواديا

والبرعي من حسناته أن ليس يفرض في تعاطي البديع وله ولع بالجناس التام
. أحيانا وربما اتفق ذلك له في أول بيت من القصيدة كما ههنا وكما في نونيته :-

سمعت سويجج الأثلثات غنى على مطلولة العذبات غنا

أي غناء وغنى الأولى فعل ماض

بزل دعاها الصبا النجدي فانطلقت والشوق في اليد هاديا وحاديا
حنت وأنت لمغنى طيبة طربا كأن في طيبة صوتا يناديا

الحنين والنسيب والشوق هنا للزيارة الشريفة صريح به القول لا كناية فيه

وعللتها غواصي الشام حاملة ماء معيناً يروي غل صاديا
ولم تزل لغبار الارض خائضة نحو الرياض التي نور الهدى فيها

تأمل حسن هذا البيت :

محمد سيد السادات من مضر خير البرية قاصيها ودانيها
بدر سرى فوق أطباق السماء له قد دان من رتب العلياء ساميها
والرسل تشهد بالفضل العظيم له دنيا وآخره والله هاديها
نال الذي لم ينله قبله أحد في ليلة طاب مسراها لساريها
وهي ليلة المعراج والإسراء .

أمسى يخفف من أوزار أمتـــــــــــــــــه ثقلا ويشفع إكراما لعاصيها
بانث عن المسجد الأقصى ركائبه تسري إلى العرش لا فخر ولا تيها
والنور يقدمه من كل ناحية والحجب ترفع عن أنوار باريا

هل بلغت توهمات المتصوفة مبلغا أعظم من هذا؟ وأصول هذا في القرآن
والحديث كما يعلم القارئ - أصلحه الله وإيانا - فلماذا يتعب بعض الباحثين ويجهدون
ليبرهنوا أن للتصوف أصولا استعارها المسلمون من الهند ومن النصارى ولم يعرفوه إلا
منهم . نعم لم ينحرف عن وجه الصواب إلا بما استعار من مذاهب غير الإسلام . أما
أصول روحانيته الحقّة فمن ههنا . ليس فيها من أخذ عن أهل الملل . وما يغمر هذه
الآبيات من نور روحاني شعشعاني لا يحتاج إلى دليل .

لما رأى الآيــــــــــــــــة الكبرى وأدرك من أسرار حكيمته أسرار خافيها
بانث حظائر قدس الله مشرقة بنوره إذ تمتته يدانيها
ههنا صدى من مطلع القصيدة .

والحجب والعرش والكرسي ما افتخرت إلا بأحمد خير الخلق راقيهــــــــــــــــا

الضمير في راقيتها يعود على الحجب والعرش والكرسي وأجود عندي أن تجعل
راقيتها حالا ، أخفيت الفتحة فيه كإخفاء الضم والكسر للثقل على ياء المنقوص وهو
مذهب للعرب ولك أن تجعل (راقيتها) صفة متبعة بعد (خير الخلق) وعلى الوجه الذي
قدمناه يكون المراد أنها افتخرت به إذ هو يرقاها وعلى الوجه الثاني " بعد أن رقاها فصار
أنه رقاها نعتا له عليه الصلاة والسلام

ذاك الذي لو أعار المزن راحته ما كف واكف غاديا وساريا

يشير إلى خبر استسقاء الأمة به عليه الصلاة والسلام

ولو مشى في بلاد غير مخصبة لجادها المزن واخضرت نواحيها
ولو أشار إلى النار التي سعرت أضحى سلاما وبردا حر حاميتها
كم مزقت حسراتي من مواهبه يد وكم من ملحات كفانيها
يا صفوة الله يا أعلى الورى شرفا يا خاتم الرسل يا مولى مواليتها
أي يا سيد سادات الناس والضمير في مواليتها يعود إلى الناس على معنى الجمع
المؤنث أي أنت السيد حقاً لا هؤلاء الذين يقال لهم إنهم سادتها ومواليتها .

يا متقى مضر الحمراء يا يدها الـ علياء يانورها يا رشد غاويها
يا صاحب النصر يا مردى القنا قصدا يا ضيغم الحرب يا مروى مواضيها
وللبرعى نشوة عند ذكر الجهاد وربما نظر إلى طريقة أبي الطيب في نعت
القتال ، وذلك من إحسانه الذي نبه عليه ابن الأثير .

يا فاضح القطر والبحر المحيط يدا يا من جنى نعماً حلو مجانيها
أو حلوا مجانيها

إليك حبرت من نيابتي برع مدائحك فيك زانتها قوافيها
عرانس كرياض المسك رائقة زهر محاسنها غر لثاليها
ما أنشدت يا رسول الله في ملأ إلا وسر قلوب الناس راويها
والغناء هنا عذب جهير مشرق :

ولا تجلت معانيها لذي أدب إلا وحاز نصيباً من معانيها
فصل بمرحمة عبدالرحيم ومن يليه أهلاً وأرحاماً يعانيها
وتستوقف قوله «يعانيها» . وهي بلا ريب جيدة حيث وضعها ، لأن بر أولي
الأرحام ربما اتفقت فيه المشقة . قال تعالى جل من قائل : «واتقوا الله الذي تساءلون به
والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً» فهذا مما يقوي ما ذهب إليه ان شاء الله

والطف بنفس تريد الفضل منك ودم من صولة المكر والمكروه تحميها
عاشت بفضلك في أمن وفي دعة وأنت من محن الدارين كافها
صلى عليك إلهي كل أونة يا سيدي ما تلا الآيات تاليها
وعم صحبك يا بن الطيبين ومن والاك مستقبل الدنيا وما فيها

بكسر باء مستقبل أي والاك مستقبلا هذه الدنيا بما فيها ، لا يبالي إذ والاك ما
يلقاه من خطوبها ولا معنى لفتح الباء وهو الذي في الطبع
وجاد أرضا حوتك الغيث ما سجت ورق الحمام وغنت في نسواحيها
وكما يرجع ابن الخطيب الى طبيعة الأندلس يرجع البرعي الى طبيعة اليمن ، وله
ولع بذكر الحائم كقوله .

سجت بأيمن ذي الأراك حائمه
وكقوله : فياحامات وادي البان شجوك في
وكقوله : سمعت سويجج الأثلاث غنى
وكقوله : ومن لي بأن أروي من الشعب شربة
وأسمع في ظل البشام عشيبة
وهمت على عذب الغوير غمامه
ظل الأراك شجاني ياحامات
على مطلولة العذبات غنا
وانظر تلك الأرض وهي مطير
بكاء حمامات لهن هدير

وللبرعي ولع بالبشام والأثل . وهذه الرءاء من مدحة له مناسبة تدفق الوزن
والروى ، مفعمة بصباغة المحبة الروحية ، جيدة المدح ، متينة الأسلوب - كقوله :

ومدح رسول الله فال سعادتي
نبي تقى أريحي مهذب
إذا ذكر ارتاحت قلوب لذكره
وكيف يسامي خير من وطىء الثرى
وكل شريف عنده متواضع
أفوز به يوم السماء تمور
بشير لكل العالمين نذير
وطابت نفوس وانشرحن صدور
وفي كل باع عن علاه قصور
وكل عظيم القسريتين حقير

وقال في ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم :

لئن كان في يمناه سبحت الحصى
وخاطبه جذع وضب وظبية
ودر له الشدي الأجد كرامة
ومثل حنين الجذع سجدة سرحة
وباض حمام الأيك في إثره كما
فقد فاض ماء للجيشوش نمير
وعضو خفى سمه وبغير
كما انشق بدر في السماء منير
وأنس غزال البر وهو نفور
بنت عنكبوت حين كان يسير

أى حين كان يسير إلى المدينة مهاجرا . واعلم أن أهل العصر قلوبهم منكرة وهم
مستكبرون .

وليست معجزة من المعجزات بعسير أمرها على من له الخلق والأمر . وإذا الرسالة من
عنده سبحانه وتعالى فدعمها بالمعجزة مما يناسبها . وقد نخيل إلى قوم أن أمر الرسالة

المحمدية يكون أوقع في الأنفس حين تجرد من المعجزات . وأوشك الدكتور محمد حسين هيكل أن ينحو منحى من هذا الباب في كتابه الحسن «حياة محمد» - على أن العنوان هكذا ، «حياة محمد» ، لا يخلو من جفوة ، كأنها كتبه افرنجى غير مسلم والذين يرغبون أن يياهاوا بمحمد نبينا صلى الله عليه وسلم من غير إيمان بنبوته و بمعجزاته مناقفون يستعاذ بالله من شرهم .

والمسلمون حقا في كل بلاد الله يهشون لسماع القرآن ويخشعون لذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته للقلوب شفاء وقد خلص ذكرها من المديح الفصيح إلى المديح بالدارجة الذى قد ظل دهرًا طويلا مما تطرب له أبناء الأمة الإسلامية وبناتها في المشرق والمغرب . من ذلك مثلاً قول الحاج الماحى بلساننا الدارج :

القصير اب دم يا محمد
قال له في سم يا محمد
الصلاة وسلام لى محمدا
وخاتم الكرام سيدى أحمد

ثم أخذ البرعي بعد ذكر المعجزات في ذكر الجهاد :

وان الغمام الهاطلات تظله
ويوم حنين إذ رمى القوم بالخصى
وجند في بدر ملائكة السما
ومن قومه في البشر سبعون سيدا
ومن عزمه تخريب خير مثلها
قريظة قرض والتضير نظير
مكان الجناس هنا أوضح في النطق اليمني إذ الضاد مقاربة للطاء . والحق أن أكثر نطق الضاد عندنا الآن بعيد عن الأداء الصحيح الجيد ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن القوافي في أوائل هذا الكتاب في جزئه الأول . ولا يخلو هذا البيت من لطائف بديعية على اقتصاد البرعي في البديع فلا يسرف في زخرفة بل نفس الجزالة المطبوعة أحب إليه ، ولهذا ما زعمنا أن ديباجته بحترية الرنة والصفاء . على أن مكان البحترى في دقة الصناعة كما قد قدمنا . قوله قرض ، يشير به إلى ما وقع بها من هلاك وانقراض . وقوله نظير يشير إلى ما وقع بالتضير من نظرة حتى إذ جاء زمان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أجلوا عن جزيرة العرب . وفي ذكر القرض والنظير ملاحظة تعبير لما

في ذلك من الإيهام بالقروض والنظرة إلى ميسرة .
ومن أعجب أبيات هذه الرائية إلى كاتب هذه الأسطر ما في مقدمتها من صدق الصبابة
والحب الروحي الخالص :

فؤادي برّبع الظاعنين أسير يقيم على آثارهم وأسير
في المجموعة ويسير وليس بصواب والذى في الديوان هو الصواب . أى فؤادى عند
ربع الأحباء الذين ظعنوا ، هو الواقف الجازع ، المقيم ثم يبكى ويشجى وأنا أتقلب في
البلاد

ودمعي غزير السكب في عرصاتهم فكيف أكف الدمع وهو غزير
وإن تباريحي بهم وصباتى لهن رواح في الحشا وبكـور
أحن إذا غنت حمائم شعبهم وينزع قلبي نحوهم ويطير

فقد جعل قلبه حمامة من الحمام . وعلى هذا الوجه تصح رواية من روى

يقيم على آثارهم ويسير

يقيم ، باكيا على الربوع ، ويسير نازعا إليها ، ولكن السير والطيران لا سواء .

وأذكر من نجد فوارس بأسهم فتنجد أشواقى بهم وتغير

إما الرواية هكذا : «فوارس بأسهم» و هو مستقيم مع الإنجاد والإغارة والإغارة من
حلول الغور ومن الغارة ، وإما كما في المجموعة «جوارى بأنسهم» وما أرى إلا أنه
تحريف لتشابه رسم الأحرف ، ثم فى العبارة «جوارى بأنسهم» ضعف لا يشبه سائر هذه
الديباجة الناصعة . وقوله «فوارس بأسهم» يناسب معنى النسيب سواء أريد به
الكناية أم التصريح .

فيا ليت شعري عن محاجر حاجر وعن أثـلـات روضهن نضير
وعن عذبات البان يلعبن بالضحي عليهن كاسات النعيم تدور

ههنا نشوة بالطبيعة من غير خروج بذلك عن روحانية الشوق وحنين النسيب .

ومن لي بأن أروى من الشعب شربة وأنظر تلك الأرض وهي مطير
وأسمع في ظل البشام عشيّة بكاء حمامات لهن هدير

ثم صار إلى محض الحنين في قوله :

فيا جيرة الشعب الياني بحقكم صلوا أو مروا طيف الخيال يزور
بعدتم ولم يبعد عن القلب حبكم وغبتم و أنتم فى الفؤاد حضور

فأصبحوا هم الذين ساروا وحبهم مقيم
أغار عليكم أن يراكم حواسدي وأحجب عنكم والمحـب غيـور

هذا البيت عجيب . هل زار المدينة بعض من لم يكن أمر ودهم إليه إلا ضعيفا
وتعذرت عليه الزيارة فحز ذلك في نفسه؟

أحيـاب قلبي هل سـواكم لعلتي طيب بـداء العـاشقين خـير
فجودوا بـوصل فالزـمان مفرق وأكثر عمر العـاشقين قـصير
ولا تغلقوا الأبواب دوني للزلتى فأنتم كرام والكريم غفور

ومن ههنا صار إلى المديح صريحا . ثم يقول في آخر القصيدة :

أمـولاي قم بي في الخطوب فإن لى تجارة مدح فيك ليس تبـور
عرائس لا ترضى بغيرك صاحبـا لهن عـزيزات المهور مهور

على هذا الوجه تأول بعضهم قول حبيب :

ولقد خطبت قليلة الخطاب

و لكن الأظهر في هذا أنه أراد ذم أهيل زمانه ، كما صرح بذلك أبو الطيب فيما بعد

علت وغلت إلا عليك فأرخصت ليرخص حورا في القصور قصور

فسر الشارح القصور بالعجز ولا يستقيم عليه المعنى إذ قال من قبل «عرائس لا ترضى

بغيرك صاحبـا» فأين القصور بمعنى العجز مع هذا . و الوجه أن القصور الأولى بمعنى

الجمع للقصر وهذا واضح والقصور هنا قصور الجنة . والقصور الثانية من القصور

من قصره يقصره (باب ضرب) وقصر المرأة أي حبسها فلا تخرج أي عرائس من مديحي

فيك علت وغلت إلا عليك ، من أجل أن يكون قصورها عليك سببا إلى الجنة وأن

ترخص لقائلها بذلك الحور المقصورات في قصور الجنة . ولك أن تقول إن كلتا

الكلمتين القصور الأولى والثانية بمعنى واحد - يرخص قصورها عليك الحور اللاتي

في القصور - أي المقصورات

مؤلفها عبد الرحيم كأنها كواكب في جو السماء تنير

فهذا يمنع من تأويل القصور بمعنى العجز

لبسن معانيها بمدحك بهجة فلاح لها نور وفلاح عبير

و لو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذن من جهلهم البهائم
ثم يقول رحمه الله :

بالأبصر الفرد أطلال قدييات
وملعب لعبت هوج الرياح به
تنكر العلم الغربي من إضم
إذ الركب قبل ظعنهم كانوا هم ربيعها

فيا حمامات وادي البان شجوك في
ويا أثيلات نجد ما لعبت ضحى
تبيح لوعة قلبي المستهام إذا
ظل الأراك شجاني يا حمامات
إلا لعبت بقلبي يا أثيلات
هبت بنشر الصبا النجدي هبات

فكيف حال بعيد الدار مغترب له إلى الشام حنات وأنات
يهدي التحية من نيابتي برع إلى نبي عطاياها جزيلات
الشام عنى به المدينة لأنها بالنسبة إلى اليمن شام، ثم هي طريق التجارة إلى الشام أيام
الرحلتين

- ۱۲۴ -

أسرى به الله من أرض الحجاز إلى
أذنائه من قاب قوس حين كلمه
وزاده منه تشريفا وشفعه
و معنى الشفاعة لو تأمله المتأمل عظيم

فالبدر والبحر والفطر المثلث حيا
تالله ما ارتفعت للدين مرتبة
وبذلك شهادة القرآن العظيم : « فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ
القلب لانفضوا من حولك » - « وإنك لعلى خلق عظيم »

أحيا الزمان فأيام الزمان به
وفل شوكة أهل الشرك مرتضيا
فالحليل تصهل والأرماع شاجرة
البيض السيوف والبيض المغافر وذكرها يدل على الدروع وفي رواية والنبل أى السهام
ولا يستقيم مع العجاجات لأن النابل يرمي من بعد ويتحرى أن يرى ما يرميه
ما استمطرته ثغور المشركين حيا
إلا سقتها القنا والمشرفيات

وكما تقدم مما ذكرناه تحس في أبيات الحرب هذه روح مشاركة في الجهاد

منى السلام على القبر الذى اعتكفت
وجاد طيبة مرفض يلوح به
هذا منتزع من طبيعة الجزيرة العربية إذ هي قفار فإذا جادها الغيث كستها حلة الخضرة
وابتسمت ثغور الأزاهر .

أرض سمت برسول الله أشرف
من تشرفت فيه آباء وأماء
هذا هو المعنى الذى فتقه على بن العباس وعسى أن ينال به الشفاعة لما فيه من صدق ،
وإن يكن جاء به على سبيل توليد المعاني :

كم من أب قد سما بابن ذرا شرف
ولعمري لو قد كان جعل القصيدة كلها نبوية لكان ذلك خيرا له من مدحه أبا الصقر
ثم كما تعلم قد اضطرت خيبة الأمل إلى هجائه .

متى أرى النور من أرجاء قبته متى تباشرنى منه البشارات

وهو نور تراه القلوب - قال الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين رحمهما الله :

لقد طال شوقي يا أمني لطيفة
تذكرت يا خلى ليالى مييتنا
تذكرت تردادي أخي بين روضة
يشاهد قلبى قبة النور وهي في
وإن لها نورا إلى العرش ساطعا
أشخصها طورا وطورا أناظر
بمسجدها والقوم باك وذاكر
وبين دكاك الزيت وهي أواخر
ضياء له العافون شاموا وسامر
تشاهده أبصارنا والبصائر

والشئ بالشئ يذكر والشيخ محمد المجذوب رضى الله عنه قريب العهد، في أوائل
المائة الثانية عشرة - ولاريب أنه تأثر بشعر الشيخ عبدالرحيم رضى الله عنه وأرضاه .
ونعود بعد إلى الأبيات التالية :

فإن ولدت إلى قبر ابن أمنة فهو الذي ختمت فيه الرسائل
لأنه ليس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم رسول
ذاك الحبيب الذي يرجو عواطفه وبره الخلق أحياء وأموات
ثم أخذ في ذكر المعجزات وحسن الشاء

البدر شق له والغيم ظلله
وشاة جابر يوم الجيش معجزة
وكان في الشمس نورا لا يقوم له
له فخار وتعظيم ومرتبة
ثم أخذ في الاستغاثه :

مولاي مولاي فرج كل معضلة
وعند علي بما عودتنى كرما
وامنع حماي وهب لي منك تكريمة
عنى فقد أثقلت ظهري الخطيئات
فكم جرت لي بخير منك عادات
يا من مواهبه خلد وخيرات

الخلد الجنة والخيرات الخور يشير إلى قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان »
واعطف علي وخذ يا سيدي بيدي اذا دهنتى الملمات المهمات
أى المسبيات للهموم

فقد وقفت بباب الجود معتذرا
وقل غدا أنت من أهل اليمين إذا
تأمل نون النسوة هنا وقد أشرنا إلى هذا الوجه من المجيء بها عنده من قبل
والعفو متسع والعذر أبيات
زخرفن للداخلين الخلد جنات

فلا يخف بعدها عبدالرحيم ومن يليه أهل وصحب أو قرابات
وإن مدحتك بالتقصير معترفا فمدحك الوحي والسبع القراءات
الوحي القرآن والسبع أراد المثاني ووضع القراءات مكان المثاني لأن معنى المثاني الآيات
والسبع المثاني تخصيص من عموم وهي الفاتحة ، ويجوز أن يحمل مراده على الوحي أى
القرآن والقراءات السبع أى الأحرف السبعة للحديث أن القرآن نزل على سبعة أحرف .
ولعل هذا الوجه أقوى لظهوره

صلى عليك إلهى يا محمد ما لاحت لنورك من بدر علامات
بدر في طريق المدينة فمن أراد مكة بعدها وهو قافل من المدينة ساحل وهو الطريق
الذى سلكه أبو سفيان

والآل والصحب والأزواج كلهم فهم لسادات أهل الفضل سادات
فهذه القصيدة كما ترى في قوة الصياغة ونصوعها ووضوح المعاني وتوهج روح الصدق
من خلال الآيات وحلاوة النغم وجودة تتابعه مع اليسر البالغ وسهولة الطبع وعدم
التكلف فسبحان الواهب المعطى .
ومن أعجب مدائح البرعي إلى من سمعنا من المنشدين ، وهي من جياده كلمته القافية
التي أولها :

أرأني ما ذكرت لك الفراقا
واستعان فيها ببعض ما للمتنبي في هذا الروى كقوله :
تظل رماحه فوق الهوادي وقد ضرب العجاج لها رواقا
وله فيها البيت السائر :
نبي أنزل الرحمن فيه تبارك والضحى والانشاقا

وكلمته التي أولها :
قل للمطايا اللواتى طال مسراها من بعد تقبيل يمنها ويسراها
ماضرها يوم جد البين لو وقفت نقص في الحى شكوانا وشكواها

وكلمته التي أولها :

خل الغرام لصب دمعته دمه حيران توجده الذكرى وتعدمه^(١)
والتي أولها :

يا راحلين إلى منى بقيادي هيجمو يوم الرحيل فؤادي
والتي أولها

سمعت سويجج الأثلاث غنى

وفيها قوله :

رعى الله الحجاز وساكنيه	وأمطره العريض المرجحنا
وأخصب روضة ملئت وفاء	ومرحمة وإحسانا وحسنا
وقبرا فيه من ملأ النواحي	هدى وندى وإيماننا ويمنا
إمام المرسلين ومتقاهم	وأكثر غيثهم طلا ومزنا
وأسرعهم على الملهوف عطفنا	وأسمعهم لداعي الخير أذنا
وخير مغارس الأكوان أصلا	وأطيب منبتنا وأتم غصنا
نمته دوحة قرشية من	فوائدها ثمار الخير تجنى

قوله : طلا ومزنا، جعل المزن بمعنى الوابل في مقابلة الطل وسوغ ذلك أنه ههنا جمع مزنة وهي المطرة ومن معاني المزن أنه السحاب ذو الماء فهذا يكون وابلا .
ومما لا ريب أنه كان مما يطرب له المسلمون الموازنة بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأحسب أن الحروب الصليبية وجدل أهل الكتاب مما حرك ذلك - قال البرعي رحمه الله :

ولو وزنت به عرب وعجم	جعلت فداء ما بلغوه وزنا
متى ذكر الخليل فذا حبيب	عليه الله في التوراة أثنى
وإن ذكروا نجي الطور فاذا ذكر	نجي العرش مفتقرا لتغنى
وإن الله كلم ذاك وحيا	وكلم ذا مشاهدة وأدنى

وقد تكلم العلماء في مسألة الرؤية وليس ههنا مكان التفصيل . ومن شاهد بعين البصيرة فقد شاهد . ولله در البوصيري إذ يقول :

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بقم

(١) وقد خسرنا طيب الله ثراهما استاذنا الشيخ مجذوب جلال الدين وصديقه الشاعر حسن كردي رحمهما الله .

ثم بعد أن ذكر عددا من الأنبياء والمرسلين وفضلهم وما زيد به نبينا صلى الله عليه وسلم عليهم أخذ في ذكر الشفاعة والتوسل .
ثم يقول في أخريات القصيدة :

حججت ولم أزرك فليت شعري متى بمـزارك الجاني يهـنا
وثم صـويحب يـرجوك مثلي بـعـادك عنه أـمرضه وأضـنى
يكاد يذوب إن ذكرك شوقا إليك فهل بجـاهـك منك يـدنى
تأمل عذوبة الروح الإنسانية التي قرنـها بـاعتذاره هذا عن نفسه وعن صاحبه إذ يبدو أنه هو أيضا حج ولم يزر

عسى عطف عسى فرج قريب فقد وصل الأجابة وانقطعنا
فشرفنا بسوء تراب أرض بزورتها يحط السوزر عنا
وقل عبدالرحيم ومن يليه معى يوم الخلود يحل عدنا
عليك صلاة ربك ما تناغت حمام الأيك أو غصن تشنى

ومن أعجب قصائد الإمام الصالح المحب عبدالرحيم رضى الله عنه ، القصيدة اللامية التي ذكر فيها مرض ابنه ، وقد توسل بها إلى الشفيـع صلى الله عليه وسلم ، فشفي ابنه ، وعسى أن يستفاد من سياق هذه اللامية أنه قد أتاحت له الزيارة فيما بعد . والشائع بين العامة عندنا أن البرعي رحمه الله لم يزر ، وأنه لما عزم على الزيارة غلبه الشوق وهو متجه إليها فانشق حنينا وفاضت نفسه من غلبة حرارة الشوق والمحبة عليه ، وأحسب أن صاحب البدر الطالع قد ذكر تأريخ وفاته ان كان ذكره فليراجع (١) .
قال رحمه الله :

هم الأجابة إن جاروا وإن عدلوا فليس لى معدل عنهم وإن عدلوا

تأمل مناسبة هذا الاستهلال لما سيذكره في آخر القصيدة من مرض ابنه

وكل شيء سواهم لي به بدل منهم ومالى بهم من غيرهم بدل
إنى وإن فتنوا في حبهـم كبـدي باق على ودهم راض بما فعلوا
شربت كأس الهوى العذرى من ظمأ ولذلي في الغرام العل والنهل

(١) توفي رحمه الله سنة ٨٠٣ هـ وقبره في طريق المدينة .

فليت شعري والدنيا مفارقة بين الرفاق وأيام الورى دول
هل ترجع الدار بعد البعد آنسة وهل تعود لنا أيامنا الأول
تأمل أنفاس هذه الصباية ، وعذوبة هذا التعبير ، ورقة هذا الحنين

يا ظاعنين بقلبي أينما ظعنوا ونازلين بقلبي أينما نزلوا
ترفّقوا بفؤادي في هوادجكم راحت به يوم راحت بالهوى الإبل
ومع أن ظاهر هذا الكلام نسيب تجد مكان الكناية فيه غير جد خاف لأن الشاعر
المحب الصالح يبيجه شوقه إلى الزيارة كلما جاء الموسم ورأى الركب اليماي قد جعل
يستعد للحج - ألا تجده يقول بعد :-

فوالذي حجت الزوار كعبته ومن ألم بها يدعو ويتهل
لقد جرى حبكم مجرى دمي فدمي بعد التفرق في أطلالكم طلل
أي كأن قدمت بعد التفرق لأن قلبي قد أقام لدى أطلالكم فهو جزء منها .

لم أنس ليلة فارقت الفريق وقد عاقوا الحبيب عن التوديع وارتحلوا
كأنه يشير هنا إلى أن عزم رفاقه على الرجوع اضطره إلى الرجوع معهم فكأنهم بالذي
صنعوا عاقوا الحبيب عن وداعه . والله أعلم .
لما تراءت لهم نار بذى سلم ساروا فمقطع عنها ومتصل
أخذ هذا من معنى تنور الشعراء لنار الأوبة . وقد تنورها امرؤ القيس يشرب فتأمل .

لا در در المطايا أينما ذهبت إن لم تنسخ حيث لا تنسى لها العقل
في روضة من رياض الجنة ابتهجت حسنا وطاب بها للنازل النزل
ثم تخلص إلى المدح النبوي في سهولة ويسر
حيث النبوة مضروب سرادقها وطالع النور في الأفاق يشتعل
وحيث من شرف الله الوجود به فاستغرق الفضل فرد ماله مثل
محمد سيد السادات من مضر سر السيادة شمس ماله طفل
شوارد المجد في مغناه عاكفة وريق رأفته غض الجنى خضل

تأمل عجز هذا البيت وما فيه من حسن التشبيه للرأفة بالريف وما لابس ذلك من النعت لطبيعة اليمن السمحة التي كأن طبيعة المدينة بخصبها ونخيلها والجبال المكتنفة لها جزء منها . هذا على تقدير أن عبدالرحيم رحمه الله لم يصل المدينة . على أن سياق هذه الآيات ينبئ عن مشاهدة . وليس بمستبعد على من يكون في مثل صفاته أن يشاهد بقلبه ما قد تعجز عن دركه المشاهدة بالعيان .

ثني عليه المثاني كلما تليت كما استنارت به الأقطار والسبل
المثاني آيات القرآن والسبع المثاني فاتحة القرآن

بحر طوارفه بر ومكرمة بدر على فلك العلياء مكتمل
مازال بالنور من صلب إلى رحم من عهد آدم في السادات ينتقل
حتى انتهى في الذرى من هاشم وسما حملا وطفلا ووفي وهو مكتمل

يعني أنه عرف بالأمين لما صار إلى سن الاكتهال وذلك بعد الشباب وأخذ هذا من قوله تعالى " وإبراهيم الذي وفى " . ثم أخذ البرعي في ديباج خسروائي من المدح حتى صار إلى ذكر الشفاعة . وفرق ما بين هذا المدح وما كان يمدح به الشعراء الملوك ظاهر، إذ فيه المحبة الصادرة من صدق الإيمان وشعور العزة بالانتماء إلى الإسلام :

حتى انتهى في الذرى من هاشم وسما حملا وطفلا ووفي وهو مكتمل
فكان في الكون لا شكل يقاس به ولا على مثله الأقطار تشتمل
به الحنيفة مرساة قواعدها فوق النجوم ونهج الحق معتدل
وأخلفه ليلة الإسرا على قدر صلى النيون والأملاك والرسل

ثم صار إلى ذكر الشفاعة والمقام الرفيع حين يبعثه ربه مقاماً محموداً ويفتح عليه بالثناء عليه ويشفعه في أمته ، صلى الله عليه وسلم :-

وذلك الشافع المقبول عصمتنا به إلى الله في الدارين نتهل
ومنه ظل لواء الحمد يشملنا إذ العصاة عليهم من لظى ظلل
وإنه الحكم العدل الذى نسخت بدين ملته الأديان والملل

واعلم أصلحك الله أن اليمن لم تكن بمعزل من خطر الصليبية ، فقد كان البرتغاليون محققين بها من جوانب البحر المحيط ثم كفى الله شرهم .

يا خير من دفنت في التراب أعظمه
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه
أنت الحبيب الذي ترجى شفاعته
نرجو شفاعتك العظمى لمذنبنا
فطاب من طيهن السهل والجبل
فيه الهدى والندى والعلم والعمل
عند السراط إذا ما ضاقت الخيل
بجاء وجهك عنا يغفر الزلل
ثم صار إلى التوسل الخاص وذكر مرض ابنه

يا سيدى يا رسول الله خذ بيدي
قالوا نزيلك لا يؤذى وهأنذا
في كل حادثة ما لى بها قبل
دمى وعرضى مباح والحمى همل
فهو كما ترى يشكو ضيما حل به خاصة . ولا أحسب أن هنا مبالغة ، بل التجاء بالشكوى صادق . وهذا البيت يدل على أنه إما بالمدينة وإما في الطريق إليها بين مكة وبينها حرسهما المهيمن بعينه التى لا تنام .

وذا المسمى بك اشتد البلاء به فارحم مدامعه في الخد تنهمل
ويروى وابنى المسمى بك وهو الذى في المجموعة والذي أثبتنا هو الذى في الديوان وكما سمعناه ينشد اعتمادا على نسخة الديوان الخطية وحفظا عن ظهر قلب " وذا " أحب إلى وأدل على الاستعطاف لما في ذلك من الدلالة على القرب والحضور والشفقة والتمريض ، وذكر الدموع المنهملة على خدى الطفل فيه معنى المعاينة لحال ضعفه . وقد سمجت كلمة «التصوير» لكثرة ما يجاء به عند المتعاطين للنقد هذه الأيام ، فكرهنا استعمالها في هذا الموضع . وكأن الغلام المسكين قد أصيب بلذع من ذات الرئة بدليل بكائه أن تنحل عقدة السعال وهي لا تنحل .

وذا المسمى بك اشتد البلاء به فارحم مدامعه في الخد تنهمل
وحل عقدة هم عنه ما برحت واشرح به صدر أم قلبها وجل
جعلها عقدة هم - لأنه هو مهتم لما به من مرض ، فالدعوة بحل العقدة تسرى على المريض وتسرى على والده المهموم له ، فإذا انحلت عقدة مرضه وجاء شفاؤه انحلت .

عقدة هم هو، وانشرح صدر أمه . وهذا البيت غاية في الرقة والإنسانية : وفي قوله :
«عقدة هم عنه ما برحت» عموم يدخل فيه الشاعر وسائر أفراد الأسرة ومن يعنيه أمرها
وإن كانوا في طريق المدينة فيدخل فيه الرفقة المعاونون أيضا . وذكر الأم بعد تخصيص
لها ثم أتبع ذلك ذكر نفسه وهو داخل في العموم الذي سبق ثم هنا ليجعل اسمه في
المدحة وليرجع إلى ما كان قدمه من ذكر الشفاعة ورجاء الغفران والرحمة :

وصل بمرحمة عبد الرحيم ومن	يليه لا خاب فيك الظن والأمل
صلى وسلم ربي دائما أبداً	عليك يا خير من يحفى ويتعل
والآل والصحب ما غنت مطوقة	وما تعاقبت الأبيكار والأصل

قوله «يا خير من يحفى ويتعل» كأنه من قول القطامي :

أما قريش فلن تلقاهم أبداً إلا وهم خير من يحفى ويتعل
فسيد قريش عليه الصلاة والسلام أولاهم بهذا الوصف ، والبيت من كلمة القطامي :

إننا عيوك فاسلم أيها الطلل وإن بليت وإن طالت بك الطيل
وهذا من المطالع الفخحات ، نبه عليه ابن رشيقي . والمعنى الذي تقدم لم يكن القطامي
هو السابق إليه ، وكأنها نظر إلى قول الأعشى .

إما ترينا حفاة لا نعال لنا إننا كذلك ما نحفى ونتعل

فأخذ القطامي «يحفى ويتعل» من ههنا .

وشعر الشيخ عبدالرحيم البرعي در نفيس وفي هذا الذي استشهدنا به من شعره ، ومنه
قصائد جئنا بها بتمامها ما يشهد بيا زعمنا من متانة أسره وصفاء ديباجته ، وما يقوم
ببعض حاجتنا في إنكار هذا الذي فشا به القول بيننا الآن من أن الفترة التي تلت القرن
الخامس الهجري فما بعده كانت فترة انحطاط للشعر ولغيره من جوانب الفكر والفن
والحضارة الإسلامية . فقد سبق التنبيه منا إلى بطلان هذه المقالة . ولعل المصنف يعترف
أن عصر الانحطاط هو عصرنا هذا ، نسأل الله سبحانه وتعالى الفرج والنجاة .

إذا رجعنا بالقارىء الكريم إلى ما قدمناه من قبل من تشبيهنا على وجه التمثيل
والتقريب للصرصي بحبيب والبرعي بأبي عبادة والبوصيري بأبي الطيب ، فإننا نريد ،

مع الذى لا نشك فيه من أن القارىء حفظه الله لا يرى أن مرادنا محض التشبيه حتى كأن المشبه والمشبه به مدرسة واحدة كما يقال بلغة هذا الزمان، أن نحتاط لما مثلنا به البوصيرى بأبي الطيب بأن وجه المشابهة بينهما هو في أمر واحد، وهو أن كليهما ذو إقدام على ما يقول، وثقة بالمقدرة على الإفصاح والبيان وجودة الشعر. مع هذا في ديباجة البوصيرى متانة نسج تذكرك أبا تمام وامتداد نفس يذكرك ابن الرومي، ولا التزامه جانب العبادة والخشوع في مخاطبة محاسن الذات المحمدية، تجد ثقته لا يخالطها ما ساءه الثعالبي في حديثه عن المتنبي "إساءة الأدب بالأدب" وإنما عنى بذلك فرط التحدى وجهارة قوة التعبير مما ينفر عنه الملوك ومنادموهم وصنائعهم والمتنطسون بالقرب منهم والتقرب إليهم. مع هذا ليس البوصيرى غير ذي جهارة أو تحدى (١). كلا ذينك لديه، إلا أنها قد جعلنا عنده بعض أساليب قتاله أهل الكتاب. ذلك بأن الحروب الصليبية ما زالت محتدمة نارها على زمانه على انتصار كان من المسلمين بالمشرق وإيذان بقرب انهزام الفرنجة إذ كان جلاؤهم عن عكا وصور قبيل وفاة البوصيرى وانتصر المسلمون على التتار على أيدي حماة مصر حرسها الله تعالى، كما انحسرت غمرات الكفر عن المشرق. إلا أن الحال كانت حال جهاد. وقد اشتدت شوكة أهل الصليب بالمغرب على مسلمى الأندلس.

كنا قد قلنا في الجزء الأول من هذا الكتاب في معرض الحديث عن همزيات البحر الخفيف حين صار الحديث إلى همزية البوصيرى (توفي رحمه الله سنة ٦٩٦ هـ): «وهي تفصح بحجة الإسلام كما تفصح قصيدة دانتى بحجة المسيحية». [ص ٢٠٣ من طبعة ١٩٧٠ م]. وكان الرجلان كالتعاصرين إلا أن البوصيرى أسبق، إذ تأريخ دانتى ١٢٦٥ - ١٣٢١ م - [أى ٦٦٢ - ٧٢٠ هـ] وتأريخ البوصيرى ٦٠٨ هـ مولده و ٦٩٦ هـ وفاته - ١٢١٢ - ١٢٩٨ م ولعل البحث إن جد فيه أصحابه أن يكشف لنا أن دانتى تأثر بالبوصيرى وحاكاه وبمداح الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر أسين الإسباني في رسالته عن دانتى أنه تأثر بالمعراج وأحاديثه وبرسالة الغفران المعرية. وعندى أن يكون قد تأثر بالمديح النبوي أقرب. لأن المديح النبوى كان شيئا ظاهرا، ويترنم به المسلمون في أعيادهم وجمعاتهم وزواياهم ويترنمون به عند الأفراح وعند التعازى. وفي

(١) جئنا بالياء خطأ للتوضيح ويجوز الوقف بالياء وبذلك قرأ ابن كثير أحد السبعة.

ليلات الجمعة مساء كل خميس وليلات الاثنين مساء الأحد . قال الصرصري رحمه الله
في إحدى استغاثاته :

ففى النفس حاجات وما لقضائها سواك إلى رب البرية شافع
أخذ قوله «وفي النفس حاجات» من أبي الطيب : «وفي النفس حاجات وفيك فطانة»
من أبيات بائيته في كافور «منى كن لى إلخ» .

ومجموع حالى عنده وهو عالم بتفصيل خافيه وما هو ذائع
وفي كل يوم اثنين أو في خميسنا رسولى بأعمالى إليك يطالع
عنى منشدى مدائح

فكن جابرا نقصي بجاهك إنه لجاه مديد عند ذى العرش واسع
وسل ربك النصر العزيز لأمة تكنفها قرن من الدهر سابع
يشير هنا إلى حروب التتار وحروب الصليبيين وجعل القرن كأنه قرن ثور يهجم به وأرخ
لزمانه كما ترى

أضر بها سحر وخلف وفتنة لها كل عام في القلوب قوارع
فكان ذلك سبب الهزيمة .

وكتب مسلمو الأندلس المغلوبون على أمرهم إلى سلطان آل عثمان في أوائل القرن
العاشر قصيدة تائية يستنصرونه ويشكون إليه ما وقع بهم من غدر وبلاء . فمما
قالوه^(١)

سلام كريم دائم متجدد أنخص به مولاي خير خليفة
سلام عليكم من وجوه تكشف على جملة الأعلاج من بعد ستره
سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم اللباط فهرا لخلوة

(١) راجع مجلة الاندلس (مدريد وغرناطة) - Andalus vol. XXXI ١٩٦٦ - المجلد ٣١ - ١٩٦٦ م مقال منرو Monroe
ص ٢٨١ وله فيه خلط مؤسف .

اللباط أي القسيس
سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم لجيفة
أحسب لحم الجيفة هو الثور الذي يقتل في المصارعات وإلى الآن يقول الاسبان (أوليه)
تشجيعاً للمصارع . فهل كان هذا محاولة من البائسين المسلمين آنئذ أن يذكروا اسم الله
على هذه البهيمة التي كان عليهم أن يأكلوا من لحمها من دون ذكاة؟

وقد أمرونا أن نسب نبينا ولانذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوما يغنون باسمه فأدركهم منه أليم المضرة (١)

وهذا البيت هو موضع استشهادنا، إذ فيه الدليل على تغني المسلمين بالمديح
النبوي . هذا بعد سقوط غرناطة . فقس عليه حال بقية المسلمين بصقلية وجنوب
إيطاليا بعد هلاك فردريك الثاني (١٢٥٠م) وكان به عطف ما عليهم، زعموا أنه كان
من أسباب عداوة البابوية له ولأسرته حتى أبادوها . وهؤلاء المسلمون الذين كانوا
يتغنون بالمدائح والأدعية وبالقرآن بلا ريب ذكرت الثانية التي مرت منها الأبيات
السابقة أن منهم أهل بلدة :

بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة

ولئن صح مانرجحه من أن دانتى تأثر بالمديح النبوي وأغلب الظن بالبوصيري لاشتهار
هذا شهرة واسعة على ذلك الزمان بقصيدتيه الهمزية والبردة على وجه التخصيص
(٢)، فإنه يترتب على ذلك أن يكون شعراء الأشعار الدينية الافرنج قاطبة قد تأثروا
به . والمتأمل لأصناف أشعار الدينيين في الأدب الانجليزي واجد ما يدل على
ذلك، مثلاً قصيدة الأرج The Odour لجورج هربرت George Herbert (١٥٩٣-
١٦٣٣م) وهذا باب واسع . والشاهد هنا تشبيه جورج هربرت قوله : " ياسيدي "
بأريج العنبر والعطور الشرقية - فهذا لقولهم : " فت مسكا " - وتضوع طيباً - وفاح عرفاً

(١) منه أى من الغناء

(٢) ولد دانتى بعد نصف قرن وزيادة من ميلاد البوصيري فأمر البوصيري يكون قد بلغ الأفاق في هذه المدة . ولابن أبي
الخصال (٤٦٥ - ٥٤٠هـ) قصيدة في المعراج كانت مشهورة عند المادحين بلغنا أن نسخة خطية منها موجودة بخزانة
القرويين بفاس وقصائد نبويات آخر .

وما أشبه مما يذكر في باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . ومن عجب الأمر أن مناهج درس الانجليزية يتلقى فيها طلابنا ما يتلقون عن الشعر الديني في لغة القوم . ويظنون يجهلون كل الجهل شعرنا الديني . وربما خيل إلى بعضهم أنه ليس يشعر وإنما هو أوراد عبادة مما كان يعكف عليه جيل الرجعية أو الماضي المنقرض . «ويابؤس للجهل ضاراً لأقوام» .

همزية البوصيري أوشكت أن تبلغ أربعمئة بيت إذ هي نيف وستون وثلاثمئة من الأبيات ، قل فيهن بيت ساقط . وذلك أنه اجتمع له مع الملكة والصدق والعلم والافتنان ، مجال قول واسع . وقد نظم السيرة من غير أن يعتمد في ذلك إلى منهج تعليمي أو قصصي سردي . ولكنه سلك مسلك التأمل والموعظة الحسنة وأتبع الأمر ما ينظره أو يقابله أو يمت إليه بنوع صلة من غير التزام بالتسلسل التاريخي ، ثقة بأنه لن يقع التباس من هذه الجهة ، إذ مصادر السيرة من حيث هي تاريخ معروفة تلتمس في مظانها من كتب السير والتاريخ . ثم أكثر أخبار سيرة النبي صلى الله عليه وسلم معروفة عند العوام والخواص فالشاعر الفحل الذي يتغنى بها لا يجد نفسه مضطراً إلى عمل وصناعة إلا أن يعتمد إثارة السرد بغرض أن يستوعب أحداث السيرة ، وهذا ما صنعه الشيخ يوسف النبهاني في همزته الألفية ، وفيه عناء ، مثلاً نظمه الغزوات التي لم يكن فيها قتال :

غطفان ذات الرقاع بواط دومة ذو العشيرة الأبواء
بدر الأولى بدر الأخيرة بحرا ن سليم لحيان والحمراء
وما أراد النبهاني أن يربي على البوصيري على الأرجح ولكن أن ينظم السيرة نظماً على غرار همزته من أجل التبرك .
ويلفتنا في همزية البوصيري أولاً مطلعها :

كيف ترقى رقيق الأنبياء ياسماء ما طاولتها سماء
لما يقرع به السمع من صيغة الاستفهام الإنكاري والتداء المؤكد والتفضيل المشتمل على روح من التحدي والقتال . ولا عجب فقد كان زمان البوصيري رحمه الله زمان الحروب الصليبية والمسلمون بالشرق مقبلون فيها على نصر وقد كشف الله عنهم غمائم التار ، وكان البوصيري من أهل الجهاد بالبيان إن كان غيره يباشره بالسيف والسنان . غير أنه رحمه الله هل غلا شيئاً في قوله بعد هذا البيت .

لم يساووك في علاك وقد حا ل سنا منك دونهم وسنا
إنما مثلوا صفاتك لنا س كما مثل النجوم الماء

السنا الضوء والسنا الشمس والبيت جميل الصياغة متينها ومنه هذا التجنيس والتشبيه
بتمثيل الماء لضوء النجوم بانعكاس أشكالها فيه بليغ مذهل أول الأمر، غير أنه ربما
أحست فيه نبوة لما يوهم من أن التمثيل لا حقيقة له، ولا يجوز ذلك في حق الأنبياء،
وليس هو مراد البوصيري، بلا أدنى شك، إذ معنى لا حقيقة تمثيل ضوء النجوم الذي
في الماء أمر استفدناه نحن من اصطلاحات علوم الفيزياء المعاصرة حيث تسمى ما
ينعكس على المرآة ونحوها لا حقيقياً (١)، ولا ريب أن الضوء المنعكس على الماء ومنه
ضوء حقيقي وكان البوصيري قد عمد إلى تلافي ما قد يتبادر إلى الوهم من قوله هذا
وليس بمراده، بالأبيات التالية:

أنت مصباح كل فضل فما تصد در إلا عن ضوءك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيب وب ومنه لآدم الأسماء
لم تنزل في ضمائر الكون تحت ر لك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل إلا بشرت قومها بك الأنبياء

فالبيت «أنت مصباح كل فضل» أشار به إلى مقام الشفاعة إذ كل الأنبياء عليهم
السلام يقول نفسى غيره صلى الله عليه وسلم ثم يشفع الشافعون بعده حتى إن خيار
المؤمنين ليشفعون لمن يعلمون إيمانه ممن يتردى بذنبه عند عبور الصراط. والبيت «لك
ذات العلوم» إلخ أشار به إلى قوله تعالى: «وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم». أي
القرآن وقد نزل على محمد صلى الله عليه وسلم. والأسماء التي لآدم عليه السلام حقيقة
لا خيال، فهذا قولنا إن البوصيري لم يرد بقوله «إنما مثلوا صفاتك» إلخ أن ذلك لا
حقيقة له وأنه قد عمد من بعد إلى تلافي ما يتبادر من توهم هذا المعنى. والبيت «ما مضت فترة من الرسل»
في ضمائر الكون» إلخ واضح غير مشكل بشيء. والبيت «ما مضت فترة من الرسل»
يقوي معنى «لك ذات العلوم من عالم الغيب» لأن تبشير الأنبياء صلوات الله عليهم
به صلى الله عليه وسلم سببه ما أوحى به الله سبحانه وتعالى إليهم به من سابق
علمه. وفي حديث عرياض بن سارية - بكسر العين وسكون الراء وأصل معنى
العرياض الرجل الطويل وكان رضى الله عنه من أهل الصفة ومن السابقين وعن نزلت

(١) هذا في باب الظلال (الظل الحقيقي) Real Image كظل الشيء من العدسات والظل اللاحقي Virtual Image
كظل الشيء من المرآة والظل يكون بالضوء.

فيهم آية براءة: «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون» - ما يفيد مثل هذا المعنى ، إذ ذكر أن رؤيا أمة من معنى البشارة وكذلك ترى أمهات الأنبياء . قال في المسند للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ج ٤ ص ١٢٧ س ١٨ : «حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا عبدالرحمن بن مهدي ثنا معاوية يعني ابن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبدالله بن هلال السلمي عن عرياض بن سارية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني عبدالله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طيته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين ترين» ١ . هـ - حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا أبو العلاء وهو الحسن بن سوار (١) قال حدثنا ليث عن معاوية عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى ابن هلال السلمي عن عرياض بن سارية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني عبدالله وخاتم النبيين فذكر مثله وزاد فيه أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت منه قصور الشام . وفي ص ١٢٨ س ٢٦ حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا أبو اليان الحكم بن نافع ثنا أبو بكر عن سعيد بن سويد عن العرياض بن سارية السلمي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني عبدالله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طيته وسأنبئكم بتأويل ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم» ١ . هـ - سعيد بن سويد المذكور في السند هو الكلبي ذكره البخاري في الكبير (٢) رقم ١٥٩٣ ص ٤٧٦ طبعة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م - القسم الأول من ج ٢ يروى عن عبد الأعلى بن هلال وعنه أبو بكر بن أبي مريم وذكر سعيد بن سويد آخر ونص على أن الأول شامي ولكن كما لاحظ المحشى هذا الثاني مرادي كوفي أو يروى عن كوفي (راجع هامش ٤٧٧) وذكر البخاري آخرين كلاهما سعيد بن سويد وذكر في ميزان الاعتدال سعيد بن سويد وعن بخاري أنه لا يتابع في حديثه وإنما علق البخاري بقوله لا يتابع على سعيد بن سويد الآخر رقم ١٥٩٤ فوجب التفريق بين الثقة وغيره والحكم بن نافع ثقة . وحديث المسند صحيح والذي في ميزان الاعتدال (٣) وهم والله تعالى أعلم .

(١) في الطبع طمس والصواب سوار سين مهمل بعد واو مشددة مفتوحة وآلف بعده راه مهمل افاده الثقة ١ . هـ - المسند للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه الطبعة السلفية المصورة ج ٤ ص ١٢٧/١٢٨ .
(٢) التاريخ الكبير للإمام البخاري .

(٣) ميزان الاعتدال للذهبي طبع القاهرة ١٣٢٥ هـ ٣١٥٣ ج ١ ص ٣٨ .

هذا وإننا استشهدنا بالحديث في وجوه روايته الثلاثة كما في المسند في هذا الموضع للتنبية على أن البوصيري في ربطه بين البشارة وبين «لك ذات العلوم من عالم الغيب» إنما نظر إلى ما في هذا الحديث من قوله «وسأنبئكم بتأويل ذلك» والله تعالى أعلم.

تباهى بك العصور وتسمو بك علياء بعدها علياء
وبدا للوجود منك كريم من كريم آباؤه كرماء
أي بدا بعد أن كان في عالم الغيب، في أم الكتاب، وفي علم الله سبحانه وتعالى، وكما قال عز وجل: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل» وكما قال تعالى: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا» فهذا كله من عالم الغيب والله أعلم.

نسب تحسب العلا بحاله قلدها نجومها الجوزاء
وذلك أن نجوم الجوزاء كأنها وشاح. وزعم قوم أن امرأ القيس إنما عني الجوزاء حيث قال: "إذ ما الثريا في السماء تعرضت"، والثريا لا تتعرض وليست كالوشاح المفصل وأن هذه صفة الجوزاء والبيت من إحسان امرئ القيس.

حبذا عقد سؤدد وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء
واليتيمة والعصماء من صفة الدر وفيها إلماع إلى يتمه صلي الله عليه وسلم وإلى عصمته صلي الله عليه وسلم. ثم تجيء أبيات المولد ومناسبتها لقوله "بدا للوجود" بعد "عالم الغيب"، ومناسبتها أيضاً للنسب في قوله "نسب تحسب العلا".

ومحيا كالشمس منك مضى أسفرت عنه ليلة غراء

هذا من النظم الذي لا يتأتى إلا بتوفيق وإلهام. ونعت محياه عليه الصلاة والسلام بإشراق الشمس وبهجة ضوئها وارد في الحديث الصحيح، وإذا كان مولده في ليلة أسفرت بوجهه جعلها الشاعر غراء وهي التي يكون فيها البدر المضيء فجمع بين محياه الشمسي والإشراق وليلة مولده التي صارت بذلك غراء بدرية ولا يكون الكلام إلا

هكذا إذ لا توصف الليلة بأنها مشمسة وأحسب أن لو أراد أبو تمام هذا المعنى لجعلها مشمسة بدليل محاولته البديعة أن يجعل النهار مقمرا حيث قال :

ترياً نهاراً مشمساً قد شابه نبت الربا فكأنها هو مقمر
والشئ بالشئ يذكر

ليلة المولد الذى كان للديـ من سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وحق الهناء
وهذا البيت في المذهب القصصي ذروة لما في الذي سبقه من التمهيد ولما يجيء بعده من الالتفات إلى ما حول هذه الذروة من الآفاق كتداعي الإيوان وخمود النار وغيض البحيرة مما ينبىء ببروز الإسلام وانقضاء الكفر وزوال دولة الشرك والجاهلية .
ولهذا البيت تخميس حسن :

حيث جبريل في السموات مجد يعلـن البشر في ولادة أحمد
سمعت أمه ابشرى بمحمد وتوالت بشرى الهواتف أن قد
ولد المصطفى وتم الهناء

وحسن هذا التخميس من أن صاحبه مازاد على محض الترتم ، إذ لو عمد إلى زيادة شئ من معنى أو وشي لفظى لفسد بذلك إيقاع الكلام واتساقه . أبشرى أشهر فيه قطع الهمزة من الرباعي من قولك بشرته ، فأبشر أى فرح ، وجاء به ههنا من الثلاثي فلا يحمل على الضرورة والعجب لشوقي إذ حاكي همزية البوصيرى في همت الفلك واحتواها الماء (وقد سبق منا القول في الجزء الأول في باب همزيات الخفيف أنا لا نراها من جيد شعره) فذكر مولد المسيح عليه السلام كأنه يضاهي بذلك صفة البوصيرى ليلة مولد رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وذلك قوله :

ولد الظهر يوم مولد عيسى والمروءات إلـــــــخ
في أبيات اختارها أحد أصحاب الاختيارات من المسيحيين من شعر شوقي مع كلمة في الصليب الأحمر وجعل الكلمة الثالثة المختارة :

خفت الأذان فما عليك مــــوذن يدعو ولا الجمع الحسان تقام

فانظر إلى هذا من إسرار البغضاء وإظهارها كأن لم يجد في الكثير الطيب من شعر شوقي غير هذا السياق . وكلمة «المروءات» من قوله لا تخلو من ضعف في هذا الموضع إذ الشهير الفصيح أفراد هذه الكلمة كما قال أبو الطيب :

وترى الفتوة والأبوة والمروة في كل مليحة ضراتها
وموضع قوله «المروءات» مع ما تقدمه من ذكر الطهر ومولد عيسى عليه السلام كأنه مقحم وسائر الأبيات سرقة ومحاكاة للبوصيري وهذا المسلك عند شوقي رحمه الله كثير وما يؤخذ عليه — وقد حاكى أبيات المولد هذه أيضا في قوله ، في قصيدته التي من بحر الكامل يذكر فيها مولد نبينا صلى الله عليه وسلم :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء
قوله وفم الزمان إلخ صياغة أخرى لقول البوصيري «المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء» حذف شوقي الدين وجعل اليوم زمانا . على أنه حين عدل عن خفيف البوصيري ورويه للذين جاراها في «همت الفلك واحتواها الماء» إلى الكامل وروي أبي الطيب :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء
وما خلا من أخذ منه ، إنما اتبع حقا طريق الشهاب محمود الحلبي (رئيس دواوين الإنشاء بالشام المتوفي سنة ٧٧٥ هـ رحمه الله في ما ذكره النبهاني عند تقديم مدحته الهمزية) ، حيث قال :

ما آذنته بينها أسماء فنقول ثا و مل منه ثواء
لكنه ذكر الحمى فتقاسمت أحشاءه الأشجان والبرحاء
ونأمل أن يتيسر لنا ذكر شيء منها إن شاء الله تعالى
قال البوصيري يذكر تداعي الأيوان وما إلى ذلك
وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ن لنيرانهم بها إطفاء
قوله « فهل كان لنيرانهم إلخ » من باب البديع المعنوي .

فهنيئاً به لآمنة الفضـ ل الذي شرفت به حواء

من لحواء أنها حملت أحـــــمد أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار ما لم تنله النساء
وأنت قومها بأفضل مما حملت قبل مريم العذراء
شمته الأملاك إذ وضعتة وشفتنا بقولها الشفاء

قوله «وأنت قومها»، فإبنة وهب وضعتة في مكة وكانت الشفاء قابلتها وهي من قراباتنا
بنى زهرة رهط سيدنا عبدالرحمن بن عوف الزهري أحد العشرة وصاحب الشورى التي
أسفرت عن خلافة عثمان رضى الله عنهم أجمعين والشفاء بفتح الشين وتشديد الفاء
مفتوحة أمه. يجوز أن يكون من مراده بقومها في هذا الموضع أخواله بني النجار بالمدينة
إذ جاءتهم به وهو غلام صغير وتوفيت بالأبواء في طريق عودتها. شمتته الأملاك من
تشميت العاطس أي دعت له.

رافعا رأسه وفي ذلك الرفـــــع إلى كل ســـــؤدد إيباء
رامقا طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء
فهذه صفة مولده إذ وضعتة أمه صلى الله عليه وسلم. ثم أخذ البوصيرى في ذكر ما
حف ذلك من معجزات. وتأمل جودة الصياغة وسهولة انسياها وما معها من خفى
البديع، البيت: «فهنيئا به لآمنة» تكررت فيه الفاء - فهنيئا - الفضل شرفت والبيت
الذي بعده تكررت فيه حواء عند قوله (به حواء) (من لحواء) ثم جاء بحاءات
متتابعات - حملت - أحمد. ثم أخذ بطريق النون - أنها - نفساء - نالت - ابنة - وهب -
تنله النساء - ثم البيت «وأنت قومها» في صدره قاف وفي عجزه وكلمة أفضل تناغي
الفضل التي مرت من قبل وتأمل الميمات قومها - مما - حملت - مريم - والشينات في
البيت الذي بعده والراءات والسينات من بعد. ثم قص ما رأت أمه من إشراق أضواء
له قصور الشام - جاء بذلك في صياغة رشيقة صدر فيها البيتين اللذين ذكر فيها هذه
المعجزة بفعلين متقاربي الوزن مبدوءين بالتاء مع شيء من الجناس الحرفي والمتشابه:

وتدلت زهر النجوم إليه فأضاءت بضوئها الأرجاء
وتراءت قصور قيصر بالرو م يراها من داره البطحاء
ثم لما أراد ذكر الرضاعة، جاء بصيغة أخرى، بفعل ثلاثى مجرد فى صدر جملة قصصية
موجزة جعلها صدرا للبيت التالى ومهد بها لعجز البيت المشعر بقصد إلى تفصيل يجىء
بعده

وبدت فى رضاعه معجزات ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات قلن ما فى اليتيم عنا غناء

فأتته من آل سعد فتاة قد أبنتها لفقرها الرضعاء
أرضعته لبانها فسقتها وبينها ألبانهم الشاء
أصبحت شولا عجافا وأمست ما بها شائل ولا عجفاء
الشائل التي لا لبن لها .

أخصب العيش عندها بعد محل إذ غدا للنبي منها غداء
يا لها منة لقد ضوعف الأجـ ر عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناسا لسعيد فإنهم سعداء

والشعر الجيد أبدا فيه الحكمة . والبوصيرى موهوب في هذا الباب . وهذا أيضا من أوجه
الشبه بينه وبين أبي الطيب وأبي تمام ، وصياغته للحكم أقرب في إيجازها وقوتها إلى
مذهب أبي الطيب وصياغته . ثم ينهى هذا الفصل من معجزات الرضاعة بقوله :

حبة أنبت سنابل والعصف ف لديه يستشرف الضعفاء

وهذا كأنه صدى من بيت الحكمة الذي مر وتعليل له ما يرره من الإشارة إلى
الآية : « كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة » . ومعنى قوله والعصف
إلخ قال النبھانی رحمہ اللہ العصف هو ورق النبات اليابس . قال علقمة :

تسقى مذائب قد مالت عصيفتها حدورها من أتى الماء مطموم

وقال في القاموس العصف بقل الزرع وقد أعصف الزرع وكعصف مأكول أي كزرع
أكل حبه وبقي تبنة فأحسب النبھانی جاء باليبس من ههنا وقال في مجاز القرآن
كعصف مأكول وهو ورق الزرع وهو العصيفه . فمعنى بيت البوصيرى أن هذه الحبة
أنبت سنابل سباعا رحمة من الله أسبغها على آل حليلة فلما طال الزرع ولاح سنبله
استبشر به منتظرو حصاده فهذا معنى قوله والعصف لديه يستشرف الضعفاء أي حين
يعلو الزرع بسوقه وتلوح سنبله كثيرات جيدات هنالك يتطلع الضعفاء إلى يوم حصاده
فإن كانوا أصحابه فهو لهم خصب وإن كان أصحابه سواهم فإن خصبه يعمهم حتى
ولو أقبلوا يلتقطون ما يبقى بعد الحصاد . ولا معنى لأن يستشرف الضعفاء لورق
يابس . ومعنى البيت كما ذكرنا إن شاء الله والله أعلم .

ثم لما فرغ من ذكر معجزة الخصب صار إلى قصة شق الصدر وهي معجزة
أخرى . ويذكر شق الصدر أيضا في قصة المعراج .

وأنت جده وقد فصلته وبها من فصالة البرحاء
على تقدير الفرض أن قارىء هذه القصيدة ليس له سابق علم بالسيرة فقد أنبأه
البوصيرى بيتم النبي صلى الله عليه واله وسلم إذ أبته المرضعات . ثم أن الذي تولى
كفالة جده ههنا . ولعلم القارىء بأمر اليتيم وكفالة جده عبدالمطلب له ، فإن سياق
الخبر من أجل الذكر والعظة الحسنة والبشرى .

إذ أحاطت به ملائكة الله فظنت بأنهم قرناء
وبعض جهلاء أعداء الإسلام يبنون على خبر شق الصدر مزعماً أن النبي صلى الله عليه
وسلم كان مصاباً بالصرع ويجعلون ما يشابه من شدة الوحى من ذلك . ولا خفاء أن
هذا من سوء الأدب . ولو قد كان بالنبي صلى الله عليه وسلم هذا الذى زعموه لكان
رواة سيرته أول من يخبرنا به إذ لم يكتموا من خبره شيئاً . وما ذكر عن نبي ولا عن عظيم
من تفصيل الخبر كما ذكر عن نبينا صلى الله عليه واله وسلم . ولقد صحبه أصحابه فى
الحضر والسفر فما غادروا من أمره شيئاً . والأطبة فى عصرنا هذا لا ينطقون قاطعين برأى
فى مرض مريض ، أى مريض ، إلا بعد أصناف من الكشف الدقيق . فقد حسن سوء
الأدب وضلال الرأى وسخافته لهؤلاء السفهاء أن يقدموا على تشخيص مرض ينسبونه
إلى نبينا على الظن وبالتحامل والبغضاء وبغرض الطعن والسب وعلى وجه خلاف
منكر لكل ما ورد من خبره ، أنه كان أيقظ الناس وأصبرهم على مكاره السفر
والحرب ، شج فى أحد وكسرت رباعيته فما انتابه ضعف ولا خور . وفر عنه الناس يوم
حنين وهو مكانه لا يريم . وكان قواماً صواماً . وتحامل فى مرض وفاته فصلى وأصحابه
برؤيته مستبشرون .

ورأى جدها به من الوجـ د لبيب تصلى به الأحشاء
أى رأى عبدالمطلب حب حليلة له صلى الله عليه واله وسلم وتعلقها به .

فارقته كرها وكان لديها ثاويلا لا يمل منه الثواء
وقد أحسن تضمين كلام الشكرى ههنا . وقد رام نحو هذا الشهاب فى همزته الكاملية
فى المطلع .

ما أذنته بينها أساء فنقول ثاو مل منه ثواء

والصناعة هنا على سلامة الأداء . ثم يقول البوصيرى :-

شق عن قلبه وأخرج منه مضغفة عند غسله سوداء
ختمته يمنى الأمين وقد أو دع ما لم تذع له أنباء
صان أسرار الختام فلا الف ض منم به ولا الإفضاء

وينتقل البوصيرى في براءة قصصية من خبر الشق إلى بلوغ النبي صلى الله عليه واله وسلم أشده واشتغاله بالذكر والعبادة والتحنث وما كان عند مبعثه من ظهور الشهب تطرد الشياطين عن استراق السمع ثم يجمع بين هذا وبين تزوجه خديجة رضي الله عنها . ولو كان صاحب سرد همه تتابع الأحداث لكان ذكر بعد الرضاعة والفصال أحداثا آخر ثم أتبع ذلك ذكر الزواج ثم جاء من بعد بخبر المبعث . ولكن براءة البوصيرى تتجلى في ربطه الدقيق بين التحنث والوحي وخديجة رضي الله عنها وتبنيها النبي صلى الله عليه وسلم وأنها كانت له وزير صدق :

ألف النسك والعبادة والخل قوة طفلا وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء
صدق . وهذا من أبيات الحكمة .

بعث الله عند مبعثه الشهب ب حراسا وضاق عنها الفضاء
تطرد الجن عن مقاعد للسلم مع كما تطرد الذئاب الرعاء
وأحسب أنه يشير بالإلماع خفي إلى الكهان بقوله كما تطرد الذئاب الرعاء ، أليس الأعشى يقول :

ما نظرت ذات أشفار كنظرتها حقا كما نطق الذئبي إذ سجعاً

عنى بالذئبي كاهنا بعينه هو سطيح فيها ذكروا والتي نظرت هنا زرقاء اليامة والأشفار أراد بها أجفان العين المفرد شفر بضم فسكون وهو أصل منبت شعر الجفن وللشفر معنى آخر وليس المراد ههنا ، أعنى بيت الأعشى إذ لم يقصد إلى معنى التأنيث ولكن إلى معنى النظر . هذا ويقوى ما ذهبنا إليه من الإلماع إلى الكهانة قوله من بعد :

فمحت آية الكهانة أيا ت من الوحي ما هن اعاء

ومع ذكر المبعث أتى بذكر زواج خديجة لمناسبته له من حيث مؤازرتها رضي الله عنها
وإن كان الزواج قبل البعثة بخمسة عشر عاما

ورأته خديجة والتقى والز
وأتمها أن الغمامة والسر
أحاديث أن وعد رسول الله
هد فيه سجية والحياء
ح أظلت منه أفياء
ه بالبعث حان منه السوفاء

في سورة الصافات قوله تعالى يذكر تمنى قريش أن ينزل عليهم كتاب فلما جاءهم تنكروا
له : «وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به
فسوف يعلمون» وفي سورة البقرة قوله تعالى يذكر ما كان يستفتح به أهل الكتاب من
يهود إذ يترقبون خروج نبي يقتلون به العرب قتل عاد وإرم، وكانوا لغرورهم لا يرون إلا
أنه سيكون يهوديا منهم : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من
قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»
فدعته إلى الزواج وما أحسن ما يبلغ المنى الأذكياء

وليس ذكاء مكر دنيوي ولكن ذكاء توفيق وكيس ودين :

وأتمها في بيتها جبرئيل ولذي اللب في الأمور ارتياء

عنى بذى اللب خديجة والارتياء هنا من رؤية العقل، وذلك أنها ثبتت النبي صلى الله
عليه وسلم وأقنعت بالبرهان أن الذي رأى ليس برئي من الجن ولكن ملك الحق
المنزل بأمره من عنده :

فأماطات عنها الخمار لتدري أهو الوحي أم هو الإغماء
فاختفى عند كشفها الرأس جبريل هل فما عاد أو أعيد الغطاء

أي الخمار - لتأكد من أن كشفها رأسها هو سبب ابتعاد الملك فلم يعد رسول الله صلى
الله عليه وسلم يبصره

فاستبان خديجة أنه الكنز الذي حاولته والكيمياء

قد تبدو هذه القافية أول الأمر مجتلبة ولكنها بعد تأمل قليل تتضح قوة مناسبتها،

وذلك أن الكنز فيه معنى الذهب ، وكانت الكيمياء في ذلك الزمان إنما يجتهد أصحابها فيها من أجل أن يحولوا التراب وما أشبه ذهباً - أي هو الكنز وهو المني والمعجزة وهو الإكسير.

وانتقل البوصيري إلى نفس الدعوة وما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم من إباء من أبي وعنادهم . وعلل هذا الإباء بالرغم من المعجزات ، وعدد من المعجزات ثم ذكر انتصار الدعوة وظهور الحق - هذا الانتقال السريع من أول الدعوة إلى معجزاتها فانتصارها أفعل من حيث التأثير الشعري .

ثم قام النبي يدعو إلى الله — وفي الكفر نجدة وإباء
أما أشربت قلوبهم الكفر — ر فداء الضلال فيهم عياء
ورأينا آياته فاهتدينا — وإذا الحق جاء زال المراء
هذا من باب الحمد والشكر لله أن لم يجعلنا ممن حضروا الكفر فأشربوه ، وانتقال الشاعر من زمان أبي جهل إلى زمانه هو جيد بالغ .

رب إن الهدى هداك وآيا — تك نور تهدي بها من تشاء
كم رأينا ما ليس يعقل قد أله — هم ما ليس يلهم العقلاء
وعلل هذه الحكمة بقوله :

إذ أبى الفيل ما أتى صاحب الفيل — لم ولم ينفع الحجا والذكاء
وإباء الفيل معجزة كانت عند مولده عليه الصلاة والسلام . ثم ذكر تحية الحجر له وحين الجذع وأمر الغار والعنكبوت والحمامة فصار إلى ذكر الهجرة :

والجمادات أفصحت بالذي أخد — ررس عنه لأحمد الفصحاء
ويح قوم جفوا نبيا بأرض — ألفت ضباها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه — وقلوه ووده الغرباء
قلوه : أبغضوه ، وقد وده أهل المدينة وآووه صلى الله عليه وسلم

أخرجوه منها وآواه غار — وحته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت — ما كفته الحمامة الحصداء
أي ذات الجناح والريش وفيه معنى الرأي السديد من قولهم رأي محصد وجاء بهذا
النعث من قولهم شجرة حصداء أي كثيرة الورق ودرع حصداء أي محكمة النسج

ومعنى الدرع مستكن في نسج العنكبوت في هذا الموضع ، ومعنى كثرة الورق مستكن في لفظ الورقاء وإن يك معناه الرمادية اللون .

واختفى منهم على قرب مرآ ه ومن شدة الظهور الخفاء

واتلأب من بعد طريق السير الى المدينة :

ونحنا المصطفى المدينة واشتبا قت إليه من مكة الأنحاء
وتغنت بمدحه الجن حتى أطرب الإنس منه ذاك الغناء

يشير إلى خبر السيرة أن الناس أصبحوا يسمعون صوتا عاليا ولا يدرون من صاحبه
ينشد :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالوا خيمتي أم معبد

خيمتا أم معبد موضع سمي بذلك من بعد وأم معبد هذه ضيفت النبي صلى الله عليه
وسلم وصاحبه رضي الله عنه إذ درت شاتها . ثم يحىء خبر سراقه :

واقفتى إثره سراقه فاستهـ سوته للأرض صافن جرداء

الصابن الفرس والجرداء الملساء ليست بشعراء وهذا ينبىء عن جودتها

ثم ناداه بعد ما سيمت الخسـ ف وقد ينجد الغريق النداء

هذا تشبيه انتزعه من بيئة نيله وكان رحمه الله شديد الإحساس بالنيل وطبيعة أرض
مصر وجمالها ؛ هذا وذكر فرس سراقه كأنها دعا ذكر البراق على وجه من تجاوب المعاني
وتداعىها . ومع أن المعراج كان قبل الهجرة ، جاء به البوصيري هنا بعد خبر الهجرة لما
في ذلك من المناسبة الروحية ، إذ المعراج قد كان إيذانا بظهور أمر الدين وعلوه .

فصف الليلة التي كان للمخـ ستار فيها على البراق استواء

وترقى به إلى قاب قوسيـ من وتلك السيادة القعساء

رتب تسقط الأمـاني حسري دونها وراء هـ وراء هـ وراء

هذا مولد من قول أبي الطيب «مراتب صعدت والفكر يتبعها . البيت»

ثم وافى يحدث الناس شكرا إذ أتته من ربه النعماء

وتحدى فارتاب كل مريب أو يبقى مع السيول الغثاء

أراد هنا تحدي القرآن . وما أراه جمع بين التحدي والمعراج إلا لأن سورة الإسراء فيها مع ذكره أنه أسري به صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

وهو يدعو إلى الإله وإن شق عليه كفر به وازدراء
يشير بقوله « وازدراء » إلى خبر الطائف إذ أغروا به سفهاءهم

ويدل الورى على الله بالتو جيد وهو المحجة البيضاء
فبها رحمة من الله لانت صخرة من إبلاتهم صماء

من براعة البوصيري فطنته إلى أن نظم أي القرآن جهد يضيع سدى لمكان القرآن من البلاغة في الذروة . فالوجه الإشارة والتضمين فمن ذلك الإشارة إلى قوله تعالى : « فاحتمل السيل زبدا رابيا » وإلى قوله تعالى : « فبها رحمة من الله لنت لهم » وإلى قوله تعالى : « لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » فرحمة الله التي ألانت قلبه لهم ألانت قلوبهم فلم ينفصوا ، ومن حسن تأتي البوصيري أنه لما نسب تليين رحمة الله إلى قلوبهم جعلها صخرة صماء فلانت والآية « فبها رحمة من الله لنت لهم » فيها الدلالة على أن الله سبحانه وتعالى فطره برحمته لين الجانب رحيم الفؤاد على خلق عظيم ، صلى الله عليه وسلم ، ثم ختم البوصيري هذا الفصل بالإشارة إلى النصر وسورة الفتح :

واستجابت له بنصر وفتح بعد ذاك الخضراء والغبراء
وأطاعت لأمره العرب العر باء والجاهلية الجهلاء

الخضراء والغبراء أي كل مكان والخضراء السماء والغبراء الأرض ولكن المعنى الأول هو المراد إذ الأرب الدلالة على الشمول والعرب العرباء اليمن والجاهلية الجهلاء كل من كان على الشرك من العرب - أي كل العرب . وقد يكون المراد من العرب العرباء تأكيد بمعنى العرب الصرخاء أهل الشكائم .

وذكر العرباء والجهلاء جر إلى ذكر الجهاد والمصابرة والبلاء :

وتوالت للمصطفى الآية الكب رى عليهم والغارة الشعواء
فإذا ما تلا كتابا من الل ه تلتته كتيبة خضراء

أي تامة عتاد الحرب خضراء بالدروع . هذه الكتيبة ليست هي فقط كتيبة الجيش
المقاتل بالأسنة والأعنة والصوارم . ولكن لله جنودا لم تروها . من ذلك ما حل
بالمستهزئين من غضب الله عليهم وذلك قبل الهجرة . قال تعالى : « فاصدع بما تؤمر
وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزين . »

وكفاه المستهزين وكم سا ء نبيا من قومه استهزاء
ورماهم بدعوة من فناء ال بيت فيها للظالمين فناء

صناعة البوصيري لا تكاد تحس لجودة الأداء ورسائته وهيمته جانب المعاني عليه مع
نصوع الألفاظ - تأمل « فناء » بكسر الفاء وفتحها - والكاف والسين في البيت قبله -
ومن قبل ، الكبرى ، كتابا ، كتيبة . ومن قبل حتمه الحماة ، ولوضوح هذا وتواتره لا
ينبغي أن نزيد على مجرد الإيحاء إليه .

ثم نظم البوصيري نظم الخرز أسماء المستهزين . ونحن الآن مع أحداث ما قبل
الهجرة . وجعل في مقابلتها أسماء من تواطئوا على نقض صحيفة القطيعة التي كتبها
قريش :

خمسـة كلهم أصيـبوا بداء والردى من جنوده الأدواء
إي بداء قاتل

فدهى الأسود بن مطلب أى عمى ميت به الأحياء
فكان عماه من أسباب انكساره حتى قضى نجه . وقوله « ميت به الأحياء » أشار به إلى
قول الكوفي بن الرعاء

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيـبـا سيثا باله قليل الرجاء
هكذا كان ابن مطلب

ودهى الأسود بن عبد يغوث أن سقاه كأس الردى استسقاء
وأصاب الوليد خدشة سهم قصرت عنها الحياة الرقطاء

هو الوليد بن المغيرة وهو الذي نزلت فيه : « إنه فكر و قدر » وفي عجز البيت شيء .

وقضت شوكة على مهجة العا ص فلله النقعة الشوكاء

أي القتلة الخشنة . وفي هذا البيت بعض القلق على حذق المجانسة بين أوله وآخره

و على الحارث القيوج و قد سا ل بها رأسه وساء الوعاء

هو الحارث بن الطلائلة وبش الوعاء رأسه . والوعي بفتح الواو هو القيق فمن فتح الواو ومد المقصور جاز على هذا المعنى ولكن الكسر أجود خمسة طهرت بقطعهم الأر ض فكف الأذى بهم شـلاء

اذ كانوا من ملأ قريش ودهاتها

ثم ذكر الخمسة الذين عملوا على نقض الصحيفة الظالمه :

فدبت خمسة الصحيفة بالخمسة إن كان بالكرام فداء أي لو أمكن أن يفدى الكرام فهؤلاء الخمسة الذين وقع بهم عذاب الله في الدنيا ولعذاب الآخرة أشق فداء خمسة الصحيفة .

يا لأمر أتاه بعد هشام زمعة إنه الفتى الأتاء وزهير والمطعم بن عدي وأبو البخري من حيث شاءوا نقضوا مبرم الصحيفة إذ شـدت عليهم من العدا الأنداء اذكرتنا بأكلها أكل منساة سليمان الأرضة الخرساء بنقل فتحة الهمزة إلى اللام . وقصة أكل الأرضة منساة سليمان مذكورة في سورة سبأ وقد أكلت الأرضة الصحيفة إلا موضع اسم الله تعالى ، و مكان التشبيه أن المشركين كانوا على ثقة بسلامة الصحيفة وما تضمنته من البغي ، فكان أكل الأرضة لها مما خذل من كان رأيهم التمسك بها وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأمرها فوجدوه كما ذكر عليه الصلاة والسلام !

وبها أخبر النبي وكم أخـرج خبأ له الغيوب خباء

والخبء هنا تشير إلى خبر سيدنا سليمان في سورة النمل إباء - وذلك في مقال الهدهد عن قوم بلقيس «ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء . الآية .»

لاتخل جانب النبي مضيا حيث مسته منهم الأسواء

في المطبوعة «مضاما» و لا يصح إذ الفعل ثلاثي أجوف يائي واوى ضامه بضمه ويضومه

كل أمر ناب النبيين فالشد ة فيه محمودة والرخاء

ثم علل هذه الحكمة :

لويمس النضار هون من النار لما اختير للنضار الصلاء

وتعليل الحكمة أشبه بمذهب أبي تمام والصلاء النار والنضار الذهب . ثم ذكر ما حلف
النبي صلى الله عليه وسلم من عناية الله سبحانه وتعالى ووقايته
كم يد عن نييه كفها الله — وفي الخلق كثرة واجترأ
إذ دعا وحده العباد و أمست منه في كل مقلنة أقذاء
هم قوم بقتله فأبى السي — ف وفاء وفاءت الصفواء

تأمل الفاءات و الجناس في «وفاء» — «وفاءت» — والقاف في «مقلنة» — «أقذاء» — «قوم» —
«بقتله» . وأشار إلى خبر الذي أراد قتله ثم هداه الله وإلى ذلك الإشارة في سورة المائدة :
«يأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم فكف
أيديهم عنكم» وقال تعالى : «يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما
بلغت رسالتك والله يعصمك من الناس» و الصفواء الحجر وقد همت حمالة الخطب
أن ترميه بحجر فلم تره ، و بعد الهجرة همت اليهود أن يلقوا عليه حجرا فكفاه الله عز
وجل شرهم .

ثم ذكر خبر أبي جهل إذ هاب النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه يقتضيه دين الإراشي
- رجل من بني إراشه لوى أبو جهل دينه فلم يؤده فدلته الناس على الرسول صلى الله
عليه وسلم ليستعين به ، و ما أرادوا إلا أن يسخروا به ، فكان ذلك سببا لنيله ما لوى
عنه ظلما

و أبوجهل إذ رأى عنق الفح — بل إليه كأنه العنقاء
واقترضاه أنبي دين الإراش — سي و قد ساء بيعه والشراء
و رأى المصطفى أتاه بما لم ينج منه دون الوفاء النجاء
هو ما قد رآه من قبل لكن ما على مثله يعد الخطاء
وذلك أنه هم بالنبي صلى الله عليه وسلم فرأى دونه فحلا و هو عين الفحل الذي رآه
لما جاءه النبي صلى الله عليه وسلم يقتضيه دين الإراشي - فهذا من خبر أبي جهل
عدو الله كما ترى . ثم ذكر خبر حمالة الخطب و هي أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب
بن عبد المطلب بن هاشم

وأعدت حمالة الخطب الفه — و وجاءت كأنها الورقاء

و ذلك أن الحرم فيه الحمام الورق - و الحمامة خفيفة الخطا ونعت البوصيري أم جميل أنها جاءت كحمامة ، نعت جيد ، لما فيه من صفة هيئة دخولها ، ثم كأن ههنا إشارة لقصة الحمامة التي دخلت على سيدنا داود في مصلاه إذ كان دخول أم جميل في الحرم ، ثم الحمامة علامة سلم و الحمام بالحرَم آمن ، و قد جاءت أم جميل بمظهر الحمامة المسالمة وما جاءت إلا لحرب . قالوا وكان أبولهب و أم جميل كلاهما على حظ من جمال الصورة مع ما كان من سوء الطوية

يوم جاءت غضبي تقول أفي مثـ لي من أحمد يقال الهجاء

تشير إلى الآية . وقالت : «مذمما أيينا و دينه قلينا» ، تهجو بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما صنعت شيئا إذ لم يكن اسمه مذمما فمنعت من هجائه صلى الله عليه وسلم كما منعت من رميه بفهرها :

وتولت وما رأتاه ومن أيـ من ترى الشمس مقلّة عمياء

ثم إذ الشيء بالشئ يذكر جاء بخبر امرأة أخرى همت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بشر و هي زينب بنت الحارث اليهودية و العجب للأستاذ المستشرق ألفريد غيوم Alfred Guillaume ترجم خبرها عن ابن هشام على صحته في ترجمته

The life of Muhammad-A Translation of Sirat Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah- London 1955-p. 516:

حيث ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم صفح عنها و نص ترجمته :
So the Apostle let her off

ثم جزم بأنه قتلها في الكتيب الصغير الذي كتبه عن الاسلام وهو Islam by Alfred Guillaume من طبع بنجوين سنة ١٩٥٦ - ١٩٧٨ في صفحة ٤٩ حيث قال بما ترجمته «وطبعا أعدمت زينب»

Of course Zaynab was put to death

و هذا الذي جزم به لا يبرره نقله و ان تك قد وردت به بعض الروايات (انظر الروض ٥٧٠ / ٦) :-

ثم سمت له اليهودية الشاة فأذاع الذراع ما فيه من شر وبخلق من النبي كـريم
 ة و كم سام الشقوة الأشقياء بنطق إخفاؤه إبيداء
 لم تقاصص بجرحها العجباء

فهذا هو الخبر الصحيح وجعلها عجباء إذ كانت يهودية و ذكروها في الصحابة وأنها أسلمت :

من فضلا على هوازن إذ كا وأتى السبي فيه أخت رضاع
 ن له قبل ذاك فيهم رباء وضع الكفر قدرها و السباء
 س به أنها السباء هداء فجباها برا توهمت الناء

هذه قصة الشياء أخته من الرضاعة و ذلك أنها عرفتة بنفسها فلما عرفها صلى الله عليه وسلم أكرمها إكراما توهم به من لم يكن قد عرف خبرها أنه صلى الله عليه وسلم أرادها زوجة وذلك أنه بسط لها رداءه ولأطفها برا بحقها وكانت سببا في إطلاق السبايا والمن الذي منه الله و رسوله على هوازن ، حتى إن مالك بن عوف النصري قائد هوازن وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعد وأستأمن وأسلم وجباه رسول الله عليه الصلاة والسلام حباء المؤلفة قلوبهم و مدحه صلى الله عليه وسلم بكلمة منها :

ما إن رأيت ولاسمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد أوفى وأعطى للجزيل اذا اجتدى ومتى يشأ يخبرك عما في غدد
 يعني الحدس والألمعية والكشف لا علم الغيب فذلك استأثر به الخالق سبحانه وتعالى وفي سورة الأعراف : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . »

بسط المصطفى لها من رداء أي فضل حواه ذاك الرداء
 فغدت فيه وهي سيدة النساء قوة والسيدات فيه إماء
 أي كالإماء بالنسبة إليها لما نالته من عظيم الحرمة .

وهنا التفت البوصيري إلى محض الثناء الحسن عليه صلى الله عليه وسلم فجعل ذلك فصلا خلص منه إلى الترنم بذكر بعض المعجزات ، ثم اتبع ذلك تغنيا يتمنى به الحج ورؤية البيت الحرام ولثم تراب تلك الرباع القدسية من مكة والمدينة حرسهما الكريم

القديم الجبار.

فتنزه في ذاته ومعانيه ————— به استماعا إن عز منها اجتلاء
واملا السمع من محاسن يملئ ————— بها عليك الإنشاد والإنشاء
وهنا وصف جيد لطريقته في النظم أنه يتغنى به وينشد وينشئ ويصوغ مع ذلك ،
وهذا منهج الفحول من الشعراء أهل الملكة والتجويد . وكذا روي عن أبي الطيب .
وقريب منه عن أبي تمام ، وكذلك في خبر الأحوص إذ جعل يروض النغم على اسم
موضع واسم رجل هم بهجائه . والذي وصى به ابن طباطبا - وقد مر ذكره - منهج أهل
الصناعة والنحت . ورنه الإيقاع جلية في نمط البوصيري ولهذه القصيدة صلاة يفصل
بها المنشدون بين فصولها ، وإنما يشدون منها الفصل والفصلين على سبيل الاختيار ، لا
كلها في المرة الواحدة لطولها ، وهي :

صل يا رب ثم سلم على من ————— هو للخلق رحمة وشفاء
وطريقة التغنى بها متشابهة على ما يكون من اختلاف وجوه النغم والغناء في مختلف
أقطار الإسلام .

كل وصف له ابتدأت به استو ————— عب أخبار الفضل منه ابتداء
هذا البيت أيضا فيه تنبيه على طريقته هو رحمه الله في صوغ القريض وقد ذكرنا من قبل
أن من الشعراء من يوصد باب القول على نفسه فلا يترك لنفسه عندما يتبدى ما يدع
مجالا للقول يلي . وكان البوصيري قد فتح الله عليه فتحا خاصا بأن كل ابتداء في مدح
الرسول فالصفة التي يذكرها فيه تستوعب كل فصل ، ولكنه يستطيع أن يبدأ بدءا
جديدا ، فكل بداية نهاية ، لأن كل فضيلة من فضائله صلى الله عليه وسلم شاملة
لكل الفضائل ، ثم ليس لفضائله حصر ، فتأمل هذا الحذق

سيد ضحكته التبسم والمش ————— إلى الهوينا ونومه الإغفاء
رحمة كله وحزم وعزم ————— ووقار وعصمة وخياء
لا تحل البأساء منه عرى الصب ————— سر ولا تستخفه السراء
كرمت نفسه فما يخطر السو ————— على قلبه ولا الفحشاء

هذا بيت عزيز دقيق المعنى . أي معدن نفسه صلى الله عليه وسلم وجوهرها شريف كريم فهو بطبيعة شرفه وكرمه مناف وناف لكل دنس عظمت نعمة الإله عليه فاستقلت لذكره العظماء

وذلك أن العرب وهم ما هم قد أحبوه حبا لم يحبوه أحدا قبله ولا بعده وما ملك قلوبهم إلا بتلك النعمة التي أنعمها الله سبحانه وتعالى عليه صلى الله عليه وسلم وبه عليهم . ومما يعجبني هذا الخبر الذي نقله صاحب المجموعة (ج - ١ - ٥٦) : عن زيد بن أرقم قال خرج عمر رضى الله عنه في خلافته ليلة يجرس فرأى مصباحا في بيت عجوز تنفث صوفًا وتقول :

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطييون الأخيار
قد كنت قواما بكى بالأسحار يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل تجمعني وحببي الدار

تعنى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس عمر يبكي ثم قام فسلم عليها وقال لها أعيدي على قولك فأعادته بصوت حزين فبكى وقال لها : وعمر لا تنسبه^(١) يرحمك الله فقالت :

وعمر فاغفر له يا غفار

وروا في الحديث ما معناه أن عمر رضى الله عنه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم حبه له أكثر من كل شيء إلا نفسه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه أن لا يستثنى نفسه حتى يتم بذلك إيمانه ففعل رضى الله عنه وهو بذلك صادق وهو الصواب لأن المسلم لا يعرف نفسه المظمتة إلا بمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه باب الإيمان بالله ولا يعرفه صلى الله عليه وسلم إلا بحبه إذ الحب باب الاتباع وباتباعه يكون حب الله للعبد الصالح

جهلت قوميه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء
وسع العـالمين علما وحلما فهو بحر لم تعيه الأعباء

قوله لم تعيه الأعباء مناسب لذكر البحر ههنا وما أرى إلا أنه أخذ هذا من صورة النيل

(١) أي لا تنسبه أن تجمعها هو أيضا الدار مع الحبيب صلى الله عليه وسلم .

وحركة السفن الدائبة عليه وأهل النيل يسمونه البحر وهو لفظ صحيح في العربية وجاء
بمثله القرآن الكريم

مستقل دنيالك أن ينسب الإم — ساك منها إليه والإعطاء

قوله دنيالك هنا جيد، أى دنيالك يا أخا الدنيا إذ لم يكن هو صلى الله عليه وسلم من
طالبي زهرتها

شمس فضل تحقق الظن فيه — أنه الشمس رفعة والضياء

هذا عاد به إلى قوله قبل «سنا منك دونهم وسناء» وجعله نهاية لهذا الفصل ليخلص منه
إلى ما قدمنا ذكره من ترنمه بالمعجزات

فإذا ما ضحاً محاً نوره الظل — وقد أثبت الظلال الضحاء

فكان الغمامة استودعته — من أظلت من ظله الدفء

يقول إن نور النبي صلى الله عليه وسلم يمحو ظله عند ارتفاع النهار والضحاء ارتفاع

النهار فكان الغمامة التي كانت تظله صلى الله عليه وسلم قد جعلت النبي صلى الله

عليه وسلم مستودعا من جانبها عند هذا النور فصار هذا النور ظلا له كما كانت هي

ظلا له . الهاء في استودعته ضمير يعود على (نوره) في البيت المتقدم . ومن مفعول ثان

لقوله استودعته ويريد به النبي صلى الله عليه وسلم والدفء أي الذين دفوا على أثره

من أصحابه من بعده لأنهم بظله صلى الله عليه وسلم قد أظلوا الناس ، أبو بكر وعمر

وعثمان وعلى الخلفاء الراشدون المهديون من بعده والصحابة الكرام وتابعوهم بإحسان

رضي الله عنهم . قال النبّهاني الدفء المراد بهم أصحابه صلى الله عليه وسلم وعلى

هذا البيت كلام كثير يراجع في الشروح قلت ما تقدم ان شاء الله فهو الصواب ودفء

جمع دفوف مبالغة من ذاف بتشديد الفاء من دف يدف

خفيت عنده الفضائل وانجابت به عن عقولنا الأهواء

أى خفيت فضائل كل شيء بالنسبة إلى فضائله وذهب حب كل شيء بالنسبة إلى حبنا

له وسلمت عقولنا بذلك من هوى النفوس أهواءها وذلك للرأى آفة

أمع الصبح للنجوم تجل — أم مع الشمس للظلام بقاء

معجز القول والفعال كريم ال — خلق والخلق مقسط معطاء

لا تقس بالنبي في الفضل خلقا — فهو البحر والأنام إضاء

كل فضل في العالمين فمن فض — ل النبي استعاره الفضلاء

لأنه موصوف بالخلق العظيم في القرآن والقرآن في أم الكتاب - على هذا يخرج هذا القول والله أعلم

شق عن صدره وشق له البدر ومن شرط كل شرط جزاء

ههنا بديع الاستخدام لأن الشرط هو القطع والشق وهو أيضا في النحو معروف ، وكل جرح فله جزاء يكون تعويضا عنه ، فعن شق الصدر تعويض له بمائه علما وحلما وعن شق البدر ضياء عمه وعم أمته . ولكل شرط في النحو جزاء والمراد المعنى الأول وهذا الثاني ورى به وتجوز إرادته فيكون قد جاء بكلمة الشرط على معنيين لها وهذا هو الاستخدام ، وجعلوا منه عند من قال ذلك قول الله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » أى الهلال وعدة أيام الشهر .

ورمى بالحصى فأقصد جيشا ما العصا عنده وما الإلقاء

عاد رحمه الله إلى الموازنة وحرب أهل الكتاب . وكما قدمنا ينبغي أن يحمل هذا على ما كان بين المسلمين وخصومهم من عراك البيان والجدل . والعصا عصا موسى عليه السلام والإلقاء إشارة إلى قصته مع السحرة إذ القوا ثم القى عليه السلام في سورة الأعراف : « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون » هذا في خبر سيدنا موسى عليه السلام وقد تكرر ذكره في الآيات المحكمات وفي سورة الأنفال : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من حصباء ورمى بها وقال شأهت الوجوه وأمر صحبه أن شدوا فكان النصر وذلك يوم بدر الكبرى .

ودع الالنام اذ دهمتهم سنة من محولها شهبا
فاستهلت بالغيث سبعة أيا م عليهم سحابة وطفاء
الوظفاء التي لها وطف كأهداب الجفون لكثرة مائها وثقلها وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله الله غيثا غدقا طبقا فكان وإلى هذا المعنى أشار البوصيري بنعته السحابة بأنها وطفاء ، وكان في ذلك إشارة إلى قول امرئ القيس
ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر

وقد جاء البوصيري بتحري في البيت التالي :

تتحري مواضع الرعي والسقي وحيث العطاش توهم السقاء
أي تصب الأسقية وكأنها واهية أفواها حين يشتد العطش وكذلك يرسل الله

سبحانه وتعالى السحاب مدرارا حين يشتد المحل ويجأر الناس إلى ربهم بالسقيا .

وأتى الناس يشتكون أذاها ورخاء يؤذي الأنعام غلاء
فدعا فانجلي الغمام فقل في وصف غيث إقلاعه استسقاء
ثم أثنى الثرى فقرت عيون بقراها وأحييت أحياء

فهذه صورة انتزعها من غمر النيل الأرض وإقلاعه عنها فيعم بذلك الخير
ويخضر الريف

فترى الأرض غبه كساء أشرفت في نجومها الظلماء
والذي يحدث في الصحراء عموم النوار مع الخضرة فالصورة التي يصف أشبه
بزروع النيل ونواويره إذ هي التي تشبه الظلماء بشدة خضرتها
تخجل الدر والياقوت من نور رباها البيضاء والحمراء

وأزهار الصحراء غب المطر أكثر اصناف ألوان ، والبياض والحمرة في ألوان نواوير
زروع النيل أكثر ، وليس بعسير على شاعر تخيل منظر النبات أنى كان ، وقد رأى
البوصيري جوانب الحجاز ورأى مكة والمدينة فليس ببعيد أن يكون رأى نحو ذلك منها
غب مطر . وبيئة الشاعر كما تكون أصلا لما يقوله ، كذلك خياله وتجاربه كل ذلك له
بيئة . ومن تجارب الشعراء علمهم بالأشعار ومذاهب القول فيها ، ثم إن البوصيري
يرتاح عند هذا الفصل إلى تمنى رؤيته صلى الله عليه وسلم يجعل ذلك تمهيدا لموضوع
الحج والزيارة فيما بعد ولذكر الجهاد فيما يلي مباشرة .

ليت خصني برؤية وجهه زال عن كل من رآه الشقاء
مسفـ يلقي الكتيفة بسا ما إذا أسهم الوجوه اللقاء
عرف كعب بن مالك رضي الله عنه عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم تزهرا
تحت المغفر ساعة اشتداد البلاء يوم أحد فبشر المسلمين فأشار إليه الرسول صلى الله
عليه وسلم أن ينصت .

جعلت مسجدا له الأرض فاهتز به للصلاة فيها حراء
يقال له الآن جبل النور وهو من أجمل جبال مكة
مظهر شجرة الجبين على البرء كما أظهر الهلال البراء

أي أول الشهر

ستر الحسن منه بالحسن فاعجب لجمال له الجمال وقساء

أي صارت شجرة الجبين على وجهه الحسن هي نفسها حسنا
فهو كالزهر لاح من سجدف الأكمام والعود شق عنه اللحاء
هذه الصورة نيلية بلا ريب . ويسمى خروج الكباسة من النخلة شق العود وهو
أيضا موسم إزهار للعجروف والبساتين والمزارع .
كاد أن يعشى العيون سنا منه لسر فيه حكته ذكاء

أي حكته الشمس ، وقد وصف صلى الله عليه وسلم بإشعاع الوجه والهيئة وصفه
بذلك واصفوه من الصحابة رضي الله عنهم
صانه الحسن والسكينة أن تظهر فيه آثارها البأساء
وتخال الوجوه إن قابلته ألبستها ألوانها الحرباء
لأن وجهه شمس ، ولعل هذا البيت فيه مأخذ على استقامة معناه وسلامة لفظه
وسبب ذلك أن تلون الحرباء أكثره أنه لا يحمد . غير أن البوصيري كأنه جيء إليه من
جهة بيت كعب بن زهير رضي الله عنه :-

يوما يظل به الحرباء مصطخدا كأن ضاحيه بالشمس مملول
وكان البوصيري رحمه الله لم يخل أن أحس ببعض ما في البيت من قلق فالبيت
الذي يلي كأنه اعتذار منه بما فيه من تفسير له .
فإذا شمت بشره ونسده أذهلتك الأنوار والأنواء

فخرج عن صورة الشمس هنا الى صورة السحاب والبرق والمطر - ثم رجع فرد
الكلام الى قوله من قبل «ليتة خصني برؤية وجهه» :

أو بتقيل راحة كان للـ	ه وبالله أخذها والعطاء
تتقي بأسها الملوك وتحظي	بالغنى من نوالها الفقراء
لا تسل سيل جودها إنها يكـ	فبك من وكف سحبها الأنواء
درت الشاة حين مرت عليها	فلها ثروة بها وناء
نبح الماء أثمر النخل في عا	م بها سبحت بها الحصباء
أحيى المرملين من موت جهـ	أعوز القوم فيه زاد وماء
فتغدى بالصاع ألف جياـ	وتروي بالصاع ألف ظماء

لا ريب في اتساق عقد هذه الآيات - وبعض مرد ذلك إلى حسن تتابع الأفعال -
درت - مرت - نبع - أثمر - سبحت - أحييت

ووفى قدر بيضة من نضار دين سلمان حين حان الوفاء
كان يدعى قننا فأعتق لما أينعت من نخيله الأفتاء

القن العبد المعرق في العبودية والأفتاء جمع قنو بكسر فسكون وهو غصن النخلة
المثمر وجمعه أيضا قنوان كصنو والجمع صنوان وكلتاها في القرآن قال تعالى : «ومن
النخل من طلعها قنوان دائية» [الأنعام] وقال تعالى «ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى
بماء واحد» [الرعد] .

أفلا تعذرون سلمان لما أن عرته من ذكره العرواء

أي ارتجاف الحمى . سلمان الفارسي رضي الله عنه ، في الحديث أن بلالا سابق
الحبشة وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس ورسول الله صلى الله عليه وسلم
سابق العرب .

وأزالت بلمسه كل داء أكبرته أطبة وإساء
وعيون مرت بها وهي رمدا فأرتها ما لم تر الزرقاء
هي زرقاء اليمامة ومر خبرها

وأعادت على قتادة عينا فهي حتى مماته النجلاء

ثم بعد تعداد هذه المعجزات عاد إلى الوصف وقدم له برد الكلام إلى ما كان تمناه
من قبل برؤية وجهه ، أو بتقبيل راحة . . .
أو بلشم التراب من قدم لا نت حياء من مسها الصفواء
حظي المسجد الحرام بممشا ها ولم ينس حفظه إيلياء
أي بيت المقدس

ورمت إذ رمى بها ظلم الليل إلى الله خوفه والرجاء

هذا البيت جيد ، وقد جاء بمعناه أتم في برده الميمية حيث قال :

ظلمت سنة من أحياء الظلام إلى	أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى	تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب	عن نفسه فأراها أيها شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته	إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من	لولا لم تخرج الدنيا من العدم
محمد سيد الكونين والثقلين	من والفريقين من عرب ومن عجم

نبينا الأمر الناهي فلا أحد أبر في قول لا منه ولا نعم
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم
وأخذ بعضهم عليه قوله: «لولا لم تخرج الدنيا من العدم» - ولعمرك إن تحجير الواسع
لضلال والمسارة إلى تخطئة المصيبين من الخطل، وقد بين البوصيري حقيقة مراده
بقوله:

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم
فبرر خروج الدنيا به من العدم وفسره بأمرين بأنه هو الحبيب، وبأنه هو الذي جاء
بالدين وبالبشرى ويرجو شفاعته المؤمنون. وقال تعالى جل من قائل: «أومن كان ميتا
فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها»
فالكفر وظلماته موت وعدم كما ترى. وقال تعالى: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا
فأحياكم» فالعدم موت كما ترى. وقال ابن الرعلاء:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
أضف إلى هذا ما ذكرناه من أن البوصيري عاش في زمان جهاد بين مجاهدين لا في زمان
استقرار الخلافة والملك الذي سبق حين كان أصحاب مثل ملكته القوية مقبلين على
مدح الملوك وأهل الجاه ويتنافسون على ما عندهم من حطامها ويتقاتلون ولا بأخرة من
الوقت كزماننا هذا الذي ضعف فيه أمر البيان والإيمان والجهاد جميعا فنسأل الله
الهداية والتوفيق ونعوذ به من الخذلان وأن تزيغ القلوب.
وقال في ورم قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قيام الليل وقيامه مذكور في
القرآن:

«إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك
الآية»:-

ورمت إذ رمى بها ظلم الليلى — لى إلى الله خوفه والرجاء
خوفه فاعل رمى وهذا موضع الجودة. ويجوز أن يكون خوفه مبتدأ خبره شبه الجملة قبله
وفاعل رمى ضمير مستتر والأول هو الجيد

دميت في الوغى لتكسب طيبا ما أراقت من الدم الشهداء
تكسب متعدد لاثنين ثلاثيا ورباعيا ومنه الحديث "وتكسب المعدوم أى تكسب من لا
مال له مالا، أى الدم الذى سال منها يعطر به ما أريق من دم الشهداء في سبيل الله

فهي قطب المحراب والحرب كم دارت عليها في طاعة أرحاء

هذا المعنى نفيس، جعل قدمه لقيامه قطبا لرحى المحراب وثم جهاد في طاعة الله، وجعلها لثباته المعروف شأنه حين يفر الناس قطبا لرحى الحرب، وثم جهاد في طاعة الله، فكم دارت على قدمه وهي قطب للحرب وللمحارب من أرحاء طاعة وعبادة وقتال في سبيل الله.

وأراه لو لم يسكن بها قبـل حراء هاجت بها الدأماء

الدأماء البحر، أي لو لم يسكن حراء بقدميه فسكن لزلزلت الأرض زلزالها، وهوى الجبل في البحر، وكأن قد نظر رحمه الله إلى قول الشريف

جل هوى لو خر في البحر اغتدى من وقعته متتابع الإزباد ولقعقة هذا البيت أهبة تلفت النظر

عجبا للكفار زادوا ضلالا بالذي للعقول فيه اهتداء
والذي يسألون منه كتاب منزل قد أتاهم وارتقاء
أو لم يكفهم من الله ذكر فيه للناس رحمة وشفاء

يشير إلى آيتي الإسرائ: « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » وقوله تعالى: « أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه الآية ». أي هم سألوا النبي أن يرقى إلى السماء وأن يأتيهم بكتاب فقد جاءهم الكتاب، وقد جاءهم الارتقاء. « ومنزل » ههنا بالتخفيف لا من أجل الوزن فقط ولكنها قراءة معتمدة قرأ بها في مواضع غير واحد من السبعة ومن العشرة وعليها قراءة أبي عمرو إلا في حرفين في الأنعام « إن الله قادر على أن ينزل آية » وفي الحجر « وما ننزله إلا بقدر معلوم » وهي قراءة الجمهور في هذا الموضع وقد ذكر صاحب النشر تفصيل قراءة أبي عمرو وابن كثير ويعقوب وحمة [النشر ٢١٨/٨/٢] فقول البوصيري مُنزل بالتخفيف جاء به على القراءتين المكية والبصرية والله أعلم ثم أخذ البوصيري في تفصيل معجزة القرآن والناس في هذا تبع لكعب بن زهير حيث قال رضى الله عنه:

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعظ وتفصيل

وقد أبدع البوصيري حيث قال:

أعجز الإنس آية منه والجن فهلا تأتى بها البلغاء

يشير إلى آية البقرة: « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا

شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين» مشفوعة بآية الإسراء: «قل لئن اجتمعت
الإنس والجن الآية» .

كل يوم تهدي إلي سامعيه معجزات من لفظه القراء
يشير ههنا إلى أن نظم القرآن أي صياغته ذلك معجز
تتحلى به السامع والأفـ —واه فهو الحلى والحلواء
هو في السامع أقرط وفي فم القارئ حلوى
رق لفظا وراق معنى فجاءت في حلاها وحليها الخنساء

أى الجميلة إذ الغزالة هي الخنساء وتشبه الحسناء بالغزالة، فكأن غادة حسناء جاءت
في زينتها وحلاها . ولم يكرر لأن الحلى بضم الحاء جمع حلية المرأة بكسر أوله والحلى
بفتح فسكون كما تكون بمعنى الزينة تكون بمعنى جمال الخلقة وهو المراد هنا . ثم في
البيت مع هذا بديع رشيق إذ الخنساء اسم الشاعرة المشهورة ولها صحبة رضي الله عنها
ولكنها تعد من شواعر قبل الإسلام إذ رثاؤها لأخويها كان قبل الإسلام منها ومن
قومها، وخفاف بن ندبة صاحب راية بنى سليم يوم حنين كان مع أخيها معاوية يوم
قتل وكان مقتله قبل مقتل صخر . وكانت الخنساء من جميلات النساء وإياها عنى
دريد بن الصمة (وقتل يوم حنين كافرا) حيث قال :

ما ان رأيت ولا سمعت به كالسيوم طالي أينق جرب
متبذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع الثقب
وكان رآها تطلّ إبلا لها جربا فخطبها ولذلك قصة والعباس بن مرداس الصحابي
الشاعر ابنها، رضي الله عنها وعنه وعن خفاف وأسفا على دريد إذ لم يكتب له كما
كتب لهم من نعمة الإسلام، وكأنما أصيب بسهم من إعراض الخنساء عنه وهجائها أو
تعريضها به .

وأرتنا فيه غوامض فضل رقعة من زلالها وصفاء
إنها تحتلى الوجوه إذا ما جليت عن مراتها الأصداء
سور منه أشبهت صوراً منـ —ا ومثل النظائر النظراء

أى كما صورنا في أحسن تقويم فكذلك سوره . ثم ههنا إشارة إلى أن سورة وصورة لها جمع متشابه فتقول سور بضم مشيع وصور كذلك وبه فسر " فإذا نفخ في الصور " بعض أهل التفسير . والنظير يشبهه النظير ثم سور القرآن فيها الروح والوحي ، كما نحن في صورنا الحياة والروح . والأقاويل التي يتباهي بها الناس والتي رام أهل مكة أن يضاهاوا بها القرآن فقد كانت كالتماثيل وليست في التماثيل حياة ولا روح . وأقاويل كل من رام مضاهاتها من بعد كذلك ، فلا يخذعك مظهر بلاغة من بليغ

والأقاويل عندهم كالتماثيل — — — — — فلا يوهنك الخطاب

أى لا تتوهم أن لكلامهم روحا لمجرد تفهيمهم به . ثم ذكر ما فتح الله به على المسلمين من العلوم والتبحر فيها من طريق درس القرآن وجمعه والمحافظة عليه :

كم أبانت آياته من علوم عن حروف أبان عنها الهجاء
فهى كالحب والنوى أعجب الزر اع منه سنابل وزكاء

إذ هي الأصل الذي تفرعت منه كل معارف المسلمين ومعارف من أخذوا منهم وقلدوهم من بعد .

في البردة تناول البوصيري هذه المعاني التي ذكرها ههنا من معجزة القرآن تناولا مختلفا .

وهذا من نادر ما يتفق من الإجازة لشاعر واحد في الغرض الواحد ، قال رحمه الله :

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدريزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قدرا غير منتظم

وبراعة البوصيري من محاسنها أنه لا يملكه القصد إلى النظم السردى التعدادي كما قد يقع لكثيرين آخرين . فهو كما قال هنا يذكر من المعجزات ويترك إذ هي دريزينها نظمها ولا يشينها نثرها

فما تطاول آمال المديح إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم
آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

قوله محدثة من قوله تعالى : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » [الأنبياء] أي هم قريبو عهد بها . وقوله قديمة بعد محدثة بليغ ، وذلك أن « محدثة » تدل

على جدة التذكير لهم وقديمة تدل على حقيقة وصفها أنها منزلة من عند الله القديم الأول فهي قديمة وهذا قوله «صفة الموصوف بالقدم». وهذه عقيدتنا وقول المعتزلة بخلق القرآن من أخطائهم .

لم تقترن بزمان وهي تحبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

فالمعاد وعاد وإرم كل ذلك أزمنة ، وقوله لم تقترن بزمان هو حجة أهل الدين على الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأنه لم يوجد الخالق من العدم وأتوا من جهة اعتقادهم اتصال الزمان بالخلق والخالق وقد وضع الغزالي رحمه الله في تهافت الفلاسفة أن الزمان شيء نسبي له وجود بالنسبة إلينا وما نفهمه من حركة الفلك وأبعاده . وما أشك أن كلمة النسبي والنسبية خلصت إلى مفهومها العصري من أصل يمت إلى الغزالي ، وكم من أمر في العلوم الحديثة ادعى اليهود السبق إليه ومن نقب عسى أن يجد أنهم اغتفوه من بحار العلوم الإسلامية والعجب لبرتراند رسل في كتابه عن تأريخ الفلسفة حيث تنقص الغزالي من دون حق معرفة بقدره . ولم يخل ما قاله . على ما يزعمه لنفسه من التحرر من روح تعصب ديني فتأمل .

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم

وقد حصر قوم إعجاز القرآن في نظمه ، والقرآن كله معجز وبحره لاغور له . وفيه من قيم العدل والنور المبين ما ليس في شيء غيره .

ما حوربت قط إلا عاد من حرب أعدى الأعادي إليها ملقي السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها رد الغيور يد الجاني عن الحرم

أى بقوة وبلا فتير ردا رادعا على الفور .

لها معان كموج البحر في مدد وفوق جوهره في الحسن والقيم
قرت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بجبل الله فاعتصم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى أطفات حر لظى من وردها الشبم

أى من مائهذى البرد المطفئ للحر؁ ومن شرابها السائف العذب اللذفء إء الماء البارء
على العطش وحره من النعمف .

كأنها الحوض تبيض الوجوه به من العصاة وقد جاءوه كالحمم
أى حفن تسوء وجوههم من الذنوب وففرون فى النار من عبور السراط ثم فءركهم رءمة
المولى ففخرجون من النار وفغمسون فى الحوض فالقرآن فى هءه الفنا حوض غاسل
لسواء المكروه من المعاصف والذنوب وكأباء العمر .

وكالصراط كالمفزان معءلة فالفسط من؁ ففرها فى الناس لم فقم
قال تعالى : «إن هءا القرءان فهى للفى هف أقوم وفبشر المؤمنف الذى فعملون
الصالحاء أن لهم أجرا كبرا» .

لا فعجبف لحسوء راح ففكرها فءاهلا وهو عفن الحاءق الفهم

فءلك على فءلك حرص الأورففف أيام نهضتهم على فرفة علوم القرآن وقد سبق الففففه
على أن ولفم بفوفل من مسفرقى الانفلز فى أوائل القرن السابع عشر قد نقل معافف
القرآن لقومه .^(١)

قد ففكر العفن ضوء الشمس من رمء وففكر الفم طعم الماء من سقم
وهذا من أففاء الحكمة وقد ولءه من كلام أبف الطفب - قال :

وأفا فففف على الغفب فعاذر	ألا فرائف مقلة عمفاء
وقال : ومن فك فا فم مر مرطف	ففء مرابه الماء الزلالا
وقال : بفى الغباءة من ففشاءها ضرر	كما فضر رفاف الورء بالجعل

ونعود بعء إلى أففاء الهمزفة -
بعء أن فصل ما فصله عن معبزة القرآن فخلص إلى أمر أهل الكتاب . قوله

(١) رافع فرففه فى الأعلام للزركلف .

وإذا البيّنات لم تغن شيئاً

مهد لذكرهم لأنهم بغوا من بعد ما جاءتهم البيّنات ، ورد ذكر ذلك في القرآن في غير موضع - مثلاً في سورة يونس : «ولقد بوأنا بني اسرائيل مبواً صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم . . . الآية» وفي سورة الجاثية : «واتيناهم بيّنات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . . . الآية» . ومهد لذلك بذكر عناد مشركي قريش ومن إليهم - قال :

فهي كالحب والنوى أعجب الز	راع منه سنابل وزكاء
فأطالوا فيه التردد والريـ	ب فقالوا سحر وقالوا افتراء
وإذا البيّنات لم تغن شيئاً	فالتماس الهدى بهن عناء
وإذا ضلت العقول على علـ	م فماذا تقوله النصحاء

فسر قوله تعالى : «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» بأن المغضوب عليهم اليهود وبأن الضالين النصارى ، وقد بدأ بهم الإمام البوصيرى ههنا :-

قوم عيسى عاملتم قوم موسى بالذى عاملتكم الخفء

ومن ههنا همى البوصيرى بحماسة روح الجهاد .

صدقوا كتبكم وكذبتكم كتـ	بهم إن ذا لبئس البـــــــــــــــــواء
لو جحدنا جحودكم لاستوينا	أو للحق بالضلال استواء
مالككم إخوة الكتاب أناسا	ليس يرعى للحق منكم إخاء
يحسد الأول الأخير ومأازا	ل كذا المحدثون والقدماء

وهذا من أبيات الحكمة ، عميق الدلالة .

ثم فرع من هذه الحكمة نظرات ضمنها إشارات علمية وكان رحمه الله غزير العلم حاضر المذاكرة له . وهو في إشارات من حيث المذهب الفني أشبه بأبي تمام منه بأبي الطيب ، لأن الغالب على طريقة أبي الطيب ألا يشير أو يكون خفي الإيحاء جداً فكأنه

لا إيماء فيه مثل قوله :

تحالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
فقليل تخلص نفس المرء سالة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ونحو: فإن يكن المهدي من بان هدية
وقلما تكون إشارته بارزة نحو قوله :

أشمت الخلف بالشرأة عداها وشفار رب فارس من إياد
وتولى بنى اليزيدي بالبص مرة حتى تمرقوا في البلاد
وإذا كان في الأنابيب طيش وقع الخلف في رؤوس الصعاد
وإشارات أبي تمام معروفة من مذهبه نحو :
فإذا ابن كافرة يسر بكفره وجدا كوجد فرزدق بنوار
وإذا تذكره بكى فكأنه كعب زمان بكى أبا المغوار

واتبعه أبو العلاء وأكثر من ذلك ، وأجوده ما في سقط الزند نحو:
وانى تيممت العراق لغير ما تيممه غيلان عند بلال

ولم يكن غيلان من مشاهير المداحين وإنما كان مفتنا في تصوير الجمال وفي
أساليب الاستعارة والتشبيه وقد مر بعض الحديث عن ذلك وإنما أخذ أبو العلاء من
قول حبيب :

ماربع مية معمورا يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعا الخرب

وكان لحبيب بغيلان ولع وله منه في مذهبه أخذ كثير.
أشار البوصيري أول شيء إلا أمر ابني آدم عليه السلام ثم إلى أبناء يعقوب عليه
السلام :

قد علمتم بظلم قابيل هايب حل ومظلوم الأخوة الأتقياء

بنقل كسرة الهمزة إلى لام الإخوة ويشير إلى آية المائدة «إنما يتقبل الله من المتقين»

وسمعتكم بكيد أبناء يعقوب ب أخاهم وكلهم صلحاء
إذ ركبوا ما ركبوا من الظلم وهم أحداث وقد هموا بقتل أخيهام فنهاهم كبيرهم
فيما رويوا في تفسير «قال قائل منهم . . . الآية» وعند من ذكر ذلك أنه روييل . وقد ،
اعترفوا بالخطأ واستغفر لهم يوسف واستغفر لهم أبوهم عليهم السلام . وأشار بقوله
«وسمعتكم بكيد إلخ» إلى الآية : «وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون»
[سورة يوسف]

حين ألقوه في غيابة جب ورموه بالإفك وهو براء

ولو قلت في " غيابات " جب لاستقام الوزن وجاء بها البرعي في قوله :

فإن أنست غيابات الفؤاد بهم فهم أحباب قلبي يا غيابات

وغيابات قراءة نافع في السورة وقال رموه يعني امرأة العزيز وقومها معها قال
تعالى : «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين» . ويجوز أن يكون نسب
الرمي إلى إخوته لأنهم تسببوا فيه بفعلهم إذ ألقوه في غيابة الجب أو الإفك أنهم : «قالوا
إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» [يعنون يوسف] «فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها
لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون» .

فتأسسوا بمن مضى إذ ظلمتم فالتأسي للنفس فيه عزاء
أتراكم وفيتم حين خانوا أم تراكم أحسنتم إذ أساءوا

أي اعتبروا يأيها الذين أوتوا الكتاب بما تتلون من مواظمه ، هل تفعلون كفعل
قابيل وقد تعلمون أنه قد ظلم ، أم تفعلون كفعل إخوة يوسف وقد تعلمون أنهم قد
أساءوا قبل أن يستغفر لهم ، فهل ترون أنكم أوفياء وأنكم لم ترتكبوا سوءاً؟

بل تمادت على التجاهل آباء ء تقفت آثارها الأبناء

أي آباؤهم الذين لم يؤمنوا حين دعاهم داعي الهدى للإيمان.

بیتہ توراتہم والاناجیہ ————— ل وہم فی جہودہم شرکاء

أي اليهود والنصارى يجحدون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد بينته التوراة والأنجيل وما جاء البوصيري بالجمع خطئا أو وهما، فهو يعلم أن خبر عيسى عليه السلام وما وصى به بني اسرائيل مما أوحى الله إليه تعددت رواياته، وقد اعتمد النصارى الملكانيون ومن حولهم أربعة أناجيل هي متى ومرقس ويوحنا ولوقا وأنكروا انجيل برنابا وفيه أن المسيح لم يصلب وقد أنكرت اليهود الأنجيل كلها ولهم كتاب عن المسيح الذي ينتظرونه ينكره النصارى فتأمل .

إن تقولوا ما بينته فما ذا ~~لت بها عن عيـونهم غشواء~~

أى هذه الإنكاره منهم لا تزول بها الغشاوة التي على أبصارهم

أَوْ تَقُولُوا قَدْ بَيَّنَّتْهُ فَمَا لِلَّـهِ أَذُنٌ عَمَّا تَقُولُوا لَهُ صَـمَاءٌ

هذا يقال له في المنطق قياس الإخراج ، إذ لا بد من أحد الأمرين . وهم يقولون إن ثم بيان نبي منقذ من عند الله يأتي ، قال ذلك أنبياء بني اسرائيل وعيسى عليه السلام ، فما قاله موسى عليه السلام ومن بعده وما قاله إبراهيم عليه السلام من قبل تألوله عيسى وإن كان لا ينطبق عليه ، وما قاله عيسى لم يتألوله محمدا ولكن التمسوا له وجهها لا يخرجها عن عودة عيسى ، ويأبى رين الأهواء إلا أن تطفئ غاشية صدره فتعمى لها القلوب . وصلى الله على أنبيائه الأبرار فما البشارة التي بشروا بها عن نبينا صلى الله عليه وسلم بباطل .

عـرفـوه وأنكـروه وظلما
أو نور الإله تطفئه الأفـ
أو لا ينكـرون من طحتهم
وكساهم ثوب الصغار وقد طلـ

كتمته الشهادة الشهداء
ـواه وهو الذي به يستضاء
برحاهـا عن أمره الهيجاء
ت دماء منهم وصينت دماء

أما طحن الهيجاء لهم فما كان من هلاك يهود وإجلائهم وما كان من هزيمة الروم وجلائهم وأما الصغار فما كتب الله عليهم من الجزية . قال تعالى : « قاتلوا الذين لا

يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» .

كيف يهدي الإله منهم قلوبا حشوها من حبيبه البغضاء

وصدق رحمه الله . ثم أخذ في محاجة أهل الكتاب ، وسبق أن استشهدنا ببعض ما يلي من قبل .

خبرونا أهل الكتابين من أين أتاكم تثليثكم والبداء

وذلك أن اليهود تزعم أن الله بدا له في كذا وندم على كذا ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا .

ما أتى بالعقيدتين كتاب واعتقاد لا نص فيه ادعاء

هذا أصل ، وهو أن العقائد عن وحي فما قيل واعتقد ولم يكن ورد به نص من وحي أو كتاب منزل فهو دعوى باطل .

والدعوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء
ليت شعري ذكر الثلاثة والواحد نقص في عدكم أم نماء

أي أنقص أم نماء ، حذف الهمزة لظهور المعنى وعليه قول ابن أبي ربيعة :

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصى والتراب

وزعم بعضهم أن عدد النجم ليس بكثير إنما هو بضعة آلاف . ولعمري لو قد قال ألفا مكان بهرا لكان عددا كثيرا .

كيف وحدتموها نفى التوحيد عنه الآباء والأبناء

والحجة قائمة بالرغم من قولهم ثلاثة في واحد . وزعم ابن عربي في بعض ما زعم أن أول العدد الثلاثة فأوشك رحمه الله أن يزل . أتى من المقدمة الخامسة في كتاب

الشهرستاني وقد أحجم الناس عن شرحها . والذي فيها خلاصته أن الأعداد أجناس وتبويب للأمور لا حقائق في ذواتها ويؤيد ما ذهب إليه أشياء في معادلات الرياضيات لا يمكن تأويلها إلا على هذا الوجه . وفي كتاب الشهرستاني في المقدمة المذكورة وفي ترجمة إبراهيم النظام أشياء من باب الرياضيات وعلوم الآليات مذهلة وتفصيل شرحها واجب وعسى أن تكون فيه غير ما ذكرنا مواضع يوقف عندها عدد .

إِلَهِهِ مَرْكَبَ مَا سَمَعْنَا بِإِلَهِهِ لِنَذَاتِهِ أَجْزَاءُ
الأب والابن والروح القدس وأضيف إلى هؤلاء بآخرة الأم العذراء ، وفي الطبعة الأولى للقاموس المنجد في شرح العذراء أنها أم الإله المتجسد فتأمل .

أَلَكُم مِّنْهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَالِ كَ فَهَلَا تَمِيزُ الْأَنْصِبَاءَ
أَتَرَاهُمْ لِحَاجَةٍ وَاضْطِرَارٍ خَلَطُوهَا وَمَا بَغَى الْخُلَطَاءَ

في هذين البيتين مع الإشارة القرآنية - إذ يشير إلى قوله تعالى : « وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » . - مع ذلك أنفاس من بيئة حياة الريف المصري فإن الطين يورث ويختصم عليه وفيه قضايا الإفراز التي غيرها يطول اشتباه الأمور وتضييع الحقوق للغالب من بغي الخلطاء بعضهم على بعض .

أَهُوَ الرَّاكِبُ الْحِمَارُ فَيَا عَجَبَ زِلَإِهِ يَمْسُهُ الْإِعْيَاءُ

إذ لو صح أنه إله لبطل أن يمسّه تعب وأن يحتاج إلى ركوب الحمار ، ولا يمكن أن يعتذر لذلك أو يفسر بأنه على وجه الهداية ، إذ لما أراد الله أن يتجلى بألوهيته للبشر نزل بينهم في صورة بشر ، إذ هو قادر سبحانه على أن يرسل إليهم بشرا رسولا . ثم أن يحمل الحمار إلها مشكلا ، إلا أن نزع حلول الإله في الحمار تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وبهذا حجة البوصيري :

أَمْ جَمِيعٌ عَلَى الْحِمَارِ لَقَدْ جَلَّ حِمَارٌ بِجَمْعِهِمْ مَشَاءُ

أي الثلاثة

أم سواهم هو الإله فما نسبة عيسى إليه والانتفاء

أي أنه لا بد من تقدير إله مدبر غير عيسى والثالث الذي معه، إذ من كان إله الكون ومدبره في اللحظة التي مات فيها يسوع وهذا اسم عيسى عندهم؟ إذن لا بد أنه للكون إله دبره في تلك اللحظة. وإذ هو غير يسوع، فما نسبة يسوع وما انتهاؤه إليه؟ براءة لسيدنا عيسى عليه السلام مما يصفونه به، قال تعالى: «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

وقد جاء البوصيري بالحجة التي أدلى بها ههنا بتفصيل وتوضيح أكثر في لاميته المنصوبة من الكامل التي أولها:

جاء المسيح من الإله رسولاً فأبى أقل العالمين عقولاً

وسنذكر منها بعد يسير إن شاء الله؛ ثم يقول البوصيري رحمه الله: -

أم أردتم بها الصفات فلم خصصت ثلاث بوصفه وثناء
أم هو ابن لله ما شاركته في معاني البنوة الأنبياء
أي هذا التثليث لا يمكن التعبير عنه بأنه صفات إذ صفات الله عز وجل أكثر
من ذلك وليست هي بذاته فيضاف إليها ما أضفتم من معاني التركيب والحلول. ومن
حمل البنوة على معنى المجاز لزمه أن يعمم فيجعل كل الناس بنين لله سبحانه وتعالى،
فالزعم بمجازية منفردة مخصصة به وحده باطل.

قتلته اليهود فيما زعمتم ولأمواتكم به إحياء

هذا ما وضعه أبو الطيب حيث قال:

ويستصران الذي يعبدان وعندهما أنه قد صلب
ليدفع ما نابيه عنهما فيا للرجال لهذا العجب

وأخذه المعري فقال :

وقد زعم النصارى أن عيسى توخته اليهود ليصلبوه
وما أبهوا وقد جعلوه ربا لكيلا ينقصوه ويجذبوه

أي وما فطنوا ليتجنبوا نسبته إلى ما يعيبه وينقص من قدره بهذا الذي زعموه من قتله وصلبه . وفي الطبعة المصورة حديثا من اللزوميات :

وقد أبهوا وقد جعلوه ربا لكيلا ينقصوه ويجذبوه

وهذا تحريف كأن الذي دسه أراد أن يبرر به عقيدة النصارى ، وليس هذا التغير بمغير في المعنى من شيء إذ يصير المعنى عليه وقد فطنوا ليجنبوه العيب والنقص بالذي نسبوه إليه من القتل والصلب فجعلوه ربا ، كأن دعوى الربوبية تستر هذا العيب وليست بساترته . فتأمل .

قتلته اليهود فيما زعمتم ولأمواتكم به إحياء
إن قولاً أطلقتموه على الله به تعالى ذكرا لقول هراء

وهذا فصل ختم به الهجوم على النصارى ثم أخذ في مناقشة اليهود

مثل ما قالت اليهود وكل لزمته مقالة شعاء
إذ هم استقرئوا البداء وكم سا ق وبالا إليهم استقراء
وأراهم لم يجعلوا الواحد القه هار في الخلق فاعلا ما يشاء

مثلا في الأصحاح السادس من سفر التكوين من عند أوله كما في الترجمة التي أصدرتها دار الكتاب المقدس طبعة كوريا سنة ١٩٧٦ ص ١٠ - ١١ : « وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات ، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات . فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . فقال الرب لا يدين رُوحِي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة . كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعده ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم .

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وأسف في قلبه . فقال الرب أحو عن

وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأننى
حزنت أنى عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب . »
والشاهد أن لله بنين كآلة اليونان الوثنيين . وأنه كان فى الأرض طغاة كما يبدو ليسوا فى
طاعة الله ولعلمهم بل هو الظاهر أنهم ليسوا من خلقه . ثم حزن الله وندمه لأنه عمل
الإنسان - فهذا أمر بدائى وثنى كما ترى .

جوزوا النسخ مثلما جوزوا	المسخ عليهم لـو أنهم فقهاء
هو إلا أن يرفع الحكم بالحكم	م وخلق فيه وأمر سواء
ولحكم من الزمان انتهاء	ولحكم من الزمان ابتداء
فسلوهم أكان فى مسخهم نسـ	سخ لآيات الله أم إنشاء

أى إذروا جواز المسخ كمسخ الحية فمشى على بطنها بعد أن « كانت أجمل حيوانات
البرية التى عملها الرب » [الأصحاح ٣] - فإذا كان المسخ جائزا فإن النسخ جائز وهم
ينكرون علينا النسخ وما النسخ إلا رفع حكم بحكم آخر . فهو نسخ أمر بأمر آخر من
تصريف الله . كما أن المسخ رفع هيئة وخلق بخلق آخر . سلوهم هل المسخ الذى
أوقعه الله تعالى أهو نسخ لآيات الله التى سبقت بصنعه ما صنع أم إنشاء جديد
أنشاء؟ أيما القولين قالوه ألزموا به قبول النسخ . قوله هو إلا أى هو سواء إلا إلخ كما مر
التفصيل .

أو ما حرم الإله نكاح الـ أخت بعد التحليل فهو الزنا

أى إن كان الذى سبق من نكاح الأخوات على عهد آدم ومن بعد قبل التحريم حلالا
فالتحريم نسخ وإن لم يكن حلالا فقد كان زنا وهذا محال إلا أن يقوله زنديق ،
وينسب إلى المعرى ، وما أشبه أن يكون افتراء عليه ؛ أنه قال فيما قاله من شعر « وإن
جميع الناس من طينة الزنا »

لا تكذب إن اليهود وقد زا غوا عن الحق معشر لؤماء

قوله : وقد زاغوا عن الحق يعنى نقضهم ميثاقهم ، وجهلاء اليهود يحسبون أن الأمر
عنصرية أو قبلية وأن الله كأنه رأس قبيلتهم ، وكلام أنبيائهم يدل على خلاف هذا ،
لأن الله معهم ما داموا على الميثاق . قال تعالى : « فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم » وقال
تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم »

فأما النبيين في خلق وفي خلق وكلهم من رسول الله ملتزم ولم يدانوه في علم وفي كرم
غرفا من البحر أو رشفا من الدير

اللفظ هنا رشيق لمزاجته قوله «غرفا من البحر» بقوله «رشفا من الدير»، والغرف
يناسب البحر وأهل النيل يعرفون ذلك والرشف يناسب الدير عقلا ولكن قل من
يعترض المزن يرشف من قطراته - على أن المعنى الذي رامه الشاعر من المناسبة والعموم
حسن، وليس الرشف من الدير بأبعد من قول ذي الرمة:
فيها الضفادع والحيتان تصطخب

ومن قول زهير:

على الجذوع يخفن الغم والغرقا

عند من أخذ عليهما ذلك ولا نقول به.

وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكله الحكم

لا يخفى حسن الاستخدام في النقطة والشكل

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارىء النسب

بنى البوصيري هذا التفضيل على ما تقدم ذكره من قبل من حديث الشفاعة يوم تأتي
كل نفس تجادل عن نفسها وعلى ما وعده الله عز وجل «مقاما محمودا» وعلى حديث
ابن حنبل رضى الله عنه المروي بسنده إلى عرياض رضى الله عنه إلى النبي صلى الله
عليه وسلم.

متزعه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم
إذ هو حسن خلق وخلق

دع ما ادعته النصارى في نبهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

لما قال منزعه عن شريك خشى أن يظن به الغلو غير الحق وإنما عن شركة الأشباه
والنظائر من البشر مثله، فدفع كل شبهة بقوله «دع ما ادعته النصارى»، ومع أن ههنا
خفي جدل وخصومة لمذهب النصارى بقوله دع إلخ، فيه مع ذلك انصراف إلى التغنى
والإعراض عن قصد المجادلة، أيضا ذلك استفاد من قوله: دع إلخ كما استفاد منه
نفى كل شبهة أو إشعار بتأليه وقدسية فوق ما ينبغي أن يكون للبشر.

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بقم

لو ناسبت قدره آياته عظما أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
لا ريب أن آياته ناسبت قدره ، وحسبنا معجزة القرآن إلا أن المعني الذي قصد إليه
حسن ، إذ يلمح فيه معني أنه لا ينبغي أن يعد إحياء الموتى درجة ميز بها غيره عليه
صلى الله عليه وسلم . أما زعمنا المناسبة فإن معجزة كل نبي ، والله أعلم حيث يجعل
رسالاته ، تشابه ما برز فيه أهل زمانه ، فموسى عليه السلام قهر أهل السحر وعيسى
عليه السلام أعجز الأطباء وكان أهل زمانه برعوا في الطب ومحمد صلى الله عليه وسلم
أرسل إلى البلغاء اللد فبهزمهم وقهرهم . على أن مراد البوصيري أن مناسبة معجزاته
كانت على أقدار من أرسل إليهم وقدره صلى الله عليه وسلم فوق كل مقدار . والله
تعالى أعلم .

أعيا الوري فهم معناه فليس يرى في القرب والبعد منه غير متفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة وتكل الطرف من أمم
أي من قرب

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
هل أراد رحمه الله بهذا قول من كانوا يذكرون رؤيته صلى الله عليه وسلم ويباهون بها
على طريق التصوف ؟

المعني أن حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم في خلقه العظيم ومقامه الجسيم وما
خبأ الله له من الشفاعة وما أعطاه في أم الكتاب من المجد وما أشرب القلوب من محبته
وألزم أهل اليقين من التزام شرعه وصدق الإيذان بما أنزل إليه - فهذا لا بد معه من
التقوى والعلم الذي يعلمه الله بها من يتقيه ، وذلك لا يدرك في منام ولا بأحلام - على
أن الرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءا من النبوة ، وليست الرؤيا الصادقة من باب
محض أحلام المنام ، فأحسب أن هذا قد يدخل في مراده رحمه الله ، والله أعلم .

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم
هذا بيت القصيد ، ومحتو على حجة على القائلين بالوهية عيسى عليه السلام وبأن
عزيرا ابن الله تعالى الله عن ذلك . ثم أخذ رحمه الله من بعد في رجعة إلى معني
الشفاعة والمقام المحمود ثم إلى تغن خالص محض عذب .

وكل أي أتى المرسل الكرام بها فلإنما اتصلت من نوره بهم
هذا في معني البشارة ويلاسه معني عالم الذر وما سطر في أم الكتاب

فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم

هل أراد رحمه الله بهذا قول من كانوا يذكرون رؤيته صلى الله عليه وسلم ويباهون بها على طريق التصوف؟

المعني أن حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم في خلقه العظيم ومقامه الجسيم وما خبا الله له من الشفاعة وما أعطاه في أم الكتاب من المجد وما أشرب القلوب من محبته وألزم أهل اليقين من التزام شرعه وصدق الإيمان بما أنزل إليه - فهذا لا بد معه من التقوى والعلم الذي يعلمه الله بها من يتقيه ، وذلك لا يدرك في منام ولا بأحلام - على أن الرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءاً من النبوة ، وليست الرؤيا الصادقة من باب محض أحلام المنام ، فأحسب أن هذا قد يدخل في مراده رحمه الله ، والله أعلم .

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنّه خير خلق الله كلهم هذا بيت القصيد ، ومحتو على حجة على القائلين بالوهية عيسى عليه السلام وبأن عزيزاً ابن الله تعالى الله عن ذلك . ثم أخذ رحمه الله من بعد في رجعة إلى معنى الشفاعة والمقام المحمود ثم إلى تغن خالص محض عذب .

وكل أي أتى الرسل الكرام بها فلإنما اتصلت من نسوره بهم هذا في معنى البشارة ويلابسه معني عالم الذر وما سطر في أم الكتاب

فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم كان المسلمون يعلمون من أمر الهيئة كثيراً وعنه أخذ الآخذون ممن يدعي لهم السبق في هذا المجال مثال كوبر نكس البولندي

أكرم بخلق نبي زانه خلق بالحسن مشتمل بالبشر متسم كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في هم وهذا التقسيم جيد ، إلا أن قوله والدهر في هم دون الأقسام الثلاثة التي قبله وأتي فيه والله أعلم من جهة النظر إلى أبي الطيب في نحو قوله

تجمعت في فـــــؤاده هم ملء فؤاد الزمان إحداها فعلى هذا المعني يمكن توجيه قوله . والزهر المترف والبدر ذو الشرف والبحر الغيداق كل أولئك من طبيعة النيل ، ولك أن تقول فالدهر اختلاف الفتين (أي الليل و النهار) وذلك أيضاً من طبيعة النيل لعل الذي جاء به هو الوجه الجيد ، ووجوه القول أحياناً مما تشبه وتلبس ومهما يكن فهذا التقسيم المليح خاتمة حسنة لهذا الفصل من

قوله فانتقل منه إلى وصف مجلسه عليه الصلاة والسلام ثم حديثه ثم ذكر قبره الشريف فجعل وفاته صلي الله عليه وسلم مدخلا لذكر مولده وما كان معه من معجزات وإرهاصات

كأنه وهو فرد في جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم
كأنه اللؤلؤ المكنون في صدف من معدني منطق منه ومبتسم
لا طيب يعدل تربا ضم أعظمه طوبى لمنتشق منه وملثم

وإنما أوردنا أبيات البردة هذه بمعرض الحديث عن أسلوبيه في الجدل ، ولا تتم لنا صورة واضحة عن مقدرة البوصيري في هذا الباب إن لم نشر ولو قليلا إلى لاميته .

جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقل العالمين عقولا
وهي من روائع هذا الحرف ، ينبغي أن يجعل لها مكان مع :

ما بال دفك بالفراش مذيلا

ومع :

في الخد أن عزم الخليلط رجلا
وفيها مع الرصانة التي وهبها الله البوصيري رحمه الله نفسه الطويل من غير ضعف أو إسفاف ، وذلك أمر قصر عنه مقدرة على بن العباس على رسوخ قدمه في البلاغة ولم يتهدأ إلا قليلا لابن دراج وبعض فحول أندلس . وأبياتها نيف وتسعون ومائتان . ولنا إلى أمر هذا الطول عودة إن شاء الله . وإذ نحن بصدد الحديث عن البوصيري ومكانه بين مداح الرسول صلي الله عليه وسلم ، ولا يتسع مكان هذا الفصل من هذا الكتاب لإيفاء الحديث عنه ، فعسى أن يحسن ذكر شيء منها ، هو من باب ما تقدم من أمر احتجاجة للإسلام ودفعه دعاوى أهل الكتاب خاصة وأهل الكفر عامة .

وقد ألف بعض فضلاء العصر من مسلمي الهند وباكستان وغيرهما ومن مسلمي العرب فصولا حسنة في هذا المعني . ولعله لو انتبه منهم منته إلى هذه القصيدة أن يجد فيها كنوزا وروائع . ولا بد لإنصافها من إيرادها كلها مع الإشارات والشروح الوافية وذلك ما لا نستطيعه في هذا الموضع . ولم تشتهر هذه القصيدة اشتهار البردة والهمزية لما تضمنته من علوم أهل الكتاب ، فكان بعض العلماء ربما نفروا من ذلك لما عندهم من أن كتب أهل الكتب شاملها التحريف وأن ينقبض عنها المسلم أفضل . والذي مضى عليه الإمام شرف الدين أدخل في باب البحث والتحقيق . وما أشك أن من تناولوا الموضوعات التي طرقها من مستشرقي أهل الكتاب ومن إليهم لم يخلوا من قصد الرد عليه ومن حاق الانتفاع بها أوردته . وفضلاء المسلمين وعلماءهم أولى بأن يغترفوا من

هذا البحر الخضم العجاج . ونكتفي في هذا الموضع بإيراد أمثلة من منهج هذه القصيدة ومحاسن أدائها ومعارفها ثم نعود بعد إلى ما كنا فيه من أبيات الهمزية إن شاء الله تعالى :

بدأها بمجاهرة النصاري بالخصومة ، وقد سبق التنبيه على أن ذلك كان زمان حروب الصليب فمما نختاره مما قال في ذلك من عند أولها :-

جاء المسيح من الإله رسولا	فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعوا	من جهلهم لله فيه حلولا
أسمعتم أن الإله لحاجة	يتناول المشروب والمأكولا
ويمسه الألم الذي لم يستطع	صرفا له عنه ولا تحويلا
يا ليت شعري حين مات بزعمهم	من كان بالتدبير عنه كفيلا

إن قالوا دبره أبوه فقد جزئوا الإله وقالوا بالوهية غيره

هل كان هذا الكون دبر نفسه من بعده أم أثار التعطिला

التعطيل هو عدم الإله وهو مذهب الملاحدة

شهد الزبور بحفظه ونجاته	أفتجعلون دليسه مدخولا
أ يكون من حفظ الإله مضيعا	أو من أشيـــــد بنصره مخذولا
ومضى بحمل صليبه مستسلما	للموت مكتوف اليدين ذليلا

يشير بقوله « أ يكون من حفظ الإله مضيعا » إلى مزامير داود فمنها (١٨) رقم ٥٠ «الصانع رحمة لمسيحه لداود ونسله إلى الأبد» في النص الانجليزي نص نسخة الملك جيمز ... and showeth mercy to his anointed ففسروا المسيح من مسح الملك بالزيت وكان المسيح عليه السلام من نسل داود والمسيح في النص المتقدم هو داود نفسه عليه السلام وفي ٢٠ رقم ٦ : " الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيول أما نحن فاسم الرب الهنا نذكر " . ومعني المسيح كما في الطبري المسوح بالدهن ، هذا من بعض ما فسروا به المسيح في آيات القرآن . أيضا في النص الانجليزي وهو أدق وأقدم من الترجمة المتقدمة Now know that the Lord anointed; he will hear him from his holy heaven with the saving strength of his right hand. Some trust in

يشير بهذا إلى اسمه اسرائيل أنه من صراعه إيل وهذا الذي صنع فيه المثال ابستين تمثاله الذي سماه يعقوب والملاك Jacob and the Angel وفي التكوين ٣٢ رقم ٢٤ إلى ٢٩ :-
 «فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذه يعقوب في مصارعة معه وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركني فقال له ما اسمك فقال يعقوب ، فقال لا يدعي اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك . فدعا يعقوب اسم المكان فتثيل قائلا لأنني نظرت الله وجهها لوجه ونجيت نفسي . وأشرقت له الشمس إذ عبر فتوثيل وهو يجمع على فخذه إلخ» والشاهد قول الخبر: "لأنك جاهدت مع الله وقدرت" وهذا في الترجمة أغمض مما ذكر البوصيري أنه صارع ربه ورمى به ، والذي جاء به البوصيري هو عينه الذي في النص الانجليزي - رقم ٢٨

And he said, Thy name shall be called no more Jacob, but Israel: for as a prince hast thou power with God and with men, and hast prevailed -

أي من حيث كونك أميراً لك قوة مع الله ومع الناس - أي تقوى على الناس وكذلك تقوى على الله وهذا شرح للرمز أن الذي صارعه يمثل الإله والبشر معا وقوله hast pre-vailed أي تغلبت وهذا هو المعنى الذي جاء به البوصيري والذي يدل على أن الذي صارعه هو ربه قوله فدعا يعقوب المكان فتثيل - أي وجه الله .

وبأنه من أجل آدم وابنه ضرب اليدين ندامة وذهولا
 وبدا له قوم نوح وانشى أسفا يعرض بنانه مذهبولا
 وقد مر الحديث في البداء - ثم ذكر بعض ما حرفة اليهود على أنبيائهم :

لم يتهوا عن قذف داود ولا لوط فكيف بقذفهم رويلا

إذ زعموا أن داود أرسل زوج الجميلة لميدان القتال حتى قتل وكان خالفه إلى زوجته وهي عندهم أم سليمان وأن سليمان هكذا لغير رشدة (صموئيل الثاني ١١) - وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريريه وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بشيع بنت البعام امرأة أوريا الحثي فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة.....

وتمضي القصة فيرسل داود زوج المرأة في وجه الحرب الشديدة حتى مات وكان هذا قصده فتأمل (انظر ص ٤٦٦ - ٤٦٩) من رقم ٢ إلى رقم ١٧ .

وأما قذفهم لوطا فزعمهم أنه أحبل بنتيه وهو ثمل ، أحبل الكبرى ثم أحبل الصغرى وذلك أنها ائتمرتا وخافتا أن ينقطع نسل أبيهما وذلك بعد هلاك قوم لوط وخراب دورهم - «التكوين ١٩ رقم ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ وهو آخر الاصحاح التاسع عشر - من ذلك فسقتا أباهما خيرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها . . . إلى قوله . . . وقامت الصغيرة واضطجعت معه الخ»

وأما قذف روبييل وهو كبير أبناء يعقوب عليه السلام فزعموا أنه فسق بسرية أبيه وهي له أي لأبيه أم ولد ولدت له دانا ونفتالي وكانت قد وهبتها له فيما زعموا راحيل لما ولدت أختها ليا ولم تلد هي (تكوين - ٣٠) (الثلاثون رقم ٤ إلى ٨) . هذا وخبر بلهة وقذف روبييل في الخامس والثلاثين من التكوين رقم ٢٢ حيث قال وحدث إذ كان اسرائيل ساكنا في تلك الأرض أن رأويين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع اسرائيل .

ولولا أن البوصيري أشار إلى هذا القذف لنزهننا الطرس عنه إذ هذا من الذي لا يجوز ذكره في حق الانبياء عليهم السلام وهو مما حرف به القوم كتابهم فخلطوا أساطير الأولين بأنبياء من لا شك فيهم أنهم أولو عصمة .

وليا وراحيل ابنتا لابان تزوجهما يعقوب ، عندهم أنه تزوج ليا أولا ولم تكن حسنة وكان يحب راحيل فخدعه أبوها ثم تزوج عليها راحيل وهي أم سيدنا يوسف عليه السلام فيوسف وروبييل ابنا خالة . وزعموا أن راحيل كانت عقيما حتى ولدت أختها ليا أربعة أبطن وهي عقيم وجاريتها بلهة بطنين وهي عقيم والذي ذكره الزنجشيري أن يعقوب عليه السلام صارت إليه راحيل بعد موت ليا وهذا أشبه بسياق القصة وبحق نبي الله يعقوب وبنيه عليهم السلام وقد أشار البوصيري إلى هذا الخلط والتحريف في قوله :

لـووا بغير الحق السنة بما قالوه في ليا وفي راحيلا وجنوا على هارون بالعجل الذي نسبوا له تصويـره تضليلا وعندنا أن صاحب العجل هو السامري وعندهم أن هرون جمع حليهم وقذفها في النار فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار أو كما قالوا - انظر الأصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج Exodus من ١ - إلى ٦ فما بعد ، ومن ذلك (رقم ٣ - ص ١٤٠) «فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر الخ»

وقد نفى القرآن هذه الفرية عن سيدنا هارون عليه السلام . في سورة طه : « قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري الآيات » وكذلك في سورة الأعراف : « وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين . »

ظنوا ببرهم الظنون ورسله ورموا إناثا بالأذى وفحولا
ومن الغيبة أن يجازى إفكهم صدقى ولسنا في الكلام شكولا

أي لسنأ أشباها

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قولا
لا تذكر الكتب السوالم عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا
تخبركم التوراة أن قد بشرت قدما بأحد أم إسماعيل
يشير إلى مقال التوراة « التكوين ٢١ - ص ١٧ / ٢١ فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو قومي احمل الغلام وشدي يدك به لأنني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس وسكن في بركة فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » .

وفي سفر التكوين أيضا في الأصحاح السادس عشر رقم ١١ / ١٢ « وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدن ابنا . وتدعين اسمه اسمعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك . وإنه يكون إنسانا وحشيا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع أخوته يسكن » .

ووردت مباركتة وختانه في الأصحاح ١٧ رقم ٢٠ و ٢٢ .

ودعته وحش الناس كل ندية وعلى الجميع له الأيادي الطولى
طوبى لموسى حين بشر باسمه ولسامع من قوله ما قولا
وجبال فاران الرواسي إنها نالت من الدنيا به التفضيلا

وحش الناس لسكنائه الصحراء وذلك بمشهد من إخوته كما في الترجمة الانجليزية And he shall dwell in the presence of all his brethren. وكل ندبة أي في كل مجلس يختلفون معه ويختلف معهم ويقاتله الناس ويقاتلهم وزعم النيهاني رحمه الله أن هذا مذكور في كل مجلس تقرأ فيه التوراة وليس بوجه قوي . وبشارة موسى عليه السلام في سفر التثنية ١٨ في رقم ١٤ - ٢٢ «ويقيم لك الرب نبيا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلا لا أعود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت قال لي الرب قد أحسنوا في ما تكلموا أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمهم فيكلمهم بكل ما أوصيه به إلخ» في النص الانجليزي from the midst of thee, of thy brethren, like unto me; I will raise them up a Prophet from among their brethren. وعند البوصيري أن هذا المبشر به ينبغي أن يكون من أصل إبراهيم لا

من اسرائيل - قال رحمه الله :

من مثل موسى قد أقيم لأهله من بين إخوتهم سواء رسولا
أو أن إخوتهم بني العيص الذي نقلت بكارته لإسرائيل

باع العيص (عيسو) بكارته (بكوريته) لأخيه يعقوب بخبز وطبيخ عدس (التكوين ٢٥ رقم ٢٤) «فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتقر عيسو البكورية» .

وأما حرمان العيص من البركة فكان بسبب أن أباه كان يحبه وأمه كانت تحب يعقوب وكان كما قالت القصة التي ذكروها قد عمى اسحق أو ضعف بصره فجاءه يعقوب بصفة العيص وذلك بتدبير أمه رفقة - (الأصحاح السابع والعشرون والخبر كما في هذا الأصحاح ذو أحزان) - فباركه أبوه وحرّم من البركة العيص انظر رقم ٢٨ - : «فقال عيسو لأبيه ألك بركة واحدة فقط يا أبي باركني أنا أيضا يا أبي ورفع صوته وبكى إلخ» .

وجبال فاران بين علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب في بيانها اختلاف وأوضح الوجوه أنها المراد بها جبال موحشة لمطابقة هذا للفظ فرا وهو الموصوفة به الوحشية والذي في خبر اسمعيل ، فإن كان ذلك كذلك فمن قال إنها جبال مكة لم يباعد لقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام : «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي

زرع عند بيتك المحرم» وزعم البكري أن فاران معدن حديد ببلاد بني سليم وأنشد

متى كان للقيين قين طمية وقين بلي معدنان بفاران

وفران بوزن سحاب في أنساب بلي ، وقيل فرعون موسى عليه السلام كان من بلي . وفي خبر اسماعيل في التوراة أنه وأمه عاشا ببرية فاران فتأمل . هذا ، وتفاصيل ما ذكره البوصيري من كلام أهل الكتابين كثيرة عنده ، دقيقة معرفته بها ، وإنما هذا الذي أوردناه لمع وننف وأمثلة .
ومن جيد مديحه في هذه اللامية :

إن أنكروا فضل النبي فلإنما ألقوا على ضوء النهار سدولا
واسمع كلامهم ولا تجعل على ما حرفوا من كتبهم تعويلا
لولا استحالتهم لما ألفتني لك بالدليل على الغريم محيلا
وصدق .

ومجاملة أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن ذلك هو الواجب في حقنا وحقهم ، ولكنه في المبشرين بغى وفرط طعون في عصرنا هذا لا تقل عما كان لأسلافهم من أصحاب محاكم التفتيش ، أولئك بسطوة عذابهم ، وهؤلاء بتزيد أقلامهم وضروب أساليب دعايتهم ودعاواهم .

والذي ذكره البوصيري من تحريف كتبهم هو ما عليه اعتقادنا فيهم . ومن المعاصرين في زماننا من يلتمس لكثير مما جاءوا به التخريجات على وجه من وجوه علوم العمران والاجتماع وغير ذلك ، كأن يقال إن قصة العيص ويعقوب رمز لأن أهل الخواضر والنعمة أكثر كيدا ومكرا من أهل الشدة والبداوة . وليس هذا بمخرجها من أنها محرفة وليست بصفة حق لنبي الله يعقوب عليه السلام . ومسألة بكارة العيص مشكلة لأنهم لم يذكروا بين إسماعيل واسحق بكارة وكان اسمعيل هو البكر . ، إلا أن يقال إنهما كليهما بكران بالنسبة إلى أميهما . وأبناء يعقوب لم يكن لأكبرهم فضل على يوسف وأخيه وإيثار أبيه لهما دليل على نفي أحقية البكارة . فتكون البكارة شيئا دب تحريفه إلى اليهود من الأمم التي خالطوها ، وليس في أصل عرفهم أو عبادتهم ، كما دبت إليهم عبادة العجل ، من أبيس ، والأصنام التي زعموها لراحييل ، وحسنا صنع الإمام شرف الدين البوصيري إذ نصح ألا نعول على ما حرفوا وما أولوا في هذا المجال . ولكن نعول على القرآن والحديث . قال تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » . وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم غضب حين رأى مع عمر رضي الله عنه

صحيفة من التوراة وللعلماء في هذه المسألة خلاف وأقوال وقول البوصيري : «لولا استحالتهم» يفيد الجواز في باب مقارعة الحجة بالحجة . قال الشيخ عبدالحكي الكتاني في الترتيب الادارية^(١) «وأما النهي عن قراءتها وإن صرح به الفقهاء فليس على إطلاقه لوقوعه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لكثير من الصحابة من غير إنكار فهو مقيد بمن لم يميز بين المنسوخ والمخرج منها إلخ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ الجزء الثاني) :

أو قد جهلت من الحديث رواية أو قد نسيت من الكتاب نزولا
فاعدل إلى مدح النبي محمد قولاً غداً عن غيره معدولا
فإذا حصلت على الهدى بكتابيه لا تبغ بعد لغيره تحصيلاً
كانه حذف جواب إذا واستأنف كلاماً جديداً ، ولك أن تقول حذف الفاء والأول
أظهر - أي فذاك ، وقوله : أو قد جهلت إلخ يشير إلى ما قدمنا ذكره من خبر النهي وما
إليه :-

إن كنت تنكر معجزات محمد يوماً فكن عما جهلت سؤلاً
ما زال يرقى في مواهب ربه وينال فضلاً من لدنه جزيلاً
بث الفضائل في الوجود فمن يزد فضلاً يزد به فضله تفضيلاً
فاسمع شئائله التي ذكرى لها قد كاد تحسبه العقول شمولاً
إني لأورد ذكره لتعطشي فأخال أي قد وردت النيلاً

استعمل أورد هنا استعمالاً استخدامياً كما يقال في البديع أي أجعل ذكره يرد وأجعل
نفسى ترد ذكره كورود الإبل الماء - ثم انظر إلى ذكره النيل وجه له وقوله إن ذلك فرع من
حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنيل كما في الحديث من الجنة نابع ومن رأى
خشونة الصحراء التي تكتنف نواحي جانبيه تيقن من ذلك

والنيل يذكرني كريم بنانه فأطيل من شوقي له التقبيلاً
الله أعطى المصطفى خلقاً على حب الإله وخوفه مجبلاً
أتقنت من إخلاص ودي مدحه وأخذت منه لبابه المنخولاً
إني امرؤ قلبي يحب محمداً ويلوم فيه لائماً وعذولاً
أحبه وأمل من ذكرى له ليس المحب لمن يحب ملولاً

(١) راجع أيضاً نفسه ٢٠٣/١ حديث الأمر بتعلم كتاب يهود ونفسه ٤٢٧/٢ - ٤٣٢ وإن عبد الله بن عمرو بن العاص
رضي الله عنه كان يقرأ التوراة ونقل الكتاني عن الحافظ بن حجر قوله إن كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم وهذا باب
للحجة والأقوال فيه طول .

ولأرمين له الفجاج بضمـر
من كل دامية الأباطل زدتها
حتى أضـم بطيبة الشمل الذي
أنضى إليها العرمس الشميلا
كالنبل سبقا والقسى نحولا
عنقا إذا كلفتها التمهيلا

العرمس الشمليل الناقة القوية السريعة، جاء أبو الطيب بالعرامس جمع العرمس
وبالشملا صيغة أخرى للشمليل

وإذا تعسرت الأمور فإنني راج لها بمحمد تسهيلا

صلى الله عليه وسلم تسليما

فاجعل لنا اللهم جاء محمد
واجعل صلاتك ديمة منهلة
فرطنا تبلغنا به المأمولا
لم تلف دون ضريحه تهليلا

هذا من قول كعب رضي الله عنه «وما لهم عن حياض الموت تهليل» أي تأخر-
أي تصل الى ضريحه صلى الله عليه وسلم لا يشينها عنه شيء

ما هزت القضب النسيم ورجعت ورقاء في غصن الاراك هديلا

عني ما هز النسيم القضب بالنصب وهذا جائز في العربية وفي المطبوعة بنصب
القضب وإسكان الضاد ويجوز على تأويل النسيم بالريح فيكسبه ذلك تأنيثا
وأستبعده، والذي صنع من رفع القضب مذهب فصاحة وهو أشبه بأسره ورسائته ومنه
قوله تعالى : «وءاتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة» .

وللبوصيري من فحل الشعر وطنانه في مدح الرسول روائع ليس الى استكثار
الشواهد منها هنا من سبيل . ونذكر منها على وجه التمثيل لاميته التي على وزن " بانت
سعاد " ولم يجعل لها فاتحة نسيب وإنما افتتحها بالتأمل والمواعظ .

إلى متى أنت يا للذات مشغول
في كل يوم ترجى أن تتوب غدا
أما يرى لك فيما سر من عمل
فجرد العزم إن الموت صارمه
وأنت عن كل ما قدمت مشغول
وعقد عزمك بالتسويق محلول
يوما نشاط وعما ساء تكسيل
مجرد بيد الآمال مسلول

وبائته الوافرية التي افتتحها بالمديح مباشرة :

بمدح المصطفى تحيا القلوب
وأرجو أن أعيش به سعيدا
نبي كامل الأوصاف تمت
وتغفر الخطايا والذنوب
وألقاه وليس على حبوب
محاسنه فليل له الحبيب

وفيها :

طوال ما تزول وما تغيب	بدت للناس منه شمس علم
لنا عما أكتته الغيوب	وألمنا به التقوى فشقت
وشتان المواهب والكسوب	خلائقه مواهب دون كسب
كأخلاق يهذيها اللبيب	مهذبة بنور الله ليست
فكيف ينالها الرجل الأديب	وأداب النبوة معجزات

وبائته التي استهلها بذكر الموعظة والندم من الكامل :

خجلا يعنف نفسه ويؤنب	وأفاك بالذنب العظيم المذنب
ذو شية عوراتها ما تخضب	لم لا يشوب دموعه بدمائه
ما كان في الدنيا يخوض ويلعب	لعبت به الدنيا ولولا جهله
إذ بسات في نعمائه يتقلب	لزم القلب في معاصي ربه
شرها على أمثاله يتوثب	يستغفر الله الذنوب وقلبه

تأمل هذا الكلام الصافي الصادق النابع من القلب

يفري جوارحه على شهواته فكأنه فيما استباح مكلب

إذ المكلب مباح له الصيد بما علمه وذكر اسم الله عليه

فكأن معترك المنايا ملعب	أضحى بمعترك المنايا لاهيا
إلا إلى حرم بطيئة مهرب	ضائق مذاهبه عليه فما له
لكنه بـرجائه متسبب	متقطع الأسباب من أعماله
فكأنه بذنوبه يتقرب	وقفت بجاه المصطفى أماله
باب لغفران الذنوب مجرب	وبدا له أن الوقوف ببابه
في جوده قد غار منها أشعب	صلى عليه الله إن مطامعي

في شعر البوصيري رحمه الله كثير من خفة الروح ونادرة الذكاء المصرية المعدن ، وذلك أمر الإشارة إليه تفني إن شاء الله .

أدركت من خير الورى ما أطلب	لم لا يغار وقد راني دونه
وصحائف سود ورأسي أشيب	ماذا أخاف إذا وقفت ببابه
يحصي الرقيب على المسىء ويكتب	والمصطفى الماحي الذي يمحو الذي
فرض على كل الأنعام مرتب	صلى عليه الله إن صلاته
مثلي وراح بوصفها يتشعب	ما حن مشتاق إلى أوطانه

رحم الله البوصيري فإن شعره جزل ،
ونعود إلى بعض ما كنا فيه من الهمزية : وقد أفاض البوصيري في أمر اليهود وما
كان بينهم وبين المنافقين والأحزاب من حلف

خدعوا بالمنافقين وهل ينفق إلا على السفية الشقاء
وأطمأنوا بقول الأحزاب إخوانهم إنما لكم أولياء
حالفوهم وخالفوهم ولم أدر لماذا تخالف الحلفاء
أسلموهم لأول الحشر لا مية عادهم صادق ولا الإيلاء
هؤلاء بنو النضير

سكن الرعب والخراب قلوبا ويوتا منهم نعاها الجلاء

ثم صار إلى ذكر بني قريظة وما كان من مساندتهم للأحزاب في غزوة الخندق
ويوم الأحزاب إذ زاغت الأبـ صار فيهم وضلت الآراء
وتعدوا إلى النبي حدودا كان فيها عليهم العداء
أي كان فيها عليهم المركب الحشن بضم العين وفتح الدال وكان فيها ما عداهم أن
ينالوا منه

ونتهم وما انتهت عنه قوم فأبىد الأمار والنهائ

كعب بن أسد وحبي بن أخطب ولفهم . وقد تناول العقاد أمر بن قريظة بسداد عظيم
وأحسبه وفي القول فيه بأجود مما جاء به هيكل في حياة محمد ، جزيا كلاهما خيرا ، وذلك
أن العقاد لم يدافع بما وقع من خيانة بني قريظة وغدرهم ، ولكن نبه وتنبه إلى أن القوم
حكموا سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وما فعلوا ذلك إلا وهم واثقون بأنه سيرجع في
أمرهم إلى عادة حلف الجاهلية ولو لم يرجع إلى ذلك ، فإنه لن يبلغ أن يحكم بما حكمه
وإنما جهده أن يقسو عليهم فيحكم بجلالهم مثلا ، وكانوا على ثقة من أمرهم لغرورهم
واستجهاهم أهل المدينة أن سعدا رضي الله عنه لم يكن له علم بما عليه قانون التوراة في
هذا الباب . غاب عنهم لأمر كان مفعولا ، أن سعدا رضي الله عنه عميق الايمان ، وأنه
مأمور إذ حكم بما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم إذ قال تبارك وتعالى «إنا أنزلنا
التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار
بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا
بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . » فما كان لسعد رضي

الله عنه إلا ان يحكم بما أنزل الله : « أفحكم الجاهلية يبغون؟ » « ولا يحق المكر السيء إلا بأهله » .

وتعاطوا في أحمد منكر القو ل ونطق الأراذل العـوراء

أي قبيح القول

كل رجس يزيد الخلق السوء ء سفاها والملة العوجاء
فانظروا كيف كان عاقبة القو م وما ساق للبذي البذاء
ثم افتن في باب من البديع استحسنة أبو منصور في شعر أبي الطيب ، أن التشبيه فيه
من جنس صناعته مثل :

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب أدقهما وضم الشااكل
ونحو: إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم
وهو عند أبي الطيب كثير - وللبوصيري منه بدائع مثل قوله في البردة يذكر المعراج :

سريت من حرم ليلا الى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقى إلى ان نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تحترق السبع الطباق بهم في موكب كنت فيه صاحب العلم
يذكر هنا صعود جبريل عليه السلام به يستفتح فيلقى الأنبياء نبيا بعد نبي في سماء بعد
سما ، وعندنا أن تغني المسلمين بالبردة كان له عظيم الأثر في محاكاتها لا من جانب
شعراء المسلمين وحدهم ولكن من جانب شعراء النصارى كدانتى في قصته الإلهية
وكان بين ميلاد دانتى (١٢٦٥م) والبوصيري (٦٠٨هـ) أكثر من نصف قرن ، وذلك
لأمر الأخذ والمحاكاة تمهيد كاف .

حتى اذا لم تدع شأوا لمستبق من الدنو ولا مرقى لمستتم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
وهذا موضع استشهادنا .

وقال حيث ذكر الجهاد و فعل الصحابة رضوان الله عنهم :

هم الجبال فسل عنهم مُصادمهم ماذا رأى منهم في كل مُضطدَم
وسل حُنيئا وسل بدرا وسل أحدا فصول حُتف لهم أدهى من الوخم
المُصدرى البيض همرا بعدما وردت من العدا كل مسود من اللمم
والكاتبين بسم الخط ما تركت أقلامهم حرف جسم غير منعجم
كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا من شدة الخزم لا من شدة الخزم

أخذ هذا فأحسن الأخذ و أخفاه من أبي الطيب حيث قال :

فكأنها نتجت قياما تحتهم و كأنها ولدوا على صهواتها

كأن الخيل ربا و هم نباتها يرف عليها ، و المجانسة سهلة حيث جاء بها لا يكاد السامع
يتنبه إلى أنه ملابتها صنعة و حذق

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا فما تفرق بين البهيم و البهيم

البهيم صغار المعزى بفتح فسكون و البهيم بضم ففتح جمع بهمة بضم فسكون و تاء
مربوطة بعد الميم و هو الشجاع الذي لا يدري قرنه من أين يأتيه

و من تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم
أي يصيبها الوجوم . و هذا البيت يقولون من أنشده أمن مما يخاف ، و لو لقيه الأسد .

و لن تـرى من ولي غير منتصر به ولا من عدو غير منقصم
أحل أمته في حرز ملته كالليث حل مع الأشبال في أجم
كم جدلت كلمات الله من جدل فيه و كم خصم البرهان من خصم

و جاء بالبرهان من بعد :

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية و التأديب في اليتيم
خدمته بمديح أستقيل به ذنوب عمر مضى في الشعر و الخدم
بكسر الخاء و فتح الدال أي خدمات الناس من ذوي الجاه و أشباه ذلك و لك فتح
الخاء و يكون كأنه ينظر إلى قول أبي الطيب :

بكل منصلت مازال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم

ولا تستبعدن هذا

خدمته بمديح استقيل به ذنوب عمر مضى في الشعر و الخدم

و شعر البوصيري في غير المديح النبوي لا يبلغ شيئا من جودته فيه فسبحان الموفق
القدير ، من يهد الله فهو المهتدي .

إذ قلداني ما تخشى عواقبه كأنني بهما هـدي من النعم

أي الشعر و خدمة هؤلاء قلداني ذنوبا فصارت لي كقلائد الإبل التي تقلد القلائد
و تساق لتنحر هديا إلا أنها يقدماني هديا للشيطان - تأمل هذا الافتنان

أطعت غي الصبا في الحاليتين فما حصلت إلا على الآثام و الندم

فيسا خسارة نفس في تجارتها لم تشتتر الدين بالدنيا ولم تسم
و من يبيع آجلا منه بعاجله بين له الغبن في بيع و في سلم
إن أت ذنبا فما عهدي بمنتقض من النبي و لاحلي بمنصرم
فإن لي ذمة منه بتسميتي محمدا و هو أوفي الخلق بالذمم
إذ هو محمد بن محمد بن سعيد بن حماد الأبوصيري أو البوصيري و هذه أشبه إذ قرئته
بوصير و أصلها أبوصير و هو عربي مغربي أمه من صعيد مصر - و نعود إلى ما كنا فيه
من الهمزية حيث ذكرنا استعماله ما هو من جنس صناعة الأدب و الكتابة في باب
التصوير و البيان :

فانظروا كيف كان عاقبة القوم و ما ساق للبذي البذاء
و جد السب فيه سما و لم يدر إذ الميم في مواضع باء
أي قد تقلب الميم باء لتقارب المخرج إذ هما شفويان فوجدوا السب الذي سبوه النبي
صلى الله عليه وسلم قد انقلبت باؤه سما فقتلهم . و انظر إلى قوله « في مواضع » إلى دقته
ورشاقته

كان من فيه قتله بيديه فهو من سوء فعله الزباء
أي لأن السب خرج من فيه وهو سم فقتله فكأنه قد أخذ سما فمصه كما فعلت الزباء
وقد مر خبرها ، و هذا كمنذهب أبي تمام في الإشارة .
صرعت قومه حبائل بغي مدها المكر منهم و الدهاء
فأنتهم خيل إلى الحرب تختا ل وللخيل في الوغي خيلاء
قصدت فيهم القنا فقواف الط عن منها ما شأنها إيطاء
أي كسرت فيهم القنا من جعل القنا قصدا فهو قصيد أي متكسر ، قال أبو الطيب :

يطأن من الأبطال من لا حملنه و من قصد المران ما لا يقوم
فالخيل إذ وطئت هذا القنا القصيد فهذا الإيطاء لا يشينه كما الإيطاء يشين قوافي
الشعر . و قصدت الخيل فيهم القنا أي نظمته كما ينظم الشعر طعنا سلكي و طعنا
مخلوجا متتابعا قاتلا فمنظومات الطعن فيهم لا يشينها أن تتشابه كما يشين ذلك قوافي
الشعر . فهنا كما ترى تورية و استخدام .

و قوله فأنتهم خيل . . . البيت ، كأن صياغته تنظر إلى قول أبي الطيب :

فأنتهم خوارق الأرض ما تح ممل إلا الحديد و الأبطال
خافيات الألوان قد نسج النق مع عليها براقعا و جلالا
ثم إن البوصيري رحمه الله ذكر فتح مكة و عفو النبي صلى الله عليه وسلم :

و أثارت بأرض مكة نقعا ظن أن الغدو منها عشاء
أحجمت عنده الحجون و أكدى عند إعطائه القليل كداء
قال النبهاني ما معناه أنه هو كداء بضم الكاف كأن الشاعر مد المقصور قال رحمه الله
أحجمت كفت و أمسكت ، وعنده عند غبار الحرب ، والحجون الجبل المطل على مقبرة
مكة المشرفة و هو كداء بالفتح والمد و منه دخل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح
و أكدى قل خيره و كدى بالضم والقصر ويمد كما هنا موضع بأسفل مكة و منه دخل
خالد بن الوليد رضي الله عنه و وقع فيه حرب قليل مع أوباش مكة .
قلت هذا الوجه الذي ذكره لا بأس به . وعندى أنه لم يرد بالحجون إلا مكة و الحجون
جبل مكة فأنثه لمعناها و كداء بالفتح والمد هو الذي ذكره حسان رضي الله عنه :
عدمتم خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

و قد ذكر البوصيري النقع^(١) ولا حاجة به إلى قصر الممدود وعنى بكداء مكة كل ذلك ،
من إطلاق الجزء على الكل . أى أحجمت مكة فلم تقاتل لاستسلام أبي سفيان وسائر
السادة وأعطت من القتال قليلا ثم تركته يشير إلى يوم الخندمة ، حيث جمع صفوان
وعكرمة جمعا قال الراجز :

إنك لو رأيت يوم الخندمة
إذ فر صفوان وفر عكرمة
ولحقتنا بالسيوف المسلمة
لهم نهيت خلفتنا و زم زممة
يضربن كل هامة و جمجمة
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

و يشير إلى قوله تعالى : «و أعطى قليلا و أكدى» أي صار كالحجر لا عطاء عنده

أحجمت عنده الحجون و أكدى عند إعطائها القليل كداء
أي خلا من كل مقاومة وهو الموضع الذي دخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم
ودعت أوجهها بها وبيوتها مل منها الإكفاء و الإقواء
إكفاء القدور و إقواء الديار أي خلوها وألغز بالإكفاء والإقواء والبيوت إذ ذلك كله من
ألفاظ الشعر
فدعوا أحلم البرية والعف و جواب الحليم والإغضاء

(١) ذكره النقع ينظر إلى قول حسان وقول أبي الطيب معا والله أعلم .

ناشدوه القريبى التي من قريش قطعتها الترات والشحناء
فعفا عفوا قادر لم ينقص — عليه م مضى إغراء
وإذا كان القطع والوصل للـ — تساوى التقريب والإقصاء
ثم أخذ بعد في باب من المدح من أسنى ما قال وأجوده، جمع فيه بعد طريق الجدل
والوصف والقصص والخطابه، طرقا من عذب الغناء وزنانه واستخفه الطرب فركب
الناقة وعدد المنازل إلى دار الحبيب وهذا لشعراء العرب منهج، حتى في اللغة
الدارجة، وقد اتبعه المتنبي في مقصورة خروجه من مصر «ألا كل ما شية الخيزلى» ومن
قبل صنع ذلك أبو نواس حين قصد الخصيب بمصر في «أجارة بيتينا أبوك غيور» -
وهنا شاعر مصري مغربي مسلم حنيف يفر إلى الله وإلى الحبيب لا من خوف ملك
ولكن لخوف الملك الجبار، ورجاء إيفاء طاعة الدين حقها، ويقصد لا صاحب جاه من
جاه الدنيا كالخصيب، ولكن صاحب جاه الآخرة، الماحى الشفيع عليه الصلاة
والسلام:

وسواء عليه فيما أتاه من سواء الملام والإطراء
ولو أن انتقامه لهورى النفس س لدامت قطيعة وجفاء
قام لله في الأمور فأرضى الـ — له منه تباين ووفاء
فعله كله جميل وهل ينضـ — ح إلا بما حواء الإناء
أطرب السامعين ذكر علاه بالراح مالت بها الندماء
ثم أخذ في قري غناء مطرب :

النبي الأمي أعلم من أسند عنه الرواة والحكماء
هذا كقوله في البردة «كفاك بالعلم في الأمي معجزة البيت»

وعدتني ازدياره العام وجنا — ومنت بوعدھا الوجناء
أفلا أنطوى لها في اقتضائيـ — له لتطوى ما بيننا الفلاء
أي الصحارى جمع فلاة. أنطوى أي أطوى نفسي على طية بكسر الطاء أي نية يعنى نية
الحج. أي أفلا أصدق النية والعزم في اقتضائي لها أن توفي بوعدھا لكي توفيه فتطوى ما
بيننا الصحارى

بالوف البطحاء يحفلها النيب — ل وقد شف جوفها الأظماء

بناقة تألف بطحاء مكة وتحفل عن النيل ولو طالت أظماؤها جمع ظم بكسر الظاء وهو
مدة ما بين الشرايين للإبل. وفي الناقة كناية عن نفسه، إذ حركة شوق الطاعة بالحج
وزيارة الحبيب، ثم جعل يعد المنازل، وقد قصد مكة أولا، ليحرم من الميقات ويحج ثم
بعد ذلك قصد طيبة لزيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم وحرمة الشريف.

فأقضت على مباركها بر كتهها فالبويب فالخضراء
فالقباب التي تليها فبئ — ر النخل والركب قائلون رواء
وغدت أيلة وحقل وقر خلفها فالمغارة الفيحاء

ثم عد المنازل . فذكر النبهاني أن العارف الصاوي رحمه الله ذكر في حاشيته على
الهمزية أن الناظم ترك منازل خمسة قبل الحوراء . قلت وما أرب الناظم أن يسرد المنازل
نظما وإنما تغنى بها كما كان الشعراء يتغنون بمعاهد الديار ومنازل الأحبة لا يعنون
بذلك سردا جغرافيا . ولو عد البوصيري عشرة منازل أو أربعين أو ثلاثين أو عشرين ثم
قال من بعد كما قال بعد ذكره ما ذكر منها :

هذه عدة المنازل لا ما عد فيه السماك والعواء
لاستقام له المعنى واللفظ والسياق ، إذ ليس قصده المطابقة بين عدد منازل القمر وما
يعد من أساء منازل الحج كما ليس قصده أن يذكر سردا منظوما بكل منازل الحج ولقد
تنقص وتزيد بحسب نوع السير وحتى على تقدير ألا تزيد ولا تنقص ، إذ قصده كما
قدمنا الطرب والذكر بنغم التغني بهذه المنازل ولقد قال مما يشهد بصحة ذلك :
أطرب السامعين ذكر علاه يا لراح مالت بها الندماء
ومناسبة قوله :

هذه عدة المنازل لا ما عد فيه السماك والعواء
ليست في مطابقة عدد ما ذكره لعدة منازل القمر . ولكنها كامنة في حقيقة تنبيهه على أنه
يذكرها للشوق والحب وطربا بها كما كان يفعل فحول الشعراء الأولون ، وقد ترك الشعراء
ذلك أو كادوا منذ ماتت القصيدة المادحة الدنيوية القديمة . وقد ترنم أبو الطيب طربا
بذكر نجاته من كافور فعدد المنازل إلى العراق تعداد ترنم لا سرد . وقد كان عصر
البوصيري وعصور كثيرة قبله وبعده إلى يومنا هذا ولع بالطوابع والنظر في النجوم
وطلب معرفة الحظ ومخبوء الغيوب من طريقها ، ليس قول البوصيري رحمه الله :
هذه عدة المنازل لا ما عد فيه السماك والعواء

يخلو من النقد لهذا الولع الخاطيء
فمن أخذ عليه حذف خمسة مواضع أو نحو ذلك فقد ضيق من فسحة معناه الكبير
الواسع

ثم يقول رحمه الله :

فكأنى بها أرحل من مَكَّة
موضع البيت مهبط الوحي مأوى الر
حيث فرض الطواف والسعي والحد
حبذا حبذا معاهد منها
البلى بكسر الباء والبلاء مقصور وممدود لغتان صحيحتان . وهذا البيت يقوي ما ذكرناه
من قصده إلى التزم كالقدماء ، فقال حبذا هذه الديار والمعاهد ولكنها على قدمها
معمورة لم يغيرها البلى ، وكان القدماء يتغنون على الذكرى بديار كانت مأهولة ثم أقوت
وأقفرت بعد عهد الأحباب . ولذلك أخذ الخليل على الآخر قوله الذي ذكره ابن قتيبة في
مقدمته :

أنبت تفاحا وإجاصا

لأن التفاح والإجاص إنما يكونان في البساتين ومع التعهد بالسقي في المكان الأهل
وليس كقول من قال :

أنبت قيصوما وجنجا

لأن هذه نباتات برية إنما تنبت بعد خلو الدار من أهلها

حرم أمن وبيت حرام ومقام فيه المقام تلاء

المقام معا مفتوحة الميم أو الثانية مضمومتها أو الأولى مضمومتها أو كليهما
مضمومتها . فعلى الأول فالمقام مقام إبراهيم والقيام فيه جوار وذمة في حرم الله . وعلى
الثاني فالمقام مكان الإقامة (اسم مكان رباعي) والمقام بمعنى القيام أو بمعنى مقام
إبراهيم أي موضع قيامه والصلاة فيه جوار وذمة عند الله . وعلى الوجه الثالث فالمقام
مكان الإقامة (رباعي) والإقامة فيه (مصدر ميمي رباعي) جوار وتلاء بمعنى الجوار
ووزن سحاب

فقضينا بها مناسك لا يحمد إلا في فعلهن القضاء

لأن قضاء الصلاة مثلا يكون بعد فوات وقتها وقضاء الدين من هذا المعنى وإن حمد هو
فإن الدين ليس في ذاته بمحمود ولذلك قال الشاعر :

يلوموني في الدين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا

فلو كان في ذاته أمرا حميدا ما كان قومه ليلوموه فيه

ورميننا بها الفجاج إلى طيبة والسير بالمطايا رماء

لأن الناقة كالقوس وترفع رقبتها في السير كأنها قوس وترمي بنفسها الفجاج

فأصبنا عن قوسها غرض القر ب ونعم الخبيثة الكوماء

فرأينا أرض الحبيب يغض الطر ف منها الضياء والألاء

فكان البيداء من حيث قابـ ـلت العين روضة غناء

قوله نعم الخبيثة أي الذخر. والكوماء مخصوص نعم وليست صفة للخبيثة والكوماء

عنى بها ناقتة .

وكان البقاع زرت عليها طـرفيها مـلاءة حمراء

وكان الأرجاء تنشر نشر الـ مسك فيها الجنوب والجرباء

أي نور وأي نور شهدنا يوم أبدت لنا القباب قباء

قر منها دمعى وفر اصطبارى فدموعي سيل وصبري جفاء

لأن السيل يحتمل زبدا رابيا " فأما الزبد " كما قال تعالى في الكتاب العزيز « فيذهب

جفاء » وهنا صار الدمع هو النافع والصبر جفاء فتأمل

فترى الركب طائرين من الشو ق إلى طيبة لهم ضوضاء

هذه أخذها من الحارث وحول معناها من السخرية عند الحارث إلى معنى النشوة

والحب ههنا

وكان الزوار ما مست البأ ساء منهم خلقا ولا الضراء

يعني بأساء السفر وذلك من عون الله وتوفيقه

ثم يجيء هذا المدح والانفعال بالعاطفة الرائع ويناسب ما قدمه من أن الشوق قد طار

به وكأنه ما مسه فتور ولا إعياء وقد نظم ما نظم مما يكل عن مثله الفحول ، وما زالت

أنفاسه لهن حرارة واندفاع وصدق ولإيقاعه زين وزجل وترجيع :

فحططنا الرحال حيث يحط الـ فوزر عنا وترفع الخوباء

وقرأنا السلام أكرم خلق اللـ هـ من حيث يسمع الاقراء

وذهلنا عند اللقاء وكم أذ هل صببا من الحبيب لقاء

تقول قرأ عليه السلام وأقرأه إياه أي أبلغه ثلاثي ورباعي ذكره الفيروزبادي وذلك

كما يحسن التنبيه عليه لما يقع فيه من النسيان والوهم وقوله ذهلنا والبيت التالي من جيد

وصف زيارة الحبيب عليه الصلاة والسلام .

ف مصاييها ولا كربلاء
ليس يسليه عنكم التأساء

من شهيدين ليس ينسيني الطغف
آل بيت النبي إن فـؤادي
أي التأسي والتعزية

مدح لي فيكم وطاب الثناء
ت عليكم فإني الخنساء
سودته البيضاء والصفراء
ثم صار إلى الأصحاب فبدأ بالخلفاء ثم العشرة الكرام مع مدح مجمل ومفصل

آل بيت النبي طبتهم فطاب الـ
أنا حسان مدحك فإذا نحـ
سدتكم الناس بالتقي وسواكم
والبوصيري هنا متبع قولنا صلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم فذكر الآل

دك فينا الهداة والأوصياء
علماء أئمة أمراء
ه فأنى يخطو إليهم خطاء
ون في فضلهم ولا نقباء
س به في حياتك الاقتداء
ه به الدين فارعوى الرقباء
ل إلى المصطفى بها الإسداء
ن فؤادي وداده والولاء
تيب فينا تفضيلهم والبولاء

وبأصحابك الذين هم بعـ
أغنياء نزاهة فقراء
رضي الله عنهم ورضوا عنـ
ما لموسى ولا لعيسى حوارـ
بأبي بكر الذي صح للنبا
وأبي حفص الذي أظهر اللـ
وابن عفان ذي الأيادي التي طا
وعلي صنو النبي ومن ديـ
وبياقي أصحابك المظهر التر

ثم ذكرهم طلحة والزبير وسعدا وسعيدا وعبد الرحمن بن عوف وأبا عبيدة ثم ذكر
عمي رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمن في ذكره الزبير ابنه عبد الله وزوجه أسماء
رضي الله عنهم أجمعين .

وبنيها ومن حوته العباء
ن بأن صاغن منك بناء
من ذنوب أتيتهن هواء

وبـأم السبطين زوج علي
وبأزواجك اللواتي تشرفـ
الأمان الأمان إن فؤادي
هذا جواب القسم

قد تمسكت من وداك بالحـ	ل الذي استمسكت به الشفاء
وأبي الله أن يمسنـي السـو	ء بحال ولي إليك التجاء
قد رجوناك للأمور التي أبـ	ردها في فؤادنا رمضاء
وأتينـا إليك أنضاء فقر	حملتنا إلى الغني أنضاء

أي ضعاف من الفقر إلى الغفران تحملنا إلى الغني بنيل شفاعتك إيل أنضاء

وانطوت في الصدور حاجات نفس	مالها عن ندى يدك انطواء
فاغشنا يا من هو الغوث والغـيـ	ث إذا أجهد الوري اللأواء
اللأواء : الشدة	
يارحيمـا بالمؤمنين إذا ما	ذهلت عن أبنائها الرحماء
يا شفيعـا في المذنبين إذا أشـ	فق من خوف ذنبه البراء

كأنه يشير بهذا إلى نبي الله عيسى عليه السلام إذ لا يعتذر بذنب ، «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» .

جد لعاص وما سواي هو العاصي ولكن تنكري استحياء

تأمل هذه الرقة مع لمحة الذكاء في العبارة

وتداركه بالعناية ماذا م له بالذمام منك ذماء

الذماء بوزن السحاب

أخرته الأعمال والمال عما	قدم الصالحين والأغنياء
كل يوم ذنوبه صاعدات	وعليها أنفاسه صعداء
أي يتأوه	

ألف البطنة المبطنة السيـ	ر بدار بها البطان بطاء
كنت في نومة الشباب فما استـيـ	سقطت إلا ولتي شمطاء
أي خالط سوادها بياض الشيب	

وتناديت أقتني أثر القـو	م فطالت مسافة واقتفاء
صاح لا تأس إن ضعفت عن الطـا	عة واستأثرت بها الأقوياء
إن لله رحمة وأحق النـ	اس منه بالرحمة الضعفاء
فابق في العرج عند منقلب الذو	د ففني العود تسبق العرجاء

الذود هنا مصدر، قال تعالى : «ووجد من دونهم امرأتين تذودان» أي عندما تزداد الواردات راجعة فإن العرج التي كانت أواخر تكون أوائل فتلقى العرجاء سابقة . (ويجوز أن يكون الذود الجماعة من الإبل على بعد في المعنى عسير) وهذا يقوله على التمني وعلمه من بعد :

ويحب النبي فابغ رضي الله — ف في حبه الرضاء والحباء
يانبي الهدى استغاثه ملهو — ف أضرت بحاله الحوباء

ما أرى إلا أنه عني الحاجة فتكون الحوباء كالحوبة ولا تزال في دارجتنا هذه الثانية بهذا المعنى ، والحوباء النفس فلعل المعنى شهوات النفس هنا والله أعلم .
هذه علتني وأنت طيبي — ليس يخفى عليك في القلب داء
هذا يصحح المعنى الثاني أن الحوباء النفس فتأمله .

ومن الفوز أن أبشك شكوى — هي شكوى إليك وهي اقتضاء
ضمتها مدائح مستطاب — فيك منها المديح والإصغاء

يعني إنشاد المديح والإصغاء إليه

وأعلم أصلحك الله أن رنات المديح هي التي كانت سببا في معرفة الأجيال القريبة من عصرنا هذا أوزان الشعر الرصين لغلبة الألسن الدارجة ، ولأن أكثر أوزان شعرها يعتمد مواضع الإشباع (ما يسمى النبر الآن) مع المقاطع والغناء . والعروض لا يفي بتعليم نغم الشعر ، ولذلك كان العلماء في العصور القريبة من عصرنا ربما عمدوا إلى تشيته في أذهان الطلبة من طريق نغم المديح كالذي صنع النبهاني من نظمه البحور نحو :

علمت الله ليس له مثل — وأن محمدا نعم الرسول
مفاعلة مفاعلة فعول — بوافر هديه اتضح السيل

وما عرف شوقي وحافظ وجيلهما والبارودي من قبل أنغام الشعر إلا من طريق ما تعلموه من سماع نغم المديح النبوي ، ومن أجل هذا ساعدتهم مجازاة البردة . وصنع حافظ عمرته على نهج البرعي رحمه الله في :

بانّت عن العدو القصوى بواديا

وشوقى همزته على غرار:

ما آذنته بينها أسماء

للشهاب .

وقد ناب الإلقاء العصري عن نغم المديح حيناً ، قالوا وكان حافظ جيد الإلقاء وهو ليس بمنهج عربي الأصل فيما أرجح ولكن أخذ من طريقة الافرنج التي يقال لها Dec-lamation وهي طريقة خطابية تشخيصية . وقد كان يخالط الإلقاء عند على بك الجارم رحمه الله ترجيع نغم ونشوة غناء .

وقد ذهب الإلقاء وعلى أيامه - أعني على أيام الإلقاء الخطابي وبالرغم من حرص المجودين على تجويده - جعلت المعرفة بنغم القصيد ثقل ، والطرب لها يضعف .

وسبب الإقبال على ما يسمى بالتفعيلة والشعر الذي يقال له غير العمودي [وهذا اصطلاح فاسد إلا أن يرجع إلى قول قدامة انه لا مشاحة في الاسماء وزعم بزارد شو في بعض ما زعم أن من شاء أن يسمى منزله الذي يسكن فيه بالبرلمان فعل ذلك ولم يعبه عليه أحد] أن ذهاب المديح إلا من بقايا حلقات الأذكار ، وهذه لا يرتادها المعاصرون إما عن ضعف دين وإما عن فرط تشدد فيه وإما عن جهل تام وعدم سماع بشيء اسمه الأذكار أو المديح النبوي ، أي ذلك كان ، هذا الذهاب من المديح ذهب مرة واحدة بمعرفة نغم الشعر وإيقاعه . فالشعر الحر والتفعيلي ليس منشؤه من ثورة على الأوزان العربية عن معرفة ، ولكن عن ثورة عن جهل ومن جهل شيئاً عاداه ، وعن حاجة إلى التنغيم والإيقاع من دون معرفة سبيل إليه غير تقليد أوروبا . حتى لو دخلوا جحر ضب خرب .

قال رحمه الله :

ضممتها مدائح مستطاب فيك منها المديح والإصغاء
قلما حاولت مديحك إلا ساعدتها ميم ودال وحاء

هذا نظر فيه إلى لامية أبي الطيب في أبي شجاع ، وقد نبه هو نفسه رحمه الله إلى هذا النظر حيث قال في البيت التالي :

حق لي فيك أن أساجل قوما سلمت منهمو لدلوى الدلاء

فهنا أيضا يقوى ما نقول به من انتقال المدح من قصيدة مدح الملوك وذوي الجاه إلى المدح النبوي فقد أسلمت دلائلهم فيه إلى صاحب دلوه

إن لى غيرة وقـــــد زاحمتنى فى معاني مديحك الشعراء
يعني شعراء الدنيا كأبي الطيب الذي أشار قبل إلى قول :

تملك الحمد حتى ما لمفتخر فى الحمد حاء ولا ميم ولا دال
ثم يقول رحمه الله :

ولقلبي فيك الغلو وأنى للسانى فى مدحك الغلو
أى لا يصح ذلك شرعا كما فعل أتباع المسيح عليه السلام وأهل الكتاب الأول ، أو لقلبي غلو فى حبك أكبر من أن يقدر على البيان عنه لسانى وهذا المعنى الثانى أشبه ويقويه ما يلى ، وهو بيت جيد بالغ الجودة :

فأثب خاطرا يلذ له مد حك علما بأننه اللألاء
أي مدحي لألاء الدر الذى هو فضائلك . وأصل هذا المعنى من أبي الطيب

هنيئا لك الدر الذى لى لفظه فإنك معطيه وإني ناظم
فنحو هذا من المعاني هو ما زعم البوصيرى أنه غار منه

حاك من صنعة القريض برودا لك لم تحك وشيها صنعاء
أعجز الدر نظمه فاستوت فيه ه اليدان الصناع والخرقاء
وهذا البيت يشهد لما ذكرنا من نظره رحمه الله إلى أبي الطيب

فارضه أفصح امرئ نطق الضا دفقامت تغار منها الظاء

والضاد والطاء حرفان فى العربية كل منهما مستقل بنفسه متميز ونطق الظاء غير مشكل
إشكال نطق الضاد فيبان الضاد فى النطق الفصيح حتى لا يشبه أمرها بالطاء مما
أغارها إذ النبى صلى الله عليه وسلم سيد الفصحاء ، ونطق الضاد عنده لفصاحته لا
يختلط بالطاء . وقد مر الحديث عن مقال صاحب المقامات . فى هذا الباب .

أبذكر الآيات أوفيك مدحا أين منى وأين منها الوفاء
يعني المعجزات والعلامات كتظليل الغمام وتسبيح الحصى والبشارات التي سبقت
يدلك على ذلك قوله من بعد :

أم أماري بهن قوم نبي ساء ما ظنه بي الأغبياء
إذ قصدي إظهار الحجة لا المماراة المنهي عنها

ولك الأمة التي غبطتها بك لما أتيتها الأنبياء
هذا من إحسان البوصيري إذ هو قد ذكر الآل والأصحاب والندم والتوبة ورجاء
الشفاعة ومت بمدحه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجائه من ذلك - ثم ذكر أمة
الإسلام وعزتها بما خصها الله به من رشد وعناية وأن رسولنا صلى الله عليه وسلم خاتم
النبيين وهي خاتمة الرسالات ذات التوحيد الباهر المنير.

لم نخف بعدك الضلال وفينا وارثو هدى نورك العلماء
وهو منهم إن شاء الله .
ثم يقول رحمه الله :

ليس من غاية لوصفك أبغى — لها وللقول غاية وانتهاء
لم أطل في تعداد مدحك نطقى ومراى بذلك استقصاء
غير أني ظمآن وجد ومالى بقليل من الورد ارتواء
وكأنه هنا يعلق على شكوى ابن الرومي إذ قال :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى عند الورد لما أطال رشاءه

هذا في مدح ملوك الدنيا وعند طالبي زهرتها . ثم كأنه بقوله لم أطل من أجل قصد
للاستقصاء يظهر عين المعنى الذي لاح لنا من طريقته إذ قلنا إنه يقصد إلى التغني لا
السرود واستقصاء الأخبار ومن أجل هذا ما أخذنا على من أخذ عليه أنه إذ ذكر ثمانية
وعشرين منزلاً وشبهها بمنازل القمر أنه حذف خمسة لو ذكرها ما تمت المطابقة إذ منازل
القمر ثمانية وعشرون . ولقد أباح النقاد للشعراء ألا يلتزموا بتواتر أحداث التأريخ
ولأرسطوطاليس الفيلسوف نظريته المعروفة في الواقع والمحتمل . فكيف نلزمهم بالسرود

والاستقصاء وهذا عمل ناظمي العلوم وما أشبه .
ولقد عجب ابن الأثير في آخر المثل السائر من شهامة وأن العرب لا تطيل جر الأخبار
والحكايات كما تصنع العجم . وقد اعتذر الشيخ عبدالحكي الكتاني رحمه الله في التراتيب
الإدارية عن هذا بما طوله المطولون من نظم السيرة ، والحق أن العرب قد طولت الأراجيز
كما في ذات الأمثال لأبي العتاهية وكنظم كليلة ودمنة لأبان بن عبد الحميد . ولكن لم
يكن عندها جر الأخبار والحكايات كما نبه على ذلك ابن رشيق بداخل حقا في حيز
الشعر . لأن الشعر إنما وضع للغناء والترنم .

وقد أطال المحدثون مدح الملوك وأولى الجاه يبتغون احتلاب أخلاف الدر البكى . على
أن هذا من صنيعهم كأنما أراداه المولى عز وجل تمهيدا وتمحيصا وتوطئة لهذا الإبداع
الذي جاء به مداح الرسول عليه الصلاة والسلام من بعد وخاصة البوصيري . وذلك أن
اطالة ابن الرومي ومن نحا نحوه كمهيار وغيره روضت القوافي والمعاني على أساليب
المدح ومحاولات الإطراب بالبديع والافتنان في الصياغات البيانية . فلما جاء المحبون
مادحو خير الرورى صلوات الله عليه وسلامه ، أصابوا المادة الخصبة من طرق القول
ومناحيه ، ووقفهم توفيق الله سبحانه وتعالى بما وهبوا من ملكة القريض والغناء
والمقدرة على الإطراب وبما ضمنتهم من نشوات إلى أن يفتنوا في الإطالة ويتيسر
لهم مع ذلك أن يجيدوا بلا إعياء ولا كلال ولا ملال . ومن شاء أن يوازن بين صنيع
البوصيري هنا وفي طوالة وصنيع المجيدين من مداح الرسول صلى الله عليه وسلم وبين
ملحميات أصحاب الملاحم من يونان مثلاً ودرامياتهم فعل ، فأبيات الهمزية ثلاثمائة
وسنة وسبعون والبيت العربي يساوى سطرين من شعر يونان على أقل تقدير ، قياسا
على ما نقل إلينا من ترجمة دقيقة ، فهذه نحو من ثمانمائة وليست أبيات بعض الدراماة
والملاحم بزائدة على ذلك بكثير .

غير أننا لا نعد «الهمزية» والبردة إلى متى أنت " وجاء المسيح " من باب الملاحم ، إذ
هن من باب قصيد العرب ، وهو فنهم الذي امتازوا به وخصوا . وقد رأيت أنه لا شعر
سواء بالغاً مبلغه عند الجاحظ وهذك من ناقد .
ولله در البوصيري إذ لخص معنى الإطراب والطرب والنشوة والإخلاص بصدق الشعر
في قوله :

غير أني ظلمآن وجد ومـالى بقليل من الـورود ارتـواء
ثم ختم بالصلاة والسلام على خير الأنام :

فسلام عليك تترى من اللـ ————— هـ وتبقى به لك البأواء

أى الفخر. لاحظت في مواضع أن البوصيرى كأنه أخذ بقراءة أبي عمرو رحمه الله. وقد كانت بمصر كثيرة. ومثله كان بالقراءات علما. وتترى هنا على قراءة أبي عمرو منونة على الأرجح إذ السلام مذكر. أى فسلام عليك متتابعاً. وأبو عمرو ينون فى آية «قد أفلح المؤمنون» ثم أرسلنا رسلنا تترى» أى وترا أى متتابعين متواترين وصارت الواو تاء وهو مذهب للعرب فى القلب وقرأ ابن كثير وهو شيخ أبى عمرو كذلك. وضبط «تترى» فى الهمزية المطبوعة التى رجعنا إليها بلا تنوين والسياق بالتنوين أظهر وأقوى عندنا ومن لم ينون حمل تترى على المرات أى سلام عليك مرات تترى أى متتابعات أو متتابعة متواترة. وعلى ما مضى عليه أبو عبيدة فى تأويل تترى أنها فعل فليس هنا إلا الأخذ بقراءة أبى عمرو والله تعالى أعلم.

وسلام عليك منك فما غيـ ————— رك منه لك السلام كفاء
وسلام من كل ما خلق اللـ ————— هـ لتحيا بذكرك الأملاء

جمع ملا كجبل وهي من كلمات معلقة الحارث

وصلاة كالمسك تحمله مني شمال إليك أو نكباء

وأصاب صفة الريح هنا إذ ريح الشمال تحمله من مصر وكذلك النكباء أى التي فيها انحراف.

وثناء قدمت بين يدي نجـ ————— واي إذ لم يكن لى ثراء

وهذا الذى قدمه ثراء أى ثراء

ما أقام الصلاة من عبد اللـ ————— هـ وقامت بربها الأشياء

وهذا آخر بيت فى الهمزية وقد حرصنا على اتصال أبياتها إلى حيث كان الجدل ومخاصمة أهل الكتاب، ثم اختصرنا واخترنا؛ إذ ذلك يخرج بنا إلى باب من شرح وقد أحسن القيام به غيرنا فمن شاء الاستزادة منه رجع إلى ما جودوه فى هذا الباب.

وإحسان البوصيرى الذى ينبغى أن ينبه إليه وعليه كثير. وله قصيدة دالية نظمها سنة ٦٥٥ هـ سماها تقديس الحرم من تدنيس الضرم، يذكر فيها نار الحجاز التى

ظهرت بالمدينة وأوردها النبهاني في أول قافية الدال وقدم لها مطلعها :

إلهي على كل الأمور لك الحمد فليس لما أوليت من نعم حـ
لك الأمر من قبل الزمان وبعده وما لك قبل كالزمان ولا بعد
وهذا هو المعنى الذي فصله الغزالي رحمه الله من قبل في تهافت الفلاسفة ووسمه
بالنسبية .

وحكمك ماض في الخلائق نافذ إذ شئت أمرا ليس من كونه بد
جملة ليس صفة لأمر
تضل وتهدى من تشاء من الورى وما بيد الإنسان غي ولا رشد
دعوا معشر الضلال عنا حديثكم فلا خطأ منه يجاب ولا عمد

ونقول بعد : «وما محاسن شيء كله حسن»
ونختم الحديث عن البوصيري بهذه الأبيات التي هي أول برده .

أمن تذكر جيران بلدي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكفها همما وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أحسب الصب أن الحب منكم ما بين منسجم منه ومضطرم

فالمنسجم ما يترقق من الدمع والمضطرم ما في الفؤاد من لواعج .

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ولا أرت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم

فهذان شاهدان ، وكأن العدول في محاكم المسلمين وعند قضاتهم أشبه بمن يسمون الآن
بالموثقين . وأحسب أن «فسر» المؤرخ ذكر أن من ضمن ما أفادته أوربا من الترك
العثمانيين التسامح الديني وضروبا من أعمال الحضارة وفنونها أحسبها ذكر فيها
القوانين ، وإنما هي من الفقه كما لا يخفى . ومكان الأتراك في الحضارة لا ينكر . وإنما
أضر بهم الضعف الذي اعتراهم في القرن الماضي حتى زالت الخلافة وخرج عليها من

خرج وخانها من خان ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وأثبت الوجد خطى عبدة وضنى	مثل البهار على خديك والعنم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى	والحب يعترض اللذات بالألم
بالأثمي في الهوى العذري معذرة	مني إليك ولو أنصفت لم تلم
عدتك حالي لا سرى بمستتر	عن الوشاة ولا دائي بمنحسم
محضتي النصيح لكن لست أسمع	إن المحب عن العذال في صمم
إنى اتهمت نصيح الشيب في عذل	والشيب أبعد في نصيح عن التهم

إذ هو نذير قرب الأجل

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت	من جهلها بنذير الشيب والهرم
انظر إلى انسياب الخروج ههنا	

ولا أعدت من الفعل الجميل قرى	ضيف ألم برأسى غير محتشم
هذا من قصيدة أبي الطيب ضمنه	

لو كنت أعلم أنى ما أوقره	كتمت سرا بدا لي منه بالكتم
وهو مما يصبغ به الشيب ويسوده	

من لي برد جماح من غوايتها	كما يبرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها	إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على	حب الرضاع وإن تطفمه ينظم
وهذا نهج عزيز وذهب إبريز . والبردة كما قال ابن المعتز عن تائبة دعبل ولا موازنة أشهر من الشمس ، ومثلها باهرة .	

فإن فضل رسول الله ليس له	حد فيعرب عنه ناطق بقم
--------------------------	-----------------------

وفى آخرها يقول وقد صدق إذ لم يجد في شعر كما أجاد في مدحه صلى الله عليه وسلم

ومنذ ألزمت أفكارى مدائحـه	وجدته لخلاصى خير ملتزم
ولن يفوت الغنى منه يدا تربت	إن الحيا ينبت الأزهار فى الأكـم
وهذا نفس من المغرب والأندلس	
ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت	يـدا زهير بها أننى على هـرم
يا أكرم الرسل مالى من ألـوذ به	سواك عند حلول الحادث العمـم
يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت	إن الكبائر فى الغفران كاللـم
لعل رحمة ربى حين يقسمهـا	تأتى على حسب العصيان فى القـسم
يا رب واجعل رجائى غير منعكـس	لديك واجعل حسابى غير منخـرم
وقد كان فى عمل الحساب دهر ارحمه الله فعبارة منخـرم من عمل المحاسبين	
واصطلاحهم .	

والطف بعبدك فى الدارين إن له	صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم
وائذن لسحب صلاة منك دائمة	على النبى بمنهل ومنسجم
ما رنحت عذبات البان ريح صبا	وأطرب العيس حادى العيس بالنـغم
والمادحون المترنمون بالبردة جعلوا صلاتها :	

يارب صل وسلم دائما أبدا على حبيبك خير الخلق كلهم

وكسر الهاء والميم مذهب أبى عمرو فى القراءة وفى هذا الحرف وجوه ذكرها ابن جنى كلها فى المحتسب .
والمادحون المترنمون بالبردة يضيفون إلى آخرها :

وهذه بردة المختار قد ختمت يا حسن مبتدأ منها ونختم

فى أبيات يذكرون بها عددها مع طلب المغفرة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورحم الله الإمام أبى عبد الله محمد بن محمد بن سعيد البوصيرى ونفعنا ببيانه وصدقـه وبركته وهذا الشعر الدر النفيس الذى هو من مفاخر العربية وحضارتها وما حفظت وتحفظ به المعجزة إن شاء الله تعالى .

وقد يجلو الحديث في المديح ويود المفيض فيه ألا يغادر من كبار شعرائه أحدا كابن الجنان الأندلسي وابن نباته المصري والشهاب محمود ولم نظفر بخبر ابن أبي الخصال الأندلسي إلا بآخرة . وقد قام بعض فضلاء المغاربة بالتنويه بأمره بدرسه منذ زمان قريب فوفاه بذلك بعض حقه إن شاء الله تعالى في هذا الباب . وقد أورد صاحب المجموعة النبهانية للشهاب محمود أمثلة كثيرة طيبة . ونكتفى هنا بأبيات من همزيته التي جاراها شوقي .

ما أذنته بينها أسماء فنقول ثا و مل منه ثواء
لكنه ذكر الحمى فتقاسمت أحشاه الأشجان والبرحاء
متوقد الزفرات تطفئ وجده إمامة بلوى الحمى لا الماء

وكان شوقيا نظر إلى ههنا في الهمزية المفتوحة التي رثى بها عمر المختار حيث قال :

إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تعب الماء
وبيت الشهاب فيه صناعة حسنة : إمامة - بلوى الحما - لا الماء جعلنا الحمى بألف
للتنبية على الشبه بينها وبين الماء .

أضحى لقفا في الحى ليس يقيمه إلا اللقاء وما هناك لقاء
يهوى الملام لذكرهم وهو الذى يشجيه فهو دواؤه والداء
هذا أخذه من أبي الطيب « أحبه وأحب فيه ملامة » البيت

ويروقه حر الهواجر في السرى نحو الحمى فلهيها أنداء
وإذا جرى ذكر العقيق جرى له دمع حكاه إذ الدموع دماء
وهنا مدخل الخروج إلى المديح لأن العقيق بالمدينة حرسها الله :

يا حبذا وادي العقيق وحبذا بقبا ظلال الدوح والأفياء
ومسارح بين النخيل تأرجت منها بعرف نسيمها الأرجاء
فكأنما في كل أرض بالحمى مغنى غنى أو روضة غناء
لا يرتوي صادى الهوى إلا إذا لحظته منها عينها الزرقاء
العين الزرقاء بالمدينة وهنا تورية بزرقاء اليمامة وبالعين الباصرة كما لاحظ النبهاني رحمه الله في هامشه .

وإذا بدأ باب المصلى بان من تلك القباب أشعة وضياء

ثم يقول :

طوبى لمن أضحى بطيبة داره
دار الهدى والمنزل الرحب الذي
ومقام خير العالمين بأسرهم
هل بالنهار وقد جلا ظلم الدجى
ذو المعجزات الباهرات تميزت
يا قاصدا ما ليس يدرك حصره
فات مدائح القصائد فاقصد
هل يبلغ الشعراء شيئا؟ قد أتت

قوله قد أتت مستأنف وليس بصفة لقوله شيئا فتأمله ، إذ لا يريد أن يصف النبي صلى
الله عليه وسلم بأنه شىء وصفته الأحزاب والشعراء وإنما يريد أن الشعراء لا يبلغون
من شىء فى نعته ، وفى الاستفهام معنى النفى .

الأمر أعظم أن يحاط بكنهه ما ذاك مما تبلغ البلغاء
صلى عليه الله ما سرت الصبا فوق الربا وتلاقت الأنواء

ولكن الشهاب رحمه الله دون الثلاثة الذين ذكرنا فى حاق زين إيقاع المدح النبوي ودون
الوترى وليس له رقة ابن الخطيب ، إلا أنه فصيح العبارة قوى نفس الخطابة وله صناعة
أحيانا محكمة والله تعالى أعلم .

هذا وقد جمعت المجموعة النبهانية كثيرا من جياذ النبويات وهى عمل يدل على توفر
وإتقان وصحبه توفيق من المولى سبحانه وسداد . غير أنه اعتمد سوى ما اشتهر من أمر
البرعي رحمه الله على شعراء الديار الشامية والمصرية والعراق ومن جمع منهم صاحب
النفع والأزهار . وقد صدق إذ ذكر ما معناه أن مديح النبي صلى الله عليه وسلم فى كل
عصر وفى كل قطر من أقطار الإسلام وعصوره وقد نظرت فلم أجد فى المجموعة نونية
كنت لى بها عهد وهى من أولها :

إن لمع البرق من خيف منى جدد الوجد وهاج الحزنا
كلما طرز أثواب الدجى لمعه أحرم عيني الوسنا

ثم يقول :

محمد سيد الكونين سيد من مشى على الأرض من حاف ومتعل
محمد سيد الهادين سيد من جابت به اليد قود الأيتى الذلل

وهذا من نفس البردة والروى والبحر للشقراطيسية .

وكنونية أحمد بن محمد سالم

أتذرى عينه فضض الجمان غراما من تذكره المغاني
مغان بالعقيق إلى المنقى إلى أحد تذكرها شجاني
ومن تذكر منزلتة بسلع إلى الجمان تعاني ما تعاني
فهل عزم بصول على التواني وهل بعد التباعد من تدان
وهل أغدو بكور الطير رحلى على وجناء دوسرة هجان

أى هل أبكر كما يبكر الطير عند وقت بكونه .

تبذ العيس لاحقة كلاها وتطوي اليد مستفة اللبان
ترى بعد الدؤوب كأخدري يمشود أرن على أتمان

فهذا نمط الأوائل كما ترى ثم يقول فى المديح النبوي :

وما ذو لبدين ببطن ترج أبو شبلين مقروح الجنان
كصولتته ، ولا فيح الجوابي تشابه ما لديه من الجفان
ولا بدر التهام إذا تبدي بضاحى البدر ليلة إضحيان
ولا شمس الظهيرة فى دجن تحاكى وجنتيه ولا تداني
ملاحة خده لما رأتها لدى إسرائه حور الجنان
صنعن كما صنعن نسا زليخا لرؤية يوسف البهج الحسان
دنا فى ذلك المسرى دنوا من الرحمن ما يدنوه داني
وذاك القرب تقرب اصطفاء وليس من المسافة والمكان
ثم يقول :

بجاه المصطفى ادعوك يا ذال عطايا والحنان والامتنان

بنقل حركة الهمزة

وجد لي بالهدى وامن بتوب وكفر من ذنوبي ما دهاني
وحطنا واكفنا شر الأعادي جميعا واضربن سور الأمان

وقد علق محمد الحافظ في ما كتب على هذه النونية بقوله: «كلمة سلسلة عذبة الموسيقا
سهلة الألفاظ - تقريرا - واضحة الأفكار ذات انسجام واسترسال في مثل قوله:
بجاء المصطفى ادعوك يا ذا ال - عطايا والحنان والامتنان ١٠ هـ -

وقلت وكان حق هذه الكلمة أن تكون لها صلاة ولعلها لها كأن يقول على طريقة مداح
الشيخ عبدالرحيم البرعي رحمه الله:

عليك صلاة خالقنا وغيث من التسليم يهيم كل آن

وقد تأثر غرب إفريقية بعلم المغرب وشنقيط، ففي بلاد هوسا وسنغال شعر نبوي
فصيح حسن مثل كلمة الشيخ على حرازم الكشناوي:

قطوف رياض الحب للصب دانية وفي قلبه نار من الوجد حامية
زبانية التهام تعتاد دفعه وليس يطيق الصب دفع الزبانية
وماذاك الا من محبة خدلة عروب بخنداة من البيض غانية
بدت لي بدو الشمس في رونق الضحى فما بقيت لي من جبالي باقية
فقلت لها والقلب عاث به الهوى أشامية أم أنت ليلي الحجازية

خفف ياء النسب

فقلت أنا داء القلوب وبرؤها إذا شربت منى كؤوسا سلافية

بالتخفيف أو كئوس سلافية بالإضافة وفي الطبع خطأ كثير وأحسب كئوس سلافية بياء
المتكلم وهاء السكت وإضافة كئوس إلى سلافية بلا تنوين هو الصواب هنا:

ومن لم يمت حيا فذلك لم يعيش بنا عيشة في جنة الحب راضية
فقلت وأعطتني كتابا من الهوى فيا ليتني لم أوت منها كتابيه
قوله فيا ليتني مقول القول المتقدم بأنواع آلام من الهجر ناريه
فولت بآمالي وصرت معذبا

أي ناري بأنواع آلام الهجر، بإضافة نار إلى ياء المتكلم بعدها هاء السكت، ولك أن تجعل الياء نسبية مخففة صفة لآلام وما تقدم أصح وأجود. ثم انتقل من هذا النسيب الوجداني إلى المديح النبوي :

ولم يبق لي إلا شفاععة شافع مقاماته في حضرة الله راقية
دعانا لتوحيد الإله وبره بأوضح آيات من الله بادية
وهذه الأبيات مع كلمات آخر للشيخ حراز وغيره في مجموعة الفيض الجامع في تراجم
أهل السر الجامع لأبي بكر عتيق ابن العالم خضر الكشني التجاني^(١). كشنا الآن في بلاد
دولة نيجيريا في القسم الشمالي. من طريق الإسلام والقران وعلوم الدين والشعر النبوي
فصاحة جمة في سائر بلاد الإسلام. وقد جعل بحر الفصاحة ينحسر عن أكثر
المعاصرين من الجيل المسلم الحديث إلا ما بقى من ذلك عند أهل المحافظة، وعند من
جعلوا يفتنون بأخرة إلى أهمية التمسك بالأصول وألا نتيه وراء السراب، والله برحمته
وعونه وجوده يوفقنا ويهدينا إن شاء إلى الصواب.

لعل هذا الفصل عن الأغراض قد طال شيئا. ولكننا رأينا أن باب المديح النبوي خاصة
كأنه مغفول عنه إلا ما قدمنا ذكره من عمل الدكتور زكي مبارك رحمه الله وعطر ثراه
وجعل الجنة متقلبه ومثواه، فنسأل الله أن يكون لهذا الذي قدمناه نفع وقبول، وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حاشية: مما أخذ على البوصيري قوله :

يا أكرم الخلق مالى من ألؤذبه سواك عند حلول الحادث العمم

كأن آخذه عليه ينكر منه هذا التوسل. ولو فطن لعلم أن الحادث العمم إنما هو موقف
يوم القيامة والغرق في العرق، إذ لا نعلم حادثا عمما سواه وسوى الطوفان على
الحقيقة، والطوفان قد مر. وسياق القصيدة، لذكره زلاته التى يخشى بسببها الهلاك
ويرجو النجاة من سوء عاقبتها بالشفاعة بعد هذا البيت مباشرة، يبين أن مراده
بالحادث العمم يوم القيامة لا حادث سواه وذلك قوله :

يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت إن الكبائر في الغفران كالللمم

وهنا أيضا إشارة إلى آية تنزيل «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من
رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم» فهذا يقوى ما قدمنا من أن

(١) طبع مصر، القاهرة، المطبعة المنيرية سنة ١٣٧٦ هـ

مراده بالحادث العمم يوم القيامة . وفي الحديث ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم هو الملاذ في ذلك اليوم حين يقول كل امرئ نفسى نفسى ، قال تعالى : «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها» فيعتذر كل من ترجي شفاعته إلا من أنزل الله سبحانه وتعالى فيه «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا» - قال المفسرون كما تقدم إن عسى هنا واجبة . (وحتى على تقدير أن عسى احتمالية أو رجائية غير واجبة وذلك ما لا يقول به أحد ولا نقول به . حتى على هذا الوجه البعيد فإن ههنا استثناء من آية النحل «يوم تأتى كل نفس الآية» لأن الله جل شأنه يقول «عسى أن يبعثك» فهذا البعث هو يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ، فاستثناؤه صلى الله عليه وسلم حق حتى على هذا الوجه على ذلك ظاهر والحمد لله . وفي الحديث الصحيح ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم هو الذي يقوم المقام المحمود يوم القيامة وذلك اليوم هو المعنى كما تقدم بالحادث العمم . وإنما أتى الآخذ على البوصيرى ما أخذه من جهة حصر معنى الحادث العمم في معنى النازلة التي تنزل بالمرء ، وهذه تكون كالعامية إن كانت بلاء شمل عددا كبيرا من الناس كما يحدث من الأوبئة والزلازل مثلا . ولكن العمومية هنا نسبية ليست مطلقة . وقد تنزل النازلة بالمرء وحده فيسميها حادثا عاما على سبيل المبالغة . وكل ذلك ليس له مثل معنى عمومية الهول يوم الحساب وهو المراد من البوصيرى هنا ويناسب ما تلا البيت من ذكره الزلة كما يناسب ما بدأ به البردة من شكوى التقصير والندم كقوله :
وما تزودت قبل الموت نافلة ولم أصل سوى فرض ولم أصم

وعزل البيت عما تقدمه وتلاه وحمل معناه على المجاز دون الحقيقة بقصد الطعن على صاحبه وهو يتقرب إلى ربه بتوقير نبيه صلى الله عليه وسلم وتعزيه ، من الخطأ والله هو العليم بالسرائر وما تخفى الصدور وهو الموفق للصواب .

العنصر الرابع وهو نفس الشاعر

مرادنا من قولنا «نفس الشاعر» بفتح النون والفاء هذا الروح الذي يربط بين أول القصيدة وآخرها ، وبين مطالع الأبيات ومقاطعها ، وبين البيت والبيت ، وبين مجموعات الأبيات التي تكون معا في معنى أو دلالة واحدة أو متقاربة ومجموعات الأبيات التي تلى أو تكون قد تقدمت في معنى آخر . وقالوا هذا الشاعر طويل النفس إذا طالت القصيدة وكانت أبياتها وقوافيها تنثال عليه انثيالا . وقولنا «هذا الروح» أردنا به التنبيه على أن أمر نفس الشاعر فيه خفاء ، إذ أمر الروح فيه خفاء . الوزن ، الإيقاع ، القافية ، الأغراض ، الألفاظ ، المعاني ، التشبيه والاستعارة وما

أشبهها، كل أولئك أمور واضحة ولن بمنفصلات عن نفس الشاعر ولا هو بمنفصل عنهم. وليس شيء من خصال الشعر بمنفصل بعضه عن كله، إذ الشعر كل واحد فيما يكون منه قصائد طوالا أو قطعاً قصارا أو غير ذلك. وإنما نعلم إلى تمييز عناصره ومكوناته بعضها عن بعض بقصد الدرس وإمعان النظر، كما ذكرنا من قبل. ومع خفاء أمر نفس الشاعر من حيث إنه روح من حيوية رابطة محركة مؤثرة معبرة معا، قد نقدر على استبانة دلائل منه وعلامات ينبئن عنه. من ذلك مثلاً قول زياد:-

فعد عما مضى إذ لا ارتجاع له وانم الفتود على عيرانة أجد

فهذا ربط به بين ما تلا من نعت الناقة والطريق وما تقدم من نعت الأطلال.
وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

إن كنت كاذبة الذي حدثتني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأجابة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فهذا خروج تخلص به من النسيب إلى ذكر خبر بدر وهزيمة قريش، وفهم الحارث بن هشام مراده فلم يأت بمقدمة من نسيب، ولكنه قال :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسى بأشقر مزبد
وشمت ريح الموت من تلقائهم في مأزق والخيال لم تتبدد
وعلمت أني إن أقاتل واحدا أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي
فصدت عنهم والأجابة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد
وقال كعب بن زهير رضي الله عنه :

أمت سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيات المراسيل

فخرج من النسيب إلى الرحلة.

ثم خرج من الرحلة إلى الاعتذار ومن الاعتذار وإعلان التوبة إلى صريح المدح. وقال أبو الطيب وهو يخرج من النسيب بذلك إلى المدح:-

لقت بدرب القلة الفجر لقية شفت كمدي والصبح فيه قتيل
ويوما كأن الحسن فيه علامة * بعثت بها والشمس منك رسول
وما قبل سيف الدولة أثار عاشق ولا طلبت عند الظلام ذحول

ولكنه يأتي بكل غريبة شروع على استغرابها وتهول
رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا وما علموا أن السهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مـرح من تحتـه وصهيل

فاستعان أبو الطيب بذكر فضل سيف الدولة عليه أنه أتاح له أن يلقي الحبيب بدرب
القلة فجعل ذكر ذلك الفضل سبيلا يخرج به إلى المدح . وهذا من رشيق تخلص أبي
الطيب وأملكه بالعاطفة وحديث القلب . لعل أبا الطيب ما لقي بدرب القلة إلا تذكر
قويا لجمال الحبيب إذ طلعت الشمس في رونق من حسن الفجر كأنه علامة ممن
أحب . وهذا المعنى على براعته وخفائه مولد من قول الأنصاري :

تبدت لنا كالشمس خلف غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

أم لعل أبا الطيب إنما رأى طيفا عند تعريس المسافر؟
واعلم أيها القارئ الكريم أن من علامات نفس الشاعر ودلائله أشياء نذكر منها فيما
يلي إن شاء الله :-

أولا : التسلسل

وهو ضربان ، ما كان في ضوء فكرة واضحة وما جرى به على سياق عادة الشعراء -
ومرادنا بالتسلسل أن يتتابع الكلام تتابع عقد السلسلة ، آخر ما تقدم منه منوط بما
يليه ، فمن أظهر ما يجيء من الضرب الأول ما تكون عليه صياغة كثير من القطع
والقصائد القصار . فمن أمثلة القطع ، قول قيس بن زهير :

تعلم أن خير الناس ميت	على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه لظلت أبكي	عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بـدر	بغى والبغي مرتعه وخيم
أظن الحلم دل على قـومي	وقد يستجمل الرجل الحليم
ومارست الرجال ومارسوني	فمـعـوج علي ومستقيم

وأمر القطع واسع

ومن أمثلة القصائد القصار ، قول تأبط شرا يصف نجاته من هذيل على نحو شبهه
بما نراه اليوم في مغامرات رعاة البقر ، وكان تأبط شرا مما يتزيد في أحاديثه عن نفسه ،

وشيء من ذلك كان لدهاة العرب مذهبا ، يخيفون به الناس - قال :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حول إذا سد منه منخر جاش منخر
أخذ هذه الصورة من اندفاع مسایل الماء في مخارم الجبال ، فإن سد منخر جاش منخر ،
ومن شاء جعله مأخوذا من تجربة الزكام ، وينبغي أن يكون الموصوف هنا منخرا
ضحما ، والوجه الأول أولى وأشبه .

أقول للحيان وقد صفرت لهم وطاي ويومي ضيق الجحر معور
أي وقد هلكت أو كُدت ويومي ضيق ومقاتلي بادية - قال امرؤ القيس :

وأفلتهن علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب
أي قتلناه - قال صاحب القاموس و صفرت وطابه أي مات أو قتل ، وهو الوجه الذي
ينبغي أن يفسر به هذا البيت .

قالوا وكانت مع تأبط شرا أوعية مملوءة عسلا فزعموا أنه قال للحيان إنه يضمن عليهم
بعسله ولهم أن يأسروه فإن شاءوا منوا وإن شاءوا قتلوا ولن يجمع لهم أن يأخذوه
ويأخذوا عسله ، فأراق العسل ، وفسر بعضهم قوله صفرت لهم وطاي أي خلت
وطاي من العسل ووطاب بكسر الواو وطاء مهملة بعدها ألف فباء جمع وطب بفتح
فسكون وهو سقاء يكون فيه اللبن . وهذا وجه في التفسير والأول أجود ، لأنه إنما أراق
العسل بعد أن تظاهر بالاستسلام ويومه ضيق الجحر معور أي ظاهر عورة المقاتل .

هما خطتا إما إसार ومنة وإما دم والقتل بالحر أجدر
أي خطتان ، حذف نون المثني تخفيفا ، وإसार مرفوعة الراء ولك أن تجعل إسارا مضافة
فتكون مجرورة وكذلك منة وعليه فيكون حذف نون «خطتا» من أجل الإضافة والفصل
بين المتضايقين بإما كأنه لا فصل لظهور المعنى .

وأخرى أصادي النفس عنها وإنما لمورد حزم إن فعلت ومصدر

أي وخطة ثلاثة أصدادي نفسي عنها ، أراودها عنها ، وهي أن أريق العسل وانزلق عليه -
فهذا يقوي ما ذهبنا إليه آنفا أن مراده من قوله : وقد صفرت لهم وطابي ، أي كأن قد
صفرت ، كأن قد مت وقتلوني لضيق يومي وقلة ناصري وإعوار مقاتلي

فرشت لها صدري فزل عن الصفا به جؤجؤ عبل ومتن مخصر
هذه هي المغامرة «السينمائية» - وكان الخبر الممتع ينوب مكان ما ننهك فيه الآن من
معانيات الصور والتشخيص والأفلام .

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر
تجسيد الموت هنا وإعطاؤه مشاعر الآدمي وصفاته جد بارع . والخزي إنما كان لبني
لحيان . وكانوا هم من رسل الموت و أسبابه . وصفة البطولة كما ترى في نعت هذا
الجؤجؤ أي الصدر العبل والمتن الضامر وانزلاق هذا الفتى الخفيف انزلاقا ماهرا لم
يكدح الحجر به كدحة .

فأبت إلى فهم ولم أك آتبا وكم مثلها فارقتها وهي تصفر
أي وهي خالية ليس بها من صافر وإنما تصفر بها الريح ، وكأن ههنا سخرية وردا
للكلام على قوله من قبل «وقد صفرت لهم وطابي» - صفر الأولى من باب فرح وهذه
من باب ضرب .
ومن أمثلة التسلسل في القصار من القصائد ، حائية جبيهاء وقد مر خبرها وهي التي
أولها :

امولي بني تيم ألت مؤديا منيحتنا فيما تؤدي المنائح
ثم استمر في وصف المنيحة إلى آخر القصيدة وهي اثنا عشر بيتا .
ورائية الحارث بن وعله الجرمي

فدى لكما رجلي أمي وخالتي غداة الكلاب إذ تحز الدوابر
وهي أحد عشر بيتا . وذلك من القطع قريب فلا تعجب أن يتلثب فيه تسلسل الكلام
على سهولة في ذلك ويسر .
ويائية عبد يغوث أدخل في القصيد إذ هي عشرون بيتا والتسلسل فيها جلي . بدأ
بالنهي عن اللوم أن يلومه أحد حيث أخذ أسيرا :

ألا لا تلوماني كفى اللوم مايبا وما لكما في اللوم خير ولا ليا
ألم تعلم أن الملامة نفعها قليل وما لومي أخي من شمالي

أي ليس اللوم من سجياتي . وما أحسب المخاطبين إلا شيئا واحدا جرده من نفسه
وجعله صاحبين - وقد فسر بشار هذا من مذهب الأوائل كما قدمنا حيث قال :

أيها الساقيان صبا شرابي واسقياني من ريق بيضاء رود

وهذا ما لا يكون إلا على معنى التجريد الذي قدمناه .

ثم خاطب الحارث من حال أسره راكبا أي راكب يبلغ عنه قومه . وبعد أن نهى عن أن
يلام هو ، أنحى باللائمة على قومه إذ أسلموه ، ففسر ما كان من قبل عماه من سبب
نفيه عن الملامة ، إذ لا خير فيها ، إذ يظهر بعد التمحيص خطأ قومه الذين أسلموه لا
خطؤه هو - فتأمل .

فيما راكبا إما عرضت فبلغن أبا كـرب والأيمين كليهما
نداماي من نجران أن لا تلاقيا وقيسا بأعلى حضرموت اليمانيا
جزى الله قومي بالكلاّب ملامة صريحهم والآخرين المواليا
ولو شئت نجتني من الخيل نهدة ترى خلفها الحو الجياد تواليا
وهذا ما صنعه الحارث بن وعله إذ فر

ولكنني أحمي ذمار أبيكم وكان الرماح يختطفن المحاميا
وقد اختطف أسيرا وشد وثاقه :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا لي لسانيا
أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا فإن أخاكم لم يكن من بوائيا

أي أنا أشرف شرفا من أخيكم الذي تريدون قتلي بواء به والبواء في الثأر أن يقتل امرؤ
بمن يساويه . قال ابن الأنباري في شرحه البواء السواء قال أحمد أي لم يكن أخوكم نظيرا
لي فأكون بواء له . - أحمد هو أحمد بن عبيد بن ناصح من شيوخ أبي محمد القاسم بن
بشار الأنباري صاحب الشرح ورواه عنه ابنه أبو بكر محمد بن القاسم رحمهم الله
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيذا وإن تطلقوني تحربوني بهاليا

وكانه أحس إجماعهم على قتله فأخذ في البكاء على نفسه

أحقا عباد الله أن لست سامعا نشيد الرعاء المعزين المتاليا
وتضحك مني شيخنة عبشمية كأن لم تـرى قبلي أسيرا يانـيا
كأنه قال لم ترأ بسكون الرء وهمزة مفتوحة ، وحذف حرف العلة ثم ألقى فتحة الهمزة
على الرء نقلا فصارت تـرى - قال الشارح ويروي كأن لم ترأ قبلي أسيرا . قال الفراء أبقي
من الهمزة خلفا والرواية هي الأولى وقلت وغير ظاهر مراد الفراء إلا على الوجه الذي
قدمناه أولا والله أعلم

وظل نساء الحي حولي ركدا يراودن مني ما تريد نسائيا
من الأنس والمفاكهة ونشيد الشعر

وقد علمت عرسي مليكة أنني أنا الليث معديا علي وعاديا
هذا مساوق لما تقدمه . أي نسائي يعلمن غنائي وبلائي فحديثهن إلى عن إكرام وأما
أنتن فما أنا إلا أسير أسيف مهين بينكن فكيف ترمن مني ما ترومه نسائي . ولعل اسم
عرسه لم يكن مليكة ولكنه جعل هذا اسما لها كناية عن مكانها في قلبه

وقد كنت نحر الجزور ومعمل الـ عطى وأمضى حيث لا حي ماضيا
أراد حيث لا ماضيا وكره الصفة بلا موصوف وهو المذهب الفصيح

وأنحر للشرب الكرام مطيتي وأصدع بين القيتين ردائيا
فنحر امرئ القيس مطيته لعداري دارة جلجل كان على هذا الوجه ، وبعيد أن يتحل
نحو هذا متحل إذ هو منتزع من عرف حي
وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا ليقا بتصرف القنا بنانيا
شمصها أي طعننها وأذاها وطردها كل مطرد

وعادية سوم الجراد وزعتها بكفي وقد أنحوا إلى العواليا
أي رب محاريين منتشرين انتشار الجراد أقبلوا مشرعين إلى الرماح رددتهم بكفي

كأنني لم أركب جـواذا ولم أقل لخيلي كـرى نفسي عن رجاليا
ولم أسبل الزق الروي ولم أقل لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا
وهذان كيبتي امرئ القيس :

كأنّي لم أركب جوادا للذة ولم أسبل الزق الروي ولم أقل
ولم أنبطن كاعبا ذات خلخال لخلي كرى كرة بعد إجفال
قال صاحب عيار الشعر (ص ١٤٦): "هكذا الرواية وهما بيتان حسنان ولو وضع
مصرع كل واحد منهما في موضع الآخر كان أشكل وأدخل في استواء النسيج فكان
يروى:

كأنّي لم أركب جوادا ولم أقل لخلي كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبل الزق الروي للذة ولم أنبطن كاعبا ذات خلخال
وقد بين أبو الطيب المتنبي فساد هذا الرأي، وانتصر للرواية التي رويت عن امرئ
القيس بقول فصل ذكره راوو أخباره في شرح قصيدته
على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
عند قوله

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمي هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
ومن المتوسطات الطول ذوات التسلسل الواضح مع شيء من مراعاة عادة الشعر في
البدء بمعنى نسيبي كلمة تأبط شرا:

ياعيد ما لك من شوق وإيراق ومر طيف على الأهوال طراق

فقد خلص من الطيف وهو يخاطبه إلى ذكر نجائه من بجيلة وذلك حيث قال:

إني إذا خلّة ضنت بنائلها وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقي

ثم خرج من هذا إلى صفة الخلّة التي يؤثرها والصديق الذي يرى أن يعول عليه. ثم
عاد إلى ذكر مآثرة من مآثر نفسه، كما نجا من بجيلة عدوا على بساط الأرض، صعد
مرقبة يرصد من فوقها الأعداء

وقنة كسنان الرمح بارزة ضحيانة في شهور الصيف محراق

وجعل صفة نفسه وليس على قدمه إلا شرثة يرقى البنان بها متصلة بصفة صاحبه الذي
قال في صفته

كالخقف حداه النامون قلت له ذو ثلثين وذو بهم وأرباق

لتلبد شعره وكأنه أطباق رمل ندي لبدها الصاعدون عليها . ومن دقيق براعة اتصال بيان الشاعر ههنا أنه خلاص من صفة رأس صاحبه الكثيف الشعر المتلبد شعره إلى صفة رأس الجبل الذي صعدده وكأن قمته سنان رمع متلهب في حر شمس الصيف وكأن نعمته قزح متفرقات في مقابلة ما تقدم من صفة لبد الشعر الكثيف ثم انتقل من صفة رأس الجبل ورأس صاحبه إلى صفة عدوه وقدميه هو وهذه النعل الخلق الشرثة الشبيهة بنعامة قنة الجبل المحراق الضحيانة -

ثم عاد إلى خطاب صاحبة الطيف وجعلها عذالة خذالة . ومع اتصال الكلام هنا عنصر من تداعي المعاني إذ النعل من ألفاظ تطلق على الزوجة ألغز بها الحريري في إحدى المقامات ويذكر مع ذلك الوطء - فما يخلو أن شبه العذالة الشرسة بالشرثة الخلق - وقد تعلم قول رؤبة من بعد :

ياأوى إلى سفعاء كالثوب الخلق

ومن القصار المتصلات التسلسل نونية المار في النخل :

وكائن من فتى سوء تراه يعلك هجمة سودا وجونا

وقد ذكرناها في باب الصفات وفيها اثنا عشر بيتا

ومن ذوات التسلسل مع توسط دالية عمرو بن معد يكرب الحماسية :

ليس الجمال بمئزر	فما علم وإن رديت بردا
إن الجمال معادان	ومن أقب أورثن مجدا
أعدت للحدثان سا	بغاة وعداء علندي

وفيها خمسة عشر بيتا ، والكلام فيها أخذ بعضه برقاب بعض

نهدا وإذا شطب يقد البيض والأبدان قدا

يعني فرسه وسيفه الصمصامة

وعلمت أني يوم ذاك منازل كعبا ونهدا

ونهد اسم قبيلة هنا رده على نهد الذي هو فرسه ، ثم وصف عدوه بكمال الاستعداد

قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا

فالخلق الدروع والقدر التروس أو كساء يدرع به من جلد

كل امرئ يجري إلى يوم الهياج بما استعدا

ومن عند هذا الموضع صار إلى ذكر صفة القتال ، وكيف أن خوف النساء وأخذهن في

الهرب خشاة السبى لما رأين من تحاذل رجالهن أمام هؤلاء المتنمرين قد أثار حفيظته
لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
وبسدت ليس كأنها بسدر السماء إذا تبسدى
وبسدت محاسنها التي تخفى وكان الأمر جدا
إذ كشفت عن ساقها وهي تعدو، فلما أن تحمى وإما أن تسبى - لما كان ذلك :

ننازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا
إذ لو لم ينازله لأخذ النعجة

هم ينذرون دمي وأنذ ر إن لقيت بأن أشدا
ولا بد في الحرب من مصاب وفجعة وإن تبع ذلك النصر

كم من أخ لي صالح بوأته بيدي لحدا
ويجوز أن يكون المراد ههنا رب من هو صالح أن يكون لى أخا لا كتمال صفات الشجاعة
والنجدة فيه ، اضطرني واجب منازلته أن أقتله فأبوءه بقتليه لحدا - وهذا يشبه سياق
الحديث وقوله من بعد :

ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاي زندا
وقوله ولا يرد بكاي يشعر أن الذي بوأه لحدا أخ له من قومه قتله الأعداء كما قد قتل هو
منهم وهذا هو المعنى الذي قلنا به من قبل :- قوله لا يرد بكاي زندا أي لا يجدي ولا
يحرك شيئا - الزند هو زند الذراع وحركته طبيعية يسيرة لا تتطلب كبير جهد ، فحتى
نحو هذا اليسير لا يصنعه البكاء ، يشير بذلك إلى عدم جدواه
وقصيدة الأحنس بن شهاب :

لابنة حطان بن عوف منازل كما رقت العنوان في الرق كاتب

من سبعة وعشرين بيتا وتبدأ بالنسيب إلا أنه نسيب في طريق الرحلة التي عليها موضوع
القصيدة وهو ذكر الجد والتشمير والفخر بذلك ، وإنما وقف الشاعر على المنازل وهو في
طريق تشميره وجده وإنما هي وقفة ذكرى مشعرة بانصراف عن ذلك الماضي وإقبال
على أمر الرجولة والحزم الذي قد أخذ الآن بأسبابه ، وقفة الأحنس هنا ليست كوقفة
أمرئ القيس في :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

إن هذه وقفة حنين وقلب حزين - قال الأحنس ، والقصيدة مفضلية حماسية ، حذف منها أبو تمام أبيات ديار القبائل وإنما بنى أمره على الاختيار لا على محض الرواية :

لابنة حطان بن عوف منازل كما رقص العنوان في الرق كاتب
هذا أول القصيدة عند المفضل وروى أبو تمام قبله بيتا وجاء به ثانيا هكذا :

فمن يك أمسى في بلاد مقامه يسائل أطلالا بها لا تجاوب
فلابنة حطان بن قيس منازل كما نمق العنوان في الرق كاتب

وكان هذا المطلع ينكر البدء بذكر الطلل ثم يرجع إلى ذلك كصنيع عنتره ، فإن صح هذا الذي نراه ، فلعله مما يكون أبو تمام قد أثر به هذه الرواية ، غير أنه لا ريب أن رواية ما روى عن المفضل أجدر أن يعول عليها

هذا وبعد الوقفة قليلا ، رجع الأحنس إلى مذهب ما أخذ به من الجد والحزم . وإنما وقف لقضاء حق الذكرى وتوديع عهدا ، وداعا كل الوداع :

ظلمت بها أعرى وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بخير صالب

وهذا من جيد أوصاف الحمى ، وكان الأستاذ التجاني الماحي رحمه الله مما ينشد هذا البيت ويقرنه بقول عبدة بن الطبيب

رس كرس أخي الحمى إذا غبرت يوما تأوبه منها عقابيل

ويقول إن ذلك من أدق ما وصفت به حمى الورد وهي التي يقال لها الآن الملاريا ويقرن بذلك أبيات المتنبي من قصيدته الميمية المشهورة

وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام

ومما يحسن أن نستطرد به هنا ما عيب به قوله :

إذا ما فارقتني غسلتني كأننا عاكفان على حرام

إذ الغسل واجب على كل حال . ومقال أبي الطبيب جيد محكم لأنه جعلها زائرة في الظلام ، فلا يكون وصلها إلا حراما

ثم يقول الأحنس وهذا البيت متقدم في رواية ما اختاره حبيب :

تظل بها ربد النعام كأنها إماء تزجي بالعشي حواطب
والنعامة هوجاء ، فعدل عن تشبيه النعام بإماء صاحبه في الزمان الذي تصرم إلى صفة
ناقته الهوجاء وصفة ما كان عليه من أمر الصرامة والحزم :
خليلاي هوجاء النجاء شملة وذو شطب لا يجتويه المصاحب
وقد عشت دهرًا والغواة صحابتي أولئك خلصاني الذين أصحاب
رفيقا لمن أعيًا وقلد حبله وحاذر جراه الصديق الأقارب

فهذا زمان صعلكته وشراسته ، ثم لما انجلت عنه عماية الشباب أقبل على ما أقبل عليه
فأدبت عني ما استعرت من الصبا وللحال عندي الآن راع وكاسب
ثم أخذ في تعداد ديار القبائل ، ليخلص من ذلك إلى ذكر قومه أنهم بارض صحصح
لا يحميها حجاز جبال أو سيف بحر - وذلك قوله بعد تسعة أبيات هي مرجع في معرفة
كثير من حال مواضع القبائل على زمان الجاهلية :

ونحن أناس لا حجاز بأرضنا مع الغيث ما تلقى ومن هو غالب
ثم اخذ في باب الفخر بقومه ومنعتهم . ولا شك أن القصيدة أبياتها متصلة وأن المقدمة
النسيية ملتحمة بها بعدها أشد التحام .
هذا ومن المتوسطات في موضوع واحد متصلة أجزاءه كلمة السموءل :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتدي به جميل
وفيها اثنان وعشرون بيتا وهي مشهورة والنفس الاسرائيلي فيها قوى - من ذلك قوله :
وإننا لقوم ما نرى القتل سبه إذا مارأته عامر وسلول
فهذا كأنه يطعن به في العرب .

وقوله :
وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول
وهذا مما يفعلونه

وقوله : تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

ومن هذا الضرب المتوسط نونية العدواني إن لم نعد نسيها
ومن ذوات التسلسل مع الطول عينية متم وهي من مشهور الشعر وقد استشهدنا
منها بابيات عدد والشعر الجيد مما يعذب على التكرار . والقصيدة كلها متسلسلة
الآيات في ضوء فكرة واحدة هي الفجيجة بأخيه مالك . وفيها واحد وخسون بيتا . من
البيت الأول إلى العاشر عدد متم فضائل أخيه . أول ما بدأ به أنه كما قال :

لعمري وما دهري بتأين هالك ولا جنز مما أصاب فأوجعا
فنفى أن يكون مراده محض التأين أو أنه جنز مع أن المصاب موجه ، ولكن الفقيد قد
كان امراً ذا فضائل يعظم فقده من أجل فقد نظيرهن عند غيره من بعده .
لقد كفن المنهال تحت رداثة فتى غير مبطان العشيات أروعا
وقد عجل إلى ذكر المنهال لينوه بفضيلة ما اسدى من يد الوفاء حيث كفن مالكا ولم
يخش أن يؤخذ عليه ما أبدى من المروءة . ثم أخذ متم أولا في تعداد الجانب السلبي
من مآثر أخيه - فتى غير مبطان - ولا برما وقابل ذلك بجانبه الإيجابي وما يناقضه عند
غيره - لييبا خصيبا - يهتز للندى

ويوما اذا ما كظك الخصم إن يكن نصيرك منهم لا تكن أنت أضيعا
وإن تلقه في الشرب لا تلق فاحشا على الكأس ذا قاذورة متزبعا
ذو القاذورة هو الذي يترفع عن الناس والمتزيع البخيل السيء الخلق وقالوا ذو القاذورة
المتزيع هو الذي فيه فحش وسوء خلق

وإن ضرس الغزو الرجال رأيت أخا الحرب صدقا في اللقاء سميذا
وما كان وقافا اذا الخيل اجحمت ولا طائشا عند اللقاء مدفعا
ولا بكهام بزة عن عدوه إذا هو لاقى حاسرا أو مدرعا
أجحمت بتقديم الجيم أي جبت . بزه سلاحه . كهام ، كليل غير قاطع ، مثل هذا
خليق أن تبكيه البواكي وذلك لانه سيحس فقده ، زمان الشتاء وعند اجتماع الشرب
وفي ساحة الحرب وإذا طرق الضيف وإذا عز فداء الأسير ولالأرامل والأيتام وعندما
يدعى إلى الميسر

إذا جرد القوم القداح واوقدت لهم نار ايسار كفى من تضيعة

أي أتم العدد واحتمل ما يكون في ذلك من خسارة وغرم

وان شهد الأيسار لم يلف مالك على الفـرث يحمي اللحم أن يتمزعا
وعـل شيئا من ذلك كان يصنعه كثير ممن يشهدون الميسر من أهل البخل أو الحرص .
واذ هكذا سيحس فقد مالك فلماذا يصبر هو - أليس مثل هذا الفـقيد مما تنفطر معه
الأفئدة ويستعذب الجزع ؟
ثم أليس هو بأولى الناس ألا يصبر على فقده من بعده ؟

أبي الصبر آيات أراها وأنتي أرى كل جبل بعد جبلك اقطعا
وأنتى متى ما أدع باسمك لا تجب وكنت جديرا أن تحجب وتسمعا
أخذ من عند البيت السابع عشر الى الثاني والعشرين في حديث فجعه هو خاصة :
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا

ههنا نفس " أبنى " يروم سبيل الحكمة والعزاء

فلما نفرقنا كأني ومالكنا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
وكننا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فإن تكن الأيام فـرقن بيننا فقد بان محمودا أخي حين ودعا
شبه حالهما بندمانى جذيمة لأن هذا كان ملكا وأصاب نديميه بنزوة غضب من نزوات
الملوك . فشبه متمم أمرخالد بذلك . ثم تأمل أيها القاريء الكريم أنه في الأبيات
المتقدمات تناول أمر المصاب من جوانبه التي تعم العشيرة ، ثم جعل يخصص حتى
صار إلى نفسه وما فجع به من فراقه بعد طول المودة والاجتماع . ثم بعد أن استوثق من
أنه قد قرر عندك فضائل مالك وعظيم فقده قرن ذلك بتصريح موجز جمع فيه بين
الحزن والاعتزاز .

فقد بان محمودا أخي حين ودعا

هو أخي وهو محمود - نعم إنه قد بان وقد فارق وفارقناه - وانفـرط عقد البكاء :
أقول وقد طار السنا في ربابه وغيث يسح الماء حتى تريعا
بكى الشاعر واسترجع بعد الزفرات ثم جعل يحبى أخاه بتحية الوداع وهي السقيا تعم
البلاد وتخص المكان القفر الموحش الذي هو تربته
سقى الله أرضا حلها قبر مالك ذهاب الغواصي المدجنات فأمرعا

ثم يقول

فوالله ما أسقي البلاد لحبها ولكنني أسقي الحبيب المودعا
تحيته مني وإن كان نائيا وأمسى ترابا فوقه الأرض بقلعا

ولو كانت القصيدة انتهت وهنا لكان في ذلك بلاغ بليغ، ولكن الشعر ربما انبثق من الشعور دفعات .

وقد بلغ الشاعر بفكرة الأسى على مالك من حيث فقد الرجل العظيم الذي كانه مبلغ ما صار به إلى أن يحزن عليه ويعتز بذكراه .

ولكن بقي بعد ذلك ما يعقب الحزن والاعتزاز من عواقب الفقد التي تعظم بها الفجيعة، فقدان النصير، وتضعف الجاه والوجاهة وانجراح الفؤاد أمام توالي النوائب، ولقاء الشimate والتجلد للأعداء والحساد، وتعذر الثأر والقصاص وهلم جرا

تقول ابنة العمري مالك بعد ما أراك حديثا ناعم البال أفرعا
فقلت لها طول الأسى إذ سألتني ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا
وفقد بني أم تداعوا فلم أكن خلافتهم أن أستكين وأضرعا
ولكنني أمضى على ذاك مقديما إذا بعض من يلقي الحروب تكعكعا
هنا كرر ما قدمه في أول بيت حيث قال :

..... ولا جزع مما أصاب فأوجعا

ولكنه هناك أجمل وهنا أخذ في نوع من التفصيل - ثم زاد تفصيلا يوضح ما أجمله في جواب صاحبه حيث قال لها :

فقلت لها طول الأسى إذ سألتني

وكان قد توهمها تسأله عن طول الأسى هذا أن يزيدا فيه بيانا فقال :

وغيرني ما غال قيسا ومالكا وعمرا وجزءا بالمشقر المعيا
وما غال ندماني يزيد وليتني تمليته بالأهل والمال أجمعا
فذكر كما ترى فجائع مرت به قبل مقتل مالك، فكان مقتله مما نكأ قرحها وجدد الحزن وزادت به حال الضعف وتضعف منزلة الحي .

وإني وإن هازلتنى قد أصابني من البث ما يبكي الحزين المفجعا
ولست إذا ما الدهر أحدث نكبة ورزءا بزوار القرائب أخضعا
في هذا البيت السادس والثلاثين أدخل الشاعر عنصرا جديدا زاد به في تتابع تسلسل فكرة الفجيعة - وهو هؤلاء القرائب الذين أفادوا منزلة وجاها بعد هلاك مالك . ولن

يقترّب هو منهم أو يبدى خضوعاً لهم - ويلتفت في سياق هذا الحديث إلى امرأته مرة أخرى :

قعيدك ألا تسمعينى ملامة ولاتنكني قرح الفؤاد فيجعا
ثم كأنه يعتذر عن بعض التقصير إذ يقول من بعد :
فقصرك إني قد شهدت فلم أجد بكفي عنهم للمنية مدفعا
إنما هو القدر ودول الأيام

ومما ينبه عليه ذكر متمم ابنة العمرى وحديثه إليها والكلمة مرثية كما ترى . والحق أن ذكر النساء في باب الرثاء ليس بشاذ وإن يك الاستهلال به على المألوف من مذهب ظاهر حنين النسب نادراً كقول دريد :

أرث جديد الحبل من أم معبد
وقد تعلم أن النساء كن هن النائحات ، فقد يخاطبن في أول الرثاء بهذا المعنى كقول كعب بن مالك في رثاء سيد الشهداء :

صفية قومي ولا تعجزى وبكى النساء على حمزة
وقد يذكر الشاعر النوائح للإخبار بإدراك الثأر كقول الربيع بن زياد

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
يحمد النساء سوافراً يكيّنه يلطمن أوجههن بالأسحار
وقد يذكر الشاعر النساء لينبه على أن الفجعة قد صرمت عهدهن وأبدلته بطلب أنسهن حزناً وبكاء - وإلى هذا المعنى أو قريب منه ذهب الذي رثى قتلى بدر فقال :
ألمت بالتحية أم بكر فحيوا أم بكر بالسلام
ألا يا أم بكر لا تكري على الكأس بعد أخى هشام
وقال الحماسي :

أربع مهلاً بعض هذا وأجلى ففى اليأس ناه والعزاء جميل
ورابعة هذه امرأته وأم ابنه الذي مات وجعلها هي الجازعة ثم أقر من بعد بجزعه هو أيضاً

فإن الذي تبكين قد حال دونه تراب وزوراء المقام دحول
نحاه للحد زبرقان وحارث وفي الأرض للأقوام قبلك غول
وأي فتى واروه ثم أقبلت أكفهم تحشى الثرى وتهيل

وظلت بي الأرض الفضواء كأنها تصعد بي أركانها وتجول
فهذا شاهد بالجزع ، وقريب في الدلالة من قول المرقش :

صحبا قلبه عنها على أن ذكره إذا خطرت دارت به الأرض قائما
وما أجود قول امرئ القيس في تائيته : " غشيت ديار الحي بالبكرات " حيث قال :

ظللت ردائي فوق رأسي قاعدا أعد الحصى ما تنقضى حسراتي
وقال ابن قيس الرقيات وذكر النوائح :

تبكى لهم أسماء معولة وتقول سلمى وافجيعتيه
وقال الهذلي :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وهذا في كلمة رثاء والمعنى قريب مما ذهب إليه متمم بن نويرة وهو سابق له لأن أبيات
هذا الرثاء قيلت بعد حنين وقبل زمان الردة .
وقد جعل الشنفرى مكان خطاب أم مالك وابنة العمرى وما أشبه خطابه للضبيع حيث
قال :

لا تقبروني إن قبـري محـرم عليكـم ولكن أبشـرى أم عامـر
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى ثم سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرفى سجيـس الـيـالي مـبـسـلا بالـجـرائـر
هذا .

ثم إن متمم يعود فيقرر أنه متجلد ويتبع ذلك معاني من الحزن وجراح الفؤاد
فلا فرحا إن كنت يوما بغبطة ولا جزعا مما أصاب فأوجعا
أما قوله " ولا جزعا مما أصاب فأوجعا " فقد مر من قبل ودلالته معلومة ولكن ما مراده
من قوله « فلا فرحا إن كنت يوما بغبطة » - أين مكان الغبطة هنا ؟ أترأه يرد مقالته هذه
على ما كان قال من قبل :

أراك حديثا ناعم البال أفرعا

وذلك في زمان مضى قبل عهد الفجائع ؟

لا ريب أن هذا الكلام مردود على قوله :

... بزوار القرائب أخضعا

هؤلاء القرائب هم الذين بغبطة هذا اليوم، هم الفرحون . وهم لعل منهم الشامت - هذا مما يجدد الحزن ، وانصرف متمم إلى وصف أحزانه ، وجاء بهذا التشبيه :

وما وجد اظآر ثلاث روائم أصبن مجرا من حوار ومصرعا
والحوار هو الصغير من الإبل ، وروائم جمع رائمة ومنه قولنا أم رءوم أي ترأم ولدها أي
ترحمه وتحنو عليه يصف نوقا ثلاثا أصبن صغيرهن قد ذبح وجر
يذكرن ذا البث الحزين بيثه إذا حنت الأولى سجعن لها معا
إذا شارف منهن قامت فرجعت حينما فابكى شجوها البرك أجمعا
بأوجد منى يوم قام بهالك مناد بصير بالفراق فأسمعا
التشبيه مألوف ، كثير في المراثى ومعاني الأسى والحنين - قالت الخنساء

وما عجزول على بوّ تطيف به لها حينئذ إن إعلان وإسرار
ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار
يوما بأوجد منى حين فارقتني صخر وللدهر إحلاء وإمرار
وقد جعلت الخنساء المشبه به ذات البو، فشبّهت حال حزنها على بوها بحال حزنها هي
على صخر.

وفائدة مثل هذا النوع من التشبيه أنه يحمل مع معنى الحزن معنى العزاء لأن
الحزين لا يفتن إلى صورة حزين آخر فيوازن نفسه به إلا وقد ابتعد هو بنفسه عن
ملاسة الحزن كل الملاسة بحيث يقدر أن يتأمله من مسافة بعده ثم يصفه . ومن أجل
ذلك لم يلزم في مثل هذا الضرب من التشبيه أن يكون مبتكرا ولكن أن يكون مألوفاً، إذ
الإلف يجري مجرى التذكير والعظة .

ومع التعزي يكون شيء من التسلي ويؤوب الجلد ويفطن المرء لما حوله مما كان
شغله عنه وجع الحزن وذ هول الجزع -

بأوجد منى يوم قام بهالك مناد بصير بالفراق فأسمعا
تأمل لفظ «بصير» الذي وصف به المنادي وهو السميع المسمع . ثم مع هذا المنادي
القادم بمعنى مالك وهو يعلم مرارة وقع الفجيعة على من ستقع به ، أخبار أخرى مما
يسوء - هي أخبار هذا المحل - قالوا هو رجل مر بهالك قتيلاً فلم يواره وقالوا أعطي

المحل سلب مالك ففرح به وأقبل راجعا . ولعل الذي جاء بمنعي مالك ورفع صوته به
وخبر بمقتله هو هذا المحل ، يدل على ذلك قول متمم

بمشمته إذ صادف الحتف مالكا ومشهده ما قد رأى ثم ضيعا
أثرت هدمها باليا وسوية وجئت بها تعدو بريدا مقزعا
فهذا الرجل قد حضر مقتل مالك وأظهر شأته وأخذ سلبه ثم جاء كأنه صاحب
البريد يحمل أخبار الشؤم والمساءة

فلا تفرحن يوما بنفسك إنني أرى الموت وقاعا على من تشجعا
واجعل هذا الشامت الذي جاء به قبيل آخر القصيدة بمنزلة مقابلة للمنهال الذي
بادر بذكره بعد أول بيت - وشتان ما بين الرجلين
لعلك يوما أن تلم ملمة عليك من اللاتي يدعنك أجدعا
هذا كالدعاء عليه

نعت امرأ لو كان لحمك عنده لأواه مجموعا له أو ممزعا
وهذا كالشتم

فلا يهنيء الواشين مقتل مالك فقد آب شانيه إيابا فودعا
أي أما شانيه فقد آب وأما هو فقد ودع ، وهذه خاتمة مشعرة بالحسرة والتجلد للأيام
معا . وحسبنا هذا القدر في التمثيل للتسلسل المطرد في ضوء فكرة واحدة . وكثير مثله
مما يرد في قصائد الوصايا والحكم
هذا والضرب الثاني من ضروب التسلسل مما جرى به على سياق عادة الشعراء من
أجود أمثلته بائية علقمة

طحاك قلب في الحسان طروب

وهذا الضرب والذي قبله قد يتداخلان كما قد تدخل فيهما ضروب كثيرة مما سنذكر من
بعد وما قد لا يتسع المجال لذكره . ولن نفتأ نكرر للقارئ الكريم ما قدمناه من أن
الشعر كل واحد جميع وإنما نجزئه من أجل الدرس .
وقد جعلنا بائية الأخنس وقافية تأبط شرا من الضرب الأول ، لأن البداية النسيبية الإلماع
فيها غير خارجة حقا عن حيز التسلسل الذي بعدها وإنما هي إلماع وإيهام ليس غير ،
فوجب حمل الأقل على الأكثر ، وهو الفكرة المنتظمة لسائر بيان الشاعر .

ومكان مراعاة عادة الشعراء في بائية علقمة أنه بناها على نسيب ورحلة وخلوص إلى الممدوح ، وهو الذي سماه ابن رشيق المبدأ والخروج والنهاية . ومكان التسلسل أنه جعل الأبيات آخذاً بعضها برقاب بعض في حيز كل من هذه الأقسام الثلاثة ثم ربط بين أطراف ذلك وأوساطه ربطاً محكماً . فجاء الكلام كلا واحداً تام الصياغة والترتيب ، في القصيدة سبعة وثلاثون بيتاً ، وهذا فوق التوسط وأقرب إلى الطول إذ ذات الأربعين بيتاً مما تعد طويلة .

الأبيات العشرة الأولى في النسيب . والمطلع مشعر بأنفاس من غرض الشاعر . وقد كنا تعرضنا لبسط في هذا المعنى من قبل . وقد تصرمت فيما بيننا وعهود الشعراء الأقدمين مئات من السنين . وقد اختلفت حال الناس بعد الإسلام عما كانت عليه قبل الإسلام اختلافاً كبيراً . وعلى أيام الفتنة عما كانت عليه قبلها . وفي زمن معاوية عما كانت عليه أيام الراشدين . وفي زمان مروانية عما كانت عليه من قبل . وهكذا إلى يومنا هذا . ولقد كان القدماء من جاهليين وإسلاميين إلى قريب من زمان أبي الطيب إذا افتتح الشاعر كلامه أحسوا بأنفاس غرضه ووجهة سبيل مقاصده . ولقد كانوا في الجاهلية لطول إلفهم الشعر يعرفون ما لكل مطلع من دلالة ، وما لكل نسيب من مكنونات الرمز . ونحن إذ نحاول فهم مقالهم في هذا الصدد نستعين بالحدس والترجيح فينبغي التسليم بأن القدماء كانوا يعلمون كثيراً مما لعله قد أغلق عن علمنا بابه ، فيجب علينا من أجل ذلك أن نتواضع . قوله :

طحا بك قلب في الحسان طروب . بعيد الشباب عصر حان مشيب

مشعر بأن قلبه يكلفه أمراً ذا بعد ومشقة ، وكذلك ما كان هو قد عزم عليه من الوفاة في قصة أخيه شأس قد كان أمراً ذا بعد ومشقة . وقد خلع من تهيبه لقاء ملك غسان بعض الوصف على محبوبته

محجبة ما يستطاع كلامها . على بابها من أن تزار رقيب

ولعل القارئ الكريم يذكر وقفنا من قبل عند قول مزرد بن ضرار أخى الشياخ :

صحا القلب عن سلمى ومل العواذل

أنه منبىء عن بعض أمره .

وقول زهير :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لايسلو
فيه إشعار بتقدم سنه وأنه رجل جد وذلك ابتداء حسن في معرض الصلح بعد حرب
داحس .
وقوله :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

فيه أيضا الإشعار بالجد . وأي جد ، إذ المدح كان مجال التزيد والكذب ، وقد عرف
زهير بالصدق فيه وبالحكمة - فكأنه بمثل هذا المطلع يقرع الأسباع أن تصيخ لما سيقول
مما ليس من سبيل الباطل ولا منحاه - قال الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء بعد
أن أورد الأبيات الثلاثة التي تلى هذا البيت

وأقصرت عما تعلمين وسددت على سوى قصد السبيل معادله
وقال العذارى إنها أنت عمنا وكان الشباب كالخليط نزائله
فأصبحن ما يعرفن إلا خليقتي وإلا سواد الرأس والشيب شامله

«فهو هنا يفسر إعراضه عن اللذة وإقصاره عن اللهو وإقباله على الجد» .

وقال بشامة بن الغدير وهو خال زهير وأستاذه الذي علمه الشعر
هجرت أمامة هجرا طويلا وحملك النأي عبثا ثقيلا
وحملت منها على نايا خيالا يوافي ونيلا قليلا

فأشعر بأمر لا يخلو مما يكره .

قال المسيب بن علس :

أرحلت من سلمى بغير متاع قبل العطاس ورعتها بوداع

قبل العطاس أي بخلص قبل أن تستين العواطس وهي ما يراه المرء مما يكره فيتشاءم
به

من غير مقلية وإن حبأها ليست بأرمام ولا أقطاع

فدل بهذا المطلع أن رحيله من أجل حاجة يلتمسها ، مكسب من مال أو جاه .
والمسيب خال الأعشى ومنه تعلم صنعة التكسب بالشعر .
ثم يقول علقمة يثنى على هذه التي طحا قلبه إليها طربا بعد أن شاب لداته :-

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضى إياب البعل حين يؤوب
وهذا أخذه الشنفرى حيث قال :

إذا هو أمسى أب قرة عينه مثاب السعيد لم يسأل أين ظلت
وقد فصل ما أجمله علقمة - ثم يقول علقمة

فلا تعدلى بينى وبين مغمر سقتك روايا المزن حين تصوب
الدعاء لها بالسقيا مشعر بالبعد . وقوله فلا تعدلى ، فيه رجعة إلى معنى طربه عصر
حان مشيب ، فإن يكن الشباب قد فات ، فقد فاتت معه عجلته وطيشه وقلة تجاربه ،
فلا ينبغي أن يخدعها منظر من هو أشب منه ولكنه مغمر لا تجربة عنده يكون معها
صلاحها وإسعادها . وفي مثل هذا التقرب نوع من كناية - كأنه يخاطب الملك ويقول له
إن يكن أخي قد حاربك فهو غرٌّ غير مجرب ، وهأنذا أشفع بتجربتي ومدحجي فيه
عندك - وكرر السقيا إمعانا في التقرب والتحبب

سقاك يمان ذو حبي وعارض تروح به جنح العشى جنوب
ومع ذلك البعد -

وما أنت أم ما ذكرها ربعية يخط لها من ثمرمداء قليب
فهذا أول انصرافة عن ليل التي شط وليها وعدت عنها العوادي . ليست هي من قومك
الأدنين ولن تراها حتى تموت ، هذا على معنى أن القليب هو القبر . وأظهر من ذلك أن
ثمرمداء هذه مكان ناء وأنها مقيمة به عند قليب تشرب منه . وكان العرب أهل آبار ،
لولاها لهلكوا . ثم أتبع هذه الانصرافة عنها لبعدها وعداوة قومها أو بعد علاقتهم وأنها
في حجاب ورقيب ، انصرافة عن النساء عامة ، ورجوعا إلى ما ينبغي لمثل من هو في
سنه من اتباع الرشاد :

فإن تسألوني بالنساء فإنني بصير بأدواء النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس لـه في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه وشرح الشباب عندهن عجيب

وقد أعلمنا من قبل أن شبابه قد ولى وأنه حان عصر مشييه ، وأنبا هنا من جانب إشارة خفية أن لا مال عنده - فعلام التصابي؟
فدعها

إلى ها هنا ينتهي النسب ، وقد فتح به مجال القول بها ضمنه فيه من كناية وإيحاء ، - ولكن ماذا يصنع وقد أقلفه قلبه الطروب بها أقلى ، فلا بد عند الانصراف من وجه ينصرف إليه ويقبل على الانصراف إليه قلبه .

فدعها وسل الهم عنك بجسرة كهملك فيها بالرداف خبيب
إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي لكلكلها والقصرين وجيب

جاء في هذين البيتين بالرحلة ووسيلتها وهي راحلته التي معناها متضمن بعض معاني نفسه وهمه - يدلك على ذلك قوله :
كهملك فيها بالرداف خبيب

ولم يكن معه عليها رديف على الأرجح ، ولكن ظاهر المعنى المبالغة ، أي هي تقوى على الخبب بالردف ، ثم إذ هي كهو وكهمه فكأنه ردف لها - فعلى هذا الرداف بها قوة بلا ريب .

ومع الرحلة ووسيلتها جاء فيهما أيضا بالغرض الذي من أجله ارتحل . وتأمل قوة صلة قوله : «أعملت ناقتي» مع قوله : «فيها بالرداف خبيب» والخبيب اعتماها ، ومع قوله «كهملك» وقوله «أعملت ناقتي» كالتفسير لهذا اللفظ الموجز .

ثم هو هنا قد خلص من مقدمة نسييه ذات الطرب والكناية والسقيا والفكاهة والأسى والحكمة - كل أولئك معا - إلى هذا البيان الصريح الواضح الشافي الذي هتك به أستار ما كان قدمه قبل من خوف وتهيب عند قوله :

محجة ما يستطاع كلامها على بابها من أن تزار رقيب

لا ريب أن مثل هذه المواجهة المبينة قد قرعت سمع الحارث الملك أيها قرع .
بعد هذه المواجهة رجع علقمة إلى الناقة التي زعم أنه أعملها ، وفي هذا استئناف للتهيب ، واعتذار للملك بإيجاب بعض الحق عليه إذ يذكر ما لقيه وما لقيته راحلته من مشقة . ولعلمه أنه امرؤ ناء من بلد ناء ووافد من قبل دار خصوم حاربوا الحارث وانتصر عليهم متشفعا في أمر أخيه الذي كان مع عدوه ملك الحيرة وقد أسر - لعلمه جميع هذا احتاج إلى تقرير لإيجاب الحق بقصد الملك والمشقة التي تكلفها بعد تقرير ، ليؤكد مراده تأكيداً لا يدع عند الملك موضعاً لأدنى شك في صدق نيته إذ عقد العزم على قصده :

إليك أبيت اللعن كان وجيفها بمشتبهات هولهن مهيب
كما أنت مهيب

هداني إليك الفرقدان ولا حب له فوق أصواء المتان علوب
بها جيف الحسرى فأما عظامها فييض وأما جلدها فصليب

تأمل هذه الوحشة والمناظر المفزعة والضياح بين الأماريت

تراد على دمن الحياض فإن تعف فإن المندى رحلة فركوب

ويروى ترادى أي تدارى وهي رواية كتاب سيبويه استشهد به في باب حتى قال
«لم يجعل ركوبه الآن ورحلته فيما مضى ، ولم يجعل الدخول الآن وسيره فيما مضى ،
ولكن الآخر متصل بالأول ، ولم يقع واحد دون الآخر.» - قوله السير والدخول يشير به
إلى اتصال السير بالدخول في نحو سرت فأدخلها . والمندى مصدر ميمي وهو التنذية
وذلك أن تشرب الإبل قليلا ثم ترعى قليلا ثم ترد فتشرب . يقول إنها تراد على المياه
المتغيرة ذات الدمن من بقايا الحياض فإن عافت فليس لها بعد ذلك مرعى ولا شراب
ولكن الركوب والسير.

ومن تأمل هنا أحس كأن ها هنا نوعا من كناية ، جعل فيه الشاعر راحلته رمزا
رمز به لنفسه ، أنه حمل نفسه على أن يرد هذا المورد ، فإن عافه فلا يجد شيئا . والعرب
تسمي الحقد والضغينة دمنة . وتحدث عن حياض المنايا - وفي شعر منسوب إلى أمير
المؤمنين علي كرم الله وجهه وقيل هو مما صح له :

حياض المنايا تقطر الموت والدماء

وقال كعب بن زهير:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل
فقوله « دمن الحياض » مع الدلالة الظاهرة على الماء وبقايا الروث في الخوض فيه
معنى ما كان من حرب وعداوة وأحقاد وضغائن تركها ذلك وهو قد أقدم ليشرب من
أسارها موقنا أنه إن لم يفعل فليس بعد ذلك إلا الهلاك .

فلا تحرمني نائلا عن جنابة فإني امرؤ وسط القباب غريب

ثم ليس هو غريبا فقط ولكنه شاعر يعرف كيف يمدح ويفضل سيذا على سيد :

وأنت امرؤ أفضت إليك أمانتي وقبلك ربتي فضعت ربوب

أي أنت الآن سيدي . وكان لي سادة قبلك فأضاعوني .

وقبلك ربي قوم ملكا فأضاعوه وغودر قتيلًا في بعض الجنود. وربتك بنو كعب
ابن عوف فقد نصروك وانتصروا بك .

فأدت بنو كعب بن عوف ربيها وغودر في بعض الجنود ربيب
قدمنا تفسير هذا البيت من أجل التنبيه على جانب اللعب اللفظي ، حيث صار
الشاعر من بعد ذكره " ربتني " بمعنى كانت لي أربابا وسادتني إلى ذكره الربيب المشتق
من ريب وربى التي للتربية لا للربوبية والسيادة .

ولا يخفى أن هذا داخل في تسلسل كلام الشاعر واتصال أواخره بأوائل ما يليهن
- ثم في ذكر الشاعر بني كعب بن عوف التفاتة ذات أهمية بالغة ، إذ عسى بذلك أن
يكونوا عونًا له في الأمر الذي قدم من أجله أو على أقل تقدير، أن يأمن جانبهم فلا
يحذروا الملك منه أو يضعفوا من شأنه عنده .

وأخذ في المدح وصفة الحرب ، فأبدع مع الإيجاز، إبداعًا عزيز النظر - وذلك
قوله :

فوالله لولا فارس الجون منهم لأبوا خزايا والإياب حبيب
فارس الجون هو الحارث - خصه بعد أن مدح قومه وجنده وفضله عليهم ، وذلك
ما ينبغي في مثل ذلك المقام ، ثم لم ينس قومه أن يمدحهم بأنهم لم ينهزموا من جبن
ولكن قد صدمهم فارس الجون ، ولولا لا انتصروا وأب خصومهم خزايا يحمدون النجاة
إن وجدوا سبيلها .

تقدمه حتى تغيب حجوله وأنت لييض الدارعين ضروب
مظاهر سربالي حديد عليها عقيلا سيوف مخذم ورسوب
فقاتلتهم حتى اتقوك بكبشهم وقد حان من شمس النهار غروب

فدل على أن القتال استمر النهار كله وما فضه إلا إقدام الحارث وانبراء ملك
الحيرة له فقتله قبيل الغروب ، فكانت الهزيمة وذلك كان يوم عين أباغ - وبعد أن صور
هذه الصورة الباهرة للحارث ، أتم صفة القتال بتصوير ساحته كلها وما كان فيها من
عراك :

تحشخش أبدان الحديد عليهم كما خشخت ييس الحصاد جنوب
وقاتل من غسان أهل حفاظها وهنب وقاس جالدت وشبيب

قالوا إن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تمثلت بهذا البيت لما رأت مجتلد القوم حولها يوم الجمل ، ولله ما كان أعظم تلك من فتنة . ولا ريب أن الذين ثبتوا حول الجمل صنعوا ذلك لعلمهم أن صاحبتهم زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها أم المؤمنين - فعنه صلى الله عليه وسلم لا عن ذات شخصها كانوا يقاتلون . هذا مكان الفتنة واشتباه الأمر على الناس . ليقضي الله أمرا كان مفعولا . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ثم نجيء من بعد الصورة الفنية الرائعة لمشهد القتال بها فيها من الحركة والهول والمخافة والأحزان .

كأن رجال الأوس تحت لبانه وما جمعت جل معا وعتيب
هذا يصف به إشراف فارس الجون وإحداق جنده الراجلين به ، كأنهم تحت لبان
هذا الحصان المشرف كلهم أجمعين .

ثم مناظر الحرب وغبارها وأصوات المنايا فيها من فارس مجدل وفرس عقير
رغا فوقهم سقب السماء فداحض بشكته لم يستلب وسليب
أي هدرت عليهم رعود الحرب وهوت صواعق الأقدار . وسقب السماء فالسقب
هو البعير الصغير وهنا إشارة إلى خبر فضيل ثمود وذلك أنهم لما عقروا الناقة صعد
الفصيل ورغا ثلاثا - فكان هلاكهم بعد ثلاثة أيام . فسقب السماء هنا علم للكارثة -
قال الشارح قال الرستمي قال يعقوب ضرب ثمود لهم مثلا أي هلكوا أي نزل بهم من
الشؤم ما نزل بأولئك .

كأنهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن ديب
أي ما أفلت فلم تصبه الصواعق لم يقدر إلا على الدبيب من هول الصواعق ولم
يستطع أن يطير .

فلم ينج إلا شطبة بلجامها وإلا طمر كالقناة نجيب
وإلا كمي ذو حفاظ كأنه بما ابتل من حد الطبات خضيب
هذا الكمي هو فارس الجون . فتمت صورة القتال . وعاد بنا إلى مشهد إشراف الفارس
المتنصر الذي قد كان بدأ به .

وكما أوجب عليه من قبل حق الرحلة حيث قال :

فلا تحرمني نائلا عن جنابة فإني امرؤ وسط القباب غريب

أوجب الآن عليه حق ما أحسن من الثناء عليه

وأنت الذي آثاره في عدوه من البؤس والنعمى لهن ندوب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نذاك ذنوب
قال الضبي شأس أخو علقمة . والذنوب النصيب . وقال أبو عبيدة فلما سمع الحارث
قوله « فحق لشأس من نذاك ذنوب » - قال أذنبه وأذنبه ثم أمر بإطلاق شأس وجميع
أسرى بني تميم .

وما مثله في الناس إلا أسيره مدان ولا دان لذاك قريب

وهذا حسن اختتام كما لا يخفى .

وكما رأيت اتصال المعاني وتسلسلها مع براعة التأني ، وجودة التمهيد لفكرة تلى ، وجودة
رد الكلام على فكرة تقدمت . وسير التسلسل كله في إطار ما قدمنا لك ذكره من عادة
الشعراء أن يبدؤوا بالنسيب ثم يرتحلوا ثم يخلصوا بعد ذلك إلى المدح وغيره من الأغراض
- وغرض الشاعر الأكبر لم يذكره علقمة إلا في آخر بيتي القصيدة - ولو وقف بالقصيدة
عند قوله :

فحق لشأس من نذاك ذنوب

لكان ذلك اختتاماً خطايا بالغاً . ولعله كان الختام ، إلا أن الملك لما قال : وأذنبه ،
استوجب من الشاعر مزيداً من الثناء وتوضيح مراده من هذا الذنوب أي النصيب
بفتح الذال وأصل معناه الدلو - فقال علقمة من أجل ذلك :

وما مثله في الناس إلا أسيره مدان

إذ هو يكرم الأسير على أن الأسير لا يمكن أن يكون مثله ، ولا يمكن لأحد أن يدانيه أو
يقرب من منزلة فضله وجوده ومجده :

ولا دان لذاك قريب

ولا يخفى أن ههنا استراحة من انفعال النفس الخطابي ونهاية طيبة .

ومثال آخر من أمثلة التسلسل الجاري على سياق عادة الشعراء كلمة النابغة :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقد يذكر القارئ الكريم وقفتنا من قبل عند هذا المطلع وقولنا إنه «لأمر ما مثلاً اختار
النابعة اسمى العلياء والسند في مستهل المطلع ثم زعم أن ذلك قد أقوى ومر عليه زمن
بعيد، ولأمر ما وقف عند الدار أصيلاً لا بعد أن مضى الضحا والظهر والعصر جميعاً
ثم لم يجد جواباً ولم يلق في الدار أحداً إلخ»

بنى النابعة قصيدته على أجزاء عادة الشعراء من نسيب ورحلة وخروج من ذلك إلى
الغرض .

وضمن كل جزء ألواناً من عادة الشعراء فنعت معالم الدار في مقدمة النسيب ، ومع أنه
جعل عمودها الطلل الموحش ، لم يأل أن ضمن ذلك ذكرى عهد كان معموراً وكانت
الوليدة فيه تعمل

ردت عليه أقاصيه ولبده ضرب الوليدة بالمسحاة في الشاد
خلت سبيل أتى كان يجسسه ورفعته إلى السجفين فالنضد
أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد
وتأمل السجفين هنا ، وقد تعلم قوله من قبل في المتجردة

قامت تراءى بين سجفي كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
فهل الوليدة كناية عن المتجردة؟
وقوله بعد هذا :

فعد عما مضى إذ لا ارتجاع لسه وانم القنود على عيرانة أجد
ليس منقطعاً عما قبله بل متصل به ، إذ قد أخنى على المكان ما أخنى على لبد من الفناء
فلا معنى لإطالة الوقوف عنده ، ذلك زمان مضى فعد عنه وأقبل على زمان جديد .
نظر النابعة بلا ريب إلى طريقة الانقطاع المتصل الذي جاء به علقمة حيث قال :

فدعها وسل الهم عنك بجسرة كهملك فيها بالرداف خبيب
ورب قائل ان هذا سبيل مطروق من مذاهب شعر العرب ، وهو كذلك ، إلا أن
الشعراء ينظر بعضهم إلى بعض في الدقائق من صور وطريقة لفظ وإيقاع وأنواع
أسلوب . وإضراب علقمة بعد أن وفي باباً حقه من القول فأصبح الانصراف عنه
لزاماً ، وهكذا صنع النابعة وعلقمة سابق فقد اتبعه . ثم جانس علقمة بين الهم وهمك

في قوله «كهمك فيها» - ولم يخل النابغة من روح مجانسة خفية - أو قل مقابلة - بين «رفعته إلى السجفين» وبين «وانم القتود على عيرانة» - ثم أقبل على صفة الناقة فقال :

مقدوفة بدخيس النحض بازها له صريف القعو بالمسد والقعو البكرة . والبئر تكون عند الحاضر فصلة هذا المعنى بالوليدة ومقام الحي كما ترى .

ثم لما أخذ النابغة في وصف الناقة والرحلة ضمن ذلك ما اعتادَه الشعراء من الاستطراد إلى نعت الوحش . وصنيعه هنا كصنيع علقمة حيث قال :

وناجية أفنى ركيب ضلوعها وحاركةا تهجر فدءوب
وتصبح عن غب السرى وكأنها مولعة تخشى القنيص شوب
تعفق بالأرطى لها وأرادها رجال فبذت نبلهم وكليب
إلا أن علقمة جعل المشبه به بقرة وجعله النابغة ثورا ، وتأمل اختيار النابغة ألفاظه وما يخالط ذلك من روح معاني الغرض الذي هو بسبيله :

كان رحلى وقد زال النهار بنا بذى الجليل على مستأنس وحد
والمستأنس الوحيد هو الثور الوحشى الذي أحس أو توجس نبأه من الإنس فخاف والجليل الثام وذو الجليل موضع أو مكان ما فيه هذا الجليل فأشار إليه بما فيه وهو مقبل على أمر جليل وهو وحد ومستأنس
وقد اختصر علقمة الوصف لأن أربه صفة انخراط سيره وجدده وتشميره حتى يبلغ الحارث الوهاب . ولكن النابغة قصد إلى معنى من الكناية وهو في طريق المعتذر المتهيب المؤمل الحذر إلى النعمان - هو هذا الثور المستأنس الوحيد . والوشاة هم هؤلاء الكلاب ، وقد انتصر عليهم :

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها شك المبيطر إذ يشفى من العضد
كأنه خارجا من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتاد
فظل يعجم أعلى الروق متقبضا في حالك اللون صدق غير ذي أود
الذي ظل يعجم أعلى الروق هو الكلب ضميران . وتأمل إلى تصور هـنا . «حالك اللون» هو قرن الثور الأسود المستقيم كالسنان . غير ذي أود أي ليس به اعوجاج . وقد

قلنا من قبل في أخريات حديثنا عن الأوصاف : «ولكان الكلب المتضور في دالية النابغة هو أحد هؤلاء الوشاة»

لما رأى واشق إقصاص صاحبه ولا سبيل إلى عقل ولا قــــود
قالت له النفس إنى لا أرى طمعا وإن مــــولاك لم يسلم ولم يصد

واشق هذا كلب آخر وواش آخر. ولئن صح الخبر الذي ذكره أن المنخل الشكرى كان يختلف إلى المتجردة، وأنه غار من وصف النابغة لها وكاده عند النعمان، ثم إن أمره هو قد عرفه النعمان من بعد فحبسه ووكل به عكبا فعذبه ورووا أنه قال :

يطــــوف بي عكب في معــــد م ويضرب بالصملة في قفيا
وقتله آخر الأمر - لئن صح هذا الخبر فضمران المتضور المقتول هو المنخل، والرواق الذي شك الفريضة أنفذهها هو شعر النابغة . وواشق هذا واش آخر أثر السلامة لما رأى هلاك ضمران .

فتلك تبلغني النعمان إن لــــه فضلا على الناس في الأذنين والبعـد
رجع إلى ما كان فيه من أمر الرحلة والناقة وجعل ذلك خاتمة لهذا الجزء الذي أطال فيه ووفاه حق القول فيه . ثم إنه لم يترك اتباع علقمة والنظر الشديد إليه - فكما طريقة قوله فعد عما مضى إلخ كطريقة قول علقمة «فدعها وسل الهم عنك إلخ»
كذلك قوله هنا «فتلك تبلغني النعمان إلخ» طريقته مثل طريقة قول علقمة :

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي لكلكلها والقصريين وجيب

وعجز بيت علقمة تتميم لمعنى قوله «أعملت ناقتي» فوصف حال إعمالها من اضطراب كلكلها وجيب أضلاعها القصري . وسائر بيت النابغة من عند آخر الصدر إلى آخر عجزه تتميم وتفسير للمعنى المتضمن في قوله «فتلك تبلغني النعمان» إذ هو لم يتبع اسم النعمان وصفا يمدحه به ويغني عن الشرح كما فعل علقمة حيث قال : «إلى الحارث الوهاب» - فهذا التفسير المصدر بآن وفيها ما نعلم من دلالة التوكيد، هو بمنزلة قول الحارث الوهاب، وينظر إليه ومحاكاة خفية له .

ثم بسط النابغة هذا المعنى . وليس أمره كأمر علقمة ، فعلقمة قد كان غريبا وافدا ، فاهتم بأن يقرع السمع بأنه وافد من بعيد وآمل عظيم الأمل معا . أما النابغة فقد كان ذا قرب وسابق مودة وخدمة للنعمان ، فحاجته إلى استئناس تجديد القربى إليه وطلب الزلفى عنده تستلزم أن يسمعه ما يطرب له من حسن الثناء ، وأن يضمن ثناء روح ما يتلمسه عنده من عفو وعطاء وجاه . فقال بعد تأكيده أن له فضلا على الناس في الأذنين والبعد :-

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه	ولا أحاشى من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له	قم في البرية فاحدها عن الفند
وخيس الجن إني قد أذنت لهم	ينون تدمر بالصفاح والعمد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة	تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد
إلا لمثلك أو من أنت سابقة	سبق الجواد إذا استولى على الأمد

قوله إلا سليمان - يجري مجرى المبالغة ، إذ ملك سليمان كان يضرب به المثل لما كان له ولوزيريه آصف بن برخيا من الأسرار ومعرفة الاسم الأعظم والمقدرة على تخييس الجن وتسخيرها . ولئن صح أن النعمان قد كانت أمه من يهود ، فعن عمد يكون النابغة قد أشار إلى ملك سليمان لما يعلم من حسن موقع ذلك عند النعمان . وقوله «ومن عصاك فعاقبه» يتضمن تبرئة نفسه كما يتضمن التعريض بالوشاة والإشارة إلى ما حل بالمنخل من النكال . وقوله ولا تقعد على ضمد أى على حقد ، ولكن انتقم ولا يخلو النابغة من أن يكون قصد إلى معنى الضماد وهو أن يكون للمرأة خليلان أى ولا تقعد على أن يكون لك في أمرك منازع أو شريك . والعاصى منازع وطالب للمشاركة في سلطان من يعصيه - وأرى هذا المعنى أقرب ، ثم فيه من التعريض بأمر المنخل ما فيه . والضممد بسكون الميم كالضماد معنى والفتح كثيرا ما يعاقب السكون .

ومما ينبىء باستقامة المعنى على ما تأولناه من أن المراد ولا تقعد على عصيان عاص ينزع في السلطان ويروم أن يشارك فيه ، قوله من بعد :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه

وليس لسليمان مثل . ومن يكون سابقا هو له ، فهو وزير وعون كآصف بن برخيا . وما أرى إلا أن النابغة عنى المتجردة إذ هى القريبة من النعمان كقرب وزارة آصف من سليمان . أم هل يا ترى عنى النابغة نفسه ؟ أم عنى الأمرين معا ؟ عسى ذلك أن يناسب قوله من بعد :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الشمــــد

والشمد بالتحريك الماء القليل وفي دارجتنا " التمد " بصيرورة الشاء تاء ، وزعموا أن محمد أحمد المهدي رحمه الله سأله أصحاب الطرق ما يصنعون بطرقهم إن تبعوه فقال لهم ما معناه وبعض لفظه « من كانت له تمده وجاءه البحر الكبير فماذا يصنع ؟ »
وفتاة الحي هي زرقاء اليمامة وذكرنا من خبرها . وهذا معطوف على قول الإله قبل : " قم في البرية فاحددوها " « وخيس الجن » ، أفعال الأمر - أى واحكم بنظر ثاقب بعيد كما صنعت زرقاء اليمامة إذ قالت حين رأت الحمام وقد عرفت عدته :

ليت الحمام ليـــــــــــــــــه

إلى حمامتيـــــــــــــــــه

ونصفه قديـــــــــــــــــه

تم الحمام ميـــــــــــــــــه

فحسبوه فألفوه كما حسبت تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد

أى تسعا وتسعين بعد إضافة النصف إذ كان عدد الحمام ستا وستين فبإضافة حمامتها يصير مائة ، ولعل الرواية الصحيحة « ستا وستين لم تنقص ولم تزد » ولكن هكذا هو في النصوص « تسعا وتسعين » والدلالة واضحة على كل حال .
أم ليس في ذكر فتاة الحي ههنا ظلالة من الوليدة ذات المسحاة في الثأد ، ومن مية التي في المطلع ، ومن مية التي في :

أمن آل مية رائح أو مغتدى

وهي المتجردة .

ومهما يكن من شيء فعقد الكلام متصل إذ قد رجع النابغة إلى ما بدأ به حيث قال :
أعطى لفارهة حلو توابعها ، إذ سياق الكلام هكذا .

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحاشى من الأقوام من أحد أعطى لفارهة حلو توابعها من المواهب لا تعطى على نكد
ففصل بين مفعول الرؤية الأول ومفعولها الثاني بتقديم ما استثناه وهو سليمان عليه السلام وما قصه من أمر الاله ، وأقحم فتاة الحي لسبيين ، للإشارة الخفية إلى المتجردة ، وللإلماع بأنه مظلوم ، وأن على النعمان أن يحكم فيه هو الحكم المنصف المبني على صدق النظر ، وإذ جريته ما كان فيه من وشاية من وشى به إما في أمر قصيدة المتجردة وإما في ما زعموه أنه هجاه وقال : « وارث الصائغ الجبان الجهولا » يعرض بأمه سلمى بنت

الصائغ اليهودية ، فمناسبة خبر سليمان وفتاة الحي لذلك ظاهرة .
ثم زاد النابغة سيده مدحا :

السواهب المائة الأبيكار زينها سعدان توضح في أوبارها اللبد
والساحبات ذيول المرط فنقها بررد الهواجر كالغزلان بالجرود
والخيل تمزع غربا في أعتتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البرد
أى يهب الإبل والخيل والجوارى ، وقوله الساحبات ذيول المرط من قول امرئ القيس :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل

فنقها أى جعلهن جوارى منعمات .

وذكر الطير الناجية مناسب لما تقدم من صفته الحمام وقوله :

يحفه جانباً نيق وتتبعه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد
مثل الزجاجة يريد صفاءها وأنها شفاقة وأنها كالمرآة أى عيناها -

والأدم قد خيست فتلا مرافقها مشدودة برحال الحيرة الجدد

الأدم إبل وهي البيض هنا ، وميزها من المائة الأبيكار ، إذ المائة الأبيكار مال يقتنى ، للبن وللتناج ولذلك جعلها أبيكارا لتطول مدة الانتفاع بها ويكثر ما تلد . أما هذه الأدم فرواحل وهي الإبل الصهب الموثوق بقوتها على السير وجودتها ركائب . وإذا أنمل النعمان بها أحسن من الثناء على سخائه ، ثم في ذلك ما يناسب تأميله ، أردف بالحلف والتبري ، وأشرب حلفه وهو يروم أن يجعله موجزا قارعا للسمع ، نوع تفصيل ملائم لما تقدم من تفصيله في صفة الدار وفي صفة الشور ، وفي خبر سليمان وخبر فتاة الحي منسجم التجاوب مع ذلك كله :

فلا لعمر الذي قد زرتة حججا وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبنا مكة بين الغيل والسند
تأمل ذكر الطير والعياذ والأمن

ما إن أتيت بشيء أنت تكرهه إذن فلا رفعت سوطى إلى يدي

إذن فاقتلني فلا أرجع أحت ناقتي إلى ديارى بسوطى ، إن كنت حقاً تعتقد أني جئت بشيء تكرهه ، إنما وصفت كما أمرتني وأما الهجاء فهو قول افتراه على من تعلم ، وهو لك حاسد ، ولفضلك جاحد .

إذن فعاقبني ربي معاقبة قرت بها عين من يأتيك بالفند

لم يكتف النابغة بقوله «إذن فلا رفعت سوطي إلى يدي» وهو الموت ، ولكن جاوزه إلى ما يكون أشد من عقاب المولى الذي يعلم السرائر ، وذلك ما لن يكون ، كما لن يأتي بالحسد والفند أحد وتقر عينه بأن يرى النابغة حل به عقاب الله ، لأن هذا الآتى بالحسد والفند هو نفسه قد حل به عقاب الله .

هذا لأبرأ من قول قذفت به طارت نوافذه حرا على كبدي

ثم مضى في تبرئة نفسه ، وعاد إلى مدح النابغة فشبّه هذا التشبيه الرائع بالفرات :

فما الفرات إذا جاشت غواربه	ترمى أواذيه العبرين بالزبد
يمــــده كل واد مترع لجب	فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصما	بالخيزرانة بعد الأين والنجد
يوما بأجود منه سيب نافلة	ولا يحول عطاء اليوم دون غد
أنبت أن أبا قابوس أوعدني	ولا قــــرار على زأر من الأسد

وهذا البيت بارع - إن شاء النعمان حمله على أن النابغة قدم إليه على خوف منه لما سمع بوعيده . وإن شاء جعله اعتذارا عن ابتعاده عنه ولجؤته إلى الغساسنة . وقد علم النابغة أنه قد بلغ ما أراد من استلال سخيمة النعمان بهذا القول الصافي والعتاب النبيل والاعتذار المشرق

هذا الشاء فإن تسمع لقائله فما عرضت أبيت اللعن بالصفد

والصفد أى العطاء دليل القبول ، فقد عرض به كما ترى . وتأمل مكان هذا البيت ، أليس كمكان بيت علقمة :

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأش من نداك ذنوب

ثم جاء بيت الختام يرتاح به كما صنع علقمة :

ها إن تا عذرة إن لا تكن نفعت فإن صاحبها قد تاه في البلد

وهو يعلم أنه لم يته ولكن بلغ النعمان وأبلغه

وحسبنا هنا هذان الشاهدان في التسلسل على حسب سياق عادة الشعراء في القصائد ذوات الطول .

وقولنا عادة الشعراء مأخوذ من عبارة الجاحظ إذ أشار إلى أن الشعراء تجعل الكلاب تقتل الثور في الرثاء وما أشبه وتجعل الثور يقتلها في المدح وما أشبه ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا القول من قبل ، وعن الجاحظ أخذه ابن رشيق وهلك من ناقد . ونحيل القارئ بعد على قصائد آخر فيها مثل هذا التسلسل أو قريب منه ، منهن مثلاً لامية عبدة بن الطبيب :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول

على ما في آخرها من مشابهة ميمية علقمة

وقصيدتا بشر الميمية الوافية وأختها الرائية وكلتاها مفضلية وقد اختصر الأجزاء في الميمية حتى كأن قد وثب من جزء إلى جزء والتسلسل مع ذلك لا يخفى ، وقد اكتفى بحركة الحرب في الانباء عن الرحلة في الرائية ، وأطال شيئاً في مقدمة النسيب ، ومذهب بشر في كلتا القصيدتين يشبه كثيراً مذهب أصحاب النقائص ومذهب جرير والفرزدق من بعد .

ودالية ربيعة بن مقروم المادحة الطنانة :

بانت سعاد فأمسى القلب معموداً

من ذوات التسلسل وقد مر عنها الحديث وليقس ما لم يقل .

ثانياً : التدرج

التدرج ضرب من التسلسل إلا أن الانحدار درجة درجة أو الإصعاد درجة درجة أظهر فيه من اتصال آخر حلقة من الكلام بها يليها . ونعيد ما قلناه مراراً قبل من أن الشعر تتداخل أصنافه ، وكما قد رأيت من تداخل صنفَي التسلسل ، كذلك يدخل فيهما التدرج إن عن لشاعر إيراد ما يقوله عليه عفواً أو عن تعمد .

والتدرج منه محض ومنه ما يساق على طريقة عادة الشعراء فمن أمثلة التدرج المحض كلمة سلامة بن جندل :

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب

واعتمادنا على رواية المفضل . وروى بعضهم لها مقدمة نسيب ، وما كان أغناه عن ذلك ، وأدخل بعضهم بعد ثالث أبياتها هذه الأبيات

وللشباب إذا دامت بشاشته	ود القلوب من البيض الخرايعب
إننا إذا غربت شمس أو ارتفعت	وفي مباركها بزل المصاعيب
قد يسعد الجار والضيف الغريب بنا	والسائلون ونغلي ميسر النيب
وعندنا قينة بيضاء ناعمة	مثل المهواة من الحور الخرايعب
تجرى السواك على غر مفلجة	لم يغيرها دنس تحت الجلابيب
دع ذا وقل لبني سعد لفضلهم	مدحا يسير به غادي الأراكيب

وفي هذه الأبيات الستة قواف خمس على وزن المفاعيل وما بمجرها وزنا من صيغة منتهى الجموع والمتأمل لرواية المفضل التي رواها القاسم بن محمد بن بشار غير واجد فيها ما يشبه هذه الكثرة من هذه الصيغة . وقد تكررت الخرايعب كما ترى ، وإن يك ذلك في نفسه ليس بعيب كبير ، إذ كان الإيطاء مما يرد عند القدماء إذا كان المعنى الجيد يقتضيه مع تجويد النغم .

والأبيات الستة بعد قلقة الموضع في هذه البائية الجيدة تتابع الإيقاع واتساق المعاني . وغير بعيد أن يكون المغنون أدخلوا هذه الأبيات . وهي لشاعر آخر .

تدرج هذه البائية على هذا النحو :

بدأ يبكاء الشباب :

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب

لاحظ أنه استعار قوله «شأو غير مطلوب» من أمر الخيل والسباق ، ولذلك في القصيدة من بعد مكان ظاهر ، وهذا وحده عندي مما يبطل رواية من صدر هذه القصيدة بنسيب سوى هذا الذي بكى به سلامة الشباب - ثم مضى في تصوير هذا الشأو الذي لا يطلب ولا يدرك :

ولي حثيثا وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض العاقيب

أي لو كان يدركه ركض العاقيب لحاولنا أن ندركه . قالوا العاقيب أي الطير ، واليعقوب ذكر الحجل ، والوجه عندي والله أعلم ما قاله عمارة ، أحسبه عمارة بن

عقيل بن بلال بن جرير الشاعر، إن اليعاقب هنا الخيل ذوات العقب بفتح فكسر، وهو الجرى بعد الجري، ذلك بأن الركض إنما يقال للخيل لا للطير إلا أن يسمى اندفاع الطير ركضاً على التشبيه. ولك في الركض أن ترفع وأن تنصب والنصب رواية أبي عمرو أحسبه الشيباني، أي لركضنا ركض اليعاقب.

أودي الشباب الذي مجد عواقبه فيه نلذ ولا لذات للشيب

ههنا درجة - أن الذي يحىء بعد الشباب الجاه والمال والتجارب وهذا الذي سماه المجد مما يشمل الجاه والمال والتجارب وقد يزيد ولكن لا لذات هناك، وما طعم العيش بلا لذذة. ولك في لذات في تائها الكسر والفتح، وأحسب أن أبا الطيب قد نظر إلى هذا البيت إذ قال:

ليت الحوادث باعنتني الذي أخذت منى بحلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بهانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وقد ركب نفس البحر والروي
ثم يقول:

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلى الأعداء تأويب

أي المجد الذي هو عواقب الشباب، هو هذا - جد المجالس وجد التشمير للحرب والحرب إنما كانت يحشها الشباب، ولكن الشيوخ مدبروها ورؤساؤها باعثهم إليها الحزم والجد والعرف والواجب. وقد يجد الشباب في عنفها لذة - ثم معها الغنيمة والسبي

ولكن سلامة ههنا يؤكد معنى الجد ويلح عليه:

ويوم سير إلى الأعداء تأويب

التنبيه ههنا على قوله تأويب وفيه دلالة على اتصال السير إذ التأويب سير يوم إلى الليل، ثم يكون في الليل السري هذا في طلب الأعداء. ثم بعد الغزوة الرجوع، وقد أخذ الكلال وما تصنع الحرب من الخيل والرواحل والرجال مأخذها.

وكسرنا خيلنا أدراجها رجعا كس السنايك من بدء وتعقيب

وهنا درجة -

انتقل من بكاء الشباب إلى صفة حال المجد
وانتقل من السير إلى العود بالخليل وقد تثلثت سنابكها - وتأمل الكافات والسين والراء
والجيم وانظر أي مبلغ يبلغه الافتتان في بيان هذه اللغة وزنات إيقاعها

والعاديات أسابي الدماء بها كأن أعناقها أنصاب ترجيب
من كل حت إذا ما ابتل ملبده صافي الأديم أسيل الخد يعبوب

فانتقل كما ترى إلى نعت الخيل ، وحبها بين ، وكذلك حب هذه الأنصاب التي تعظم
وتنحر لها وتذبح الضحايا . وجعل بعضهم سلامة من شعراء النصرانية وهذا من
قوله يكذبه ، وقد فطن إلى ذلك المستشرق البار ليال ونبة عليه كما ذكرنا لك من قبل ،
الحت السريع واليعبوب الجواد الواسع الجري كأنه عباب وكأنه بحر وأسابي الدماء
طرائقه الواحد إسباء وقالوا الأسابي ألوان الدم وقريب منها الأساهي بهاء بعدها ياء
مشددة وهذه لا واحد لها وجاء بها سلامة في كلمته هذه وقريب منها الأساوي بلا
تشديد ، منقوص وهي الدفعات وكأنها جمع لإسوة وجاء بها سلامة أيضا .

ثم أخذ سلامة في نعت الخيل وكان بها عالما ، جعل ذكر الجذ ثم ذكر السير ثم ذكر
الرجوع والعاديات كل ذلك درجات إلى نعتها - وقد مربك قوله أنها رجعت أدراجها
فكان زعمنا أنه تدرج فيه بعض النظر إلى هذا اللفظ -

ليس بأسفي ولا أقني ولا سغل يعطي دواء قفي السكن مربوب
في كل قائمة منه إذا اندفعت منه أساو كفرع الدلو أثعوب
كأنه يرفني نام عن غنم مستنفر في سواد الليل مذكوب
يرقى الدسيع إلى هادله بتع في جؤجؤ كمداك الطيب مخضوب

جعله العنق كمداك العروس وقد وصفه من قبل كأنه أحد الأنصاب المرجية ، ولم ينس
ذلك لمكان الخضاب في هذا البيت يقوي معنى ما قدمناه من أن هذا مقال عربي مشترك
تقريبه الأنصاب إلى ربه زلفى لا مقال نصراني - وكان العرب - حتى في جاهليتهم لا
يخلون من نظر نافر عن النصرانية وبعض ازدراء يدللك على ذلك قول جابر بن
حني :

وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى الدم
وما كانت لتقوله بهراء وحدها .

وقد مر شرح الآيات المتقدمة إذ قد استشهدنا بها في باب الأوصاف من الأغراض عند ذكر الخيل

تظاهر الني فيه فهو محتفل يعطي أساهي من جري وتقريب
وقد انتقد الأصمعي قول أبي ذؤيب :

قصر الصبوح لها فشرح لحمها بالنى فهى تشوخ فيها الإصبع
وما ذكروا أنه عاب هذا البيت من قول سلامة . وما أشبه أن يكون سبب ذلك أن سلامة
لما ذكر الني أي الشحم ذكر معه الرياضة والتضمير الذي يذهب به وهو قوله :

يعطي أساهي من جري وتقريب

ولم يذكر أبو ذؤيب شيئاً من ذلك وقال زهير :

غزت سمانا فأبت ضمرا خدجا من بعد ما جنبوها بدنا عققا

فذكر مع السمن التضمير

من أجل هذا ما زعم الأصمعي أن أبا ذؤيب لم يكن له علم بالخيل ، وربما تحامل عليه
إذ له فيما قال زهير وسلامة عاذر وإن لم يحترس كما احترسا . وأخطأ ليال إذ أخذ على
سلامة قوله «تظاهر النى» وإنما أتى من مقال أبي سعيد في أبي ذؤيب والأمران لا سواء .
ثم يقول سلامة :

كم من فقير بإذن الله قد جبرت وذى غنى بوأته دار محروب

فهذه درجة صار منها إلى خبر الحرب ووصفها ثم إلى الفخر ، «وبإذن الله» ليس مما
يقوله النصارى . وكانت العرب قبل الإسلام تقوله إذ كانوا مع الشرك أهل
توحيد ، وخاصة عند الشدة ، والحرب شدة ، وقد استفتح أبو جهل يوم بدر فحاق بهم
ما كانوا به يستهزئون ، وقد جاء وصف الحرب من بعد فقال سلامة يذكر الخيل فهذا
متصل بما قبله ثم يذكر الحرب فهذا درجة لما بعده :

مما تقدم في الهيجا إذا كرهت عند الطعان وتنجى كل مكروب

وفي هذا أيضا كالرجعة إلى قوله :

والعاديات أسابي الدماء بها

ثم أخذ في الفخر ، فهذا زعمنا أنه تدرج

هت معد بنا هما فنههها عنا طعان وضرب غير تذيب

بالمشرفي ومصقول أستنها صم العوامل صدقات الأنابيب

يجلو أستنها فتیان عادية لامقرفين ولا سود جعابيب

وقوله «عادية» فيه رجح من صوت " والعاديات " - وقوله «فتيان عادية» فيه معنى الشباب إذ الفتوة مع الشباب . وكما الآن هو محارب «قديم» [كما يقال الآن في زماننا هذا] لقد كان من قبل محاربا فتى ، فهو يحرك قلوب الفتيان بما يقص عليهم من نبأ أيامه اللاتي مضيّن .
ولعمري ما أنصف إذ قال :

ولا لذات للشيب

والجاحظ أدق منه إذ ذكر أن الحديث من لذات أهل السن أو لا لذة لهم سواء ، وهذا الذى أقبل عليه سلامة من حر القول ومنخوله أيما لذة -
تأمل تجاوب أصوات الألفاظ وألوان التكرار - تكرار الطعان وهاءات نهنها - همت - هما - صم - صدقات - مصقول - وتكراره أستنها في مصقول أستنها وفي يجلو أستنها وهي بقریب من معناها .

ثم انظر إلى قوله : لا مقرّفين ولا سود جعابيب
وكان حرص العرب على الأنساب كالجنون بأمرها ، وكان السود فيهم غير قليل ، وذلك أن عنصرا من السود لهم أصل في جزيرة العرب ، وصلة الحبشة باليمن قديمة .
وقال كعب :

إذا عرد السود التنايل

وقال النابغة :

ليست من السود أعقبا

وقال الأخطل :-

فإن نرض عن حمران بكر بن وائل فليس لنا سودانها بصديق .
فلم يرض لا عن الحمران ولا عن السودان كما ترى
وقال جرير : أراب سواد لونكم أرابا
وقال عقيل بن علفة :

رددت صحيفة القرشى لما أبت أعراقه إلا احمرارا
وقال الفرزدق يهجو ابراهيم بن عربي وإلى البيامة وكان أسود يلبس ثيابا بيضا
ترى منبر العبد اللئيم كأنه ثلاثة غربان عليه وقوع
يعنى وجهه وكفيه . ونحو من هذا هجي به المغيرة بن شعبة ، قال الشاعر فيه :
فقل جعل يستن في لبن محض

وقال أبو عرار يعتذر عن سواد ابنه :

وإن عراراً إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العمم
وقال الفضل بن العباس اللهي :

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلد من لون العرب
ففر من السواد وجعله خضرة

ولشدة عصبية العرب من كان منهم أسود عد عروبة نسبه بياضا، وعلى ذلك قول عنتره :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمي سائرى بالمنصل
وقال عبدالرحمن بن عوف وهو من المبشرين ومن أهل الشورى لبلال وهو من المهاجرين السابقين الأولين رضى الله عنهم أجمعين في يوم بدر يا ابن السوداء، وما قال ذلك إلا عن مودة له بلا ريب، وذلك حين رغبه أمية بن خلف في الفداء، وكان من صناديد أهل الكفر، فأبى الله أن ينجو - وكان بنو جمح رهط أمية خضرا - أصل سوادهم من عرق هندي كما في لامية أبي طالب :

بنو أمة محبوبة هندكية بنو جمح عبيد قيس بن عاقل
وقد نسبهم أبو طالب هنا إلى سفاح من أصل رق .

ولعصبية العرب في الأنساب والألوان وكثرة مطاعنها بعضهم في بعض حذرهم الدين من أمر الجاهلية ونهاهم عن دعواها وقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

وما قطع كتاب من كتب الحكمة والدين منزل من السماء أو من عمل الفلاسفة فيما بين افلاطن واكويناس وروسو وماركس بمثل ما قطع به القرآن في هذه الآية من الحجرات وفي آية فاطر « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور . » - فالنبات والحيوان والجماد والناس أصلهم كلهم هذه الأرض وهم سواسية في الأصول سواسية فيما يتفرع منهن من الألوان .
هذا وقول سلامة بن جندل :

لا مقرفين ولا سود جعابيب

كأنه يعيب بالأول ربيعة لمداثمتهم الفرس والروم وبالثاني أهل اليمن وتهامة لمداثمتهم بلاد السودان .

ثم استمر في تكرار السين وأسنه والسن
سوى الثقاف قناها فهي محكمة
زرقا أستنها حمرا مثقفة
قليلة الزينغ في سن وتركيب
أطرافهن مقيل لليعاسيب

اختلفوا في تأويل اليعاسيب والظاهر أنهم يقتلون بها الرؤساء ويرفعون رؤوسهم
ويعسوب القوم سيدهم ، ولا يغيب عنا الإلغاز الخفي بين اليعاسيب وبين الرماح
العواسل أي التي تعسل أي تهتز
وتأمل القاف : قناها - الثقاف - قليلة - زرقا - مثقفة - مقيل

كأنها بأكف القوم إذ لحقوا مواتح البير أو أشطان مطلوب
قوله " أشطان مطلوب " تخصيص بعد تعميم أي كأنهن حبال الآبار - لا بل حبال
هذه البئر التي تعلم

كلا الفريقين أعلاهم وأسفلهم يشقى بأرماحنا غير التكاذيب
بعد أن أمتع بصفة الخيل ، أمتنا بصفة القتال ، وبعد أن كان الكلام عاما : « يجلو
أستنها فتیان عادية » جعله أخص فدلنا على أنه هو الذي ثقف القناة بين آخرين مثله
من قومهم ثقفوا قناهم ثم أشرعوه إذ قاتلوا به ثم لحقوا العدو وقتلوا الرؤساء وكان
أرماحهم أشطان مطلوب
ونستفيد التخصيص من قوله في آخر الصفة

كلا الفريقين أعلاهم وأسفلهم يشقى بأرماحنا غير التكاذيب
فهذه نون الجمع المتكلم وهو منهم بل هو شاعرهم الناطق بلسان حالهم ، ثم نعلم أنه
كان مشاركا في القتال ومجده كل المشاركة بقوله :
إني وجدت بني سعد يفضلهم كل شهاب على الأعداء مشبوب

وإنما وجد ذلك عن تجربة . وكشف عن أن الذين تحدث بلسانهم هم بنو سعد فانت
تري كيف هذا التدرج الذي تدرج به هذا الفارس المحارب " القديم " من بكاء
الشباب في قوله : « أودى الشباب » وادعاء " أن لا لذات للشيب " الى قصة خبر بلائه
أيام شبابه وتلذذه بذلك وطربه الى مآثر قومه ومجدهم الذي هو من بناته ، ثم لما أقر هذا
المعنى عند سامعيه ، خلص الى الفخر ببني تميم ثم ببني سعد قومه ثم جعل الفخر
بضمير المتكلم الجمعي ، كنا وكنا ونحن الآن كذا كذا

إني وجدت بني سعد يفضلهم كل شهاب على الأعداء مشبوب
الى تميم حماة العـزـز نسبهم وكل ذي حسب في الناس منسوب

أي كل ذي حسب منسوب في بني تميم وهم الناس كل الناس

قوم إذا صرحت كحل بيوتهم عز الذليل ومأوي كل قرضوب

القرضوب الفقير

ينجيهم من دواهي الشر إن أزمتم صبر عليها وقبص غير محسوب

القبص بكسر القاف العدد الكثير الدثر. غير محسوب أي لا يعد من كثرته

كنا نحل إذا هبت شامية بكل واد حطيب الجوف مجدوب

مجدوب أي مذموم ، يخافه الناس لخصبه إذ لا يكثر فيه الخطب إلا وهو خصيب ، وهذا كما لا يخفى من اللعب اللفظي أن يكون حطيبا مجدوبا والجذب لا يكون معه خصب من حطب أو مرعى . وإنما تعمدا مكان الخطب لكثرتهم يوقدون ويطبخون ويقاتلون بشوكتهم عما حازوه فمنعوه

وتأمل كيف تدرج الى قوله كنا بعد أن كان الكلام إخبارا عن قوم هم عز الذليل ومأوى الفقير ففسر العز بالقوة على منع أنفسهم . وفسر الإيواء بها في الحطيب من الدلالة على الطعام والطبخ والكرم .

ثم أعطانا صورة هذا الوادي الحطيب الجوف بعد أن أقاموا به يحمونه ويكرمون نزيلهم باغي قرى الضيف عندهم فيه

شيب المبارك مدروس مدافعه هابي المراغ قليل الودق موظوب

أي بعد أن أقام به الناس يحتطبون ويرعون ويقاتلون خلا من كل نبات فمباركه غير شيب موظوبات تتابع عليهن الوطاء والدياس . وفسر بعضهم شيب المبارك بالثلج والتفسير قول أبي عمرو أحسبه الشيباني أنه ليس بها كلاً فهي بيض ، قال أغبر لبعد أهله ، لا من الصقيع لأن الصقيع معه بلل فلا يكون جدبا .

كنا إذا ما أتنا صارخ فزع كان الصراخ له قرع الظنايب

وهذا كما هو فخر ، هو أيضا تنبيه على فضيلة النجدة وحث عليها ، «الفارس الماجد القديم» بذلك جدير . قرع الظنايب أي التشمير والظنبوب عظم الساق

وشد كور على وجناء ناجية وشد سرج على جرداء سرحوب

هذه حال نهوض الى الحرب ، يمتطون الإبل ويجنبون الخيل ، ثم في الكلام رجعة الى اصداء من صوت الوصف والتفصيل والنشوة الى ذلك مما مر من حديثه من قبل -

ولاحظ تتابع الجيم - وجناء - ناجية - سرج - جرداء - ثم تحيء السنين والحاء من بعد ولا ينسى الكاف ولا الحاء ولا الظاء والصاد للسين أخت :

يقال محبسها أدنى لمرتعتها وإن تعادى ببكاء كل محسوب
حتى تركنا وما تثنى ظعائننا يأخذن بين سواد الخط فاللوب

ما يخشين من أحد . هكذا كنا فمثلنا فكونوا .

ومما تدرج فيه على سياق عادة الشعراء نونية العبدى

أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سألت كأن تبيني

وقد مر عنها الحديث ولكن ننبه هاهنا على هذا الجانب من إحكامها ووحدها وربطها — وذلك أن الشاعر جعل النسب ثلاث درجات أخراهن خروج إلى الرحلة وجعل الرحلة ثلاث درجات أخراهن خروج إلى عمرو، وجعل خاتمة الكلام ثلاث درجات أخراهن الحكمة وهي التي من أجلها قال ما قال ، وقد كان المثقب حكيما، وكانت في عبد القيس على بعدها ومقاربتها فارس والهند والنبط فصاحة ، ومن الله عليهم أنهم لم يكونوا من أهل الردة . لفضيلة الجارود العبدى رضى الله عنه وحزمه . وهو الذي قال الشاعر في أحد الذين من ذريته :

ياحكم بن المنذر بن الجارود

سراق المجسد عليك ممدود

والشطر الأول من شواهد الكتاب في باب ما يكون الاسم والصفة فيه بمنزلة اسم واحد ينضم فيه قبل الحرف المرفوع حرف وينكسر فيه الحرف المجرور الذي ينضم قبل المرفوع وينفتح فيه قبل المنصوب ذلك الحرف وهو ابنم وامرؤ — قلت وهذا من بارع تمثيل صاحب الكتاب وأستاذه الخليل إذ هذا مذهبه قالوا إن الراجز من بني الحرماز أحسب أن قائل ذلك أبو عمر الجرمي رحمه الله .

أما درجات النسب الثلاث فإن منع فاطمة كينيتها فقد بانت فهي ظعينة فهذه درجة ثم وصف الظعينة في الطعائن معها مع ما يخالط ذلك من غزل ، فهذه درجة . ثم التنبيه على أن الذي بان ليس هو فاطمة بمنعها ما منعت ولكن هو الشاعر بكبريائه وصدوده عمن صد عنه وعزمه رحلة التسلي :

فقلت لبعضهن وشد رحلي لهاجرة نصبت لها جيني

فهذا خروج إلى الرحلة كما ترى

ثم يقول في البيت التاسع عشر
فسل الهم عنك بذات لوث عذافرة كمطرقة القيون

هذه ناقته - وأقبل على صفة حركتها الهوجاء المستمرة الشديدة الإيجاف وهي ما زالت في أوائل نشاطها وهذه أولي مراحل سيره، وقد بدأه عند الهاجرة لانخراطه وجده ووصل التأويب بالسرى .

بصادقة الوجيف كأن هرا يباريها ويأخذ بالوضين
كسأها تامكا قردا عليها سوادي الرضيخ مع اللجين
إذا قلقت أشد لها سنافا أمام الزور من قلق الوضين

لاحظ تكرار الوضين وهو هنا ترنم مقصود . وإنما قلق الوضين لاستمرار هذا الضرب من السير أياما، فضممت فاحتاج هو إلى أن يشد الوضين بأكثر مما شده من قبل ومن ضمن وصف هذا السير الشديد وصف استراحات التعريس القصار

كأن مواقع الثفنيات منها معرس باكرات الورد جون

أي مواقع القطا البواكر لورود الماء، وكلما رحلها بعد هذه الاستراحة القصيرة تنفست الصعداء، نفسا حارا يكاد يقطع الحزام - ثم مضت وبها نشاطها
تصك الحالبين بمشفت له صوت أبح من الرنين

المشفت المتفرق يعني ما يتطاير من الحصى ، تطيره أخفافها

كأن نفي ما تنفي يداها قذاف غريبة بيدي معين
تسد بدائم الخطران جثل خواصة فرج مقلات دهن
المقلات التي لا يعيش لها ولد، فأنبأنا بطول السير، وأنها ألفت جنينا بالصحرَاء . والدهين التي لا لبن لها

وتسمع للذباب إذا تغنى كتغريد الحمام على الوكون

قالوا الذباب هنا حد نابها اذا صرفت بأنيابها أي صوتت - فهذا نهاية الدرجة الأولى من الرحلة

ثم الدرجة التي تلي صفة استراحة الناقة بعد هذا الكد، وقد عاد بخياله يصف حالها قبل الرحلة وهي فارهة كأنها سفينة :

فألقيت الزمام لها فنامت كعادتها من السدف المين
فهذا يدلنا على أنه قد استراح من قبل مرات عند هذا السدف المين ، وإنما عني آخر
الليل عندما يبدو أول ضوء الفجر
كان مناخها ملقى لجام على معزائها وعلى الوجين
وملقى اللجام ضيق منبيء عن حال ضمور والمعزاء الأرض ذات الحصى والوجين
الأرض الغليظة
كان الكور والأنساع منها على قرواء ماهرة دهين
هذه صفتها في أول الرحلة ، إذ لا يمكنه التعريس بأكثر من ان يلقي لها الزمام ، وما
زالت بها قوة ، فهذه الصفة تتضمن معنى الإعجاب والرضا
يشق الماء جؤجؤها ويعلو غوارب كل ذي حذب بطين
هذه صفة السفينة التي شبه بها ناقته

غدت قوداء منشقا نساها تجاسر بالنخاع وبالسوتين
هذا يدلنا عن أن في الوصف رجعة الى حالها قبل الضمور. وكأنه اذ قال : « غدت قوداء
منشقا الخ » قد قال : « كانت قوداء سميئة منشقا نساها أي منفلة لحمًا فخذها
فيبدو النسا بينهما من سمنها »
ثم تحيى الدرجة الثالثة ، وفيها رجعة إلى تفسير ما ذكره من قبل من تنفس ناقته
الصعداء .

- وقد خلص هنا إلى مناجاة الناقة وجعل حاله وحالها شيئا واحدا :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه أهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيئي أهذا دينه أبدا وديني
أكل الدهر حل وارتمال أما يبقى علي أما يقيني
فأبقى باطلي والجد منها كدكان الدرابنة المطين
أي كدكة البوابين ، وذلك أنها تكون قد تأكلت من جوانبها ، وهذه الصفة تدلنا على أن
قوله من قبل :

كان الكور والأنساع منها على قرواء ماهرة دهين
إنما هو رجعة بخياله إلى حالها الأولى . والدهين هنا من صفة السفينة أنها مدهونة بالقار
وهي تجاوب قوله من قبل : « خواية فرج مقلات دهين »

وكان عنتره قد أخذ من قول المثقب هذا حيث قال :

وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكن لو علم الكلام مكلمي

وقد زاد في المعنى كما ترى

فهذه درجات الرحلة الثلاث - ثم يقول :

فرحت بها تعارض مسبطرا على صحصاحه وعلى المتون

إلى عمرو ومن عمرو أنتنى أخي النجدات والحلم الرصين

فهذه درجة - وهي تجاوب ما تقدم من نشاط ناقلته أول ما وصفها، ثم الدرجة الثانية

تقابل مناجاته الناقه ومناجاة الناقه له، كما فيها أصداء حديثه لفاطمة :

فإمّا أن تكون أخى بحق فأعـرف منك غنى أو سمينى

وإلا فـاطـرحنى واتخذنى عـددوا أتيقك وتقينى

فهذا كقوله : فإني لو تحالفني شمالي إلخ

ثم الدرجة الثالثة، وهي كما قدمنا ذكره من قبل ذروة القصيدة وغاية مقاصدها من

الحكمة

- عندما قال لفاطمة «كذلك أجتوي من يجتويني» وعندما قال لها :

لعلك إن صرمت الجبل بعدي كذلك أكون مصحبتى قروني

كان له مفر إلى الناقه وبها إلى عمرو

وقد ملت الناقه وبرمت، وإنما الناقه هي نفس الشاعر، (بسكون الفاء هنا)

وذلك أن من تهلك ناقلته بالصحراء يهلك هو أيضا .

وقد تغير عمرو عن حاله أو يخشى هو أن يكون قد تغير وإذن فماذا يصنع :

ومـا أدري إذا يمت أرضـا أريـد الخـير أيها يلىنى

أالخـير الـذي أنـا أبـتغيه أم الشر الـذي هـو يبتغيني

من تأمل هذا علم أن الشر لا بد بالغ ما يبتغيه، والخير إنما هو أعاليل، والمرء

يفر، يطلب الخير - ثم إن أسباب المنايا، إنهن لبالمرصاد، هذه مأساة الحياة

هذا والقارىء الكريم واجد بعد في الشعر أمثلة كثيرة مما سبق على منهج النسب

فالرحلة وما لم يسبق على ذلك والشاعر يتدرج به تدرجا من معنى إلى معنى - نضرب

أمثلة على ذلك مشيرين إليها من غير تفصيل لامية العرب، فإن الشاعر يورد المعانى

بها درجة بعد درجة وخطوة بعد خطوة على أن فيها مواضع مما تتعقد فيه عناصر الربط

من تداعي المعاني إلى المقابلة - غير أن الذي ذكرنا أظهر. ولامية تأبط شرا:

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل
جيدة الترتيب. بدأ بذكر القتل. ثم صفة ابن الأخت، يعنى نفسه الذي سيطلب
الثأر. ثم وقع خبر مقتل خاله عليه. ثم صفة هذا الحال القتل. ثم صفة العدو
والقتال. ثم غضبات الثائر وإدراك الثأر وشراب الخمر

صليت مني هذيل بخرق لايمل الشر حتى يملوا
ينهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كأن لها منه عل
حلت الخمر وكانت حراما وبلائى ما ألت تحل
فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخل
ثم استراحة الخاتمة:

تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب لها يستهل
وعتاق الطير تغدو بطانا تتخطاهم فما تستقل

كلتا اللاميتين - لامية العرب ولامية الثأر مشكوك في صحتها، أنها صنعها الرواة. ولا
ريب أنها مع ذلك جيدتان. ولا يصح أن يقال إنها صنعها خلف الأحمر، فعلى جودة
شعره، لا يبلغ جودة هاتين اللاميتين. ولئن صحت مقالة من قال بانتحالها وهي على
الأرجح صحيحة لتواترها عن لامية تأبط شرا ولأن الشك في لامية العرب منقول عن
القائل وهو حجة وثقة، فينبغى أن يكون المتحل أو المتحلون من رواة العرب
وقصاصهم أهل البلاغة والبراعة والخيال - ثم ينبغى أن يكون لما انتحلوه أصل من رواية
صحيحة.

ومن الكلام المتصل المتدرج ميمية المخبل:

ذكر الرباب وذكرها سقم فصبا وليس لمن صبا حلم

ذكر الخيال والدار ومعالمها والمحجوبة إذ كانت بها وهي كالبردية ووجهها كالصحيفة
النقية وهي كالدارة - وأخذ الشاعر في شيء من صفة الغوص والغواص
ولقد تحل بها الرباب لها سلف يفل عدوها فخم
بردية سبق النعيم بها أقرانها وغلاها عظم
ويروى «وغلاها جسم» وهو قريب منه في المعنى إلا أن «غلاها عظم» أجود لما فيه
من الدلالة على حسن التغذية بسبب ما ذكره من أن تنعمها في الصغر جعلها تسبق
أقرانها في النماء

وتريك وجهها كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهـم

والتشبيه بالصحيفة منتزع من عهد العرب بالتجارة التي كانت بلادهم معبرا لها، إلى ديار الفرس والروم ومصر والهند والحبشة

كعقيلة الدر استضاء بها محراب عرش عزيزها العجم

وهذا من باب المعرفة بأحوال الأمم وأخبارها

أغلى بها ثمننا وجاء بها شخت العظام كأنه سهم

وهذه الصفة غير التي ذكر المسيب حيث جعله كما قال:

فانصب أسقف رأسه لبد كسرت رباعيتهاه للصبر

هذا طويل کما تری

بلبانه زيت وأخرجها من ذي غوارب وسطه اللحم

واللحم بضم اللام ضرب من دواب البحر ولعله كان يأكل الناس أو يؤذيهم ثم أعطى الرباب صفة أخرى فجعلها كبيضة الدعص وإلى صفته الظليم نظر عبد بن الحسحاس في أبياته الياثية "وما يبيضه بات الظليم يحفها إلخ" قال المخبل وهي أبيات جواد:

أوبيضضة الدعص التي وضعت في الأرض ليس لمسها حجم

أى ملساء

سبقت قرائنها وأدفاها قرد الجناح كأنه هدم

أي هذه الحسنة سبقت قرائنها بالناء وحسن الغذاء واكتمال البهجة والرواء - يكرر ما قدمه حين جعلها بردية سبق النعيم بها أقرانها - ويعنى أيضا أن البيضة سبقت قرائنها أنها بكر، قال الشارح والشعراء تصف ذلك وأورد بيت امرئ القيس كبكر المقناة إلخ - وأحب إلي أن يكون سبقت قرائنها يعود على الفتاة وأدفاها يعود إلى البيضة، وإلى هذا الوجه ذهب أحمد بن عبيد بن ناصح

ويضمهما دون الجناح ودفه وتحفهن قـ_____وادم قـم

لم تعتذر منها مدافع ذي ضال ولا عقب ولا الزخم

قرد الجناح أي كثيفه ريشه متراكم والهدم الثوب أي كأن جناحيه ثوب . قسم أي فيه
غبرة وهو من ألوان ريش النعام . وقوله لم تعتذر منها أي لم تقل ما تعتذر به عن معرفة

عهدهما فما زالت آثارها باقية بمدافع ذي ضال وبذي عقب وبالزخم موضع بالزاي
المعجمة المضمومة أو بالراء المهملة المفتوحة وما أشبه أن يكون اسما على مواضع إن كان
بالزاي المضمومة لما في ذلك من رائحة الجمع

وذكر ريش النعام دعا إلى ذكر شعر الفتاة وهذا من باب تداعي المعاني :

وتفضل مدراها المواشط في جعد أغم كأنه كرم

فأفادنا هذا الشاعر في ميميته هذه معرفة بالصحيفة والدرة وبمحراب عرش العجم
وبالكرم وهو بدوي جاهل كما يظن بعض الجهلاء فتأمل .

ثم انتقل الشاعر إلى التسلي بالرحلة ووصف الناقة والطريق وجعل لذلك نحواً من
ثلاثة عشر بيتاً وليس ذلك بالعدد القليل ، فمن أنكر على طرفه إطالته فإن داليتة أكثر
من ضعف ميمية المخبل في عدد أبياتها ، فلا ينبغي أن ينكر عليه أن يحىء بضعف
عدد أبيات المخبل في صفة الناقة أو يزيد
ثم بعد صفة الناقة والطريق يقول المخبل :

وتقول عاذلتى وليس لها بغد ولا ما بعده علم
إن الثراء هو الخلود وإن المرء يكرب يومه العدم

وهذه في التدرج وثبة

وكون الشاعر قد ذكر الرباب وهي لم تعف آثارها وهو مسافر ذو دأب يفيد أنه بسبيل
جد وكسب - وأن عذل المرأة له أن ماله قليل من بعض مادفعه إلى هذا السفر وإذن
فالرباب هي العاذلة أو ذلك رمز لها -

ثم يصير الشاعر إلى الحكمة وهي الدرجة العليا والغاية التي بلغت بها هذه الوثبة

إنى وجدك ما تخلدنى مائة يطير عفاؤها آدم

والمائة من الإبل مال دثر وقد تعلم أن الزكاة من الإبل نفسها تجب في خمس وعشرين
فالمائة أربعة أمثال ذلك

ولئن بنيت لي المشقر في هضب تقصر دونه العصم
وكان من سادتهم من كذلك يبنون

لَتَنْقَبَنَّ عَنِّي الْمُنِيبَةُ إِنَّ اللّٰهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمُ
إِنِّي وَجَدْتُ الْأَمْرَ أَرْشُدَهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَشَرُّ الْإِثْمِ

لأعدم المال يأتيتها الرباب
ومن أجل عذل الرباب وما تكلفه من الكلف التي هي على خلاف ما يرى من الحكمة
كان قوله
أولاً:

ذكر الرباب وذكرها سقم وصبا وليس لمن صبا حلم

وتشبه هذه الميمية في مساوقتها أول الأمر لعادة الشعراء ثم وثبتها إلى أمر من الحكمة ثم
ذلك قوى ارتباط المعنى والرمز بها كان استهل به لامية بشامة بن الغدير خال زهير وهي
من المفضليات العاشرة، وقد مر عنها بعض الحديث ولا بأس برجعة وبعض تفصيل

هجرت أمانة هجرا طويلا وحملك النأي عبثا ثقيلا
وحملت منها على نأيا خيالا يوافي ونيلا قليلا
ونظرة ذي شجن وامق إذا ما الركائب جاوزن ميلا
من هذه البداية تحس أن ههنا عاطفة ذات عقد ألوان - هجر ونأي ومقة وذكرى - شوب
من كبر المغاضب وأسف المحب وشكه في صواب ما يعزم عليه ويتكلفه من " واقع "
أمر الحياة وقوله « هجرت أمانة هجرا طويلا » يلفت، إذ المألوف أن تكون المحبوبة هي
الهاجرة .

ونسيب هذه القصيدة من أرق النسيب وأدقه
وتأمل بعد كيف تدرج من ذكر الخيال إلى ذكر لقاء لم يكن بخيال - قصة مما كان من
أمره وأمرها - ثم أعاد الخيال ذلك كما يعيده أو يسبق به

أتتنا تسائل ما بشنا فقلنا لها قد عزمنا الرحيلا

هذا تفسير للهجر الطويل كما ترى - بدأ الشاعر من حيث انتهى علقمة وغيره من
الشعراء حيث يثسوا وقالوا دعها .

هو قد وصل مرحلة اليأس فهي التي يبدأ بها . ثم كما يفعل بعض أصحاب القصص الآن إذ يرجعون بك إلى أشياء مضت من منطلق هو الآن، رجع بنا بشامة إلى ما كان من المقدمات والأحوال التي صارت به إلى اليأس - أتتنا تسائل عن أمرنا ما بشنا؟ فماذا كما كان يقول الدكتور زكي مبارك رحمه الله، ولا أعلم من أهل العصر من الجيل السابق من كان يتناول الشعر بسحر بيان بعد الدكتور طه حسين كمثل سحر بيانه - أتتنا :

.....
فقلنا لها قد عزمنا الرحيل
وقلت لها
.....

تأمل صيرورته إلى قلت بضمير المتكلم الواحد بعد أن كان جمعاً، وفي هذا من الخصوصية والمناجاة . . .

وقلت لها كنت قد تعلمين مذ ثوى الركب عنا غفولاً
فهذا من أسباب اليأس كما ترى .
قال أحد الشيرازيين أحسبه سعدي الشيرازي ما معناه إنك إذا رأيت صديقك يجلس عند عدوك فاعلم أن وداده قد انتهى واهجره . . .
وما كان لها من عذر غير الدموع :

فبادرتها بمستعجل من الدمع ينضح خذاً أسيلاً

مسكين الشاعر، لا يملك إلا أن يتصباه - يتصبى جانباً من قلبه هذا الخد الأسيل ينضحه دمع الطرف الكحيل - دمع اعتذار ليس بعاذرها حقاً وليس بمرضيه حقاً

وما كان أكثر مانولت من القول إلا صفاحاً وقيلاً
وعذرتها أن كل امرئ معد له كل يوم شكولاً

فدموعها إذن دموع عزم على وداع، وتقبل افتراق

كأن النوى لم تكن أصقبت ولم تأت قوم أديم حلولاً

أي كأننا لم نكن خليلين وكانت لنا حال وآل وبيننا ود ووصال . قال أحمد بن عبيد بن ناصح قوم أديم أي مجتمعون ، أمرهم ، واحد مجتمع فيهم أديم واحد ، فعزهم الدهر . قلت أي غلبهم الدهر . وإذن فهذه هي المأساة ، قد تبدلت به آخر — هي إذن الهاجرة ، ولابد له إذن من هجرها الهجر الطويل ، إذ ليس إلى غير ذلك من سبيل

فقربت للرحل عبرانة عذافرة عنتريسا ذمولا

ينبغي أن تكون هكذا وأن تكثر صفات قوتها لكي يتسلى من هذه المأساة

مداخلة الخلق مضبورة إذا أخذ الخافقات المقيلا

وهكذا مضى في نعت الناقة ، وصف سنامها كيف اكتنز وما كان من مرعاها وخنزوانتها إذ تسير إذما عودت غير الإكرام

لها فرد تامك نيه تزل الولية عنه زليلا

يعنى السنام والولية شىء يجعل تحت الرحل يقى ظهر الدابة من مباشرة الخشب

تطرد أطراف عام خصيب ولم يشل عبد إليها فصيلا

لم يشل لم يناد ولم يدع فصيلا ليرضع منها صونا لها

توقر شازرة طرفها إذا ما ثنيت اليها الجديلا

فهذه خنزوانتها .

وما خلّت صفة هذه القلوص من كبرياء صاحبتة التي أهدرت دموعها ثم لم تهبه إلا إعراضا ومقالا كإعراض إلا صفاحا وقيلا

ثم وصف عينها - وفيها أيضا من حال تلك التي بكت ثم أعرضت لأنها عين تمتحن
وتراقب كعين من يفيض قداح الميسر

بعين كعين مفيض القداح إذا ما أراغ يريد الحويلا

أراغ أراد، الحويل، الاحتيال
ثم وصف الأذن والصدر ثم مرت، وصار بعد إلى الإشعار بالجد والتشمير

وحادة كنفيتها المسيح تنضح أو بر شأ عليلا

هذه أذننا يسيل منها العرق على وبرها - والصورة منتزعة من مبادرة الدموع التي مرت .
والأوبر هنا في مقابلة الخد الأسيل، فيالذلك، كما ترى، من بديل :
وصدر لها مهيع كالحليف تحال بأن عليه شليلا

زعم الأصمعي أن بشامة أخطأ . قال الشارح قال الأصمعي : قد أخطأ في هذه الصفة
لأن من صفة النجائب قلة الوبر والانجراد، وإنما توصف بكثرة الوبر الإبل السائمة
ولا توصف بالوبر نجبية عتيقة كريمة .
قلت أصاب الجاحظ إذ أخذ على اللغويين ما أخذ . وللأصمعي من هذه مشابه، إذ
قد مر عليك مثلا ما أخذه على المزار حيث قال في صفة النخل :

كأن فروعها في كل ريح جوار بالذوائب ينتصينا

ولولا أن الأوائل تعقبوا أبا سعيد للزمنا أن نتهيب مكانه، قال الشارح قال أحمد : غير
الأصمعي يقول لم يخطئ الشاعر الوصف لأنه لم يرد الوبر وإنما أراد أن جلد صدرها
يموج من سعته، فلذلك قال شليلا، وهو كساء أملس ولم يرد الشاعر الوبر، إنما أراد
سعة الصدر ولو أراد الوبر لقال : تحال بأن عليه خميلا، فالشاعر قد أجاد والمتأول عليه
أنه أخطأ الوصف هو أخطأ وهذا مستحب في وصف الإبل والخيل، حتى كأن عليه
شليلا أى كساء يضطرب من سعته . وقال غيره المهيع الواسع الإبط والخليف طريق في
المنحنى . قال كاتب هذه الأسطر غيره هنا لا يعنى غير أحمد أو غير الأصمعي ولكن
يرد ذلك الى قوله في أول الشرح المهيع الواسع والخليف الطريق - (وانظر الشرح الكبير
ص ٨٤)

وما أجود ما قال أحمد بن عبيد بن ناصح . وغير الأصمعي حيث قاله لا أحسبه ما
عنى به إلا نفسه .

ثم لم يزل الشاعر يقرؤ بتصويره الناقة أثر ما صور به أمانة التي هجرته وهجرها هجرا
طويلا كما زعم - وهذا الصدر المتموج كأن عليه شليلا هو صدرها إذ تنخج بيبكاء
الوداع الهاجر . وهذه الأماكن التي مر هو عليها ومرت ناقتة عليها هي أيضا مواضع
مرور الظعينة إذ كما هو هاجر هي هاجرة وكما هو مودع هي مودعة .

فمرت على كشب غـدوة وحاذت بجنب أريك أصيلا
توطأ أغلظ حـزانه كوطء القوي العزيز الذليلا
وهذا التشبيه يوقف عنده .

الصفة للناقة ولأمانة أيضا . وهي العزيز وهو المسكين الذليل . ولا معنى لوصف وطء
الناقة هذه الصفة إن لم يرم الشاعر الى الرمز والإيحاء وأن يضمن هذه الصفة معنى هذا
الهجر الطويل والصفاح والقليل .
ثم استمر يصف سير الناقة بعد أن فصل ما فصله في صفة أعضاء منها :

إذا أقبلت قلت مـذعـورة من الرمد تلحق هيقا ذمولا
من الرمد أي من النعام - وهذا مع انه من صفة إقبال سير الناقة مردود من جهة تجاوب
أصداء المعاني على قوله أنفا :

أتتنا تسائل ما بثنا فقلنا لها قد عزمنا الرحلا
وقلت لها كنت قد تعلمين من منذ ثوى الركب عنا غفولا
فهذا فيه معنى المذعورة الجفول
وإن أدبرت قلت مشحونة أطاع لها الريح قلعا جفولا
فقد جاء بالجفول من صفة النعامة وهو هنا يشبه الناقة بالسفينة - وهكذا كان إدبار
أمانة إذ أدبرت عنه وإذا أعرضت إعراضا .

وإن أعرضت راء فيها البصير مالا يكلفه أن يفلا
أي مالا يخطيء معه أنه إعراض .
وإعراض الناقة هنا أن تريك جانبها . والبصير إذا أرته جانبها فنظر علم نجابتها ،

فهذا ظاهر المعنى ، وهو مردود أيضا على ما تقدم من قوله :

صفاحا وقبلا

إذا الشعر ذو خفايا وألوان - ثم فصل صفات النجابة وهي أيضا من شواهد الإعراض

يندا سرحا مائرا ضبعها تسوم وتقدم رجلا زجولا
أى رجلا تضرع الحصى وعوجا تناطحن تحت المطا
وتهدي بهن مشاشا كهولا

العوج الأضلاع . تناطحن دخل بعضهن في بعض . مشاشا عنى بها رؤوس العظام
المركبة فيها الضلوع . كهولا . من قولهم اكتهل النبات ، أى رؤوس عظام فيهن قوة
وارتفاع ومن تأمل هذه الصفة وجد فيها عودة على قوله :

وصدر لها مهيع كالخليف تحال بأن عليه شليلا

والتناطح فيه حركة أشبه بحركة الشليل الأملس المتموج منها بمحض التداخل إلا أن
يكون في هذا التداخل معنى التموج كما يدخل الموج بعضه في بعض وكذلك حركة
الضلوع في الصدر القوي الجيد .

وصفة المرأة التي ذكرها من هذا غير بعيد .

ثم استمر في صفة مشى هذه الناقة ، وتشبيهاته لا تنى تحمل معاني من الرمز :

تعز المطى جماع الطريق إذ أدلج القوم ليلا طويلا

أى تغلب الإبل الأخرى وتسبقها على الطريق . وهنا رجعه الى قوله من قبل :

توطأ أغلظ حزانه كوطء القوي العزيز الذليلا

ولو نستعير ورقة من كتاب جون كيري John Carey صاحب كتاب النقد المعاصر
عن الشاعر جون دون John Donne لذكرنا القارىء أن الوطء والجماع كلاهما يجرى
بمعنى المباشرة . والجماع الطريق هنا أى معظمه .

كأن يــــديها إذا أركلت وقد جرن ثم اهتدين السبيلا

أى الإبل وأشر بهن معنى النساء بهذا الإضرار

يبدأ عاثم خر في غمرة قد أدركه الموت إلا قليلا
تلقى حركة الهمزة على الدال .

هنا وصف جيد بارع من حيث حاق تصوير الحركة ، إذ الشاعر إنما التقط حركة اليدين والرجلين وفيهما عند إسراع الناقة اضطراب ، فتشبيه ذلك بحركة العاثم المجد وقد كاد يغلبه موج أو تيار فبدأ من ضرب يديه ورجليه إلحاح منازعة ذات إسراع مفرط مذعور ، تشبيه دقيق . على أن حال الناقة حين تجد وتندفع أبعد شيء عن حال الغريق . وما خلا الشاعر من تضمين وصفه إبحاء بما كان قاله من قبل من معنى الفراق على كراهة ذلك وعلى بأس من صلاح الحال ، ومن معنى سيقوله من بعد عن قومه والذين كانوا لهم جيرانا وحلفاء من قبل والمشرع بالإبحاء قوله :

قد أدركه الموت إلا قليلا

إذ قوله «يبدأ عاثم خر في غمرة» واف بالصفة المرادة ، ولكن هذه الزيادة مع توكيدها وتقويتها لمراده من التشبيه أدل على مكنون من الإبحاء .
ثم في الغمرة شبه من معنى العبرة ، وذلك حيث قال :

فبادرتاها بمستعجل من الدمع ينضح خذا أسىلا

ثم من هذه الغمرة تحيى وثبة الشاعر الى معاني الحكمة التي ختم بها قصيدته والتي هي أربه وضالته التي ينشد .

ومع الوثبة شيء من تداعي المعاني وقوة دلالة الرمز .
وقد يذكر القارئ الحكيم أن الشاعر إنما رأى في أول القصيدة من أمامة بعد هجره إياها الطويل خيالا .

وحملت منها على نأيا خيالا يوافي ونىلا قليلا

حتى هذا الخيال لا يزوده ما يزعم الشعراء أنهم يتزودونه . قال عمرو بن قميئة

نأتك أمامة إلا سؤالا وإلا خيالا يوافي خيالا

خيال يخيل لى نيلها ولو قدرت لم تخيل خيالا

ولكان بشامة تعدد الى أن يشير الى مقال ابن قميئة هذا حيث قال :

هجرت أمامة هجرا طويلا

فأمامة كما ترى هي نفس العلم الذي جاء به عمرو بن قميئة من قبل، وكان من أصحاب امرئ القيس، مشهوراً من شعراء العرب .
وعند عمرو بن قميئة هي الهاجرة .
وذكر الشعراء تنويع الخيال كثير ومن أشهره قول ابن الخطيم :

ما تمنعي يقظى فقد توثينيه في النوم غير مصرد محسوب
وأخذ هذا المعرى فقال :

تسئ بنا يقظى فأما إذا سرت رقادا فإحسان إلينا وإجمال
وقال أبو الطيب، فجعل نفسه ذا عفاف حتى مع الخيال، وكأنه ينظر الى قول اليشكري
«من حبيب خفر فيه قدع» فقال :

يرد يدا عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوي في طيفها وهو راقد
والمبالغة في هذا القول . وهو بعد جيد بالغ .
وحول الخيال بشامة في تذكره النظرة حيث قال :

ونظرة ذي شجن وامق إذا ما الركائب جاوزن ميلا

ثم جعل الأمر قصة بعض ما كان .

ثم هاهنا رجع فجعل القصة طيف خيال كما بدأت . وعدل من الرمز وهو أمامة الى معان من الرموز له . وهذا يناسب عودته فجعله القصة أحلاماً وللأحلام تأويل . هاهنا الوثبة . والذي يدل على أنه جعل ما كان قصة ورمزاً، مرة أخرى خيالاً وأول ذلك الخيال قوله .

أجدوا على ذي شويس حلولا	وخبرت قـــومي ولم ألقهم
فأبلغ أمائل سهم رسولا	فإمــــا هلكت ولم آتهم
كلتاها جعلوها عدولا	بأن قـــومكم خيروا خصلتين
وكلا أراه طعاما ويلا	خزي الحياة وحرب الصديق
فسيروا الى الموت سيرا جميلا	فإن لم يكن غير إحــــداهما
كفى بالحوادث للمرء غولا	ولا تقعدوا وبكم منة

وحشوا الحروب إذا أوقدت رماحا طوالا وخيلا فحولاً
ومن نسج داود موضونة ترى للقواضب فيها صليلاً
فإنكم وعطاء الرهـان إذا جرت الحرب جلاً جليلاً
كثوب ابن بيض وقاهم به فسد على السالكين السيلاً
وهو الجزء الختامي وذروة مقاصد الشاعر.

قوله ولم ألقهم ولم أتهم يقوى مزعمنا أن هاهنا رجعة الى الطيف، لأن القصة التي قصها من قبل يقول فيها « أتتنا تسائل ما بثنا » فهذا إن يكن طيفاً، وهو كذلك، فإنه لا إتيان ولا لقاء، ولكن حلم، وقوله: « أجدوا على ذي شويس حلولا » فيه أنفاس من قوله:

فقلت لها كنت قد تعلمين منذ ثوى الـركب عنا غفولاً

فلم يكن لها اعتذار إلا الدموع، وقوله: « أتتنا تسائل ما بثنا » يشبه « وخبرت قومي ولم أتهم البيت » لأنه في هذا الذي جعله خيالاً قال: « قد عزمنا الرحيل » فهؤلاء الذين قال بلسانهم "قد عزمنا" هم قومه. وذو شويس موضع بعينه، جبل في ديار بني مرة، قال ذلك البكري في معجم ما استعجم وضبطه بشين معجمة بعدها واو مفتوحة، فباء ساكنة فسين مهملة على صيغة التصغير كأنه تصغير شأس خففت همزته والشاس الخشن، وضبطه ياقوت بفتح فكسر بوزن كريم وظريف، ويجوز أن بعضهم كان ينطقه هكذا، أو أن ذلك كان النطق على زمانه. وفي ذكر شويس كناية عن الصلابة والخشونة وعن الاعتصام والمأوى معا إذ هو جبل، ويجوز أن يكون في ذلك شيء من الإيحاء الى الحصين بن الحزام، من سادات بني مرة، لما استوثق بينه وبين قوم بشامة من حلف. وقوله "فأبلغ أمائل سهم رسولاً" كقوله « أتتنا تسائل ما بثنا » - الشبه في إرسال الرسول فإنه في معنى إتيانها تسائل كما أن من معنى ما بثنا أي شيء بثناه إن شئت، وأي شيء حالنا. وقوله: « قد عزمنا الرحيل » فقد أرسل الى قومه وعزم أن يلحق بهم وذلك قوله: « فإما هلكت ولم أتهم » فما يمنعه من الإتيان إلا أن يهلك. وقوله: « خزي الحياة وحرب الصديق » في معنى ما بث أمانة وبثته إذ قال لها كنت "عنا غفولاً" فبكت ولم تصنع إليه كبير شيء فلم يجد بدا من الهجر.

وقوله: "فسيروا الى الموت سيرا جميلاً"

تأويل ما تقدم من قوله: « هجرت أمانة هجراً طويلاً »

وقوله: « وكل أراه طعاماً وبيلاً » وإن شئت وكلا بالنصب تأويل ما تقدم من قوله:

وحملت منها على نأيتها خيالاً يوافي وعبثاً ثقيلاً
ونظرة ذي شجن وامق إذا ما الركائب جاوزن ميلاً

فهذا مع الحرمان طعام وبيل، والهجر طعام وبيل، فإن لم يكن بد من إحدي الخطتين فالهجر منه ومنها:

وما كان أكثر ما زودت من النيل إلا صفاحا وقيلا

أي إعراضا وكلاما - مغالطة أو نحو ذلك.

وإذن فهي الحرب. ولا بد لذلك من عدته، رماحا طوالا، وخيلا جيادا ودروعا وسيوفا. ومن أكمل عدته وأبدى الحزم هيب جانبه - ثم نصحبهم أن يلزموا جانب العدل حتى لا يجير البغي عليهم وبالا، وهذا متضمن في زعمه أن الخطتين اللتين خيروا؛

..... كلتاها جعلوها عدولا

أي جورا وعدولا عن الحق. فأنتم يا قوم فلا تعدلوا عن الحق فالبغي مرتعه وخيم. هذا الروح هو نفسه الذي نجده عند ابن أخته:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

فهذا قولنا من قبل إن بشامة أستاذ زهير، وذلك أقرب من أن نقول إن زهيرا من المدرسة الأوسية، وإن يك أوس تزوج أمه وهو قد روى منه، ذلك بأن أصل أخذه وتلمذته هو بشامة وعلى هذا قول الرواة وقوله:

فإنكم وعطاء الرهان إذا جرت الحرب جلا جليلا
كثوب ابن بيض وقاهم به فسد على السالكين السيلا

تقوية لما تقدم من معنى الاستعداد ولزوم جانب الجد والحزم مع تجنب البغي والجل كساء الجواد، فجعل مد الحرب غبارها وشرها جلا جليلا، فإذا حدث هذا فإن الحلف الذي عقدتموه مع الحصين بن الحمام المري والرهان الذي أعطاكموه، قالوا رهنهم ابنه، عدة لكم جسيمة لمكان الحصين ومكان بني مرة في غطفان، فهذا كثوب ابن بيض الذي جعله وقاية له من شر لقمان. وضرب بشامة ذلك مثلا. وزهير كخاله مما يضرب الأمثال.

وهذا اختتام حسن.

أرحلت من سلمى بغير متاع
انتقال الشاعر فيها من النسب وصفة الطريق كأنه اقتضاب وإنما هو وثبة درجتها
متضمنة في صفة السير الذي بدأه من عند أول النسب إذ زعم أن سلمى من قلبه
بمكان وحباله لم تنقطع ، فالرحيل إذن من أجل هذا المديح .

فلأهدين مع الرياح قصيدة منى مغلغلة إلى القعقاع
جعلها مع الرياح لركوبه وتغنيه ووروده المياه بهذه المدحة العصماء
ترد المياه فلا تزال غريبة في القوم بين تمثل وسماح
هذه مقدمة . ثم تدرج منها إلى المدح نفسه :

وإذا الملوك تدافعت أركانها	أفضلت فوق أكفهم بذراع
وإذا تهيج الريح من صرادهما	ثلجاً ينيخ النيب بالجعجاء
أحللت بيتك بالجميع وبعضهم	مفروق ليحل بالأوزاع
ولأنت أجود من خليج مفعم	متراكم الآذي ذي دفعا
وكان بلق الخيل في حافات	يرمي بهن دولي الزراع

هذا البيت مع طربه صورة مذهلة — ومع ذكره الخيل خطر له ذكر الحرب ، وهذا
من باب تداعي المعاني
ولأنت أشجع في الأعادي كلها . من مخدر ليث معيد وقاع
ونصير بعد إلى ذكر تداعي المعاني :

ثالثاً : تداعي المعاني

حق هذا كان أن نذكره قبل التسلسل وقبل التدرج إذ هو في مادة ربط أول
القصيدة بما يليه إلى آخرها أصل أصيل . ويدخله الرمز والإيحاء والتدرج والتسلسل .
ولكننا أخرناه عنهما لأن أمرهما كأنه أبين من أمره . وإنما نصل إلى درك ما كان وراء قول
الشاعر من تداعي المعاني بالحدس وبالتفكير وبالتخمين كثيراً .
وبعض التداعي عفوي الانسياب آخذ ما يسبق منه بما يلي ، متجاوبة أطرافه
متساوقة تساقاً واضحاً جلياً . على ذلك قصيدة امرئ القيس " قفا نيك من ذكرى

حبيب ومنزل " - ما من فصل منها إلا هو مفض إلى ما بعده ، ودعاء المعنى أخاه له
إصبع تشير ، وقد مر تفصيلنا ذلك في هذا الجزء وفي الجزء الثالث في باب الجمال
ومقاييسه ، فأغنى ذلك عن أن نعيده هاهنا .

وفي تداعي المعاني عند طرفه قلق واندفاع دفعات دفعات . وحركة القلق تنتظم
قصيدته من عند أولها إلى آخرها مع نوع من شدة وعنف :

يجور بها الملاح طورا ويهتدي
كما قسم الترب المفايل باليد
ينفض المرد . . .
تناول أطراف البرير وترتدي
تخلل حر الرمل
لأمضى الهم
بعوجاء مرّ قال تروح وتغتدي
نصأتها . . .

تباري عتاقا ناجيات وأتبعث وظيفا وظيفا فوق مور معبد
جنوح دفاق
بعيدة وخذ الرجل مواراة اليد
واروع نباض
وجاشت إليه النفس
خب آل الأمعز
فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربهما أذيال سحل ممدد
وهلم جرا وقد قال يصف نفسه :
خشناش كرأس الحية المتوقد

فهذا في القلق شاهد .

وعكس ذلك حركة السأم والأناة التي تنتظم ميمية زهير من عند الطعائن إلى
صحيحات المال الطالعات بمخرم ورحى الحرب الثقيلة الطحون والشيء بالشيء
يذكر .

الوقفة عند الطلل أذكرت بحدوج المالكية . ودعا ذلك ذكر الحي والفتاة التي كما
قال :

وفي الحى أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطى لؤلؤ بزبرجد
فاللؤلؤ ثناياها والزبرجد لثاتها وشفاتها .
ثم ذكره الشمس أشعره حرها :-
وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغندى
ونعلم أن المرقال دعا إليها ذكره الشمس لقوله من بعد :
أحلت عليها بالقطيع فأجذمت وقد خب آل الأمعر المتوقد
وإنما خب وتوقد من توهج الشمس عليه - هذه الشمس التي إياتها قد سقت
تلك الثنايا اللامعات العذاب .
ثم إذ ذالت الناقة وشبهها بفتاة الشرب دعا ذلك ذكر فتوته هو :
ولست بجلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد
وأبيات القصيدة المشهورات الغر من وصف القينة إلى
وما زال تشرابي الخمر ولذتي
إلى :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت غلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

الآبيات -

ثم بعد إذ أثبت على نفسه ما حقا يصح لمن يهيمه أمره أن يلومه عليه قال : " يلوم
ولا أدري علام يلومني " ، فقص قصته مع قرط بن معبد ومع ابن عمه مالك
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
ثم دعت الشكوى غضبا :

أنا الرجل الضرب

وإذا بهذا الرجل الضرب يعقر عقيلة مال شيخ الحى ، أبيه أو عمه

فظل الإمام يمتلن حوارها ويسعى علينا بالسديف المرهد
فإن مت فانعيني بما أنا أهله وشقى علي الجيب يابنة معبد

وكانها أرته بصيرة فؤاده أن جرائر طيشه سترديه قليلا
وختم القصيدة بشراصة المقاتل وسفاهة صاحب نار الميسر وإن كانت من مآثر
الجاهلية وانتظار الموت ونعى نفسه إلى نفسه وإلى الحي من عدو وصديق :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعده

ومن تداعي المعاني الذي تحتاج في تتبعه إلى إعمال الفكر ميمية علقمة
هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم بمصرور
وكثير من الاستطراد والرجعة إلى ما تقدم من قول يدخل في باب تداعي المعاني ،
وفي ما فصلناه من متقدم الأمثلة ما يفي ويغني عن إعادته إن شاء الله تعالى
وقد تتداعي المعاني في حيز إطار عادة الشعراء من طلل ونسيب وما هو محور من
ذلك أو مقاربه .

وقد يقدم الشاعر ويؤخر مفتنا في ذلك ، فيغلب ما يمليه عليه تداعي المعاني على
ما هو مألوف من ترتيب الرحلة بعد النسيب والأغراض بعد الرحلة .
من أمثلة ذلك كلمة المزار :

لا حبذا أنت يا صنعاء من بلد ولا شعوب هوى منى ولا نغم
ولن أحب بلادا قد رأيت بها عنسا ولا بلدا حلت به قدم
إذا سقى الله أرضا صوب غادية فلا سقاها من إلا النار تضطرم
وانتقل من هذا على سبيل المقابلة وهي من عوامل الربط كما سيلي ذكره إن شاء الله إلى
مدح وادي أشي بديار نجد والفتيان الذين به :

وحبذا حين تمسي الريح باردة وادي أشي وفتيان به هضم
ثم مضى في مدح هؤلاء الفتيان الهضم أي كل منهم هضم للمال بكرمه وإن شئت
فقل هضم أي ضامر غير مترهل إذ فعل لكنا الصيغتين جمع

الواسعون إذا ما جر غيرهم على العشيرة والكافون ما جرموا
والمطعمون إذا هبت شامية وياكر الحي من صرادها صرم

أي من سحابها البارد قطع - ثم كرر هذا المعنى وقرره وأكدته :
وشتوة فللوا أنياب لزبتها عنهم إذا كلحت أنيابها الأزم
أي الأوازم أي العاضة
حتى انجلي حدها عنهم وجارهم بنجوة من حذار الشر معتصم
هذا كرمهم ثم أخذ في ذكر نجدتهم وفروسياتهم
وهم إذا الخيل حالوا في كواثبها فوارس الخيل لا ميل ولا قزم
وهذا كأنه أخذه من قول سلامة :

لا مقرين ولا سود جعابيب

وقاسه عليه .

لم ألق بعدهم حيا فأخبرهم إلا يزيدهم جبا الى هم
وهذا البيت مما يستشهد به النحاة أراد يزيديني . وعرض هاهنا بالعودة إلى ما كان فيه
من ذم أهل صنعاء ولعمري ما أنصفهم وما أنصف صنعاء ومضى في مدح أقوامه :
كم فيهم من فتى حلوا شائله جم الرماد إذا ما أخذ البرم
وعني بالبرم البخيل وأصله الذي لا يشهد الميسر وكانت نار الميسر مما توقد لمنفعة
الضعاف

تحب زوجات أقوام حلائله إذا الأنوف امترى مكنونها الشبم
أي إذا كان البرد وزكامه . ونظر في هذا المعنى إلى قول متمم :
ولا برما تهدي النساء لعمره إذا القشع من حس الشتاء تقعقا
ثم مضى على هذا النهج
ترى الأرامل والهلاك تتبعه يستن منه عليهم وإبل رذم
ثم وصف جفان هذا الفتى الذي جعله صورة لفتيان وادي أشي الهضم
ترى الجفان من الشيزي مكللة قدامه زانها التشريف والكرم

ينوبها الناس أفواجا إذا نهلوا علوا كما عل بعد النهلة النعم

ثم قفز به تداعي المعاني من تذكر الفتيان وكرمهم إلى تذكر الفتيات وقتاة بعينها منهن زاره طيفها -

زيارة طيفها هي التي أثارَت في نفسه بغض الاغتراب فذم صنعاء وما حولها وتمنى لو يعود - بدأ بذكر الفتيان للموازنة بينهم وبين ما كره من صنعاء ، وكان أنسب أن يبدأ بذكر الرجال .

ثم كأن أمر الطعام والجفان صحبه تداعي المعاني الذي جر إلى ذكر النساء ثم إلى ذكر امرأة منهن بعينها . ثم إلى أن جاء بما شأنه أن يكون مقدمة نسيية في موضع الرحلة ، لأن الطيف يزور مع الرقاد ، وهو قد نزل لتعريس الفجر هنا فطرقة الخيال -

زارت رويقة شعنا بعد ما هجعوا لدى نواحل في أرساغها الخدم

النواحل هي الرواحل وقد كدها السير . والشعث عنى به أشعث واحدا هو نفسه ، ولكنه جاء بالجمع ليناسب ما كان فيه من قصة فتياته الكرام الذين بوادي أشي . فقد صاروا الآن معه في السفر . ولا يكون هذا الفتى الكريم ذو الجفان المكلفة ، الذي تحب زوجات أقوام حلائله إلا إياه هو

وقمت للزور مرتاعا فأرقتني فقلت أهى سرت أم عادني حلم

هذا يبين به قوة طروق الطيف وحيوية ما رأى من شخصه - ثم انتقل الى تصوير من باب أوصاف الغزل ، جعله في مقابلة ما كان من وصف الفتى الهمام الكريم :

وكان عهدي بها والمشي يبهظها من القريب ومنها النوم والسأم
وبالتكاليف تأتي بيت جارتها تمشى الهوينى وما يبدو لها قدم

وهذا جمع به بين صفة صاحبة الأعشى ، وصفة ما ينبغي أن تكون عليه المرأة المحتشمة ، وهذا من جهة الوصف لخلقها وشيمتها فيه من الجمع بين المتباينين ، المشي المتأنت حتى إنه ليهظها والتحفظ الذي يسبغ الستر حتى على القدم ، كما بين جمعه في الرائية :

عجب خولة إذ تنكرني أم رأَت خولة شيخا قد كبر

بين صفتي البادنة والهيفاء

ثم يقول ، وكأنه جعله رمزاً للنجد وللفتيان معا ، واستمرارا في ذم صنعاء :

رويق إني وما حج الحجيح له وما أهل بجنبي نخلصة الحرم
لم ينسني ذكركم مذ لم ألاقكم عيش سلوت به عنكم ولا قدم
لم تشاركك عندي بعد غانية لا والذي أصبحت عندي له نعم

وهذه مناجاة رقيقة وشكوى من روح عفيف ذي صدق في المودة . ثم فيها من جهة الصنعة رد لعهد من صاحبه على مثل حال الوفاء التي ذكر في حديثه عن أصحابه الفتيان حيث قال :-

لم ألق بعدهم حيا فأخبرهم إلا يزيدهم حبا إلى هم

وصدقه في صوابته وقسمه لرويقة أنه لم تشاركه في حبه لها غانية بعد إذ نأى ، دعا إلى تنى العودة - فبدأ بذكر الشقراء يجعلها في مقابلة صنعاء ثم عدد مواضع بعدها مما يحب :

يأليت شعري عن جنبي مكشحة وحيث تبنى من الحناء الأطم

مكشحة موضع باليامة والأطم الواحد والجمع الآطام وأطوم وأحسبه هنا أراد الأطوم ثم أزال الإشباع وكانوا مما يفعلون ذلك ، ويدلك على هذا تأنيثه الفعل : « وحيث تبنى » والأطم المفرد مذكر . وأراد التنبيه إلى آطام جنبي مكشحة من اللبن والرمل ، ولكن أبنية صنعاء من الحجر . فهو يحن إلى حيث « تبنى الأطم » لا من الحجر ، وتلك دياره .

يأليت شعري عن جنبي مكشحة وحيث تبنى من الحناء الأطم
عن الأشاء هل حالت مخارمها وهل تغير من آرامها إرم
وجنة ما يذم الدهر حاضرها جبارها بالندى والحمل محتزم
الجبار طوال النخيل

فيها عقائل أمثال الدمى خرد لم يغذهن شقا عيش ولا يتم

فجعل الأشاء في مقابلة أشي وأنت وجعل جنتها فيها عقائل حسان كما في جنان الفردوس . وهؤلاء العقائل في مقابلة ما بدأ به من ذكر الفتيان . ثم انتقل إلى ذكر

أزواجهن . ثم إلى ذكر الخيل والفتوة ، وجعل نفسه قائد كبة الخيل . ولم يخل ههنا من نظر إلى إبل علقمة التي

يهدي بها أكلف الخدين مختبر من الجمال كثير اللحم عيشوم
وذلك قوله بعد أن قال فيها عقائل ، البيت المتقدم ذكره :-

يتباهن كرام ما يذمهم جار غريب ولا يؤذي لهم حشم
كما دم هو صنعاء وشعوب ونقما

مخدمون ثقال في مجالسهم وفي الرجال إذا صاحبتهم خدم

فدل على أنهم أو على أن منهم معه في الرجال - فدعاه ذلك إلى أن يتمنى مزيدا من الأوبة إلى دياره ، وكما تمنى رويقة من قبل وبين لها بقاءه على العهد ، حن هنا إلى صاحب له من فتيان دياره :

بل ليت شعري متى أغدو تعارضني جرداء سابحة أو سابح قدم
نحو الأملح أو سمنان مبتكرا بفتية فيهم المرار والحكم

أما المرار فالشاعر والحكم هو هذا الصاحب الذي تمناه وجعله في الرجال مقابلا لرويقة في النساء ، وقد أحسن اختيار الأسماء .

ليست عليهم إذا يغدون أردية إلا جواد قسي النبع واللجم
وكانه يعيب ما رأى من أردية في صنعاء

من غير عدم ولكن من تبذلهم للصيد حين يصيح القانص اللحم
قوله «من غير عدم» احتراس كما ترى . وقد قال عبدة بن الطبيب وهو تميمي :

لما وردنا رفعنا ظل أردية وفار باللحم للقوم المراجيل

وأخذ عبدة من قول امرئ القيس في البائية

فيفزعون إلى جرد مسومة أفنى دوابرهن الركض والأكم
يرضخن صم الحصى في كل هاجرة كما تطاير عن مرضاخه العجم
يغدو أمامهم في كل مرباة طلاع أنجدة في كشحه هضم

فهذا عنى به نفسه وقوله في كشحه هضم يقوى تفسيرنا قوله هضم أنه جمع لهضم الكشح ، فهذا الرجل الضامر صدى من ذلك الفحل العيثوم الذي في ميمية علقمة : والإشارة الى ماثور القول وتضمينه والإيحاء إليه كل ذلك مما يدخل في باب الربط ويكون مع تسلسل الكلام وتدرجه كما يكون مع تداعي المعاني — قول بشامة بن الغدير: «جلا جليلا» دعا فكرة «ثوب بن بيض» وهو إشارة وضرب مثل وقول زهير في المعلقة :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجهرم

دعا قوله من بعد :

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
أي يكتن من الله سبحانه وتعالى .

رابعاً ، المقابلة

وقد تكون فرعا من تداعي المعاني ، كما قد تكون مقدمة له ، ومن المقابلة ما دلالة التباين ، فالمباين يقابل مباينه ، ومنها ما يدل على تشابه ، فيكون من باب إلحاق الأمر بما يشبهه ويكون من هذه الجهة موازنا له . فمن باب إلحاق الأمر بما يشبهه أبيات حصين بن ضمضم في معلقة زهير ، فانه لما قال :

«هل أقسمتم كل مقسم فلا تكتمن الله إلخ» ألحق بهذا كتمان حصين ما عزم عليه من الخروج وقول عنتره :

وكأننا التفتت بجيد جدية رشأ من الغزلان حر أرثم
نبث عمرا غير شاكر نعمتي والكفر مخبثة لنفس المنعم
فها هنا تداعي معان ، إذ وجد عند الغانية التي يصف إساحا ومنالة فهو لذلك شاكر . ولكن عمرا جاحد . عمرو هذا إما أبوه وإما عمه وإما صديق ، وهو هنا يذكر منه نكرانا وجحودا ، ويحذر من عواقب ذلك .

وألحق بعمرو هذا حنقه في آخر القصيدة على ابني ضمضم . والراجح انها كانا ذوي شر عارم ، فقد ترى ذكر زهير حصينا منها ، وقد يكون حصين هذا نفسه هو الذي شتم عنتره ، فنكره عنتره بذكر أخيه معه ، وكأن عنتره يقول أما عمرو فبكفره نعمتي قد خبت نفسي ، وأما ابنا ضمضم حصين وأخوه فقد قتلت أباهما وكمثل مصرعه مخبوء لهما عندي لو يجسران فألقاهما .

المقابلة التي تساق تداعي المعاني وينبعث منها وتنبعث منه مع الموازنة، وحذو الشيء بعد الشيء على مماثل ذي مماثلة ما له من قبله أو من بعده، هي أكبر ما عليه الربط والوحدة في معلقة طرفة. وقد نبهنا الى أن حركة الحدوج المهترزة اهتزازا شديدا - رمز انفعال الشاعر ذي الحيوية الشديدة - تنتظم الكلمة من عند «يجور بها الملاح طورا ويهتدي» الى «تناول أطراف البرير وترتدي» - ينفض المرد - أتلع نهاض - اروع نباض - جس الندامى - سامي واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها - كرأس الحية المتوقد - كسيد الغضا - رجعت في صوتها - خب آل الأمعر

كهاة ذات خيف جلاله عقيلة شيخ كالويل يلندد
..... ذلول بأجماع الرجال ملهد.....

وما أشبه من تتابع الصفات ومن ضروب التقسيم
صهايبة العثون مؤجدة القرا بعيدة وخد الرجل مواراة اليد
هذا...

وعينية أبي ذؤيب صار فيها بعد الدمعة الحارة، من حيث ذكروا عن عمر رضي الله عنه قوله عنه إنه سلا إلى درجات من طلب العزاء وكل صورة فيها مقابلة وموازنة ومشابه مما قبلها.

أول شيء صورة الحمار الوحشي وآتته وهؤلاء يصيهن القدر بسهامه عند الورود في لحظة مأساة حاسمة:

فأبدهن حتوفهن فهارب بدمائه أو بارك متجعجع
والصورة على جودتها تنظر الى قول علقمة:

رغا فوقهم سقب السماء فداحض بشكته لم يستلب وسليب

فالداحض هو هذا البارك المتجعجع

ثم صور أبو ذؤيب صراعا أشد - الثور والكلاب والصائد ذا الأسهم:

فبداله رب الكلاب بكفه بيض رهاب ريشهن مقزع
فرمى لينقذ فرها فهوى له سهم فأنفذ طرته المنزع
فكبا كما يكبو فنيق تارز بالخبث إلا أنه هو أبرع

وهذه الصورة الجيدة، هي أيضا من قول علقمة: فداحض بشكته إلخ
ثم خاتمة القصيدة صراع فارسين مدججين بالسلاح - وهذه كما ترى درجة أعلى وأعنف

من درجات القتال . والقدر في جميع ذلك بالمرصاد . وفي الحمار والثور كما في الفارسين
كليهما من الحمية والثقة وحسن البلاء
متحاميين المجد كل واثق بيلائه واليوم يوم أشنع

ومن عجيب الشعر ميمية المرقش الأكبر . والمرقش جاهلي قديم .
وكان الرواة لم يظفروا بكل أبيات هذه القصيدة . ولم يوفوها الشراح حقها من الشرح .
وروى عن أبي عكرمة بعض خبر هذه القصيدة أنها رثي بها الشاعر ابن عمه ثعلبة بن
عوف بن مالك ثم قال في شرح البيت :

ثعلب ضراب القوانس بالسيف وهادي القوم إذ أظلم
ثعلب اسم رجل ولم يرد ثعلبة . فتأمل هذا الاختلاف .

وقال الأستاذان أحمد محمد شاكر رحمه الله والأستاذ عبد السلام محمد هارون في تحقيقيهما
المختصر من تحقيق المستشرق ليال لشرح ابن الانباري الكبير وهي من نادر الشعر
الذي بدىء فيه الرثاء بالغزل . قلت ومن تأمل القصيدة وجد أنها فيها الرثاء وغير
الرثاء ، وليست هي حقاً بمرثية وإنما الذي ذكر في البدء خبر من خبرها . وقد رأيت
اضطراب الشارح في ثعلبة وثعلب ولولا رواية رواها ما وقع هذا الاضطراب إذ أمر
الترخيم أول ما يتبادر إليك في مثل هذا الموضع . وقال في شرح البيت :

إن يغضبوا يغضب لذاك كما ينسل من خرشائه الأرقم

الخرشاء جلد الحية والأرقم الحية قال أبو جعفر . يغضب يعني الرئيس الممدوح غيره
قشر كل شيء خرشائه . قال وكل منتفخ أجوف فيه خروق فهو خرشاء .
قلت فعلى هذا التفسير الثاني : كما ينسل من خرشائه الأرقم أي كما ينسل الأرقم - والمراد
بالتشبيه غير واضح إلا أن يقال هو كالأرقم عنده السم والنكاية إذا غضب فصار
ولكن سورة الحية وانسلاله ليس أمراً واحداً .

وقال الأستاذ أحمد محمد شاكر رحمه الله والأستاذ عبد السلام محمد هارون يغضب يعني
الممدوح . وهذا كما ترى مخالف لما تقدم من أن القصيدة مرثية .
ومن تأمل سياق أبيات القصيدة الى قوله :

والوالدات يستفدن غنى ثم على المقـدار من يعقم

وهو البيت السابع عشر ، وجد أن الكلام محكم الترابط ، وإن تك الأبيات الستة الأوائل
نسيباً ، والثلاثة التاليات رثاء ، وسائر ما بقي حكمة وعزاء .
وقف الشاعر بمكان قفر . دار كانت دار أحباء فأقفرت منهم .

هل بالديار أن تحيب صمم لو كان رسم ناطقا كلم
الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم
ديـار أسماء التي تلبت قلبي فعيني ماؤها يسجم
أضحت خلاء نبتها ثد نور فيها زهوه واعتم

ثد أي ند وهذا أدل على خلائه إذ لو كان به أهل ونعم وشاء لكان قد بدا ذلك فيه .
صورة النبات والزهر هنا خبر عن أمر واقع ، لا وقفة مع سحر الطبيعة . إلا أن الطبيعة
أبت إلا أن تفرض على الشاعر الإحساس بجملها

نور فيها زهوه واعتم

وفطن أبوتمام ، وكان على الشعر مطالعا وبه خبيرا ، أن هاهنا تأملة للجمال فقال بيته
الجيد :

حتى تعمم صلح هامات الربا من نوره وتأزر الأهضام

ثم انتقل المرقش الى التذكر، فتذكر الحبيبة والظعائن اللاتي كن معها وحزن لذلك :

بل هل شجتك الظعن باكرة كأنهن النخل من ملهم
النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم
وصدق ابن المعتز ان البديع لم يبدأ ببشار ومسلم . ولو أصاب صاحب المقامات هذا
البيت لعدده مغنيا .

قوله هل شجتك ، هو المشعر بالحزن

قد كرره في قوله :

لم يشج قلبي ملحوادث إلا صاحبي المتروك في تغلم

أي كأن قال شجنتي ذكرى الحبيبة والظعائن عند هذا المكان المعتم بالنوار المقفر من
الأحباب .

لا بل شجنتي ذكرى أمض وأوجع - صاحبي المتروك في تغلم قتيلا ، ولعله إنما وقف
بتغلم .

وأ تبع ذكر ثعلب بيتا واحدا ينعت به كما من قبل أتبع ذكر الظعائن بيتا واحدا ينعتها به :

ثعلب ضراب القوانس بالسيف وهادى القوم إذ أظلم

فمكان النشر ، لأن الغانيات إنما هن تراء وعبير ، اسم ثعلب علم واضح يدل على
شخص رجل شهيم واضح . ومكان " أطراف الأكف عنم " قوله : " ضراب القوانس
بالسيف . " وجعل مكان " الوجوه دنانير " باشرافها وحسنها : " هادى القوم إذ أظلم "

اذ الهداية نور . فهنا مقابلة وموازنة كما ترى .
ثم كرر معنى الحزن :

فاذهب فدى لك ابن عمك لا يخلد الا شابة وأدم
قالوا هما جبلان . ثم اخذ في باب من الحكمة والتعزى :
لو كان حى ناجيا لنجا من يومه المزم الأعمم
في باذخات من عماية أو يرفعه دون السماء خيم
خيم اسم جبل بعينه

من دونه بيض الأنوق وفو . قه طويل المنكين أشم
الأنوق الرخمة قالوا لا تبيض الا في أبعد ما تقدر عليه من الأمكنة - أي هذا الجبل بعيد
العلو . وانما ضرب المزم الأعمم وهو الوعل الذي مسكنه في الجبل البعيد مثلاً لصاحبه
المترك في تغلم ، أنه كان مثل ذلك الوعل في الامتناع ومأمولاً له طول البقاء
يرقاه حيث شاء منه واما تنسه منية يهرم
أي إن أنسأته المنيا فلم تعاجله ، عمر العمر الطويل ، ولكنها مما تعاجله أحيانا كما
عاجلت هذا الصاحب المترك قتيلا في ذلك المكان الموحش .
فغاله ريب الحوادث حتى زل عن أرياده فحطم
أي حتى زل عن ارياد الجبل فتحطم
ثم ختم التعزى بقوله :

ليس على طول الحياة ندم
هذا متصل بقوله : « واما تنسه منية يهرم » فقصارى طول العيش الهرم ، وإذن فلا ينبغي
أن يندم المرء على فوت طول الحياة - إذ وراء المرء هذا الضعف الذى مع طول العمر ثم
الموت .

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم
يهلك والدم ويخلف مو لود وكل ذي أب يتم
والوالدات يستفدن غنى ثم على المقصدار من يعقم

أى يجدن ما يسد حاجتهن الى الولد إذ يلدن ، هذا غناهن ، إذ ليس يلزم أن يكون مع
الولد غنى المال ، ويصحح ما نذهب إليه رواية من روى يستفدن غناء بفتح الغين ، ثم
من النساء من لا يلدن ، بقدر مما قضى عليهن
بعد هذا يأخذ الشاعر في قرى آخر . ولو كان قوله :

ما ذنبنا في أن غزا ملك من آل جفنة حازم مرغم
من قصيدة أخرى ، لصح القول بأن الأبيات السبعة عشر الأولى قصيدة رثاء . وهل
يصح أن يقال هما قصيدتان منفصلتان ضمهما الرواة معا لمجرد تشابه الروي والوزن ؟
ولقد قطع ابن قتيبة بأن هذه الميمية ليست بأهل أن تختار . واختيار الأشيخ قبل زمانه
لها عمن اختاروها من أشياخهم يدفع ما ذهب إليه كل مدفع .
وآخر القصيدة فيه أنفاس الحزن والتفكر والحكمة كأولها وذلك قوله :

لسنا كأقوام مطاعمهم كسب الخنا ونهكة المحرم
مع كون هذا فخرا فإنه مداخلته أنفاس حزينة تتأسف على كسب الخنا هذا وتتأسف
على نهكة المحرم

إن يخصبوا يعيوا بخصبهم أو يجذبوا فهم به الأم
وهانا مرارة وهجاء . ولا ريب أنه عني بني تغلب . والمشعر لنا بالحزن أن هاهنا
خطيئة ونדما

عام ترى الطير دواخل في بيوت قوم معهم ترتهم
هل أكلوا الرمم أو أكلوا من لحم ميت ؟
ويخرج الدخان من خلل الستر كلون الكودن الأصحم
الكودن ردىء من الخيل فجعل الدخان يتسرب بطينا كمشية هذا الكودن الذي ليس
بعربي

حتى إذا ما الأرض زينها النبت وجن روضها وأكم
فهذه هي الصورة التي وصفها حين وجد الديار خلّت من أهلها مع عموم الخضرة
والنوار لها - فهذا الجزء من القصيدة مرتبط بالذي تقدم .
ذاقوا ندامة فلو أكلوا الخطبان لم يوجد له علقم
فهم قد بغوا فأوحشت الديار وذهبت النعمة وقتل الفتيان وجاءت الثارات مكان
عيش الاتلاف . والراجع أنه يشير هنا الى ماكان من إسراف المهلهل وتجاوزه مقدار ما
يوجبه القصاص

لكننا قوم أهاب بنا في قومنا عفاة وكرم
أموالنا نفى النفوس بها من كل ما يدني إليه الذم
هذا في الفداء . ولكننا نقاتل إذا لزم الحفاظ . ولكن الشاعر يتذكر عهد القتال هنا بمثل

تذكره للطعائن ولصاحبه المتروك في تغلم
لا يبعد الله التلب والغارات إذ قال الخميس نعم

والخميس هنا جيش الملك الممدوح
والعدو بين المجلسين إذا ولى العشى وتنادى العم

قوله بين المجلسين أي بين مجلس ومجلس وذلك في المشاهد العامة وعند حلول
الأضياف في أمر جامع والشباب هم الذين يخدمون ويعدون بين المجلسين -
يأتي الشباب الأقورين ولا تغبط أخاك أن يقال حكم

أي نحل الدواهي ، دواهي الشيب والضعف بين الشباب ومن قيل له كن حكما فإنما
يقال له ذلك بعد ذهاب شبابه ، فلا تغبط أخاك أن يصير حكما فقد فقد الشباب
الذي هو أغلى وأجل قدرا .

هل صار المرقش حكما وهل يبكي شبابه هنا -
هذا أدنى ما يستفاد من قوله :

لا يبعد الله التلب والـ	غارات إذ قال الخميس نعم
والعدو بين المجلسين إذا	ولى العشى وتنادى العم
يأتي الشباب الأقورين ولا	تغبط أخاك أن يقال حكم
وبقيت الأبيات من قوله :	

ما ذنبنا في أن غزا ملك	من آل جفنة حازم مرغم
الى قوله : لسنا كأقوام مطاعمهم	كسب الخنا ونهكة المحرم

ولا أشك أنه ههنا يشير الى ما اشار إليه الحارث من بعد - [إذ قصة الحارث وعمرو بن
هند وعمرو بن كلثوم كل ذلك كان بعد زمان المرقش وإن كانت بعض قصص الرواة
وأخبارهم تكاد تجعل من هؤلاء أبطالا ابديين لما تداخلهم من عناصر الأساطير] حيث
قال :

كتكاليف قومنا إذ غزا المنذر هل نحن لابن هند رعاء
ما أصابوا من تغلبي فمطلول عليه إذا أصيب العفاء
فهذا يكذب الجاحظ أن الحارث لم يتصف من تغلب أم قال لم يكذ :

إذ أحل العلياء قبة ميسون فأدنى ديارها العوصاء
تأمل كيف جاء بعنصر مما يقع في النسب ههنا وذلك قوله فأدنى ديارها العوصاء - وما
يخلو قوله العوصاء من كنين معنى

فتأوت له قراضبة من كل حي كأنهم ألقاء
كأنهم عقبان
فهذا هم بالأسودين وأمر الـ له بلغ تشقى به الأشقياء

فقوله «فتأوت له قراضبة» هو عينه قول المرقش حيث قال :

«حارب واستعوى قراضبة»

وهذا الغازي من ملوك جفنة فعل الأفاعيل فلم يكن من تغلب للملك الحيرة من نصر، ولكن نصرتهم بنو يشكر وبنو بكر رهط المرقش ورهط الحارث - وانظر بعد الأبيات وشرح الشراح لكلامي الشاعرين . قال المرقش : -

ما ذنبنا في أن غزا ملك من آل جفنة حازم مرغم
مقابل بين العواتك والغلـ ف لا نكس ولا تـووم

العواتك من الأزد والغلف من كندة قالوا عني غلفاء وسلمة عمي امرئ القيس
فالغلف بتشديد اللام وفتحها من ولداه والعواتك جمع عاتكة من أسماء النساء اللاتي ولدنه وبنو جفنة فرع من الأزد

حارب واستعوى قراضبة ليس لهم مما يحاز نعم
فيحوزون ما ينهبون

بيض مصاليت وجوههم ليست مياه بحارهم بعمم
أي هذه صفتهم بيض منجردون كالصقور وجوههم حديدة صلته غير أنهم سباريت
مجدبون ليست لهم بحار ذوات مياه تعم كملوك الحيرة وما يجندون من جنود، فمظهرهم
انصالات ونحبرهم جوع وشراسة وشر وشره - وروى بعضهم بنغم بالغين المعجمة
وضمنتين أو ضم وفتح فمن روى بالمعجمة وضمة وفتح فهو جمع غمة وهو من الكثرة
وهو في معنى من روى بالمهملة وضمنتين قال الشارح ومن رواه بالعين فقد
هجاهم . يعني بالعين المهملة .

ومن روى بالمعجمة وضمنتين فهو جمع غميم قال الشارح " يقال ماء غميم إذا لم يكن
ظاهرا " ١٠ هـ وهذا ينبغي أن يكون مدحا ولا يعقل أن يمدح الشاعر القضارية
السباريت أن وجوههم مشرقة إلا على وجه بعيد أن يكون أراد التأكيد والمبالغة في معنى
انصالاتهم وشجاعتهم وتوقد قلوبهم ووجوههم للحرب كقول الهذلي في تأبط شرا :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

ويجوز أن يكون عني به على هذا الوجه مدح ملك الحيرة ومن معه .
وأقرب إلى الصواب رواية العين المهملة وأن ذلك هجاء ، ثم أتبعه صفة ملك الحيرة ، أن

هؤلاء جاءوا ايضا مصاليت أهل شر، عقبان نهب وقتال ، فانقض عليهم ملك الحيرة
ومعه جيشه الكثيف وناصره من رهط المرقش
فانقض مثل الصقر يقدمه جيش كغلان الشريف لهم
أي ضخم كثير

إن يغضبوا يغضب لذاك كما ينسل من خرشائه الأرقم
ويجوز أن يكون هذا في وصف ملك جفنة الغازي ومعه جيش قراضيه الذين هدام
بالأسودين أي التمر والماء ليكونوا أحرص على الحرب والنهب وقيل في الأسودين غير
هذا .

وعلى الوجهين فالقصيدة خطاب مديح للملك ضمنه الشاعر أسى على ذهاب
الشباب وتذكرا لابن عمه القتيل وللثارات والإحنة بين قومه وقوم المهلهل . وألحق
الحكمة بمعنى الحزن والتأمل في ما صارت إليه حال ابني وائل بعد أن بغى بعضهم
على بعض . وكأن قد وقف بالذي قاله عند الملك موقف الحكم ، فهذا قوله :

يأتي الشباب الأقورين ولا تغبط أخاك أن يقال حكم

والأقورين ملحق بجمع المذكر السالم أي الدواهي
وتأمله في ميمية المرقش هذه ترينا أن جوهر موضوعها يدور حول خصومات
حرب البسوس وما كانت تلجئ إليه ملابسائها من التهادن والاحتكام والغدر
والتريص وما إلى ذلك من حين إلى حين

ومما يشعر بمعنى الأسى والأسف على فوت الشباب قوله :

لا يبعد الله التلبب والغارات إذ قال الخميس نعم

نعم أي إبل نغير عليها ونسوقها

والعدو بين المجلسين إذا ولى العشى وتنادى العم

وقد نظر زهير بن أبي سلمى في معلقته :

أمن أم أوفي دمنة لم تكلم

وقد قابل بين صفة الظعائن التي في أول القصيدة ، وبين ذكره الحرب الذي جاء به بعد
قسمه . وقد أضمر ذكر الرحلة إذ وقوفه حيث وقف دلنا على أنه مرتحل ، وهو
المذهب ، يدل ذلك مثلاً قول عنتره .

فوقفت فيها ناقتي وكأنها فدن لأقضى حاجة المتلوم
ثم قسمه بالبيت يدل على أن رحلته كانت إلى البيت، وكانت عهود الصلح وما أشبه
تعقد عند الموسم .
وقوله :

فلما وردن الماء زرقا جاماه وضعن عصي الحاضر المتخيم
وهذا مشعر بالأمن والرفه ، يوازنه ويناسبه ما قاله من بعد :

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بهال ومعروف من القول نسلم
وقوله :

رعوا ظمأهم حتى إذا تم أوردوا غمارا تغرى بالسلاح وبالدّم
فهذه غير قوله : «وردن الماء زرقا جاماه»

فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلاً مستبويل متوخم
وقد جمع زهير في طريقة ربطه بين ضروب من التدرج وتداعي المعاني والمقابلات
وغير ذلك ، لقوته في منهج القريض وافتنانه ومن نظره إلى المرقش ، تفكره في أمر
المنايا - قال المرقش

يرقاه حيث شاء منه وإما تنسه منية يهرم

فهذا قول زهير من بعد

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطيء يعمر فيهرم
وفي زهير أسف كنين على هؤلاء الذين أصيبوا في تلك الحروب . وهو عن أنسأته
الأيام فهرم وسئم ووقف موقوف من يقال له حكم ويغبط ولو فطن الفاطن لوجب ألا
يغبط :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أباً لك يسأم
وحذا زهير أمر حصين على غزوة الملك الذي غزا في ميمية المرقش وذلك حيث
قال :

لعمري لنعم الحي جر عليهم بما لا يواتيهم حصين بن غنمضم
ولم يستغو حصين أحدا ولكنه قال أن سيفعل ذلك :

فشد ولم يفرع بيوتا كثيرة لدي حيث ألفت رحلها أم قشعم
وقال : سأقضي حاجتي ثم أتقي عدوي بألف من ورائي ملجم
وقوله «أم قشعم» فيه معنى الصقر ، لأن القشعم من نعوت النسور وهو في ميمية

عنبرة .

وقد تعلم قول المرقش

فانقض مثل الصقر يقدمه جيش كغلان الشريف لهم
لهم بكسر اللام وفتح الهاء وميم مشددة أي يلتهم ما أمامه من كثافته .
هذا ومن عجيب أمثلة المقابلة آخر لامية عبدة بن الطبيب التي في المفضليات
(السادسة والعشرون) فقد نسب ووصف السير وافتن في صفة قتال الثور والكلاب .

ولي وصرعن في حيث التبسن به مخرجات بأجراح ومقتول
كأنه بعدما جد النجاء به سيف جلا متنه الأسماع مصقول
مستقبل الريح يهفو وهو مترك لسانه عن شمال الشدق معدول

ثم انتقل إلى شريح من صفة القنيص وفتوة زمان الجاهلية وصفة السير إلى
القادسية أما صفة القنيص فقوله :

لما وردنا رفعنا ظل أردية وفار بالحم للقوم المراجيل
ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

فهذا كقول امرئ القيس :

تمش بأعراف الجياد أكفنا إذ نحن قمنا من شواء مضهب
مضهب أي مشوي على عجل لم ينضج كل النضج وفي بائية امرئ القيس صفة
الاستغلال حيث طنبوا لثيابهم وجعلوا الدروع الماذية أوتادا .
وفي صفة السير إلى القادسية ذكره المراجيل ، فهذه كثيرة ، أكثر مما يكون مع أهل
القنيص . وصفة اللحم حيث قال :

وردا وأشقر لم ينهته طابخه ما غير الغلي منه فهو مأكول
فهذا ليس بشواء مضهب ولكن لحم في قدور كثيرة . والاكتفاء بتغيير الغلي
للحم يدل على صناعة مع إغذاذ في السير لا يمكن مثله من أنه تجويد إنهاء الطهارة
طهيهم . وفي خبر القادسية فيما ذكره الطبري أن جند سعد رضي الله عنه كانت
أزوادهم من الحبوب وافرة ولكنهم قرموا إلى اللحم فاستاقوا من ماشية السواد . فهذا
يناسب صفة الطبخ الذي لم ينهته طابخه والمراجيل كما ههنا .
وقوله :

ومنهل آجن في جمه بـــــــــــــــــــــــــر مما تسوق إليه الريح مجلول
كأنه في دلاء القــــــــوم إذ نهزوا حم على ودك في القدر مجمول

أي مذاب . فهذا من نعوت الفتوة وليس من نعت السير إلى القادسية إذ لا ينبغي
عن تمام الاستعداد للحرب ، وإنما جازف خالد حيث اجتاز بادية الشام ففاجأ الروم
على غير توقع منهم لمقدمه . وسيدكر عبدة في صفة سير الجيش أنهم كان معهم الماء
وذلك قوله :

ثم ارتحلنا

وقوله ثم منبىء عن تراخي الزمان ، أي هذا غير ذلك الارتحال إلى الماء الآجن
الذي في جمه بعز :

ثم ارتحلنا على عيس مخدمة يزجي رواكعها مرن وتنعل
يدلحن بالماء في وفر غربة منها حقائب ركبان ومعدول
فهذه صفة جمع كبير

نرجو فواضل رب سيبه حسن وكل خير لديه فهو مقبول
رب حباننا بأموال مخولة وكل شيء حباه الله تخويل
والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

وحق هذا أن يكون خاتمة ، إلا أن في كلام الشاعر بقية ، وقد أشعر بذلك عند
البداية حيث قال

هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلت خويلدة في دار مجاورة أهل المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ضاحية منهم فوارس لاعزل ولا ميل

فهؤلاء جند سعد وجيش عمر رضي الله عنهما

ومقدمة القصيدة فيها خلط بين ذلك وبين شيء من سابق أمر عبدة فيه فتك
وجاهلية . وكأن خولة كما هي حبيبة هي أيضا رمز عن جميع ما تولى من الشباب
وجنونه وبقلبه إلى بعض ذلك حنين وهذا من ازدواجية دلالة الرمز شبيه بسعاد كعب .
سعاد كعب رمز لضلال اتباع قريش ، فيها فجع وولع - وكان المطلع «بانث سعاد»

ينظر إلى مطلع النابغة وصاحبه «إحدى بلى» التي أرادت غوايته وهو حاج ، ورمز أيضا للنجاة بالوفود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ونيل عفوه ورضاه وكأن المطلع "بانت سعاد" ينظر إلى مطلع ربيعة بن مقروم «بانت سعاد فأمسى القلب معمودا» وهذه القصيدة كالمجارة لكعب في الوزن . والروي :

رس لطيف ورهن منك مكبول	فخامر القلب من ترجيع ذكرتها
يوما تأوبه منها عقايل	رس كرس أخي الحمى إذا غبرت
وللنوى قبل يوم الين تأويل	ولالأحبة أيام تذكرها

هذا قريب في المعنى من مقال بشامة

أتننا تسائل ما بثنا	فقلنا لها قد عزمنا الرحيل
وقلنا لها كنت قد تعلمي	من منذ ثوى الركب عنا غفولا

الآيات ثم يقول عبدة :-

إن التي ضربت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول
فخويلة بالمدائن يقارع قومها العجم وخولة بكوفة الجند . فهل خويلة كناية عن الشاعر نفسه على مذهب عمرو بن قميئة حيث قال :
قد سألتني بنت عمرو عن الـ أرض التي تنكر أعلامها
وأراد نفسه بقوله بنت عمرو كما سبق ذكر ذلك ؟
وخولة التي بكوفة الجند كل ما كان من شباب وعرام وهوى . . .
فعد عنها ولا تشغلك عن عمل إن الصباة بعد الشيب تضليل
وصدق ، لو يصح عزم امرئ على ذلك
ثم مضى ما شاء في صفة جد السير وضروب استطراد الوصف المتفرع عنه - ثم صرنا إلى حيث قال :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل
فزعمنا أنه خاتمة لولا ما يشوش عليه من ظلال المقدمة - زعم الفيروز آبادي أن شوش وتشوش لحن ولحن الجوهري حيث ذكر ذلك في مادة " شيش " وفي اللسان ما يفيد أن أصل هذا القول من الأزهري ، والإجماع منعقد على صحة ما نقله الجوهري وفوق كل ذي علم عليم -

عاد الشاعر إلى ذكر بعض ما كان على عهد السفه والشباب - وناسب قوله تأوبه
أن يقول كما قال :

حتى اتكأنا على فرش يزيناها
فيها الدجاج وفيها الأسد مخدرة
في كعبة شاهدها بان وزيناها
لنا أضيض كجذم الخوض هدمه
والكوب أزهر معصوب بقلته

من جيد الرقم أزواج تهاويل
من كل شيء يرى فيها تماثيل
فيها ذبال يضيء الليل مفتول
وطء العراك لديه الزق مغلول
فوق السباع من الریحان إكليل

مبرد بمـــــــزاج الماء بينهما حب كجوز حمار الوحش مبزول
والكوب ملائ طاف فوقه زبد وطابق الكباش في السفود مخلول

وما زادت لذاذات ترف العصر على هذا - أعنى عصرنا هذا الذي يوسم باسم حضارة أوروبا .

(١) علقمة بن عبدة بفتح الباء وعبدة بن الطيب بسكونها

رس الجاهلية مما حمله العرب الى الأندلس ولا يخفى أن الشاعر عند قوله :
تغدو علينا تلهينا ونصفدها تلقى البرود عليها والسرايل
قد وفي الكلام حقه وهذه خاتمة حق خاتمة .
وقولنا إن الظن أن الشاعر أصاب لما مما يوقعه ذكره الفرش وذكره الدجاج وقد سبق
قوله :

أهل المدائن فيها الديك والفيل
غير أن هذه أشياء من نعمة الحواضر، ولا سيما حواضر العجم ، كان يتلذذ بذكرها أهل
الجاهلية ويزعمون أنهم شربوا من خمر العجم والروم الغالية .
وهل الحق عبدة هذه الايات بلاميته وكان قالها في الجاهلية؟ عسى ذلك . غير أنني
أميل الى ما قدمت ذكره أن القصيدة اللامية هذه كل واحد وأن هذه الخاتمة أوجبها عليه
أول كلامه .

ومن المقابلة ما يخالطه نوع من المفاجأة . هذه المفاجأة بما تدخله من تحول من المباين الى
ما يباينه تكون هي في ذاتها علاقة ربط قوي . ومن أقوى أمثلة هذا الضرب صنيع
الشنفرى في التائية ، وذلك حيث وصف المرأة ذات الحياء .

كان لها في الأرض نسيًا تقصه على أمها وإن تكلمك تبلى
ثم بعد أبياته الروائع المفعمات بالعاطفة ، وقد فصلنا عنها حديثا في الجزء الثالث من
هذا الكتاب ، قال :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت	فلو جن إنسان من الحسن جنت
فبتنا كأن البيت حجر فوقنا	بريحانة ريحت عشاء وطلت
بريحانة من بطن حلية نورت	لها أرج ما حولها غير مسنت

المسنت المجدب ، والأرج المسنت لا يكون إلا أرج الرمم مما يقتله الجوع والعطش وتحلق
فوقه الطير .
بعدهذا

وبأضعة حمر القسى بعثتها ومن يغز يغنم مرة ويشمت
ثم وصف الغزوة ومشيه إليها

خرجنا من الوادي الذي بين مشعل وبين الجباهيات أنشأت سربتي
أمشي على أين الغزاة وبعدها يقربني منها رواحي وغدوتي
أمشي على الأرض التي لن تضربي لأنكي قوما أو أصادف حتى

كل هذا شتان ما بينه وبين الريحان وأرج الحبيبة الذي حجر به البيت .
هذا الانتقال المفاجيء شبيه بما سماه أرسطو طاليس في حديثه عن المأساة في شعر
اليونان بالتحول Peri peteia . ولا ريب أن الشنفرى تحول وحولنا معه من حال نعمة
ولذة الى حال شدة شرسة . وقد صنع هذا لا متشتت الفكر، منساقا مع نظم الأبيات
المفردة كما يظن من لا يتعمق فهم الشعر العربي ولا يتذوقه، ولكن متعمدا إلحاق أمر
بأمر، وربط لاحق بسابق، وإحداث عنصر من الموازنة والمقابلة بين متباينين جمعتهما
تجربته وبيانه وكوصفه للفتاة ذات الخفر وتبلى إن تكلمك وصف أم العيال، وهي
صاحبة تأبط شرا، فخلع عليه من صفات الفتوة، ما جعله بإزاء ما ذكره وفصله من
صفات الفتاة وفضائل أنثاها .

أم العيال : إذا أطعمتهم أوتحت وأقلت
وأميمة : [وازن بين أم العيال مكبرا وأميمة مصغرا]

تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها لجارتها إذا الهدية قلّت

قال «قلت» عن أمية «وأقلت» عن أم العيال - في «أقلت» هذه الثانية صدى ومجاوبة
لقلت تلك الأولى المنبئة عن الجود حتى عندما تقل الهدية .

أم العيال : مصعلكة لا يقصر السر دونها

وأميمة : لا سقوطا قناعها

أم العيال : تجول كعير العانة المتلفت

أميمة : ولا بذات تلفت

أم العيال : ولا ترنجي للبيت إن لم تبيت

أي من البيات وهو الغزو ليلا

أميمة : تبيت بعيد النوم . . .

تحل بمنجاة من اللوم بيتها . . .

إذا هو أمسى (أي بعلمها) آب قرّة عينه

أى أب مآبا سعيدا أو لى قره عينه فتزع الخافض
وقد جمع بين التجريتين معا في خاتمة القصيدة عند حديثه عن نفسه — حديث سلوى
عن نعمة العيش التي زلت كما قال في أول القصيدة :

فواكبدا على أميمة بعدما
طمعت فبهها نعمة العيش زلت
لوالى السلوان سبيل

ألا لا تعددني إن تشكيت خلتي
وإني لخلو إن أريدت حلاوتي
أبي لما أبى سريع مبعاتي

ولكن النفس التي تتحى في مسرته وهي أليفة ، قد بانت ، فأبدل منها نفسا أخرى يعزها إغرازا ولكنها لا تتحى في مسرته كل الانحاء

تخاف علينا العيل إن هي أكثرت ونحن جيعاء أي آل تألت

واعلم أصلحك الله أيها القارئ الكريم أنه من باب هذا التحول ما مريبك من نحو قول علقمة بن عبدة

بل كل قوم وإن عزوا وإن كثروا

وقوله :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم

بل غير بعيد من هذا الباب قولهم دع ذا، ودعها، وعد عن كذا وكذا والإقبال على الجدد بعد النسيب، ولكن كما تقدم نهبنا إلى عناصر أخرى من الربط في جميع ذلك من تدرج وتداعي معاني وتفرع لاحق عن سابق ومفارقة أمر ثم الرجوع إليه كما نبه إلى ذلك ابن رشيقي في حديثه عن التخلص وقد مر في أول هذا الجزء.

وقولنا إن عنصر المفاجأة عند الشنفرى وما أشبهه من الشعر مثل التحول الذي قاله أرسطو طاليس ليس ببعيد. وجواهر مذاهب البشرية تتقارب بل هي أمر واحد وسابحة في فلك واحد. وإنما يقع الاختلاف في الأشكال. والمثال الذي ضربه أرسطو طاليس للتحوّل منه خبر أوديب. وما يحسن ذكره في هذا الباب أن أوديب استنزل اللعنة على من قتل أباه وغشي أمه وقضى بعذاب أليم. فما كان ذلك الملعون المعذب آخر الأمر إلا إياه هو نفسه ولعمرك إن قول النابغة :

ما جئت من سىء مما رميت به إذن فلا رفعت سوطي الى يدي
إذن فعاقبني ربي معاقبة قرت بها عين من يأتيك بالفند

من قبيل استنزال اللعنات الذي صنعه أوديب . فقط كان النابغة بريثا . وكان أوديب
غير بريء ، وغير جلد الفؤاد على الإثم .

ومما يذكر في هذا المعارض أن قتل الأب وغشيان الأم مما يسمونه عقدة أوديب ليس
ذلك بأمر انفردت به آداب اليونان ، فمثله دائر في خرافات الأمم .
مما نختم به هذا الفصل مما يجري مجرى المقابلة قول أبي كبير الهذلي

أزهير هل عن شيعة من معدل أم لا سبيل الى الشباب الأول
أم لا سبيل الى الشباب وذكره أشهى إلى من الرحيق السلسل

فقد أسف على فوات الشباب هنا . ثم تمثل هذا الذي أسف عليه في هذا الفتى الذي
رغب أن يتزوج أمه ثم خافه وأحس فيه قوة الشباب المباين كل المبينة لما كان فيه هو
من إقبال على ضعف المشيب وانهار قواه وذلك قوله :

ولقد سريت على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مثقل
من حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل
ومبرا من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
حملت به في ليلة مزودة كرها وعقد نطاقتها لم يحلل
هذه أمنية تمنها أبو كبير من أم تابط شرا التي لم يستطع إليها سبيلا

فأتت به حوش الفؤاد مبطنا سهدا إذا ما نام ليل الهوجل
فإذا نبذت له العصاة رأيته ينزو لوقعتها طمور الأخيل
وإذا يهب من المنام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بزمل
أى ليس بضعيف ولكن إذا نهض من المنام نهض قائما

ما إن يمس الأرض إلا منكب منه وحرف الساق طي المحمل

أى هو مطوى طيا لضموره وقوة جسمه وذلك لاكتمال شبابه

وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوي مخارمها هوي الأجدل
وإذا نظرت الى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

صعب الكريمة لا يرام جنابه ماضي العزيمة كالحسام المقصل
يحمي الصعاب إذا تكون كريمة وإذا هم نزلوا فمأوى العيل
ود أبو كبير لو هكذا كان هو.

وفي الأبيات بعد دقاتك من معرفة العرب بالتربية ورعاية الصغار في أطوار الطفولة
الأولى كقوله ومبرا من كل غبر حيضة أي بقايا الحيضة. وداء مغيل أي إن أمه لم
ترضعه غيلا أي على حمل وذلك فيما زعموا يضعف الناشئ، وأن المرأة إذ غشيت في
حال خوف أو غصبت، كان ذلك أنجب للنسل. قالوا وكان تأبط شرا امرأ قصيرا
وذلك قول قيس بن العيزارة:

فأكرم بيز جر شعل على الحصى ووقر بيز ما هنالك ضائع
شعل هو تأبط شرا. فإن صدق فهذه الصفة التي وصف بها أبو كبير تأبط شرا - « وإذا
رمى به الفجاج إلخ » تؤيد ما ذكره، وكأنه كرة تنزو إذ يهوي المخارم أو كما قال:

يهوى مخارمها هوى الأجندل

أي الصقر.

خامسا التخلص:

كل ما كنا فيه تخلص، غير أننا نخص في هذا الفصل تحت هذا العنوان مسائل منها
الخروج وهو كثير. فقولهم «دع ذا» «وعد عن ذا» خروج. وقد بينا أن كثيرا من «دع ذا»
و «عد عن ذا» له صلة تسلسلية أو تدرجية أو قوة صلة ما بها تقدمه وما يجيء بعده من
ذلك ما سبق به الاستشهاد من قول النابغة مثلا:

فعد عما مضى إذ لا ارتجاع له وانم القتود على عيرانة أجد
ونحو قول علقمه:

فدعها وسل الهم عنك بجسرة كهملك فيها بالرداف خيب
ونحو

فلأهدين مع الرياح قصيدة مني مغلفة إلى القعقاع
قال ابن رشيقي وقد ذكرنا بعض كلامه في أول الكتاب ومن المستحسن أن نورد كلة هنا
إذ اعتمدنا عليه في بعض ما نقول، وفصلنا من ذلك مواضع، فيما تقدم، وقد نلحق
بعضه شيئا من التعليق من بعد إن شاء الله (١).

وأما الخروج فهو عندهم شبيه بالاستطراد وليس به، لأن الخروج إنما هو أن تخرج من

(١) العمدة لمحقق الشيخ محي الدين عبد الحميد رحمه الله ج ١ ص ٢٣٤-٢٣٨

نسب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل ، ثم تنمادى فيما خرجت إليه كقول حبيب في المدح
صب الفراق علينا ، صب من كذب عليه إسحاق يوم الروع منتقما
سيف الإمام الذى سمته هيبته لما تخرم أهل الأرض تخترمها
ثم تنمادى في المدح إلى آخر القصيدة .
وكقول أبي عبادة البحرى :

سقيت رباك بكل نوء عاجل من وبله حقها لها معلوما
ولو أننى أعطيت فيهن المنى لسقيتهن بكف إبراهيمها

وأكثر الناس استعمالا لهذا الفن أبو الطيب ، فإنه ما يكاد يفلت له ولا يشذ عنه حتى
ربما قبح سقوطه فيه نحو قوله :

ها فانظري أو فظنى بى ترى حرقا من لم يذق طرفا منها فقد وألا
عل الأمير يــــرى ذلى فيشفع لى إلى التي تركتني في الهوى مثالا
فقد تمنى أن يكون له الأمير قوادا - وليس هذا من قول أبي نواس

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هوانا لعل الفضل يجمع بيننا
في شيء ، لأن أبا نواس قال " يجمع بيننا " ثم اتبع ذلك ذكر المال والسخاء به فقال :

أمير رأيت المال في نقياته مهينا ذليل النفس بالضميم موقنا

(في الأصل في نعمائه وينكسر به البيت ولا يستقيم المعنى وهو خطأ إما من الطابع وإما
من الناسخ) .

فكانه أشار إلى جمعه بينهما بالمال خاصة ، يفضل عليه ويجزل عطيته فيتزوجها أو يتسرى
بها ، وأبو الطيب قال : « يشفع لى » والشفاعة رغبة وسؤال ثم أتبع بيته بها هو مقول معناه
في القيادة فقال :

أيقنت أن سعيدا طالب بدمي لما بصرت به بالرمح معتقلا

فدل على أنه يشفع فإن أجيب إلى مساعدة أبي الطيب فذاك ، وإلا رجع إلى القهر
والذي يشاكل قول أبي نواس قوله :

أحب التي في البدر منها مشابه وأشكو إلى من لا يصاب له شكل
فلفظة الشكوى تحمل عنه كما حملت عن أبي نواس .
ومما سقط فيه - وإن كان مليح الظاهر - قوله يخاطب امرأة نسب بها :

لو أن فنا خسر صبحكم	وبرزت وحده عاقه الغزل
وتفرقت عنه كتابه	إن الملاح خوادع قتل
ما كنت فاعلة وضيحكم	ملك الملوك وشأنك البخل
أتمنعين قــــرى فتفتضحى	أم تبذلن له الذي يسـل
بل لا يحل بحيث حل بــــه	بخل «ولا جور» ولا وجل

فحتم علي (فنا خسرو) بأن الغزل يعوقه ، وأن كتابه تفرق عنه ، وجعله يسأل هذه المرأة وتشكك هل تمنعه أم تبذل له ، ثم أوجب أن البخل لا يحل بحيث حل ، فأوقعه تحت الزنى أو قارب ذلك ، ولعل هذا كان اقتراحا من فنا خسرو ، وإلا فما يجب أن يقابل من هو ملك الملوك بمثل هذا ، وما أسرع ما انحط أبو الطيب ، بينا هو يسأل الأمير أن يشفع إلى عشيقته صار يشفع للأمير عندها .

قلت ما يخلو ابن رشيق في جميع هذا من خلط بين أدب البلاط ، ما ينبغي أن يكون عليه ، وبين مذاهب الشعراء في الخيال والافتتان . وليس مذهب أبي الطيب في أبياته بجذ مختلف عن مذهب أبي نواس ، فمن أعان بالمال شفع . والطلب بدم المقتول أو من هو في حكم المقتول من ذلك غير بعيد . وحديثه عن فنا خسرو نهايته السؤال :

أتمنعين قرى فتفتضحى البيت

ثم قوله بل لا يحل إنما هو خروج وليس بقيادة كما زعم ابن رشيق ليرضي صاحبه أبا الحسن والله أعلم أي ذلك كان ، ثم نرجع بالحديث إلى بقية كلام ابن رشيق :
«والاستطراد أن يبنى الشاعر كلاما كثيرا على لفظة من غير ذلك النوع يقطع عليها الكلام وهي مراده دون جميع ما تقدم ، ويعود إلى كلامه الأول وكأنها عثر بتلك اللفظة عن غير قصد ولا اعتقاد نية ، وجل ما يأتي تشبيها وسيرد عليك في بابه مبينا إن شاء الله تعالى . ومن الناس من يسمى الخروج تخلصا وتوسلا وينشدون أبياتا منها :

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه	فليس به بأس ولو كان من جرم
ولو أن جرما أطمعوا شحم جفرة	لباتوا بطانا يضرطون من الشحم

وأولى الشعر بأن يسمى تخلصا ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ثم عاد إلى

الأول» إلى آخر ما قاله مما تقدم ذكره في أول هذا الجزء حيث استشهد بشيء من عينية النابغة . ثم قال : «ثم اطرده ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة ، وهو مع ما أشرت إليه غير خاف إن شاء الله تعالى .

»وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب ، ثم يرجع إلى مدح كما فعل أبو تمام وإن أتى بمدحه الذي تهادى فيه منقطعا ، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة :

ظلمتك ظالمة البريء ظلوم	والظلم من ذي قدرة مذموم
زعمت هواك عفا الغداة كما عفت	منها طلول باللوي ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى	أجل وأن أبا الحسين كريم
مازلت عن سنن الوداد ولا غدت	نفسى على ألف سواك تحوم

ثم قال بعد ذلك :

لمحمد بن الهيثم بن شبابة مجد إلى جنب السماك مقيم

ويسمى هذا النوع الإلام

وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسيله «دع ذا» و «عد عن ذا» ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بإن المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه . فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلا بما قبله ولا منفصلا بقوله «دع ذا» و «عد عن ذا» ونحو ذلك سمى طفرا وانقطاعا وكان البحري كثيرا ما يأتي به ، نحو قوله :

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى	لكن قلبي بالرجاء موكل
إن الرعيمة لم تزل في سيرة	عمرية مذ ساسها المتوكل

ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة «إلى فلان قصدت» و «حتى نزلت بفناء فلان» وما شاكل ذلك» ا. هـ .

كما اهتم ابن قتيبة بقصيدة المدح كذلك اهتم ابن رشيق ، وقد بسطنا القول في أهمية قصيدة المدح حتى كسدت سوقه وكان كسادها ببلاد المغرب والأندلس متأخرا في الزمان عما أصابها بالمشرق .

وقد ترى أن ابن رشيق فطن إلى أنه قد يكون لعد عن ذا ودع ذا وما أشبه اتصال بها قبله ، وما سماه التخلص هو نص في معنى اتحاد القصيدة وتشابك أجزائها كما تقدم ذكره أول شيء . وقوله وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب ، عنى به الإلمام والخروج والنفي ما أحسبه إلا قد أراد به التقليل إذ قد مر بنا قول حسان :

إن كنت كاذبة الذي حدثني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأجابة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام
وقد اتبع أبو الطيب طريقة حسان حذوك النعل بالنعل حيث قال :

ولو كنت في أسر غير الهوى ضمننت ضمان أبي وائل
فدى نفسه بضمان النضار وأعطى صدور القنا الذابل
وصدق ابن رشيق أن أبا الطيب كان يكثر من هذا الضرب الذي صار يسمى حسن التخلص وأولى به اسم الخروج كقوله :

يسودعتنا والبين فينا كأنه قنا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق
قواض مواض نسج داود عندها إذا دخلت فيه كنسج الخدرنق
أي العنكبوت .

وكصنيع أبي تمام في ظلمتك ظالمة البريء ظلوم صنع في :

أقبلتها غرر الجياد كأنها أيدي بني عمران في جبهاتها
ثم قال :

سقيت منابتها التي سقت الورى بندي أبي أيوب خير نباتها

ووقف أبو منصور الثعالبي عند هذه التائية وقفة طيبة ، وكان يشعر أبي الطيب عارفا وله محبا وللشعر ذواقة وناقدا وقد بينا ما نراه من تقديمه في باب النقد وإنكار من زعم أنه سطحي في كتابنا (مع أبي الطيب) وفي كتابنا (التماسة عزاء) وليس لعمري بسطحي من كتب الفصول التي كتب عن أبي الطيب والبديع والشريف الرضي وأبي فراس وأصحاب الصاحب ، وهذا باب واسع ليس هنا مكانه .

ومن اساءات أبي الطيب في مسلكه سبيل حسن التخلص فصاريه إلى نوع من الاحالة :

أحبك أو يقولوا جر نمل ثيرا وابن إبراهيم ريعا
غير أن أبا الطيب كما كان يسلك هذا الباب ، كان يسلك غيره من أبواب الربط وله في ذلك افتتان أي افتنان . والمذهب الذي ذكره ابن رشيق للنابعة في العينية كثيرات أمثاله عند أبي الطيب . ومن أجود ما جاء له في هذا ميمية .

ملــــــــومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام
وهي من روائع الشعر العربي كله وفيها أبيات صفة الحمى وفيها قوله الذي ختم به :
تمتع من سهــــــــاد أو رقــــــــاد ولا تأمل كرى تحت الرجــــــــام
فإن لثــــــــالـث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنــــــــام
أبو الطيب عالم وحده .

ويشبهه مذهب حسان وإن لم يخرج كخروجه لصلة كلامه صلة أوثق أوس بن غلفاء
حيث بدأ بفخر ثم خلص منه إلى هجاء رجل بعينه وأصاب قومه وذلك قوله :
جلبنــــــــا الخيل من جنبــــــــي أريــــــــك إلى أجلى إلى ضلع الــــــــرخــــــــام
بكلــــــــل منفــــــــق الجرذان مجر شديد الأسر للأعداء حــــــــام
أي يخرج الجرذان من نافقائها أي أجحارها لكثرة خيله وشدة وقع حوافرها .

أصبنــــــــا من أصبنــــــــا ثم فتنــــــــا على أهــــــــل الشريــــــــف إلى شــــــــام
وجدنــــــــا من يقود يزيــــــــد منهم ضعاف الأمر غير ذوى نظــــــــام
ثم انصرف إلى هجاء يزيد ، وهذا على شبهه بخروج حسان أقل احتيالا منه لأن نفس
الفخر وثيق الصلة بنفس الهجاء .

سادسا ، المخاطبة

وهي ضرب من الاحتيال على الربط وحفظ الوحدة كان كثيرا عند القدماء وما نص
عليه ابن رشيق نصا ، غير أنه يدخل في مقاله « ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى
معنى ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره ثم رجع إلى ما كان فيه » .

فدن أمثله ما صنعه عمرو بن كلثوم في المعلقة حيث خاطب بدءا فقال :

ألا هبي بسحنتك فاصبحينا

ثم قال :

قفى قبل التفرق يا ظعينا

فجعل الساقية ظعينة وكل امرأة ظعينة ، ولكنه أراد بها الكناية عن الأعداء لما قدمنا ذكره من غزلهم بنساء العدو، ثم لما ضمنه من معنى الفراق هنا .

ثم قال : قفى نسألك هل أحدثت صرما لوشك الين أم خنت الأمين

بيوم كريمة إلخ

ثم كما قال ابن رشيق رجع الى الغزل إلى قوله :

تذكرت الصبا واشتقت لما رأيت حولها أصلا حدينا

فقد وقع الفراق وقومها أعداء . وعاد الشاعر إلى الخطاب ولكنه خاطب رجلا هذه المرة :

أبا هند فلا تعجل علينا

وقد مهد لخطاب أبي هند بقوله :

فأعرضت اليامة واشمخرت كأسياف بأيدي مصلتينا

وهي أسيافه وأسياف قومه . هذا قريب من الخروج الذي تقدم ذكره . وأبو هند كأنه أبو الظعينة التي فارقت . وغير خاف أنه أراد به عمرو بن هند فجعله أباهما كما ترى ثم قد صرح باسمه فيما بعد :

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا السوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتويننا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأععداء قبلك أن تلينا
ثم خلص إلى الفخر وتحدى بني بكر وبني الطماح والناس جميعا ، ومعلقة عنزة مرتبة على تسلسل وتدرج وتداعي معان كل أولئك معا في إطار عادة الشعراء . إلا أنه جعل من الخطاب وسيلة قوية توصل بها إلى الربط .

خاطب دار عبلة أولا . ثم صار إلى ذكر عبلة نفسها :

وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتلثم

وعاد إلى الطلل على النحو الذي نبه عليه ابن رشيق في «حيث من طلل» ثم إلى عبلة «علقتها عرضا» - ثم خاطبها

إن كنت أزمعت الفراق فإنها زمت ركبكم بليل مظلم

ثم انصرف الى حمولة أهلها بعين عبد يحسن الحلاب والصر. وإن شئت جعلت هذا من عقدته بخزي لونه وهو قول يقول به بعض أهل العصر يريدون أن يضاهئوا به الفرنجة الأمريكيين وغيرهم أنه للعرب زئوج كما للفرنجة زئوج استعبدوهم. وفي بعض المعاجم في تعريف السودان أنهم عبيد العرب. وكان الجاحظ رحمه الله سليل عبد أسود كان جمالا لعمر بن قلع الناسىء - أى من القوم الذين قال قائلهم

ونحن الناسئون على معد شهرور الحل نجعلها حراما

ولعله كان من البجاة أو ممن اختطفه البجاة من بلاد السودان أو الحبشة فيبع بتهامة. وكان الجاحظ مما يأنس بالزئج وأخبارهم كحديثه عن الفاشكار الذي لم يكن يحسن الفشكرة أحد مثله، أحسبها تصفيف أعواد القمح بعد حصاده ورسالته عن السودان وفضلهم، وحكايته عن شيخ عظيم جهير الصوت يستقصي الإعراب وقد ولده رجل من أهل الشورى وكان - كما قال أبو عثمان - بقرب عبد أسود دقيق العظم دميم الوجه ورأى أكبره فقال حين نهض ورأى عظما: يا أبا عثمان لا والله لا يساوي ذلك العظم البالي، بصرت عيني به في الحمام وتناول قطعة من فخار فأعطاه رجلا وقال له حك ظهري، أفتظن هذا يا أبا عثمان يفلح أبدا.

وأغلب الظن أن أبا عثمان قد ظن أنه لا يفلح ولولا ذلك ما ساق الخبر. وليحذر من يخوض في أمر عنتر. وقد جاء الأثر بإكبار النبي صلى الله عليه وسلم أمره واستحسانه شعره إن صحت روايته، أن يكون ممن عسى ألا يفلح أبدا أو لا يساوي ذلك العظم. وقد كانت في عنتر سباحة خلق وكرم نفس وكبرياء ثقة بما عنده من بلاء لا كبرياء است في الماء وأنف في السماء.

وكان عنده التعريض والتهكم بما كان يطعن به فيه من دونه، فإن يك هذا عقدة نقصه فذاك - مثل قوله:

كالعبد ذى الفرو الطويل الأصلم

ومثل قوله: سودا كخافية الغراب الأسحم

ومثل قوله: ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

ولو كان بنفسه سقم نقص ما قال هذا، وقد يسخر كما ترى بهؤلاء القائلين ويك عنتر أقدم. وزعم بعضهم وأظنه صاحب الموشح أن عنتر كان ممن خام ثم أقدم لقوله: اذ يتقون بي الأسنة لم أخم عنها ولكنى تضايق مقدمي

وكان الرجل ذا علم بالحرب وخبر أنه كان يضرب الجبان لينخلع قلب الشجاع يشهد

بهذا ثم وصف عنتره ثغرها
إذ تستبيك بذي غروب واضح
وكان فأرة تاجر البيت
أو روضة أنفـا... .

وبعد أبيات الروضة والذباب المترنم .
وهل تعصب أبو عثمان لابن عمه آبائه إذ زعم أن صفته الذباب من التشبيهات العقم
التي لا تستطاع ؟
وإذهي :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية ...
التفت عنتره إلى نفسه ، فهذا أول مجيئه بالغرض الذي من أجله سيقى القصيدة ، وهو
خروج خفي إذ هو تمهيد دقيق رشيق
وأبيت فوق سراة أدهم ملجم

وحشيتي سرج على عبل الشوى نهد مراكله نبيل المحزم

والمرأة عما تشبه بالمهرة .
والصفات التي خلعتها عنتره على مهره بعضها منتزع من صفات الفتاة - عبل الشوى ،
وتوصف الفتاة بامتلاء العضد والساق وحسنهما .
نهد - وذلك ظاهر

نهد مراكله أي سام على جوافر وقوائم صلاب . وإن تك عجلة الموصوفة هنا ما هي إلا
سمية التي قال فيها :
أمن سمية دمع العين تذريف

الآبيات الفائية التي طرب لها أبو العلاء في غفرانه (٣٢٥) ومع ذلك أدخله النار وقال
«لقد شق على دخول مثلك النار» وصار به تداعي المعاني إلى أن يورد بيتا زعم أن
سيبويه كان ينشده بكسر الهمزة كقولهم مغيرة بكسر الميم وهو

إحب لحبها السودان حتى إحب لحبها سود الكلاب

وليس البيت في نصوص الكتاب التي بأيدينا ، ولكن فيها المغيرة بكسر الميم وممتن
ولعل ما بأيدينا من الكتاب نقصت منه مواضع فمثلا البيت :

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أحرف متشابهات
وخطوا لي أبا جاد وقالوا تعلم سعفصا وقريشيات
مذكور في الهوامش كأنه في شرح الأعلام للشواهد وليس في نص الكتاب ، ولعل الأعلام
أن يكون استشهد به ، وهذا بعد باب آخر ونعود إلى ما كنا فيه .
وقد ذكروا أن سمية أغرت به أباه فضربه - فكأن قد رقت له وتجللته تحول بين أبيه وبينه
إذ ضربه أبوه ، وذلك قوله :

تجللتني إذ أهوى العصا قبلي كأنها رشأ في البيت مطـروف
العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف
وقوله «رشأ في البيت» يشبه قول علقمة :
كأنها رشأ في البيت ملزوم
ومن علقمة أخذه . وكأنه نظر أيضا إلى هذا التشبيه إذ وصف أمه فقال :

وأنا ابن سوداء الجبين كأنها ضيع ترعرع في رسوم المنزل
إن كانت أمك يا هذا رشأ الساق منها مثل ساق نعامة
يعني امتلاء ساقها وغلظه .

وقوله «نبيل المحزم» يفيد ضمور مهره وضمور عبلته أيضا .
على أنه من تمام أدبه لم يمض في صفة حصانه ولكن رجع إلى أمر محبوبته :
هل تبلغني دارها شذنية
وهذا قولنا أنه في تداعي معانيه وأخذ كلامه بعضه برقاب بعض التزم بإطار عادة
الشعراء من نسيب فناقة -
ثم بعد أن بعدت وتمنى أن تبلغه دارها

خطارة غب السري زيافة تطس الإكام بوخذ خف ميثم
وشبه الناقة بالظليم
صعل يعود بذئ العشيرة بيضه كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم
وذكر جدها وجنونها في السير ثم بروكها وكأن صدرها ناي له هزيم - وهذا من أجل
الشعر

برکت علی جنب الرداع کأنما برکت علی قصب أجش مهضم

إنما عني صوت هزيم صدرها

بعد هذا عاود إلى المحبوبة فخطبها ،

أثنى علي بما علمت فإنني سمح مغالطتي إذا لم أظلم
وجعل ذلك ذريعة لمزيد من الدفاع والحديث عن نفسه والفخر الكريم النبيل مع
اعتدال وأناة وتدبر كتدبره إذ قال :

... لم أخنم عنها ولكني تضايق مقدمي

قال :

ولقد شربت من المدامة بعدما
بزجاجة صفراء ذات أسرة
فلذا شربت فلأنني مستهلك
وإذا صححت فما أقصر عن ندى

ومن ها هنا أخذ يتقرب إلى عبله . وقد ذكرنا في غير هذا الكتاب أن شكسبير قد تأثر بسيرة عنتره ومقاله في قصيدته هذه حيث صاغ ما صاغه على لسان القائد الذي سماه أوتيلو (وترجمها بعضهم عطيّل وقد تكون من عطاء الله وقد تكون محرفة من اسم عنتره) إذ زعم في دفاعه عن نفسه أنه إنما سحر الفتاة بحديثه عن شجاعة نفسه وعن مغامراته . ولا تستبعد أن يكون شكسبير سمع في المجالس ممن كان له علم بالعربية وآدابها . وقد ذكرنا أن بيدويل وهو على زمان شكسبير كان بالعربية عالما ولا ريب أنه كان من علماء الملك جيمس الأول الذين صدر عنهم نص الكتاب المقدس الموثق عندهم . ومن قبل كما ألمعنا كان لشوسير بالعربية صلة وثيقة إذ قد سفر إلى إسبانيا وكانت الأندلس لم تزال لها بقية صالحة على زمانه ، وقد ذكرنا أيضا كتابته رسالة عن الأسطراب ما كان ليقدّم مثله على مثلها من غير علم بالعربية ، وقد تقدمه بزمان غير طويل من بني وطنه أحد أكابر علماء القسيسين بالعربية وهو روجر بيكون في القرن الثالث عشر الميلادي ، ومن قبله في القرن الثاني عشر الميلادي «أد يلارد البائي» الانجليزي Adelard of Bath وهو معاصر لأيبيلار الذي عشق ايليويوز وهذا فرنسي . وإنا نكرر هذا القول الذي ذكرناه من قبل لأن في زماننا هذا لن نفك نحتاج إلى تأكيد الحجة حتى يعيها الغافل والمتغافل وبالله التوفيق .

ثم انظر إليه كيف بعد قوله «وإذا صحوت» وما زال في معراض الفخر ببلائه في الحرب

المراد به التقرب إليها، جعل لها مكانا بمخاطبتها خطابا خفيا حيث قال :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريسته كشدق الأعلم

أي رب حليل غانية مثلها - بل هي عنده أجمل الغواني وأحبه . ولذلك فهو حقيق ألا يخيم عن حمايتها بما وهبه الله من شجاعة وغيرة وصبر ونصر .
قوله «كشدق الأعلم» من قبيل قوله «كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم» قالوا كان يقال له عنتر الفلحاء وما أرى ذلك قيل إلا لأن شفته قد كانت غليظة . قال أبو الطيب يذكر كافورا :

وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجى

وأوصاف السودان - في ألف ليلة - قرية من هذا، حتى إن بعضهم يوشك أن يكون مفترشا بعض شفته .

سبقت يداي له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلون العندم

هذه هي الصورة الأولى - ثم قوله تمكو فريسته الصورة الثانية وفيها أنفاس أسف . كان حليل غانية محبوبة، والآن مجدل لجراحاته بالدم وذماء الموت صغير . قوله بعاجل طعنة ورشاش نافذة جعلها معا أمرا واحدا . وهذا أجود من قول قيس بن الخطيم :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضءها

وإنما قصد إلى تصوير الغيظ وحقد طلب الثائر . أما عنتر فصور محض لقاء فارس وفارس

متحاميين المجد كل واثق بيلائه واليوم يوم أشنع

إلا أن أحدهما يقال له الفلحاء ويقال له الأعلم، فلتعلمن أينما الفلحاء وأينما الأعلم .
ظاهر هذا الحقد ولكن باطنه لتأمل الصورة أسف وحزن وتفكر في مصائر الأيام . لعله هو أن يكون، لو لم تعجل يده بسابق الخبرة المقتول، وإذن لكنت فريسته هي التي تمكو -

وليصرف الحلوة التي خاطبها أتبع ذلك قوله يخاطبها :

هلا سألت الخيل يا بنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

أنا أيضا لقيت بلاء الحرب وأوجاعها فليس دهري القساوة وإنما هو الحفاظ وصدق القتال وليس ينجي من الغمرات شيء غيره .

إذ لا أزال على رحالة سابح نهد تعاورة الكماة مكلم

لا حظ الربط بين خطابها مع الإعجاب بهذا المهر - سابح نهد - ثم هذا العطف عليه والكناية به عن نفسه : « تعاورة الكماة مكلم » ثم بين سبب هذا التكليم ، أنه يعرض نفسه للطعان وللسهام وهي منايا تخطيء وتصيب ومن تعرض لها فقد أهدف

طورا مجرد للطعان وتارة يأوي إلى حصص القسي عرمرم
يخبرك من شهد الوقعة أنني أغشى السوغي وأعف عند المغنم
أي في أيضا مع كمال الفروسية ضربا وطعنا كمال آدابها ، وفي ذكر العفاف تزكية لنفسه عندها ، أنه حين ترك حليل الغانية مجدلا عف فلم يروعها ، إذ كان إنما يدافع عن حوزته وعن حريمه أيضا وهو القائل :

أنا الهجين عنتره

كل امرئ يحمي حره

أي فرجه وعننى بذلك أمراؤه ونساءه :

أسوده وأحمره

والشعرات الواردات مشفوه

وهذه لغة مكشوفة خشنة تناسب دفعه الظلم عن نفسه لما أراد أن يكر ولم يعده أن يحمره ، ولكل مقام مقال . ثم جاء بعد صورة حليل الغانية بصورتين تدرج فيهما من هذه الصورة الأولى من بئيس إلى أباس منه إلى أشد من ذلك - فالثانية قوله :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم

بل هو متحد قتل ، فلهذا كره الكماة جانبه ، والكماة جمع كمي وهو الشجاع المقاتل الذي قد كمي كل ضعف فلا يدري قرنه أين يصيبه . كمي يكمي (باب ضرب) أي ستر ومنه قولهم كمي شهادته أي سترها ، وفي دارجة أهل المغرب يكمي أي يدخن التبغ لإدخاله دخانه في صدره كالشيء المكتوم^(١)

جادت له كفي بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم

فهذه الطعنة عاجلة نافذة إلا أنها دون مفاجأة الأولى التي كان نفاذها وانفجار الدم منها كأنها شيء واحد حدث كله في وقت واحد ، وقد بين عنتره ما صحب هذه الطعنة على عجلتها ونفاذها من جهد خير بالقتال متمرس به :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

(١) أو لأن أوائل المدخنين كانوا لا يجاهرون بذلك ويخفونه عن مجترمونه أو يتهبونهم

وفي قوله « ليس الكريم على القنا بمحرم » من نفس الأسف والتفكر في مصائر الحياة قريب مما في قوله :

تمكو فريسته كشدق الأعلم
وقد فصل صورة هذا الأسف وروح المأساة في قوله من بعد :

فتركته جزر السباع ينشئه يقضمن حسن بنانه والمعصم
وذلك أنه كان مدججا فما بدا له منه إلا هذا البنان والمعصم بحسنهما ، وما كان لذلك
من غناء له إذ عاجله هو بطعنة من مثقفه ذي الكعوب المقوم .
والصورة الثالثة لمقاتل متمرس شرس جريء بصير بالحرب واثق بنفسه عظيم
الختزونة ، وقد احتاج عنتره الى رمحه وسيفه معا ليقهره :
أول شيء كأن لم ير منه إلا هذه الدرع السابغة والهيئة المهولة الشخص ، وكأنه شجرة
من شجر السرح .
والمبارزة التي يصفها عنتره كأنها مبارزة راجلين لا فارسين على جواديهما وكان هذا المبارز
معلما وكنى عن جودة تصريفه القناتة والسيف بقوله :

ربذ يدها بالقداح إذا شتا هتاك غايات التجار ملوم
أشرب صفته إذ يلعب الميسر وإذ يسبأ الخمر لونا من حركة أداة الحرب ومن الطعن
ومشك السابغة التي هتك فروجها حتى أصاب مقتله
لما رأي قد نزلت أريده أبدى نواجزه لغير تبسم
عهدي به مد النهار كأنها خضب البنان ورأسه بالعظم
فالبنان الذي كان يصرف به السلاح والقداح والرأس الذي عليه الخوذة تبرق وقد كثر
هو عن أنياب قد سال الدم عليها وجمد وهو جسد ميت الآن . طعنه أولا فهذا هتك
فروج الدرع ولما أحدث به ذلك اضطرابا علاه بالسيف القاطع فشق هامته أو كما قال :-
فطعنته بالرمح ثم علوته بمهند صافي الحديد مخذم
ثم ها هو ذا قتيلا

بطل كأن ثيابه في سريحة يحذى نعال السبت ليس بتوأم
قوله يحذى نعال السبت يفيد به إكفاءه عن سرجه حتى كأن قد ارتفعت قدماه وتدل
سائر جسده ، كان كسريحة قائمة وهو الآن كأعجاز نخل منقعر

وتأمل قوله بعد هذا مباشرة وأغلب الظن أن هذا الترتيب صحيح :

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علي وليتها لم تحرم

هو الآن في حومة الحرب .

ومما يشجعه على الإقدام أن يكون لقلب هذه المحبوبة فارس أحلامها .
لا يزعم عنتره بعد قهره هذا المعلم البئيس الباسل الذي بارزه أنه سبى ظيعيته فقد سبق
قوله «أعف عند المغنم» . فانصرف كما ترى إلى نداء عبلة بحسرة بعدها . ثم أتبع ذلك
وصفه الموجز لمغامرة غرامية تناسب ذكر عبلة وتناسب ما قدمه من انتصار وتنزل من
بعده مكانا مناسباً له ، وكأن ذلك هو المغنم وهو الجائزة .

قد ذكرنا من قبل أن ورود هذا النموذج الموجز في ميمية عنتره يصحح ما قدمناه من أن
موضوع المغامرة الغرامية قد كان من أنماط النسب معروفاً . وعليه ما روه من كلام
امرىء القيس ومن ساروا على نهجه من بعد . ومن هؤلاء بلا شك عمر بن أبي ربيعة

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علي وليتها لم تحرم
فبعثت جاريتي فقلت لها اذهبي فتحسني أخبرها لي واعلمي
قالت رأيت من الأعادي غرة والشاة ممكنة لمن هو مرتمى
وكانها التفتت بجيد جدابة رشيا من الغزلان حر أرثم
قوله وكانها التفتت بجيد جدابة اختصار لخبر اللقاء وينظر إلى مقال امرىء القيس

فسرت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرفل
تصد وتبدي عن أسيل إلخ

حسن هذه الحسنة جائزة ومغنم وشكر لهذا الصنيع الذي قدمه من نزوله يبارز حماة
الحقائق ومن يكره نزاله من الأبطال ويهرب ولكن عمرا - وكنى بعمره عن عمه أو
قبيلته أو أحد رجالها أو عن عدو له ممن يحسده وهو أسود على هذه الفعال البيض فلو
قدر على طمسها لفعل

نبئت عمرا غير شاكر نعمتي والكفر مخبئة لنفس المنعم

صدق

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

لكريمة الحرب . وقوله ولقد حفظت وصاة عمي ، إن رددته على عمرو علي أنه عمه ،
فكانه يقول قد حفظت وصاته ، ومع ذلك لم يشكر بلاني . وأقرب من هذا أن يكون

عمرو إما شخصا بعينه وإما كناية تعم ثم قوله ولقد حفظت وصاة عمى مردود على خطابه المحبوبة وهي إما ابنة عمه كما يزعم أصحاب السير والأخبار والأساطير وإما جعلها ابنة عمه على عرف العرب إذ الحسنة التي تراد لتكون زوجة - سواء أكان ذلك مرادا بالقوة أم بالفعل - يقال لها «ابنة عمى» ، ثم مضى عنتره إذ عاد الى خطابها يقص قصة شجاعته وإقدامه . وقد رأينا درجاته الثلاث مع الأقران الثلاثة . ثم الآن قد حمى الوطيس وجاءت ساعة الصبر وثبات الأقدام والمعرفة بالحرب متى يكون الإقدام ومتى يكون التوقف والتربص وانتظار فرص الهجوم .

علقمة صور لنا المعركة في عين اباغ - تلك التي قتل فيها ملك الحيرة وأسر أخوه شأس في جماعة بني تميم - بتصوير رسام كأنها يضع مشاهد هيجاء المعركة وأهوالها كلها على لوحة بخياله المهيمن ويقولها الناصع المبين .

أما عنتره قد نقلنا معه الى وسط المعركة لنشاركه في احساسه وانفعالات نفسه وليعلمنا مما علمه واختبره بعض علم القتال - ثم لتذكر أن هذا الخطاب موجه الى ابنة هذا العم الذي قد حفظ وصاته ليكسب عطفها ومحبتها :

في حومة الحرب التي لا تشكى غمراتها الأبطال غير تغمغم
إذ يتقون بي الأسنة لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي

يتقون به الأسنة لأنه قائدهم المتقدم أمامهم .

ثم هو الآن سيدهم . ومن شأن السيد أن يحمي عبده لأن العبد مال . العبد لا يحسن الكر ولكن يحسب الحلاب والصر .

ثم زعم بعضهم أن عنتره أقصر ببعض الإحجام والجبن إذ قال «لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي» وأولى أن يقال إن هذا يقص علينا به خبر قول أبيه له «كر» . وكأنه عندما يتقدم حين يحمي الوطيس يسمع هذا الصوت : «كر وأنت حر» . ولكنه ليس بأهوج يكر ليكون درقة غيره من الأسنة ، ولكن ليكون رأس سنانهم الطاعن في نحور العدو .

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم

تضايق مقدمي . أي تضايقت فرصات الإقدام . ثم هاهم هؤلاء مقدمون يحرض بعضهم بعضا . ورأت عينه اللاقطة مكان من ضعفهم .

لأمر ما كانت العرب في مقامات حروبها أيام الفتوح الأولى مما تقص قصص عنتره وتتناشد شعره .

شفي نفسي وأبرأ سقمها» منبىء عن عقدة نقص ولو قد كان ذلك حقيقة أمره لكتمه ولم يصرح بشيء منه . وإنما شفي نفسه ثقته وإحساسه أن إذ دعوه بأنهم يكبرون قدره ومنهم محبون له .

والخيل تقتحم الخبار عوابسا من بين شيطمة وأجرد شيطم
الخبار مالان واسترخي من الأرض . وقد يكون عنتره هنا يصف مكان خبار أي أرضا ذات لين واسترخاء حيث وقعت المعركة . ويجوز أن تكون تلك الأرض لانت واسترخت لجري الخيل عليها أو لتصبب العرق والدم . والوجه الأول أولى وأقرب في المعنى . وكما ترى قدم عنتره ذكر الخيل مجتمعة للدلالة على أنه أقدم وقال لهم الآن کروا فکروا جماعة معا ، والخيل مراد بها الأفراس والفرسان جميعا وكلهم بهم عبوس . ثم أخلص عجز البيت كله للتنبيه على الخيل مفردات من بين شيطمة وأجرد شيطم أى طويل قوي الجسم فتيه وهي صفة توصف بها الخيل والإبل والناس وقد مر بك قول الشاعر يخاطب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

يعقلهن أجرد شيطمي

وما أحسبه عني بأجرد شيطم إلا حصانه ، إذ هو الذي بدأ الكر ، والأجرد القليل الشعر وقوله أجرد شيطم يدل على أن الشيطمة هي أيضا جرداء ومما يحسن ذكره هنا بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه
فقد قدم ذكر مثار النقع ، أي ما أثير من الغبار . ولو قد كان فارسا حقا لبدأ بالخيل التي أثارته كقول عنتره ههنا وكقول أبي الطيب من بعد :

تثير على سلمية مسبطرا تناکر تحته لولا الشعار
(على أن أبا الطيب قد نظر اليه وأخذ منه في هذا البيت كما قد نظر الى عنتره أيضا وإلى ديبب عقبان النابغة حيث قال بعد هذا البيت :

غبارا تعثر العقبان فيه كأن الجو وعث أو خبار

وهذا من مبالغاته)

وأحسب أن أبا تمام كأنها قد عمد في نفسه الى أن يفسر قول بشار ، حيث قال :
من لم يقد فيطير في خيشومه رهج الخميس فلن يقدود خميسا

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتي عرضي ولم اشتمهما والنـاذرين إذا لم القهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

قد رووا قبل هذا ثلاثة أبيات : فيهن تصريح برجعة الى خطاب المحبوبة . على أن قوله «ولقد خشيت» منبىء عن أنه يخاطبها ، وليس بحديث منه الى نفسه فقوله «مشايعى قلبى» يمنع ذلك ، لأن حديث النفس في هذا الموضع مشعر بضعف ليس في عنتره ولا في قصيدته هذه وكأن الذين رووا الأبيات الثلاثة بعد بيت «بأمر مبرم» وهى :

إنى عداني أن أزورك فاعلمى ما قد علمت وبعض ما لم تعلمى
حالت رماح ابني بغيض دونكم وزوت جواني الحرب من لم يجرم
ولقد كررت المهر يدمى نحره حتى اتقتنى الخيل بابني حذيم

ولقد خشيت

(والذي علمته غيرة أهلها والذي لم تعلمه أمر القتال)

كأن الذين رووا هذه الأبيات الثلاثة تأولوا ولقد خشيت على خطاب النفس فعمدوا الى رواية هذه الأبيات ليكون كل ذلك خطابا . ومن تأمل وجد قوله : ما قد علمت إلخ كأنه تكرار لقوله : «هلا سألت الخيل يا بنة مالك» قوله : «وزوت جواني الحرب» كأنه من قول زهير :

تعفى الكلوم بالمتين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم

ولقد كررت المهر، تكرارا لما وصف به مهره ، وفي الصياغة تكرار لقوله : ولقد حفظت ولقد خشيت .

هذا ومن المخاطبة مذهب الحارث في همزيته المعلقة . وفيه مشابهة من مذهب عمرو بن كلثوم في النونية . غير أنه لم يتدرج من مخاطبة الطعينة الى مخاطبة الخصوم ، بل خلاص الى ذلك بعد النسب خلوصا مباشرا :

أيها الناطق المرقش عـنا عند عمرو وهل لذاك بقاء
وقد كرهه من بعد فقال :
أيها الناطق المبلغ عـنا عند عمرو وهل لذاك انتها :

وفي القصيدة بعد أمثال :

إن نبشتم . . . أو نقشتم . . . أو سكتهم . . .

وهلم جرا .

وعينية الحادرة نسيج وحدها في اعتمادها على شيء من ظاهر احتيال المخاطبة وباطن من استمرار صورة الثغر الحلو المبتسم الذي هو مخاطبه مع ما يلبس ذلك من معاني الشوق والحب ، وقد سبق منا التنبيه الى بعض ذلك في الجزء الثالث في باب الإيحاء بالتجارب الذاتية . أما احتيال المخاطبة فتكراره اسم المحبوبة عندما صار من النسيب الى الفخر - قال في البيت التاسع :

أسمى ويحك هل سمعت بغدرة البيت

وقال في السادس عشر :

فسمى ما يدريك أن رب فتيه البيت

ورب بتخفيف الباء وتشديدها يحل بالوزن والتخفيف والتشديد كلاهما قرأوا به في قوله تعالى : " ربها يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " التخفيف قراءة عاصم ونافع وأبي جعفر وسائر القراء على الثقيل .

وقريب من احتيال الحادرة هذا صنيع ثعلبة بن صغير في قصيدته ،

هل عند عمرة من بتات مسافر ذي حاجة متروح أو باكر

وهي الرابعة والعشرون في المفضليات . البتات المتاع والزاد وما أشبه وهذا البيت مضمن خطاب عمرة إذ لم يجد لديها شيئاً فانصرف عاتبا .

سئم الإقامة بعد طول ثوائه وقضى لبائته فليس بناظر
أي ليس بمنتظر

لعدات ذي أرب ولا لمواعد خلف ولو حلفت بأسحم مائر
وعدتك ثمت أخلفت موعودها ولعل ما منعك ليس بضائر
مسكين !!

وأرى الغواني لا يدوم وصالها أبدا لذي عسر ولا مياسر
كأنه ينقض قول علقمة كله هنا وإنما دعاه الى نقضه بهذا التعميم ما مني به الآن من مزاج سوداوي

وإذا خليلك لم يدم لك وصله فاقطع لبائته بحرف ضامر

وهذا يشبه كلام لييد، فإن كان سابقا له فقد أخذ لييد منه وإن كانا متعاصرين فالله أعلم أيهما أخذ من صاحبه، ولكن قول لييد:

حتى إذا ألفت يدا في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

أحسبه أخذه من بيان القرآن إذ سورة صاد مكية وفيها قوله تعالى: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب» وكان لييد يفد إلى مكة في أيام ما قبل الهجرة. وموضع الأخذ هنا الإضمار البحث اعتمادا على علم السامع بمرجع الضمير. ويبقى لفظ «كافر» متنازعا بين لييد وثلعة أيهما سبق إليه وهو عند ثلعة:

فتذكرا ثقلا رثيدا بعد ما ألفت ذكاء يمينها في كافر

وغير ثلعة اسم عمرته فصيرها سمية عند قوله:

أسمى ما يدريك أن رب فتية	بيض الوجوه ذوي ندى ومائر
حسنى الفكاهة ما تدم لحامهم	سبطي الأكف وفي الحروب مساعر
باكرتهم بسباء جون ذراع	قبل الصباح وقبل لغو الطائر

وهذا أدنى إلى وقت الشروق من قول لييد «بادرت حاجتها الدجاج البيت» وجعل ثلعة هذا مدخلا إلى الفخر. ورب كما ترى عنده مخففة الباء.

وقد ضمن فخره قوله:

ولرب واضحة الجبين غريرة	مثل المهاة تروق عين الناطر
قد بت ألبها وأقصرهمها	حتى بدا وضح الصباح الجاشر

أى ذو الإشراق والسطوع قال الشارح الجشرباشير الصباح - الجشربفتح فسكون مصدر جشرب. فالواضحة الجبين هي عمرة نفسها أو أخرى يغايظها بها على نحو قريب من نمط امرئ القيس إذ قال "فمثلك حبل" في مغايظته لعنيزة صاحبة الغبيط.

وقول ثلعة في آخر القصيدة

ولرب خصم جاھدين ذوي شذى

ليس (مع ما فيه من فخر) ببعيد المناسبة لما كان فيه من خاصمة عمرة.

ومذهب لييد في المعلقة في خطابه نوار قريب من طريقة ثلعة والحادة في مذهب هذا

الاحتياط الرابط - قال في أوائل القصيدة :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها

ثم قال بعد أن وصف ناقته بما وصفها :

أو لم تكن تدري نوار بأنني وصال عقد حبال جدامها

ثم قال :

بل أنت لا تدريين كم من ليلة طلق لذيد لهُوها وندامها

ثم مضى في فخره - فقله : " وغداة ريح " وقوله : « ولقد حميت » وقوله : « وجزور
أيسار » كل ذلك وما هو بمجره داخل في مخاطبته لنوار حيث قال « بل أنت لا تدريين »
ومردود عليه . هذا . وأما المعاني والصور الباطنة الرابطة بين أول كلام الحادرة وآخره
فهي جمال سمية وحديث الشاعر إلى شخصها الجميل وهذا الجيد الواضح وهذه المقلّة
الخوراء المغرورة حيناً بعد حين - حقا أو توهم الشاعر ذلك - بدمعات الوداع ، وهذا
الثغر المبتسم الحلو ، الذي كأنها ابتسامته من حلاوتها قبله

وتزودت عيني غداة لقيتها بلوى البنية نظرة لم تقلع

وإنما نظر إلى هذا التصدف الذي يجلو عليه المحاسن وذلك قوله من بعد :

وتصدفت حتى استبتك بواضح صلت كمتصب الغزال الأتلع
وبمقلتي حوراء تحسب طرفها وسنان حرة مستهل الأدمع
وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها لذيد المكرع

فقد ود تقييله هنا كما ترى وكأن قد قبله

وقول " تنازعك " الحديث مفيدنا أنه كان بينهما فيه أخذ وعطاء وقد استراح
الشاعر من قوة الشعور التي تضمنها قوله « وإذا تنازعك الحديث » وما قبله من نعت
إلى التشبيه ووصف الطبيعة . وقد يبدو أول وهلة أن الشاعر قد استطرد بتشبيه الثغر إلى
وصف الطبيعة كما قدمنا أن الشعراء مما يفعلونه . ولكن مزيدا من النظر في نعتة يدل
على المعنى الذي أوردناه أخيرا ههنا أنه طلب بعض الاستراحة الوجدانية . وقد ضمن
صفة الثغر المتفرق بصفاته وحلاوته هذه الصفات التي نعت بها الغدير والسارية
والغلل المتقطع في أصول الخروع . وذلك قوله :

وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها - لذيد المكرع
ثم وصف لذيد المكرع هذا بصفاء قطرات السارية ثم جعل ذلك غديرا لمائه مع
الصفاء لون أسجر فهذا هو اللمى

بغريض سارية أدركته الصبا من ماء أسجر طيب المستنقع
فطيب المستنقع شاهدة بالصفاء . والسجرة حمرة إلى الكدرة وهو لون الماء بعد أن
ينهل على الأرض ويستن ليكون جداول وغدراننا . وأسجر هنا أي ماء غدير أسجر .
ومن نون الماء ونقل همزة الأسجر كان ذلك له وجها والوجه الأول عليه رواية الديوان .
ويفيدنا أن الوجه الثاني رواية أيضا قول الشارح ويقال ماء السماء قبل أن يصفو أسجر
(ص ٥٤ شرح الأنباري الكبير س ١١ - ١٢) فإن تك أسجر صفة لماء فلا بد من تنوين
ونقل وعلى هذا الوجه ضبط طبعة دار المعارف بتعليقات العلامة أحمد محمد شاكر رحمه
الله والأستاذ الجليل عبد السلام محمد هرون (سنة ١٣٦١ هـ ص ٤٢ س ٦)

ظلم البطاح له انهلال حريصة فصفا النطاف له بعيد المقلع
أي بعد الإقلاع والحريصة سحابة . والضمير في له يعود على ماء أسجر في رواية
من نون الماء وجعل أسجر صفة له ، وأشبه أن يكون عائدا على الغدير في رواية من لم
ينون ، أي من ماء غدير أسجر سبب سجرة لونه أن البطاح انهلكت عليها سحابة
حريصة فقشرت من أعاليها فهذا ظلمها لها إذ هي لا تمسك الماء فانحدر وفيه كدرة ثم
أقلعت السماء فاجتمع الماء صافيا وفيه السجرة كهذا الثغر الصافي ذي اللمى
لعب السيول به فأصبح ماؤه غللا تقطع في أصول الخروع
أي في أصول النبات الغض الخضرة . وصفة هذا الماء الغلل المتفرق كأنها هي
صفة لهذا الذي هو لذيد المكرع - ثغرها المبتسم .
ثم يقول - وهذا يؤكد لك معنى الاستراحة الوجدانية ، وأنه ما زال ينظر إلى الثغر
ويخاطب ذات ابتسامته الشائقة :

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في مجمع
ثم يمضى في الفخر حتى يقول :

وعمل مجد لا يسرح أهله ————— يوم الإقامة والحلول لمرتع
بسييل ثغر لا يسرح أهله ————— سقم يشار لقاءه بالإصبع

لقاءه بكسر اللام ورفع الهمزة أو نصبها فمن نصب جعلها بمعنى إليه ومن رفع لم

يبعد من هذا المعنى ، وقد كرر لا يسرح أهله . وكان ذكر الثغر لفته بنوع من تداعي المعاني إلى هذا الثغر اللذيذ الذي يحدثه فقال :

فسمي ما يدريك أن رب فتية باكرت لذتهم بأدهم المترع
وكان هذه الصورة منتزعة من ثغرها الألي المترع اللذيذ المكرع - وقد رووا في قوله من «ماء أسجر طيب المستقع» : «ببزيل أسجر إلخ» فجعلوه دن خمر، ولعل الشاعر قال هكذا أول الأمر ثم عدل عنه .

ومضى الحادرة يذكر لذته بالشراب مع صحبه - وجاء مع الأدكن المترع بصفة العيون ولكنها ليست بمقلتي صاحبت ذات الطرف الوسنان ، الحرة مستهل الأدمع - إنها عيون صحبه التي احمرت من ثمل الخمر.

هذه الخمر كدم الغزال ويروي كدم الذبيح . وفي هذا التشبيه شيء مستكن من معنى الغزال الأتلع الذي هو حبيبته الحسناء البكر التي بكرت مفارقة وما تمتعه إلا نظرة .

ههنا ، عندما ينتقل الحادرة إلى تصوير نداماه وسكرهم ورفاقه في شدة السفر، شيء من عناصر التحول والمقابلة وقد استشهدنا من قبل على ذلك بصنيع الشنفرى في التائية حيث قابل بين صفات المحبوبة وصفة رفيقه «وأم عيال قد شهدت إلخ» .

قوله : متبطحين على الكنيف كأنهم يكون حول جنازة لم ترفع فيه ذرة أنفاس من قوله :

ظلم البطاح له انهلال حريصة

هذا الذرة تحسه في لفظتي متبطحين والبطاح وفي البكاء وفي انهلال الحريصة والجنازة هنا الدن الذي شربوه . والأسجر في رواية من روى ببزيل أسجر هو الدن وقوله من بعد يصف الأشعث

ولدى أشعث باسط ليمينه قسما لقد أنضجت لم يتورع
صورة فيها مشابه من أم عيال الشنفرى ومقابلة لقوله :

وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها لذيد المكرع
ثم ما جاء بعد من ذكر السفر

ومسهدين من الكلال بعثتهم	بعد الكلال إلى سواهم ظلع
أودي السفار برمها فتخالها	هيا مقطعة جبال الأذرع
تخذ الفياقي بالرحال وكلها	تخدي بمنخرق القميص سميده

فهذه في مقابلة الطعائن التي كل منها تسير بحسنا تتصدف بواضع صلت
كمتصب الغزال الأتلع
وقوله من بعد :

ومطية حملت رحل مطية حرج تنم من العثار بدعده
رجع به إلى مشقات السفر وقوله ومطية خطاب إذ كأنه قد قال : فسمى ما
يدريك أن رب مطية هكذا شأنها صنعت بها كذا وكذا .
ثم جعل آخر شيء صفته نفسه في السفر حيث أناخ وعرس وتوسد ساعده
القوي وهجع هجعة كموتة فلما نهض وجد أن ساعده قد خدر حتى كأن قد بان ، غير
أنها كانت هجعة قصيرة لم يتقلب فيها عن حال توسده فلهاذا خدر ساعده ، وناقته لم
ترك إلا أثر ثفنتها ، كأن موضع كل ثفنة من ثفنتها الخمس أفحوص قطاة .

ومناخ غير تئبة عرسته قمن من الحدثان نابي المضجع
عرسته ووساد رأسي ساعد خاطي البضيع عروقه لم تدسع

أي لم تمتليء وتنتفخ كما تفعل عروق من جاوز الشباب وشاخ
فرفعت عنه وهو أحمر قاتر قد بان مني غير أن لم يقطع
في قوله قد بان مني نوع من أصدقاء بكور سمية وبينها مع علاقة قلبية بها . والحمرة من
ألوان هوداج الطعائن .
فترى بحيث توكأت ثفنتاتها أثرا كمفتحص القطا للمهجع
وتقي إذا مست مناسبها الحصى وجعا وإن تزجر به ترفع
ثم رجع إلى الخطاب :

ومتاع ذعلبة تحب براكب ماض بشيعته وغير مشيع

كأنه بهذا يصف حال نفسه وحالها ، إذ قد كان هو مسافر مع رفقته الشعث في شيعه
وأما الآن إذ مضت فهو متروك وحده ليمضي وحده ، أم ذكرها وهذا الثغر المبسم له
شيعه بعدها ؟ .

ولقد ردنا إلى ما بدأ بها إذ قال : « بكرت سمية بكرة فتمتع » بمقاله هنا « ومتاع ذعلبة » -
والذعلبة الناقة السريعة . وإن كانت قلوفا شابة فذلك أسرع لها . وقد يعلم القاريء
الكريم اصلحه الله أن العرب ربا كنت بالقلوص عن المرأة - فصلة متاع ذعلبة ، على
هذا بقوله « بكرت سمية بكرة فتمتع » واضحة إن شاء الله . وهل نظر ثعلبة بن صغير

في قوله : «هل عند عمرة من بتات مسافر » الى قول الحادرة في مقطع كلامه هذا فجعله هو مطلعاً؟ أم هذا الضرب من القول كثير وروده في الشعر ومنه كما تعلم قول المسيب :
«أرحلت من سلمى بغير متاع »

وأخذ الشعراء بعضهم عن بعض طريق ركوب .
وأمثلة الخطاب المجمعول واسطة للربط بعد كثرة . ومنها سوي ما تقدم جيمية شبيب
ابن البرصاء في المفضليات :

الم تر أن الحي فرق بينهم نوى يوم صحراء الغميم خلوج
نوى شطنتهم عن نوانا وهيجت لنا طربا إن الخطوب تهيج
وفيها مما يجري مجرى الخطاب :

لعمر ابنة العمري ما أنا بالذي له أن تنوب النائبات ضجيج
وقد علمت أم الصبيين أنني الى الضيف قوام السنوات خروج
وإني لأغلى اللحم نيئاً وإنني لمن يهين اللحم وهو نضيج
إذا المرضع العوجاء بالليل عزها على ثديها ذو ودعتين لهوج

هذا البيت جيد وفيه انطباع من تجربة حقيقية صادقة . هذه المرأة العوجاء أي النحيلة
السيئة الغذاء - قال الهذلي :

ويأوي الى نسوة عطل وعوج مرضيع مثل السعالي

وهذا الطفل ذو الودعتين الجائع الذي يروم ثديها وليس فيه ما يسد رمق جوعه .
وفي هذه القصيدة بيت ذكر فيه دمشق والأرز إذ وصف ناقته فقال :
لها ربذات بالنجاء كأنها دعائم أرز بينهن فروج

وقرية من هذه الجيمية في منهج الخطابة ، وهي أسبق منها زمانا بلا ريب لأن صاحبها
عمرو بن الأهمم أقدم زمانا من شبيب البرصاء قافية هذا التي أولها :
ألا طرقت أساء وهي طروق وزارت علي أن الخيال يشوق

وقد جاء بالخطاب في أولها ثم ساق الكلام عليه :

ذريني فإن البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق
ذريني وحتي في هـواي فإنني على الحسب الزاكي الرفيع شفيق

ثم ذكر الضيف وخروجه اليه . وقد كان عمرو بن الأهتم من سادة بني تميم وخطبائهم ووفد الى النبي صلى الله عليه وسلم وله مع الزبرقان بن بدر في ذلك خبر . وكأن شيبا نظر اليه في الذي خاطب به امرأته وافتخر به من قرى الأضياف وهو قوله :

وإني كريم ذو عيال تهمني	نوائب يغشى رزؤها وحقوق
ومستنجع بعد الهدوء دعوته	وقد حان من نجم الشتاء حقوق
يعالج عرنينا من الليل باردا	تلف رياح ثوبه وبروق
تألق في عين من المزن وادق	له هيدب داني السحاب دفوق
اضفت فلم أفحش عليه ولم أقل	لأحرمة إن المكان مضيق

ومذهب المخاطبة كثير

وعند الإفرنج في قصصهم مذهب شبيه بهذا الذي أوردنا من إدارة الوحدة والربط على حيلة من المخاطبة كياسمية ويا نوار ويا بنة مالك وما أشبه أحسب أن أصله من قصص ألف ليلة وجحا ونحوهما من الأساطير وهو الذي يقال له Picaresque (بيكارسك) وهو ما يجعل أمر وحدته منوطا بمغامرات شخص بعينه وإن لم يكن بين المغامرات نفسها رابط يربط بينها غير هذا الشخص المغامر - من ذلك « دون كيهوتي أو كيشوت » ويرى بعضهم أن هذا أصله من تحريف اسم جحا وذكر أبو حيان التوحيدي في بعض ما كتب أنه كان من الكوفة على زمان بني أمية ، وقصة «توم جونز» للروائي الانجليزي « فيلدنج » وما أشبه . وقد أنكر ارسطو طاليس صحة الوحدة على هذا الوجه في المأساة وعاب من جعل قوام مأساته أخبار هرقل البطل وقال برأيه المعروف في تشبيه وحدة المأساة بوحدة الكائن الحي وهو ما يقال له الوحدة العضوية . ثم استعمل هذا اللفظ على غير وجهه ، والله الموفق للصواب .

سابعاً ، الاقتضاب

قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة :

فلما وردن الماء زرقا جاما	وضعن عصي الحاضر المتخيم
ظهرن من السوبان ثم جزعنه	على كل قيني قشيب ومفام
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله	رجال بنوه من قریش وجهرهم
يميننا لنعم السيدان وجدتما	على كل حال من سحيل ومبرم

فهذا اقتضاب ، وسوغه أنه متضمن لمعنى الرحلة إذ قوله :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم

يدل على ذلك ، ثم استمر في الرحلة حتى بلغ البيت فأقسم . وقد ذكرنا من قبل أن زهيراً قد جاء من بعد بعناصر من التسلسل والمقابلة وسوى ذلك مما هو عناصر للوحدة والربط في هذه القصيدة العظيمة الشأن

وقال زهير بعد النسيب ووصف الحديقة والناقة المقتلة والسائق والقابل والصفادع يخرج من شربات ماؤها طحل على الجدوع يخفن الغم والغرقا

قال :

بل اذكرن خير قيس كلها حسباً وخيرها نائلاً وخيرها خلقاً
وهذا اقتضاب مضمن إضراباً عن ذكر الحبيبة وتسلياً عنها وإقبالاً على جد من الأمر ،
وهو المذهب الذي بسطه علقمة في البائية ، وخشنة ليبد في قوله :
فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها

وقد سبق التنبيه منا أن مثال دع ذا وأمثال :

فعد عن ذكرها إذ لا ارتجاع له

مع أن ظاهره اقتضاب ، هو حقاً موصول بما قبله وما بعده وأولى المذاهب عندي وأحقها بأن يسمى اقتضاباً ما كان يقع في المفاخرات والنقائض وأشعار القبائل إذ فجاء الانتقال فيه من النسيب إلى القتال أمر طبيعي يدل على ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كأنها قمر السماء اذا تبدي
نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقال سعد بن مالك من كلمته على نفس الوزن وكلتا الكلمتين في الحماسة :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

يعني الحرب :

فالهم بيضات الحدور هناك لا النعم المراح

من ذلك مثلاً قول بشر بن أبي خازم الأسدي وهي التاسعة والستون في المفضليات :

لولا تسلي الهم عنك بجسرة عيرانة مثل الفنيق المكدّم

زيافة بالرحل صادقة السرى خطـارة تهـص الحـصى بمثلـم
سائلـ تـمـيـا فـي الحـروب وعـامـرا وهـل المـجـرب مـثـل مـن لـم يـعـلـم
ومـن عـنـد هـذا البـيـت أقـبـل عـلـى المـقـانـلـة بـالـبـيـان والفـخـر، وـكـان قـد حـمـس نـفـسـه لـه بـيـضـاء
العـوارض الـتي سـمـعـت قـيـل الوـشـاة وهـو بـها شـدـيـد الغـرام :

دار لـبـيـضـاء العـوارض طـفـلـة مـهـضـومـة الكـشـحـين رـيـا المـعـصـم
سـمـعـت بـنـا قـيـل الوـشـاة فـأصـبـحـت صـرـمـت حـبـالـك فـي الخـلـيـط المـشـم
فـظـلـلـت مـن فـرط الصـبـابـة واهـوى طـرـفـا فـؤادـك مـثـل فـعـل الأيـم

الأيـم هـو الجـمـل المـغـتـلـم هـذا مـراد بـشـر لا أشـك فـيـه .
قـول الشـارح والأيـم المـدكـوك الفؤاد الـذي لا يـفـهـم شـيـئا كـالحـجـر الأيـم والصـخـرة اليـهـما
وهـي المـلـسـاء والأيـهـان السـيل والجـمـل المـغـتـلـم . قـلـت والجـمـل المـغـتـلـم يـخـرج كـرـكـرتـه وتـرى
شـاهـد الحـزن والصـبـابـة عـلـيـه ويمـتـنـع عـن الطـعام والشـراب . وفـسـروا قـولـه طـرف الفؤاد
بـكـسر الرـاء وفتح الطاء أي اسـتـطـرف حـزنا أي أحـسـه جـديـدا .
ومـيـمـية بـشـر هـذه جـيـدة ولـكن مـيـمـية عـنـتـرة أخـمـلـتـها .
ومـن ذلـك قـول الأـعـشـى :

ودع هـريـرة إن الرـكـب مـرتـحـل وهـل تـطـيـق وداعـا أيـها الرـجـل

ثم وـصـف هـريـرة فـأبـدع ما شـاء ، مـن مـتـبـرـجـة خـلـوب ، بـالـألـباب لـعـوب :

هـرـكـولـة فـنـق درم مـرافـقـهـا كـأن أخـصـهـا بـالشـوك مـتـعـل
إـذا تـقـوم يـضـوع المـسـك أصـورـة والـزـنـبـق الـورـد مـن أـردانـها خـضـل
ثم أخـذ فـي وـصـف الرـوضـة ، وكـأنـه بـذكـر المـسـك والرـوضـة يؤم سـبـيـل عـنـتـرة – وـلـيـس لـه
جـد عـنـتـرة فـي الوـصـف وإخـلاصـه لـه ، ولـكن لـكـلامـه حـلاوة :-

ما روضـة مـن رـيـاض الحـزن مـعـشـبة خـضـراء جـاد عـلـيـهـا مـسـبـل هـطـل
يـضـاحـك الشـمـس مـنـها كـوكـب شـرق مـؤزـر بـعـمـيـم النـبـت مـكـتـهـل
يـومـا بـأطـيـب مـنـها نـشـر رائـحـة وـلا بـأحـسـن مـنـها إذ دنـا الأـصـل

ثم أخـذ الأـعـشـى فـي قـري مـن اللـهـو والمـفـاكـهـة :

عـلـقـتـها عـرضـا وعـلـقـت رـجـلا غـيـري وعـلـق آخـرى غـيـرـها الرـجـل

وعلقتنه فتاة ما يحاولها ومن بني عمها ميت بها وهل
وعلقتني أخيري ما تلاثمني فاجتمع الحب حب كله تبل
من قولهم متبول بحبها أي كله عشق مفرط والتبل بفتح فسكون ذهاب العقل وهو ما
تفعله المرأة بالرجل إذا هام بحبها

فكلنا مغرم يهذي بصاحبه ناء ودان ومخبول ومخبيل
وعلى هذا النمط جاء شكسبير الشاعر الانجليزي بمناظر من مسرحيته التي سماها:
"A MIDSUMMAR NIGHTS DREAM" أي «حلم منتصف ليلة من ليالي الصيف»
وكثرة المشابه بين ضروب من أقاويل شكسبير وأصناف من شعر العرب تنبىء أنه قد
قرأ من ذلك أو سمعه عن قرأه كمعاصره بدويل الذي ترجم معاني القرآن مثلاً .
ومنهج الأعشى في فكاهته لمن تأمله تمثيلي الروح .
ثم يصير الأعشى الى نوع من معاتبة هريرة . وها هنا توطئة خفية لما سيأخذ فيه من
عتاب ووعيد جاد من بعد :

صدت هريرة عنا ما تكلمنا جهلاً بأمر خليل من تصل
أأن رأيت رجلاً أعشى أضرب به ريب المنون ودهر مفند خبل
قالت هريرة لما جئت زائرهما ويلي عليك وويل منك يا رجل
هذا البيت من الفكاهة ذروة . وهو مضمن ذكرى ، لأن هريرة صدت عنه الآن وهو
أعشى أضربه ريب الدهر . ولقد مر زمان كان إذا زارها قالت ويلي عليك من أهلي
وويلي منك ستفضحني . وكأن الذكرى المضمنة إنها هي محض احتيال شعري وإنها
جاء زائرهما الآن فراعها - كما راع بشار من بعد ، وما أحسبه إلا قد تأثر الأعشى ، إذ
قال :

وإنا لا نراك فآلمسينا

فراعته بأكثر مما راعها . وليست لبشار على جودة شعره خفة روح أبي بصير .

إما تريننا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نحفى ونتعل

فهذا يدل على أنه زائرهما الآن وخلع نعليه لكيلا يكون لوقع أقدامه صوت فهذا من مكر
زوار النساء - وقد ألع على أن الأمر كله ذكرى بقوله بعد :

وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم ما يثل

أي ما ينجو

وقد أقود الصبا يوماً فيتبعني وقد يصاحبني ذو الشرة الغزل
وقد غدوت إلى الخانوت يتبعني شاو مثل شلول شلش شول

وزعم ابن قتيبة أن هذا مما تأخر لفظه ومعناه وأخطأ على حذفه بلا ريب وذلك أنه لم يكن لمثله في فقهه وورعه أن يهش إلى شيء من أمر الشراب ولهو - والبيت من المفردات الجياد . ثم أخذ الأعشى في صفة مجلس الخمر والأنس ، وأخذ من علقمة أخذاً ، وكلام علقمة تحالطه من الذكرى أحزان مع جودة الوصف وإتقان نغم القريض وصفائه . وكلام الأعشى فيه الجذل ، وتحس فيه حركة الطرب والحيوية وأنس المجلس الثمل وخفة حركة الساقى ورين الصنج والغناء وحلاوة الفتيات الراقصات الغزلات :

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى ويتعل
نازعتهم قضب الرمحان متكئا وقهوة مزرة راووقها خضل
لا يستفيقون منها وهي راهنة إلا بهات وإن علوا وإن نهلوا
يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل
فها هنا حركة وحيوية

والحركة أهدأ في وصف علقمة ساقيه :

ظلت ترقرق في الناجود يصفقها وليد أعجم بالكتان مفدوم

علقمة هنا ينظر إلى لون الخمر وبريقها وجودتها ونظافة هذا الأعجم وتجويده عمله - ولكن الأعشى يصور السعى الخثيث ، والأفراط التي تنذبذب به وهذا الاعتمال والتقليص - الأعشى يرتقب مجيء الكأس ليعبها عبا وينهمك مع صخبها وحيوية مجلسها . أما علقمة فهو ينظر بعين بصيرة الذكرى إلى متعة ذاقها وقد ذهبت أيامها وبقيت لذاذة ذلك في النفس والأسى على ذهابه وما تغيرت به الدنيا من حال إلى حال .

ومستجيب تحال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل

وهل هذه القينة الفضل هي هريرة مع الذي حاول أن يضيفه على هريرة من سيما الحرائر وأسلوبهن إذ قال :

كأن مشيتها من بيت جاريتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراهـا لسر الجار تحتل
ولكنها كما ترى زوارة فهذا أشبه بأن تكون هي قينة . ثم يقول :

والساحبات ذيول الريط آونة والرافلات على أعجازها العجل

تفسير أبي عبيدة أن العجل هي المزادات بكسر العين وفتح الجيم أشبه أي أكفاهن
ضخمت ويتبرجن بها . وللأصمعي تفسير آخر أنهم كانت بأيديهن المزادات يخدمن
بها من يسقينهن وهو وجه بعيد . وقد ذكر الأعشى الساقى فما كانت الساحبات تسقيه
أصحابه وإنما كن يغنيهن ويرقصن يدلك على ذلك قوله من قبل : « إذا ترجع فيه
القينة الفضل » وهؤلاء الساحبات والرافلات من متاع ما كانوا يلهون به . ودليل آخر
قوله بعد هذا البيت وهو في معنى ما ذهب إليه أبو عبيدة :

من كل ذلك يوم قد لهوت به وفي التجارب طول اللهو والغزل

هذا البيت ولا سيما عجزه جيد . أي اللهو والغزل من التجارب التي تكسب الحكمة
وهو معنى عميق الغور .

وإذ ذكر أن اللهو من التجارب ساغ له أن يحىء بعده بما يقابله ، على النحو الذي رأينا
في تائية الشنفرى وفي عينية الحادرة ، بل بمذهب الشنفرى أشبه :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زجل
لا يتنمى لها بالقيظ يركبها إلا الذين لهم فيما أتوا مهل
والمهل التجارب ، فهذا دليل الربط بما تقدم فيه بين جلي أيها جلاء ويقوى ما قلنا به من
قبل .

جاوزتها بطليح جصرة سرح في مرفقيها إذا استعرضتها قتل

هذا في صفة الناقة الفتية القوية جعلها في مقابلة القينة الفضل وفي مقابلة الهركولة
الفتى . ثم من التجارب شيم البرق من أجل الصيد ومن أجل أن يراد للمرمى . وههنا
أيضا مقابلة إذ الغيث وعارضه تحول مما كان فيه من فلاة كظهر الترس أي ملساء لا
نبت بها إلا عزيف الجنان في ليلها ولهبان القيظ في نهارها :

بل هل ترى عارضا قد بت أرمقه كأنها البرق في حافاته شعل
له رداف وجسوز مقام عمل منطق بسجـال الماء معتمل
ثم رجع الى اللهو الأول الذي كان فيه على نحو قريب مما نبه عليه ابن رشيق إذ تمثل
بأبيات النابغة العينية .

لم يلهني اللهو عنه حين أرقبه ولا اللذاذة من كأس ولا شغل

يعنى شغلا بغزل النساء . وزعم بعض المفسرين أن الشغل الذي في قوله تعالى : «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون» هو فض الأبكار . وبيت الأعشى هذا توطئة لما سيثول إليه قوله من بعد من أمر الجد والوعيد الذي كالهجاء والخصومة .

فقلت للشرب في درنا وقد ثملوا شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل
قالوا نهار فبطن الخال جادهما فالعسجدية فالأبلاء فالرجل
فالسفح يجري فخنزير فبرقته حتى تدافع منه الربو فالخبل
الربو والخبل موضعان .

حتى تحمل منه الماء تكلفة روض القطا فكثيب الغينة السهل
يسقى ديارا لها أصبحت غرضا زورا تجانف عنها القود والرمل
لها أي لهرة . زورا جمع زوراء أي بعيدة - أي أصبحت ديارها بعيدة لاتبلغها الإبل ولا الخيل وقوله غرضا أي غرضا للأمطار أو غرضا لمن يهواها وهو الشاعر . وقد جمع الأعشى هنا بين نشوة الثمل ونشوة رؤية البرق ونشوة ذكرى الحبيبة ، فاسحنفر بذلك الى مواجهة قرن وقتاله :-

أبلغ يزيد بني شيبان مألكة أبائيت أما تنفك تأتكل
ألست متتهيا عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الإبل
كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
فهذا اقتضاب كما ترى .

ويروى "كناطح صخرة يوما ليوهنها" وهو أشد ملائمة لقوله أوهى في عجز البيت .
والاقتضاب هنا قريب المعادن من اقتضاب بشر بن أبي خازم ، مع ما صاحبه من عناصر المقابلة والعود الى ما كان قد سبق ذكره .

وقال بشر بن أبي خازم في مفضليته (٩٦) التي أولها :

عفت من سليمى رامة فكشيها وشطت بها عنك النوى وشعوبها
وغيرها ما غير الناس قبلها فبانت وحاجات الفؤاد تصيها
ثم ذكر الفراق والدموع ثم قال :

رأني كأفحوص القطاة ذؤابتى وما مسها من منعم يستشيها

فقوله "وما مسها من منعم" قريب مما سماه ابن رشيق بالخروج ، وهو نحو قول أبي الطيب :

مرت بنا بين سريها فقلت لها من أين جانس هذا الشادن العربا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يرى ليث الشرى وهو من عجل اذا انتسبا
فهذا احتيال احتال به أبو الطيب فخرج الى مدح المغيث .
وقال بشر إنها رأت رأسي لا شعر به أملس كأفحوص القطاة ، وأيس ذلك لأن منعما من
علي فجز ناصيتي إني من معشر أولى قتال .

أجبتا بني سعد بن ضبة اذ دعوا ولله مولى دعوة لا يجيها
فهذا اقتضاب مع الخروج الذي صار به الشاعر إليه . إذ الغزل ونشوته قد وطأت الى
ذكر القتال وتحدى الشاعر لبني سعد بن ضبة .
ولو رجعت الى قول حسان بن ثابت :

إن كنت كاذبة الذي حدثني فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجبا برأس طمرة ولجام
فههنا مع احتياله بالخروج الذي خرجة نوع " من اقتضاب " هيا له الغزل قبله ، إذ هو
خصوصة و قتال .

وعلى هذا الوجه يصح زعم ابن رشيق أن العرب الأولين لم يكن شعراؤهم
يستعملون الخروج كاستعمال أبي الطيب وأبي تمام والمحدثين له ، لأن هؤلاء كانوا
يخرجون به كل الخروج ، أما ما جاء منه في كلام القدماء كما عند حسان فله اتصال
معنوي ما ، على النحو الذي ذكرناه منه . أو على تضمين خطاب للمحجوبة بها سيأتى
كما صنع الحادرة بقوله « فسمي » وليبد بقوله : « بل أنت لا تدرين » وما أشبه . ومن
أوضح هذا مثالا قول عبد المسيح بن عسلة العبدي :

ألا يا اسلمي على الحوادث فاطما فإن تسأليني تسلي بي عـالما
غدونا إليهم والسيوف عصينا بأيماننا نفلي بهن الجاهما
لعمري لأشبعنا ضباع غنيزة الى الحول منها والنسور القشاعما

الاقتضاب عند المحدثين

الذي سماه ابن رشيق خروجا أكثر ما يقال له في شعر المحدثين التخلص وما
مدح به أبو الطيب حسن التخلص كبيت المغيث وكقوله :

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان الى منها تائبها

وكقول حبيب:

يجاهد الشوق حيناً ثم ترجعه مجاهدات القوافي في أبي دلفا

وقوله:

وعاذل هاج لي باللوم مأربة باتت عليها هموم النفس تصطخب
لما أطال ارتجال العذل قلت له الحزم يشني خطوب الدهر لا الخطب
ولا ريب أن القاريء أصلحه الله قد فطن لي جناس خطوب وخطب وإلى مناسبة
الخطب لقوله قبل لـ "لما أطال ارتجال العذل"

لم يجتمع قط في مصر ولا طـرف محمد بن أبي مروان والنوب
لي من أبي جعفر أخية سبب ان تبق يطلب أن معروفي السبب
على أن في تخلص حبيب هذا أنفاساً من روح اتصال المعاني الذي نجده عند القدماء
ومذهب القدماء عنده كثير كقوله:

لست من العيس أو أكلفها وخدا يداوي المريض من وصبه
إلى المصطفى مجداً أبي الحسن انصع من انصيع الكدري في قربه
فهذا كما ترى من باب الرحلة بعد النسب وبكاء الديار وأول هذه القصيدة:

إن بكاء في الدار من أربه فشايها مغرماً على طربه

والخطاب لعينه وتخلص إلى وصف المزن وكان به كلفاً:
وكقوله:

إليك جزعنا مغرب الملك كلما هبطنا ملا صلت عليك سبابه
فهذا كقول علقمة: إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي
وكقوله:

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب
إلى أن قال بعد وصف جده في السير:

إذا العيس لاقت بي أباً دلف فقد تقطع ما بيني وبين النوائب
ويقابل التخلص الاقتضاب، وهو الخروج فجأة من النسب إلى المدح بلا تقديم وهو
الذي ذكر ابن رشيق أن من اسمائه البتر والكسع والقطع وضرب له مثلاً عند القدماء
دع ذا وعد عن ذا واستشهد له من كلام المحدثين بقول البحري:

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى لكن قلبي بالرجاء موكل

إن الرعيعة لم تزل في سيرة
وقد استشهدنا له من قبل بقوله :

إني وإن جانبت بعض بطالتي
ليروقني سحر العيون المجتلي
الله مكن للخليفة جعفر
وقد حاكى البحري في هذا من مذهبه وهو عنده كثير أستاذه أبا تمام إذ له منه قصائد ، كقوله :

أذكت عليك شهاب نار في الحشا
عدلا شيهها بالجنون كأنها
أوما رأت بردي من نسج الصبا
لا جود في الأقوام يعلم ما عدا
متدفقا صقلوا به أحسابهم
بالعدل وهنا أخت آل شهاب
قرأت به الورهاء صدر كتاب
ورأت خضاب الله وهو خضابي
جودا حليفا في بني عتاب
إن الساحة صيقل الأحساب

وكقوله يخاطب الشيب في نسيب قصيدة له في أبي سعيد الثغري :

كل داء يرجى الدواء له إلا
يا نسيب الثغام ذنبك أبقي
ولئن عبن ما رأين لقد أنـ
أو تصدعن عن قل لي لكفى بالشـ
لو رأى الله أن للشيب فضلا
كل يوم تبدى صروف الليالي
غير أن أبا تمام لم يشتهر بالاعتضاب شهرة أبي عبادة علي كثرته عنده وجودته وأنفاس
الصلابة فيه العربية في أسره . وأحسب أن من أسباب ذلك جودة احتيالات خروجه - أو
كما قلنا قبل - حسن تخلصه كالأمثلة التي أوردنا وكقوله :

لقد أنست مساوىء كل دهر محاسن أحمد بن أبي دؤاد

وإن كان قد سبق هذا ما هو كالاقتضاب في قوله :

وأعين رب رب كحلت بسحر
بزهـر والحدائق وآل برـد
ثم مدح هؤلاء وتخلص إلى ابن أبي دؤاد .
ورث في كل صالحة زنادي

وكان أبا الطيب نظر إلى هذا المذهب حين مدح بني عمران بعد ذكره الخيل ثم تخلص إلى أبي أيوب فقال :

سقيت منابتها التي سقت الورى بندى أبي أيوب خير نباتها

إلا أنه سلك سبيل التخلص في الموضوعين .

وليس أصل اقتضاب البحري من اقتضاب الأوائل في قصائد المدح ، وإن يك استاذه فيه أبو تمام مما ينظر إلى هؤلاء ، وكان أكثر اقتضابه إضراب عن ذكر الرحلة . وليس كذلك صنيع البحري الذي إنما هو من النسيب وثب مفاجيء .
مثلا ، قول أبي تمام في أول البائية

لو أن دهرارد رجع جواب أو كف من شأويه طول عتاب
لعذلته في دمتين بأمرة محوتين لزينب ورباب
فدل هذا على أنه وقف عند الدمتين وهو في طريقه إلى الممدوح ، ثم قد ذكر عدل امرأته التي جعل "أخت آل شهاب" كنية لها ، ثم قال :

لا جود في الأقوام يعلم ما خلا جودا حليفا في بني عتاب
فهذا كالدرد على العاذلة .

وشبه بهذا قوله وأشعر فيه أنه مرتحل :

لله ليلتنا وكانت ليلة ذخرت لنا بين اللوى والشرب
قالت وقد أعلقت كفي كفها حلا وما كل الحلال بطيب

فسره التبريزي بقوله قد جمعت هذا الذي أحلت لي من نفسها أنه حلال وأنه طيب مستلذ ، وهو وجه غير أنه ضعيف . والظاهر من المعنى أنها قالت له تحلل مما عزمت عليه من الرحلة . فقوها هذا ما كان أطييه ، وفي هامش طبعة الديوان قال ابن المستوفي فأما إذ لم يقل حلا طيبا أوهم أن ما بذلته من الحلال غير طيب . ولا نعلم أما بذلت له حلال هو أم غير حلال ، وإنما هي إلمامة ليلة ألمها بهذه الحسناء ، ويجوز أن ذلك كان متعة استحلها ثم أخذ في سبيل الرحلة ، وكلا كلامي أبي زكريا وابن المستوفي غير واف فنعمت من شمس إذا حجبت بدت من نورها فكأنها لم تحجب
وإذا رنت خلت الظباء ولدنها ربيعة واسترضعت في الربرب
قالوا إذا رنت الغزالة نصت جيدها والربرب بقر الوحش وعيونهن واسعات فجمع لها جيد الظبية وحلاوتها وعيون المها .

إنسية إن حصلت أنسابها جنية الأبوين ما لم تنسب

أي جمالها خارق وهذا ولده من قول الشنفرى :

فدقت وجلت واسكرت وأكملت فلو جن إنسان من الحسن جنت
ثم أشعر بارتحاله ومروره على مدينة الزباء الخربة ، على شاطئ الفرات ، وقالوا إنها من
بقايا مدينة الزباء صاحبة الخبر .
قال أبو تمام :

قد قلت للزباء لما أصبحت في حد ناب للزمان ومخلب
لمدينة عجماء قد أمسى البلى فيها خطيبا باللسان المعرب
فكانها سكن الفناء عراصها أو صال فيها الدهر صولة مغضب
لكن بنو طوق وطوق قبلهم شادوا المعالي بالثناء الأغلب

فهذا اقتضاب ، وله صلة بما قبله . وقد فسر أبو تمام الزباء فقال لمدينة عجماء ثم أبي إلا
طباقا فجاء باللسان المعرب وهو بلا ريب لسانه هو وإن كان الظاهر يفيد لسان حال
البلى أنه مبين فكأنه معرب - غير أن قوله باللسان المعرب أدل على لسان معرب بعينه
وهو لسانه الذي ترجم به عن لسان حال البلى .

اقتضاب البحترى محض مفاجىء كل المفاجأة مبتور منقطع الصلة - إلا النغم
وإجماعه - بما قبله ، كقوله المتقدم الذي استشهدنا به ، وكقوله :

وربت ليلة قدبت أسقى بعينيهما وكفيهما المداما
قضينا الليل لثما واعتناقا وأفنيناه ضما والتزاما
خلافه جعفر عدل وأمن وحلم لم يزل يسع الأناما

مقدمة البحترى قبل اقتضابه إنما هي ترنم يتهاى به لاندفاع إلى المديح . وهذا من صنيعه
شبيه بصنيع جرير في الهجاء - مثلاً :

بان الخليط غداة الجنب ولم تقض نفسك أوطارها
فلا تكثروا طول شك الخلاج وشدوا على العيس أكوارها
سأرمي بها قاتمات الفجاج ونهجر هذا وزوارها
الأقبح لله يوم الزبير بللاء القيون وأخبارها
تركتم لسعد زمام الزبير وعقر الفتاة ونجرارها

أحسبه «رمام الزبير» بالمهملة لأن ابن جرهموز قاتله من بني سعد رهط الأحنف والفتاة
جعثن أخت الفرزدق .

ومثال آخر وهو أشهر:-

يا أم ناجية السلام عليكم قبل الرواح وقبل لوم العذل
وإذا غدوت فلازمتك تحية سبقت سروح الشاحجات الحجل
أي سبقت كل شؤم فغدوت على أيمن طائر والشاحجات هي الغربان وحجلانها
مشيتها التي قيل أراد الغراب بها محاكاة الطاووس فلم يستطع ولا عاد إلى ما كان عليه
من مشية الطير

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل
أو كنت أزهب وشك بين عاجل لقنعت أو لسألت ما لم أسأل
أعددت للشعراء سماً ناقعاً فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسمى وضغاً البعيث جدعت أنف الأخطل
ومثال ثالث :

فسقاك حيث حللت غير فقيده هزج السرواح وديمة لاتقلع
فلقد يطاع بنا الشفيح لديكمو ونطيع فيك مودة من يشفع
هل تذكرين زماننا بعينة والأبرقين وذاك ما لا يرجع
إن الأعادي قد لقوا لي هضبة تنبى معاولهم إذا ما تفرع
ما كنت أقذف من عشيرة ظالم إلا تركت صفاهم يتصدع
أعددت للشعراء كأساً مرة عندي غالطها السهام المنقع
هلاً نهاهم تسعة قتلتهم أو أربعون حدوتهم فاستجمعوا

وكأن هذا على اقتضابه جرى فيه جرير على مذهب المخاطبة الذي في عينية الحادة
وجعل بلاءه في الهجاء من باب بلاء الفرسان في الحروب ومثال رابع :

وقد أقصرت عن طلب الغواني وقد أذن حبل بـانصرام
إذا حـدثتهن هـزنن منى ولا يغشين رحلي في المنـام
لقد نزل الفرزدق دار سعد ليـالي لايعف ولايحامي

وهذا خبر جعثن والاقتضاب هنا وثبة ظاهرة .

ومثال خامس :

لقد نادى أميرك بابتكار ولم يلـووا عليك ولم تـزاري
وقد رفع الظعائن يوم رهبي بروح من فؤادك مستطار

رفع الطعائن أي مضين سرعات في سيرهن مفارقات وقد ذهبن بقلبك في هوداجهن

ذكرتك بالجموم ويوم مروا على مـران راجعني اذكـاري
وتيم يفخـرون وضرب تيم كضرب الزيف بار على التجار
ومضى في الهجاء

ومن عجيب أمر البحري أنه فيما ذكروا كان يميل الى تقديم الفرزدق . وربما يكون قد تأثر بفرط ثناء الجاحظ الحسن عليه - قال الجاحظ في الجزء الثالث من الحيوان : « وإن

أحببت أن تروي من قصار القصائد شعرا لم يسمع بمثله فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق فإنك لم تجد شاعرا قط يجمع بين التجويد في القصار والطوال غيره ، وقد قيل للكميت إن الناس يزعمون أنك لا تقدر على القصار قال من قال الطوال فهو على القصار أقدر . هذا الكلام يخرج في ظاهر الرأي والظن ولم نجد ذلك عند التحصيل على ما قال ١٠٠ هـ [ص ٩٨]

وذكروا أن أبا نواس هم بأن يكتني بأبي فراس وهي كنية الفرزدق . وما يخلو الأمر من تعصب أهل البصرة لشاعرهم .

على أن بشارا قد كان بصريا وكان ميله الى جرير وكذلك كان ميل مروان بن أبي حفصة ، وهذا بعد باب واسع والخلاف فيه قديم وكان البحري في أسلوبه أدنى الى جرير . وفي هذا الاقتضاب هو أخذ منه بلا ريب . وسوغ الاقتضاب لجرير أن له مشابه في شعر الأيام والخصومات في أشعار القدماء . ثم قد كان هو صاحب نقائض وما كان أمر مهاجاته من يهاجيه ولا مهاجاتهم له كل ذلك بذى خفاء . فكان تغنيه بالغزل بين يدي هجائه وترنمه بذكر الديار والنسيب من ضرب الحماسة على النحو الذي هو معروف من مذهب العرب من الارتجاز وذكر النساء قبل المناجزة وبازائها . وقد ارتجزوا في جهاد الفتوح بمثل قولهم :

يا ليتني ألقاك في الطراد عند التحام الجحفل الورداد

تمشين في حليتك الورداد

وقال المختار الثقفي :

قد علمت بيضاء صفراء الطلل أني غداة الروع مقدام بطل

فزعموا أنه سأله أحد من كان يقاتل معه أين الملائكة يا أبا إسحاق أو «ما هذا معناه» فقال له قاتل عن حسبك أو ما هذا معناه، وكأن السائل أنكر على المختار ذكر النساء كما يفعل غيره من العرب ممن ليست لهم مثل دعواه أن الملائكة كانوا يعينونه .
ومن قديم ما روي من رجز الأبطال قول ربيعة :

جررن أطراف الذبول واربعن

فعل حيات كأن لم تفرعن

إن تمنع اليوم نساء تمنعن

حتى الخوارج وهم ما هم في التشدد قد تغنوا بالغزل في جد حروبهم التي إنما كانت جهادا للكفرة على ما كانوا يعتقدونه - قال قطري بن الفجاءة :

فواكبدا من غير جوع ولا ظما	وواكبدا من حب أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم

مقدمات البحري أشبه بالتقاسيم الموسيقية التي تسبق لحن المغني وعمود غنائه . وفيها ما ذكرنا من أنها تهينة كان يهيم بها نفسه لاندفاع المديح . وقد كان البحري نديبا . فالذي صنع بأدب المنادمة أشبه وفيه أدخل .

ومن أمثلة اقتضابه مما هو عميق في هذا المجال كلمته المشهورة :

لي حبيب قد لج في الهجر جدا	وأعاد الصدود منه وأبدى
ذو فنون يريك في كل يوم	خلقا من جفائه مستجدا
يتأبي منعنا وينعم إسعا	فا ويدنو وصلا ويبعد صدا
أغتدي راضيا وقد بت غضبا	ن وأمسى مولى وأصبح عبدا
وبنفي أفدى على كل حال	شادنا لو يمس بالحسن أعدى

مربي خاليا فاطمع في الوص	مل وعرضت بالسلام فردا
وشئى خده الى على خو	ف فقبلت جلنارا ووردا
سيدي أنت ما تعرضت ظلما	فأجازي به ولا خنت عهدا
رق لي من مدامع ليس ترقا	وارث لي من جوانح ليس تهدا
حاش لله أنت أفتن ألفا	ظا وأحلى شكلا وأحسن قدا
خلق الله جعفر اقيم الدي	من سدادا وقيم الدين رشدا

فهنا الوثبة المديحية كما ترى

أكرم الناس شيمته وأتم النـ اس خلقا وأكثر الناس رفدا
ملك حصنت عزيمته الملـ لك فأضحت له مغائا وردا
وهلم جرا

وقال في الضادية التي من الخفيف وإياها كما ذكرنا من قبل جاري شوقي في
بضية أنس الوجود :

أيها العاتب الذي ليس يرضى	نم هنيئا فلست أطعم غمضا
إن لي من هواك وجدا قد استهـ	لك نومي ومضجعا قد أقضا
فجفوني في عبرة ليس ترقا	وفؤادي في لوعة ما تقضى
يا قليل الإنصاف كم أقتضى عنـ	دك وعدا إنجازه ليس يقضى
فأجزني بالوصل إن كان أجرا	وأثبني بالحب إن كان قرضا
بأبي شـادن تعلق قلبي	بجفون فواتر اللحظ مرضى
غرني حبه فأصبحت أبدي	منه بعضا وأكتم الناس بعضا
لست أنساه بأديا من قريب	يتنى تنني الغصن غمضا
وأعتذاري إليه حتى تحافي	لي عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقي تفاح خديه تقيـ	لا ولثا طورا وشما وعضا

ثم جاءت الوثبة وغير خاف أن هذا لها موضع :

أيها الراغب الذي طلب الجو	د فأبلى كـوم المطايا وأنضى
رد حياض الإمام تلقى نوالا	يسع الراغبين طولا وعرضا
فهناك العطاء جزلا لمـرا	م جزيل العطاء والجود محضا

ومع الوثبة هنا شيء من تداعي المعاني لاحق بأدب المنادمة ، وهو صلة ما بين
جود الحبيب من الود وجود الإمام مما به ينال الجاه والمعاش والسعادة .
ومن أمثلة اقتضابه الحسنة قوله في صفة البركة :

قد أطرق الغادة البيضاء مقتدرا	على الشباب فتصيني وأصبيها
في ليلة ما ينال الصبح آخرها	علقت بالراح أسقاها وأسقيها

عاطيتها غضة الأطراف مرهفة شربت من يدها خمرا ومن فيها
يا من رأي البركة الحسناء رؤيتها والأنسات إذا لاحت مغانيها

وقد جاء بوثة الاقتضاب هنا بعد ذكره التقييل - واحتفظ بشيء من معاني
الغزل :

يحسبها أنها في فضل رببتها تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيري تنافسها في الحسن طورا وأطوارا تباهيها

وقد يرى قاريء هذا الشعر وسامعه والمتغني به اتصال بيت «يا من رأي البركة
الحسناء» بالبيت تاليه فهذا مدان للتضمن وليس به وفيه رد مفحم لمن قال مكابرا
باستقلال مفردات الأبيات في قصيد العرب .

وقال البحري في كلمته التي أولها
أكنت معنفي يوم الرحيل وقد جدت دموعي في الهمول
عشبة لا الفراق أفاء عزمي إلي ولا اللقضاء شفى غليلي
ثم يقول :

طربت بذني الأراك وشوقتني طوالع من سنا برق كليل
وذكرنيك والذكرى عناء مشابه فيك بينة الشكول
نسيم السروض في ريح شمال وصوب المزن في راح شمـول
عذيري من عذول فيك يلحى على ألا عذير من عذول
تجرمت السنـون ولا سبيل إليك وأنت واضحة السبيل
وقد حاولت أن تحذ المطايا إلى حي على حلب حلـول
ولو أني ملكت إليك عزمي وصلت النص منها بالذميل
فأولى للمهارى من فلاة عريض جوزها وسرى طويل

فهذا في المحبوبة وسير اللحاق بها - ثم وثب إلى مديح الفتح وكأنه اقتدى شيئا
في هذا بكعب بن زهير، إذ المحبوبة كالرمز عند كعب وهي هنا كذلك :

زكت بالفتح أحدان المساعي وأوضح دارس الكرم المحيل
ووضوح السبيل علاقة كما ترى .
ومما هو اقتضاب محض قوله :

لا تكذبين فما الصبا بمخلف فينا ولا زمن الصبا بمعاد
وأرى الشباب على غضارة حسنه وجماله عددا من الأعداد
إن الخلاففة أحدثت من أحد شيئا ينيف بها على الإحاد
ملك تحييه الملوك ودونه سيما التقى وتحية الزهاد

وفي إحدى متوكلياته وفيهن تجويد منادته :

أصابة برسوم رامة بعدما عرفت معالمها الصبا والشمأل
وسألت من لا يستجيب فكنت في اسـ —تخباره كمجيب من لا يسأل
اليوم أطلع للخلافة سعهـا وأضاء فيها بدرها المتهلل
لبست جلالة جعفر فكأنها سحر يجلله النهار المقبل

هذا من قصيدته التي أولها «لولا تعنفني لقلت المنزل» - وأبيات السيرة العمرية
في اللامية الأخرى : «قل للسحاب إذا حدثه الشمأل» وهي أجود . والبيت الذي رواه
ابن رشيق ليس في الديوان المطبوع (دار صادر) وابن رشيق أوثق إن شاء الله .
وللبحتري مذهب الرحلة ومذاهب من المقابلة والرجوع إلى ما تقدم وقد يكون منه
الخروج - [حسن التخلص] - الحسن أحيانا كقوله :

حنت ركابي بالعراق وشاقها في ناجر برد الشآم وريفه
ومدافع الساجور حيث تقابلت في ضفتيه تلاعه وكهوفه
ويهيجني أن لا يزال يزورني منها خيال ما يغيب مطيفه
وشفاء ما تحت الضلوع من الجوى سير يشق على الهدان وجيفه
إن لم يرثننا الجواز عن التي نهوى ويمنعنا النفوذ رفيفه
أو نائل الفتح بن خاقان الذي للمكرمات تليده وطريفه

وأحسب أن هذا علي استقامته دون جودة مفاجأة اقتضابه وما أحسبه لم يستقم له
قوله في كلمته العذبة النسيب التي أولها :

كم بالكثيب من اعتراض كثيب

قال :

فلربما ليت داعية الصبا وعصيت من عذل ومن تأنيب
يعشى عن المجد الغبي ولن ترى في سؤدد أربا لغير أريب
والأرض تخرج في الوهاد وفي الربا عمم النبات وجل ذلك يوي

نظم هذا البيت نظما فبعضه من أبي تمام من قوله «حتى تعمم صلح هامات
الربى» وبعضه من الحديث : «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم» - ثم جاء
بحسن التخلص الذي ليس بحسن
وإذا أبو الفضل استعار سجية للمكرمات فمن أبي يعقوب

ولعل القافية استهواه شيطانها ، إذ مثلها عند مسلم بن الوليد إذ يقول :
يأبها الرجل المثمر ماله وهو المسلب عرضه المسلوب
خل المكارم قد كفاك مراسها سعدانها وسليله يعقوب

وللبحتري مما لم يذهب فيه مذهب الاقتضاب ولكن مذهب التخلص الرشيق
كما في عينية النابغة وداليتها «يا دار مية بالعلياء فالسند» كلمات جياذ . ولا يخفى أن
النابغة في أدب المنادمة زعيم ، فلا غرو أن اقتدى به البحتري وهو نديم مثله . فمن
هذه الكلمات عينيته في المتوكل الفخمة النفس والروى :
منى النفس من أسماء لو يستطيعها
ومن تلك قافيته في الفتح :

حلقت لها بالله يوم التفرق وبالعهد ما البذل القليل بضائع
وبالعهد ما البذل القليل بضائع
أى ببال

وأبشتها شكوى أبانت عن الجوى وأخشى عليها الكاشحين وأتقى
وإني وإن ضنت على بودها . . . لأرتاح منها للخيال المؤرق . . .
(أحسبه بوعدا) . . .
يعز على الواشين لو يعلمونها ليال لنا تزدان فيها ونلتقى

هذا يقوى ما ذهبنا إليه أن الصواب بوعدها، إذ هذا البيت الذي يذكر لقاءها وازديانها
شاهد ود .
ثم يقول في الطيف :

فكم غلة للشوق أطفأت حرها بطيف متى يطرق دجى الليل يطرق
الأولى رباعية من إسبال الليل أستاره وهيمته كأنه مطرق والثانية ثلاثية من طروق
الطارق . وهذا الطيف بطرقه إذا أشرق الليل .
أضمر عليه جفن عيني تعلقا به عند إجلاء النعاس المرتق
هذا البيت جيد في وصف أول الإفاقة من النوم .
ثم يقول :

إذا شئت ألا تعذل الدهر عاشقا على كمد من لوعة الحب فاعشق
وكنت متى أبعد عن الخل اكتنب له ومتى أظعن عن الدار اشتق
فهذا فيه رجعة الى التفرق الذي بدأ بذكره
تلقت من عليا دمشق ودوننا للينان هضب كالغمام المعلق
الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ذممت مقامي بين بصرى وجلق
وهذه دياره ولكن ثم جأه وسادته ومنادمته ونداماه

الى معقلي عزى وداري إقامتي وقصد التفاتى بالهوى وتشوقى
فرجع الى معنى الهوى كما ترى

مقاصير ملك أقبلت بوجوهها على منظر من عرض دجلة مونتق
كان الرياض الحويكسين حولها أفانين من أفواف وشى ملفق
هذه الكافات والفاءات نمط نابغي

إذا الريح هزت نورهن تضوعت روائحه من فار مسك مفتق
ثم جاء دور القاف في نغم الجرس النابغي

كان القباب البيض والشمس طلقة تضاحكها أنصاف بيض مفلق

ومع القاف الضاد والفاء وصدى من الكاف التي مرت من قبل وفي هذا البيت على كونه في نعت قصور بغداد أطيايف من مناظر تلج لبنان ، الذي قال من قبل إنه كالغمام المعلق .

ومن شرفسات في السماء كأنها قوادم بيضان الحمام المخلق
رباع من الفتح بن خاقان لم تنزل غنى لعديم أو فكاكا لمرهق
فلا العائد اللاجي إليها بمسلم ولا الطالب المحتاج منها بمخفق

وقريب من طريق هذه القافية في التسلسل وجودة أخذ الكلام بعضه برقاب بعض مع احتفاظ كنين بعناصر الوثب التي في الاقتضاب وأشياء من عادة الشعراء لاميته :-

عهد لعلوة باللوى قد أشكلا ما كان أحسن مبتداه وأجملا

قال في انتقاله من النسيب الى الخمر الى صفة القصر:-

بتنا ولي قمران وجه مساعدي والبدر إذ وافى التهام وأكملا
لاحت تباشير الخريف وأعرضت قطع الغمام وشارفت أن تهطلا
فترو من شعبان إن وراءه شهرا يمانعنا الرحيق السلسلا
أحسن بدجلة منظرا ونحيا والغرد في أكناف دجلة منزلا

ثم وصفه واتلأب به القول من بعد الى مدح المتوكل

بدع لبدع في السباحة ما ترى من أمره إلا عجيبا مجذلا

ونختم هذا الفصل بالإشارة الى ميميته :

ألا هل أتاه بالمغيب سلامي وهل خبرت وجدى بها وغرامي
وهل علمت أي ضنيت وأنها شفائي من داء الضنى وسقامي

فقد تخلص فيها من شكوى الحب ورقة النسيب الى بعض التفتي يجعله وسيلة الى ذكر الكأس

فليس الذي حللته بمحلل	وليس الذي حرّمته بحرام
وإنى لأبـاء على كل لائم	عليك وعصاء لكل ملام
وكنّت إذا حدثت نفسي بسـلوة	خلعت عذارى أو فضضت لجامي
وأسبلت أثوابي لكل عظيمة	وشمرت عن أخرى لكل غرام

فهذا تفت منه ، أي عمل بالفتوة وخلص منه الى ذكر المنادمة ومجلس الأنس واللذات والصيد

هل العيش إلا ماء كرم مصفق	يرقرقه في الكأس ماء غمام
وعود بنان حين ساعد شدوه	على نغم الألحان ناي زمام
أبى يومنا بالزوا إلا تحسنا	لننا بسماح طيب ومـدام

الزوا اسم سفينة عملها المتوكل للنزهة . وشبهها البحري بالجليل ومن العجب لصانعي هوامش طبعة الديوان أنهم فسروا الزوا (هامش ٣ ص ١٦ من ج ١ - طبعة دار صادر بيروت) بأنه جبل ولو رجعوا الى القاموس لوجدوا أنه سفينة وقد ذكر بيت البحري والجليل لا يقاد بزمام كما سيأتي ولكن تقاد السفينة .

ثم تحيى أبيات من بديع ما جاء في صفة الصيد بالبزة - جمع البازي - وذلك من هو الملوك ونداماهم ومن يجرى هذا المجرى من أهل الثراء والأمراء :

غـينـنا على قصر يسير بفتية قـعود على أرجائه وقـيام

فهذا القصر السائر هو الزوا والفتية القعود فيه والقيام هم النوتيون والخدم الألى فيه

تظل البزة البيض تحطف حولنا	جئاجىء طير في السماء سوامى
تحدّر بالدراج من كل شاهق	مخضبة أظفارهن دوامى

مخضبة مرفوعة ، صفة لموصوف محذوف معلوم هو البزة ، جعلها كأن عليها خضابا ثم فسر هذا الخضاب بأنه الدم الذي على أظفارها من صيدها الدراج وهو من الطير الجيد أكله . وأخذ البحري صفة بزاته المخضوبة من قول أبي زيد «طيرا عكوكا كزور العرس» لأن زور العرس عليهن الخضاب ، وقد مر البيت الذي منه هذه القطعة في باب القوافي

في أوائل الجزء الأول من هذا الكتاب .

فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه تدفق بحر بالسباحة طام

فالماء ماء القاطول عند دجلة وهو الذي ذكره في المراثية «محل على القاطول أخلق دائره» .
والبحر المتدفق بالسباحة الطامى بها هو الخليفة المتوكل .

ولا جبلا كالزويوقف تارة وينقاد إما قدته بزمام

فهذه صفة سفينة والسفينة تشبه بالجلبل ، قال تعالى : «وله الجوار المنشئات في البحر
كالأعلام» أي كالجبال والجواري السفائن .

لقد جمع الله المحاسن كلها لأبيض من آل النبي همام
يطيف بطلق السوجه لا متجههم علينا ولا نزر العطاء جهام
يحبيه عند الرعية أنه يذب عن أطرافها ويحامي
وأن له عطقا عليها ورقة وفضل أياد بالعطاء جسام
ثم يمضي في المدح بأسلوب النديم البلاطي المحب لسيدته المخلص له السعيد (على
حد ما ذكره ابن خلدون من بعد) بملقه وخدمته :

لقد لجأ الإسلام من سيف جعفر الى صارم في النائبات حسام
يسد به الثغر المخوف انثلامه وإن رامه الأعداء كل مرام
إليك أمين الله مالت قلوبنا بإخلاص نزاع إليك هيام
قوله " أمين الله " مراده منه أمير المؤمنين وأمينه بذلك فيهم . ومع هذا أصداء " من أبي
نواس ، وقد كان البحترى شديد المحاكاة له و النظر إليه في أدب المنادمة ، كما أنهما
كليهما كانا شديدي التأثير لشيوخ الندماء نابغة بني ذبيان وكبيرهم على مر الزمان ، إذ
ليس منهم من عريت له امرأة سيده المفتون بها حتي يصفها متجردة فتأمل . وإكثار أبي
نواس من صفات الخمر يحث على قرنه بالأعشى ، وقد فطن الناقد اللبناني مارون عبود
الى تأثر الأعشي بالنابغة إلا أنه غلا في ذلك إذ جعله مجترا وقد عرضنا لهذه المسألة من
قبل .

إليك أمين الله مالت قلوبنا بإخلاص نزاع إليك هيام
نصلي وإتمام الصلاة اعتقادنا بأنك عند الله خير إمام

وكان قد خشي أبو عبادة أن ينسب في هذا الى كذب ونفاق فقال :

حلفت بمن أدعوه ربا ومن له صلاتي ونسكي خالصا وصيامي
وهنا نفس قرآني وانظر آخر الأنعام : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي " الآية

لقد حطت دين الله خير حياة وقمت بأمر الله خير قيام
يشير بهذا الى أخذ المتوكل بقول أهل السنة وإبطاله ما كان عليه من قبله الوائق
والمعتصم والمأمون من حمل الناس على القول بخلق القرآن - فيحمل قوله «بأنك عند
الله خير إمام» على هذا الوجه والله تعالى أعلم .

فصل فيما يقع من تشابه أشكال القصائد

كان حق هذا الفصل أن يذكر مع التوطئة التي جعلناها للحديث عن العنصر الرابع
من عناصر وحدة القصيدة وهو الذي سميناه بنفس الشاعر بتحريك النون والفاء .
ولعله لا بأس بذكره في هذا الوضع استدراكا لما فات ثم فيما تقدم أمثلة كثيرة مما نأمل
أن يكون أعون على توضيح مرادنا في هذا الباب .

أشرنا في أول حديثنا عن المطالع والمقاطع الى ما تقدم من معالجة لبعض ذلك في الجزء
الثالث حيث استشهدنا في الباب الرابع منه بقول النابغة «يا دار مية بالعلياء فالسند»
ومطالع تشبهه . وقد ذكرنا في الجزء الثالث أيضا أمثلة أخرى مما تشابه فيه طرائق
الشعراء نحو :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله
صحا القلب عن سلمى ومل العواذل
إن الخليط أجد البين فانفرقا
بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا
بانث سعاد فأمسى القلب معمودا

ونحو المرأة المغاضبة كما عند الجميع في قوله :

أمت أمامة صمتا ما تكلمنا
وقصيدتي عبيد بن الأبرص وأبيات القرشي التي منها قوله :

سالتني الطلاق إذ رأتاني قل مالي قد جئتني بنكر

أو تسألاني كما جاء في النص الذي أوردناه أي تسألاني وحذف النون لغة وعليه قراءة نافع في بعض ما قرأ به ورواية الكتاب في باب الهمز "سالتاني" ونبه على أنه من تخفيف الهمزة وهي لغة قريش لا على لغة من قال سال يسال كخاف يخاف قال رحمه الله "وبلغنا أن سلت (١) تسال لغة" وفي خبر ابن هرمة أنه لما قيل له إن قريشا لا تهمز قال إنه يحىء بقصيدة كلها على الهمز وذلك قوله :

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها

فهذا يلحق بما تقدم ذكره من صناعة ابن هرمة وبديعه وأن البديع والصناعة ديدن في العربية قديم لا من حيث وقوع ذلك على قلة وعفوا فحسب ولكن من حيث العمد والقصد إليه أيضا .

ونبه هنا كما نبهنا من قبل على أن سامعي الشعر القديم على زمانه وعلى أزمان قرون الإسلام الأولى كانوا يعلمون كثيرا مما نجهله نحن علم قلب جليا لا يحتاج الى بسط وتفسير فكان بيان مغامض اللفظ والمعني أكثر ما يهتمون به ثم بعد ذلك لا يخفي عليهم مذهب الوحدة والجودة في أغراضه ومقاصده وألوان إيجائه ودلالات موسيقاه ورنات لفظه وطبيعة أسره وأنواع الديباجة وما يلحق بذلك مما يوصف بأنه ماء الشعر ورونقه .

على أننا قد بقيت فينا بقية من ذلك العلم القلبي فعلينا ألا نضيعها . بعض هذه البقية في الدارجة الأصلية التي لم تفسدها بعد شوائب أجهزة الإعلام - وإن شئت فقل الإجهال العصري ، التى مما تدخل بتلفيقاتها ودخيلها أصنافا من اللين والهجنة على أصلتها ومثانة أسرها . وسائر هذه البقية في القرآن وعلوم العربية وميراث آدابها . واعلم أيها القارئ الكريم أصلحك الله أن القصائد السبع الطوال المعلقة وملحقاتها الثلاث اللاتى يكملنها عشرا قد ضمن أهم أصول أشكال القصيد العربي والفروع الكبر المتفرعة عنهن وسائر الشعر بعد ذلك يمكن رده الى هذه وقد سبقت منا الإشارة الى ذلك ، ونقصد ههنا الى بعض التفصيل .

في السبع شكلان كل منهما أصل ، " قفا نبك " وقد أجمعوا على تقديمها وعلى أن الشعراء تأثروا مذهب صاحبها في كثير مما نظموه ، وكلمتا عمرو بن كلثوم والحارث اليشكري . وقد قيل في كلمة عمرو بن كلثوم :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفأخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مشوم

(١) بكسر السين من سلت بوزن خفت وليست لغة قريش .

وقيل في همزية الحارث إنه ارتجلها وأنشدها الملك وبينه وبين الملك سبعة ستر إذ كان أبرص يكره دنوه ، فطرب له حتى أزال الحجب كلها وأجلسه معه في سريره . والخبر كأنه أسطوري المبالغة . وما أشك بعد أن له أصلا لاتفاق الرواية عليه . وكلتا القصيدتين شكل واحد عند التأمل .

وفي العشر شكل واحد أصل وهو في قصيدة النابغة :

يا دار مية بالعلياء فالسند

وقصيدة الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وقصيدة عبيد شكلها من قرى شكل " قفا نبك " كما ذكرنا من قبل ولكن غرابية وزنها ، وصاحبها شاعر فحل ، مما حث على روايتها كما رويت ميمية المرقش :

هل بالديار أن تحيب صمم

وكما اختيرت كلمة سلمى بن ربيعة

إن شواء ونشوة ونخب البازل الأمون

وقد سبق الحديث عن هذا الجانب في معرض الحديث عن الأوزان في الجزء الأول وفي هذا الجزء أيضا

قفا نبك ، مخرصة الشكل . نقول هذا على وجه التشبيه . وذلك أن لها وسطا كأنه في مجاله ضيق وهو يفصل بين جزئها الأعلى وهو أولها وجزئها الأسفل وهو آخرها . وهذا الجزء الأوسط يذهب مذهب التأمل والتفكير والحكمة ، وما قبله ذكريات ووصف وأشجان فؤاد وكذلك ما بعده وهو قوله .

وليل كموج البحر أرخى سدوله	على بأنواع الهموم ليتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه	وأردف أعجازا وناء بكلل
ألا أيها الليل الطويل الا انجل	بصبح وما الإصباح منك بأمل

بكل مغار القتل شدت يئذبل
بأمراس كتان الى صم جنسدل
على كاهل منى ذلول مرهل
به الذئب يعوى كالخليع المعيل
قليل الغنى إن كنت لما تمول
ومن يجترث حرثى وحرثك يهزل

فيالك من ليل كان نجومه
كان الثريا علقت في مصامها
وقربة أقوام جعلت عصامها
وواد كجوف العير قفر قطعته
فقلت له لما عوى إن شأننا
كلنا إذا ما نال شيئا أفاته

وكففا نبك كلمة علقمة الميمية وخصرها قوله :

عريفهم بأثافي الشر مرجوم
مما يضمن به الأقوام معلوم
والبخل باق لأهليه ومذموم
على نقادته واف ومجلموم
أنى توجهه والمحروم محروم
والحلم آونة في الناس معدوم
على سلامته لأبد مشموم
على دعائمه لأبد مهودوم

بل كل قوم وإن عزوا وإن كثروا
والحمد لا يشتري إلا له ثمن
والجود نافية للمال مهلكة
والمال صوف قرار يلعبون به
ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه
والجهل ذو عرض لا يسترد له
ومن تعرض للغربان يزرجرها
وكل حصن وإن طالت سلامته

وما قبل هذا صبايات وصفات وما بعده صفات وصبايات وامرؤ القيس أحذق إذ
احتفظ بلون من الوصف وجعل الحكمة تأملا . وذهب علقمة مذهب المثل فبدت
أبيات الحكمة لغير من يتأملها كاللقحمة ، وليس كذلك إذ النعامة وظليمها تصوير لما
تمناه من ناجية تلحقه بها فارقه من نعيم وهو الأترجة وما الأترجة رمز له ، ولذلك صح
له من بعد أن يقول .

والقوم تصرعهم صهباء خرطوم

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم
وتخصير باثية عبيد بن الأبرص قوله :

وكل ذي أمل مكــــــذوب
وكل ذي سلب مسلــــــوب
وغائب الموت لا يثــــــوب
أو غــــــانم مثل من يخيب

فكل ذي نعمة مغلــــوسها
وكل ذي إبل مــــوروث
وكل ذي غيــــبة يثــــوب
أعــــاقر مثل ذات رحم

من يسأل الناس يحرموه
بالله يدرك كل خير
والله ليس له شريك
أفلح بما شئت فقل
لا يعظ الناس من لم يعظ
إلا سجيئات ما القلوب
ساعد بأرض إن كنت فيها
قد يوصل النازح النائي وقد
والمرء ما عاش في تكذيب
فهذا تخصير بطين إذ عدد الأبيات قبله مثله وهو في ذكر الدار وصبايات الحنين غير أن
عبدا من حذقه ضمنه من معاني الأسى والحكمة والعظة التي في هذه الأبيات وما بعد
ذكريات وأوصاف ولكن مطل عليها شبح الأسى وطيف الموت . وقد انتهت القصيدة
بمصرع الثعلب لا نجاته ولكنه شبه فرسه بالعقاب . فهل كنى بالثعلب عن امرئ
القيس وحجر وملك آل الحارث الكندي ؟
وبانت سعاد ، سيدة المدائح النبوية ، مخصرة بأبيات الحكمة والتأمل إذ قال :

تسعى الوشاة جنابيهما وقولهم
وقال كل خليل كنت أمله
فقلت خلوا سبيل لا أبالكمو
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
أنبت أن رسول الله أوعدني
فقد أتيت رسول الله معتذرا
وما قبل هذه الأبيات نسيب ورحلة وصفات وما بعدها مدح مداخله وصف وفخامة
تشبيه وبسط حجة .
وقد حاكى كعب منهج أبيه في كلمته :

إن الخليط أجد الين فانفرقا
وعلق القلب من أسماء ما علقا
وقد ذهب زهير بخصر هذه القصيدة مرة واحدة كما لو أسبغ عليها ثوب الذي قال ،
من شعراء الغزل :

أبت الروادف والثدي لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا
وإذا الرياح مع العشي تناوحت نبهن حاسدة وهجن غيورا
وانما ذهب بخصر هذا الشكل مذهبه في الاقتضاب ، فكأن ذلك منه مبالغة في
التخصير . وقصيدة طرفة المعلقة ذات تخصير ولكن فيها غضبة الشاب ونخوته وحماسته
فمن أجل ذلك جاء فيها بصفة الرحلة والناقة ، وذلك أن خولة طعنت فهو يتسلى عن
بينها بالسفر :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى
ولا يخبرنا طرفة أنه يريد بينا عنها كما بانث منه ، ولا أنه يريد لحاقا . ولكن في فؤاده هما
لا يعلم وجه تسل منه غير هذه العوجاء المرقال . وهي ناقتة الفتية مثله . حتى سفره لا
ترى له غاية . وإنما هو قلق ورواح واغتداء .

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت وقد خب آل الأمعز المتوقد
ولكن الى أين ؟

مكان التخصير في هذه الدالية التي لم ير لبيد شيئا يفوق شعره من الشعر بعد امرئ
القيس غيرها هو قوله :

وما زال شرابي الخمرور ولذتي	ويبعي وإنفاقى طريفى ومتلدي
الى أن تحامنتي العشيرة كلهـا	وأفردت أفراد البعير المعبد
رأيت بني غبراء لا ينكـروننى	ولا أهل هاذاك الطرف الممدد
ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغي	وأن أشهد اللذات هل أنت مغلدي
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي	فدعني أبادرها بما ملكت يدي
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى	وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سقى العاذلات بشربة	كميت متى ما تعل بالماء تزيد
وكرى إذا نادى المضاف محبا	كسيد الغضى نهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب	ببهكنة تحت الطرف المعمد
كأن البرين والدماليج علقت	على عشر أو خرّوع لم يخضد
من هنا أخذ الأعشى قوله :	
تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت	كما استعان برريح عشرق زجل

فجعله انصرافا وعند طرفه هو إقبال أو إقبال وانصراف حملا على قوله تروح وتغتدى ويجوز ويهتدى وتناول أطراف البرير وترتدى .

كريم يروى نفسه في حياته ستعلم ان متنا غدا اينما الصدى
أرى قبر نحام بخيل بباله كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينقد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكما لطول المرخي وثنياء باليد
ثم رجع إلى معنى اللوم وهو من الهم الذي أثاره مع بين خولة وما خولة كناية عنه ثم
استمر في القصيدة . وهذه الأبيات تأمل وحكمة منفعلة ومدخلها معنى ما كان فيه
من غضب الشباب ونخوته ونشوته وشيء من وصف الفتاة التي فيها كسبابه وحيوية
حركته : غزالة تنفض المرد ، قلوص تروح وتغتدى وتذيل ، وشجرة لأغصانها حفيف ،
أراكة ذات برير ، عشر وخروع لم يخضد .

هذه الأبيات الستة عشر فاصل واصل بين ما تقدم من وصف ونسيب وما خلا من
نغمة فخر ونظرة تأمل وروح حكمة وفيه بعد حرارة العاطفة حتى في نعت الناقة الدقيق
كما فيه هذا الوصف الحي لمجلس الطرب وقينته :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسّد
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضّة المتجرد
ومن وصف طرفه ولد الأعشى هريرته ومجلس شرايه فتأمل — وبين ما تلا من عراك
وخصومة وشكوى ولوم مر واعتزاز بالنفس وافتخار وحكمة تتخلل ذلك وتداخله ،
ومن مشهور قوله في الملامة :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

وأحسب أن مقالة الجاحظ المشهورة التي أولها : « ليس جهد البلاء مد الأعناق وانتظار
وقع السيف » ولدها من قول طرفه هذا وهي له كالشرح .
ومن مشهور فخره :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد

ومن مشهور المثل السائر قوله في آخر القصيدة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تمثل ببعضه.

وفي هذا القسم الثاني من القصيدة وصف عقره ناقة شيخه العزيزة الكوماء ليشتوي منها أصحابه ومجلس شرايه. وقد ترى امرأ القيس عقر مطيته لفتيات يوم دارة جلجل، فأغناه ذلك عن نعت الرحلة وعن نعت الناقة أيضا وأتاح له وصف الغيظ ومغامرته. وقد جاء بوصف هو الصيد وقديره وشواء في آخر القصيدة يقابل به ما تقدم به في أولها من فعله وفعل الفتيات إذ «يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المقتل».

والكهة ذات الخيف الجلالة التي ذكرها طرفة في آخر قصيدته مقابلة للعوجاء المرقال التي في أولها. وقد أعلمنا أن الكهة التي عقرها ليست له ولكنها:

عقيلة شيخ كالويل يلندد

ولعل العوجاء المرقال التي راح بها واغتدى هي أيضا ليست له. وصحاب الميسر في آخر قصيده، في مقابلة مجلس الندامي الذي مر قبل التخصير.

شكل قصيدة طرفة هو هكذا في جملته والتحوير الذي افتن به لأم به أغراضه وروح انفعاله ونفس بيانه.

ومعلقة زهير نمط عزيز. وليس بنمط أصل في المدح، إذ النمط القديم هو بائية علقمة:-

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
هي أقدم من:-

يا دار مية بالعلياء فالسند

ولكنهم لم يذكروا علقمة في أصحاب المعلقات وإن عد من الفحول وأصحاب السموط. ولو قد كانت بائيته هذه في السبع أو العشر الطوال ما عدونا النص عليها أن شكلها هي هو الأصل مكان ما ذكرنا به كلمتي النابغة والأعشى. لعلهم لم يذكروا علقمة في أصحاب المعلقات لكيلا يضاهاوا به امرأ القيس. وإنما ذكروا عبيدا لغربة وزن قصيدته واشتهارها.

أما قولنا إن معلقة زهير نمط عزيز، فإن بيانها ومعانيها وإنسانيتها كل ذلك في الذروة، ثم، وهو مقصدنا ههنا، في شكلها افتنان عظيم جدا. حذف الرحلة.

وأضرب عن ذكر الناقة المعتملة . وجاء بإبل الطعائن وإبل العقل والمفاداة ، وكل ذلك جمال منظر وغبر ، لدلالته على السخاء والمعروف والسلم ، ثم أشار بالناقة المعقورة الى شؤم الحرب ، وهي ناقة ثمود ، وبالرحى الى ما توقعه من أضرار . وإذا جعل الإبل جمالا وسلاما لم يجيء بذكرها تصريحاً في الدلالة على قبح الحرب وشروها ولكن اكتفى بالتلميح ، فلم يذكر ناقة ثمود نفسها ولكن عاقرها :

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحر عاد ثم ترضع فتفطم
وقد شبه الحرب في اللقاح والتاج بالإبل ولكنه أسند الفعل إليها وجعلها من البشر إذ نتجها غلمانا وإنما تنتج الإبل السقاب . وما يخلو زهير إذ أضرب عن صفة الناقة المعتملة وأشار بها أشار به الى العقر من نظر خفي الى قول امرئ القيس :

ويوم عقرت للعذارى مطيتي فواعجبا من كبرها المتحمل
من حيث إنه احتيال بياني .
وقد كان مكان الحكمة ، لو اتبع زهير شكل التخصير (كما سميناه وإنما هو اسم على التشبيه ولا مشاحة في الأسماء كما قال قدامة) بعد قوله

ظهري من السويان ثم جزعنه على كل قيني قشيب ومفام
وإذا لكان قال بعده
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
الى قوله :
وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم
وكان قوله :
سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسأل يوما سيحرم
يجيء بعد قوله :

فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه صحيحات مال طالعات بمخرم
لحي حلال يعصم الناس أمرهم إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم
كرام فلا ذو الضغن يدرك تلبه ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم
ولكن زهيرا تصرف في الشكل المخصر ، فجعل تخصيره تذييلا ، وجاء بأبيات الحكمة آخر شيء ، وقوله " سألنا فأعطيتم البيت " في رواية من رواه ، وقد مر حديثنا عن ذلك ، مقطع للقصيدة حسن .

وهذا الذي نقول به من جعل زهير التخصير تذييلا وتصرفه الذي تصرفه لا نبنيه على محض التخمين، ولكن لدينا ما يشهد بأن مثل هذا الصنيع والتصرف جائز. انظر قصيدتي ربعة بن مقروم الضبي الثامنة والتاسعة والثلاثين في ترتيب المفضليات .

أمن آل هند عرفت الرسوما بجمران قفرا أبت أن تريا
و:

ألا صرمت مودتك الرواع وجد البين منها والسوداع
وشعر ربعة هذا ناصع واضح جميل .

الميمية مخصرة لاريب فيها وهي خمسة وأربعون بيتا في رواية المفضليات والتخصير فيها بعد نهاية وصف الآتن وفحلها إذ رماها الصائد فأخطأ ونجت بأحث ما تقدر عليه من النجاء، وذلك قوله :

وإن تسأليني فإننى امــــرؤ أهين اللثيم وأجـبو الكـريـا
وأبني المعالي بالـمكرمات وأرضى الخليل وأروي النـديا
ويحمد بذلى له معتف إذا ذم من يعتفـيه اللثـيا
وأجـزى القـروض وفاء بها بـيـؤسى بئسى ونعمى نعيـا

فهذا ظاهره وفخر وباطنه حكمة إذ هذا الذي ذكره كله من الفضائل، وكانوا يتمدحون بسبأ الخمر وإرواء الندامى، ويجوز أن يكون الإرواء بغير الخمر كاللبن والعسل والوجه أن يؤخذ هذا الكلام على عمومته فلا يخص به شراب دون شراب إلا أنه في الخمر أظهر.

ثم أقبل ربعة على مآثر قومه وصفة الشجاعة والسلاح وذكر أيام قومه أو كما قال :

ولكن أذكر آلاءنا حديثا وما كان منا قديا
ودار هوان أنفنا المقام بها فحللنا محلا كريـا
إذا كان بعضهم للهوان خليط صفاء وأما رؤوما
تأمل جودة هذا البيت ونقاءه :

وثغر مخوف أقمنا به يهاب به غيرنا أن يقيا
جعلنا السيوف به والرماح معاقلنا والحديد النظيا
يعني الدروع لأن حديدنا منظوم نظما :-

وجردا يقربن دون العيال خلال اليبوت يلكن الشكيا

بعد قوله : «وقالت إنه شيخ كبير» وهو البيت الثاني ويجري الكلام مجرى المخاطبة الذي في ميمية عنتره وعينية الحادرة ويأتي التخصيص من عند قوله «فإما أمس قد راجعت حلمي» الى «وأنى في بني بكر بن سعد» ثم يجيء القسم الثاني من قوله : «وماء أجن» الى آخر القصيدة . وانما نزع أن هذا قسم ثان من شكل أصله تخصيري لما فيه من الرجعة الى ذكرى الشباب . فهو بمنزلة .

وقد أغتدى والطير في وكناتها

وبمنزلة :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم

وهاتان شكلهما أصل كما تقدم .

فإن صح هذا الذي نراه من تصرف ربعة بن مقروم ، فاجعل لزهير تصرفا شبيها به ، ولا ريب أن جودة الشكل قد زيدت زيادة بينة بهذا التصرف . إذ موقع الحكمة في آخر معلقة زهير رائع . وموقع الفخر الحكيم في أول عينية ربعة أيضا قوي رائع نبيل . ومن القصائد المخصرات تخصيرا شديدا الضمور لامية عبدة بن الطيب :

هل حبل خولة بعد الحجر موصول

وهي طويلة من نيف وثمانين بيتا وتخصيها أبيات عشرة هن قوله ، وذلك من البيت التاسع بعد أربعين الى السادس والخمسين .

لما وردنا رفعنا ظل أريفة	وفار باللحم للقوم المراجيل
وردا وأشقر لم ينهئه طابخه	ما غير الغلي منه فهو مأكول
ثمت قمنا الى جرد مسومة	أعرافهن لأيدينا مناديل
ثم ارتحلنا على عيس مخدمه	يزجي رواكعها مرن وتنعل
يدلحن بالماء في وفر مخربة	منها حقائب ركبنا ومعدول

الوفر بضم الواو وسكون الفاء جمع وفراء وهي قرية الماء . مخربة لها خرب جمع خربة وهي أذن القرية ، كأنهم شبهوها بالأذان التي تكون فيها ثقب الأقرط قال ذو الرمة :

كأنه حبشي يقتفى أثرا أو من معاشر في آذانها الخرب

يعني الحبش والسودان إذ كانوا يثقبون آذانهم .

نرجو فواضل رب سيبه حسن	وكل خير لديه فهو مقبول
رب حباننا بأموال مخولسة	وكل شيء حباه الله تخويل
والمرء ساع لأمر ليس يدركه	والعيش شح وإشفاق وتأميل

والأبيات الأوائل من هذه في وصف السير ، ولكنه سير الى الجهاد فاتصالها بما صار إليه من معنى الحكمة والتحامها به جاعلها جزءا لا يتفصل عنه فتأمل . هذا ومن باب

التصرف أن يجتزيء الشاعر ببعض الشكل ، فيعلم سامعوه أنها هذا حذو قصيدة كذا
من عند قول شاعرها كذا . مثلاً كلمة عمرو بن الأهتم :
ألا طرقت أسماء وهي طروق وزارت على أن الخيال يشوق
يوشك أن يكون حذاها على بعض دالية طرفة ، ولا سيما قوله :

وقمت الى البرك الهواجد فاتقت مقاحيد كوم كالمجادل روق
البرك جماعة الإبل . مقاحيد كوم عظام الأسمة . المجادل القصور . روق : خيار

بأدماء مرباع التاج كأنها إذا عرضت دون العشار فتيق
أي وقت نفسها منه بهذه الأدماء أي البيضاء الكريمة التي كأنها فحل لا أنثى من
عظمها - الفتيق الفحل . أي كانت هذه أول ما واجهه من الإبل فعقرها ونحرها
لضيوفه جازراه .

بضربة ساق أو بنجلاء ثرة لها من أمــــــــــــــــام المنكين فتيق
وقام إليها الجازران فأوفدا يطيران عنها الجلد وهي تفوق
فجر إلينا ضرعها وسنامها وأزهر يجرى للقيام عتيق
بقير جلا بالسيف عنه غشاءه أخ باخاء الصالحين رفيق
فبات لنا منها وللضيف موهنا شواء سمين زاهق وغبوق

كانوا يستحسنون الضرع وروي كبدها وسنامها والأزهر ولدها الذي في بطنها ، عتيق
أي كريم ، أخ يعني نفسه لكرمه ونحره هذه النفيسة وما في بطنها ، وفسر بعضهم
الأزهر بالذن وجعله يجبو لامتلأته ويجوز هذا التفسير على بعد ، لأن السياق ونموذج
طرفة المحذو عليه هذا القول يقتضي المعنى السابق .

وبات له دون الصبا وهي قرّة لحاف ومصقول الكساء رفيق
أي لحاف يرقد عليه وكساء يتدثر به .

وكل كريم يتقي الذم بالقري وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق
نمتني عروق من زرارة في العلى ومن فدكي والأشد عروق
مكارم يجعلن الفتى في أرومة يفاع وبعض السوالدين دقيق

أرومة بضم الهمزة وفتحها والضم لغة الشاعر
 فهذا من مقال عمرو بن الأهتم إنما حذاه على قول طرفة
 وبرك هجود قد أنارت مخافتي بـواديها أمشى بعضب مجرد
 من عند هذا البيت الى آخر القصيدة . وقد عدلت عمرو بن الأهتم امرأته وعدل طرفة
 عمه .
 وخلص طرفة من قوله الذي بدأ به الى الفخر والحكمة وكذلك صنع عمرو وميمية
 المخبل :

ذكر الرباب وذكرها سقم فصبا وليس لمن صبا حلم
 مما جعل تحصيله تذيلا . ذلك بأن النسيب ينتهي بعد وصفه الدار ونعته الرباب بأنها
 برديّة سبق النعيم بها أقرانها وغلا بها عظم
 وتريك وجهها كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهـم
 كعقيلة الدر استضاء بها محراب عرش عظيمها العجم
 أغلي بها ثمننا وجاء بها شخت العظام كأنه سهم
 بلبانه زيت وأخرجها من ذي غوارب وسطه اللحم
 وأنها كيضة الدعص

وتفضل مدراها المواشط في جعد أغم كأنه كرم
 هلا تسلي حاجة علق علق القرينة حبلها جذم
 فذلك على أنه قد تقطعت أسبابها أو يخشى أن تقطع فهو يتوسل إليها توسلا مخالطه
 يأسـ وههنا محل التخصير، من حكمة وما أشبه مما تداخله الحكمة أو ينبىء عنها . ثم
 يجيء ذكر الدهر الذي مضى وكان أسعد وأرفه، وصحة النفس والوصل والعيش كل
 ذلك فيه أتم :

ومعبد قلق المجاز كبا ري الصنّاع إكمامه درم
 للقاربات من القطا نقر في حافتيه كأنها الرقم
 عارضته ملث الظلام بمذ عان العشي كأنها قـرم
 أى كأنها فحلـ . وقلما تذكر الشعراء غير الناقة إلا أن منهم من ذكر البعير كالمنخل

وكريهة ابن مقوم في العينة التي مر ذكرها قبل وهو قوله :

ومساء آجن الجلمات قفـــــر تعقم في جوانبه السباع
وردت وقد تهورت الثريا وتحت وليتي وهم وســـــاع
جلال مائر الضبعين يخدى على يسرات ملـــــوز سراع

غير أن المخبل وصل تذكره الماضي بما كان من نسيه ونعته وجعل الحكمة ذيلاً وتبع في ذلك مذهب زهير وقد شهد المخبل الإسلام فهو من المخضرمين فهذا زعمنا أنه حاكي زهيراً وأبيات حكمته هن قوله :

وتقول عاذلتي وليس لها بغد ولا ما بعده علم
فهذا فيه أنفاس صلة بقوله «هلا تسلى حاجة علفت» . ومما يجعلون المحبوبة سائلة وعاذلة وهازئة وقد مرت من ذلك أمثلة :
إن الثراء هو الخلود وإني وجدك ما تخلدني
ن المرء يكرب يومه العدم مائة يطير عفاؤها آدم
والمائة من الإبل مال دثر . عفاؤها وبرها وكنى بقوله يطير عفاؤها عن سمنها .

ولئن بنيت لي المشقـــــر في هضب تقصر دونـــــه العصم
لتتقبن عنى المنيـــــة إن الله ليس كحكمـــــه حكم
إني وجدت الأمر أرشده تقوى الإله وشـــــه الإثم

وآخر هذه القصيدة فيه روح من الإسلام مع الحكمة التي ترى .
وكلمة الأسود بن يعفر الدالية المليحة :

نام الخلي وما أحس رقادي والهـم محتضر لدي وسادي

تخذو حذو معلقة امرئ القيس ، ولكن من عند ذكر الليل الى آخر القصيدة ، وهذا من الأسود بن يعفر حذق عظيم ، إذ قد فقد بصره فهو في ليل ، ومع الليل الهم والأحزان وطلب العزاء . وقد جعل أول قصيدته كله لذلك . ثم أردفه ذكر ملذات مضت وختم بالحصان ونشوة الرحلة . وكان بعضهم لم ترضه هذه النهاية فجعل آخر القصيدة قوله :

فإذا وذلك لامهـاء لذكـــــره والدهر يعقب صالحا بفساد

ولعل الأسود قاله ثم أضرب عنه والشعراء مما يفعلون ذلك ، والقصيدة بدونه أجود وأتم
إذ هو لا يعدو أن يكون صوتاً أجوف ، وقد سبق ما هو أعمق منه وأوقع .
أما القسم المنبئ عن الهم والليل فقولته بعد البيت الأول :

من غير ما سقم ولكن شفني هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبال لك أنني ضربت على الأرض بالأسداد
فهذا مع الهم وبعده حزن

لا أهتدي فيها لموضع تلعة بين العراق وبين أرض مراد
ثم غلبه الحزن فأخذ في ذكر الموت على الطريقة القبرية الكفنية التي عند الممزمز ، ذرة
منها :

ولقد علمت سوى الذي نباتني أن السيل سبيل ذي الأعواد
إن المنيّة والحتوف كلاهما يوفي المخارم يرقبان سوادي
لن يرضيا منى وفاء رهينة من دون نفسي طارفي وتلادي
ثم أخذ في التأسّي :

ماذا أومل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إباد

لا يعنى بال محرق ملوك الحيرة ولكن ملوكا من غسان

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد
أرضاً تخيرها الدار أبيهم كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد

أهل الخورنق إلخ عنى بهم إبادا ، والخورنق موضع ، والسدير النخل ، وسنداد بكسر
السين وروى فتحها نهر ، وكل هذه مواضع ، وأنقرة من بلاد الشام لايعني بلدة
الأناضول الرومية وكعب بن مامة صاحب الكرم المشهور ، وابن أم دؤاد هو أبو دؤاد
الشاعر ، كلاهما من إباد- ثم مضى يتأسّى :-

في آل غرف لو بغيت لي الأسى لوجدت فيهم أسوة العداد
آل غرف من قومه بني تميم قيل هو زيد مناة نفسه وقيل أحد أبناء ابنائه فمن قال ذلك
جعل زيدا المذكور في البيت التالي من هذه السلالة وإلا فهو زيد مناة - الأسى بضم
الهمزة وكسرها جمع أسوة بضمها وكسرها وهي ما يتأسى به وما يقتدى به وقرىء بكسر
الهمزة وضمها في القرآن والعداد بضم العين وفتحها فالضم جمع والفتح مفرد أي من
يعد ما يتأسى به

ما بعد زيد في فتاة فرقوا قتلا وأسرا بعد حسن تآدي
أي فرقوا بسبب فتاة أبوا تزويجها كما أراد المنذر بن ماء السماء فغزاهم وفرقهم والتآدي
حسن الحال

فتخيروا الأرض الفضاء لعزمهم ويزيد رافدهم على الرفاد
أي وكانوا قد تخيروا الأرض الفضاء قبل أن يقع بهم هذا الخطب فهذا آخر التأسى
ويقابله في النموذج الذي حذا على مثاله وهو «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» قوله :
كلانا إذا ما نال شيئا أفاته
في رواية من روى أبيات الذئب لامرئ القيس وهو الذي عليه الرواة غير ما طعن به
الأصمعي ومن لم يروها فإنه يقابله منه قوله :

ألا أيها الليل الطويل ألا نجل

وما يلحق به من ذكر الأمراس والثريا .

وبعد هذا ذكر الشباب وما تصرم من سعادة العيش ولذاته من عند قوله : «وقد أغتدي
والطير في وكنساتها» إلى وصف الخيل والصيد وشيم البرق والصوار والسيل إلى آخر
القصيدة - وكذلك ها هنا أخذ الأسود بن يعفر في ذكر لذات الماضي اللاتي قد انقضين
يحزن بذلك ويتسلّى معاً ، وهو من عند قوله :

إما تريني قد كبرت وغاضني مانيل من بصري ومن أجلاذي
أوعصيت أصحاب الصبا والصبا وأطعت عاذلتي ولان قيادي
أفلقد أروح إلى التجار مرجلاً مذللاً بهالي لينا أجيادي

ثم يمضى في الذكريات . وقوله مرجلاً عنى به شبابه إذ سواد الشعر ووفوره إنما يكون في

مiece الشباب ويعجبني قوله «لينا أجيادي» إذ ييس العنق وتغضنه من شواهد تقدم السن . وجعله أجياداً لتراثيه به ، يريه من جميع جوانبه وما حوله مما هو به مزدان .

ولقد لهوت وللشباب لئاذة بسلافة مزجت بباء غوادي من خمر ذى نطف أغن منطق وافي بها لـدراهم الإسجد قالوا في الإسجد أقوالا وأدناها أي ليكسب دراهم موسمه . قالوا كانت على الدراهم صور يكفرون لها ويسجدون وهي دراهم الأكاسرة وهذا تفسير الأصمعي . وقالوا الإسجد عني به النصارى ، أسجدتهم جزيتهم ، وإنما يصح هذا المعنى إن كانوا يدفعون جزية للفرس أو للملوك الحيرة في الجاهلية أو جعل ما كان عليهم من ضريبة بمنزلة الجزية وعن أحمد بن عبيد ابن ناصح فيما روى ابن الأنبارى الكبير الإسجد أي التي جاء بها الخمار بعدما حال عليها الحول وهو وقت الجزية . وأحسب أن المراد بالجزية هنا الضريبة التي تؤدى للملوك .

ثم وصف الساقى هذا الذي عليه النطف أي الأقراط بفتح النون والطاء مفردها نطفة كشجرة ، والنساء النواعم الحسان اللائي يتم بهن اللهو .

يسعى بها ذو تومتين مشمر قنأت أنامله من الفرصاد أي من الخمر شبهها بالفرصاد وهو التوت لحرمتها والتومتان اللؤلؤتان

والبيض تمشى كالبدور وكالدمي ونواعم يمشين بالأفراد قالوا أراد بالأرداف وذلك لهنهن أردافهن تبرجا .

والبيض يرمين القلوب كأنها أدحي بين صريمة وجهاد يعني كأنهن بيضات نعام من حسنهن محفوظات بين صريمة أي رمل وجاهد أي مواضع غلاظ جمع جمد بضم الجيم والميم وجيم جهاد مكسورة أو مفتوحة بمعنى الجهاد المعروف أي بين رمل وأرض جهاد

ينطقن معروفا وهن نواعم بيض الوجوه رقيقة الأكباد ينطقن مخفوض الحديث تها مسا قبلغن ما حاولن غير تنادى وهذا من حلو الكلام ورقيقه . ثم أخذ في وصف ما راد من الأرض ونعت الحصان الذي راد به ، وذكر الصيد من بعد :

ولقد غدوت لعازب ، متناذر أحوى المذائب مونت الرواد

فهذا قريب من قول امرئ القيس " وقد أغتدى والطير إلخ "

جادت سواريه وآزر نبتة نفأ من الصفراء والزياد

قطع نبات من هذين النوعين

بالجو فالأمرات حول مغامر فبضارج فقصيمة الطراد
وضارج ورد في شيم امرئ القيس البرق

بمشهر عتد جهيز شده قيد الأوابد والرهان جواد

وقيد الأوابد من امرئ القيس كما ترى . عتد : أي قادر على الجرى هنا ، أي عنده عدة الجري كما فسرہ الشارح .

يشوى لنا الواحد المدل بحضره بشريح بين الشد والإيراد

أي بمزيج من هذين الضريين من الجري والحضر بضم الحاء العدو بفتح فسكون . ثم ختم قصيدته بذكر الناقة وهو يناسب ما قدمه من الخمر والنساء والصيد ، فبقى أن يذكر الصبابة والعشق واتباع الظعينة المعشوقة ولا يخفى أن هؤلاء اللاتي يمشين بالأرصاد إنما هن قيان وبغايا . وذكر الظعينة في هذا الموضع كأنها استدرك به ما فاتته من أول نموذجها ، وهو ما قدمه امرؤ القيس قبل ذكره الليل من حكايات الصبابة والشوق والدموع والغزل ويوم دارة جلجل وخدر عنيزة . ولم يحتج امرؤ القيس إلى اللحاق فقد عقر مطيته وبعير صاحبه .

ولقد تلوت الظاعنين بجسرة أجد مهاجرة السقاب جماد

أي قوية وورود الفتحة في جيم جماد هنا يرجح أنها مكسورتها في « أدحي بين صريمة وجماد »

عيرانة سد الربيع خصاصها ما يستين بها مقل قراد

وأحسب أن هذا هو آخر القصيدة - لا البيت الملحق به « فإذا وذلك » ولا يصلح على التفسير الذي فسرناه . وفي النفس شيء من البيت الآخر

أين الذين بنوا فطال بناؤهم وتمتغوا بالأهل والأولاد

وهو بعد « نزلوا بأنقرة » وموضعه ناب هناك ، وعجز البيت ذو ضعف ما - أحسبه في قوله « بالأهل والأولاد » فتأمله .

ومما يجري مجرى التذييل الذي عند المخبل وجارى به زهيرا وأصله الشكل المخصر عينية

مالك بن نويرة :

صرمت زنيية جبل من لا يقطع جبل الخليل وللأمانة تفجع

ويروى ولا الأمانة يفجع أي وجبل من لا يخون الأمانة . والقصيدة مروية لمتمم بن نويرة وذكروا عن أحمد بن عبيد بن ناصح أن بعض الرواة يرونها لمالك . وعندي أن مذهب أسلوبها كأنه أقل حرقة تفجع من مذهب متمم في رثاء أخيه ، إن كان قوله :

أفبعد من ولدت نسيية أشتكى زو المنيية أو أرى أتوجع

مما يستعان به على نسبة الكلمة الى متمم ، لقول متمم في عينته المنصوبة الروي المشهورة :

وفقد بني أم تتالوا فلم أكن خلافهم أن أستكين وأخضعنا

ولم يفسروا لنا بيت متمم هذا تفسيراً شافياً . وينبغي أن يكون قد مات له من الإخوة من أمه وأبيه قبل مالك ، مع الألى فصل ذكرهم من بعد عن ذكرت لنا أسماؤهم ومقاتلهم وهو قوله :

وغيرنى ما غال قيسا ومالكا وعمرا وجزءا بالمشقر المعنا

أي الذين معا

وما غال ندماني يزيد وليتني تمليته بالمال والأهل أجمعنا

قالوا كان يزيد ابن عمه وقد خبرنا أنه ندمانه . فهذا يدل على أنه كانها معا .

ونسيية أم مالك ومتمم ، والبيت ليست ضربة لازم أن يكون قاله متمم ، فمالك كأخيه يبكي على من هلك من شقيق وشقيقة . ونسبة البيت احتجاجا به ، على أنه لمتمم توشك أن تفيد أن نسيية لم تلد مع متمم إلا مالكا وكأن متما يريد أن يقول " أفبعد مالك " بقوله " أفبعد من ولدت نسيية " وكأنه يريد وحده بقوله " وفقد بني أم إلخ " فيكون هو وحده بنى الأم - وهذا بعيد .

وفي القصيدة بعد أشياء ، ليست بدليل قاطع ، ولكنها من ضرب ما يحسد به ، توشك أن تنبئ بأن الكلمة لمالك لا لمتمم . منها أن متما زيد في شعره ، وهذا قد ذكره ابن سلام ، وأن العلماء أخرجوا ما زيد . فهذا مما أخرجه بعضهم . هذه واحدة .

وثنتان مما يقع مثلها عند الشعراء تهجس قلوبهم بالمعيتها عن بعض ما وراء الغيوب -
أولاهما قوله : ولأمانة تفجع - أو - ولا الأمانة يفجع . فقد أؤتمن مالك على مال
الصدقات فخان . والثانية ذكره الموت وتوقعه له وعجزه عن الدفاع عن نفسه . ولقد نظر
بعين كشف إذ قال :
قال :

ولقد غبطت بما ألأفي حقبة ولقد يمر على يوم أشنع
فضمير الغبطة هنا المتكلم المفرد وفي عينية متمم جاء بنفس المعنى ولكن المتكلم فيه
جمع :

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعنا
فهذا يشملهم وأخاه . وكان مصدر خيره من أخيه ولذلك قال :
ولست إذا ما الدهر أحدث نكبة ورزءا بزوار القرائب أخضعنا
فخص نفسه بالرزء من بعده .

والحزم بعد أن يوقف عندما وقف عنده قديما فنقول إن هذه العينية المرفوعة رويت لمتمم
بن نويرة ورواها بعض الرواة لأخيه مالك . ونميل إلى هذا الوجه الثاني والله تعالى
أعلم .

آخر القسم الأول من هذه القصيدة في البيت الثاني عشر - وقد بدأ بذكر صرمة صاحبه
له ، وأتبع ذلك بمكافأة له من مذهب لييد في معلقته

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلعة صرامها
واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق إذا ظلمت وزاغ قوامها
ثم تسلى بناقة عنس جعلها رمزا لمضائه وزمائه . وأتبع ذلك تشبيها لها بحمار الوحش
كما صنع لييد وقد شاركه في بعض اللفظ والصفات فكأنه نظر إليه وقد اشتهر أمر لييد
بالشعر في الجاهلية قبل زمان الهجرة .

صرمت زنيبة جبل من لايقطع جبل الخليل ولأمانة تفجع
ولقد حرصت على قليل متاعها يوم الرحيل فدمعها المستنقع
هذا كأنه من قول بشامة - «وما كان أكثر ما زودت البيت .»

جذي حبالك يا زبيب فإنني قد استبد بوصل من هو أقطع

قالوا أي قاطع وهذا ما ذهب إليه الشارح وروى قولاً عن أبي عمرو «هو الشيباني» أي أقطع مني وروى بصرم وهذا واضح على مذهب لبيد . ولو جاز القياس في هذا الموضع ما امتنع عندي أن يقاس بوصل من هو أقطع على قول الآخر: ولا بذات تقلت أي لا توصف بهذا فيقال تقلت ، فهو حكاية . وعليه فمن هو أقطع من شأنه أن يكون لسان حاله : «أقطع» أي أنا أقطع وأبدأ الصرم وما هو بهذا المعنى . وهذا في جملة معناه مقارب لقول امرئ القيس لعنيزة : «فمثلك حبل البيت» أي إن تتمنعي قرب كذا وكذا قد استطعت وصلها . وأنت إن تجذي حبل يا زنبية فقد انفردت لنفسك بوصل من يزعم أنه قاطع عسير المنال وهل يقوى هذا الوجه قوله زنبية فهي موازنة وزنا لعنيزة والمعنى كما ترى ، على هذا التأويل ، وعلى الشرح الذي شرحوا أيضاً . ويقويه أيضاً البيت الذي إذ يدل على صحة رواية «استبد بوصل من هو أقطع» لا «بصرم من هو أقطع» ويناسب المعنى الذي ذكرناه :

ولقد قطعت الوصل يوم خلاجه وأخو الصريمة في الأمور المزمع

وعند لبيد «ونجح صريمة إبراهيم» فهذا قريب منه

بمجددة عنس كأن سرائها فدن تطيف به النبط مرفع
قاظت أثال إلى الملا وتربعت بالحزن عازبة تسن وتودع
تسن وتودع مثل مثل به واستعارة ، أي هي عدة لمثل هذه المهمة من السفر كما السيف
عدة للحرب يسن ويحفظ فهي مثله تسن بحسن الرعاية ثم تصان فلا تبتذل في غير
وقت الحاجة حقاً . والأماكن التي ذكر الشاعر أن ناقته قاظتها أي قضت القيط - زمن
الحر - بها والربيع هي من جياذ مراعي الإبل . قال الشارح ، قال حنيف الحناتم وكان
أبل الناس أي من أحسن الناس قياماً على الإبل وكان أحد بني ثعلبة بن عكابة : «من
قاظ الشرف وتربع الحزن وتشتي الصمان فقد أصاب المرعى» .

حتى إذا لقحت وعولي فوقها فرد بهم به الغراب الموقع

أي لا يقدر الغراب أن يقع عليه لامتلائه وانملاسه ، هكذا شرحه القاسم بن محمد بن
بشار الأنباري أبو محمد ، ثم قال ، وهذا كقول الراعي :

بنيت مرافقهن فوق منزلة لا يستطيع بها القراد مقيلاً

قلت فينبغي أن يكون صواب عجز البيت :

يهم بها القردا الموقع

والقاف قد تنقط النقطة الفوقية الواحدة كما في الخط المغربي فإن كان الناسخ قد اعتاد ذلك فربما وهم إذ خط حيناً آخر بالحرف الشرقي والباء قد تحرف من الدال . ولا معنى لموقع الغراب على سنام صحيح ممتلىء وإنما تقع الغربان على الجروح أو ما تتوهم أنه جروح . قال علقمة :

عقلا ورقما تظلل الطير تحطفه كأنه من دم الأجواف مدموم

ولا فائدة في ذكر ابن الأنباري للقراد إن كان الذي في الشعر الغراب ، وقد اتبع بيت الراعي قوله : « يقول فمغرر المرافق ليس به ضاغط ولا ناكث ولا حاز ولا عيب فأباطهن ملس لا يثبت بها القراد لانملاسهـا أي لا يجد ما يقيـل فيه يزل عن موضعه لملاسته وامتلائه ، وكقول امرئ القيس

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل
وكقول الكلابي :

دلنظ يزل القطر عن صهواته هو الليث في الجمـازة المتحرد

الدلنظ السمين قال أبو عمرو إنما هو الدلنظي وهو القصير السمين . ا . هـ . - قلت فكل هذا قريب من قريب وليس فيه ذكر للغراب لماذا يخشى أن يزل ، وإنما ينقـر بمتقاره النقرة بعد النقرة فليس هو بقراد يريد أن يلصق ولا بقطر لا يمسه مبتل وبر .

ثم يقول في ناقته العنس :

قربتها للرحل لما اعتادني سفر أهم به وأمر جمع
فكأنها بعد الكلالة والسرى علج تقاليـه قذور ملمع

هنا التشبيه بالحمار والقذور أتانـه - قذور أي نفور قال الأنباري والقذور الظريقة الحسنة سميت بذلك لأنها كثيرة التقذر للأشياء - قلت هذا في النساء . أما هذه الأتان فهي مستعصية على فحلها لأنها وسقت وأشرق ضرعها للحمل .

يحتازها عن جحشها وتكفه عن نفسها إن اليتيم مدفع

اليتيم هو الجحش قالوا وحمـار الوحش غيور يطرد عن إنائه جحاشها وربما كدم مذاكيرها .

ويظل مرتبـشا عليها جاذلا في رأس مرقبة ولأيا يرتع

أي يرتفع على الاماكن العالية ليرى أثم صائد أو ما يكره ، ولا يرعى إلا بعد لأي لفرط شفقتة على أثنائه وغيرته عليها .

حتى يبيجها عشية خسمها للورد جأب خلفها مترع
الجأب هو الحمار الغليظ . مترع : متسرع

يعدو تبادره المخارم سمحج كالدلو خان رشاؤها المتقطع
السمحج الأتان الطويلة على الأرض ، شبه سرعة مضيتها في المخارم وهي الطرق الجبلية واحدها مخرم ، بالدلو التي انقطع رشاؤها أي حبليها وأخذ هذا من قول زهير :

يشج بها الأماعز فهي تهوي هوي الدلو أسلمها الرشاء
وبيت زهير أوضح وأجود ، إذ مالك أو متمم جعل الأتان مبادرة من تلقاء نفسها وزهير جعله متسلطا عليها يدفعها دفعا فتتهوى هويا من سرعتها . ثم قول زهير :
«أسلمها الرشاء» فيه فجاءة السقوط . وفي مقال مالك نوع من ريث :

حتى إذا وردا عيوننا فوقها غاب طوال نابت ومصرع
لاقى على جنب الشريعة لاطئا صفوان في ناموسه يتطلع
فرمى فأخطأها وصادف سهمه حجرا فقلل والنضي مجزع
أهوى ليحامي فرجها إذ أدبرت زجلا كما يحمي النجيد المشرع
فتصك صكا بالسنبلك نحره وبجنـدل صم ولا تتـورع
لا شيء يأتوأتوه لما علا فوق القطاة ورأسه مستلع
أي علا برأسه وراءها فوق ردفها وهما مغذان هربا .

قوله «غاب طوال نابت ومصرع» كقول لبيد :

محفوفة وسط اليراع يظللها منه مصرع غابة وقيامها

وقد جعل لبيد القيام قافية وذلك في باب الفأل أجود وجعل مالك المصراع قافية فتأمل . وكذلك قوله وصادف سهمه حجرا - وقد تم المعنى عند إخطاء الرامي فأبي إلا أن يتكسر النصل ويبقى النضي أي القدح الذي لا نصل فيه . وقد لقي مالك بسهمه من خالد حجرا بثيسا .

ثم يجيء القسم الثاني من المذيل وهو في الأصل ثالث وفيه ذكر القنيص والفتوة وصفة الحصان

ولقد غدوت على القنيص وصاحبي نهد مرأكله مسح جرشع
ضافي السيب كأن غصن أباءة ريان ينفضها إذا ما يقعد
قالوا وكان لملك جمة حسنة وكان يسمى الجفول . فحصانه كالرمز لنفسه :

تثق إذا أرسلته متقاذف طماح أشراف إذا ما ينزع
تثق أي ممتلئ حيوية وحدة
وكانه فوت الجوالب جانتا رثم تضايفه كلاب أخضع

الجوالب أصحاب الصباح والجلبة في الرهان ، يشوشون بذلك على الفرس السابق . جانتا منحيا لأن الفرس لما صبح به خضع عنقه ومر مسرعا . رثم : غزال . قالوا قال الأصمعي كان هذا الوصف يرد من قوله وينسب فيه إلى الغلط لأن خير جري الذكور الاشتراف وخير جري الإناث الخضوع . وقد أحسن الشارح الرد على الأصمعي إذ قال : وإنما أراد أنه خضع ليعتمد في الجري كما يعتمد الظبي . قلت إن كان هذا الشعر قاله مالك فقد كان أعلم بالخيول وأدرب بأمرها من الأصمعي . والوجه ما قاله الشارح . تضايفه الكلاب أي تأخذ بجانيبه فيخضع الغزال عنقه ثم ينخرط جريا . فهؤلاء الجوالب بمنزلة الكلاب .

فله ضريب الشول إلا سؤره والجل فهو مربب لا يخلع
قوله إلا سؤره ينبئنا به أنه يعطى الحليب أولا ، فلا يشرب أحد من أهل البيت إلا بعد أن يأخذ الفرس كفايته :

فإذا نراهن كان أول سابق يخال فارسه إذا ما يدفع
بل رب يوم قد حبسنا سبقه نعطي ونعمر في الصديق وننفع
ثم أتبع هذا ذكر سباء الخمر وكرر لفظ سبق ومعناه يترنم بذلك

ولقد سبقت العاذلات بشربة ريسا وراووقي عظيم مترع
جفن من الغريب خالص لونه كدم الذبيح إذا يشن مشعشع
أهوها يومها وأهلي فتية عن بثهم إذا ألبسوا وتقنعوا

وروى ألبسوا وتقنعوا

ويوقف شيئا عند هذا البيت . وتتساءل هل نظمت هذه القصيدة عند شروعهم في الردة . وإلا فللمعنى الإلباس والتقنع . قال الشارح : « أي من شدة مهمهم كأن لهم منه لباسا وقناعا » . وألبسو أي وجها من الهم . وألبسوا رواية قال أي " أسلموا

بجراثيمهم " . وإنما يكون الهم الذي معه الإبلّاس والإيسال والتفنع عند توقع الأمر الخطير المفظع . وكان أمر جيوش أبي بكر رضى الله عنه لأهل الردة مفظعا . ورووا بما كان أهل الردة يتناشدونه :

ألا يا أصحاباني قبل جيش أبي بكر لعل مناينا قريبا ولا نندري

وقد جاء بعد بيت الإبلّاس والتفنع بذكر الموت والتفكر في مصاير الأيام والبشر . وقد استهل التفكير بنوع مظلم قليل امرئ القيس قبري المعدن كأبيات الممزق ، حزين روح الإقدام كأبيات ضبع الشنفرى - وأول ما استهل به ذكر الضبع ونبشها عن جيف الموتى ، وتأمل بعد قوله الذي جعله تذيلا حكيميا ذا عبرة وأحزان :

يا لهف من عرفاء ذات فليلة جاءت إلي على ثلاث تجمع
ظلت تراصدي وتنظر حولها ويريهها رمق وأناى مطمع
فقد جعل نفسه هنا قتيلا لاجنّازة تنبش من قبر - قاتل حتى أثبتته الجراح والضبع
تراقبه حتى إذ مات أكلته . هكذا توهم نهايته وما باعد .

ظلت تراصدي وتنظر حولها ويريهها رمق وأناى مطمع
وتظل تنشطني وتلحم أجريا وسط العرين وليس حي يدفع
لو كان سيفي باليمين ضربتها عنى ولم أوكّل وجنبي الأضيّع

هل نظم مالك هذا الشعر وهو أسير خالد رضى الله عنه ؟

ولا أشك أن البحترى إلى هنا نظر إذ قال

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي درى الفاتك العجلان كيف أباده
وقد ذكروا كيف كان هلعه واختباؤه

ولقد ضربت به فتسقط ضربتي أيدى الكماة كأنهن الخروع
ذاك الضياع فإن حززت بمديّة كفى وقولي محسن ما يصنع

ولا يصنع ذلك إلا نادم - فهل ندم على أنه استأسر ؟

ولعل هذا هو آخر القصيدة والأبيات التي أوهمت أنها لمتمم هي لمتمم وهن الثلاثة الأواخر :

ولقد غبطت بما الأقي حقبة ولقد يمر علي يوم أشنع
ويكون المعنى ولقد غبطت لما يكفيني مالك ولقد مر علي يوم مصرعه وهو شنيع

أفبعد من ولدت نسيبة أشتكي زو المنيسة أو أرى أتـوجع
ولقد علمت ولا محالة أنني للحادثات فهل تريني أجزع
فهذا يشبه بعض ما في عينية الرثاء .

هذا وشكل قصيدي عمرو والحارث أنهما خطبتان جمهوريتان . ومخاطبة الطعينة فرع من ذلك . وكذلك مخاطبة واحد في عتاب أو خصومة أو ما أشبه . وقد عجل عمرو والحارث كلاهما بنسيبهما إلى موضوع خطابتهما . بل نسيبهما منذ البداية جلي أنه توطئة وتمهيد واستجلاب للأسماع لا نغم صباية . وعند عمرو بدء بالخمر ودلالة ذلك على إدراك الثأر والانتصار . وبداية الحارث بطعينة أذنت وقد ملها . والغالب على الشعراء إذا أرادوا معنى الصباية ولو رمزاً أن يزعموا أن الرحيل فاجأهم لا أنهم أؤذنوا به . والإيذان بالرحيل تصريح بالمصارمة . ثم عمرو والحارث كلاهما يخلصان آخر الأمر إلى الفخر ومواجهة " الجماهير " - قال عمرو :

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا
والقبائل مخاطبة ههنا .
وقال الحارث

هل علمتم أيام ينتهب النـا س غسوارا لكل حي عواء
ثم مضى يعدد المآثر ويفصح بالحجج . مذهب الحارث وعمرو كليهما [وهو كما قدمنا شكل خطابي واحد] فيه هو نضج أسلوب المهلهل ومناقضيه . ويذكر عن الأصمعي أنه قال لو كانت للمهلهل ست قصائد مثل :

أليتنا بذى حسم أنيرى

لعه في الفحول . وحسب المهلهل أنه شرع لمن بعده مسلك التطويل في أشعار الفخر القبلي والثأر . وإنما كانت أبياتاً . فإن يكن المهلهل قد سبق إلى التطويل في هذا الباب ، فحظه على الأقل أنه جوده وأحكمه حتى صلح لأن يتناقل ويروى . ولا ريب أن القصاص قد نحلوه هو وخصومه ما نحلوا .

وفي الذي وصل إلينا من الشعر القديم كلمات عدة تتجهج منهج الحارث وعمرو في لهجة النسيب وصرف العناية إلى المواجهة الجهرية التي تخطب جمهوراً بمفاخر جمهور . من ذلك مثلاً قصيدة الحصين بن الحمام المرى

جزى الله أفناء العشيرة كلها بدارة موضوع عقوقاً ومأثما
وقصيدة الخصفي التي يرد عليه بها
من مبلغ سعد بن ذبيان مألكا وسعد بن ذبيان الذي قد تحتما

وكثير مما يطول ويقصر في هذا المجال يجري مجرى هاتين الكلمتين من ذلك مثلا نونية
العدواني سواء اعتدت بنسيبها أم لم تفعل . وما نسيبها إلا خمسة أبيات ثم ما بعد ذلك
منافرة وخصام وربما بلغ به تعريض الهجاء مثل قوله :

عني إليك فما أُمي براعية ترعى المخاض وما رأيي بمغبون
كأنه يعرض به أن أمه أمة .

ولم يرو المفضل فيما أسند إليه عن أبي عكرمة غير ثمانية عشر بيتا لا نسيب بين يديها
وروي غيره ستة وثلاثين بيتا فزاد على الثمانية عشر ثلاثة عشر ثم أبيات النسيب ،
والنون حرف ذلول ركوب ، ولعله قد زيد في نونية ذي الأصبع كما قد زيد في نونية
عمروبن كلثوم وقيل بلغوا بها ألفا ، ولعله لو كان في عدوان عدد كما في تغلب ، قد بلغ
بها بعض ذلك .

وعينية ذي الاصبع الأبيات العشرة التي أولها
إنكما صاحبي لن تدعا لومي ومهما أضع فلن تسعا
وروي ومهما أضق و«تسعا» تسوغها ، والمعنى متقارب .

قوامها مذهب الخطبة كنونيته غير أنه أدخل فيها عنصر تأنيث عند قوله في سابع
أبياتها :

إما ترى شكتى رميح أبي سعد فقد أحمل السلاح معا

وهذا من أسلوب تذكر الشباب . وما أرى إلا أن ذا الاصبع عمد الى ضرب من
السخرية والتهكم بهذين السفيهين اللذين خاطبهما . وقد جعل بعض كلامهما كأنه
كلام أنثى حيث قال :

إنكما من سفاه رأيكما لا تجنبا السفاه والقذعا
إلا بأن تكذبا على ولم أملك بأن تكذبا وأن تلعا
لن تعقلا جفرة على ولم أوذ نديما ولم أنل طبععا

أي أنتما تؤذيان النديم وتنانلان الطبع وهو اتساخ العرض .

إن تزعما أنني كبرت فلم ألف بخيلا نكسا ولا ورعا

أي فقد كبرت ولكن سلا ما تأريخي ، إني لم أكن نكسا ولا ضعيفا جبانا وزعمهما أنه
كبر هذا كلام الأنثى ، كقول الآخر :

على ما أنها هزئت وقالت هنون أجن منشأ ذا قريب
فلان أكبر فلاني في لــــــداقي وعصر جنوب مقتبل قشيب
وقال الآخر:

أما تريني قد بليت وغاضني ما نيل من بصري ومن أجلادي
فلما جعلهما ذوي حديث أنثى هنا، عاد فزعم أنه إنما يخاطب أنثى حيث قال:

إما ترى شكتي رميح أبي سعد فقد أحمل السلاح معا

وليس أسلوب الأعشى في «ودع هريرة» من شكل أسلوب الخطبة الشعرية الذي عند عمرو والحارث. ولكنه كما قلنا من قبل من معدن شكل مدحة النابغة، وإنما خلج أبواب الغزل والرحلة والشراب عن سمت جد الوصف الى هزل من الفكاهة ليجعل ذلك توطئة لتوبيخ يزيد بني شيبان والطنز به مع التهديد والوعيد.

وما أنصف ابن قتيبة العجاج حيث أخذ عليه زعمه أن من يحسن البناء لا يعجز عن الهدم، يجعل المدح بناء والهجاء هدمًا، فزعم ابن قتيبة أن العجاج أخطأ وأن المدح بناء والهجاء بناء، نعم بناء من حيث إنه لا بد فيه من صناعة وحذق وتجويد. ولكنه من حيث منهج القول وشكله سلب لما يوجه المدح. فهذا الجانب من أمره هدم، وكان هذا هو مراد العجاج. ومن أدل الشواهد على ذلك مثلاً قول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول
بيتا زرارة محتب بفنائها ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
فنقضه جرير بقوله:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعا وبنى بناءك بالخضيض الأسفل
بيتا يحمم قينكم بفنائها دنس مقاعده خبيث المدخل
والذي صنعه الأعشى لمن تأمله ينزل بخفة هزله منزلة النقض بالنسبة الى وقار النابغة وحسن أدب علقمة.

ولزرد بن ضرار أخي الشهاخ دالية طويلة في المفضليات مطلعها

ألا يالقوم والسفاهة كاسمها أعائنتني من حب سلمى عوائدي

تهدد فيها رجلا يقال له زرعة بن ثوب. وقص الشارح خبر هذه القصيدة قال (١: ١٢٨) «قال أحمد أخبرنا محمد بن عمرو بن أبي عمرو الشيباني إملاء علينا قال: كان أهل بيت من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان جاوروا في بني عبدالله بن

غطفان، فذهب رجل من بني عبدالله الى غلام من الثعلبيين يقال له خالد وهو أحد بني رزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان، وللثعلبي إبل كرام جلة حسان، فلم يزل يخذع الثعلبي حتى اشترى الإبل منه بنغم. فرجع الغلام الى أبويه فأخبرهما فقالا هلك والله وأهلكتنا. ثم إن أبا الغلام ركب الى مزرد فقص عليه القصة فأخبره بالخبر. فقال مزرد أنا ضامن لك إبلك أن ترد عليك بأعيانها، ثم أنشأ يقول:

ألا قل لعبدالله والجهل كاسمه أعائدتني من حب سلمى عوائدي

قال أحمد فهذا كان سبب قول مزرد لهذه القصيدة. ١. هـ.

فتأمل قوة الشعر. وقد جاوز مزرد التوبيخ الى الهجاء المقذع. ولذلك استعدي ابن ثوب عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاعتذر إليه. ويوشك السياق أن يدل على أن ابن ثوب إما رد الإبل وإما أرضى أهل الغلام. وإلا فما كان مزرد ليعتذر إن كان ذلك البيع كما قصوا خبره قد كان غبنا، والله أعلم.

وقد جمع مزرد بين مذهب تهكم الأعشى وخطابة ذي الأصبع. وأصل ذلك كما قدمنا أسلوب الخطبة الشعرية الذي عند الحارث وعند عمرو بن كلثوم. قال مزرد:

أزرع بن ثوب إن جارات بيتكم هزلن وألهاك ارتغاء الرغائد

الرغائد أي عيش الخصب، فزعم أن الغلام المخدوع ابن جارات زرة بن ثوب

وأصبح جارات ابن ثوب بواشما من الشر يشووين شي القدائد
تركت ابن ثوب وهو لا ستر دونه ولو شئت غتنتي بشوب ولائدي
فهذا مما جاوز به إلى تناول الأعراض، إذ أقبل على ثوب نفسه بعد أن فرغ من ذم ابنة

صقعت ابن ثوب صقعة لا حجي لها يولول منها كل آس وعائد
فردوا لقاح الثعلبي أداؤها أعف وأتقى من أذى غير واحد
ثم قال:

فيا آل ثوب إنما ذود خالد كنار اللظى لا خير في ذود خالد

وفي سياق الشرح ما يدل على أن مزردا كان يزيد في هذه القصيدة حيناً بعد حين، يتغنى بالشر الذي أخذ في مسالكة من محض القول ولاذعه.

ومن هذا الباب قصائد عدة في المفضليات — مثلاً همزية عوف بن الأحوص (٣٥) ومع مرارته فيها كان أعف لساناً من المزرد. وكان مذهب المزرد كان من باب التهينة والتمهيد لما جاء بعد من إقذاع الفرزدق وجريير. وأول همزية عوف بن الأحوص:

هدمت الحياض فلم يغادر لحوض من نصائبه إزاء
وهو فاتحة نسيب منبئة بغضب قريب مما صنع الحارث إذ قال :

أذنتنا بينهما أسماء رب ثاو يمل منه الثواء
وفيها يقول :

فإنك والحكومة يا بن كلب علي وأن تكفنتني سـواء
خذوا دأبا بها أنأت فيكم فليس لكم على دأب عـلاء
ودأب هذا ابنه . فقد سلك سيلا من الإنصاف أسد مما فعل مزرد من بعد :

وليس لسوقه فضل علينا وفي أشياعكم لكم بـواء
ومـا إن خلتكم من آل نصر ملوكا والملوك لهم غـلاء
ولكن نلت مجد أب وخـال وكان إليهما ينمي العـلاء
فهذا تهكم ، أي أبوك وأمك ليسا من الملوك ولكن سوقة كسائر الناس وإنما يفخر المرء
في النسب بأبويه .

أبـوك بجيد والمرء كعب فلم تظلم بأخذك ما تشاء
أي فقد ظلمت لأنه ليس واحد من هذين بملك وإنما أنتم سوقة أو كما قال :

ولكن معشر من جـذم قيس عقولهم الأباعر والرعاء
أي أنتم تدفع لكم الدية ، الإبل ورعاؤها ، فلم تطلبون القصاص ، وفوق ما أنتم له
أهل . والأمثلة في هذا الباب كثيرة . وبعض ما جاء فيه خطاب المرأة سنخه من هذا
الباب ككلمة أبي قيس بن الأسلت :

قالت ولم تقصد لقيلى الخنثي مهـلا فقد أبلغت أسماعى
وكلمتا سلمة بن الخرشب وعامر بن الطفيل (السادسة والسابعة بعد المائة من
المفضليات) وقد يداخل جميع ذلك نفس من هجاء .

ومن بين الطوال السبع قصيدتا عنتره وليد فرغان معا من مذهب المدحة النابغية
الشكل ونقيضتها الأعشوية ، وعنتره أسبق من هذين كليهما ، وإنما مقصدنا التنبيه على
معادن الأشكال ، ولا نزعم أن عنتره قد أخذ من هذين ، بل قد نرى أن الأعشى في

روضته كأنها نظر إليه وأخذ منه .

وعلى تشابه شكل « عفت الديار » و « هل غادر الشعراء » بينهما فرق نلفت النظر منه إلى أمرين ، أولهما أن لييدا يبدأ بعفاء الديار مقدما عليه راضيا عن قوله ، وعنرة يبدأ بالتساؤل عن قيمة سؤال الديار وكأنه حائر كيف يبدأ . فقربنا عنرة إلى نفسه بهذه البداية الصادقة التساؤل . ولكن لييدا أثر أن يكون فخما وفي ذلك بعد ما .

وثانيهما أن صاحبة لييد ، وقد سماها نوار ومعنى نوار النفور أو ذات الصد والتمنع ، قد صارمته وصارمها . وليست كذلك صاحبة عنرة التي رحلت فجاءة :

ما راعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم

فهو يريد أن يلحق بها . خطاب لييد لصاحبه فيه شدة . صاحبه رمز خصومة . ولكن صاحبة عنرة حبيبة يريد أن يتودد إليها . حبيبة سواء أكانت هي أنثى بشرا هو عاشقها أم شيئا آخر جعلها رمزا له .

وقد خلص لييد آخر أمره إلى فخر من فخر خطب القبائل :

إننا إذا التقت المجامع لم يزل منالراز عزيمة جسامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها ومغذمر لحرقوها هضامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم أبأؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
وقد خلص عنرة إلى وصف ملحمى رائع وحماسة فارس نبيل .

نفس الخطابة أجهز شيئا عند لييد . ونفس التغنى أعمق عند عنرة . وفي ترتيب السبع الطوال الذي في شرح ابن الأنباري الصغير معلقة عنرة رابعة بعد معلقة زهير . ولعل هذا أجدر بها من أن تجعل تالية لنون عمرو بن كلثوم . والسبع بعد كلهن روائع جياذ . وكذلك الثلاث المتماثلن عشرا .

هذا وطرائق الأشكال الثلاثة اللاتي نعدهن أصولا قد خلط الشعراء بينها . وقد نبهنا من قبل إلى جعل سحيم وعمرو آخر قصائدهما في نعت الناقة وكذلك فعل الفرزدق في الرائية التي ذكر فيها زيادا فجعل ذكره زيادا مكان التخصير . وقد جعل أسلوب الخطبة يواجه بها شخص واحد أو جمهور يغلب ، وكان ما يدعو إلى هذا الوجه من القول من أحوال العصر وفتنه كثيرا . وقد تعلم خبر كعب بن معدان الأشقري إذ وفد علي الحجاج من قبل المهلب بن أبي صفرة بخبر النصر على الخوارج فأنشده :

يا حفص إنني عداني دونك السفر وقد سهرت فأذى جفني السهر

فقال له الحجاج : أشاعر أم خطيب فزعم له الأشقري أنه هما معا ، وكذلك كان وكانت قصيدته . وقد سبق الاستشهاد بأبيات منها في معرض الحديث عن البحر البسيط . وهي تنظر في جملتها من حيث نفس الشكل ، على اختلاف ما في تفاصيل الغرض ، الى كلمة لقيط الإيادي :

يا دار عمرة من محتلها الجرعا أهدت لي الهم والآلام والوجعا
وكان الحجاج أشار الى هذا من طرف خفي إذ تمثل في حسن ثنائه على المهلب بأبيات منها :

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا
حتى استمرت على شزر مريرتة مستحكم الرأي لا قحما ولا ضرعا
ولا ريب أن أبا تمام أخذ من هاهنا في قوله :

من لم يقـد فيطير في خيشومه رهج الخـميس فلن يقـود خميسا
إلا أنه أشربه ما ذكرنا من تفسير قول بشار « كأن مثار النقع » فأعطى مثار النقع هذه " أبعادا " كما يقال بلغة أبناء الآن .
وقد ذكروا أن بشارا كان فيما كانه خطيبا ، ونفس الخطيب في فخماته جهير . وقد وصفه صاحب الأغاني بجهارة الإنشاد وأنه به يروع القلوب . وأحسب أن ميمته التي قيل إن أصل أولها كان هكذا :

أبا جعفر ما طيب عيش بدائم وما سالم عما قليل يسالم
قد كانت أطول بكثير مما بلغنا ، إذ قرنها بميميات الفرزدق وجريـر وهذه كانت طوالا . وقد كان أبو تمام خطيب فؤاد وقلم مع مقدرة له فائقة على طرب الإيقاع والإطراب به . وحسبك شاهدا :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فقد جمع فيها بين متانة النظم ، ووحدۃ الغرض ، وجهارة صوت الخطيب ، وزين غناء الشاعر وموسيقاه . ومن قدمه بها على أبي الطيب فعسى ألا يكون بعيدا من الصواب .
وقد رتبها ترتيبا بالغ البراعة . بدأ بمدح السيف وثني بالسخرية من المنجمين وأقاويلهم وأباطيلهم واندفع بعد إلى ذكر الفتح الجليل :

السيف أصدق أنباء من الكتب
 يبض الصفائح لا سود الصحائف في
 والعلم في شهب الأرماع لامعة
 في حـده الحد بين الجد واللعب
 متونهن جلاء الشك والريب
 بين الخمسين لا في السبعة الشهب
 هذا الغزل بالسيف والرمح جعله أبو تمام مكان النسيب . وما أشك أن أبا الطيب قد
 لبث دهرًا يود لو أن هذا كان قد ادخر له حتى يقوله هو - وقد حاوله في قوله :

حتى رجعت وأقلامي قوائلي
 اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به
 أسمعتني ودوائى ما أشرت به
 من اقتضى بسوى الهندي حاجته
 المجد للسيف ليس المجد للقلم
 فإنما نحن للأسياف كالخدم
 فإن غفلت فدائي قلّة الفهم
 أجاب كل سؤال عن هل بلم
 وهذا شعر جيد . وأصله من حيث هو بيان من هناك .
 وقال أبو الطيب :

حُب كنى باليـض عن مرهفاتـه
 وقال : وكان أطيب من سيفى مضاجعة
 وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
 أشباه رونقه الغيد الأماليد
 فكل هذا من بائية أبي تمام . وليس أبو الطيب وحده أخذ منه ، فقد أصاب ابن الأثير
 إذ قال فيه إنه رب معان وصيقل ألباب وأذهان .
 ثم بعد هذا النسيب الحربي الحماسي ، وقد ترى ما مهد به لذكر النجوم ، وما زال أهل
 الحروب ، حتى زماننا هذا يلجئون إلى استخبارها يريدون أن يبتكروا بذلك حجاب
 الغيوب ، قال :

أين الرواية بل أين النجوم وما
 تخرصا وأحاديثا ملفقة
 صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
 ليست بنبع إذا عدت ولا غرب
 النبع شجر صلب والغرب رخو . قال التبريزي يقول هذه الأحاديث ليست بقوية ولا
 ضعيفة أي هي غير شيء

عجائباً زعموا الأيام مجفلة
 وخوفوا الناس من دهياء مظلمة
 عنهن في صفر الأصفار أو رجب
 إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
 ما كان منقلباً أو غير منقلب
 ما دار في فلك منها وفي قطب
 يصيروا الأبرج العليا مرتبة
 يقضون بالأمر عنها وهي غافلة

لو بينت قط أمرا قبل موقعه لم تخف ما حل بالأوثان والصلب

ذكر التبريزي أن «مرتبة» تروى بتشديد التاء مفتوحة وهو عنده ضعيف ومكسورة وهو الوجه القوي عنده، وأن «ما كان منقلبا الخ» بدل من «مرتبة» وليس مفعولا وهو قول أبي العلاء ذكره المحقق في الهامش نقلا عن ابن المستوفي وذكر رد ابن المستوفي على أبي العلاء والذي رآه أبو العلاء كأنه نطق به عن لسان أبي تمام. وقوله ما كان منقلبا أو غير منقلب فعند المنجمين أن الأبراج ثلاثة أقسام قسم منقلب ولا يعول عليه فيما زعم التبريزي في تحقيق الأخبار إذ وردت وقت طالعه وما سوى المنقلب فهو غير المنقلب وهو ما يقولون له الثابت وهذا يعول عليه عندهم فيما ذكره التبريزي وذو الجسدين، وينبغي أن يكون هذا لا يعول عليه. والمنقلبة هي ما تمثل الأمزجة الأربعة وهي الحمل والسرطان والميزان والجدي والأمزجة هي الدم والصفراء والبلغم والسوداء والثوابت تمثل العناصر الأربعة ويقال للمنقلبة بالانجليزية cardinals وللثوابت fixed ولذوات الجسدين mutables يقضون بالأمر عنها الخ.

نظر أبو العلاء الى مقال أبي تمام هذا وولد منه كلمته الميمية :

لو كان لي أمر يطاوع لم يشن	ظهر الطريق يد الحياة منجم
يولي بأن الجن تطرق بيته	وليه يدين فصيحها والأعجم
وقفت به الورهاء وهي كأنها	عند الوقوف على عرين تهجم
ويقول ما اسمك واسم أمك إنني	بالظن عما في الغيوب أترجم

وقول أبي تمام «ما دار في فلك» أي في طريق دائر، «وفي قطب» قال التبريزي القطب كل ما ثبت فدار عليه شيء وفي السماء قطب الشمال وقطب الجنوب. مراد أبي تمام أن الذي يحكمون به على النجوم ويستنبطونه منها، لا حقيقة له، ولم يدر منها في فلك ولا في قطب. ما هنا نافية، قوله الأوثان، فقد كان من المشركين عبدة الشعري وغيرها من النجوم فلو كانت تخبر شيئا لخبرتهم بما سيكون من غلبة الإسلام عليهم. وما حل بالصلب جمع صليب فهو فتح عمورية.

ثم أخذ أبو تمام في بيان أمر الفتح - إذ آخر كلامه يقود إليه :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به	نظم من الشعر أو نشر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له	وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وقد كان أبو تمام وصافا للطبيعة، وهذه الصورة منتزعة من نعمة الغيث وبهجة نبت الربيع، وقد استمر بصورة النعمة الربيعية فأتبع أثواب الأرض القشب المنى الحفل أي المثلثات الضروع كالنعم التي رعت فدرت ضروعها ولكنها حلبها غسل وهذا مبالغة في معنى النعمة.

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

تأمل هذا التجسيد للمنى، أي الآمال - أي قد تحققت فهذا احتفال ضروعها.

أبقيت جد بني الإسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صلب
أم لهم لو رجوا أن تفتدي جعلوا فداءها كل أم برة وأب

فجعل عمورية أما مفداة - وقد خلص الى ذكر قوتها وامتناعها في تأكيد معنى عظمة الفتح الذي ذكره. ثم انتقل من صورة الأم المفداة إلى صورة البكر العزيزة التي لا تنال. وكلا المعنيين لو تأملته راجع إلى قوله «بالأوثان والصلب» إذ عند النصارى ضرب من تأليه للعدراء أم المسيح سلام الله عليهما فأخذ أبو تمام قوله «أم لهم» من معنى الأم المقدسة، وأخذ معنى البكر العزيزة من معنى العدراء المقدسة، عمد الى ذلك او تداعت به المعاني.

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدودا عن أبي كرب

هو تبع ملك اليمن

بكر فما افترعتها كف حادثة ولا تفرقت إليها همة النوب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
قال شكسبير في صفة كيلوبتره

Age cannot wither her, nor custome stale
Her infinite variety, other women cloy
The appetites they feed, but she makes hungry
Where most she satisfies

وترجمة هذا على وجه التقريب كما ترجمناه في كتابنا التماسه عزاء بين الشعراء

فلا العمر مبلها ولا عادة اللقا بها من مجاليها الصنوف تضيع
سواها من النسوان يتخمن بالجددا وأقوى إذا ما أشبعتك تجيع
ولا أستبعد بل أرجح أن يكون شكسبير قد نوى إليه علم ما عن هذا الوصف الذي

وصفه أبو تمام لعمورية فرتب عليه ما رتبته فأجاد من نعتة لكليوبة . وقد ذكر ناقده (وهو كذلك) أنه أخذ من صفة «بلوتارك» كليوبة والسطر الأول وأول الذي يليه شبه صياغة أبي تمام فيها شديد فتأمله . وقد مر بك عتق صلة الاستشراق الانجليزي منذ زمان أديلارد البائي Adelard of Bath (القرن الثاني عشر) وروجر بيكون (القرن الثالث عشر) وشوسر (القرن الرابع عشر) وبدويل معاصر شكسبير ممن نعلم وغير هؤلاء ممن لا نعلم .
ثم يقول أبو تمام :

حتى إذا مخض الله السنين لها مخض البخيلة كانت زبدة الحقب

وقد ذكرنا هذا البيت من قبل وما ضمنه أبو تمام من إشارة الى بخيلة حميد بن ثور - «وزبدة الحقب» هذه هي الفتح وهو خلافا لما استقراه أهل الصلب من نجومهم كربة سوداء

أتتهم الكربة السوداء سادرة	منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفأل نحسا يوم انقرة	إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت	كان الخراب لها أعدي من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل	قاني الذوائب من أنى دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه	لا سنة الدين والإسلام مختضب

الرحب بكسر الراء جمع رجة بفتح الراء والحاء وتسكن زعم التبريزي أنها رحاب ثم خفت والذي أنشده بفتح الراء والحاء كشجر جمع شجرة وهذا أوضح والذي ذكره التبريزي رواه قال والأصل أن يقال رحاب بالألف فحذفت لأنها حرف لين كما قالوا ثلل في جمع ثلة والأصل ثلال وذكر صاحب القاموس في جمع ثلة المفتوحة الثاء أنها كبدر (أي جمع بدر) وسلال . فهذا كقول التبريزي ولكنه في جمع رجة بفتح الراء وسكونها والراء مفتوحة ذكر صيغتي رحب ورجبات مع رحاب المكسورة الراء وذكر التسكين فيهما مع الفتح ولم يذكر كسر الراء من رحب ولا يحتج به على التبريزي . وروى التبريزي «بسنة السيف والحاء من دمه» والذي أثبتنا هو الذي اختاره البارودي وهو مروي واستحسنه التبريزي قال : «وبعضهم ينشد «بسنة السيف والخطى من دمه» وهو أجود في صحة المقابلة لأنه يقابل الدين والإسلام بشيئين ليسا في الحقيقة مختلفين، إذ كانا من آلة الحرب ، وهو في الرواية الأخرى يقابل الدين والإسلام بالسيف

والحناء وليس الحناء من جنس السيف . ويجوز رفع الحناء وخفضه فإذا خفض كان قوله «من دمه» في موضع الحال . ا . هـ - قلت ورواية «بسنة السيف والحناء من دمه» جيدة ، وههنا تورية واستخدام معا . أي هذه سنة السيف أن يخضب ولا حناء له إلا الدم ، فالحناء من دم هذا البطل ولك وجهها الخفض والرفع اللذين ذكرهما وسنة السيف أيضا حد السيف وطريقته الماضية القاطعة . فهذا موضع الاستخدام ، إذ دل لفظ سنة السيف هنا على معنيين حده ومذهبه الذي يسير عليه وموضع تورية لما في معنى السنة عندنا معشر المسلمين ، فالسيف اتبع السنة وجعل الحناء من دمه ، لأن الصحابة كانوا يخضبون الشيب بالحناء قال التبريزي : لأن الصحابة والتابعين كانوا يرون من السنة أن يخضبوا شعورهم بالحناء والكتم وما يجري مجراها من نبات الأرض ، ويكرهون الخضاب بالسواد ويؤثرون الحمرة إلخ ما قاله ا . هـ .

ثم أخذ أبو تمام في صفة ما وقع بعمورية من تخريب وتحريق ، وهذا متمم لما صورته من قبل من هذا القتال بين حيطانها وهذا الدم الآني القاني السرب .

لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب

وتلى بعد هذا صورة مفزعة من صور الخراب والحريق وشريح ما بين زهو منتصر وانكسار منهزم وشكر مؤمن ويأس كافر

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى
حتى كأن جلايب الدجى رغبت
يشله وسطها صبح من الذهب
عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة
وظلمة من دخان في ضحى شحب

عين هذه الاختلاطة من الألوان جاء بها زاهية مشرقة مفرحة في قوله :

تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربا فكانها هو مقمر

تأمل كيف جعل الضحى شحبا بالدخان وظلمته ومقمرأ بدريا بالزهر ونعومة ألوانه وظلاله .

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلتت والشمس واجبة من ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصریح الغمام لها عن يوم هيجاء منها طاهر جنب
فالغمام ظل ولأبي تمام ولع بصفة المزن والسحائب ، بعضه من طول نظره في شعر العرب ، وبعضه من تجربته البداوة وعيشها - وهو بعد القائل :

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام نعى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبويها وطاب فلو تس طيع قامت فعانقتها القلوب
فهى ماء يجري وماء يليه وعزال تنشأ وأخرى تذوب
كشف الروض رأسه واستسر الـ محل منها كما استسر المريب
أيها الغيث حيها لا بمغدا لك وعند السرى وحين تـؤوب

شدد الطائي لام حيها كأنه وقف ثم وصل على نية الوقف وروى بعضهم «حي أهلا» وكأنهم يصلحون به قول حبيب وما جاء به حبيب أجود وكان طريقه في فصيح الكلام واسع وكان ظاهر قول سبيويه يفيد، قال في باب الوقف في أواخر الكلم المتحرك: «وأما التضعيف فقولك هذا خالد وهو يجعل وهذا فرج حدثنا بذلك الخليل عن العرب. ومن ثم قالت العرب في الشعر في القوافي سبسبا يريد السبب وعيهل يريد العيهل، لأن التضعيف لما كان في كلامهم في الوقف أتبعوه الباء في الوصل والواو على ذلك كما يلحقون الواو والياء في القوافي فيما لا يدخله ياء ولا واو في الكلام وأجروا الألف مجراها لأنها شريكتهما في القوافي ويمد بها في غير موضع التنوين ويلحقونها في غير التنوين» - يعني ألف الإطلاق نحو أقل اللوم عاذل والعتابا - «فألحقوها بهما فيما ينون في الكلام وجعلت سبسب كأنه مما لا تلحقه الألف في النصب إذا وقفت» يعني أنك إذا وقفت ولم تضعف قلت رأيت سبسبا، فإذا ضعفت قلت رأيت سبسب ولم تلحقها الألف التي تلحقها في النصب حين لا تضعف، فإذا جئت بها قافية صنعت بها صنيع سبسبا في رأيت سبسبا» مع التضعيف. قال سبيويه: قال رجل من بني أسد: -

ببازل بهاء أو عيهل

وقال رؤبة:

لقد خشيت أن أرى جدبا في عامنا ذا بعدما أخصبا
أراد جدبا وقال رؤبة:

بدء يحب الخلق الأضحما

فعلوا هذا إذ كان من كلامهم أن يضاعفوا فإن كان الحرف الذي قبل الآخر ساكنا لم يضاعفوا نحو عمرو وزيد إلخ. ١. هـ «قلت لم يقيد سبيويه عبارته «إذ كان من كلامهم أن يضاعفوا» كما قيدها من قبل حيث قال لأن التضعيف لما كان من كلامهم في

الوقف ، فهل اكتفى بقوله هذا أن يكرره وجعل عبارته هذه الثانية مردودة عليه أو أراد العموم هذه المرة وأن التضعيف مما يقع في كلام العرب لا يخص به قبيلة دون قبيلة؟ ثم إن سيبويه يقول في أوائل كتابه «ومن العرب من يثقل الكلمة إذ وقف عليها ولا يثقلها في الوصل نحو سببها وكلكلا لأنهم قد يثقلونه في الوقف فأثبتوه في الوصل كما أثبتوا الحذف في قوله لنفسه مقنعا وإنما حذفه في الوقف قال رؤبة :-

ضخم يجب الخلق الأضخما

تروى بكسر الهمزة وفتحها وقال بعضهم «الضخما بكسر الضاد. ا. هـ» فهذا فيه ما ترى من عموم في الشعر لا يخص به القوافي ولكن الذي استشهد به قافية . وقال في باب الوقف «وقد استعملوا في شيء من هذا الألف في الوقف كما استعملوا الهاء لأن الهاء أقرب المخارج الى الألف وهي شبيهة بها فمن ذلك قول العرب حيهلا فإذا وصلوا قالوا حيهل بعمر وإن شئت قلت حيهل كما تقول بحكمك . » وقال في موضع آخر «وحدثني من أثق به أنه سمع عربيا يقول أعطني أبيضه والحق الهاء كما ألحقها في هنة وهو يريد هن . » قلت فعلى قوله الأول يجوز أن تلحق الألف بعد حيهل المشددة للام من أجل الوقف كأنه قال حيهل مشددة كما قال أبيض مشددة وألحقها هاء ثم أبدل مكانها ألفا . وأما التنوين فعلى التنكير، إذ قرأت حيهلا بمغداك منونا حيهلا . فتأمل هذا التخريج .

فهذا ما حثنا على القول بأن طريق «حيهلا بمغداك» بالتشديد كأنه واسع في العربية . وكان في كلام التبريزي شيئا من هذا المعنى حيث قال : «ويجوز أن يكون الطائي سمعها مشددة في شيء من شعر العرب ولو كانت قافية لجرت مجرى قوله : «كأن مهواها من الكلكل» ثم قال التبريزي «ومن روى حي أهلا فهذه كلمة مرفوضة إلا أن يجعل حي في معنى هلم وينصب أهلا بفعل مضمر ويجوز أن تكسر الياء في معنى التحية أي حي أهلا حاضرين بمغداك» - قلت فهذا يبين فضل مقال حبيب على قول من راموا إصلاحه .

والعرب قد تجرى الوصل مجرى الوقف فتصل بما تقف به وعليه رواية بيت امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمنا من الله ولا واغل

لا بل عليه إلحاق الألف سببها وأخصبها إذ هو ترنم ، والشعر كله ترنم .
هذا ولما ذكر أبو تمام الغمام في قوله «تصرح الدهر تصریح الغمام لها» وجاء بطاهر

وجنب، خرج من صفة ما كان وصفه من الدمار والنار الى صفة نشوة النصر وما يصنعه أهل الفتح من الإباحة :

لم تطلع الشمس فيهم يوم ذاك على بان بأهل ولم تغرب على عزب
فهذه إباحة، قتل وسباء . فالباني على أهله قتل وأخذت امرأته . والغازي العزب بات وله
صاحبة فليس بعزب . وزعم بعض المعاصرين أن بائية أبي تمام كلها مدارها على
الجنس . وصدق ابن قتيبة قبل دهر «فرويد» بأن الجنس كل ضارب فيه بسهم وأخذ منه
بنصيب حلال أو حرام . ولكن ليس معنى ذلك أن نلتبس الجنس فنجد في كل
مقال . وتشبيه أبي تمام لعمورية بالبرزة المستعصية والبكر المطلوبة بأشد الطلب قريب
جميل . وصفته ما وقع من تحريق وتقتيل وسباء عمل شاعر متقن ، وقد انتبه ونبهنا الى
الجانب غير الحسن من ذلك ، مما يبنى بدقة إحساسه المزهق كل إرهاف وإنسانية
نفسه مع التزامه بهذا التغنى الواضح القوي الجهير بنصر الخلافة والإسلام والعرب
وذلك قوله :

ما ربع مية معمورا يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب
يعنى أبو تمام أنه معمور بحسن نعت غيلان له ، إذ لم يكن حقا معمورا لما وقف غيلان
عنده في مثل قوله :
وقفت على ربع لمية ناقتى فما زلت أبكي عنده وأخطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه
فقد جعله غيلان هنا معمورا بالذكرى ، وكقوله :

خليل عوجا من صدور الرواحل بجمهور حزوي فابكيا في المنازل
لعل انهمال الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجي البلابل
و قوله :

أدارا بحزوى هجت للعين عبرة فمأهوى يرفض أو يترقرق
ثم أكثر ما يصفه غيلان وأكثر ما يصف الشعراء الربوع حين تبدل من أهلها أصناف
الوحش وتصير رياضاً ومراتع ، فهذا لها حسن وعمران ، وقد نعلم شغف حبيب

بالرياض . فقله : معمورا يطيف به غيلان ، منبىء بأن عمرانه من إطفاء غيلان به
وغيلان هو ذو الرمة . أما ربع عمورية فخرب . وهو أبهى ربا من ربع مية علي ما فيه من
خراب ، لهذا النصر ، وهذه الاستباحة التي هي جزء المجاهد المنتصر في هذه الدنيا
"ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون"

ولا الحدود وإن آدمين من خجل أشهى الى ناظر من خدها الترب

هذا البيت نفيس حقا .

ربعا الخرب فيه هذا السباء وهؤلاء المستباحات وخطودهن النواعم يتفطرن خجلا ذا
انكسار .

وهذه المدينة التي افتتحت ، هي أيضا بكر ، ولكن خدها ضارع ترب ، إذ كانت ذات
كبرياء وأنف شامخ . هذا الإذلال لها والترتيب مدعاة للحزن . قول الشاعر «خدها
الترب» مشعرنا بأساء لهذه الذلة بعد العز .

ولا شيء أعظم من نشوة الانتصار عليها بعد ما كان لها من طول استعصاء وامتناع -
هذه الحدود المتفطرات خجلا اشتبهت بنشوة الظفر ، فهذا الخد الترب أشهى الى نظر
المنتصر المستبجح من هذه الحدود المدميهن الخجل .

والمنظر بعد فطيع سمج .

والنصر يجعل هذه السجاجة الفطية أمرا عظيم الجمال :

هنا إنسانية أبي تمام الضخمة ودقة إحساسه المرفه .

فأمر هذه القصيدة ليس كله أو عموده شبق جنسي فروئدي ، فتأمل .

سجاجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبدو عواقبه جاءت بشاشته عن سوء منقلب

أخذ هذا أبو الطيب - أخذه كله بنظر شديد الى ما ذكره حبيب من نصر واستباحة :

فلم ينج إلا من حماها من الطيب لمى شفتيها والثدى النواهد
تبكي عليهن البطاريق في الدجى وهن لدينا ملقيات كواسد
بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

فهذا عين مقال أبي تمام أن حسن منقلب المنتصرين جاءت بشاشته بعد سوء المنقلب

الذي حل بالمنهزمين .
ومن ثم أخذ أبو تمام في تعليل أسباب النصر وأن الخليفة بها حباه الله من تأييده كان هو السبب فيه .

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت له العواقب بين السمر والقضب
هذا مردود على قوله «حتى إذا خض الله السنين لها» أي هذا النصر قد كمنت عواقبه
عصورا طويلة بين السيوف والرماح . حتى اختارها المعتصم بالله وداهم بها العدو
فقهره .
وما خلا أبو تمام من نظر قوي إلى طريقة علقمة في بائيته حيث قال :

فوالله لولا فارس الجون منهم لأبوا خزايا والإياب حبيب
فجعله هو سبب النصر . ويوشك الصولى أن يكون قد تنبه أو نبه إلى هذا الوجه حيث
قال في البيت التالى :

ومطعم النصر لم تكهم أستسه يومًا ولا حجبت عن روح محتجب
أن أول من قال بهذا علقمة بن عبدة فقال ومطعم النصر يوم النصر إلخ - قلت ورواية
علقمة المعروفة : «ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه البيت» - وما أشك - والله أعلم - أن
حبيبا تعتمد الإشارة إليه ولوى قوله «ومطعم النصر» منه . قال في هامش شرح التبريزي
[دار المعارف تحقيق د . محمد عبده عزام . الطبعة الرابعة ص ٥٨ هامش ٥ من ج ١] وله
رواية أخرى في ل : ومطعم الغنم يوم الغنم . قلت هذه الرواية لا نعلم غيرها . وليس في
الشرح الكبير سواها ولا في طبعة مطبعة المعارف ١٣٦١ هـ ص ٢٠١

لم يغز قوما ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب
هذا من المبالغة ، ويبرره أن المعتصم كان مشغولا بالجيوش ، فتركه كانوا إذا رأى عرضهم
كانها هم امتداد لنفسه . وقد كان يحيل لنا أن هذا خبر وليس بمبالغة وأن المعتصم به
أشجع من عنزة الذي ليس كسيرته الحربية من سيرة . ثم ثبت عندنا بعد أن عنزة
أعظم شأنًا في باب الشجاعة الفردية البطولة .

رمى بك الله برجها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم تصب

ويروى لم يصب بالياء والتاء أجود وأراد الإشارة إلى آية الأنفال أي أنت إنما خرجت غضبا لله ولو كنت خرجت لغير ذلك ما انتصرت وما يكون لك أن تخرج لغير ذلك ، إذ أنت خليفة الله ، كل أمرك في الله والله .

من بعد ما أشبوها واثقين بها والله مفتاح باب المعقل الأشب
أشبوها أي حصنها حتى صارت كالشجر الملتف [هذا لفظ التبريزي ولعله من أبي
العلاء] بها حولها من كثرة السلاح . ومن شاء جعل هذا المعنى جنسيا

وقال ذو أمرهم لا مرتع صد للسارحين وليس السورد من كتب
هذه فكرة الروم ، وخلفائهم الإفرنج عن العرب والمسلمين ، أنهم بدو يطلبون المرعى
وموارد الماء ،

أمانيا سلبتهم نجح هاجسها ظبي السيوف وأطراف القنا السلب
خفف الأمانى ، والسلب أى الطوال جمع سلب بفتح فكسر

إن الحمامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب
هذا تهكم بهم من أبي تمام إذ قالوا لا مرتع ولا ورد - فقال بلى ، فالمرتع والسورد سيفونا
ورما حنا . مناياهن هن الدلاء التى نصيب بها الحياة - حياة المرتع (العشب) والمورد
(الماء) - وهى هذا من مقاله ما سيجىء به بعد من خبر المرأة التى قالت وامعتصماه وهم
يظنون أن لا معتصم لها من أجل أنه لا مرتع صددا أى قريبا له ولا ورد من كتب أى
من قريب .

لبيت صوتا زبطريا هرقت به كأس الكرى ورضاب الخرد العرب
لما جعله ولي أمر الدين جعل لا لذة له إلا الأهل ، ولا خمر له إلا إغفاءة النوم .
فنفض إغفاءة النوم وترك الحلائل من أجل الغيرة والنجدة . وعسى بعض هذا أن
خيل به لمن خيل له أن فكرة الجنس هي الغالبة على أبي تمام في هذه البائية ، وإنما قصد
أبو تمام إلى معنى قول الآخر:
قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار
وقول الآخر:

إذا ما أراد الغزو لم تكن همه حصان عليها عقد در يزينها
وذكر كأس الكرى لأن عادة العرب أن تترك الخمر إذ غزت وقد أراق الربيع بن
زياد زقاق خمره لما بلغه مقتل مالك بن زهير وحرّم النساء وقال :
أفبعد مقتل مالك بن زهير ترجو النساء عواقب الأطهار
فجعل كأس المعتصم التي أراق كأس كراه كما تقدم ذكره . وأحسبه أخذ تصيير
الكرى كأساً من قول تأبط شراً :
فاحتسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمعلوا
ولا يلام على أخذ وهو بعد صاحب ديوان الحماسة .
قالوا — وهو الذي في شرح التبريزي : زبطري منسوب إلى زبطرة وهي بلد فتحه
الروم فبلغ المعتصم فيما قيل أن امرأة قالت في ذلك اليوم وامعتصماه فنقل إليه ذلك
الحديث وفي يده قدح يريد أن يشرب ما فيه فوضعه وأمر بأن يحفظ فلما رجع من فتح
عمورية شرب . ١٠٠ هـ

عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبتّه معلنا بالسيف منصلتا ولو أجبت بغير السيف لم تجب

أي أجبت الصوت الزبطري
حتى تركت عمود الشرك منغفرا ولم تعرج على الأوتاد والطنب
أي قصدت مدينة الكفر المستعصية فغفرت خدّها وهو المعنى الذي كان فيه من
خراب عمورية فعاد إلى صفة الحرب ، وبعد أن وصف حال المعتصم وصف حال
عدوه ، وجعل هذا في مقابلة ذلك .

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشتقة المعنى من الحرب
فهذا تفسير اقتصادي للحرب والمعنى قديم ويدعي سبق فيه لكارل ماركس
وسبقه في طريقة تأويل بعض أحداث التاريخ في ضوءه لا في نفس المعنى وقد زعم
«برتراند رسل» في تاريخ الفلسفة الغربية أن افلاطن سبق ماركس ولكن المعنى أقدم
من ذلك لمن تأمله .

غدا يصرف بالأموال جريتها فعزه البحر ذو التيار والحدب
هيهات زعزعت الأرض الوقور به عن غزو محتسب لا غزو مكتسب

فالعزو للاكتساب قديم واضح الأمر. ولكن الغزو للاحتساب، هو الذي ينبعث من روح الإيمان والدين. ومن أجل ذلك لبي المعتصم الصوت الزبطري وهراق كأس الكرى، هذه التي حاولت أساطير الأخبار أن تجعلها كأس نبيذ - وترجع بروحها الإسلامي إلى روح جاهلي كروح الربيع بن زياد. والمعتصم بالله لم يكن أدبيا ناقدا كأبيه الرشيد ولا فلسفيا جدليا كأخيه المأمون، ولكنه كان جنديا أمه تركية، أقرب إلى سداجة صدق العقيدة عما تصوره هذه الأسطورة، والله أعلم.

لم ينفق الذهب المربي بكثرتة على الحصى وبه فقر إلى الذهب أي إن المعتصم ما كان ليقبل رشوة مال من توفلس الذي أراد أن يدرأ خطر الحرب بعطاء الجزية، ذلك بأن المعتصم صاحب دولة غنية، ما أنفق ما أنفق من ذهب لكي يرشى بمثله ولكن ليصول لدينه ويتنقم ممن غضوا من قدره إن الأسود أسود الغاب همتهما يوم الكربة في المسلوب لا السلب وهذا كان رأي بلال والأنصار رضي الله عنهم في أمية بن خلف. ولى وقد ألجم الخطى منطقهم بسكتة تحتها الأحشاء في صخب هذا البيت غاية في جودة التعبير. وجعل الصخب في مقابلة السكتة. وأخذ المعنى فأجاد الأخذ من قول عمرو بن معد يكرب، وقد اختاره هو في حماسه، ولو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت فقد صخبت أحشاء عمرو ههنا بأسف شديد مع زعمه أن الخطى ألجمه لفرار قومه وهزيمتهم. ولم يعن أبو تمام بالصخب وجيب القلب وحده كما يفهم من شرح التبريزي ولكنه عنى الخوف وهواجس الأسف والحزن. وقوله من بعد يؤيد قولنا هذا:

أحذى قرابينه صرف الردى ومضى يحث أنجى مطايا الهرب
موكلا ييفاع الأرض يشرفه من خفة الخوف لا من خفة الطرب

قال أبو زكرياء: «المعنى أن هذا الرجل يعلو ما ارتفع من الأرض لينظر إلى الطرق هل فيها من يتبعه. ١. هـ». وقوله من خفة الطرب يشير إلى نحو قول توبة: وأشرف بالقور اليفاع لعلي أرى نار ليل أو يراني بصيرها وفيه أيضا إشارة إلى إشراف حمار الوحش، إذ في فعله خفة طرب إذ هو مع حلائله:

بأحزة الثلوث يربأ فوقها قفر المراقب خوفها آرامها
ويدلك أنه ما خلا من إشارة إلى حمار الوحش ذكره الظليم من بعد ، وهذه معان
يدعو بعضها بعضا والقاريء الكريم يعلم صلة بينها :
إن يعد من حرها عدو الظليم فقد أوسعت جاحها من كثرة الخطب
من حطب هذا الجاحم أعداء الله الذين انكبوا فيه . وعاد أبو تمام إلى ما بدأ به
من السخرية . وقد كان سخر بالنجوم والكوكب الغربي ذي الذنب . فأن أن يسخر
بالرواية وزخرفها وما قيل إنها - أي عمورية - لا تفتح قبل نضج التين والعنب . وما ينه
إليه ها هنا أن قوله " عدو الظليم " فيه وحي رجعة إلى قوله في أول القصيدة : « زعموا
الأيام مجفلة » والإجفال للنعام . وقد أجفلوا هم . فتأمل .

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
يارب حوباء لما اجتث دابرهم طابت ولو ضمخت بالمسك لم تطب
هذا قريب من قوله ما ربع مية وساجدة غنيت . أي طابت النفس بسرور النصر
وذلك أطيب من المسك . وذكر المسك لقولهم ما كان الطيب إلا المسك برفع المسك
وهو من كلمات الكتاب فأحسبه يشير إلى ذلك .

والحرب قائمة في مازق لحج تجنبوا الكهانة به صفرا على الركب
صفرا أي تصاغرا لكي يقدروا على المازق اللجج ولعل الرواية الصحيحة لحج
بحاء مهملة مكسورة وجيم معجمة وشرح التبريزي يدل على ذلك إذ لحج بالحاء
المهملة والجيم من باب فرح هي المناسبة لشرحه إذ شرح فقال : لحج في الشيء إذا
نشب فيه فلم يخلص وقد يقال مكان لحج أي ضيق - كل ذلك في الطبع (ص ٧١)
بجيمين وفي مادة لحج في القاموس لحج السيف كفرح نشب في الغمد ومكان لحج
ككتف والملاحج المضائق . قلت كل ذلك بحاء مهملة قبل الجيم وليس شيء في مادة
اللجاج بمطابق ما وقع في شرح التبريزي من تحريف طابع أو ناسخ وأحسب رواية
نختارات البارودي لحج بحاء مهملة فجيم وهو الصواب . صفرا بضم الصاد بعدها
غين معجمة ساكنة مصدر صغر ككرم . والصورة مأخوذة من صفات أيام صفين وأبو
تمام كان أعلم بذلك من حاق الممارسة للحروب .

كم نيل تحت سناها من سنا قمر وتحت عارضها من عارض شنب
كم كان في قطع أسباب الرقاب بها إلى المخدرة العذراء من سبب

رجعة أبي تمام هنا إلى ما كان ذكره من بان بأهل وعزب ، إجمال بعد تفصيل . بدء هذا الإجمال قوله تسعون ألفا إذ رجع به إلى روح مطلعته ثم أتبع ذلك روح صفته للحرب والفتح والحريق والاستباحة ثم يختم بمدح وحكمة تفرغ الأسراع وتبقى في القلوب . وقوله إلى المخدرة العذراء - عنى عمورية ، ثم ما في عمورية من عذارى سبين فافترعن .

كم أحرزت قضب الهندي مصلته تهنز من قضب تهنز في كذب
بيض إذا انتضيت من حجبها رجعت أحق بالبيض أبدانا من الحجب
هذا لعب لفظي معنوي مرقص . البيض السيوف . والبيض أبدانا : نساء الروم
وحجب السيوف أغماها . وحجب النساء معروفة . فهذه البيض إذا سلت ، صارت
هي أحق بالروميات من خدورهن .
وهذا كله ثمرة الفتح والنصر المبين .

خليفة الله جازي الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو ذمام غير منقضب
فين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
كما بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب النسب - هذا متضمن

أبقت بني الأصفر الأمراض كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب
فقد سمى أبو تمام بلاد الروم الرجل المريض . ثم رد الافرنج هذا الاسم على
المسلمين من بعد فسموا تركيا رجل أوروبا المريض . " وتلك الأيام نداؤها بين الناس "
« ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله . »

وزعم التبريزي أنه يقال « إنما يقال للملوك الروم بنو الأصفر لأن حبشيا كان غلب
على بلادهم فنكح فيهم فولد له أولاد يخالط بياضهم صفرة من سواده فازدادوا بذلك
حسنا . » ١ - هـ . قلت أبي العرب أيام عزهم إلا أن يجعلوا الحبش الذين غلبوهم على
اليمن ، غلبوا الروم أيضا . ولا يعلم على وجه الحقيقة لماذا كانت تسمى العرب الروم
بني الأصفر ، ولكن يغلب على الظن ان المراد بذلك شعور رؤوسهم اذ كان يوستنيان
ملك الروم ومن قبله روسا في أصولهم في شعورهم غير ما اعتادوه من لون السواد .
ولذلك قالوا صهب السبال . كما قالوا زرق العيون . قال عبدالله بن سبرة يصف
الرومي :

أحم أزرق لم يشمط وقد صلعا

وليس قول حبيب «صفر الوجوه» بمبعد هذا الذي ذهبنا اليه من قصد الشعر، والصفرة والحمرة والصهبة كل ذلك في ألوان الشعر مباين لما يألف العرب ومقال حبيب الذي قاله اجتهد منه واقتنان .

هذا، وقد جعل الدكتور طه حسين «ليالي بعد الظاعنين شكول» أميرة شعر أبي الطيب . وهي من الجياد الروائع . وليس مذهب أسلوها كمذهب «السيف أصدق» . وقد نبه الدكتور طه رحمه الله على أن أبا الطيب جاري فيها مجازاة استحسان لا محاكاة او معارضة كلمة السموأل الحماسية . ولله دره ناقدنا متذوقا . فالسموأل يقول :

لنا جبل يحتله من نجيره	منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به	الى النجم فرع لا ينال طويل
تسيل على حد الظلمات نفوسنا	وليست على غير الظلمات تسيل
صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا	إناث أطابت حملنا وفحول
وأيامنا مشهورة في عدونا	لها غرر مشهورة وحجول
وأسيفنا في كل غرب وشرق	بها من قراع الدارعين فلول

وكلمة السموأل جرى فيها على مخاطبة امرأة من العرب كما يدل عليه السياق ومحل استشهادنا هذا الضمير الجهمير «نا» وإياه اتبع أبو الطيب إذ يقول :

تمل الحصون الشم طول نزالنا	فتلقي إلينا أهلها وتزول
وانا لنلقي الحادثات بانفس	كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جسوننا	وتسلم أعراض لنا وعقول

وذكر العقول هنا وثبة من وثبات أبي الطيب ترفعه فوق المحاكاه البحتة . وفي هذه اللامية ضروب من المخاطبة ، أنا يخاطب سيف الدولة وأنا يجرد من نفسه آخر يخاطبه :

سوى وجع الحساد داو فإنه إذا حل في قلب فليس يحول

وحينا يخاطب الدمستق . ولا ريب أن القصص الحربي عن تري الروح يخاطب به التي لقيها بدرب القلة أو زعم ذلك .

ليست " ليالي بعد الظاعنين شكول " من ضرب " السيف أصدق " في نوع شكلها . ليس صاحبها على جهارة صوته فيها بخطيب . ولكنه صائح وصادح . القصيدة التي فيها منهج بائية حبيب ميميته . :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وهي فخمة جزلة . غير أن فرق ما بينها وبين بائية حبيب كفرق ما بين سيف
الدولة والمعتصم .

وأفخم من «علي قدر أهل العزم تأتي العزائم» وأشد شبهاً ببائية حبيب واتباعاً لها
ميميته التي قيل إنها آخر ما أنشده سيف الدولة :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسم
وهذا المطلع فيه نفس من مطلع البائية لما فيه ما بين اليمين والوغى من مقابلة غير
بعيدة جداً من مقابلة ما بين السيف والكتب - وسرعان ما قال أبو الطيب بعد هذا
المطلع بأبيات قلائل .

أين البطاريق والحلف الذي حلفوا بمفرق الملك والزعم الذي زعموا
فهذا فيه أنفاس :

أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف منها ومن كذب
وقد أبدع أبو الطيب في تصوير حركة الجيش غير أن نموذج البائية أمامه ومن جيد
صناعته فيها قوله :

فما تركن بها خلداً له بصر تحت التراب ولا بازاله قدم
ولا هزباله من درعه لبد ولا مهاة لها من شبهها حشم
ترمي على شفرات الباترات بهم مكان الأرض والقيعان والأكم
فهذه صفة غارة وحركة . وكان قول حبيب :

غدا يصرف بالأموال جريتها فعزه البحر ذو التيار والحدب
دعا أبا الطيب إلى صفة حركة العبور . وقد جاء بصورة جيدة منها في اللامية إذ قال :

ورعن بنا قلب الفرات كأنها تخر عليه بالرجال سيول
يطارد فيه موجه كل سابع سواء عليه غمرة ومسيل
تراه كأن الماء مر بجسمه وأقبل رأس وحده وتليل

وهذا وصف مشاهد ، عظيم حيوية الحركة . وقد ألم أبو الطيب بصورة النيران والحريق ،
ولكنه أشرب ذلك الحركة وسرعة مجاوزته ، ولقد علم إبداع حبيب في هذا الباب
، فاكثفي منه بأخذة خلس لا يزيداها :

تسايرها النيران في كل مسلك به القوم صرعى والديار طللول
وفي الميمية أقام شيئا يسيرا عند صفة العبور بالسفن ، كأنه يريد بذلك أن يربى على
الأوصاف التي في بائية أبي تمام وأعرض عن ذكر النار إلا تلميحاً في معرض تشبيه
السيوف بها :

عبرت تقدمهم فيه وفي بلد سكانه رمم مسكونها حم
فهذه صفة الحريق ثم عدل عن ذلك فجعل السيوف هي النار :

وفي أكفهم النار التي عبت قبل المجوس الى ذا اليوم تضطرم
هندية إن تصغر معشراً صغروا بحدها أو تعظم معشراً عظموا
وقد أخذ أبو العلاء من هاهنا إذ قال :

ليست كنار عدي نار عادية باتت تشب على أيدي مصاليتا
ولا تلهينك الإشارة الى «ياسليمي أوقدي النار» عن أصل أخذه . ثم جاء أبو الطيب
بنعت سفن العبور - وكما قدمنا دعاه إليه تيار البحر وحده عند أبي تمام :

قاسمتها تل بطريق فكان لها أبطالها ولك الأطفال والحرم
تلقى بهم زبد التيار مقربة علي جحافلها من نضحه رثم
الرثم بياض في شفاه الخيل وجحافلها شفاهها المفرد جحفة والمراد هنا صفة
سفينة بياض الماء حول مقدمها كأنه رثم حول جحفة فرس . وزبد التيار هذه صدى
مباشر من «فعزه البحر ذو التيار والحدب» . وذكروا عن أبي الطيب أنه كان ينكر أن
يكون يأخذ من المحدثين وأنه إنما كان يأخذ من القدماء . فإن صحت هذه الرواية فما
يكون عدا بها الكناية ، إذ شعر أبي تمام مشحون بالقدماء ، لا يخلو من نظر في شعره
من أن ينظر فيما يضمه أو يشير إليه من شعرهم . - ثم بعد قوله : تلقى بهم زبد التيار
قوله :

دهم فوارسها ركاب أبطنها مكدودة ويقوم لا بها الألم

يريد السفن ، فالدهم من صفة الخيل وركوب الأبطن من نعت السفن .
وخاتمة هذه الميمية فيها صدى من خاتمة أبي تمام ، وذلك قول أبي الطيب :

القائم الملك الهادي الذي شهدت قيامه وهده العرب والعجم
ابن المعفر في نجد فوارسها بسيفه وله كوفان والحرم
وهذا قريب من قول أبي تمام «خليفة الله جازى الله سعيك عن إلخ» - ثم

أضرب أبو الطيب عن هذا القري ، وكأن قد أقر في نفسه بسبق أبي تمام في البائية :-

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم
واستشهد بهذين البيتين ابن الأثير في المثل السائر ينبه بهما علي فضله . وقد أشرنا
في كلمتنا التي بعنوان «الى ليلاه الخجول» الى أخذ أندرو مارفيل ANDREW MARVELL
من أبي تمام في مطلع قصيدته التي مدح بها زعيمه البريطاني Oliver Cromwell :^(١)

Tis time to leave the Books in dust,
And oyl th'unused Armours rust.
So restless Cromwel could not cease
In the inglorious Arts of Peace
But through Adventrous war
Urged his active star.

لقد أن أن ينبذ الكتاب إلى التراب
وأن يصفل من الصدر صدد الإهاب
وما كان لكرومويل القلق الفؤاد
أن يكون إلى فنون دعة السلم ذا إخلاد
ولكن في مصادمة حومة القتال
احتث نجم طالع الفعّال

قالوا وكان كروميل عاكفا على درس وكتب ثم ترك ذلك وانبرى للحرب فكان ما
كان من ظفـره — وهذا من استهلال أندرو مارفيل مأخوذ من استهلال أبي تمام على
الأرجح .

والشبه ظاهر .

وقال أندرو مارفيل في آخر هذه الكلمة :

But thou the wars and Fortune's son
March indefatigably on:

(١) لم يورد النص الانجليزي في ليلاه الخجول (مصر ١٤٠٣) والتهجى هنا من ضرب قديم .

And for the last effect
Still keep thy sword erect
Besides the force it has to fright
The spiril's of the shady night
The same arts that did gain
A Pow'r must it maintain.

أما أنت فـابن الحروب والجد السعيد
لاتني في سيرك الشـديـد
ولكى يكون لك الأثر البالغ الأخير
فإن حسـامك مصلت شهر
إذ قـوته كما تخيف أشباح ظل الظلام
فإن الفنون التي نيلت بها السطوة بها أيضا تستدام
هذه ترجمة تقريبية .

وعين هذا المعنى في ميمية أبي الطيب إذ يقول :
ألهى الممالك عن فخر قفلت به شرب المدامة والأوتار والنغم
مقلدا فوق شكر الله ذا شطب لا تستدام بأمضى منهما النعم
وكان أبا الطيب رام بهذه الميمية أن يضاهي أبا تمام لا في المعاني فحسب وأن يري
عليه بذكر السفن والعبور أيضا ، ولكن تعمد مع ذلك أن يقارب بعدد أبياتها عدد
أبيات «السيف أصدق» إذ هي نيف وستون بيتا ، وأبو الطيب أحرص على الإيجاز منه
على الإطالة . وهذه الميمية ^(١) على جودتها لا تبلغ بين السيفيات مبلغ :-

وفأوكما كالربع أشجاء طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه
وهذه نفسه فيها كأن فيها قصدا إلى مجازاة بائية أبي تمام :
أهن عوادي يوسف وصواحيه فعزما فقدما أدرك النجح طالبه
إذا فيها شيء من مشابهة تفخيمه . وقد نبه الدكتور طه حسين رحمه الله على محاسنه بما
لا مزيد عليه في هذا الموضع .
ومن أعجبها الى قوله في غزلها :

(١) سبق لنا أن قلنا وقد أوردنا من هذه الميمية في الجزء الثاني في باب التكرار ان عمل ابى تمام انها كان إعدادا لما سيأتي به (أبو الطيب) من روائع وهو كذلك .

سقاك وحيانا بك الله إنما
 إذا ظفرت منك العيون بنظرة
 حبيب كأن الحسن كان يحبه
 تحول رماح الخط دون سبائه
 ويضحى غبار الخيل أدنى ستوره
 على العيس نبور والحدور كئامه
 أثاب بها معيي المطي ورازمه
 فآثره أو جار في الحسن قاسمه
 وتسبى له من كل حي كرائمه
 وآخرها نشر الكباء الملازمه
 وزعم بعض شراح شعر أبي الطيب أن ههنا من المبالغة . وليس الأمر على ما توهمه .

هذه الصورة لمن تأملها منتزعة من حال ما كان عليه أهل الترف .
 وقوله :

وما استغربت غني فراقا رأيته
 فلا يتهمني الكاشحون فلأني
 مشب الذي يبكي الشباب مشبيه
 وتكملة العيش الصبا وعقبيه
 وما خضب الناس البياض لأنه
 وما علمتني غير ما القلب عالمه
 رعت الردى حتى حلت لي علاقمه
 فكيف توقيه وبانيه هادمه
 وغائب لون العارضين وقادمه
 قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه
 ثم بعد هذا يحىء مدحه الجيد وفخره الرصين :

سلكت صروف الدهر حتى لقيته
 مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه
 لا يكثر أبو الطيب من الإشارة إكثار أبي تمام ولا يظهرها إظهاره . ولكنه يخفيها
 وكأنها وحي يلحن به . وجلى ههنا أنه يشير إلى نعت الشعراء الذئب وإلى حديث
 الجاحظ عن الطير والحيوان . شعر أبي الطيب لمن تأمله مليء بالإشارة الخفية وهذا من
 معدن ميله إلى الإيجاز .

ثم إنه كان ينشد شعره فضلاء أذكىء ، فإما فطنوا إلى مراده بما رزقوه من سعة الاطلاع ،
 واما تفطنوا إليه من بعد فأدركوا مغامض معانيه مثلا قوله : ثم

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع
 فإن لحث ذابت في الحدور العواتق
 والرواية الأخرى (حاضت في الحدور العواتق) ولعلها هي الأولى وعيبت على أبي الطيب
 وما أشك أنه يشير إلى تفسير من فسر قوله تعالى (أكبرنه وقطعن أيديهن) بمعنى الحيض
 والله أعلم .
 ومثلا قوله :-

أمنعمة بالعودة الظبية التي بغير ولي كان نائلها الوسمى
الوسمى المطر الأول والولي بعده - قال ابن الرومي ، وكان أبو الطيب من حملة ديوانه
ورواته ، يصف روضة :-

شكرت نعمة الولي على الوسـ مى ثم العهد بعد العهد

وأشار إلى هذا المعنى في قوله

من يـزره يـزر سليمان في الملـ لك جللا ويوسف في الجمال
وربيعا يضاحك الغيث فيه زهر الشكر من رياض المعالي
ورياض المعالي من أنفاس النسيم ونفحاته . ولا غرو فقد كان يحب البرية مع كثرة
أسفاره . وهو بعد القائل

وكيف التذاذي بالأصائل والضحي إذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا

والقائل

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل

والقائل

رعى الله عيسا فارقتنا وفوقها مها كلها يولى بجفنيه خده
بواد به ما بالقلوب كأنه وقد رحلوا جيد تنائر عقده
إذا سارت الأحداج فوق نباته تفواح مسك الغانيات ورنده
وحال كإحداهن رمت بلوغها ومن دونها غول الطريق وبعده
ثم يقول بعد بيت (مها لك لم تصحب إلخ) من الميمية ، وإنما استطرادنا عن ذلك فطال
الاستطراد قليلا :-

فأبصرت بدرا لا يرى البدر مثله وخاطبت بحرا لا يرى العبر عائمه
عجبت له لما رأيت صفاته بلا واصف والشعر تهذى طماطمه
وكنيت إذا يعمت أرضا بعيده سريت فكنت السر والليل كائمه
لقد سل سيف الدولة المجد معلما فلا المجد تخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملك الأغمر نجاده وفي يد جبار السموات قائمه

وشعر أبي الطيب الجيد في سيف الدولة خاصة كثير مشهور . ولعل أميرة القصائد
السيفيات كلهن ، وليست بأطوهن ، ميمته العتائية :

واحمر قلباه ممن قلبه شيم ومن لجسمي وحالي عنده سقم

وهي خطابية جهرة. غير أن شكلها لمن تأمله أقدم معدنا وجوها من خطابات أبي تمام وبشار. إذ أبو الطيب كما يغرف من بحر التجارب وكما يحتوى محاسن حبيب والوليد وابن الرومي ويتهب منها ومن غيرهم من مقلقي المحدثين، يتجاوز هؤلاء على أخذه منهم وانتهابه، إلى شعراء الجاهلية، بنظر شديد يجمع فيه بين الأصالة المبدعة والحذو البارع المقتن

في هذه الميمية العكاظية - قالوا إنه أنشدها في محفل من العرب، وقال أبو منصور ما معناه أن أكثرها على جودتها يدخل في باب إساءة الأدب بالأدب - حذو ما على شكل التخصير القديم. أي الشكل الذي يفصل الشاعر بين أول قسم منه وآخر قسم بالحكمة أو ما يجري مجراها. وقد ضربنا أمثلة من تصرف الشعراء في هذا الباب. منهن لامية كعب ابن زهير. وحذو هذه اللامية في الشكل وفي معدن الوزن حذا أبو الطيب. ولاغرو فهي اعتذار ضمنه التماس يتبرأ به كأنما هو عتاب رقيق:

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم	أذنب وإن كثرت في الأقاويل
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به	أرى وأسمع ما لو يسمع القيل
لظل يرعد إلا أن يكون له	من النرسول بإذن الله تنويل
حتى وضعت يميني لا أنزعها	في كف ذي نقمات قيله القيل
فلهو أهيب عندي إذ أكلمه	وقيل إنك منسوب ومستول
من ضيغم بضراء الأرض مسكنه	من بطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما	لحم من القوم معفور خراديل

هل أراد بقوله «عيشهما» ههنا «خبزهما»؟ في بعض اللغات السامية أن اللحم هو الخبز؟

إذا يساور قرننا لا يحل له	أن يترك القرن إلا وهو مجدول
منه تظل سباع الجو خائفة	ولا تمشى بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة	مطرح البز والدرسان ^(١) مأكول

حذا أبو الطيب على: «بانت سعاد». وإنك لتحس عنده انفاس إيقاعها وصدى من روح صياغتها. قال كعب:

(١) هو السلاح والدرسان: الثياب.

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت في الأقاويل
صدى من هذا في قول أبي الطيب :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
وقال كعب :

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به يرى ويسمع ما لو أسمع الفيل
لظل يردد

فأصداً من هذا وأنفاس من روحه في قول أبي الطيب :
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي واسمعت كلماتي من به صمم

صحبت في الفلوات الوحش

ثم أليس ثم صدى من قول كعب في بانت سعاد :

حتى وضعت يميني ما أنازعها

في قول أبي الطيب :-

قد زرتة وسيف الهند مغمدة

وقد ذكر أبو الطيب الهيبة في قوله : « واصطنعت لك المهابة إلخ » وذكر نيوب الليث

وهوله في قوله : « إذا رأيت نيوب الليث بارزة » وأشار بل صور ضغمة حيث قال : « حتى

أنته يد فراسة وفم » . وفي « بانت سعاد » نعت الهيبة وتصوير الضيغم الذي يغدو :

... فيلحم ضرغاين عيشها لحم من القــــــــــــــــوم

« بانت سعاد » كما ذكرنا من قبل مخصرة ، حذيت على نهج « إن الخليط أجد البين فانفرقا »

وأصل جميع ذلك « قفا نيك » « وهل ما علمت وما استودعت » وما أشبه من كلام

القدماء قبل زهير . ومثل بانت سعاد ميمية أبي الطيب هذه ، هي أيضاً مخصرة .

قسمها الأول أقام فيه الممدوح مقام المحبوب ، فهو نسيبي السنخ . وقد نبه أبو منصور

على حسن هذا المذهب من أبي الطيب ومحبوب أبي الطيب ، الذي هو ممدوحه ، جعل له

من صفات سعاد كعب مشابهاً . أليس كعب يقول :

أكرم بها خلة لو أنها صدقت موعودها أو لو أن النصح مقبول

لكنها خلة قد سيط من دمها فجع وولع وإخلاف وتبديل

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول
ولا تمسك بالوعد الذي زعمت إلا كما يمسك الماء الغـراييل
وقد قال أبو الطيب:

واحر قلباه من قلبه شيم ومن لحالي وجسمي عنده سقم
«سعاد» كعب قد بانت فهو يروم اللحاق بها وهي رمز السعادة والنجاة التي طلبها في
نصر أمر الجاهلية، فخانه ذلك الطلب، فهو الآن يرومها عند الرسول عليه الصلاة
والسلام.

ومحبوب أبي الطيب لم يين . وكان قد اقترب بينه . قلب كعب متبول متيم مرهون مكبول
ولكن قلب أبي الطيب وحاله معا سقيان .
مالي أكتم حبا قد برى جسدي

فهو حب صادق

وتدعي حب سيف الدولة الأمم
والدعاوى فيها الكذب . محبو سيف الدولة غير أبي الطيب فيهم فجع سعاد وولعها
وإخلافها وتبديلها - وهب ما يدعونه حبا :

إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقسم

الحب المدعى دعوى . والحب الذي قد برى الجسد وأسقم القلب والحال . هذه القسمة
الضيّزى فجع وولع . فقد لبس محبوب أبي الطيب من صفات محبوبة كعب ها هنا .
قد زرتة وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم وكان أحسن ما في الأحسن الشيم
هذا مدح . والنسيب فيه ذكر الوجد وفيه التغزل بذكر المحاسن . وهكذا صنع
كعب . إلا أن كعبا بعد المطلع قدم ذكر المحاسن :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها ولا طول
ثم بعد أن وصف ثغرها وشبهه بالراح

شجت بذى شيم من ماء محنية صاف بابطح أضحي وهو مشمول

صار إلى شكوى الوجد والإخلاف والتبديل .

وعكس أبو الطيب هذا الترتيب . وأبت " شبنم " إلا أن تجيء في صدر المطلع
منبثة بسوحي خفى عن أخفى نظر أبي الطيب إلى " بانت سعاد " وتأثره بها عفواً أو عن
عمد . وعند من يكون كأبي الطيب - ويحسن وهنا الاستشهاد بقوله :

كفاتك ودخول الكاف منقصة كالشمس قلت وما للشمس أمثال

عند من يكون كأبي الطيب مما يجتمع التأثير العفوي مع العمد . إذ هو رحمه الله قد كان
من الشاعرية في الذروة ، التي يذوب فيها قطر الصنعة ومعادنها في حديد الطبع فينشأ
من ذلك فولاذ واحد عزيز عديم النظير .

ومضى أبو الطيب شوطاً حسناً من المدح :

فوت العدو الذي يممته ظفر في طيه أسف في طيه نعم
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة ما لا تصنع البهم
وفصل أبو الطيب معنى المهابة كما ترى

ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها أن لا يـواريهـم أرض ولا علم
أكلما رمت جيشاً فانتنى هرباً تصرف بك في أثـاره الهمم
عليك هـزمهم في كل معترك وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظفراً حلوا سوى ظفر تصافحت فيه بيض الهند واللمم
أي سوى الظفر الذي تحوزه السيوف الهندية ، يأبى السيف الصارم المجرب الذي
لا ينبو .

كان أبو الطيب قد لمح تلميحا بشكواه التي أوردها مورد شكوى النسب ثم
صار منها إلى مدح مطرب كغزل النسب ، فلما بلغ به أوجه ، رمى بأول أسهم العتاب :
يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

هذا البيت الثاني عشر هو أول تخصير القصيدة .

وقد يذكر القارئ الكريم موضع التخصير في " قفانك " أنه وصف الليل
وشكواه وشكوى الزمان .

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمل

وأنه في ميمية علقمة حيث أبيات الحكمة التي في طيها أسف شديد :

بل كل قوم وإن عزوا وإن كثروا عريفهم بأثافي الشر مرجوم

وهنا هذه البطولة الفكرية التي جهر بها الشاعر جسور القلب لا يبالي، وسماها أبو منصور إساءة الأدب بالأدب^(١). ومع ذلك نص على هذه القصيدة أنها من المختار. يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم هم الظلم وأنا الأنوار - ومهدت هذه المقابلة لقوله من بعد «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي».

ولا يخفى أن قوله: «يا أعدل الناس إلا في معاملتي» بعد ما كان أطرب سيف الدولة به من المدح في قوله: «أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر» فيه المقابلة التي هي قريب مما سماه أرسطو طاليس بالتحول: (Peripety) في حديثه عن المسرح. ويستوقفني هنا، لو يذكره القاريء الكريم، مقال شارلس ليال الذي أوردناه في أول هذا الجزء، حيث قال في بعض ما قاله عن شكل الشعر العربي القديم: «وأبعد من ذلك أن يقال مسرحي لأن الشخص الوحيد والمقياس الوحيد المعروفين للمتكلم هما نفسه ومثله الأعلى الذي يعتقده»^١. هـ. ليت شعري هل أحس "ليال" بوجود عنصر مسرحي في شعر العرب الذي اطلع عليه ثم أعياه أمر هذا العنصر إذ لم يجد فيه لا تعدد الشخصيات ولا محاكاة طبيعة أعمال الناس وأقوالهم على الحد الذي حده أرسطو في مسرحيات يونان وسير عليه من بعد في آداب الروم والفرنجة؟

ينحطى من يحسب أن "ليال" أراد بقوله هذا أن يصف شعر العرب بأنه غنائي بالمعنى الاصطلاحي عندهم، أي ذاتي محدود بذلك أن تكون له أبعاد تتخطى الذات إلى ما وراءها من آفاق الفكر والخيال. فقد احتس من أن يفهم عنه هذا الفهم بقوله «هما نفسه ومثله الأعلى» فجعل المثل الأعلى رديفاً وصنواً وقريناً للنفس. في المسرحية يصير المثل الأعلى بطلاً أو أبطالاً وشخصيات بينهم حوار من أقوال وأفعال. وعند الشاعر العربي تبطل هذه المحاكاة ويصير الشاعر بخياله وانفعاله هو البطل والأبطال

(١) انظر كتابنا مع أبي الطيب طبع الخرطوم ١٩٦٨ م ومقالنا شاعرية المتنبي المناهل العدد ١٣.

والشخصيات جميع أولئك معا . وبطلان المحاكاة لا يجعل الشاعر غنائيا بالمعنى الاصطلاحي الأنف الذكر أي ذاتيا محدود المدى بالذات ، فقد أخرجته تقمصه المثل الأعلى وما يحف به من حدود ضيق الذات . ومن أجل ذلك ما زعمت العرب أن للشاعر رثيا وقرينا . ومن أجل ذلك ما زعم أبو عمرو بن العلاء أن شعراء العرب في العرب بمرتلة أنبياء بني اسرائيل في بني اسرائيل . ومن أجل ذلك ما قال عمر رضي الله عنه إن الشعر كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه .

وقفنا هذه الوقفة التي كأنها هي استطراد وليست به ، لنقرر معنى ما قدمناه من تشبيه نحو المقابلة التي في قول أبي الطيب «يا أعدل الناس إلخ» بعد مقاله «أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر» بالتحول المسرحي . ولا نزع بعد أن هاهنا عنصرا مسرحيا إلا على سبيل التقريب والمجاز ، على نحو ما يكون قد سبق منا من القول من قبل . ولكن الذي نقطع به أن العنصر البياني الذي اشتق منه النوع المسرحي ، موجود في هذا الشعر وفي كثير من جياذ القصائد عند القدماء والمحدثين الذين جاءوا بعدهم من شعراء بني العباس والعصور التي تلتهم . وليس قولنا العنصر البياني الذي اشتق منه النوع المسرحي بأمر من المغالطة اللفظية . فقد كفانا توضيح هذا الجانب من حيث معدنه ومعناه ، الفيلسوف أرسطو طاليس إذ ذكر أن كلا المسرحية والملحمة محاكاة للطبيعة . تعتمد الملحمية على القصص وتعتمد المسرحية على محاكاة الأفعال ومواجهة الناس بها .

المواجهة مع ما يكون معها من ضروب التأثير بالحكمة والحماسة والفكاهة وحلو الكلام ومرة ، ذلك هو العنصر البياني الأصل . والتعبير المسرحي فرع ، وقد عابه أفلاطون لما فيه من الاستتار والتمويه . وهذا بعد باب آخر . وعند الشاعر العربي عنصر المواجهة صلتا ، وقد فصلنا القول من قبل في أمر ما يجعله الشاعر درعا لمقاتل نفسه حين يجهر بالقول من عدوان الناس .

ولقد نعلم أن تلك الدرع على سبوغها كثيرا ما كانت تمتهك أو تنتهك عن المقاتل . وحسبك شاهدا في الأولين طرفة . وفي الآخرين أبو الطيب . هذا الذي نحن في معرض الحديث عنه . وقد كادت هذه الميمية تقتله . ولعل شيئا من صداها لم يخل من مشاركة في مقتله . ولقد زعموا أن غلاما له قال له لما أراد الفرار ألسن القاتل :

الخيال والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
قالوا فقال له ما معناه قتلني قتلك الله وكر راجعا فقتل . فهذا الخبر أصح أم لم يصح فيه نوع من الدلالة على ما قدمنا .

ثم يقول أبو الطيب ، وههنا عنصر البطولة ومقاربة روح النبوة الذي جر عليه مقتله من بعد ، والله تعالى أعلم :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
مناسبة هذا المعنى لقوله «الأنوار والظلم» من قبل لا تخفى

أنام ملء جفوني عن شواردها	ويسهر الخلق جراحها ويختصم
وجاهل مده في جهله ضحكى	حتى أتته يد فراسة وفم
إذا نظرت نيوب الليث بارزة	فلا تظن أن الليث يتسم
ومهجة مهجتي من هم صاحبها	أدركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه في الركض رجل واليدان يد	وفعله ما تريد الكف والقدم

هذا البيت صدره من قول امرئ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
وكانه تفسير لقول امرئ القيس . وعجزه من قول امرئ القيس :
وللساق ألحوب وللوسط درة وللزجر منه وقع أخرج مذهب

وهذا الذي عابته أم جندب ، وكانت هي المحكمة ولها حكمها مسمطا . وقد ذهب أبو الطيب إلى استجادة كلام امرئ القيس . وكأنه في البائية «أغالب فيك الشوق» صغا شيئا إلى مذهب علقمة . ولو قد كانت أم جندب حكيمة ل قالت أنتما كركبتي البعير . وأبي الناس إلا أن يحطوا مع امرئ القيس أنها صبت إلى علقمة ، فزعموا أن امرئ القيس كان مفركا ، وأن أم جندب قالت له إنك سريع الإراقة بطيء الإفاقة . وهذا مع ظاهر طعنه في امرئ القيس كأنها هو فرع من مذمة النساء وجرى على مذهب من قال :

لا تـركـنن إلى النساء	ء ولا تشق بعهدهن
فـرضـاؤهن وسخطهن	معلق بفـروجهن

وهذا القول ليس بمنصف إذ لو قطعنا بصدقه على جميع النساء لزم أيضا أن نقطع بصدقه على جميع الرجال .

هذا وفي قول أبي الطيب من بعد :

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم

أخذ من خبر أبي دجانة رضي الله عنه إذ تبختر بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكان رضي الله عنه من الأبطال وأبلى البلاء الحسن .

الخليل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
والحق أن فروسية أبي الطيب كلها إنما كانت فروسية القرطاس والقلم . وينبغي أن يحمل كثير مما يفتخر به فارسا على هذا الوجه . وقد بسطنا جوانب من هذا المعنى في كلمتنا «شاعرية المتنبي» .

صحبت في الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب منى القور والأكم
وهذا معنى يدور كثيرا في شعر أبي الطيب ، وقد غرفه من بحر تجربته إلا أن النقاد أبوا إلا أن يتهموه بالأخذ من الصعاليك ومحاكاتهم ، في مثل قوله :
ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل
ومثل قوله :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها
ولا ريب قد حذا على نحو :

وقنة كسنان الرمح بارزة ضحيانة في شهور الصيف محراق
بادرت قنتها صبحى وما كسلوا حتى نمت إليها بعد إشراق
بشرثة خلق يوقى البنان بها شددت فيها سريحا بعد إطراق
ونحو :

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه في رمضائه تتلمل
نصبت له وجهي ولا كن دونه ولا ستر إلا الاتحامي المرعبل

وفي ترجمة أبي منصور له ما يفيد أنه قضى فترة من عمر شبابه صعلوكا أو كالصعلوك ، فقرا ، وتجشم أسفار ، وتوقع مكاره . وهو بعد القائل :

أجارك يا أسد الفراديس مكرم فتسكن نفسي أم مهان فمسلم
ورائي وقدامى عداة كثيرة أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك في حلفى على ما أريده فإني بأسباب المعيشة أعلم
إذا لأتاك الخير من كل وجهة وأثريت مما تغنمين وأغنم

فقد سمع زئير أسد الفراديس وأحست نفسه الخوف منها ، ولكنه لما صار إلى قول الشعر مزج تجربته هذه بالأخذ من كلام القتال الكلابي حيث قال في صحبته النمر ما

قال - من ذلك :

فأغلبه في صنعة الزاد إنني أميط الأذى عنه وما إن يهلل
فقول أبي الطيب «فاني بأسباب المعيشة أعلم» من هاهنا .

وما خلا أبو الطيب ، في ذكر الفروسية والفخر بها ، من أخذه من عنثرة وعنثرة
بيانه من الأصل البياني الأول ، الذي أسلوب الملاحم فرع منه ، وذلك أنه لا يقص
علينا سيرة بطل آخر يحاكي أفعاله بقول يزينه ، ولكنه يقص سيرة نفسه علينا ، يمزج
بين الغرف من بحر تجربتها ومن المثل الأعلى ، الذي هو حيناً من لبه - كما قال :

ذلل ركابي حيث كنت مشايعي لبي وأحفزه بأمر مبرم
وحيناً من وصاة عمه - كما قال :

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحي إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
وفي معنى عمه بعض الدلالة على ابنة عمه . وكان العم كناية عن الحسب
والشرف وابنة العم كناية عن المحبوبة - فالعم كما ترى هو الولي الذي يغار عليها
ويشترط الشروط على من يلتمس الصهر عنده .
هذا وبعد أن قال أبو الطيب «صحبت في الفلوات الوحش مغتربا» أعلن عزمه
على الرحلة والفراق :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
هذا هو البيت الرابع والعشرون . وبيت «القور والأكم» قبله هو آخر تخصيص
القصيدة ، وهذا البيت أول قسمها الثالث . غير أننا نلفت نظر القاريء الكريم إلى
تصرف تصرفه أبو الطيب في التخصيص ، هو من سنخ تخلصه في سائر أجزاء القصيدة .
وذلك أنه وشح التخصيص أو قل نطقه بأبيات كأنها خروج منه إلى القسم الثالث ،
ولكنها ليست بخروج ، فطال بذلك التخصيص بعض الطول للوصل الذي بينه وبين
القسم الثالث وهو من عند قوله :

ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجواد ظهره حرم
إلى قوله :

صحبت في الفلوات الوحش . . .

وإنما زعمنا أن هذا نطاق لقوة الشبه بينه وبين ما يقع بحسب عادة الشعراء في القسم
الثالث من الذكرى نحو : «وقد أغتدى والطيء» في «قفا نيك» ونحو «قد أشهد الشرب
فيهم مزهر رنم» في «هل ما علمت» . ولكنه ليس حقاً مبدأ قسم ثالث ، إذ مبدأ القسم
الثالث من عند «يامن يعز علينا» . وفيه عودة إلى ما بدأ به التخصيص وهو قوله «يا أعدل
الناس إلا في معاملتي» وقد فصل هنا ما أجمله هناك :

يامن يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

فهذا إنذار طيه غضب . وقوله وجداننا إلخ يفهم منه أيضا معنى :
«وجدانكم كل شيء بعدنا عدم» والبيت التالى قوى الدلالة على ذلك :

ما كان أخلقنا منك بتكرمة لو أن أمركم من أمرنا أمم
قيل رماه سيف الدولة بدواة لما قال هذا فقال :

إن كان سرکم ما قال حاسدنا فما الجرح إذا أرضى اکم ألم
وهذا عين الألم . والبيت يحمل في نفسه طابع أنه جاء به على البديهة لاتصال البيت
بعده بالبيت الذي سبقه ، وهو كالمعترض ، فلذلك حسن موقعه :
ويبتنا لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف في أهل النهى ذمم
ثم احتد أبو الطيب مرة أخرى . إذ مما أثار ذلك ذكر الذمم ، وإخفائها مما يغضب له
ويثار

کم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
العتب هنا شديد مر . وأحسب أن هذا ما عناه أبو منصور إذ نعته بأنه داخل في باب
إساءة الأدب بالأدب (الأدب الأولى من قولك أديب شاعر ناثر راوية هلم جرا والأدب
الثانية أى حسن السلوك والتهذيب أو العكس) وقد يعتذر لأبي الطيب أن هذا موضع
التفات ، فيكون قوله «كم تطلبون لنا عيبا» أراد به عيابه عند الأمير . ويقوي هذا
الوجه بيت الافتخار الذي يتلوه ، إذ يحسن موقعه أنه أراد به مواجهة أعدائه لاسيف
الدولة . وقد ذكروا أن ابن خالويه رماه بمفتاح فشجه . فتساءل : هل التفت أبو
الطيب التفات تعريض به أو أشار أو جاء بوحى في إنشاده بشيء من ذلك ؟

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه يزيلهن إلى من عنده القديم
فالغمام سيف الدولة . ومن عنده القديم ابن خالويه وأبو فراس ولفهم . وليت تفيد
محض التمنى الأماني ضلال . فلم يبق لأبي الطيب إلا أن ينجو ويفارق :

أرى النوى تقتضيني كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
قالوا وكان صاغه أولا: «ليحدثن لسيف الدولة الندم» والكناية في هذا الموضع أجود
من التصريح. ثم في «من ودعتهم» عموم يدخل فيه مع سيف الدولة من عسى أن لو
شاء انتصر له.

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم
إذ هذا يكون رحيل فراق القلوب. وقد كشف هذا المعنى من بعد إذ قال:

شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
كان يبقى للكسب بحيث لا ود ولا صديق. وما أسرع حيثذ ما يكون أعداؤه الى
الطعن فيه والخط من قدره. فتمكنهم مقاتله من حيث لا يحتسب ولا يقدر على جنة
أو انتصار.
ثم يحىء الغضب، أنفا من هذا الشر، ومن كسب يصم:

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم
هذا قريب من قوله «أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم» لأن في ألوان الرخحات
شبهة. وإنما صيدهن الرمم.
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم

فقد سلم أبو الطيب هنا بأن للعجم شعرا. وما أرى دعاه الى هذا التسليم إلا قصده الى
أن يجرد أعداءه من كل فضيلة يمت بها الى بيان الشعر، ما عرفته العرب وارتضته وهو
الشعر، وما زعمت أمم العجم له من ضروب بيانها أنه شعر. وقد كان أبو نصر
الفارابي عالما بفلسفة يونان وشعرها، يدل على ذلك ما بسطه من قول عن القافية في
الموسيقا الكبير. ولا يستبعد أن يكون أبو الطيب قد لقيه وأفاد منه علما. وقد ذكروا أنه
كان كثير النظر في كتب الفلسفة: وهو بعد القائل:

من مبلغ الأعراب أني بعدها شاهدت رسطا ليس والإسكندرا
ورأيت جالينوس دارس كتبه متفلسفا متبديا متحضرا
وزعم الحاقمي أنه أخذ كل حكمه من أرسطو طاليس . وهذا باطل . فقد كان أخذ أبي
الطيب من شعراء العرب قدمائهم ومحدثهم على رأس هؤلاء المحدثين أبو تمام ثم ابن
الرومي والبحتري وأبو نواس ومسلم وبشار ثم سائر المحدثين من بعد . وكان أبو
الطيب بدقائق أسرار الشعر عالما .
ثم ختم القصيدة بقوله :

هذا عتابك إلا أنه مقلة قد ضمن الدر إلا أنه كلم
قوله مقلة لا ريب يشير به إلى قوله في شعر له في سيف الدولة من قبل إذ ألمت به علة :
وقد يؤذي من المقلة الحبيب

أي إن كرهت بعضه فاذكر أنه إنما دعاني به إليه حبك . وقوله : « قد ضمن الدر » جعله
في مقابلة « بأى لفظ تقول الشعر » - أي هذا الذي أجيء أنا به هو الدر . أما هؤلاء فليس
لهم من لفظ الشعر إلا الأجر والبعر وما أشبه . وبيت الختام فيه عودة إلى المعنى الذي
استهل به . كما أن فيه إدالة انتصار .

إن تك ميمية أبي الطيب هذه من أصل البيان الذي البيان المسرحي فرع منه ، وقد بينا
مرادنا من هذا القول ، فإن بائية حبيب من أصل البيان الذي البيان الملحمي فرع منه .
ولا نقول بمفاضلة بين الأصول بنحو مما يقول به نقاد الافرنج من المفاضلة بين ما هو
عندنا فروع من هذه الأصول . على أن نقاد الافرنج قد قرنوا هو ميروس بالمسرحيين
وربما فضلوه عليهم . وإلى نحو هذا القول ذهب نقاد الطليان في دانتى بحسب ما ذكرته
الموسوعة البريطانية في الباب الذي عقدته للشعر .
هذا ومن جياذ أبي الطيب التي شكلها من ذوات التخصيص :

حتام نحن نساوى النجم في الظلم وما سراه على خوف ولا قدم

وهي من فرائده وقلائده ، كما كان يقول أبو منصور فيما يروم مدحه من إحسانه .
وليست هذه القصيدة من حيث أغراضها حقا في رثاء فاتك ولكنها في التأمل والحكمة
ورثاء فاتك جىء به على وجه العظة والاعتبار . كما أن هجاء كافور جىء به في العينية
التي رثى بها أبو الطيب فاتكا لا لأن هجاءه من غرضها ، ولكن لزيادة شعور التفجع

رئى بها أبو الطيب فاتكا لا لأن هجاءه من غرضها، ولكن لزيادة شعور التفجع من طريق المقابلة، وذلك قوله :

قبحا لوجهك يا زمان فإنه	وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك	ويعيش حاسده الخصي الأوكع
أيد مقطعة حوالى رأسه	وقفا يصيح بها الا من يصفع
أبقيت أكذب كاذب أبقيته	وأخذت أصدق من يقول ويسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة	وسلبت أطيب ريحة تتضوع

ثم رجع الى الرثاء

هذا، والقسم الأول من القصيدة من قوله : « حتام نحن نساىى النجم فى الظلم » إلى قوله :

مكعومة بسياط القوم نضرها عن منبت العشب نبغى منبت الكرم
وقد زعم ابن رشيق أن أبا الطيب كان يعمد إلى التهيب بذكر الخيل ويؤثرها على الإبل .
وهذه القصيدة ، والمقصورة

ألا كل ماشية الخيزلى

وغيرهما مما يشهد بأنه كما كان صاحب خيل كان أيضا كثير الرحلة بالإبل وصافا لها فى شعره عارفا بأصناف جيادها ، من ذلك ذكره إبل البجاة الصهب وهي من أسرع الإبل وهو قوله :

وكل نجاة بجأوىة	خنوف ومأبى حسن المشى
ولكنهن جبال النجاة	وكيد العداة وميط الأذى

أستهل أبو الطيب بذكر السرى . فليله ليس كليل النابغة فى :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أفاصيه بطىء الكواكب

وفى قوله :

كتمتك ليلا بالجمومين ساهرا وهمين هما مستكنا وظاهرا

وليس كليل الراعي إذ قال :

ما بال دفك بالفراش مذيلا أقذى بعينك أم أردت رحىلا

على أنه قد أخذ من النابغة قصة مراعاة النجم، ومنه ومن الراعي ومن غيرهما كالأسود ابن يعفر في :

نام الخلي وما أحس رقادي

شكوى السهر وفقد الرقاد .

بداية أبي الطيب المضمرة نسيب ، وأحبابه هؤلاء الملوك الذين هم شر فجعا وولعا من سعاد كعب بن زهير وأكثر إخلافا وتبديلا . وهو بعد القائل :

فراق ومن فارقت غير مذمم وأم ومن يمتت خير ميمم

هذا يقوله بلسان الرجاء . ولكن هذه الميمية مخالطها الغضب والحزن وصرف الرجاء عن كان ظنه موضعاً للرجاء .

لذلك كانت بدايته المظهرة بالسرى والرحلة والدأب ، فرارا من هذا الحب الكاسد الفاسد . بدايته كأنها بعد دموع كدموع علقمة ولكنها ليست بدموع شوق ، ولكن دموع ملامة لنفسه على الذى سبق منه من الشوق . ورحلة على عكس ما تمناه علقمة إذ قال :

هل تلحقني بأخرى الحي إذ شحطوا جلدية كأتان الضحل على كوم

إذ هي رحلة فراق وفرار

حاتم نحن نساوى النجم في الظلم ولا يحس بأجفــــــــــــــــان يحس بها وقد الرقاد غريب بات لم ينم وما سراه على خف ولا قدم

هذا المعنى نابغي مردود على بداية النسيب المضمرة ، إذ ههنا هو بمصر ساهر يراعى النجم الذي في المطلع هو مرتحل يساريه . ولقائل أن يزعم أنه في البيت الأول بمصر

ومساراته فكرية مجازية وهذا الوجه يضعفه قوله من بعد :

تسود الشمس منا بيض أوجهننا . ولا تسود بيض العذر واللمم

فهذا منبىء عن السفر . وقد شكأ أبو الطيب وخط الشيب وجهه شكوى خفية حيث قال :

ومن هوى الصدق في نفسى وعادته رغبته عن شعر في الوجه مكذوب
لم يخل أبو الطيب من عقدة كافورية في هذا البيت وفي قوله من بعد :

وكان حالهما في الحكم واحدة لو احكمتنا من الدنيا إلى حكم

ثم أخذ في السير . وبدأ ذلك بنوع من رثاء النفس . كأنه قد أحس ملالا من طول الدأب الذى لا نهاية له . وكأنه قد جعل الماء رمزا لهذا المعنى ، وكأنه يرثى للماء من طول رحلته ، أنا هو سائر في السحاب . وأنا آخر هو سائر في القرب على ظهور الإبل

ونترك الماء لا ينفك من سفر ماسار في الغيم منه سار في الأدم

مكان الرمز في قوله (ونترك الماء لا ينفك من سفر) أي لولانا لكان قد استقر حيث يجد من الأرض قرارا .
ثم أحس أبو الطيب أنفاس النجاة والحرية المخالطة لهذا السير ، فوجد لذلك هزة طرب أريحى ونشوة من انتصار :

لا أبغض العيس لكنى وقيت بها	قلبي من الحزن أو جسمي من السقم
طردت من مصر أيديها بأرجلها	حتى مرقن بنا من جوش والعلم
تبرى لهن نعام الدو مسرجة	تعارض الجدل المرخاة باللجم

ههنا نفس من علقمة ، إذ علكومه التي تمنى بها النجاة

كأنها خاضب زعر قوادمه أجني له باللوى شري وتنوم
يظل في الحنظل الخطبان ينفقه وما استطف من التنوم مخدوم
فهو كشق العصا لأياتينه أسك ما يسمع الأصوات مصلوم
حتى تذكر بيضات وهيجه يوم رذاذ عليه الريح مغيوم

ومن هذه الأبيات أصداء في قول أبي الطيب «ماسار في الغيم منه» وفي قوله «تبرى لهن
نعام الدو» عنى بها الإبل وقد قرنهما بالخليل من غير ما تفضيل للخليل عليها كما زعم له
ابن رشيق وذلك في قوله «تعارض الجدل المرخاة باللجم» - وقوله من بعد «تحدى
الركاب» وسنعود إن شاء الله إليه بالتنبيه في موضعه فيه أصداء من «يظل في الحنظل
الخطبان الخ» وقوله من بعد:

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا بما لقين رضا الأيسار بالزلم
تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم عائم خلقت سودا بلا لثم

يعني لمات الشباب الغدافي

بيض العوارض طعانون من لحقوا من الفوارس شلالون للنعم
قد بلغوا بقناهم فوق طاقته وليس يبلغ ما فيهم من الهمم

قوله في " غلمة " يحمل أنفاسا من قول علقمة

وقد أصاحب فتيانا طعامهم خضر المزاد ولحم فيه تنشيم

يدلك دلالة قوية على أبا أن أبا الطيب لم يرغب عنه قول علقمة إذ جعله نموذجا آيات
بينة منها قوله «رضا الأيسار بالزلم» وقبل بيت علقمة هذا قوله «لو يسرون بخيل قد
يسرت بها البيت» وقد قال علقمة بعد هذا البيت

وقد علوت قتود الرحل يسفعني يوم تجيء به الجوزاء مسموم
حام كأن أوار النار شامله دون الثياب ورأس المرء معموم

فقد ذكر أبو الطيب تسويد الشمس «بيض أوجهنا»، المعنى الذى فيه العقدة الكافورية التي أشرنا إليها آنفاً. ثم ذكر العنائم في قوله «تبدو لنا كلما ألقوا عنائمهم» فدل على أنهم سافروا يقون أنفسهم بذلك من أوار الشمس كما قد صنع أصحاب علقمة. ثم بما كان في نفسه من هوى الصدق وعادته نجد أبا الطيب ينبهنا أنه إنما اقتدى بعلقمة تلميحا كال تصريح وذلك قوله بعد هذا البيت «قد بلغوا بقناهم الخ»:

في الجاهلية ————— إلا أن أنفسهم من طيبن به في الأشهر الحرم

قوله «في الجاهلية» تنبيه وإشارة إلى وصف شعراء الجاهلية الموامي والمياه الأواجن وصحبة القفار. وما ذكره هو خاصة في هذه القصيدة يوميء بإصبع إلى ميمية علقمة

ناشوا الرماح وكانت غير ناطقة فعلموها صياح الطير في البهم

ناشوا هذه قرآنية من قوله تعالى «وأنى لهم التناوش» بهمز الواو وترك الهمز. وقال الراجز:-

باتت تنوش الحوض نوشا من علا نوشا به تقطع أجواز الفلا

وقوله فعلموها صياح الطير ينبئ عن تجربة وهو في قوله:

وملمومة سيفية ربعية يصيح الحصى فيها صياح اللقالق

واللقالق ضرب من الطير. وأصل المعنى من عنتره: «تمكرو فريصته كشدق الاعلم» والمكاء صفيير وصلة الصفيير بالطير لا تخفى

تخدي الركاب بنا بيضا مشافرها خضرا فراسنها في الرغل والينم
مكعومة بسياط القوم نضريها عن منبت العشب نبغي منبت الكرم

هذان البيتان نجد فيهما صدى من خطبان علقمة وتنومه الذى ينقف الظليم ما استطف منه وأبي سوط علقمة الذى ذكره في قوله: «تلاحظ السوط شزرا وهي ضامزة» وهذا قبل بيت الظليم ونعته، إلا أن يكون له صدى منبىء عن أصل مكان الأخذ الذى أخذه أبو الطيب - وهو قوله «مكعومة بسياط القوم» وسائر البيت من قول حبيب:

أطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود

ثم يأتي بعد ذلك القسم الأوسط من القصيدة . وقد صنع فيه صنعا قريبا عما صنع في «واحر قلباه عن قلبه شيم» وذلك أنه جاء بالتخصير المحض ثم وشحه قبل أن يصير إلى القسم الثالث من القصيدة الذي هو نهايتها وأوله «توهم القوم» . أول التخصير «وأين منبته» . وأنزل رثاء فاتك منزلة العظة والاعتبار والحكمة :

وأين منبته من بعد منبته	أبي شجاع قريع العرب والعجم
لافاتك آخر في مصر نقصده	ولاله خلف في الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء في شيم	أمسى تشابهه الأموات في الرمم
عدمته وكأنى سرت أطلبه	فما تزيدني الدنيا على العدم

هاهنا مرارة بالغة كأن قد عاد بها عودا قائما إلى قوله من قبل :

ونترك الماء لا ينفك من سفسر ما سار في الغيم منه سار في الأدم
إلى مه وإلى من هذا السير وقد عدم فاتكا . وما أمامه إلا العدم وكأنها هو سائر بآماله إليه
هل عند الدنيا زيادة على هذا العدم يتبغى أن تزيده إياها؟ فيم هذا العناء وإلام هذا
السير؟

ومتصل بالسير ذكر الإبل . وفيه أنفاس من ذكريات الماضي ومن هاهنا مبدأ التوشيح والتطبيق :

ما زلت أضحك إبلي كلما نظرت	إلى من اختضبت أخفافها بندم
أسيرها بين أصنام أشاهدها	ولا أشاهد فيها عفة الصنم

جاء ذكر الأصنام وتفسير رمزها أوضح في المقصورة حيث قال :

وقد ضل قوم بأصنامهم وأما بزق رياح فلا

ومراده بالأصنام هنا كافور وكثير غيره ممن قصدهم ولم يجد عندهم الا قليلا مما كان يأمله كأنه لا شيء . ولعله لا يخرج سيف الدولة كل الإخراج من نفحة هذا الذم . إلا أن قصده إلى كافور أوضح ، لان عهده به كان أقرب ، وأمله فيه كان أضخم لما كان يعتقد في نفسه من نقص فيه ربما يسر له سبيل ذلك . فكانت خيبة ذلك الأمل شديدة مرارة الوقع .

حتى رجعت وأقلامى قوائلي المجد للسيف ليس المجد للقلم

وما كان مجد كافور بالسيف ولكن بالدهاء مع الذكاء

اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتني ودوائى ما أشرت به فإن غفلت فدائى قلعة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم
فهذا آخر التخصير وماله من وشاح

وآخر القصيدة ذكريات وحكمة وعزاء وأسى واعتذار عن هذا الدأب الذي إنما هو
عناء وضياح وقت في غير ما طائل :

توهم القوم أن العجز قربنا وفي التقرب ما يدعو إلى التهم
القوم هم كافور وسائر الملوك ولعل القصد إلى سيف الدولة هنا أظهر لأن دلالة ما يلي
من الأبيات عليه أقوى :

ولم تزل قلعة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم
هنا إشارة إلى بيت طرفة

فلا زيارة إلا أن تزورهم أيد نشان مع المصقولة الخدم
من كل قاضية بالموت شفرته ما بين منتقم منه ومنتقم
صنا قوائمها عنهم فما وقعت مواقع اللؤم في الأيدى ولا الكزم
فسروا هذا البيت بأن المراد أنهم لم يسلبونا سيوفنا ، فقد نجونا منهم وهي بأيدينا التي لا
هى ذوات قصر ولا بذوات لؤم . والكزم قصر اليد . ومعناه هنا الجبن لأن الشجاع
يمضى قدما كما قال قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وفي القاموس : « وككتف الرجل الهييان » أي الهيوب والكزم بالتحريك البخل وقصر في
الأنف والأصابع . وفي قول أبي الطيب معني القصر والبخل والجبن جميعا . وعندى أن
قوله صنا قوائمها كأن قد قال صناها عنهم ثم اعتذر بأن ذلك لم يكن بسبب أن
قوائمها وقعت من أيدينا موقع لؤم وجبن . وأضرب أبو الطيب عن ذكر السبب الذى
من أجله صان سيوفه عن تضريب أعناق هؤلاء الملوك . وقد كان قال من قبل :

وجنبنى قرب السلاطين مقتها وما يقتضينى من جاجها النسر

وقال :

...Who would fardels bear, . . . في السطر (٧٦)

هل اطلع شكشير على قول أبي الطيب: «الدهر يعجب من حملي نوائبه؟» أليست في حكمته في هذه القطعة من مشهور قوله أنفاس من أصداء حكمة أبي الطيب:

فيزعم بعض البلاغيين أن ها هنا إيجازا بالحذف أي فساءنا والمعنى يفسد بهذا التفسير، والصواب أن نأخذه كما أعطاه الشاعر، ومن أتبعه «فساءنا» تفسيرا له فقد حد من سعة آفاقه.

ما أشد تقلب قلوب البشر ولا سيما الشعراء . قد قال أبو الطيب في مقطوعة له نونية نظمها بمصر قبل نظمه هذه الميمية :

وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
صَحِبَ النَّاسَ قَبْلَنَا إِذَا الزَّمَانَا
تَوَلَّوْا بِغَضَّةٍ كُلُّهُمْ مَنْـ

فهل أراد بقوله: «أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم» تفسير قوله من قبل «وإن سر بعضهم أحيانا» فهؤلاء البعض، إنما كان سرورهم على زمان شبابه وهو المرموز له بقوله «أحيانا»، أو رجع أبو الطيب عن ذلك القول بنسبة العناء والشر إلى زمانه هو؟ ها هنا تقلب قلب الشاعر. وذلك أن روح الميمية روح حزن وغضب وهجاء.

وقد صار من بكاء فاتك وهجاء حاسده الخصى الأوكع إلى الأسف على نفسه والعبرة بموت فاتك وهجاء الناس كلهم ، فكلهم خصى أوكع ودهرهم هرم برم .

وما خلا أبو الطيب في اختتامه هذه الميمية الرائعة بالزمان الهرم من تأثر بأواخر أبيات ميمية علقمة حيث ذكر النوق الحسان ومعها صغارها تترغم ووراءها فحل أكلف مختبر كثير اللحم .

(١) وأن بنوه بأعباء الحياة لولا خوفه ما بعد الموت الى آخر ما قاله . وقد أدخل فيه من معنى قول أبي الطيب «فإن لثالث

الحالين معنى. انظر ما يلي

فحل علقمة فتى قوي ضخم كالفيل أسود كالليل الظليل . ليس بأسود رهل خصي
رخو مداهن ككافور وأشباه كافور ممن ليسوا بسود ولا خصيان ولكنهم - أوكما قال

كأن الأسود السلابي فيهم غراب حوله رخم وبوم

رحم الله أبا الطيب . إنما كان شاعرا عظيم الخيال ضعيف المحال .
وقد كان ناقدا ذواقة مبينا عالما بمكان نفسه من ذلك كله عالما أيضا بأنه غير مصيب
على ما يحسنه من جزاء مكافئ له . وقد أحسن إذ يقول لسيف الدولة :

ومالي ثناء لا أراك مكانه فهل لك نعمى لاتراني مكانها

وكان قال «وكم لك من نعمى أنا أستحقها وعداي الذين سيتغلبون على آخر الأمر
عندك لا يروني أهلا لذلك ولا مكانا له .»

وفي هذه النونية أبيات جياذ في نعت بعض ما كان من زخارف وتصاوير على ما أهدى
له سيف الدولة من ثياب الديباج :

ترينا صناع الروم فيها ملوكها وتجلو علينا نفسها وقيانها
ولم يكفها تصويرها الخيل وحدها فصورت الأشياء إلا زمانها

وهذا من عجيب القول وبعيد أغواره إذ الزمان هنا عنده بعد من الأبعاد عجز الرسام
أن يقبده أو يرمز له بقيد كما قد فعل بالأبعاد المكانية .

وما ادخرتها قدرة من مصور سوى أنها ما أنطقت حيوانها

فهذا ينقل معنى حيوية ما صورته من حيوان إذ لم تدخر قدرة تصويرية إلا أتت بها إلا
أن ينطق الحيوان . وما خلا أبو الطيب هنا من أخذ دقيق من قول أبي عبادة

يغتلى فيهم ارتيابي حتي تتقراهم يداي بلمس

هذا

ومن أعجب شعر أبي الطيب ميمته :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وهي قصيدة عتابية ، عاتب بها كافورا كما عاتب سيف الدولة «بواحر قلباه» من قبل ،
غير أنه رام فيها أن يكون ألبق ، وأبعد عن تهمة إساءة الأدب بالأدب ، فلم يكافح
كافورا بخطاب . كلا ولم يقارب أن يكافحه بتلميح . ومع هذا فقد روى عنه أنه

قال «كنت إذا دخلت على كافور أنشدته ، يضحك إلى ويبش في وجهي حتى أنشدته هذين البيتين يعني :

فلما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه لعلمي أنه يعض الأنعام
فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا . فعجبت من فطنته وذكائه . « قلت إن صحت هذه الرواية فإنها لاتدل على ذكاء كافور ولكن على غفلة أبي الطيب ، إذ البتآن واضحا الدلالة على إرادته كافورا إن صح ما ذكره عنه أنه كان يضحك إليه ويبش في وجهه وبعيد عن أبي الطيب أن يكون في مثل هذا الموضع صاحب غفلة . وفي هذه القصيدة أشياء تعتمد بها التعريض بالفراق . وأشياء أفلتت منه فيها تعريض بالهجاء . وينبه ها هنا على أن أبا الطيب لم يضمن شيئا من الهجاء في كلماته اللواتي أرادهن مدحا لكافور . ومن زعم ذلك له ، ونسب في ذلك رواية عنه ، فإن ذلك يناقض ما في هذا الخبر من إقراره بذكاء كافور . اللهم إلا أن يزعم زاعم أن أبا الطيب قد ضمن مدح كافور هجاء في طيه له ، ولم يكن يخطر بباله أن كافورا من أجل سواده وأنه مع ذلك خصي له من الذكاء ما يفتن به إلى ذلك ، فلما تبين له أنه قد فطن له ، عجب لذلك . فأقراره الذي أقره بالعجب لا باعتقاد وجود الذكاء .

هذه القصيدة محكمة اتصال المعاني والأبيات . وهي مع ذلك من الضرب المختصر . شأنها فيه شأن : «واحر قلباه» و«حتام نحن نسارى النجم في الظلم» . وقد قدمنا أن أصل نظره في ذلك إلى «بانت سعاد» في «واحر قلباه» ثم سواها من الشعر القديم ونظره في «حتام نحن نسارى النجم» إلى ميمية علقمة أشد . ولعلنا لا نباعد إن زعمنا أن من بواعث تأثر أبي الطيب لامية كعب ، سابقة تأثره بالتصوف . وفي بعض مدائح صباه ما هو من سنخ كلام المتصوفة كقوله :

يأبى الملك المصفى جوهرًا من ذات ذي الملكوت أسمى من سمي
نور تظاهر فيك لاهوتية فتكاد تعلم علم ما لن يعلم
ويهم فيك إذا نطقت فصاحة من كل عضو منك أن يتكلم
أي النور اللاهوتي

أنا مبصر وأظن أنى نائم من كان يحلم بالاله فأحلم
كبر العيان على حتى إنه صار العيان من العيان توها

ومن سنخ المدائح النبوية قوله :

لقد حسنت بك الأوقات حتى كأنك في فم الدهر ابتسام
وأعطيت الذي لم يعط خلق عليك صلاة ربك والسلام

وإنما الذي لم يعط خلق ما أعطيه هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وأبو الطيب يعلم
حديث الشفاعة - وفي هذه القصيدة قبل هذين البيتين مما معدنه ديني قوله
تحايده كأنك سامري تصافحه يد فيها جذام

والضمير في تحايده يعود على المال . والجذام مبالغة ، لأن السامري أمره أن يقول لا
مساس نافراً من كل الناس .

إذا ما العالمون عروك قالوا أفدنا أيها الحبر الإمام

فلما جعله حبراً وإماماً، قارب به النبوة فزعم أنه أعطى ما لم يعطه الله خلقاً غيره .
ويموز لمن يعتذر لأبي الطيب أن يزعم أنه لم يرد مدوحه العجلى بهذا ولكنه التفت إلى
مدح الرسول عليه الصلاة والسلام وجعل ذلك ختام مسك . وهو جواز ذو بعد .
وقول أبي الطيب : «أنا مبصر وأظن أي نائم» يستوقفني منه كسماع اصداء منه في قول
شكسبير .

Is this a dagger I see before me.....

أهذا الذي أراه أمامي أخرج هو

(انظر الفصل الثاني - المنظر الأول ص ٣٣ - ٤٠ من ماكبيث)

الكلمة التي يزعم بها أنه يرى شبح الخنجير الذي يريد أن يرتكب به جريمة
الغدر «بدنكان» الملك . وهذا بعد باب من البحث لا يتسع له مجال هذه الفصول .
وما أشك أن أخذ شكسبير من أبي الطيب خاصة ومن أبي تمام وشعراء آخرين كثير
وينبغي أن يدرس ويكشف عنه .
مثلاً قال أبو الطيب :

كريم نفضت الناس لما رأيته كأنهم ما جف من زاد قادم

وقال شكسبير

Time hath, my lord, a wallet at his back

Wherein he puts alms for oblivion,

(الفصل ٣ انظر ص ١٤٥ - نزو يلس وكوسيدا)

«الدهر على ظهره خريطة، يضع فيها أزواد الصدقة لتنسى.»

وعما يشعر بالأخذ هنا أن المكدي الذي يشبه شكسبير الزمان به هنا يضع ما يعطاه من صدقات (وإنما ذلك الخبز الجاف ونحوه) للنسيان. والسائل لا ينسى ما تصدق به عليه ولا يدعه للنسيان. إنما الذي يطرح زاده من حقيته وينفض ذلك نفضا هو القادم الواجد القرى والضيافة. وفي القطعة الشكسيرية ما ينم بمعنى الضيافة، إذ شبه الزمن فيما بعد بصاحب الخان وهذا كما تقدم باب مجال القول فيه سوى هذا الموضع.

القسم الأول من القصيدة فيه، في أول بيت وهو المطلع:

ملــــــــومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

نفس نهاية للنسيب. واللائهان هما صاحبا امرئ القيس اللذان صارا صحبا كثيرين في قوله:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم

وهما صاحبا بشار اللذان قال لهما:

واسقياني من ريق بيضاء رود

وهما صاحبا أبي نواس:

أيها الرائحان باللوم لوما

وهما الشاعر نفسه جرد من نفسه آخر فصارا اثنين وثلاثة، يلومونه إذ وقف على الطلل ثم بعد أن بكى واستبكى لم يجد شفاء إلا أن ينخرط في السير. ومحبوب أبي الطيب الذي وقف على طلله هو الأمل الذي خاب عند كافور كما خاب عند كثيرين ممن حسن الظن فيهم وعقد الرجاء عليهم من قبل:

ذرائي والفلالة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام

فإني أستريح بذي وهذا وأتعب بالإناخة والمقام

عيون رواحلي إن حرت عيني وكل بغام رازحة بغامى

جعل نفسه ورواحله شيئا واحدا. وهذا هو المعنى الذي في شعر الجاهليين جاء به أبو الطيب ها هنا بارزا مكشوفاً. وقوله «إن حرت عيني» أي هن يهتدين لأنهن يشمن الماء ويعرفن موارده فإذا حرت فتكفيني هداية عيونهن.

وقوله «وكل بغام رازحة» إنما أراد به الإشارة إلى قول العبدى!

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه أهمة الرجل الحزين

فأهتها بغامها وهو الرجل الحزين . وأما قول التبريزي : «وصوتها إذا احتجت إلى أن أصوت لسمع الحي يقوم مقام صوتي ، وإنما قال بغامي على الاستعارة» (شرح البرقوقى ٢٧٣/٤ - تصوير بيروت) - فوجه واضح والتبريزي أقرب إلى زمان أبي الطيب منا ، وليس الذى قاله بمبعد معنى الإشارة الذى ذكرناه ، وقد سبق منا القول إن أبا الطيب كان يخفي إشارات ولا يظهرها إظهار أبى تمام إلا ما قل من ذلك .

فقد أرد المياه بغير هاد سوى عدى لها برق الغمام
يــــــذم لمهجتى ربى وسيفى إذا احتاج الوحيد إلى الذمام
ولا أمسى لأهل البخل ضيفا وليس قرى سوى مخ النعام

يعنى وليس من قرى يلقى إذ النعام لا مخ له . ومن روى مخ النعام بالخاء يعنى بيض النعام فهى رواية على معنى الصعلكة ، إذ ذكروا أن الشفري وأضرابه كانوا يجبأون الماء في بيض النعام ويعرفون كيف يهتدون إليه فيكره من يطاردهم اتباعهم . والمخ «صفار» البيض وأطلقه ها هنا على البيض كله ، وكذلك يقال في ناحية «بحر أبيض» (أى النيل الأبيض) عندنا للبيض إذ يباع «المخ المح» إلا أنهم يكسرون الميم . وهذا البيت فيه مواجهة لكافور وتعريض به بالبخل ، وقد كشف هذا المعنى في هجائه الصريح له من بعد . ثم يقول :

ولما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنعام
يجب العقولون على التصافي وحب الجاهلين على الوسام

أى أنت لست بحسن الوسام فأحبك من أجل ذلك ، ولكنى إنما أحببتك رجاء التصافي بيننا ، هذا هو المعنى المستكن ، وتعمد أبو الطيب ، وأراد به عتاب كافور فقارب توبيخه ، على شدة ما احتس .

ثم جاء بالدواهي وكأن قد تعمد ذلك إذ قال من بعد :-

وأنف من أخى لأبى وأمي إذا لم أجده من الكرام

ولم يكن له أخ من أب وأم . وإنما كان أقرب الناس إليه جدته التي فيها قوله :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

وما يخلو قوله هذا من معنى فكيف بك أيها العبد الزنيم

أرى الأجداد تغلبها كثيرا على الأولاد أخلاق اللثام

أي إذا لؤمت أخلاق الأولاد، وهذا كثير، غلب لؤمها شرف أنساب أجدادهم. هذا ظاهر المعنى. ولكن خطاب كافور به قد تشتم منه رائحة تفریع قول قائل، فكيف بالأمر إذ ساءت أخلاق الأولاد مع النسب الدنيء المجهول؟

ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى إلى جد همام

فأنا لا أهتم بالنسب ولا أفتخر به. وأنت لا نسب لك. وأنا قد اخترتك فاشكر لي هذا الاختيار

قد اخترتك الأملاك فاختر لهم بنا حديثا وقد حكمت رأيك فاحكم فأحسن وجهه في الوری وجهه محسن وأيمن كف فيهم كف منعم وأشرفهم من كان أشرف همه وأكبر إقداما على كل معظم ثم يعود أبو الطيب بعد هذه الحكمة التي طيها ما ترى من هفوات إلى التعريض بالفراق:

عجبت لمن له قد وحد وينبو نبوة القضم الكهام

هذا سيف الدولة، لذكر القدر ولم يكن لكافور من قد، ولذكره الحد والحد للسيف الماضي. والقضم الكهام هو السيف الرديء، به تقليل من رداءة حديدته، وكهام أى غير قاطع.

ومن يجد الطريق إلى المعالي فلا يذر المطي بلا سنام

هذا عنى به نفسه، إذ هو صاحب الأسفار. وفي هذا من قوله ما زعمنا من التعريض بالفراق والتهديد.

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

هذا عنى به كافورا، والدليل على ذلك قوله «في عيوب الناس» ومن قبل قد قال: «ولما صار ود الناس خبا» والرواية التي رووا سواء أصحت أم لم تصح تشهد بأن المعنى بالناس ثم هو كافور، فذلك ينساق على معناها أيضا في هذا البيت. ودليل آخر ما كان يتوهمه أبو الطيب في كافور من القدرة على أن يهبه ضيعة أو ولاية وأن يجعله

سيدا على مصر ثم على الناس جميعا - أليس يقول له :

لك الحيوان الراكب الخيل كله وان كان بالنيران غير موسم
وهذا الذي يرى فرسان كافور وأجناده وعظماء دولته جميعا هم الحيوان الراكب
الخيـل ، ماذا عسى ان يكون رأيه في كافور نفسه ؟
هذا آخر القسم الاول .

ويبدأ القسم الثاني من عند قوله : « أقمت بأرض مصر » . وهو من عزيز الحكمة
جاء فيه بوصفه الباهر التأمل للحمى :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تخب بي الركاب ولا أمامي

هنا وثبة بيانية وثبها من عند قوله « ولم أر في عيوب الناس البيت » . إذ تقصير
كافور عن التمام أنه خام دون الثقة به وتبليغه ما كان يؤمله منه أو بعضه من تنويل
ضبيعة أو ولاية . والذي سأله أبو الطيب ليس ببعد أن يعطاه شاعر فقد ولى أبو تمام
بريد الموصل . فكأن أبا الطيب بهذه الوثبة يلفتنا الى ما آلت إليه حاله من السقم بعد ما
كان له من تأميل عند قادر مستطيع تحقيقه ، ولكنه عجز عن ذلك - وهذا يا للأسف
من عيوب طبيعة البشر .

ولعلك أيها القاريء الكريم قد ترى كيف صار ما كان أوجزه أبو الطيب في
معاتبته سيف الدولة إذ قال :

واحر قلباه عن قلبه شـبـم ومن لجسـمي وحالي عنده سقم

ههنا مفصلا مشروحا .

ضعف أبي الطيب وحسرتة عند كافور ، ذلك الذي أحوجه الى شرحه سقم جسمه
وحاله ، شرحا مفصلا يستدر به عطف هذه القلوب القاسية .

وملني الفراش وكان جنبي يمل لقاءه في كل عام

قليل عائدي

ولو كان أثير المكان عند دولة كافور لكان عواده قد كثروا

..... سقم فؤادي

هذا كأنه تكرر لقوله من قبل «واحر قلباه»

كثير حاسدي ، صعب مرامي

هنا انتفاضة مما سبق مما كأنه قد استكان به .

ولكن أبت الحمى إلا أن تضـرعه :

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

هذا يدل على أنه هذي . وقد كانت قلة العواد بهذا له رحمة ، إذ لم يكن هذيان مثله
ليسلم من معاني ما أخذ فيه بعد من مسالك الهجاء المقذع المر . قوله شديد السكر هو
شاهد الهذيان ، وحى الورد - وهي التي يقال لها الآن الملاريا - مما يكون معها الهذيان .

وزائري كأن بها حياء فليس تزور الا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
وكذا تفعل حى الورد

يضيق الجلد عن نفسي وعنهما فتوسعه بأنواع السقام
من فتور وصداع وانقباض نفسي وصنوف أوجاع

إذا ما فارقتني غسلتني كأننا عاكفان على حرام

انتقده بعضهم بأن الحرام ليس بأخص أن يغتسل منه من الحلال وأحسن ابن
الشجري الدفاع عنه إذ قال وإنما خص الحرام لأنه جعلها زائرة غريبة ولم يجعلها زوجة
ولا مملوكة . [انظر شرح البرقوقى ٤ - ٢٧٦ / ٢٧٧ - الهامش] قلت أفسد ابن الشجري
احسانه شيئاً بذكره الزوجة والمملوكة . وقد أعلمنا أبو الطيب أن زائرتة هي الحمى بقوله
كأن بها حياء ، ولا حياء لها إذ ليست مما يوصف بذلك ولما صار الى ذكر العرق وانها
غسلته به ، رد ذلك الى معنى الزائرة ، ولا يكون الكلام إلا كما قال : كأننا عاكفان على
حرام " ومفهوم " أنها زائرة مجازية ليست بعاكفة معه على شيء غير هذا السقم الذي
هذه صفته . فذكر الزوجة والمملوكة هنا لا معنى له . ونقد من نقده بأن الحلال ليس
بأخص من الحرام . تافه باطل .

كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام

وهذا تأكيد للمعنى التشبيهي المتقدم - لما جعلها غاسلة له ، وذلك لامتناع
قيامه ، جعلها باكية لفراقه وذلك لشدة شغفها به ، وقد تقدم قوله : « فعافتها وباتت في
عظامي » . ولما جعل لها بكاء المحب الشديد الشغف ومن قبل قال : " كأننا عاكفان على
حرام " صح أن يصف نفسه على وجه التشبيه ، بحال المشتاق ، وإن كان حقاً ليس
بمشتاق ولكن مترقب أمر محتوم ليس منه من مفر .

أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك في الكرب العظام
وكم ألقاه صدقه هو في الكرب العظام .

وقد ترى كيف مزج نعتة الحمى بالحكمة ، بل نعتة نفسه من الحكمة
وهذا آخر التخصير . ويبدأ القسم الثالث من بعد وأوله مخاطبة الحمى ، مع
التزام مذهب الأوائل في جعلهم بداية هذا القسم بالذكرى وإتباع ذلك ما يناسبها من
أغراض البيان كما رأيت من قول علقمة .

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم والقوم تصرعهم صهباء خرط
وقول امريء القيس :

وقد أغتدى والطير في وكنائها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
وما أشبه ذلك .

قال أبو الطيب :

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام

عندي كل بنت هو موضع الذكرى ، وما جعله بمنزلة «قد أشهد» وقد
أغتدى» وهلم جرا

جرحت مجرحاً لم يبق فيه مكان للسيوف وللسهام

وهنا موضع تمنى الخلاص منها والشفاء والنجاة والانطلاق والحرية والفراق :

ألا ياليت شعري أي أتمسي تصرف في عنان أو زمام

فقد سوى بين الخيل والإبل كما ترى ، ثم عول من بعد على الإبل ، خلافا لما زعم
ابن رشيقي من إثارة الخيل :

وهل أرمي هواي برقصات محلاة المقادير باللغام

فربما شفيت غليل صدري بسير أو قنائة أو حسام

وضاقت خطة فخلصت منها خلاص الخمر من نسج القدم

وفارقت الحبيب بلا وداع وودعت البلاد بلا سلام

يجوز أن يكون مراده بالحبيب معنى ما درج عليه من الكناية عن الممدوح
بالمحبيب . ويجوز - والله تعالى أعلم - أن يكون له حبيب بحلب فارقه بلا وداع . وقوله
بلا سلام : أي خائفا محارباً .

هذا وفي البائية «أغالب فيك الشوق» ما يفيد أنه ترك وراءه أسرة وأهلاً :

أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مغرب
 وأستبعد أن يكون يعني هؤلاء . فمن زعم أنه أحب امرأة بعينها بحلب من آل
 سيف الدولة فربما احتج بهذا البيت . وهذا أيضا مما استبعده .
 وعسى بعضه أن يكون مرده الى روح " رومنسية " عصرنا الحديث .

يقول لي الطبيب أكلت شيئا وداؤك في شربك والطعام

عاد إلى معنى " بنت الدهر " التي خاطبها قبل

وما في طبه أني جواد أضرب جسمه طول الحمام

ولعل أبا الطيب لو رأى عصرنا هذا الحديث أن يعجب لغلو الطب الآن في
 كراهية طول الحمام والنصح بالرياضة البدنية ولعجب من كثرة من يهرولون كل صباح
 من غير دواعي العجلة خوفا من أن يفاجئهم الموت إن لم يفعلوا ذلك .

وما في طبه أني جواد أضرب جسمه طول الحمام
 تعود أن يغبر في السرايا ويدخل من ققام في ققام
 فأمسك لا يطال له فيرعى ولا هو في العليق ولا اللجام

لعل ابن رشيقي أن يقول - لو أمكنه ذلك - إن مما يدل على إثارة أبي الطيب الخيل تشبيه
 نفسه بالجواد هاهنا ولم يشبهها ببيكر أو فنيق . ويرد على مثل هذا أن التشبيه بالجواد في
 باب هذا المعنى الذي قصد إليه أصح .

وإذ قد وضحت لأبي الطيب أسباب علته وسقمه ، فإن ذلك أول سبيل الشفاء :

فإن أمرض فما مرض اصطبأرى وإن أحرم فما حم اعتزامي
 وإن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

الأمل كل الأمل في البيت الأول . ومع الأمل انتفاضة العزم والتصميم . ولكن البيت
 الثاني فيه التأمل ومع التأمل الأسى واستشعار مأساة المصير - وقد صدق ما سلم من
 حمام الحمى إلا الى حمام مقتله بدير العاقول :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجاء

ومعنى تشبيه الموت بالنوم مما يدور في الشعر - ومقال شكسبير على لسان هامليت

(٣ - س ١ - س ٥٣ - ٦١)

To die: to sleep

No more; and by a sleep, to say we end

The heart ache....

« إنما الموت كالنوم ليس غير، أليس بالنوم تنتهى أوجاع القلب .
لا يخلو من شبه بقول أبي الطيب هاهنا، وكثرة التشابه فيها نوع من الدلالة على أخذ
المتأخر من المتقدم

تمتع من سهـاد أو رقـاد ولا تأمل كرى تحت الرجـام
أى القبر

فإن الثـالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

وكونه مختلفا عن المنام هو ما أراده الشاعر الانجليزى شكسبير بقوله: « ٣ - ١ - س ٦٥ »

To sleep: perchance to dream:ay,there's the rub

« منام وربما أحلام، أمر ما هنالك .

ومع أن مثل هذه المعاني مشترك بين البشر، مع ذلك لا نشك في أن شكسبير بلغه من
علم آداب العربية في شعرها ونثرها وفي شعر أبي الطيب خاصة ما ولد منه كثيرا من
محاسنه أو أخذه أخذا .

قول أبي الطيب " فإن لثالث الحالين معنى " ، ليس منشأه من فلسفه قلب زنديق أو
نزعة إلحاد، ولكنه من باب الفطنة والحكمة والتأمل والموعظة الحسنة مع ما يلابسه من
حزن الشك العميق . فقل هذا من قبيل النزغ الذي نزل فيه قول الله تعالى: « وإما
ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم » .

وقد جاء أبو الطيب بهذا المعنى الموجز جدا ههنا أكثر تفصيلا في قوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
أى الهلاك

فقل تخلص نفس المرء سـالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا وغايتها أقامه الفكر بين العجز والتعب
وهذه الخاتمة أنسب للرثاء . وقوله :

تمتع من سهـاد أو رقـاد ولا تأمل كرى تحت السرجام
فإن لثـالـث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

وقد أدخل شكسبير من معنى هذين البيتين مع قوله « الدهر يعجب من حمل نوائبه »^(١)
في كلمته : (هامليت ٣ - ١ س ٧٦ - ٨٢)

Who would fardels bear,
To grunt and sweat under a weary life,
But that the dread of something after death,
The undiscover'd country from whose bourn
No traveller returns, puzzles the will,
And makes us rather bear those ills we have
Than fly to others that we know not of ?

من كان سيحتمل الأعباء
ويزحر ويعرق تحت نصب العيش
لولا المخافة من شيء يكون بعد الموت
الدار التي لم تكتشف ولا من حدودها
عاد مسافر، هي التي تحير الإرادة
وتجعلنا نؤثر ما عندنا من شرور
على أن نفر إلى شرور أخرى لا نعلم أمرها .
ولا يخفى أن نظام الشعر الانجليزي المرسل أدنى بإطنابه إلى نشر الرسائل والمقامات منه
إلى طريقة إيقاع جزالة شعر العرب - وهذا المعنى قد ذكرناه مرات من قبل ، « وعلى الله
قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين »

فصل ملحق بما يقع من تشابه أشكال القصائد

سبق الحديث عن الرثاء وعن الوصايا . ورب قائل فلم لا نجد لذلك من مثال بين
السبع الطوال والعشر الطوال . وقد يجاب عن هذا بأن العرب اكتفت في هذا الباب بما
اشتهر من المراثي مثل كلمات الخنساء وجنوب وأعشى بأهله وأوس بن حجر
ومتمم . وفي الوصايا بما أثور ما جاء من ذلك في شعر ذي الأصبع وعبد بن الطبيب
ولامية عبد قيس بن خفاف البرجمي .
ومع ذلك يحسن أن ننبه ههنا على أن المعلقات قد جاءت فيهن أبيات من غرض الرثاء

(١) انظر حديثنا عنه من قبل والهامش أيضا

ومن غرض الوصايا أو مدانية لذلك .
في معلقة طرفة ذكر الموت ومعاني الرثاء مصرحا بهن في قوله :

إذا مت فاتبعيني بما أنسا أهله وشقي علي الحبيب يابنة معبد
ولا تجعليني كامرىء ليس همه كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي
بطىء عن الجلى سريع إلى الخنى ذلول بأجماع الرجال مهلد
وله كما تعلم أبيات في الموت تجرى مجرى عظام الرثاء

أرى قبر نحام بخيل باله كقبر غوى في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينقد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثياه باليد

وفي كلمة عبيد عظام تجرى هذا المجرى ، وقد ختمها بافتراس العقاب الثعلب ومع أن
هذا جاء به على مذهب الشعراء في تشبيه فرسه بالعقاب ، روحه في جملتها روح حزن ، إذ
إنما جاء به في معرض الذكرى وتوجس دنو الموت .

وكلمة زهير تجرى مواضع الحكمة منها مجرى الوصايا . وليس يقدح في قولنا هذا أن
جعلنا الوصايا في جملتها بابا من معدن المراثى . فهذا هو الأصل ، إذ الوصية أكثر ما
تكون عند الموت . ثم جرت الأسفار وما أشبه من أحوال المفارقة مجرى الموت . ثم
صارت الوصية من باب الحكمة ومن باب النصيحة وكأنها أمر مستقل بنفسه . وقد
جعل أبو تمام وصية يزيد بن الحكم الكلابي :

يابدر والأمثال يضـ ——— ربهما لذي اللب الحكيم

في باب الأدب وهو الثالث في ترتيب أبواب كتاب الحماسة .

والحق أن قول زهير

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو وما هو عنها بالحديث المرجم

إنما هو وصية وإن يك قد سماها رسالة .

وقد ذكر عنتره الوصية في قوله :

ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
والحرب فيها مقاربة الموت .

ومما يدل على ملابسة الموت للوصية قوله تعالى : (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . . .) وقال تعالى : «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف . . . » وقال تعالى : «وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله الآيات» وعند الوالد أنه أدنى إلى الموت من ابنه . وقوله تعالى : «يوصيكم الله في أولادكم . . . » والله حي لا يموت ولكن أمر الفروض ملابس للموت وللميراث ، وكذلك أمر الإنسان كله عند الله عز وجل : «ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا أو «حسنا» (قراءتان) «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون» . . . لعلكم تذكرون (بتشديد الذال وتخفيفها) لعلكم تتقون . . . آيات الأنعام .

وأدب الوصايا في العربية كثير . يوصي الآباء الأبناء ، وسادة القوم عشائرتهم والأمهات بناتهن وكذلك الآباء . وفي كتاب الأمالي من ذلك أمثلة جواد . والمتأمل لمسرحيات شكسبير واجد فيها وصايا كثيرة ، مثل وصية يولييسيس لأخيل «ترويليس وكريسيدا ١ - ٣ - ٣» ومثل وصية بولونيوس لابنته (١ - ٣ - ٣ س ١٢٠ - ١٢٤ . . .) ولابنته (١ - ٣ ص ٦٦ - ٨١) وهذه الوصية من مشهور كلامه ومما يختار ويحفظ وفيها مشابهة قوية من بعض ما جاء في كلمة عبد قيس بن خفاف البرجمي وهي في المفضليات وأوردها صاحب اللسان كاملة وأحسب أن حبيبا لم يوردها في حماسه لشهرتها إذ ليس يخفي عن مثله مكانها :

أجيب إن أباك كارب يومه فاذا دعيت إلى المكارم فاعجل

كارب يومه أي دنا ، وهذا سبب الوصية . وقال بولونيوس Polonius وكان صاحب حجاب الملك ومن وزرائه يعظ ابنه ويوصيه وهو يودعه ما معناه «اذهب مع مباركتي لك وهذه الكلمات القلائل من وصيتي خطهن في قلبك خطأ» (انظر هاملت الفصل الأول المنظر الثالث) .

أوصيك إيصاء امريء لك ناصح طبن بريب الدهر غير مغفل
فهذا ونحوه مما يقع في كثير من كلام أهل الحكمة عند وصيتهم البنين ومن

بمنزلتهم ممن يهملهم أمره . وقول بولونيوس الذي قر بنا تعريبه أنفا

... There my blessing with thee!

And these few precepts in memory

Look thou character.

والله فاتقه وأوف بنذره	وذا حلفت مـاريـا فتحلل
والضيف أكرمـه فإن ميته	حق ولاتك لعنة للنـزل
وأعلم بأن الضيف مخبر أهله	بميت ليلته وإن لم يسأل

وهذا من صميم أدب العرب ، أعنى قرى الضيف وميته .

ودع القوارص للصديق وغيره	كيلا يروك من اللثام العزل
وصل المواصل ما صفا لك وده	واحذر حبال الخائن المتبدل

وقد كشف ما تضمنه هذان البيتان من ثمين المعاني صالح بن عبدالقدوس حيث قال في موضع من بائيته الطويلة الزينية :-

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا	إن الكذوب يشين حرا يصحب
واحذر مصاحبة اللثام فإنها	تعدي كما يعدي الصحيح الأجرب
إن القلوب إذا تنافر ودها	مثل الزجاجـة كبرها لا يشعب
إن العدو وإن تقادم عهده	فالحقد باق في انصدور مغيب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة	ويروغ منك كما يروغ الثعلب
وقال أبو الطيب :	

لا يخذعنك من عدو دمعـه	وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى	حتى يراق على جوانبه الدم
يؤذى القليل من اللثام بطبعه	من لا يقل كما يقل ويلـم

أي أذاه للعدد الكثير على مقدار عظم لؤمه وجسامة خساسة قدره وقلته . أي كلما كان أقل والأم كان أذاه أكثر وأشد .

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذاعفة فلعلـة لا يظلم

والذل يظهر في الذليل مودة وأود منه لمن يود الأرقم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

فهذا جار مجرى النصيحة والوصية - وقال البرجمي ، وإنما ذكرنا أبيات أبي الطيب
هذه لما فيها من معنى الصداقة ، وتناول أبي الطيب له كثير :-

واترك عمل السوء لا تحلل به وإذا نبا بك منزل فتحول
دار الهوان لمن رآها داره أفراحل عنها كمن لم يرحل

فكيف إذ ضرب الهوان بجرائه في كل دار . قال تعالى جل من قائل : «إلا
المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا»
وقال عبد قيس :

وإذا هممت بأمر شر فاتتد وإذا هممت بأمر خير فافعل
قال الضبي - أي أبو عكرمة - هذا مأخوذ من قول ليبيد :
واكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل
غير أن لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر لله الأجل

قال الشارح واخزها يعني سسها يقال قد خزاه الله يخزوه قال الشاعر :
«ولا أنت ديان فتخزوني» - قلت يجوز أن يكون الضبي قال ما قال يريد به محض
المشابهة ، وإلا فعبد قيس بن خفاف البرجمي من معاصري نابغة بني ذبيان وحاتم طي
وليبيد بعد زمانها ، إلا أن يقال قد طال عمر ليبيد ، وليس ذلك بدافع ما تقدم .
وقال شكسبير على لسان بولونيوس بعد الفاتحة التي مضى ذكرها :

Give thy thoughts no tongue
Nor any unproportion'd thought his act
Be thou familiar ; but by no means vulgar ;
The friends thou hast and their adoption tried
Grapple them to thy soul with hoops of steel ;
But do not dull thy palm with entertainment
Of each new - hatch'd ; unfledg'd comrade. Beware,
Of entrance to quarrel, but being in
Bear't that th' opposed may beware of thee.
Give every man thy ear, but few thy voice ;
Take each man's censure, but reserve thy judgement.

لا تعط آراءك لـ_____انـ_____
ولا رأيـ_____ا غير محص فعلـ_____
عليك بالآلفة، ولكن إياك والابتذال
اصدقـ_____اؤك الذين بلوت مودتهم
نظهم إلى نفسك بأطواق من حديد
ولكن لا تكلن راحتك بـ_____استطـ_____راف
كل حديث انفلاق الصحبة عنه أزعروا حذر
الـ_____دخول في الشر ولكن متى كنت فيه
فـ_____اثبت لـ_____ه، لعل الخصم يخشاك
أعط كل امرئ سمعك، وقليلاً منهم صوتك
خذ من كل حديث خلاصته، واحتفظ بحكمك

لعل القارىء أحس شبهها بين قول بولونيوس شكسبير «ولا رأياً محصاً فعله» وما مر
من كلام عبد قيس «وإذا هممت بأمر شر فاتتد» - وانظر بعد قوله :

وإذا أتتكَ من العدو قـ_____وارص فاقـ_____رص كذاك ولا تقل لم أفعل -

فهذا مشبه لقوله واحذر الدخول في الشر

وإذا افتقرت فلا تكن متخشعا ترجو الفواضل عند غير المفضل

وصاحب شكسبير ينهى ابنه أن يسلف أو أن يستدين في قول له من بعد
Neither a borrower, nor a lender be

"لا تكن آخذ دين ولا مسلفه"

وكلام عبد قيس ذو عموم وكلام بولونيوس أشبه بطبيعة الطبقة التي منها هو وابنه على
زمان شكسبير.

وإذا لقيت القوم فاضرب فيهم حتى يروك طلاء أجرب مهمل

هذا أشبه بقول صاحب شكسبير «ولكن متى كنت فيه فاثبت لعل الخصم يخشاك»

واستغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

أى استغن عن الناس إذا اغتنتيت من غير تضييع غير للحقوق . وهذا البيت غير جد بعيد عن معنى النهي عن التسليف وعن الدين

واستأن حلمك في أمورك كلها وإذا عازمت على الهوى فتوكل

وهذا مقارب لما نصح به بولونيوس من الإصغاء وتأجيل الحكم حتى يتبين أمره .

وإذا تشاجر في فؤادك مرة أمران فاعمد للأعف الأجل
وإذا لقيت الباهشين إلى الندى غبرا أكفهم بقــــــــــــــــاع محل
فأعنتهم وإيسر بما يسروا بــــــــــــــــه وإذا هم نزلوا بضنك فانزل

وهذا من آداب مجتمع العرب . وفي كلمة شكسبير عما لم نذكره ما يقابله من آداب مجتمع الافرنج من هيئة الزي وإظهار يسار الحال من غير تباه بذلك .

هذا وليس الأرب من إيراد كلمة عبد قيس وما استشهدنا به من كلام شكسبير الموازنة في باب الأخذ والسرقات والتوليد وما يجري هذا المجرى من تشابه ألوان البيان وخواطره .

وإن كان ذلك مما لا يخرج عن أربنا كل الخروج . ولكننا إذ نحن بمعرض الحديث عن أشكال القصيد أردنا أن نتساءل ، هل لنا قد أن يعد كلام شكسبير على لسان بولونيوسه هذا قطعة شعر غنائي؟ وظاهر أن الجواب نفي إذ هذه قطعة من مسرحية معروفة .

أفسنخ كلام بولونيوس هذا من حيث هو نصيحة وخطاب حكيم مختلف عن سنخ كلام عبد قيس ، وما استشهدنا به من كلام صالح بن عبد القدوس وأبي الطيب؟ فلماذا يعد كلام هؤلاء غنائيا؟

الفرق في طريقة التناول . الشاعر العربي مكافحنا لا يحجبه حجاب . وقد وضحنا القول وفصلناه من قبل أن هذه المكافحة ليست بالغناء (بمعناه النقدي الاصطلاحي الأفرنجي) ولا ينبغي لها أن يلتبس أمرها بأمره . الأديب الأفرنجي والرومي واليوناني من قبل كل أولئك يستتر مستترهم وراء المسرحية و وراء الملحمة فلا يكافح مكافحة صارحة وقولهم غنائي (ليريك بالمعنى الاصطلاحي) لا يعنون به الغناء والترنم وما هو من هذا الباب من الموسيقى . فهذا أبدا ملازم للشعر . وقد كانت مسرحيات يونان فيما ذكر تصحبها الموسيقى والغناء . ومسرحيات شكسبير فيها الخطب والأسجاع والمرسل المزودج والقطع الرنانة الوزن من الأغاني . الشعر - كما قال سيويوه - وضع

للغناء والترنم . وهو كما قال الفارابي رئيس الهيئة الموسيقية . من أجل ذلك الشعر موزون . والقافية عندنا من الوزن طرف . والإيقاع والبيان وضروب الأشكال كل ذلك مذاهب وأداء والله أعلم وهو الموفق للصواب .

أسلوب المقالة : تمهيد «أولا: -

نبه الدكتور طه حسين رحمه الله في «من حديث الشعر والنثر» إلى أثر الشعراء على الكتاب . كما قد نبه على أثر أساليب الشعراء من قبل على أساليب الكتاب ، حتى صارت كثير من الأغراض التي إنما كانت للشعر يتناولها الكتاب . وقد عرضنا لجوانب من هذا كله في معرض الحديث عن الرومي .

وقد ذكرنا أن ابن الرومي قد اتبع في الذي صنعه مذاهب أبي تمام كما اتبع أساليب أهل ضروب البيان من كتاب وخطباء من قبل . وقد ذكرنا أن بشارا أبا المحدثين قد كان خطيبا متكلميا كما قد كان شاعرا وراجزا .

والقارىء أصلحه الله يذكر ما قلنا عن أطوار قصيدة المدح وما أشبهها كيف لما كسدت أخذ الشعراء في مسالك من النظم كالمقامات والألغاز والأوصاف البديعية الزخارف ، حتى نهضت قصيدة المدح النبوي فكانت هي سيدة مجال الشعر - إلى أن أحدثت بنا غوائل العصر الحديث من تفوق أوروبا الحربي واستعمارها .

ثم جاء رواد النهضة فانعرجوا بما أفادوه من أوزان المدائح النبوية إلى نظم جديد نظروا فيه إلى أحوال دنياهم ، وجعلوا له نماذج من الشعر القديم يجرونها على أساليب بلاغته وبيانه . وكان أبو الطيب المتنبي رأس ما حذوا عليه أولا ذلك ظاهر في شعر الطهطاوى . ثم صير من بعد إلى الحذو على غيره : أبي تمام ، وأبي عبادة والقدماء من اسلاميين وجاهليين :

كانت المعلقات حيناً من الدهر لا تدرس ولا تحفظ لأنها شعر يحرك القلوب ولكن لأنها من متون العلوم ، شأنها في ذلك شأن ألفية ابن مالك من حيث رفعة المنزلة العلمية . وقد ألحقت البردة والهمزية وبانت سعاد بهذا الضرب من الرفعة أيضا . إلا أن ثلاثهن كان لهن مع ذلك حظ تغني المدايح بهن والذاكرين ، فكن بهذا في باب ما يراد له الشعر من تحريك القلوب أدخل .

كانت ديباجة الشعراء الذين انحرفوا بالفصيح الموزون المقفي من طريقه في المدحة النبوية إلى طريق دنيوي ، أول الأمر ضعيفة ، ثم جعلت تداخلها المتانة . وكان من أسباب ذلك النظر المتذوق للشعر القديم . وقد سبق أن ذكرنا ما كان للشناقيط العلماء

خاصة من تأثير في هذا الباب .

ثم جاء محمود سامي البارودي .

ولا ريب أنه أصاب ملكة الإيقاع والوزن من المديح النبوي . ولكنه عكف على الشعر القديم عكوف محب . وأتيح له من درس أساليب الجزالة ومن مختار بلاغات العربية حظ عظيم . ومختاراته تشهد بسعة اطلاعه وجودة نقده الشعر وتذوقه له . وقصيدة البارودي شكلها وديباختها كل ذلك عربي نقي أصيل .

بردة البارودي التي جاري بها البوصيري ليست من جياده . ومن عجب الأمر لم تكن للبوصيري ، وهو في الشعر قمة ، جياذ في ما نظمه للدنيا . فانظر كيف دار تأريخ الأدب دورة كان ناطقها عهد انتصار الإسلام على الصليبيين من لا يجيد حقا إلا في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام والدفاع عن الإسلام ، وكان ناطقها عهد تغلب خلفاء الصليبيين على أبناء المسلمين من لا يجيد حقا في هذا الباب ، ولكن في القريض الذي يجيش من قلب كقلب أبي الطيب ولسان من معادن النابغة وزهير وأمرئ القيس .

البارودي سيد "الرومانسية الحديثة" في الشعر العربي . الرومانسية اصطلاح أدبي عصري أخذناه من الافرنج . ومعناه الوجدانية أو وجدانية الاسلوب . وصدق "برتراندرسل" إذ زعم أن كل الشعر الجيد لا بد فيه من "الرومانسية" إذ كل الشعر الجيد قلبى الجوهر وجدانيه . غير أن الوجدانية الاصطلاحية – التي هي الرومانسية – يدخل فيها مع الوجدان نوع من التكلف له والغلو فيه والتواجد به . البارودي من كل ذلك برىء .

قال الدكتور محمد صبري السوربوني رحمه الله في كتاب له اسمه «أدب وتأريخ» (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة – الطبعة الثانية – سنة ١٩٢٧ ص ١٩) : «نشأ البارودي في بيت مجد مؤثر ، هو ابن حسن بك حسني الذي كان من أمراء المدفعية ثم صار مديراً لدنقلة وبربر على عهد محمد علي باشا ، ابن عبد الله بك الجركسي ينتهي نسبه الى المقام السيفي نوروز الأتابكي أخي برسباي قرا المحمدي . والترك والجركس هم آخر طبقة من الغرباء وفدوا الى مصر واتخذوها وطناً وتوالدوا فيها فأصبحوا «مولدين» – روى صاحب الهلال أن البارودي كان شديد الحرص على معرفة نسبه وأنه

بذل نحو ٣٠٠٠ جنيه في سبيل البحث عنه في أنحاء القطر ومراجعة النصوص وغير ذلك . ولد صاحب الترجمة بسراي باب الخلق لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٥٥ هجرية وفي سنة ١٢٦٢ . توفي والده بناحية دنقلة وكان عمره اذ ذاك سبع سنين وفي ذلك يقول لما ناهز العشرين :

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادي طاح الردى بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الأقران صولته ويتقي بأسه الضرغامه العادي
مضى وخلفني في سن سابعة لا يرهب الخصم إيراقي وإرعادي
فإن أكن عشت فردا بين أصرتي فهأنذا اليوم فرد بين أندد

هذا الشعر كما تراه متين محكم النسيج نظمه في سن صغيرة ، فما سر هذه القوة التي تجلت قبل الأوان في عصر مقفر من الشعر الجيد؟ أهو في تربيته القومية أم في طبعه واستعداده .

شرع محمود سامي في سن الثامنة يتلقى مبادئ العلم على اساتذة كانت تحضر في منزله ودخل سنة ١٢٦٧ هـ أي في سن الثانية عشرة مدارس الحربية وتخرج منها برتبة باشجاويش سنة ١٢٧١ في أوائل تولية سعيد باشا ، وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة ويقال انه كان يتعاطى صناعة الشعر في أثناء دراسته . أما تربيته الأدبية فإليك ما قاله عنه الشيخ حسين المرصفي في الوسيلة الأدبية وكان من أعرف الناس به : «محمود سامي البارودي» لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد في طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن . . . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدًا شريفها من خسيسها ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء . « ١ . هـ قال ابو العلاء المعري في رسالة الغفران بمعرض الحديث عن بيت لبید :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

على لسان ابن القارح يسأل لبید : « هل أردت ببعض معنى كل ؟ فيقول لبید : كلا إنما أردت نفسي . وهذا كما تقول للرجل إذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا وأنت تعني نفسك في الحقيقة وظاهر الكلام واقع على كل إنسان وعلى كل فرقة تكون

بعضاً من الناس .١٠ (ص ٢١٦ من تحقيق ابنة الشاطيء ، مصر، دار المعارف ١٩٥٢م).

مقال الموصفي الذي نقله السوربوني^(١) رحمها الله فيه «بعض من له دراسة» وما أرى الموصفي أراد غير نفسه . ولتعم كان حظه من التوجيه إن كان صاحب الوسيلة قد تولى جانباً من ذلك من أمره .

قال السوربوني (ص ٢٢ من أدب وتاريخ): لم يكن عصره يساعد على تكوين ملكة البلاغة لأن حامل لواء الشعر إذ ذاك محمود صفوت الساعاتي الذي أعقب الدرويش ، حدثني المرحوم حفني بك ناصف مرة أن أجود قصيدة نظمت في عهد محمد علي هي القصيدة التي مطلعها :

يا آل طه عليكم حملتي حسبت إن الضعيف على الأجواد محمول

والتي ما زال إلى اليوم بعض سكان الريف يحفظونها ، وكان الليثي والنجاري والأبياري والنديم ورفاعة وأبو النصر وغيرهم من معاصري الساعاتي مولعين بالبدیع محتذين مثل البهاء زهير وابن خفاجة وغيرهما من المتأخرين الذين ليسوا من حلبة هذا الميدان . أما فيما يتعلق بالورثة فقد قال البارودي :

أننا في الشعر عريق لم أرثه عن كلاله
كان إبراهيم خالي فيه مشهور المقالة
وسما جـدي علي يطلب النجم فناله

لا أظن أن خال البارودي كان شاعراً يمتاز عن أهل عصره ، ولكن لعل البارودي وجد فيه مشجعاً على قول الشعر كما وجد في المعالي التي يفخر بها ، وفي معاهد العز والشباب التي درج فيها . ولكن هذا لا يكفي لأن يبرز شاعر غض الإهاب على معاصريه ثم يجري على غاربه حتى يلحق بفحول المتقدمين قبل أن يطوي برد الشباب . إذن كان سر قوة هذا الشاعر في طبعه ، وكانت في قرارة نفسه عين كامنة ما

(١) ليست «السوربوني» في نص نسبة الكتاب إلى مؤلفه ولكن بعد اسمه «الحائز لدكتوراه الدولة في الآداب مع الشرف من السوربون ، استاذ التاريخ الحديث بدار العلوم (ا. هـ) . قلت لقيته رحمه الله باسكندرية في مؤتمر ذكرى حافظ إبراهيم سنة ١٩٥٧ في شهر يوليو وتحدثت إليه رحمه الله كثيراً وكان مما يقال له السوربوني .

ورأيتها في بعض ما كتب أظنه الشوامخ وخبرني الدكتور مكّي شيكة رحمه الله وكان له معاصراً أن هذه النسبة كانت تعجبه كما كان يقال لأهل العلم الأزهرى مثلاً ولقد كان رحمه الله ، عظيم الحيوية ، طيب الحايث حق مفيد به . ولقد كان لقائية كُتباً ومن نعم الله التي لا تكفر . رحمه الله الرحمة الواسعة .

لبثت أن وجدت منفذا ضئيلا فتفجرت بالسحر الحلال ولم ينضب، روى الأستاذ خليل مطران في فصل رائع: «لقد تساحت يوما بدالة الود فسألته أية حال من أحوال حياتك كنت فيها أميل إلى الشعر وأكثر اشتغالا به، فأجابني أن خطرات الشعر صحتني في أيامي كلها ولم تفارقني إلا في أقلها». ١. هـ.

قلت، ليت شعري هل حسب مطران البارودي صناعا مثله؟ وإذن لكان أجابه، أخذا من كلام ابن قتيبة، يوم شرب الدواء، ويوم المنفى. وصدق مطران لقد تسامح بأيا دالة حين سأل. وصدق البارودي في الجواب، وكان صدوقا.

قوهم البارودي نسبة إلى محلة بمصر يقال لها إيتاي البارود «إحدى بلاد مديرية البحيرة، ذلك أن أحد أجداده الأمير مرادا البارودي بن يوسف شاويش كان ملتزما لها، وكان كل ملتزم ينسب في ذلك العهد إلى التزامه» - كما في مقدمة ديوانه بقلم محمد حسين هيكل باشا (طبعة دار المعارف ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ص ٦).

بلغني أن كتابا صدر رسالة في إحدى جامعات مصر، عن نشأة البارودي فلعله يضيء لنا بعض السبيل عن أوائل تعليمه، فإن في النفس شيئا من أن يكون بدأ التعلم بعد موت أبيه كما هو أول ما يتبادر من ظاهر ترجمة السوربوني رحمه الله له. وكما في مقدمة الديوان (ص ٦) حيث قال: «مات أبوه بدنقلة وهو في السابعة من عمره فكفله بعض أهله وضمموه إليهم وقد تلقى في بيتهم دراسته الأولى من الثامنة إلى الثانية عشرة من عمره ثم التحق بالمدرسة الحربية ١. هـ - قلت بعيد جدا أن يكون أبوه وهو مدير دنقلة وبربر ومن بيت فضل وسراوة عريق أن يغفل عن قرآن ابنه في السن التي يؤخذ فيها الصغار بذلك. لعلهم حين يبلغون السابعة - وذلك حين يؤمرون بالصلاة ويضربون عليها - يكونون قد حفظوا من المفصل قدرا صالحا. وقد كانت في دنقلة وبربر خلاوي (أي كتاتيب) قرآن.

وكان في بربر فقهاء على المذهب الشافعي وهو مذهب أهل مصر الغالب، وقرأة لهم علم بالتجويد من طريق الشاطبية وغيرها. فما يبعد أن يكون أبوه وقد كان حاكما قادرا على ذلك، يستقدم منهم إلى داره، أو يبعث بابنه إلى بعضهم في الخلوة مع خادم

يحرسه . وهذا الوجه أقرب وأشبه ببداوة أحوال تلك البلاد وذلك الزمان . مهما يكن من الأمر، فإنه بعيد كل البعد أن يكون أبواه أهملاه لا يقرأ ولا يكتب حتى السابعة . ورواية السوربوني التي روى عن حفني ناصف رحمة الله عليهما تفيد مثل ما قدمناه من غلبة المديح النبوي على الشعر إذ واضح أن :

يا آل طه عليكم حملتي حسبت إن الضعيف على الأجواد محمول

مدحة نبوية على روي بانث سعاد وبحرها .
ومجازاة البارودي للبردة منبثة بسماعه لها ، ويكون ذلك منذ أيام الصبا إذ كانت هي المدحة الكبرى المعروفة في جميع آفاق الإسلام .
وبردته كما قدمنا دون شعره . وله جيمية نبوية يشوب نضوع الديباجة فيها شوائب تكدره شيئا من أساليب الشعر التي لا تلائم روحانية التعبد والتوسل . وهذا ما حذرت منه الباعونية رحمها الله . ونظم البارودي المديح النبوي منبىء عن تأثره به في زمان باكر .
أول الجيمية التي أشرنا إليها :

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج حتى فتكت بها ظلما بلا حرج

ومما قال في نسيبها :

أبيت أرعى نجوم الليل في ظلم
كان أنجمه والجو معتكراً
يخشى الضلالة فيها كل مدلج
غيد بأخبية ينظرون من فرج
وهذا مما يقع تحت طائلة نقد الباعونية .
ثم هذا كأن قد ابتعد كل البعد عن القصد بمقدمته إلى المديح النبوي إذ أخذ في بعض مسلك هيام صناعة الشعراء :

ليل غياهبه حيرى وأنجمه
كأنما الصبح خاف الليل حين رأى
حسرى وساعاته في الطول كالحجج
ظلماء ذات أسداد فلم يلج
وهذا يذكر ببعض أضرب تعب المتنبي - وما أشبه أن يكون نظر في قوله كأنما الصبح
إلخ إلى قول أبي الطيب كأن الصبح يطردها وليس مما تعب أبو الطيب فيه - ولكن من
أمثلة تعبهم رحمه الله :

فليت من لامني لانت شكيمته فكف عني فضول المنطق السمج

ما أحسب البارودي كان يقدم على استعمال «السمج» لولا ما آنسه بها أبوقمام في قوله : «ساجة غنيت البيت» ونحو ذلك .

يظن بي سفهــــــــــــــــا أني على سرف ولايكاد يرى ما فيه من عوج
فاعدل عن اللوم إن كنت امرأ فطنا فاللوم في الحب معدود من الهوج

في قوله «الهوج» عناء ما . وقد اتبع سبيل النواصي حيث قال :
لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرجا فإن حظركه بالدين إزراء
ثم صار إلى خروج المدح النبوي .

هيهات يسلك لوم العاذلين إلى قلب بحب رسول الله عمتزج
هو النبي الذي لولا هدايته لكان أعلم من في الأرض كالهمج
وهذا مأخوذ من قول البوصيري ومخوذ عليه ، أعنى قوله :

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم
ولا يعجبني قوله «كالهمج» وهنا على استقامة معناه — ولا عجز البيت بأسره . تأمله :
لكان أعلم من في الأرض كالهمج

تجده منخفض الدرجة عن الديباجة العالية . وأتى البارودي من متابعة بيت البوصيري المتقدم ، وعجز ذلك قوي الارتباط بصدوره . وعجز بيت البارودي كأنه تعليق منفصم . وهذا يجعل نفسا من أنفاس الكلام العامي يوشك أن يخالطه . فذلك مما يكون قد قصر به . ثم يقول رحمه الله :

أنا الذي بت من وجد بروضته أحن شوقا كطير البانة الهزج
قوله «أنا الذي» من أبي الطيب ، وهو ظاهر . وقوله كطير البانة الهزج هل عنى به أنه كان يتغنى وهو ينظم من هذه الجيمية وينشد كإنشاد مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

وياليت شعري إذ يشتاق البارودي إلى الروضة الشريفة ها هنا ويمجن ، هل كان في صباه الأول ابن ست سمع بدنقلا أو ببربر أو بسواكن إذ يصحب أباه فقراء تلك البلاد ينشدون المدائح مما كان قد ازدهر ازدهارا وخاصة في هذه الأقاليم التي ذكرنا هل سمع مثلا :

لقد طال شوقي يا أميني لطيفة
تذكرت يا خلي ليالي ميّتنا
تهيج شوقي قبة النور وهي في
وإن لها نورا إلى العرش ساطعا
أشخصها طورا وطورا أناظر
بمسجدها والقوم باك وذاكر
ضياء له العافون شاموا وسامر
تشاهده أبصارنا والبصائر

صاحب هذه القصيدة توفي قبل مولد البارودي بسبع سنين أو نحوها وكان صيته قد
طبق الآفاق ومدائح تنشد في الأقاليم التي ذكرنا وكثير غيرها، وكان قد صنع للبيعة
بناحية سواكن مدائح بالعربية السهلة على أنغامها في صيد السمك فكانوا ينشدونها،
وأخذت عنهم فكانت بلا ريب تنشد في نواحي بربر. والله تعالى أعلم.

كان البارودي مثقفا بثقافة الضباط، وكانت من أعلى ضروب الثقافة الحديثة التي
يحصل عليها في ذلك الزمان. ومع الثقافة الحربية كانت الممارسة وأنه من طبقة الجاه
والرياسة. ثم مع ذلك سعة الاطلاع والعلم بالعربية القليل النظير. ثم ما من الله
عليه من تفتح آفاق النفس بتجارب السفر - فرأى مع بلاد الإسلام بلاد الكفر أيضا
وقد صحب اسمعيل باشا الخديوي الطموح وزار اصطمبول وفرنسة وانجلترا وخاض
غمار السياسة وتولى أعباء الوزارة. ثم مع هذا كله وفوقه كان شاعرا. شاعرا فارسا
كريبعة بن مكرم وكعنتر بن شداد وكعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب
وامرئ القيس وطفيل الغنوي وعمرو بن كلثوم جميعا، أم ليس هو القائل :

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره
تجري به الأرام بين مناهل
بمضممر أن كان سراته
هذا من قول طفيل :

وكمنا مدامة كأن متونها جزى فوقها واستشعرت لون مذهب

وأحسبه قد مر مع الكلمة التي هو منها في باب الأوصاف.

خلصت له اليمنى وعم ثلاثة
وكأننا انتزع الأصيل رداءه
منه اليباض إلى وظيف أجرد
سلبا وخاض من الضحى في مورد
هذا كقول الكلجة ويروى بعضه لسلمة بن الخرشب وكلاهما مفضل :

تسائلني بنو جشم بن بكر
هي الفرس التي كرت عليهم
أغراء العـرادة أم بهيم
عليها الشيخ كالأسد الكلم
أي هو الكلم أو نعت رد على الشيخ ولا إقواء

إذا تمضيهم عـادات عليهم وقيدها الرماح فما تـريم
تـعادي من قوائمهـا ثلاث بتحجيل وقائمهـا بهيم
كميت غير محلفـة ولكن كلون الصرف عل به الأديم
وقد تصرف البارودي فجعل الأصيل ومورد الضحى مكان «غير محلفة إلخ» ونظر من
طرف خفي إلى قول أبي الطيب «كأنه من الليل باق إلخ بيت البائية»
زجل يردد في اللهاة صهيله رفعا كزمزمة الحبي المرعد
هذا عجزه من بيت كعب :

من سره ضرب يجمع بعضه بعضا كمعمعة الأباء المحرق
وما خلا أوله من وحي من بيت طفيل : «وإن يلق كلب بين لحيه يذهب» وقد ترى
ذكره اللهاة ، فما بدت لهاته إلا لشحوه فاه ، فهذا قول طفيل .
متلفتا عن جانبيه يهزه مرح الصبا كالشارب المتغرد
فإذا ثبت له العنان وجدته يمشو كسيد الردهة المتورد
يشير إلى قول طرفة وليس هذا بأخذ ولا توليد ولا سرقة ولكن تلذذ وترنم
وإذا أطعت له العنان رأيته يطوى المهامه فدفدا في فدفد
يكفيك منه إذا أحس نبأه شد كمعمعة الأباء الموقد
يشير إلى بيت كعب والأخذ في الحذو الذي أشرنا إليه من قبل لا هنا .
صلب السنايك لا يمر بجلمد في الشد إلا رض فيه بجلمد
نعم العتاد إذا الشفاه تقلصت يوم الكريمة في العجاج الأبد
هذا يشير به إلى قول عنتره «إذ تقلص الشفتان البيت»

ولقد شربت الخمر بين غطارف شم المعاطس كالغصون الميد
هنا نغم عنتره وإيقاعه وإشارة إليه . رنة هذا البيت مثل رنة بيت عنتره :
ولقد شهدت الخيل يوم طرادها بسليم أوظفة القوائم هيكل
وأوله كأول قوله «ولقد شربت من المدامة البيت» - وفي أبيات البارودي من قبل «ولقد
شهدت الحرب في إبانها» . وسائر البيت من قول حسان : «شم الأنوف من الطراز
الأول» .

يتلاعبون على الكئوس إذا جرت لعبا يروح الجد فيه ويغتدى
لا ينطقون بغير ما أمر الهوى فكلامهم كالروض مصقول ندى
من كل وضاح الجبين كأنه قمر توسط جنح ليل أسود

هنا شريحان من أدب كئوس ضباط الحربية العصرية الأروية بعض السمات،
ومن أدب «وإذا شربت» و «إذا صحوت» وفتية كسيوف الهند» ذلك قد يستفاد من
قوله: " يروح الجد فيه ويغتدى " . وفي قوله , «لا ينطقون» رنة من إيقاع «لا يستفيقون
منها وهي راهنة» . وقوله: «ما أمر الهوى» يوقف عنده شيئا: أكان في المجلس نساء أم
هي أنفاس نواسية أم معاذ الله - بل لا يعدو أن يكون أراد الغناء من عود ونحوه، فهذا
الذي يأمر به الهوى في مثل هذا المجلس . وقوله «من كل وضاح» بحتري الصباغة
والرنة - قال أبو عباد:

وتراه في ظلم الوغى فتخاله قمرا يغير على الرجال بكوكب

ثم صار بعد مجلس الشراب إلى ذكر مغامرة الغرام . والقصيدة شبه مختصرة .
بدأها بخلط ذكر الهم بالرحيل من الأحباب وشكوى الصبابة وهو قوله :

ظن الظنون فبات غير موسد حيران يكلاً مستنير الفرقـد
تلوي به الذكرات حتى إنه ليظل ملقى بين أيدي العود
طورا بهم بأن يزل بنفسه سرفا وتارات يميل على اليد
وكانا افترست بطائر حلمه مشمولة أو ساغ سم الأسود
قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم خوف التفرق أن أعيش الى غد
هي بهجة ذهب الهوى بشغافها معمودة إن ثم تمت فكأن قد

هنا تروض الملكة القوية سبيل فض مكنون قلب الشاعر إلى ما يرومه من أغراض
البيان الجهير على نمط القصيدة العربية الأصلية - هنا النابغة، تحس صدى إيقاعه في
«غير موسد» «أيدي العود» «يميل على اليد» «غدا يوم الرحيل» - وتحس عنتره في «طورا
بهم» [تذكر طورا يجرد للطعان] - وتحس نغم الحماسي في «وكانا افترست» ذلك قول
سلمى بن ربيعة

وكان في العينين حب قرنفل أو سنبلا كحلت به فانهلت

وقوله: "وكان قد"، نابغي. والمطلع كله بعضه نابغي وبعضه كالأسود بن يعفر
ثم إذ مهد سبيل النسب صار إليه:

يا أهل ذا البيت الرفيع مناره أدعوكم يا قوم دعوة مقصد
إني فقدت اليوم بين بيوتكم عقل فـردوه على لأهـتدي
أو فاستقيـدونى ببعض قـيانكم حتى تـرد لى نفسى أو تـدى
قول البارودي "يا أهل ذا البيت" يشعرنا أنه بإزاء الوداع. ولا سبيل إليه إلا
بحديث العيون:-

بل يا أخا السيف الطويل نجاده إن أنت لم تحم النزيل فأغمد

جعل نفسه ضيفا على حي المحبوبة ولكن فارس الحى لا يستطيع حمايته من فتك
عيون حسانه، وما هم هؤلاء قد أجمعوا أمرهم للرحيل وارتبنوا فؤاده عندهن.

هذى لحاظ الغيد بين شعابكم فتكت بنا خلصا بغير مهند
من كل ناعمة الصبا بدوية ريا الشباب سليمة المتجرد
ما أرى إلا أن هاهنا خطأ في الطبع أو قراءة من قرأ من خط البارودي، وما أشبه
أن يكون عجز البيت «ريا الشباب سليمة المتجرد» أى لو قد سلب متجردها لألفت
ريا الشباب. أما سليمة المتجرد فضعيفة لا تشبه أسر القصيدة ونغم جزالتها. فإن
تكن هي الصواب، فلرب كبوة من جواد. وإن تكن هي التي قالها البارودي فما جرتها
إليه إلا إشعارة بأنه حضري حيث جعلها بدوية، ثم أتبع ذلك ما عند الحضرمين توهم
سلامة الجسم وصحته في البادية- والمعنى على هذا التأويل يسوغ ولكنه يفقد رنة قوة
أسرة. إذ البدوي حقا هو شاعرنا لا هذه التي زعمها بدوية. وسليمة بالباء الموحدة
التحتية يستقيم بها المعنى- وباؤها أشد ملاءمة لما من قبل من الباءات- والله أعلم
هيفاء إن خطرت سبت وإذا رنت سلبت فؤاد العابد المتشدد

سلبت هاهنا يقوى ما زعمنا من «سليمة» قبل وتكون حالا منصوبة.

ثم يجيء شئ كالتمخيص، أوله نظر في أمر النساء فيه مشابه من مقال علقمة
حيث قال: «فإن تسألوني بالنساء...»، ثم بعد ذلك تنويه بفروسيته ويكون ذلك
كالنطاق وكالتوشيح يصل به إلى تذكر الخيل والشراب والمغامرة الغرامية. وفي هذه
الدالية بعد، لبدئها بالليل، ثم جعل بداية الذكريات اغتداء بالفرس، كالحذو على

نموذج من دالية الأسود بن يعفر «نام الخلي وما أحس رقادي» وقد بينا من قبل أن هذه الدالية تسابير المعلقة من عند ذكر الليل إلى نهايتها أو قريب من ذلك. - قال البارودي :-

يخفضن من أبصارهن تخطلا للنفس فعل القانتات العبد

«فعل القانتات العبد» يشير إلى قوله تعالى : «وقل للمؤمنات» وقوله : يخفضن من أبصارهن» في صياغته ورنه إيقاعه نظر إلى قول الأسود : «ينطقن معروفًا وهن نواعم البيت» ينطقن مخفوض الحديث تها مسا»

فإذا أصبن أخا الشباب سلبنه ورمين مهجته بطرف أصيد
وإذا لمحن أخا المشيب قلينه وسترن ضاحية المحاسن باليد
فهذا ما زعمنا من اتباعه مقال علقمة - ثم يحىء حديثه عن نفسه :

فلئن غدوت دريئة لعيونها فلقد أقل زعارة المتمرد
الدريئة الهدف وأشار إلى قول قطري :

فلقد أرانى للرماح دريئة من عن يميني مرة وأمامي
وهذه الإشارة صارت به إلى ذكر الحرب :

ولقد شهدت الحرب في إبانها ولبئس راعي الحي إن لم أشهد

وقد ذكرنا من قبل أخذ البارودي هنا من إيقاع عنتره وحذا على حذوه حيث قال :

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها بسليم أوظفة القوائم هيكل
فدعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل

هذا العجز من بيت عنتره صداه في قول شاعرنا «ولبئس راعي الحي» وفي روى البارودي وبحره وبعض صياغته أصداء من كلمة عامر بن الطفيل
ولتسألن أسماء وهى حفية نصحاءها اطردت أم لم أطرد

وأظهر ما في دالية البارودي من أصداء هذه الكلمة العامرية بعد الروي والقافية رنة المضارع المنفي بلم - لم أطرد - لم يسند - لم يقصد - لم توقد. وجاء به البارودي مرتين

في القافية - لم أشهد - لم ينفذ وقارب في قوله : ان لم تحم النزيل فأغمد . وفي لو لم ينقض . (١)

تتقصف المران في حجراتها ويعود فيها السيف مثل الأرد

أي ذا فلول

عصفت بها ربح الردى فتدفقت بدم الفوارس كالآتي المزيد
ما زلت أظعن بينها حتى انثنت عن مثل حاشية الرداء المجسد

قوله ما زلت ينظر الى قول عنتره : "ما زلت أرميهم بثغرة نحره البيت - وهذا آخر ما شبهناه بتخصير المتنبي والقدماء من قبل . ومن بعده ما ذكرنا من أبيات الذكرى ، وختم بمغامرة الغرام وبأبيات الحكمة على النحو الذي ختمت به دالية الاسود في رواية من روى :

فإذا وذلك لا مهاء لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

واستهل أبيات المغامرة بنمط جاهلي ثم مضى فيه :

بل رب غانية طرقت خبائها والنجم يطرف عن لواحق أرمدها
قالت وقد نظرت إلى فضحتني فارجع لشأنك فالرجال بمرصد
فخلبتها بالقول حتى رضتها وطويتها طى الحيرة باليد

أي كما تطوي الثياب الناعمة بيد طاويها - أخذ هذا من قول جرير :
" طي التجار بحضرموت برودا "

هذا من حيث ظاهر اللفظ وفي المعنى أنفاس امرئ القيس :

١ - جعل موقع الضاد حيث وقعت ضربا من التقية وفي كلام الأخفش ما يسوغ مثل هذا ثم تشيع الضاد للروى على طريقة ما يقع في القوافي

هصرت بفودي رأسها فتايلت على هضيم الكشح ربا المخلخل
والمرأة الشابة الجميلة كالمهرة الضامر - «طي التجار بحضرموت برودا»
وفي المعنى أيضا انفس سحيم عبد بني الحسحاس :
"افرجها فرج القباء . . ."

قاتله الله . . . زعموا ان عمر قال له انك مقتول . . . ولعله ما قتله الا الأساطير
ما زلت أمنعها المنام غواية حتى لقد بتنا بليل الأنقد

يقال بات بليل أنقد وبليل الأنقد أي ساهرا وانقد كأحمد (علم غير منون مطلق
على الجنس) وقد تدخله اللام ، هو القنفذ وما اشبه عندي أن يكون الشاعر قد قال
«بليلة أنقد» كقول الأعشى «الم تغمض عيناك ليلة ارمدا» لذكره السهر في قوله «أمنعها
المنام» - الإشارة إلى قول الأعشى موجودة على كل حال ، "الا ان ليلة أنقدا " اشد
شبهها وما بدنا جيد قوي فلا ينبغي ان نعدل عنه "وغواية" تنظر الى قول امرئ القيس
"وما ان ارى عنك الغواية تنجلي" وما زلت منها في صياغته حذو على "مازلت
أرميهم" . . . بيت عنتره

روعاء تفزع من عصافير الضحى ترفا وتجنح من صياح المدهد
فترفها على هذا أنها عذراء اذ قد زعم أنها بدوية من قبل
حتى إذا نم الصبا وتتابع زيم الكواكب كالمها المتبدد

الصبا يجوز انها ريح الصبا وهذا من قوله تعالى : والصبح اذا تنفس . . . وما
استبعد ان يكون أراد الصباح فحذف على مذهب الفصحاء كقول علقمة : «بسبا
الكتان» وقول لبيد : «درس المنا بمتالع فأبان» زيم الكواكب ، اي متفرقاتها والتشبيه
بقطيع المها المتبدد من امرئ القيس :

فأدبرن كالجنح المفصل بينه بجيد على معم في العشرة مخول

اللاتي ادبرن هن بقر الوحش . وفي اللامية قوله : «إذا ما الثريا في السماء تعرضت
تعرض اثناء الوشاح» وهو وشاح التي في جيدها هذا الطوق . والمعاني تتداعى فمن هنا
جاء البارودي بتشبيهه . وقد كان قلب البارودي وخياله مفعما بصورة بيان الشعراء ، وما
أجاب به سؤال مطران يدل على ذلك .

قالت دخلت وما إخالك بارحا الا وقد أبقيت عار المسند

أي عار الدهر فهذا يدل على أنها عذراء - كعذراء امريء القيس وسحيم .
وما عدا البارودي رحمه الله ان أضفي لونا جاهليا على مغامرة مما أتيح على التوهم
أو حقا في بعض دار الحرب أو السلم ، وكان قوله : « مثلثا والسيف يلمع في يدي »
كناية ورمز :

فمسحتها حتى اطمأن فؤادها فنفيت روعتها برأي محصد
وخرجت اخترق الصفوف الى العدا مثلثا والسيف يلمع في يدي
فلنعم ذاك العيش لو لم ينقضي ولنعم هذا العيش لو لم ينقصد
برأي محصد تنظر إلى قول عنتره « وأحفزه بأمر مبرم » . وقوله « وخرجت إلخ » يخالف
ما قال ابن ربيعه ويؤثر مذهب جميل :

إذا ما رأوني طالعا من ثنية يقولون من هذا وقد عرفوني

وقوله « لو لم ينقضي » فيه اشباع كسرة الضاد لشبه التصريع أو هو تصريع على
مذهب من قال :

رأى من رفيقه جفاء وبيعه إذا قام يتتبع القلاص ذميم
خليلي حلا واتركا الرحل إنني بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشري رحله قال قائل لمن حمل رخصو الملائع نجيب

ذكره الأخفش [القوافي لابي الحسن الاخفش دمشق ١٣٩٠ هـ - ٤٧] أو أشبهه
بقول الآخر [نفسه ٥٢] :

إذا نزلت فاجعلاني وسطا

اني شيخ لا اطيع العنيدا

لقرب تشابه الحروف . ولعل البارودي لم يقل " لو لم ينقض " ولكن : « لولا ينقضي »
وهو أشبه بأسلوبه ، وقد يسبق قلم او يقع من طابع خطأ في مثل هذه الأشياء . والله
اعلم .

يرجو الفتى في الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلص

هذا كما تقدم محذو على قول الاسود بن يعفر ، في رواية من رواه له :-

فإذا وذلك لا مهاء لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

وفي أوله نظر إلى كلمة النمر بن تولب :

يود الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل

جمع البارودي في هذه الدالية بين الضابط الحربي ابن الطبقة العالية على زمان
افندينا الخديوي وبين الشاب المثقف المتحرر المتحمس المقعم بروح الثورة والقومية
وحرارتها وبين الفارس الامير المصري الجركسي وبين البطل العربي الاسطوري المثالي
، عنتر بن شداد وربيعه بن مكرم وعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب .
شخصية البارودي من فوق صهوة جواده : جواد ضابط السواري العزيز الطموح
وجواد الاسود بن يعفر ، جواد الجاهلية ذات الحمية :

بمضممر أرن عتيد شده قيد السوابق والرهان جواد

وجواد امريء القيس ، جواد الفتوة والملك الضليل والاحلام العراض :

على الذبل جياش كان اهتزامه اذا جاش فيه حميه غلي مرجل

شخصية فذة نادرة ، يتجسد فيها كل ما كانت توهه الرومانسية في ريعان إبانها
من المثل العليا الشائعات . شخصية هي جوهر الرومانسية التي يروم الانتماء إلى
نموذجها " المترمنسون " . فهذا تأويل قولنا أنفا إن البارودي هو سيد " الرومانسية "
الحديثة في الشعر العربي وهذا لا يدخله في نطاق ما نطلق عليه الآن اسم " الرومانسية "
في الشعر العربي ولكن يخرج من ذلك إخراجا .

رثى برتراند رسل في فصله عن الرومانسية في كتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية
الاولائل شبان الشعراء الرومنسيين الألمانين من مات منهم صغيرا ومن عمر من بعد .

اذا الضرب الاول قد اختضر قبل استوائه ونضجه والضرب الثاني قد زعم ان
الذين اختضروا اسعد منهم لانهم ، اي الضرب الذي عمر ، قد ماتوا موتا أكبر
باعتناقهم الكتلكة على فرط " ترمنس " . وقسا في ترجمته لفيلسوف الرومانسية الكبير
جان جاك روسو وليس ذلك لعمره بضائره . وقد كان جسيم الفكر شجاعه على لين
وشذوذ في الطباع ، وفي اعترافاته ما يدل على اطلاع على بعض ما في احياء علوم الدين
لأبي حامد . وما يذكر في هذا الصدد أنه مرت عليه فترة وهو ضيف أو صديق لدافيد
هيوم DAVID HUME الفيلسوف الاسكتلندي صاحب انكار السببيه واصول فلسفته
هذه في تمهات أبي حامد . كما ان اصولا من النسبية في تمهات أبي حامد ايضا . ودل
برتراند رسل اما على جهل أو تجاهل عن تعصب في الفصل القصير له عنه وعن فلسفة
المسلمين وناقض نفسه في كتابته عن روجر بيكون اذ مدحه بمعرفته علوم المسلمين

. وقل عالم أوربي يسلم من روح التعصب العنصري والديني والإنطلاق من نقطة دعوى تسليم الناس له بالتفوق، كالذي مر من قول نيكلسون بحسب مقاييس الذوق الأوربي بمعرض حديثه عن أبي الطيب وعند القوم أمثالها .

هذا ومن أوائل الشعراء الرومانسيين الافرنج وردزورث Wordsworth، وكان أقرب لل نموذج الجتلمان الانجليزي، وتأثر بروسو في حبه الطبيعة ودعواه التصوف بها، وله كلمات حسان، وربما أدركه الفتور. وشعره من الضرب الغنائي الذي يصوغه ذا موضوع وفكرة كالمقالة الإنشائية، ويضمنه إحساسه الذاتي، ومن أشهر كلماته في هذا المعنى كلمة له عما تشعر به النفس من معاني الخلود تستمد من ذكريات الطفولة الأولى

(ODE ON INTIMATIONS OF IMMORTALITY FROM RECLLECTIONS OF EARLY CHILDHOOD)

وأحسبها كان لها على بعض أوائل الرومانسيين العرب أثر كبير اذ كانت من مقررات المدارس في مختارات الأدب الانجليزي . واشترك وردزورث في اول أمره مع "صمويل تيلور كلردج" في اصدار الأغاني الشعبية، ديوان شعر دافعا فيه بما انشأ آ وما قدما عن قضية التجديد وكلردج أقوى اندفاعا وأحر أنفاسا من ورد زورث إلا أنه قد ابتلى بتخدير الافيون، فذهب ذلك بملكة شعره، واشتغل بالفلسفة والدين، وله الترجمة الأدبية التي تعد من أمهات كتب النقد الحديث . ومن أشهر شعره قصة الملاح العجوز، وفيها نغم جيد وأضغاث أوهام . وقطعة عنوانها "قبلاي خان" قيل نظمها دفعة واحدة ثم طرق عليه الباب فانقطع عنه نفس القطعة عند الموضع الذي اتفق مع بلوغه إياه طرق ذلك الطارق . وقيل نظمها تحت تأثير الأفيون وآخرها كأنه مستعار من ساحرات شكسبير الثلاث في مسرحيته ماكيث . ومن كبار شعراء الانجليز الرومانسيين بعد هذين :

ثلاثة متقاربو السن، اللورد ديرون (١٧٨٨-١٨٢٤م) وكان من سفهاء الطبقة العالية متوسط الشعر في نظر النقاد الانجليز وشيلي (١٧٩٢-١٨٢٤) وكان حاد الذكاء ملحدا في شعره اندفاع، واشتهرت له خاصة بين العرب كلماته عن الطائر وعن الريح الغربية، وتحمسه ومدد يديه يعطو ولا ينال من خصائص أسلوبه التي انتقل بعض طابعها إلى مقلديه . وأصغر الثلاثة منا ولعله أشعرهم "جون كيتس" (١٧٩٥-١٨٢١) وقتله السل وكان طبييا . وجميع الرومانسيين لأدب الشرق والعربية خاصة أثر بين في ما نظموا . وذلك في "كيتس" أشد ظهورا وقد استهل كلمته عن البلبل بمطلع نسيبي الروح وذكر فيه الخمر وتعيقها مع تخير دقيق متذوق لحلاوة الألفاظ، وتعجبني كلمة

له أسطورية الطابع عندي أن بعض أصلها من ألف ليلة وليلة، من طريق مباشر أو غير مباشر وهي عنوانها فرنسي

La Belle DAME SANS MERCI

أى «المرأة الحسنة بلا رحمة». وقد بين ماريو براز أن لها أصولاً قديمة كثيرة. وأضع ترجمتها التقريبية بين يدي القارئ الكريم، لا لأنها ترجمة حسنة، فالشعر مما تعسر ترجمته وقد نبه الجاحظ لذلك. (وأذكر إذ قال الأستاذ غري GURRY بمعهد التربية بجامعة لندن سنة ١٩٤٦ لأحد الطلبة إذ زعم أنه يستحسن تقديم قطع مبسطة من الشعر الجيد ليتذوق جودتها الصغار: «ولكنك لن تستطيع تبسيط الشعر، هل تستطيع ذلك؟»

But you can't simplify poetry, can you?

فهذا في التبسيط فكيف بالترجمة؟. ولكنى أضع هذه الترجمة لما تنم به هذه الكلمة خاصة من معاني "الترمس". ولصاحب كتاب "احتضار الرومانسية" The Romantic Agony "ماريو براز" MARIO PRAZ فصل كامل هو الرابع من كتابه قدم للفصل بأبيات منها وعنوانه بعنوانها وبني تحليل جوانب من زعمه احتضار الرومانسية على معان منها وأصل الكتاب باللغة الطليانية، وترجمه منها إلى الانجليزية بالعنوان الانجليزي الذي ذكرناه "انغس دافدسن" ANGUS DAVIDSON (الطبعة الثانية من طبعة أكسفورد، لندن ونيويورك ١٩٧٠ ص ٢٠٠-٣٠٠).

فأمل أن يقع مرادى موقعا من بعض ماعسى أن يفيد:

يآيا الفارس في الدرع، ما تألم فذا في شحوب تسير

قد صوح النبت الذي في الغدير
والطير لا يلقى له من هدير

يآيا الفارس في الدرع ما	تألم مهموما كتيب الفؤاد
قد ملأ الغرفة بالغلة الس	سجاب وانجاب أو ان الحصاد
أرى على حاجبكم زنبقا	به ندى الحمى وطل الشجن
وقد أرى في خدكم وردة	حالت فما أسرع ما تذبلن
رأيت في السروضة إنسانة	كاملة الحسن ومن نسل جن
طويلة الشعر ووحشية ال	عينين والخطو خفيفا وزن
ألبستها إكليل غار وسو	سورت بأزهار ومنطقتها

ونظـرت لي نظـرات الهوى
حملتها فوق جـوادي بنا
طوال يومي حين مالت إلى
ووجدت لي من عروق شهيد
والعسل البري جاءت به
ثمت قالت بلسان غريب
ثمت صارت بي إلى كهفها الـ
وحدقت ثم ومقروحة الـ
عندئذ قبلتها أربعاً
ووسدتني ساعديها وغنـ
حلمت في نومي وياحسرة النـ
آخر حلم كان لي ذاك في
آخر حلم أبهرت مقلتي
ثم ملوكا شاحبي أوجه
وبشحوب كشحوب الردى
جميعهم قالوا معنا إنها الـ
والغداة الحسناء بلا رحمة
رأيت في ضوء المكان الضعيف
ضورها الجوع ويفغرن تلـ
صحوت والآن أنا واجدى
من أجل هذا وفؤادي كسير
من بعد ما جف نبات الغدير
وإليك النص الانجليزي لتصحيح به ما قد يكون مما اضطربت به الترجمة :

ثمت أنت حلوة صـوتها
يخطو ولا شيئاً سواها أرى
جنبي وتشدو اللحن من عبـقرا
سات وحلوات لدى المأكـل
والمن يغشاه ندى السلسـل
سب إنني أهواك يا ويح لي
مسحور صارت بي إلى كهفها
فؤاد بالآهة من جوفها
أغلقت جفن الوحش من طرفها
ت لي إلى أن نمت في حجرها
فس على ما كان من أمرها
جانب سفح الجبل البارد
من بعد ذاك السكر الخالد
رأيتهم وأمرأ مثلهم
فرسان حرب أخذوا قبلهم
حسناً بلا قلب رحيم سبتك
يا ويح ما نفسك قد أحزرتك
شفاههم فالقلب مني أسيف
قائي فغرا بنذير مخيف
بجنب هذا الجبل البارد
وحدي ألقى في شحوب أسير
والطير لا يلقى له من هدير

What can ail thee knight - at - arms,
Alone and palely loitering?
The sedge is wither'd from the lake,
And no birds sing
What can ail thee knight - at - arms,
So haggard and woe-begone?

The squirrel's granry is full,
And the harvest's done
I see a lily on they brow
With anguish moist and fever dew;
And on they cheek a fading rose
Fast withereth too.
I met a lady in the meads,
Full beautiful - afaery's child
Her hair was long, her foot was light,
And her eyes were wild
I made a garland for her head,
And bracelets too and fragrant zone
She look'd at me as she did love,
And made a sweet moan
I set her on my pacing steed,
And nothing else saw all day long,
For side ways would she lean, and sing
A faery's Song
She found me roots of relish sweet,
And honey wild, and mana dew;
And sure in language strange she said I love thee true
She took me in her elfin grot,
And there she gazed and sighed full sore,
And there I shut her wild wild eyes
With kisses four.
And there she lulled me asleep,
And there I dream'd-ah! woe betide!
The latest dream I ever dream'd
On the cold hill side.
I saw pale kings and princes too,
Pale warriors, death-pale were they all;
They cried - "la Belle Dame sans merci
Thee hath in thrall!"
I saw their starv'd lips in the gloam,
With horrid warning gaped wide,
And I awoke, and found me here,
On the cold hill side.

And this is why I sojourn here,
Alone and palely loitering,
Though the sedge is wither'd from the lake
And no birds sing.

"الترمنس" الكنين في هذه القطعة هو هذا العشق المسحور، وهذه الحسنة
القتول التي تشرب دماء معشوقها.

كانت "رومنسية" فرنسة الكبيرة هي ثورتها. وأبطالها المثاليون أولو الطموح
والدموية المرعبة: ميرابو - دانتون - مارا - روبسيير - ثم نابليون، الذي أعاد ذكرى
الاسكندر، وهنييعل وقيصر وتيمورلنك، وفتح باب هول أوروبا وحروب دمارها وتفوق
استعمارها وهلم جرا فتحا كما لم يتح له من قبل - وخاصة بتوجيهه الأنظار إلى مصر
والشام كما عهدت أوروبا أيام الحروب الصليبية. وقد كان من أوائل الرومنسية الأدبية في
فرنسة، مدام دي شتايل وأبوها كان وزير لويس السادس عشر قاتل الثورة وكانت امرأة
قوية الشخصية (١٧٦٦ - ١٨١٧) دميمة ومع ذلك ذات فتنة. ومن مقالاتها: «إن
النواوير ومجاري الأنهار كانت ذات كفاية للشعراء غير المسيحيين. أما قلوب المسيحيين
فإن لا أبدية ولا نهائية أرواحها تقصر عن مدى التعبير عنها البحار التي لا ساحل لها
والسماوات الملائى بالنجوم والغابات العظيمة الوحشة». فتأمل هذه الأصل من
مسيحية الرومنسية ووثنيته معا. وقالوا إن بنيامين كونستان (١٧٦٧ - ١٨٣٠)
، السويسري، صاحب قصة "أدلف" (١)، كان لها خليلا. وقصته هذه تعد من أوائل
"الترمنس" الفرنسي، وعليها هذا دوماس غادته التي مثلتها في زماننا نجمة السينما
غريتا غاربو وصاحب عادة الكاميليا أجود عشقا من أدولف، الذي كأنها رمز به
المؤلف إلى نفسه إذ سلا حب مدام دي شتايل، وجعل صاحبة أدلف تموت من
حبه، كما ماتت ليلي من حب قيس. وقد كانت الرومنسية الفرنسية في الأدب أحدث
عهدا، وداخلها فتور ما بعد الثورة، وروح ثورات ما بعد الثورة - الثورة الصناعية
مثلا. ومن أشهر أدباء فرنسة وشعرائها الرومنسيين "الفريددى موسيه"

(١) أدولف هو فتى عشق امرأة أسن منه لا حبا لها ولكن زهوا منه ليزعم لنفسه أنه عاشق معشق وقالوا إن القصة كأنها
ترجمة ذاتية عرض فيها بغرامياته وضروب من ضعفه.

"ولامرتين". وقد تأثر أدباء النهضة وروادها الأولون بعد البارودي وقبله، في مصر والشام وغيرهما، أول شيء بالثقافة الفرنسية ثم من بعد بالانجليزية وغيرها من آداب أوروبا.

أما البارودي فقد كان صاحب سيف ورجل دولة ونضال. كان تأثره بأوروبا محصوراً في الجانب العلمى الحربى والسياسى. ولكن الجانب الأدبى لم يفتته. كان له عنه شغل شاغل بما فتنه وملك عليه جوانب قلبه من أشعار العرب. حتى نشره المسجوع بالنسبة لبعض ما لا نقول به من بعض الأقاويل المعاصرة، ينبغي أن يكون هو ضرباً من الشعر. شخصيته التي نعتناها بأنها في الرومنسية ذروة، هي حقا أصل في ذاتها، من نوع تلك البطولات المثالية التي كانت تعطو إليها رومنسية شعراء أوروبا الأولى وأدبائها، بأحلامها ونماذج صناعتها وإلهامها. البارودي بأنه أصل ومثل، لافرع ضعيف ولا حذو على مثال، ذلك مخرجه من زمرة الرومنسية الحديثة إخراجاً.

قصيدة البارودي لا ملحمية ولا مسرحية ولا غنائية هي عربية صلتها صوت مكافح جهير، كصوت زهير وجريير وأبي تمام وأبي الطيب. الدالية التي أوردناها منذ حين أغلب عليها روح المجازاة على ما لها من معدن أصالة وقوة. وقد استقام للبارودي حين بلغ أشده في الشعر واستوى نهج القصيدة، كما استقام من قبل، لأبي تمام وأبي عبادة وأبي الطيب، ومن بعد هؤلاء للصرصري والبوصيري والبرعي وابن الخطيب والبقية الباقية من شعراء مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في شتى بلاد العربية وآفاق الإسلام.

خذ قوله المشهور في موقفه من ثورة عرابي باشا:

نصحت قومي وقلت الحرب مفاجئة وربما تاح أمر غير مطنون

تأمل تاح هذه في زمان لا يكاد يعرف فيه هذا الفعل إلا رباعياً مبنياً للمجهول. المبنى للمعلوم هنا هو المعبر الأصيل.

فخالفوني وشبوها مكابرة وكان أولى بقومي لو أطاعوني

إذا كان هو الرئيس الأمير العالم الشاعر - ولكن التأثير العملي بأوروبا تخطى حنكته وتجاربه إلى مذهب من "الغوغاء" كان هو منه جد بعيد. وما أرى هيكلاً على جودة رأيه إلا قد ظلمه حيث قال: «واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق. وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد وتحركت فيها أسباب الاعتداد بمكان أجداده المالك الذين

حكموا مصر وقصيدته التي مطلعها :

قلدت جيد المعالي حلية الغزل وقلت في الجد ما أغنى عن الهزل

لا تبرئه من هذا التفكير وإن ذكر في الديوان انها قيلت في عهد اسماعيل " ١. هـ. قلت ما قاله الديوان أصدق عند التأمل من ظن هيكل الذي ظنه ، رحمه الله ، وذلك أن هذه اللامية على وضوح مجاراتها للامية الطغرائي - فارس آخر من معادن كمعادنه روحا وأدبا وشعرا - فيها من حرارة الشباب وطيشه ما يشهد بصدق سبق تأريخ نظمها لزمان توفيق . وقال هيكل في موضع آخر : « ولكن اندفاعه في حركة الضباط من بدائها حال بينه وبين التخلص منهم ، فلم يكن له بد من أن يسير معهم وأن يربط حظه بحظهم » . لو اكتفى هيكل بقوله : « أن يسير معهم » لكان قد أصاب وصار إلى ما قاله البارودي في أبياته النونية ولكن قوله : « وأن يربط حظه بحظهم » مشعر بمعنى " الانتهازية " والدهاء الذي زعم من قبل . وشعر البارودي وسمت صدقه يشهد ببطلان هذه التهمة .

وربما تاح أمر غير مظنون
وكان أولى بقومي لو أطاعوني
ويخطيء الظن في بعض الأحيان

وأصبح الشر أمرا غير مكنون

صدق الولاء وتحقيق الأظانين

نصحت قومي وقلت الحرب مفعجة
فخالفوني وشبوها مكابرة
تأتي الأمور على ما ليس في خلد
كأنه يعاتب نفسه شيئا ههنا .

حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة
أجبت إذ هتفوا باسمي
هنا البطولة والمأساة معا

ومــــن شيمــــي

تأمل جودة المقابلة في اللفظ والمعنى بين قوله : « ويخطيء الظن إلخ » وقوله : « صدق الولاء وتحقيق الأظانين » - ومكنونة تحت ذلك مقابلة تحمل معنى الأسف الروحي وعتاب النفس ، يكره أن يكون ندما على اتباع ما اتبع ، ويقارب ذلك الندم ، رحمه الله ، وسقت قبره شأبيب المغفرة والرضوان .

من أحب شعره إلى وأجوده قوله بسرنديب :

لكل دمع جرى من مقلة سبب وكيف يملك دمع العين مكتتب

المطلع بوصيري الروح . ولعله رحمه الله كان ينشد من البردة ، يتبرك بها ويتوسل بروحانياتها في منقاه . - تأمل «دمع جرى من مقلة» : قال البوصيري :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

والبحر بحر البردة . وقد رأيت مجازاة أبي الطيب باء " السيف أصدق " بميم «عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم» . وفي بائية البارودي هذه أيضاً نوع من المجازاة لميمية أبي الطيب :

واحر قلباه ممن قلبه شيم

روح البحر ونظر روي الباء إلى الميم نسب بين هذه الكلمة وبردة المديح ، ويجرى الضم مع ما تقدم نسب بينها وبين " واحر قلباه ممن قلبه شيم " - ثم للبارودي بعد ما انفرد به من بث الشكوى والخطاب الصريح وأمل القومية والمجد والحفاظ الذي ضاع .

⑥

قال رحمه الله :

وكيف يملك دمع العين مكتتب
عين ولا بات قلب في الحشا يجب
على فالحب سلطان له الغلب
في ظلمة الشك لم تعلق به النوب
لكان يعلم ما يأتي ويجتنب
بأسهم ما لها ريش ولا عقب
تكاد من مسه الأحشاء تنشعب
بالأفق لمعة برق كاد يلتهب
يكاد أيسرها بالروح ينتشب
كما استنار وراء القدحة اللهب
وقد فعلت فهل من رحمة تجب
بين الحشا طائر في الفخ يضطرب

لكل دمع جرى من مقلة سبب
لولا مكابدة الأشواق ما دمعت
فيا أخا العذل لا تعجل بلائمة
لو كان للمرء عقل يستضيء به
ولو تبين ما في الغيب من حدث
لكنه غرض للدهر يرشقه
فكيف أكتم أشواقى وبى كلف
أم كيف أسلو ولى قلب إذا التهب
أصبحت في الحب مطوياً على حرق
إذا تنفست فاضت زفرتي شررا
لم يبق لي غير نفسي ما أجود به
كان قلبى وقد هاج الغرام به

صورة الطائر المضطرب تتردد عند البارودي . وله رائية قصيرة حسنة ذكر فيها الطائر
الحذر:

يهفو به الغصن أحيانا ويرفعه دحو الصوالج في الديمومة الأكر
ماباله وهو في أمن وعافية لايبعث الطرف إلا خائفا حذرا
وذكر طيف غانيه :

حوراء كالريم ألحاظا إذا نظرت وصورة البدر إشراقا إذا سفرا

وكأنها حذا ههنا على رائية أبي الحسن التهامي التي يقول فيها يذكر امرأة حسناء
ترمي الحجيج فتصميمهم ويرشقها راميمهم فيولى سهمه هذرا (١)

ثم يقول البارودي

لا يترك الحب قلبي من لواعجه كأنها بين قلبي والهوي نسب
فلا تلمني على دمع تحدر في سفح العقيق فلي في سفحه أرب
منازل كلما لاحت تخاليلها في صفحة الفكر منى هاجني طرب
لي عند ساكنها عهد شقيت به والعهد ما لم يصنه الود منقضب
وعاد ظني عليلا بعد صحتي والظن يبعد أحيانا ويقترب

(١) أشرنا إلى هذا في كتابنا التماسه عزاء بين الشعراء - طبع بيروت ص ١٩٦ . وقد ذكرنا ثم أن أبا العلاء المعري، وذكرنا أن التهامي أنشده شعره، كأنها يغمز التهامي في نعتة هذه المرأة التي فتنت الحجاج فكاد يفسد حجهم، في قوله في اللزوميات :

أتت خنساء مكة كالثريا وطلت بالعواصم فرقدتها
ولو صلت بمنزلها وصامت لكان البر أجمعه لئديها
ولكن جاءت الجمرات ترمى وأبصار الفؤاد إلى يديها

وما ثريا عمر أراد، ولكن الفؤاد الذين قدم إليه أحدهم فأنشده . والله أعلم .

هذا آخر القسم الأول . وهو من مرحلتين ، الأولى تأمل يخالطه شيء من أسى كالندم -
ندم يروم التأسي بالعظة والعبرة والحكمة ، والثانية إعلان للشوق والحب والصبابة .
يهيمن على المرحلة الأولى طائف من روحانية البوصيري . يرفرف على المرحلة الثانية
جناح من صوت أبي الطيب .
ندمرت الإشارة إلى «مزجت دمعا جرى من مقلة بدم» . وقوله «لولا مكابدة إلخ» فيه
أنفاس :

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ولا أرتق لذكر البان والعلم

وقوله : «ياأخا العذل» كقول البوصيري «يالائمي أي يا عاذلي» أي يا أخا العذل :-

يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم

لأن الهوى العذري لايتبغى أن يعذل عليه صاحبه . وقول البارودي : " فالحب سلطان
له الغلب " يقابل قول البوصيري : " معذرة مني إليك " - وفي قول البوصيري جناس
معنوي لفظي (العذري . . . معذرة) وفي قول البارودي مجانسة معنوية «سلطان . . . له
الغلب» وقول البارودي «لاتعجل علي» . . . يقابل قول البوصيري : «لو أنصفت لم تلم»
قول البارودي من بعد «لو كان للمرء عقل إلخ» يحمل رنة من إيقاع صياغة
البوصيري :

لو كنت أعلم أني ما أوقره كتمت سرا بدلى منه بالكتم

وكتمان البوصيري هنا فيه نفحات من كتمان أبي الطيب :

مالي أكتم حبا قد برى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الأمم

وقد كرر البارودي نغم البوصيري حيث قال :

ولو تبين ما في الغيب من حدث لكان يعلم ما يأتي ويجنب

وكان ههنا سريرة ندم - وكان نفحة من قول الإمام شرف الدين :-

من لى برد جهاح من غوايتها كما يرد جهاح الخيل باللجم

وفي قول البارودي : «فخالفوني وشبوها مكابرة» معنى غواية مستكن . وفي قول البارودي «لكنه غرض للدهر إلخ» معنى التسليم للقدر. قوله "بأسهم مالها ريش ولاعقب" أخذ لفظه أخذ إشارة من بائية غيلان ، والعقب هو العصب تشد به السهام عند أفواقيها وحيث موضع النصل وفي الشرح ^(١)العقب بفتح العين والقاف العصب بفتحيتين تعمل منه الأوتار والمراد الأوتار نفسها ا. هـ والمعنى أوضح من هذا لتأمله أى بسهام القدر التي لا تعان بالريش ولا تشد بالعقب وهو العصب .

وإذ هو المسكين غرض الدهر، فقد رماه الدهر بالبعاد ولا يستطيع أن يكتم الشوق . ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية - رفرقة صوت المتنبي في قوله : «فكيف أكتم أشواقي - أبو الطيب : «ملي أكتم حبا» - البوصيري :

فكيف تنكر حبا بعدما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم
ثم كرر البارودي نغم الإيقاع ومعنى الشوق في قوله : «أم كيف أسلو ولي قلب إلخ» -وهنا صدى من البوصيري :
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

البيت الذي يعيه بعض المتشددين يرون ذلك حنبلية في التشدد، ولعل ابن حنبل رضى الله عنه لو سمع هذا البيت ما عابه، وكيف وهو صاحب حديث الشفاعة وحديث عرباض رضى الله عنه؟

والشاهد تشابه النغم في : كيف تدعو . كيف يسلو . . . وفي بيت البارودي بعد صورة تبدو كما يقول عصره النقد - مثلا - تقليدية : وذلك قوله :

..... إذا التهبت بالأفق لمعة برق كاد يلتهب

وما أرى إلا أنها مغترفة من بحر تجربة الشاعر غرfa - ومثلها قوله من بعد :

إذا تنفست فاضت زفرقي شررا كما استنار وراء القدحة اللهب

عجز البيت وصف دقيق لاستيقاد النار، ولقدحة عود الثقاب

١- الديوان ص ١١١هـ ٦

ولكن الصورة الكبيرة الكامنة التي زعمنا أنها مغتربة غرنا من بحر التجربة هي صورة برق بلاد سرنديب . برق ركام السحب الاستوائية يتطاير شرره وتروع ألوانه منها ما يتبدى بنفسجيا ثم يبيض أبهر وأنصع من لهب «المغنيسيوم» ، ومنها ما يحمر ومنها ما يتطاير شررا وجمرات - تشبيهات البارودي هاهنا مأخوذات من هذه التجارب . ومن براعته الفائقة أنه جعل جميع ذلك يبدو وكأنه "تقليدي" ، ما عدا فيه مذهب ما أمر به ابن قتيبة من نعت المياه الأواجن السدم واجتناب التفاح والإجاص !!!

قول البارودي : «أصبحت في الحب مطويا إلخ» - فيه نفس أبي الطيب :

مالي أكتم حبا قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأمم

وقوله : «لم يبق لي إلخ» - كقوله :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا تتيمة عين ولا جيد

وكانه في قوله «لم يبق لي غير نفسي ما أجود به» أيضا أنفاس من قول أبي الطيب

ولكنني حسدت على حياتي وما طعم الحياة بلا سرور

وقد كرر أبو الطيب هذا المعنى في دالية هجاء كافور

إذا أردت كمت اللون صافية وجدتها وحيب النفس مفقود

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني بما أنا بأك منه محسود

وجاء البارودي بنغمة «لم يترك الدهر إلخ» في قول «لا يترك الحب قلبي إلخ» -

وقوله " فلا تلمني على دمع " فيه رجعة إلى نغم «يا لائمي في الهوى إلخ» - وفيه صدى

غيلان الذي مر صداه في الريش والعقب ، ولكأن غيلان فيه نوع رمز لأبي تمام . وفي

قوله " فلي في سفحه أرب " إما سفح العقيق وإما سفح الدمع وكلاهما جيد وينظر إلى

قول غيلان :

خليلي عوجا من صدور الرواحل بجمهور حزوى فابكيا في المنازل

لعل انهمال السدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجي البلابل

وقول البارودي : «منازل كلما لاحت مخايلها» فيه رفرقة صوت أبي الطيب :

منازل لم يزل منها خيال يتابعني إلى النوبندجان

ورفرقة أبي الطيب ليست إيقاعية ولفظية فحسب ، ولكنها مع ذلك فيها حذو

على المعاني والشكل وطريقة الخطاب ، إذ قد جعل أبو الطيب حبه لسيف الدولة في القسم الأول مكان النسيب وحمله معنى لواعج الشوق . وكذلك قد جعل البارودي حبه لقومه وضمه ما مر من تأمل شاك وأنفاس عتاب . وقوله : " وعاد ظني عليلا بعد صحته " - فيه إيجاس ديب من الندم واستشعار لأن القوم قد تناسوا عهده « والعهد ما لم يصنه الود منقضب » - « والظن يبعد أحيانا ويقترّب » ، هذا يذكر بك بقوله من قبل : « ويخطيء الظن في بعض الأحيان » - بعد الظن ، سعة الأمل ، واقترابه مواجهته هذا الذي هو بإزائه من الواقع المر . وهنا موضع الصيحة . ويبدأ القسم الثاني من القصيدة :-

ضاق علي وأنتم سادة نجب	فيا سراة الحمى ، ما بال نصرتكم
متى خفرتم ذمام العهد يا عرب	أضعتموني وكانت لي بكم ثقة
أما إذا خاف أن يتتابه العطب	أليس في الحق أن يلقي النزيل بكم
فتاة خدر لها في الحي منتسب	فكيف تسلبني قلبي بلا ترة
كالبدري في هالة حفت به الشهب	مرت علينا تهادى في صواحبه
كسمهري له من سوسن عذب	تهتز من فرعها الفينان في سرق
فجر بجانبه الظلماء تحتجب	كأن غمرتها من تحت طمرتها
ذريعة تبتغيها النفس أو سبب	فهل إلى نظرة يحيا بها رفق
بها ولا الملتقى من شيعتي كئيب	أبيت في غريبة لا النفس راضية
ولا صديق يرى ما بي فيكتب	فلا رفيق تسر النفس طلعتة

هذا آخر القسم الثاني وهو الأوسط وهو خصر القصيدة . وإنما القصيدة عادة ، كذلك قال أبو تمام :

بكر تورث في الحياة وتغتدى في السلم وهي كثيرة الأسلاب
وقال أبو عبادة وجعل القصائد عذارى أبكارا :
كالعذارى غدون في الحلل البين ض إذا رحن في الخطوط السود
وهذا ونظائره كثيرة .

وقد ترى هذا التخصير كأوله عند أبي الطيب في " وافر قلباه " حيث قال : « يا أعدل الناس إلا في معاملتي » - وهنا يقول البارودي : « فيا سراة الحمى - ما بال نصرتكم البيت » . وكأنه هنا خلط بين احتجاج أبي الطيب واحتجاج أبي فراس حيث قال :

وأبطأ عني والمنايا سريعة
فلأن لم يكن ود قريب نعيده
فأحوط للإسلام أن لا يضيعني
وحيث قال
تنكر سيف الدين لما عتبه
فقلوا له من صادق الود إنني
وللموت ظفر قد أطل وناب
ولا نسب بين الرجال قراب
ولي عنه فيه حوطة ومناب
وعرض بي تحت الكلام وقرعا
جعلتك مما رابني منك مفزعا

ولأبي فراس في هذا الباب كلمات من روميته^(١) . وقد أخذ من أبي الطيب وحذا على نمودجه . إلا أن البارودي كما تأثر بأبي الطيب تأثر به أيضا . وزاد من قوة تأثيره على البارودي ، إنه كان أسيرا ولم يخف سيف الدولة إلى نجدته ، وكان البارودي بمنفاه في نوع من الأسر المر ، ولم يخف السراة إلى نجدته ورعاية سابقته وقوله «أضعتموني» لا يخفى أنه من قول العرجي ، وكان من فرسان بني أمية من ذرية أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم ملمة وسداد ثغر
وفي هذا القسم بعد رفرفة من أبي تمام ومن غيلان ومن أبي الطيب ومن غير هؤلاء من مأثور أساليب أهل الجزالة القدماء . فمن نفس أبي الطيب واصدائه :

[مرت علينا تهادى في صواحبها]

فهو كقوله : «مرت بنا بين تربيها فقلت لها البيت» وقوله «في صواحبها» فيه شيء من ابن أبي ربيعة بلا ريب . قوله «كالبدر في هالة إلخ» كثير مثله في الشعر إلا أن الصياغة فيها نغم بوصيري : «كالزهر في ترف والبدر في شرف» - الشبه قوله : «البدر في» ثم جاء بقوله «حفت» وقوله «الشهب» ، أبت شين الشرف وفاؤه إلا أن تنما بأنفسها

(١) مثل قوله : دعوتك للجنف القريح المسهد لدى وللنوم القليل المشرد .

ومثل قوله

أسيف الهدى وقريح العرب إلام الجفاء وفيهم الغضب

فتأمل . وقوله : «تهتز من فرعها» لا يخفى أنه من قول حبيب .

كم أحرزت قضب الهندى مصلته تهتز من قضب تهتز في كذب
الشبه في الصورة ونغم اللفظ معا . قوله «في سرق» مكان قول حبيب «في كذب»
عنى ثقل الكفل بإزاء لين القامة واستقامة رشاقتها . والسرق الحرير ، واهتزاز الفرع
الفينان فيه مشعر بالصدر والخصر والكفل ، وأخذه من قول امرئ القيس : «إذا ما
أسبكرت بين درع وبحول» من قول الآخر «أبت الروادف والثدى لقمصها البيت» - وفي
جميع هذا لا يخفى أن أصل أخذه من بيت حبيب ، وهذه المعاني والصور الأخريات
وحي وإشارة . والسهمري الرمح ، وجعله غصنا لما جعل له عذبات من السوسن ،
وذكر السوسن لا يخفى معه أن أصل المعنى مأخوذ من قول حبيب : «قضب الهندى» -
«قضب» تهتز في كذب» والقضب الأولى السيوف وجعل البارودي مكانها هنا السهمري
والكذب مزدوجة المعنى ، إذ القضب في الكذب هي الأغصان في الكتمان وهي القامات
ذوات الأكفال ، وسرق اللفظ والمعنى على بن العباس في نونيته :

أجنت لك الوجد أغصان وكتمان فيهن لونان تفاح ورمان
الشاهد قوله «أغصان وكتمان» فهو قضب حبيب وكثبه .

وقول البارودي : «كأن غرتها» هو من غيلان :

فغلست وعمود الفجر منصدع عنها وسائره بالليل محتجب
وليس بمخفيه قوله : فجر بجانحة الظلماء محتجب . ثم بقية التشبيه من قول غيلان
المشهور :

كأن عمود الفجر جيد ولبة وراء الدجى من حرة الوجه حاسر

وقد ذكرنا من قبل ما بين هذا وبين صورة جيوكندا لليوناردو دافنشى من قوة الشبه ،
وقوله : «كانت آية لنا في الحسن فاحتجبت إلخ» يحمل أنفاس قول أبي تمام وله نفس
البحر والروى وإن كان أصل هذا مجاراته لبائية غيلان إذ أمرها في هذا الروى وهذا
البحر أشهر :

أطاعها الحسن وانحط الشباب على	قوامها وجرت في وصفها النسب
بضمتين جمع النسيب	
ألقت نقابا على الخدين وانتسبت	لنظارين بقدر ليس يتسب
كانت لنا ملعبا نلهو بزخرفه	وقد ينفس عن جد الفتى اللعب

وهذا النغم نفسه في الميمية التي على بحرهما ورويهما بردة المديح وفي نسج البوصيري ما يدل على نظر منه إليها وقد ألمنا بهذا المعنى في كتابنا «التماسه عزاء» (١) :-

كانت لنا صنما نحنو عليه ولم نسجد كما سجد الافشين للصنم

هل حقا سجد الافشين للصنم ، أم كان في سيوف بنى العباس رهق ؟
وقد افتن البارودي في هذا القسم إذ كنى فيه عن مصر بفتاة بارعة الجمال سلبت فؤاده ثم حجبت عنه . تفصيل الوصف الغزلي الذي فصله ذو مشابه من الذي صنعه كعب إذ قال : وما سعاد إلا أغن غراء فرعاء وما ذكره من أوصاف ، غير أن سعاد كعب هي ذات الفجع والولع والإخلاف ، وسعاد البارودي ليست ذلك ، هي بدر حجبت عوادي الزمان كما يحتجب البدر بليل من الغمام ويالحسوف .

كانت لنا آية في الحسن فاحتجبت عنا بليل النوى والبدر يحتجب

وهذا الغزل مع أنه في حب الوطن ، يقع موقع الاستراحة والتخفيف من حدة انفعال لوعة الشوق والوجدان وشعورى العتاب والندم للذين في القسم الأول .
وعلى وضوح الرمز والكناية بالفتاة الحسنة عن مصر ، فسر البارودي تفسيراً لا يدع محلاً للشك بقوله :

فهل إلى نظيرة يجيها بها رفق	ذريعة تبتغيها النفس أو سبب
أبيت في غربة لا النفس راضية	بها ولا الملتقى من شيعتى كذب
فلا رفيق تسر النفس طلعتة	ولا صديق يرى ما بى فيكتب

وهذه الأبيات الثلاثة التي جاء بها بعد رمز الغزل تفسيراً له ، تقابل الأبيات الثلاثة التي افتتح بها هذا القسم صارحاً بالشكوى صائحا :

فيا سراة الحمى ما بال نصرتكم	ضاقت على وائتم سادة نجب
أضعتموني وكانت لى بكم ثقة	متى خفرتم ذمام العهد ياعرب
أليس في الحق أن يلقى النزيل بكم	أما إذا خاف أن يتأبه العطب

(١) راجع التماسه عزاء ص ٢٢٥ - ٢٢٦

ولكنها فيها عودة إلى روح اللوعة والانفعال .

ثم يجيء القسم الثالث ، وهو في عادة الشعراء للذكرى ، ويخالطها فخر ودفاع عن الماضي ، يجعله الشاعر في مقابلة ما رمي به من نوائب الدهر - كقول امرئ القيس «وقد أعتدى والطير في وكنائنها» وقول علقمة «قد أشهد الشرب فيهم مزهراً» وقول الأسود بن يعفَى «فلقد أرواح على التجار» وهلم جرا . وقد جعله البارودي مجالا لتبرير مواقفه والاعتزاز بها كان من ماضى أمره :

ومن عجائب ما لاقيت من زمني أني منيت بخطب أمره عجب
لم أقترف زللة تقضى على بها أصبحت فيه فماذا الويل والحرب
قوله ومن عجائب إلخ مر تشبيها له بقول أبي الطيب «ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه»
وفيه نفس من قول علي بن العباس :

ومن عجائب ما تمنى الرجال به مستضعفات لهم منهن أقران
ثم يجيء هذا النمط الحر النبيل الجزل :

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلما وأعترب
فلا يظن بي الحساد مندممة فإننى صابر في الله محتسب
أثريت مجدا فلم أعبأ بها سلبت أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفسا وهى عالية ولا يشيد بذكر الخامل النشب
ثم يجيء الفخر الصريح - كقول أبي الطيب «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي» وهو بعد فيه صادق ، إذ قوله مخالطه الأسى لا الغضب ، الأسى الذي هو أخو الغضب كما قال أبو الطيب :

فحزن كل أخي حزن أخو الغضب

وذلك قوله

إني امرؤ لا يرد الخوف بادرته ولا يحيف على أخلاق الغضب
ملك حلمي فلم أنطق بمنديّة وصنت عرضي فلم تعلق بي الريب
وما أبالي ونفسي غير خاطئة إذا تحرص أقوام وان كذبوا

وإذ برر ألبارودي موقفه وجلّى باعتذاره عن نفسه ، له أن يقول ، كالنابغة في آخر «يادار مية»

ها إنها فرية قد كان باء بها في ثوب يوسف من قبل دم كذب
الإشارة إلى قول النابغة : «ها إن ذى عذرة إن لا تكن قبلت» وإلى سورة يوسف «وجاءو على قميصه بدم كذب»

فإن يكن ساءني دهرى وغادرني في غربة ليس لي فيها أخ حذب
فسوف تصفو الليالى بعد كدرتها وكل دور إذا ما تم ينقلب
وهكذا تنتهى هذا القصيدة الرائعة بنفس من الأمل الديني الصادر عن تسليم العبد إلى قضاء مولاه ، وثقته بأن الموقف الذي وقفه لم يكن فيه عليه من مذمة أو عار:
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلمي وأغترب

فكرة الدفاع عن الوطن مع الدفاع عن الدين معنى قديم عند العربي المسلم . ومع هذا ، لا أحسب قوله «وعن وطني» هنا خاليا من معنى روح الوطنية الحديثة التي إنها كانت ثورة عرابي باشا من بعض انفجاراتها وسائر الثورات التي جاءت من بعد .
في كتاب الدكتور محمد صبرى السوربونى أدب وتاريخ في الفصل الذي جعله للبارودي ، قال (ص ٧٢-٧٧) : روى الكاتب (١) : «ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان فتذكر أيام اسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزغ	هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحدا	ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة	للملك منها لوفد العز مرتب
فلا يجيب يرد القول عن نبأ	ولا سميع إذا ناديت يستمع
كانت منازل أملاك إذا صدعوا	بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت	طير الحوادث في أوكارها وقعوا
لو أنهم علموا مقدار ما فغرت	به الحوادث ما شادوا ولا رفعوا
دارت عليهم رعى الأيام فانشعبوا	أيدي سبا وتخلت عنهم الشيع
كانت لهم عصب يستدفعون بها	كيد العدو فما ضروا وما نفعوا

(١) كاتب في عدد المنار ٧-١-١٩٥٥ يرجع السوربونى رحمه الله أنه السيد حسين رضا رحمه الله

أين المعاقل بل أين الجحافل بل
لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصفت
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
لو كان للمرء فكر في عواقبه
وكيف يدرك ما في الغيب من حدث
دهر يغمر وأمال تسر وأعـ
يسعى الفتى لأمر قد تضربه
يأبى السادر المزور من صلف
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
إن الحياة لثوب أنت تخلعه

وقد علق كاتب المنار على القصيدة قائلا: فهذه القصيدة من آخر ما نظم وفيها من
آيات النذر للمغرورين بكثرة المال والدثر (١) - تلك القصيدة من أجود شعر
البارودي، وهى دمعة وفاء على أيام اسماعيل التى كانت أيام صباه، وهى من الشعر
الحى الذى يستمد قوته من الذكرى وهى بكاء على الحال التى آلت إليها البلاد بعد
عودته إليها، ورؤيته المحتل ضاربا بجرانه في نواحيها، ولا ريب أن الألم الصامت كان
في فؤاده كالجمرة تحت الرماد فلم يصرح عنه مقالة، وأشد الألم ما كان مكتوما. وتدل
قصيدته في الجزيرة على أن الرجل كان ثاقب الفكر لا تعوقه الظواهر عن رؤية أبعد
البواطن، فلم تغره الرفاهية المادية التى غرت بعض العرابين بعد رجوعهم من المنفى
فتوهموا أن أغراضهم تحققت، ولم تغره مظاهر العدل المنظم في الظاهر، فأزاح الستار
عن ذلك الظلم الأجنبي المنظم في الباطن الذي يضول بجانبه كل ظلم. من ذلك
نفهم كيف كان الشاعر بالأمس يبكى من إسماعيل فأصبح يبكي عليه. وكأنى
بالشاعر أحس دنو الأجل فاستسلم للقضاء في هذه القصيدة، ولم تحفزه همته إلى
الفخر ومغالبة الأقدار، ورثى نفسه فيمن رثى حين قال:

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

(١) إلى هنا انتهى كلام كاتب المنار ومن قوله تلك كلام السوربوني الى حيث بينا نهايته.

فهذا البيت من خير ما قيل في وصف خروج الإنسان من هذه الحياة الدنيا دون أن يحس الكون بفقده مهما كان عظيماً . قال فيكتور هوجو في المعنى بيتاً يشبه هذا البيت

Je m'en irai bientôt au milieu de la fête

Sans que rien manque au monde immense et radieux (1)

وقد تكون هذه القصيدة في جملتها أثراً من آثار التأمل الذى يعتري الإنسان عند تقلص الأيام وتقلب الدنيا ويدفعه الى عرض الماضى فى صفحة الفكر فإذا بكى عليه كان بكاؤه المر عصاره التجارب والألم . فى فصل كتبه : « إن هذا الوزير الذى اقتدح زناد تلك الهمة ، وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة لم يكن مع شجاعته وإقدامه اللذين بلغ بهما أقصى مبالغها فى مواطن القتال إلا رجل سكينه ووداعة وحلم ، إصابته بكريمتيه هي التي قلصت من كبده وأودت بجسده ثم إن العارف بحوادث حياته لا يكاد يصدق أنه هو الرجل الذى كان ديدنه فى سنواته الأخيرة أن يجمع أطفاله وهم غلامان وأربع فتيات فيجعل لهم مكاناً خصيصاً من البيت لتلقى العلوم واللغات بضروبها على أساتذة يحضرون فى مواعيد كأنهم فى مدرسة قانونية فيرعى سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع مرة ثم يمتحنهم آخر كل شهر ويوزع عليهم المكافآت على أن هذا البر إنما كان إحدى شأئله وفضائله فإن أريد بعض التعداد فالجودة مع الجود والكياسة مع لطف الحس ، والصفح مع المقدرة والإنسان مع علو النفس وشرف الطبع » - إلى هنا ينتهى نقل السوربونى من مطران وأعجب أنا من قوله ثم إن العارف بحوادث حياته لا يكاد يصدق ، وأي غرابة فى أن يهتم عالم أديب مثقف فطن مثله بتعليم ذريته بأجود ما يقدر عليه ، ثم أية غرابة فى أن يحافظ جندي وإدارى مثله على المواعيد وعلى متابعة ما كلفهم بالامتحان والتفتيش والمكافأة وأما رقة القلب فشاهدها شعره وكذلك الشعراء الفرسان . وأما قول الدكتور محمد صبرى السوربونى رحمه الله أنه رثى نفسه ببيت الاعياد والجمع ، فما أرى إلا أنه رثى كل ذوى الإمارة الذين عصف بهم الدهر ، وإسماعيل خاصة ، إذ الناس مما يحسون مقدم الأمير فى العيد والجمعة . وأحسب أن كلام فكتور هوجو الذى خيل به للسوربونى أن البارودى رام معنى كمعناه . وإنما رام البارودى رحمه الله جمع أبي الطيب فى قوله :

مخلى له المرج منصوباً بصارخة له المنابر مشهوداً بها الجمع

(١) سأنصرف والعيد فى عفتوانه ولن يحس فقدانى أحد وسط الزحام الكثيف المنير.

والاعتبار بقول الله عز وجل : «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماء آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين»

ثم يقول السوربوني مستمرا من حيث انتهى نقله من مطران «نضيف إلى ذلك أن البارودي تمكن بفضل جده وكده من تجديد جزء عظيم من ثروته تركه لأهله وذويه ، فكان طول حياته مثال الهمة العليا ، ولم يمنعه قول الشعر من قيادة الجحافل ، ورياسته الوزارة في أخرج الأوقات والعمل . وكل ما يعاب على الرجل أنه لم يوفق في حياته السياسية كما وفق في شعره ، ومهما كان من الأمر فقد كانت حياة هذا الرجل صحيفة كبرى من التأريخ المصرى تشهد له بحسن الطوية وصدق العزيمة وكراهية الظلم ، والاعتدال ، والروية والأناة وهو مؤسس دولة الشعر التى يحمل لواءها اليوم شوقى ومطران وحافظ وآخرون بعد أن غادرهم شيخ الشعراء بعده المرحوم صبرى باشا الذى نعاه اليوم إلى الشعر كما نعى الجود إلى الجود . ولا أعرف رجلا كافح الردى مثلما كافحه البارودي ، وطاعن خيلا من فوارسها الدهر مثلما طاعنها وخاض وقائع الحياة مثلما خاضها ، وقد كان خلق الرجل عظيما وذكاؤه عظيما وشعره عظيما فكان الثلاثة في مستوى واحد . وفي اعتقادى أن أكثر شعره ارتباطا بحياته شعر المنفى ، شعر العواطف شعر الوجدان ، شعر الألم .» - ثم يقول فى أخريات الفصل : وقد لى دعوة ربه فى ٦ شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر سنة ١٩٠٤) (ص ٧٨) .١. هـ نقلنا من السوربوني رحمه الله من كتابه أدب وتاريخ ، فى هذا الموضع قلت وحصر إبداع البارودي فى شعر منفاه فيه بعض النقص من حقيقة قدره ولا يخلو من نوع تشبيه له بأبى فراس ، وكان أبو فراس معاصرا لأبى الطيب مجاريه ويحذو حذوه ويأخذ من لفظه وإيقاعه ومعانيه عن قرب زمان ومكان . وما كذلك كان أمر البارودي . كان البارودي شاعرا فحلا صاحب نهج من حر القريض وأصيله من قبل المنفى ومن بعده واقرا باثيته :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب

وفىها يقول عن تجربة قلب وبيان :

وبحر من الهيجاء خضت عبابه	ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
تظل به همر المنايا وسودها	حواسر فى ألوانها تتقلب
توسطته والخيال بالخيال تلتقى	ويبض الطيبي فى الهام تبدو وتغرب
فما زلت حتى بين الكر موقوفى	لدى ساعة فيها العقول تغيب
لدى غدوة حتى أتى الليل والتقى	على غيب من ساطع النقع غيب

ولا ميتة : «ردوا على سواد اللمة البالى» وفيها يقول :-

قلبي سليم ونفسي حرة ويدي
لكننى في زمان عشت مغتربا
بلوت دهرى فما أحدث سيرته
حلبت شطريه من سر ومعرة
فما أسفت لبؤس بعد مقدرة
عفاصة نزهت نفسي فما علقت
فاليوم لا رسنى طوع القياد ولا
لم يبق لى أرب فى الدهر أطلبه
وأين أدرك ما أبغيه من وطر
لا فى سرنديب لى ألف أجادبه
أبيت منفردا فى ظل شاهقة
إذا تلفت لم أبصر سوى صور

تهفوي الريح أحيانا ويلحفني
ففى السماء غيوم ذات أروقة
كان قوس الغمام الغر قطرة
إذا الشعاع تراءى خلفها نشرت
فلو تراني وبردي بالندى لثق
غال الردى أبويه فهو منقطع
فـذاك مثلي ولم أظلم وربما
شوق ونأى وتبريح ومعتبة
أصبحت لأستطيع الثوب أسجه
ولا تكاد يدي تجري شبا قلبي
فإن يكن جف عودي بعد نضرتـه
علام أجزع والأيام تشهد لي

مأمونة ولساني غير ختال
فى أهله حيث قلت فيه أمثالى
فى سابق من لياليه ولا تالى
وذقت طعميه من خصب وإحال
ولا فرحت لوفر بعد إقلال
بلوثة من غبار الذم أذىالى
قلبي إلى زهرة الدنيا بميال
إلا صحابة حمر صادق الحال
والصدق فى الدهر أعيا كل محتال
فضل الحديث ولا خل فيرعى لى
مثل القطامي فوق المربأ العالى (١)
فى الذهن يرسمها نقاش آمالى

برد الظلال يبرد منه أسهال (٢)
وفى الفضاء سيول ذات أوشال
معقودة فوق طامي الماء سيال
بدائع ذات ألوان وأشكال (٣)
لخلتني فرخ طير بين أدغال
فى جوف غيناء لا راع ولا وال (٤)
فضلتـه بجوى حزن وإعوال
ياللمحبة من غدري وإهمالي
وقد أكون وضافي الدرع سربالي
وكان طوع بناني كل عسال
فالدهر مصدر إدبار وإقبال
بصدق ما كان من وسمي وإغفالي

(١) القطامي الصقر المربأ العالى المكان من جبل نحوه يقف عليه الرابىء والصورة من شعر ذي الرمة وزهير من قبل وقد مرت فى الأوصاف .

(٢) برد الأولى بفتح الباء والثانية بضمها وبرد أسهال أي ممزق

(٣) هنا نظر الى بحيرية البحرى

(٤) غيناء بالغين المعجمة فباء مثناة تحته ساكنة فنون موحده فوقية فألف المد أي شجرة خضراء

راجعت فهرس آثاري فما لمحت
فكيف ينكر قومي فضل بادرقي
أنا ابن قبلي وحسبي في الفخار به
ولي من الشعر آيات مفصلة
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته
فانظر لقولي تجد نفسي مصورة
ولا تغرنك في الدنيا مشاكلة
إن ابن آدم لولا عقله شبح

بصيرتي فيه ما يزري بأعمالي
وقد سرت حكمي فيهم وأمثالي
وإن غدوت كريم العم والخال
تلوح في وجنة الأيام كالخال
ويهندي بسناها كل قوال
في صفحتيه فقولي خط تمثالي
بين الأنام فليس النبع كالضال
مركب من عظام ذات أوصال

هذه الديباجة الصافية لا نظير لها في الشعر المعاصر. وقد كان البارودي بحقيقة ذلك عليها يدل عليه قوله :

ولا تغرنك في الدنيا مشاكلة بين الأنام فليس النبع كالضال
من النبع والضال تصنع القوس ولكنهما لا سواء - إذ الضال ذو شوك وثمر والنبع كما قال البحرني :

وعيرتني خلال العدم أونة والنبع عريان ما في عوده ثمر

وقد اهتدى بسنا البارودي من بعده من القوالين جيل تبعته من بعد أجيال. غير أن نهج قصيدته الأصيل لم يسر حقا عليه من كبار من حذوا على رونق ديباجته وقصروا عنها أحد. إنما سلكوا نهجا دعاهم إليه التجديد - وهو نهج أسلوب المقالة، ثم تفرعت عنه فروع أصناف الشعر المعاصر وما إليه.

أسلوب المقالة : أوائله ، ثانياً

جاء في الكتاب النفيس أدب وتاريخ للدكتور محمد صبري السوربوني في ترجمته لاسماعيل صبري (ولد في ١٦ / ٢ / ١٨٥٤ وتوفي في ٢١ / ٣ / ١٩٢٣ رحمه الله) ^(١) في

(١) نقلا عن الكتاب المذكور ص ١١١ - الفصل الأول من الكتاب الثاني من نفس السفر وفصل الهامش عن حياة صبري، نذكر من ذلك أنه درس بمصر ثم أرسل من مصر إلى فرنسا فنال هناك شهادة البكالوريا ثم الليسانس في الحقوق أي القانون ثم عمل في النيابة العمومية بمصر وبلغ أماكن عالية من مراتب العمل في وظائف الدولة، عين محافظا لثغر أسكندرية في فبراير ١٨٩٦ - ووكيلا لنظارة الحفانية (أي وزارة العدل) من بعد وبلغ غاية ما يبلغه الموظف من مرتبات الدولة سنة ١٩٠٧ فاستقال وأحسبه فرغ من حينئذ كل الفرغ للأدب والشعر.

صفحة ١٥٠ - إلى ص ١٥٤ : « كان الأستاذ خليل مطران بعث بقصيدة دالية إلى محمد بك مسعود بالمؤيد من سقارة على أثر زيارته لأهرامها ، جاء في هذه القصيدة عن فرعون :

شاد فأعلى وبني فوطدا لا للعلى ولا لله بل للعددا
مستعبدا أمته في يومه مستعبدا بنيه للعادي غدا

وجاء فيها عن العمال المصريين الذين بنوا الأهرام :

إني أرى عد الرمال ههنا خلأفا تكثر أن تعددا
مجتمعين أبحرا منفرعاً أين أنهرأ منحدرين صعدا
صفر الوجوه ناديا جباههم كالكلأ اليابس يعلوه الندى
أكل هذي الأنفس الهلكى غدا تبني لفان جدثا مخلدا

اطلع صبرى على هذه القصيدة التي تؤيد نظرية تخالف نظريته فنظم نونيته قائلا إن البناءات لم تتم إلا على يد عمال كانوا يطلبون الإتقان الفني إكراما للفن لا خوفا ولا طمعا . والحقيقة أن صبرى راعى في نظريته ما يسمونه بالوجهة التاريخية الوطنية . أما مطران فقد نظر إلى الوجهة العلمية التي يؤيدها التاريخ فإن بناء الأهرام ما كان إلا سخرة أرهقت الملايين من المصريين وأثارت السخط في البلاد مدة قرنين ، ونظر أيضا إلى الوجهة الاجتماعية القديمة ، فإن الظلم من شأنه إفساد الأخلاق التي لا تحيا الأمم بدونها . على أن شوقي وفق بين النظريتين بطريقة شعرية فلسفية في قوله :

ولن هياكل قد علا الباني بها بين الثريا والثرى تتنسق
هي من بناء الظلم إلا أنه يبيض وجهه الظلم منه ويشرق
لم يرهق الأمم الملوك بمثلها فخرأ لهم يقى وذكرأ يعبق

وقد نظم خليل مطران ردا على قصيدة صبرى نونية أخرى لم يسبق نشرها ، وكان ذلك أثر مشاهدته بعض الآثار ورؤية تمثال محفوظ لرمسيس الثاني في الأقصر . وفي هذه القصيدة عاد مطران إلى نظريته الأولى لأنه يرى أن المجد لا يمس وأن عظمة مصر باقية سواء أكان أصل البنيان الظلم أم غيره ، وأن الفراعنة نهضوا بمصر وإن كان اعتقاد

الشاعر أن ضررهم كان أكبر من نفعهم في جانب شخصية الأمة وتكوينها الحر، قال مطران :

أكبر برميس ميتا لا يلم به	موت وأكبر به حيا إلى الآن
لولا تماثيله الأخرى محطمة	ما جال في ظن فان أنه فان
في مصر عز فراعين فما بلغوا	بها مبالغه في رفعة الشأن
ولم يتم لها في غير مدته	ما تم من فضل إثراء وعمران
تخير الخطوة المثل لـه ولها	يعلو فتعلو به والخفض للشاني
ما زال بالقوم حتى صار بينهم	اله جند تحاييه وكهان
ورب سائمة بلهاء هائمة	تشقى وتهواه في سر وإعلان
يسومها كل خسف وهي صابرة	لا صبر عقل ولكن صبر إيهان
إن بات في حجب باءت إلى نصب	يلوح منه لها معبودها الحاني
فبجلت تحت تاج الملك مدميها	وقبلت دمها في الممرر القاني

وجاء السوربوني بالمنظومة المطرانية كاملة ، وهي خالية كما ترى من رنة إيقاع جزالة القصيد - وأمثال :

ورب سائمة بلهاء هائمة تشقى وتهواه في سر وإعلان
صناعة تقسيم كأنها فطن الناظم بها إلى مغسولية ما نظمه وفقدانه كل طعم فألقى بهذا
عليه ضربا من ملح وأبزار - وفي سر وإعلان إنما هي تنمة مضناة .
وجاء في مختاراته من صبري باشا بالنونية التي هذه المطرانية رد عليها (١٥٧) :

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني	إذا ونى يوم تحصيل العلا واني
ولست إن لم تؤيدني فراعنة	منكم بفرعون عالي العرش والشان
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا	فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجرة كدا دون مورده	أو فاطلبوا غيره ربا لظمان
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمو	لاتركوا بعدكم فخرا لإنسان
أمرتكم فأطيعوا أمر ربكمو	لا يثن مستمعا عن طاعة ثاني

فالمملك أمر وطاعات تسابقه
لا تتركوا مستحيلا في استحالاته
مقالة قد هوت من عرش قائلها
مادت لها الأرض من دعر ودان لها
لو غير فرعون ألقاها على ملأ
لكن فرعون إن نادى بها جبلا
وأزرتـــــــــــــــــه جماهير تسيل بها
ينون ما تقف الأجيال حائرة
من كل ما لم يلد فكر ولا فتحت
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل
برا بذى الأمر لا خوفا ولا طمع
أهرامهم تلك حى الفن متخذا
قد مر دهر عليها وهي ساخرة
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى

جنبنا جنب إلى غايات إحسان
حتى يميظ لكم عن وجه إمكان
على مناكب أبطال وشجعان
ما في المقطم من صخر وصوان
في غير مصر لعدت حلم يقظان
لبت حجارته في قبضة الباني
بطاح واد بهاضي القوم ملآن
أمامه بين إعجاب وإذعان
على نظائره في الكون عينان
جنبنا تطير بأمر من سليمان
لكنهم خلقوا طلاب إتقان
من الصخور بروجاً فوق كيوان^(١)
بها يضعضع من صرح وإيـــــــــوان
ما يأخذ النمل من أركان ثهلان

هذا أراد به المبالغة وهو فيه ضعف ، ولعله لو قال كمثل أخذهما من ركن ، كان من
جهة المعنى أحسن ، واللفظ متهافت على كل حال

كأنها والعوادي في جوانبها
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة
وصغرت كل موجود ضخامتها
وعاد منكرف فضل القوم معترفا
تلك الهياكل في الأمصار شاهدة

صرعى بناء شياطين لشيطان
تسعى اشتياقا إلى ما خلد الفاني
وغض بنيانها من كل بنيان
يشنى على القوم في سر وإعلان
بأنهم أهل سبق أهل إمعان

وفي القافية ضنى - يعني أهل إمعان في السبق والتجويد ، وإمعان وحدها لا تفيد هذا
المعنى

وإن فرعون في حول ومقدرة
إذا أقام عليهم شاهدا حجير
كأنها هي والأقوام خاشعة
تستقبل العين في أنثائها صور

وقوم فرعون في الإقدام كفوان
في هيكل قامت الأخرى ببرهان
أمامها صحف في عالم ثان
فصيحة الرمز دارت حول جدران

١ - كيوان هو زحل

لو أنها أعطيت صوتا لكان له صدى يروع صم الإنس والجنان
قوله «صم الإنس والجنان» متكلف، إذ المعنى «صوتا يسمع الصم فيرتاعون له»
فاحتال على القافية بما ترى، وقد جعل الجن لهم صم كما للإنس صم وأمرهم مختلف
عن الإنس. وكان شوقي أحذق حيث قال على لسان الجن:

نقول حين نصطدم بسادة أو بخادم
صمم صمم صمم صمم عصى عصى عصى عصى

على أن قوله صم الإنس والجنان - تكلف محتمل شيئا

أين الألى سجلوا في الصخر سيرتهم وصغروا كل ذي ملك وسلطان
بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طبي أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مغلدة في الكون ما بين أحجار وأزمان
وزحزحوا من بقايا مجدهم وسطا عليهم العلم ذاك الجاهل الجاني
قوله في العلم: «ذاك الجاهل الجاني» إغراب. وإنما عنى البحث باسم العلم إذ العلم
لا يجني - قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» - والعلم المراد هنا هو ما يسمى
Science، وهذا نظر وبحث واجتهاد فكر وما ينال من طريقه ليس بالعلم حقا، ولكنه
مما يكون بعضه وسيلة وطريقا إلى العلم. والله أعلم.

ويل له هتك الأستار مقتحما جلال أكرم آثار وأعيان
للجهل أرجح منه في جهالتها إذا هما وزنا يوما بميزان
نظم صبري أدنى ألا يكون مغسولا وأسلم من التكلف. خذ مثلا قول مطران يذكر
جبرية رمسيس:

خلدنا دون من قاموا برفعته من شوس حرب وصناع وأعوان
مخالسا ذمة العلياء مضطجعا من مهد عصمتها في مضجع الزاني

البيت الأول واضح وفي سلامة معناه نظر. لأن شوس الحرب قد خلدت ذكراهم كما قد
خلدت ذكراه. وليس له ولا لهم خلود سوى ذلك. والبيت الثاني قوله مخالسا ذمة
العلياء، غير واضح المعنى إلا على تصور أن العلياء هي «لوكريشا» التي خان
مغتصبها ذمتها. فإن كان هذا مراده، أو شيء كهذا أراده، فما معنى مهد عصمتها، إذ
المهد للطفل وما عنى هذا وما عنى في هذا الموضع إلا فراش عصمتها. واغتصاب

العليا أمر مجازي لا يجعل صاحبه زانيا ولو على سبيل المجاز. فتأمل. وإنما هي الفتنة بالتماس التجديد من طريق نقل الأخيلة الافرنجية بلا تدبر. مهما يكن من أمر فإني استوقف القارئ الكريم قليلا عند قول السوربوني بعد عرضه كلمة مطران والإشارة إلى نونية اسماعيل صبري وقد أوردتها كاملة كما تقدم: «كلا الشاعرين في قصيدته يستنبط عبر التاريخ وينظمها درسا نافعا لأمته، كلاهما يحيب داعية الوطنية ويتصر للحق والعدل وإن اختلفت وجهتا نظرهما، وهما متفقان في جوهر الموضوع، في الاشادة بذكر عظمة مصر الغابرة، وعظمة الفراعنة وتنبية الخلف إلى مجد السلف. (١)» (ص ١٥٤).

هنا كما ترى في قوله، موضوع اتفق الشاعران في جوهره ووجهتا نظر اختلفا فيها. مطران يذكر جلال رمسيس، وأنه أجل فراعين مصر قدرا، وأن تمثاله الخالد ما كان أحد ليخطر بباله أنه سيفنى لولا وجود تماثيل أخر له محطمة. إنه اختار الخطة المثلى لتخليد نفسه وحمل شعبه عليها. وإنه كان للجند إله يقدر سونه وللكهنة سيدها رفيع الشأن يتملقونه، وهذه المرأة البلهاء التي جعلها مطران رمزا لبؤس الشعب وطاعته، لم تزل ذات نصب كادحة من أجل رمسيس، يدفعها حبها الديني له وصبرها الصادر عن إيمانها بالوهيته، هي تدمي من الإرهاق الذي يكلفها إياه، وهي تبجله وتقبل الدم، الذي يسيل منها على مرمر الأبنية التي تبنيتها له. (لم يذكر لنا مطران لماذا تقبل المرمر، إذ هي عبارة افرنجية. خطابة الصيغة راقته، ولو تبعتها بالتحليل لاضطرنا ذلك أن نقول بأنها بتقبيلها دم نفسها كأنها تعلن عن تعلق بنفسها يناقض معنى الحب والتضحية والتأليه الذي قد قال به. هذا ويختم مطران القسم الاول من كلامه بأن رمسيس عاد بالفخر كله وأنه هو المخلد دون جنوده وصناعه وأعوانه. وهذه سنة دنيا الطغيان، كم تهلك الجموع فداء لفرد.

ويتنقل مطران في القسم الثاني إلى الشعب أنهم هم الذين يسروا لطيغان رمسيس السبيل بإذعانهم وأنهم بانصياعهم لأمره وصنعهم التماثيل له، مكنوا له كل التمكين. لماذا رضوا أن تنصب له لا لهم النصب، ويكتب اسمه هو لا اسماءهم. ثم يزعم مطران أن الطغيان أحيانا ربما كان منقذا للأمم من الانهيار الأخلاقي. وقوله:

ليت البلاد التي أخلاقها رسبت يعلو بأخلاقها تيار طغيان

نوع من التمني للمنقذ من حال الضعف والانهيار التي كانت عليها أمة مطران
المعاصرة، أن يتاح لها رمسيس يغزو بها ويسومها جبروته ويصنع لها الفخر وتصنع له
التماثيل

يهب فيهم كالعصار فينقلهم من خفض عيش الى هيجاء ميدان
بعض الطفلة إذا جلت إساءته فقد يكون به نفع لأوطان
في كل مفخرة تسمو الشعوب بها تفنى جموع مفاداة لأحـدـان

وهنا روح استخفاف بالمفخرة، غريبة المعدن، مثلها كان يقوله أعداء نابليون عن
مجده ثم جعل مطران خاتمة لكلامه تكبيرا مرة أخرى لرمسيس وإشادة بعظمته والتمس
لهذا من قوله وجها من الحكمة كونيا يتخطى الأرض إلى الأفلاك.

كم في سنى الكوكب الوهاج مهلكة في كل لمح لأضواء وألوان
أي المجد كهذا الضياء الوهاج، إنما يتألق به أمثال رمسيس بهلاك آلاف يهلكون كما
تهلك ذرات الأضواء لينبثق منها هذا التألق الباهر الذي نراه.

ويلاحظ أن مطران قد ناقض بآخر كلامه أوله، إذ زعم في أوله أن الخالد وحده
هو رمسيس وأن الآخرين هلكوا في سبيل ذلك وشقوا وكدحوا في سبيل ذلك، وفي آخره
قد أثبت لهم صورا وجوها غرانا. والحق أنه لا خلد رمسيس ولا خلدوا هم، وإنما
خلدت الذكرى - وهي ذكراهم جميعا ورمسيس قد سخر نفسه كما قد سخر شعبه من
أجل هذه الذكرى، وهي المفخرة التي ذكرها مطران في أخريات كلامه وسخر منها
بأسلوب نثري الذكاء.
ولله رد أبي الطيب إذ قال :-

أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومه وما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها حينما ويسدركها الفناء فتتبع
لماذا يعد الهرمان أنها رمزان للتسخير أكثر من كاتدرائيات شارتر وكولون وونشتر ؟ إن
تك تلك قد أقامها صدق العقيدة، فكذلك أقام الأهرام صدق العقيدة، فهي آثار قوم
كانوا أهل مجد بقيت بعدهم تشهد بمجدهم، ثم سيدركها الفناء، وقد كان كثير من
مثقفي جيل مطران وصبري وأجيال بعدهما إلى زماننا هذا تمسك ببعض قضايا السياسة
والاجتماع التي تصدرها أوربا عن واقعها، تمسكا أعمى، كأنها تبغى أن تقترب إلى

حضارة أوربا وتنسب أنفسها إليها ، فتقبل على تجريح مجدها من ماض وذكراه ، وحاضر وبقاياه ، بأظفار من الدعوى والتقليد كالحات ذوات عيس . وإلى الله ترجع الأمور.

هذا . وقد افتتح صبرى بنداء وحث على لسان فرعون ، وكأنه داع من دعاة الوطنية الحديثة لأهل مصر ، واستجابة من هؤلاء لآخوفا ولاطعما ولكن حبا للإتقان . ويبدو أن هذا المعنى كان دائرا في أوساط المثقفين . ومن شواهد ذلك مثلا قول شوقى .

إذا عمدوا لمأثرة أعدوا لها الإتقان والخلق المتينا

وموضوع الخلق أيضا ، يبدو أنه كان مما يدور في أحاديث الجد والتأمل بين المفكرين . هو كثير عند شوقى . وقد رأيت منه في قول مطران

ليت البلاد التي أخلاقها رسبت يعلو بأخلاقها تيار طغيان

ثم يذكر اسماعيل صبرى ما تشهد به الأهرام والهياكل التى أقامها قدماء الفراعنة وشعوبهم من هذا الإتقان وكيف أنهم سجلوا فيها اخبارهم وسيرهم . ثم جاء هذا العلم الحديث فاعتدى على حرمة اسرارهم بهتكها فالذي فعله جهل والجهل الذي هو عدم معرفة كان أرجح من هذا الذي يسمى نفسه علما ويعتدي باسم العلم ، كان أرجح ميزانا من حيث حقيقة الخير والإنسانية . وههنا احتجاجه بروح غضبة قومية على ظاهر تفوق أوربا المتمثل في هؤلاء الأثاريين الذين ينبشون قبور أجدادنا باسم البحث العلمي .

كلتاها وجهة نظر كما قال السوربونى رحمه الله . غير أن اسماعيل صبرى كأنه أصدق وإلى قلوبنا أقرب . ثم كلامه أصفى وأسلم .

وبعد فجلي أن الطريقة التى سلك مطران وسلکہا صبرى واحدة - ليست هي طريقة الوثب والاقترضاب الذى عند البحترى وقد زعم السوربونى أن اسماعيل صبرى ينسج على منواله . أحسب الذى دعاه إلى هذا القول أنه يرى أن شعر صبرى غنائي ولا سيما مقطوعاته - قال : «عند الافرنج نوع من الشعر يدعى (lyrique) نسبة إلى (lyre) وهي القيثارة ولا أدري ماذا الذى يمنعنا من تسميته بالشعر الغنائي ، فإن هذا الضرب من الشعر كان يغنى به في القرون الوسطى وهو شبيه بالأغاني في الشعر العربي . وقد تفنن صبرى في هذا الشعر الوجدانى ونظم فعلا للغناء أدوارا خاصة منها : (الفجر لاح قوموا يا تجار النوم) ومن أدواره المشهورة دور للغناء قديم على نغمات العود :

مذهب بياتي

قــدك أمير الأغصــان من غير مكــابــر
وورد خــدك سلطــان على الأزامــر
دا الحب كلــه أشجــان يــا قلب حــاذر
والصدويــا الهجران جزا المخاطر
دور

يــا قلب دنت حبيــت ورجعت تنــدم
وصبحت تشكــى ما رأيت لك حــديــرحم
صدقت قــولى ورأيت ذل المتيــم
يــا ما نصحت ونهيت لــو كنت تفهــم
دور

أعــرض لحســنك أوراق واكتــب ودون
وابــات صريع الأشواق واحســب واخــن
دا هجر وصبابه وفراق يــارب هــون
وارحم قــلوب العشاق داشــى يــجنــن

وشعره الغنائى أنواع، منها النوع المتقدم الذى جعل خصيصا للغناء، ومنها ما تتخلله نزعة دينية. وقد نظم لامرتين^(١) من هذا النوع ديوانين. مثال ذلك قول شاعرنا:
[إلى الله]

يــارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غدا ولـالأشرار
لم يبق عفوك في السموات العلى والأرض شبرا خاليا للنار
يــارب أهلنى لفضلــك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
يــا عالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الأوزار
هذه الأبيات من خير ما قيل في الاستعطاف والرجاء وهي من أرقى الشعر الغنائي
الذي يعلو بالعاطفة الدينية الخالصة إلى السماء كما تعلو الصلوات لله، وما أكثر الشبه
بين قوله:

(١) الفونس دي لامرتين ALPHONSE DE LAMARTINE ولد سنة ١٧٩٠م وتوفي ١٨٨٩م فقارب عمره مائة عام كما ترى وكاد ينتخب لجمهورية فرنسا. على أنه اشتهر بشعره الرومانسي والجانب الديني منه خاصة. قالوا كانت أمه متدينة فأخذته بترية دينية خرج عنها الى نوع من الالحاد في أول مراهقة شبابه ثم عاد الى التدين من أجل سلام الروح والحقيقة التي في الاعماق ويعتبر شاعر المسيحية عند الفرنسيين.

ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار

وقول لامرتين

Et j'ai monte devant sa face

(1) et la nature ma dit passe

Ton sort est sublime. Il t'a vu.

«صعدت أمام وجهك الكريم فقالت لى الطبيعة سر في طريقك ما أعظم شأنك . إنه رآك» فأنت ترى كيف التقى الشاعران في سمو الخيال وصفائه . على أننا إذا قلنا إن شعر صبرى الغنائي كان شبيها بالصلاة التى تذهب صعدا نحو السماء فقد كانت الطبيعة له معبدا ، وكانت المرأة في هذا المعبد تمثال جمال» انتهى نقلنا من كلام السوربونى رحمه الله في هذا الموضوع من ص ١٣٥ - ١٣٨

وإنما وقفنا عند هذا النص من كلام السوربونى لانه تنبه فيه إلى مايسمونه: Lyrique الغنائي اصطلاحا ليس هو مذهب قصيدة شعراء العرب . ولكنه منهج أوربي . ثم كأن السوربونى كره أن ينسبه كل النسبة إلى أوربا ، فزعم له أصلا بحتريا لقول ابن الأثير في البحترى « أجاد سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى» وكأنه بذكره أن أصل Lyrique وهي القيثارة يوحى بنوع من الحجة والبرهان على هذا الوجه الذى ذهب اليه . وغير خاف عنه ، لاريب ، أن قولهم Lyrique قد صار اصطلاحا فارق أصله الأول ، وأن الغناء فيه مراد به مذهب من مذاهب البيان يكون صاحبه فيه له طريقة من محاكاة للطبيعة في موضوعه مع تقمصه له تقمصا ذاتيا مباينا لما في مذهبي المسرحية والملحمة من المحاكاة محاكاة صاحب الليريك أشبه بمحاكاة الرسام لما يرسمه من منظر مع تسجيل انطباعه في نفسه ينقل بذلك مع شكل المنظر نوعا من تأثيره الذى أثره على نفسه .

قول ابن الأثير «فغنى» أراد به أن البحترى لم يكتف بإيقاع الشعر ولكن جاوزه إلى إيقاع الغناء - فقوله وصف لرنة الديباجة لا لنفس مذهب البيان . هذا ايضا لا نحسبه كان مما خفي على السوربونى . بل ينبغي أن ننبه هاهنا أنه في هذا الفصل الذى انتسخناه من كتابه ادب وتاريخ - لعله ان يكون من أوائل من تنبهوا الى ان مذهب

(١) هكذا في نص «ادب وتاريخ» بالحرف الصغير والصواب E بالحرف الكبير وهذه الأسطر هي من ٩٧ - إلى ١٠٠

منظومة لامرتين التى عنوانها لانهائية الطبيعة وقصر عمر الانسان

Eternité de la nature,

bréveté de l'homme.

الغناء الاوربي في الشعر Lyrique (كما اصطلاحوا له) شيء جاء به شعراء النهضة، وليس من معدن مذاهب العربية - ونأمل ان نلم بهذا المعنى من بعد ان شاء الله تعالى ونعود الى ما قلناه من قبل ان كلتا هاتين القصيدتين ذواتا جوهر متقارب في الموضوع ووجهتي نظر مختلفتين في المعالجة وبعض الآراء - ثم فيها ما رأينا من طريقة ترتيب للكلام ليست من سنخ :

ميلوا على الدار من ليلي نحييها نعم ونسألها عن بعض أهليها

ثم من بعد :

قد اطرقت الغادة البيضاء مقتدرا على الشباب فتصيني وأصيها
عاطيتها غضة الاطراف مرهفة شربت من يدها خرا ومن فيها
يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والأنسات اذا لاحت مغانيها
أو من سنخ

لو كان يعتب هاجر في واصل أو يستقاد لمغرم من ذاهل

ثم من بعد :

ليدم لنا المعتز إن بملكه عز الهدى وخبا ضياء الباطل
لما كملت روية وعزيمة أعملت رأيك في ابتناء الكامل
ولكنها من سنخ آخر .

في شعر ابن الرومي واصحاب الوصف وكثير من القدماء أمثلة من وحدة الموضوع وترتيبه . وقد نصح ابن طبا طبيا شعراءه برصف الكلام والتفكير فيه منشورا ثم نظمته من بعد ثم ضم اطرافه بملء الفجوات بينها . ولكن جميع هذا ليس بنهج كنهج المقالة الصحفية العصرية الصادرة عن وحدة فكرة وموضوع وتجويد تبويب وترتيب وربط . قد فطن طه حسين ، سقى غيث الرحمة ثرى قبره ، الى ان ابن الرومي تأثر بأساليب الكتاب - هذا في كتابه من حديث الشعر والنثر . ولكنه قد قيد هذا من قبل بأن الكتاب أنفسهم - الجاحظ ورصفاءه وسابقيه الذين مهدوا له من قبل - كل اولئك جميعا قد تأثروا بمنهج الشعراء وطرائق بيانهم . رسائلهم كانت الوانا من شعر كتابي ، كما قصائد ابن الرومي ألوان من كتابة بالشعر . ولا غرو فقد كان كثير من كتاب ذلك الزمان أيضا شعراء . حتى ابن المقفع قد كان شاعرا . والجاحظ أيضا . وقد كان ابن

الزيات والصولي مشتهرين بالشعر . وكان ابن الرومي كاتباً كما كان شاعراً .
مذهب هاتين القصيدتين ليس من مذهب شعراء العصر العباسي والمولدين من
بعد ، السالك طريقة الكتاب . لأن مذهب هؤلاء سنخه سنخ القصيدة . حتى ما
جيء به تعليمياً فلسفياً نحو .

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وزينية صالح بن عبد القدوس ولزوميات المعري - كل ذلك قصيدي السنخ
القصيدة أساسه ومنبته الذي فيه واشجة جذوره . أما هاتان القصيدتان فسنخهما
شيء مختلف سنخهما كالمقالة الصحفية العصرية التي كانت الاقلام قد استطرفتها
وأخذت بها أيام النهضة وجعلتها من عدة النضال والإقبال على تناول حضارة العصر
المتمثلة في تفوق أوربا تفوقاً بالنسبة إليه حال جميع العرب وبلاد الإسلام حال رجعية
وتخلف .

لم يكن اسماعيل صبري ومطران الا من الطبقة الثانية من شعراء النهضة -
اسلوب المقالة الصحفية العصرية الذي في هاتين القصيدتين من نظمهما هو المهيمن
على شوقي وحافظ وتفرعت منه شتى فروع النظم الحديث من بعد .
للبارودي كلمة نظمها في هرمي الجيزة هي التي مطلعها

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري

فيها وحدة الموضوع ، وجودة الترتيب ، وكأنه بها كالسابق الى هذا الاسلوب
المقال ، ولكن تغلغل روح القصيدة في ملكة بيان البارودي وشاعريته أبت عليه الا ان
يكون هو المهيمن على جملة معدن الاسلوب وسنخه - تأمل قوله :

مصانع فيها للعلوم غوامض	تدل على أن ابن آدم ذو قدر
رسا اصلها وامتد في الجو فرعها	فأصبح وكراً للسماكين والنسر
فقم تغترف خمر النهى من دنائها	ونجن بأيدي الجد ربحانة العمر

ألا تحس هنا رنة من قول المعري

رأها سليل الطين والشيب شامل لها بالثريا والسماكين والوزن

وكأنه يرد على قوله :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وقال في آخرها ، في نهج قصيدي واضح :

فيا نسفات الفجر ادى تحيتي إلى ذلك البرج المطل على النهـر
ويا لمعات البرق ان جزت بالحمى فصوبي عليها بالنثار من القطر
عليها سلام من فؤاد مقيم بها لا بربيات القلائد والشذر
ولا برحت في الدهر وهي خوالد خلود الداروي والأوابد من شعري
مع ذلك لكأن البارودي ، حتى في هذا النهج الجديد من حل القصيدة على
طريق المقالة الصحفية نجده ذا سبق وذا تجديد أصيل رحمه الله رحمته الواسعة وجادت
ثره شآبيب الغفران .

لعل القاريء الكريم قد تنبه لتأثير شعر المديح والاذكار على ما سماه السوربوني
شعر اسما عيل صبري الغنائي الديني وأما ما نبه اليه من شبه بعض ما قال لامرتين بما
قاله صبري ، فقد تأسر الرومنسيون الاورييون بالتصوف - تصوف المسلمين - وما يخرج
لامرتين في باب التأثير من هذا النطاق . وقد سبق التنبيه على ان الرومنسيين انما تأثروا في
تقدسهم الطبيعة بالفيلسوف السوري الفرنسي الرومنسي جان جاك روسو . وكان
هذا كما قدمنا واضح التأثير بالصوفية وعلوم المسلمين .

المقالة والقصيدة عند شوقي وحافظ ومن بعد قليلا

المقالة التي قصيدة في ظاهر شكلها والقصيدة التي هي مقالة في باطن أمرها -
توشك أن تكون هي مادار عليه اكثر الشعر الغنائي عند شوقي وحافظ . وسنرجع الى
قولنا الغنائي فنوضح مرادنا منه من بعد إن شاء الله .

كان شوقي طويل النفس ، نظاما ذا ملكة وكان يلتمس اصابة الرصانة ويتحري
أن يكون له نصيب وافر من حسن الديباجة ، وكان يعلم مكان البارودي من جميع هذا
فاتخذ نمودجا غير انه عمد الى مذهب من التجديد اما عن ظن منه ان البارودي مع
ملكته الضخمة قد قصر دونه لغلبة تقليد القدماء على اسلوبه ، وتقيد به حدوده
الضيقة واما عن فطنة منه الى ان ملكته هو دون البارودي ، ولا يستطيع بلوغ مستوى
ديباجته مهما يجتهد في سبيل ذلك ، واذن فليتلأف هذا النقص بما يعوضه من ضروب

الافتتان ، اذ كان البارودي عنده كما هو نموذج ، هو ايضا شاعر معاصر ينبغي عليه أن يتفوق عليه - ليس هو القائل :

شباب قنع لا خير فيهم وبورك في الشباب الطامعينا
أم ليس هو القائل :

شاعر الأمير وما بالقليل ذا القلب
وما أقرب شاعر الأمير في نفس صاحبها أن تكون أيضا بمعنى «أمير الشعر وأمير الشعراء» وهو - كما يعلم القارئ الكريم قد صار عليه علما وله لقب حلية مستمرة فيها بعد وإما - ولعل هذا الراجح - أن يكون قد ظن بالبارودي التقصير عن التجديد واعترف لنفسه بأنه دونه في الديباجة والرصانة وصفاء الأسلوب وأصالته وأن حظه من التجديد لو أحسن القيام عليه جاذب له المستوى الرفيع الذي لا يقدر على الارتفاع إليه ، فممكته بإدناؤه قسرا إلى أن يرتفع فوقه ولو على تباين مسافة بين مكان المستويين وبين نوع حقيقة كل منهما .

وقد مر من شعر شوقي شيء كثير في الجزء الأول من هذا الكتاب وما يصلح للتمثيل به في هذا الموضع مما نحن بصدده قافيته :

من أي عهد في القرى تندفق وبأي كف في المدائن تغدق

وميميته :

يا أخت أندلس عليك سلام

ونونيته : قفى يا أخت يوشع خبرينا

وتوشك أكثر قصائد الديوانين الأول والثاني أن يغلب عليها أسلوب المقالة الصحفية .

ونورد ههنا مثالا واحدا نكتفي به وهو قصيدته «ملكة النحل» :

ملكة مدبرة بامراة مؤمرة

تحمل في العمال والصناع عبء السيطر

فاعجب لعمال يولون عليهم قيصة

تحكمهم راهبة ذكارة مغبرة

أي مرددة صوتها وهي كلمة تصيدها شوقي من القاموس بلا ريب . سمعت ممن لا أشك في صدق خبره ، وذكر ذلك على أنه من أساليب ترزم الشعراء لا يقصد به إلى

طعن فيه ، أنه رحمه الله كان يرصد قوافيه عددا قبل النظم

عاقدة زناها عن ساقها مشمرة
تلثمت بالأرجوا ن وارتدتته مئزرة
وارتفعت كأنها شرارة مطيرة
ووقعت لم تختلج كأنها مسمرة
هذا أول قسم ، وقد تدرج فيه من ذكر مملكة النحل ومملكة النحل إلى صورة النحلة
العاملة . واستعان في الصفة بذبذب عنتره وبيراع النابغة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الجباحب

وفي الأبيات إشارة خفية إلى زنا عدي بن زيد . وكان شوقي رحمه الله أبرع من أن يجعل
شعره نثريا مغسولا كمطران ، أو اجتهدايا كاجتهاديات تلامذة المدارس في موضوعات
الإنشاء - الإشارة والتشبيه والاستعارة وطلب الرصانة في التعبير - كل ذلك مما يرتفع
بدرجات التعبير :

ثم رجع شوقي إلى موضوع المملكة الذي بدأ به ، وجعله تأملا . ولا يخفى بعد ما ههنا
من طريقة العودة القصيدية السنخ :

قف سائل النحل به بأي عقل دبـره
يحيك بالأخلاق وهـ بي كالعقول جوهره
هذا من الموضوعات التي كانت دائرة بين المثقفين والمفكرين - وأحسب أنها إنما كانت
مذهبا من التعبير عن الإعجاب بحضارة أوربا وتفوقها ومحاولة تأويل ذلك بأن
الأوربيين ما تفوقوا بزيادة ذكاء وحذق ومهارة أو رفعة عنصرية كزعمهم وإنما بالأخلاق
التي عنوانها ما هم عليه من دقة النظام والمحافظة على المواعيد والديمقراطية في الحكم
والحرية في الصحافة الى آخر قائمة ما صار يسمى بحقوق الإنسان :

تغنى قوى الأخلاق ما تغنى القوى المفكرة
ويرفع الله بها ما شاء حتى الحشرة
وما أحد يغنى لنفسه أن يكون حشرة ولو نحلة ولا حشرات ولو نملا - اللهم إلا أن
يكره على ذلك إكراها من طريق التناسخ عند من يصححه .

ثم ينتقل شوقي بعد ذكره الأخلاق الى تفصيل ما عناه بذكره ، وأن في ذلك تبصرة
وذكرى - وهذا المعنى كما لا يخفى يشير به الى آية سورة النحل : « وأوحى ربك إلى النحل
أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي

سبل زبك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية
لقوم يتفكرون . »

أليس في مملكة النحل لقوم تبصرة
والحق أن التبصرة في النحل لا في مملكة النحل - ولكن شوقي إنما جعل هذا رمزا لقضية
النظام والأخلاق ، وما الإشارة الى التبصرة إلا مذهب من تزيين الأساليب
ملك بنياه أهله بهمة ومجدرة
لو التمسست فيه بطال اليديين لم تـره
تقتل أو تنفي الكسالى فيه غير منـذرة
« منذرة » هذه من لغة دواوين الموظفين

تحكم فيـــــــــــــــــه قيصره في قومها موقرة
جعلها قيصره لغلبة فكرة تحرير المرأة على الأذهان . فهو يشبه المرأة هنا بعاھلة اوربية ،
هي هذه المرأة الأوربية التي شرعت تبارى الرجال وتنافسهم وكان سبيل شوقي إن كان
حقا يعني التشبيه بامرأة حاكمة أن يذكر بلقيس أو كليوباترة أو الزباء ، فليس للروم
قيصره بهذا المستوى - اللهم إلا أن يجعل كاثرين الروسية واليزايث الانجليزية بتلك
المنزلة . وقد كان يقال للملكة الروسية القيصره ، وكانت كاثرين ذات جبروت ودهاء .
من الرجال وقيود حكمهم محرة
لاتورث القوم ولو كانوا البنين البررة
الملك للإناث في الدستور لا للذكورة
بكسر الذال وفتح الكاف بعد وهو جمع نادر الاستعمال من المتصيدات بلا ريب :
نيرة تنــــــــــــــــزل عن هـــــــــــــــــالتهـــــــــــــــــا لنيرة

هذا من ترنم شوقي ، وهو شيء قصيدي المعدن ، ولا يزيد به المعنى كبير شيء - ولكنه
دندنة حسنة . قولنا لا يزيد به المعنى كبير شيء لأن مراد شوقي من قوله «نيرة» غير
واضح ، وإنما هي عبارة مدح للملكة النحل ، جعلها نيرة لتوهمه على رأسها تاجا يلمع -
أو هو مفرد انتزعه شوقي من جمع المؤنث السالمات : النيرات . ولشوقي ولع بالترنم به :
المرعات من النعيم الراويات من السرور
العائرات من الدلال الناهضات من الغرور

الأمرات على الولاة الناهيات على الصدور
الناعمات الطيبات العرف أمثال الزهور

وأصله من أبي الطيب -

بأبي الشמוש الجانحات غواربا اللباسات من الحرير جلابيا
المنهبات عقولنا ونفوسنا وجناتهن الناهيات الناهيا
وهلم جرا -

فهل ترى تخشى الطماع في الرجـال والشره
هذه قافية لا تعجب ابن رشيق ، ولا بأس بها على قلق ما

فطالما تـلاعـبـوا بالهمـج المسيرة
وعبروا غفلتهم الى الظهور قنطرة
هنا تعريض - وأنفاس من روح العصر التحررية الدعوى
وفي الرجـال كـرم الضعف ولـؤم المقدرة
وفتنـة الرأى وما وراءها من أثر

وهذه الحكمة كأنها استطراد - ولكنها متصلة بالموضوع اتصالا غنائيا . وذلك أن هذا المنهج الذي سلكه شوقي من وحدة الموضوع وجودة الصياغة والترتيب ، معه تأمل ذاتي ، مستمد من نفس الموضوع ، مشع به وعليه - هذا منهج «ليريكي» . وهنا يصدق حدس السوربوني إذ فطن الى أن في طريقة اسماعيل صبري غنائية ، وقد رام تفسيرها بأداء الغناء ذي الأدوار . ولكن تفسيرها هو هذا . وهذا المنهج عند شوقي وحافظ كليهما أوضح ، وهو مما فارقاه بنية القصيدة القديمة ، بنوع من تجديد غربي المعدن . ثم رجع شوقي من الاستطراد الى قيصرته :

أنثى ولكن في جنـا حيهـا لبـاة مخدرة
واللباة أنثى فالمقابلة غير جيدة إلا على توهم نوع من " لكن " نابغي مثل " غير أن " التي في قوله .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
ولا يخلو البيت على ظاهر صياغته من نوع غير متقن الصقل . ولماذا خص الجناحين باللبوة . هل أراد أنها على طيرانها لبوة ؟ كلا - أراد فقط أنها أنثى من صغار النحل ولها من قوة عظام السباع كمثلى قوة اللبوة وشراستها

ذائدة عن حوضها طاردة من كـدوره
تقلدت إـبـرتها وادـرعت « بـالـحـبـرة »
فصارت القيصرية هانما ست بيت ترفو ملابس الزوج والأسرة - وانجرف شوقي مع
التغيم والرغبة في طول النفس ، فخلط في كلامه بها يشبه الإسفاف .
كأنها تـركـيـة قـد رابـطـت بـأنقـرة

ولو رابطة بازمبر أو افيون قره حصار أو اصطمبول ، لكنت أيضا تركية - وإنما جلب
" أنقرة " القافية ، وهذا مما يقع تحت ما عابه قدامة حيث تمثل بقول الآخر:
فوقاك الإله من وارث وا ل وأبقاك صالحا رب هود

ثم ما للنساء والمراطة ؟- تأمل تداعي المعاني ، الإبرة « والحبرة » جاءت بالتركية . أنقرة
جاءت برابطة لـيـتم البيت ، ولعمري ، إذ قد اتهم ابن الباقلائي امرأ القيس بالحاجة الى
إتمام الوزن في تكراره الخدر حيث قال « ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة » وامرؤ القيس
من لا يتهم ، فإن غيره لن يجوز إن اتهم شوقيا بالحاجة الى مثل ذلك في قوله :
كأنها تـركـيـة قـد رابـطـت بـأنقـرة

ودعت « رابطة » « جان دارك » ، كأنه يرد به على من زعم أن النساء لا يرابطن - واستطرد
الى ذكر شيء عن « جان دارك » .

كأنها جـان دارك في كتيبة معسكرة

وينبغي أن تنطق « جندرك » لكيلا يلتقى ساكنان في حشو البيت

تلقي المغير بالجنود د الخشن المنمرة

المغير هنا هم الانجليز أعداء شوقي وأعداء قومه . فقد جعل " جندرك " رمزا
وطنيا ، فصرفه ذلك عن التركية ذات « الحبرة » :-

السـابـغـين شـكـة البـالـغـين جـسـرة

هذا البيت ترنم وفيه وهن إذ مراده البالغين غاية الجسارة ، ولكنه حذف معمول
البالغين ، فصار فيها معنى البلوغ وحده ، ولا يصلح وحده إلا على أن يتم نقص معناه
قارئه . وجسرة حال أي حال كونهم جاسرين ، جمع جاسرا على جسرة ، كما في بيت
الجموع -

غلماهم للأشقياء عملة قطاع قضبان لأجل الفيلة
والعقلاء شرد ومنتهى جموعهم في السبع والعشر انتهى

ثم أطنب في نعت بطلته « جندرك » عدوة الاستعمار

قد نثرتهم جعبة ونفضتهم مئبرة

هنا باخ الترم بسبب إسراف شوقي فيه . فقد صارت « جندركه » حجاجا أو عبد الملك بن مروان الذي في خطبة الحجاج : « نثر كنانته بين يديه وعجم عيدانها » . ثم عادت من حجاجيتها ومروانيتها هانئا تركية في « نفضتهم مئبرة » - وترك الشاعر مأساة « جندرك » المسكينة أن يلم بها ، ولو كانت حقا نثرتهم ونفضتهم ما أسلموها للعدو والنار ذات الوقود -

من يمين ملكا أو يذذ فبالقنا المجرة
إن الأمور همة ليس الأمور ثرثرة
ما الملك إلا في ذرى الـ ألويصة المنشرة

هذه المعاني من أبي الطيب ألبسها شوقي لغة الصحافة ، وهو ههنا كأنها يفسر مملكة النحل بها جعلها رمزا له ، وهو دولة مصر لو صار ابنائها نحلا وخديويها قيصرًا ، أو قيصر جندركية تطرد اللوردات الملاعين

عرينه مذ كان لا يحميه إلا قسورة
رب النيوب الزر ق والمخالب المذكرة
أحسبه عنى بالزرق ، زرقه الحديد ، كناية بذلك عن مضى حدها ثم بعد أن فسر الرمز عاد اليه :

مالكة عاملة مصلحة معمرة
المال في أتباعها لا يستين أثرة
كما في أتباع ملوكنا يا صاح - هذا مراده إن شاء الله .

لا يعرفون بينهم أصلا له من ثمره
لو عرفوه عرفوا من البلاء أكثره
كما عرفنا نحن - وهنا رجعة الى موضوع الأخلاق . وغمزة من غمزات السياسة :

واتخذوا نقابا لأمرهم مسيرة
سبحان من نزه عنه ملكهم وطهره
وساسه بحجرة عاملة مسخرة
صاعدة في معمل من معمل منحدره
واردة دسكرة صادرة عن دسكرة

بأكبره تستنهض السـ ————— عصائب المبكـرة
ثم يحىء الترنم بجمع المذكر السالم على طريقة أبي الطيب :

الثابتين فروسة كجلودها في ظهرها والطعن في لباتها
العارفين بها كما عرفتهم والراكين جدودهم أماتها
قال شوقي من بعد قياسا على هذا النمط :

السامعين الطائعيـ ————— من المحسنين المهـرة

ولا يخفى أن أصل النسق قرآني، ولكن شوقي كان بمحاكاة الشعراء ومجاراتهم مغرى
وبذلك أدرب، فهذا زعمنا أنه أخذ بطريق أبي الطيب

من كل من خط البنا ء أو أقسام أسطوره
أو شد أصل عقده أو سده أو قوره
أو طاف بالماء على جدرانـه المجـدرة

ثم اختتم شوقي هذه المقالة القصيدية بعودة الى صفة النحلة، وقد كان وصفها
مفردة، فالآن جاء بها في جموعها - في ثولها الدائب ذي الدوى :-

وتذهب النحل خفا فأتجىء موقرة
حوالب الشمع من السـ خائل المنـورة
جـوالب الماذي من زهر الـريـاض الشيرة

ذوات الشارة أي الحسن والكلمة متصيدة

مشـدودة جيـوبها على الجنى مـزررة

هنا عودة الى ذباب عنتره

وكل خرطوم أدا ة العسل المقطـرة
وكل أنف قـانىء فيه من الشهد بـرة
هل رأى شوقي أنف النحلة ؟-

ذكر هذا المعنى - طرفا منه - في قوله أول شيء : " تلثمت بالأرجوان " - وبعيد أن
يكون رحمه الله قد تبين أنف النحلة كل هذا التبين ولو قد وقع هذا البيت لأبي عثمان
لعهده من باب الجسارة - كالذي ذكره عن بعض رواته أنه جسر فزعم أنه رأى أير ذباب
وهو يكوم ذبابة

حتى إذا جاءت به جاست خلال الأدورة

ونظم الآيات عني، وأخذ هذا من الآية: «فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا» ظاهر جلي [آية أول الإسراء].

وغيبته كالسلاف في الدنان المحضرة

هذا التشبيه ضعيف، إذ العسل أصل في النعمة، ولا يقال غسل كالخمر، وإنما يقال غسل ولبن وغسل وخمر - قال حسان رضي الله عنه

كَأَن سَيْئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مَزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
عَلَى أُنْيَاسِهَا أَوْ طَعْمُ غَضٍّ مِنْ التَّفَاحِ هَصْرُهُ اجْتِنَاءٌ

ومثل هذه الزلة عند شوقي كثير، وهو قصر باع في صناعة ديباجة القريض.

فهل رأيت النحل عن أمانة مقصرة

رجع هنا كما ترى إلى المعنى الأخلاقي. ولكنه توهم أن كل النحل جوارس من بساتين تعد لهن، وكان رحمه الله امرأ موغلا في الحضارة. وعمل ذلك أن يكون مما جعل جزالة بداوة القصيدة - وهي بداوة قلب وروح أول من كل شيء - تعسر عليه وتستعصي على طول المحاولة المجتهدة منه. وإذ نحل شوقي نحل بساتين فإنهن لأمانتهن كالمقترضات من الناس حين يجرسن من أزهار بساتينهم، ولأمانتهن يؤدين ما اقترضنه سكرة بسكرة - وهي قافية لا تسلم من عناء - قال:

مَا اقْتَرَضْتُ مِنْ بَقْلَةٍ أَوْ اسْتَعَارْتُ زَهْرَةً

أَدْتُ إِلَى النَّاسِ بِهِ سَكْرَةً بِسَكْرَةٍ

ولنتظر الآن في مقالة حافظة بعد هذه الشوقية. وكان حافظ من تلاميذ البارودي، يحذو على نموذج ديباجته، فتشرق عليه من ذلك أحيانا إشراقة. وما جعل البارودي نموذجا يبغي أن يتفوق عليه بمحاكاته كما فعل شوقي، إذ كأنه كان كالمسلم يتفوقه واستاذيته ولكن منافسته كانت لشوقي. وقد مر لي في كلام سابق: «وحافظ إبراهيم شاعر قرنه حسن الجذ بشوقي، وتعصب بعض الناس له، لما كانوا يجدونه في شعره من كلام يناسب روح العصر السياسي المغيظ على البريطانيين. وشعره في حد ذاته لا يجوز أن يقاس ويقرن مع شعر شوقي، ولعل مسافة ما بينه وبين شوقي أبعد من مسافة ما بين ابن حجاج والمتنبي - أقول الآن، لعل هذا القول أن يكون فيه جور على حافظ، إذ هو أحيانا أصفى ديباجة من شوقي، وهذا وجه أحسب أن الدكتور طه حسين ذهب إليه في بعض ماتناولها به من الدرس والنقد. وإلى القارئ بعد بانيته التي عنوانها عادة اليابان - هي أيضا مقالة قصيدية فيها عنصر غنائي. وحرص حافظ على مقارنة روح القصيدة بنفس فيه أصداء من جزالة البارودي ومقدمات تأملات القدماء التي يجعلونها تهيدا حزين النغم يقوم مقام النسيب، كقول الأعشى مثلا:

لعمرك ما طول هذا الزمن على المرء إلا عناء معن

قال رحمه الله:

لَا تَلَمْ كَفِي إِذَا السَّيْفُ نَبَا صَحْ مِنْي الْعِزْمُ وَالْدَهْرُ أَبِي
رَبِّ سَاعٍ مَبْصَرٍ فِي سَعِيهِ أَخْطَأُ التَّوْفِيقَ فِيمَا طَلِبَا
مَرْحَبًا بِالْخُطْبِ يَلُونِي إِذَا كَانَتِ الْعِلْيَاءُ فِيهِ السَّيَا

عقنى الدهر ولولا أننى أوثر الحسنى عقلت الأدبا
إيه يادنيا عبسى أو فابسمى لا أرى بـرقك إلا خلبا

المطلع جهير قصيدى قارع للسمع

ثم هو خطابي وسوخ هذا للشاعر أن يتخذ سمتا من الخطابة الواعظة في البيت الذي تلاه - غير أن هذا البيت بدأ بحضر جيد ثم انبهر إذ كأن حافظا أراد به تقوية المعنى الذي أصابه في المطلع ولكن مراده لم يستقم له . قوله «الدهر أبى» - أجود وأوجز من قوله «أخطأ التوفيق فيما طلبا» ، إذ هذا فيه عناء والتوفيق ليس بالذي يخطئه طالب ، وإنما هو عون يجيء من الله سبحانه وتعالى . قوله «رب ساع مبصر في سعيه» يحتاج إلى تكملة قوية إذ هو بداية وتوطئة حسنة ، فهذا قولنا إن حافظا بدأ بحضر (أي جري) جيد ثم عجز من بعد .

والبيت الثالث أوله حسن ، وتتمته تحتمل ولكن فيها عناء . والمعنى في صدر البيت الرابع واضح ولكن العجز فيه غموض ، مع ما عمد إليه حافظ من المقابلة . ولكأن حافظا جعل في هذا النفس الخطابي بعض كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، خذوا يحنديه ، وذلك مثل قوله عليه السلام : «يا دنيا غرى غيري» وقوله : «ولكن لا رأي لمن لا يطاع» وقوله «ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل» وقديما قالوا إن زيادا والحجاج وعبد الحميد الكاتب ، كل أولئك تعلموا البلاغة من خطب أمير المؤمنين كرم الله وجهه . فأخذ حافظ من بلاغته سير منه على طريق مهيع . وعجز البيت الخامس «لا أرى بـرقك إلا خلبا» أضعف من صدره .

على أن المتأمل لهذه الأعجاز الضعائف ، واجد فيها جميعا مشابه غير الضعف . نوعا من مسرحية «في جواب سؤال» رب ساع مبصر الخ - ماذا جرى له : لم يوفق . مرحبا بالخطب ، لماذا ترحب به ؟ لأنه طريق إلى العلياء ، العلياء هي السبب الذي جاء به . عقنى الدهر ولولا أننى أوثر الحسنى - ماذا كنت تفعل ؟ كنت سكت وغملت الاستعمار ولم أقل شعرا . إيه يا دنيا عبسى أو فابسمى . لماذا هذه التسوية ؟ لأنك كاذبة ، عبوسك وابتسامك سواء وبرقك وبرق خلب .

هذا الأسلوب الذي حاق مذهب رصانة القصيدة لا يرضاه ، يرضاه حاق مذهب الصحافة الشعبية كل الرضا . ويكتسب في ضوء هذا الرضا ، نوعا من صفاء في الديباجة . فتأمل .

ثم بعد أن جعل هذه الخطابة العلوية الشكوى مقدمة ، صرح بمعنى استشارة الهمم الراكدة . التي ركودها هو سبب شكواه . وهذا موضوع الأخلاق التي هي النظام والدأب والتدبير المبلغ إلى مثل مستوى حضارة أوروبا

أنا لولا أن لي من أمتي	خاذلا مات أشكو النوبا
أمة قد فت في ساعدها	بغضها الأهل وحب الغريبا
تعشق الألقاب في غير العلي	وتفدي بالنفوس الرتبا
وهي والأحداث تستهدفها	تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها	أم بها صرف الليالي لعبا

فهذا خاتمة لومه أمتة التي أحوالها المؤسفة هي سبب شكواه الدهر. البيتان الأولان ثانيهما متم معنى أولهما وأولهما محمد لتاليهما، متضمن سؤالاً فيه جوابه - إذ السؤال كيف خذلتك أمتك؟ والجواب أنني أدعو إلى حب الأهل وبغض الأجانب وهي لا تطاوعني على ذلك. وكلمة الغرباء لا تؤدي معنى الأجانب، أجانب أوروبا وخاصة البريطانيين المستعمرين، ولكن حافظاً لم يجد غيرها. وكلمة الأهل أيضاً لا تؤدي معنى المواطنين. ولكن مراد الشاعر مع هذا ظاهر. ثم «في الأهل والغرباء» نوع من نفس بلدي شعبي، يوهم بأن الشاعر قد قصد إلى هذين اللفظين قصداً، ولم يلجئه إليهما عجز أو إعياء. قوله «وتفدي بالنفوس الرتبا» إن هي إلا إطناب في معنى صدر البيت «تعشق الألقاب في غير العلي» وصدر البيت أوفى. وهل أراد حافظ لغير العلي تفسيراً بقوله «وتفدي بالنفوس الرتبا»؟ فالرتب من العلي. وكأن حافظ يسخر من هذا الذي يتوهمه طلاب الرتب أن فيها العلي. والتعبير بعد صحفي لأن قوله «وتفدي بالنفوس» إنما أراد به تبذل المجهود العظيم من أجل الحصول على الرتب، فكأنه النفيس الذي يفدى بالنفس والنفيس. وقوله «تهوى الطربا» أجود لو قال وتهوى اللعب، لأن اللهو واللعب مصطحبان، وعلى ذلك وبه جاء بيان القرآن. ولكن حافظاً احتاج إلى اللعب في البيت التالي، ليهزأ من أذنان الاستعمار الذين لهم في الدولة مكان، أنهم قد سمحوا للقوم أي الإنجليز أن يعبثوا بمصالح مصر، ثم ما كان لهم عند أنفسهم من اعتذار إلا أن ينسبوا ما حل بهم وبأمتهم إلى صروف الليالي، «وتلك الأيام نداؤها بين الناس» - وإذا تأملنا جانب الخطابة الهازئة في «لا تبالي لعب القوم» - وسر الهزؤ كله في القوم الذين هم أيضاً صرف الليالي، تبين لنا أن حافظاً لعله مصيب في ادخار كلمة اللعب، ليكون اللهو الذي هو طرب منهم واللعب المصاحب معه، من القوم ومن الدهر المهيمين عليهم.

ثم أخذ حافظ يقص قصة اليابان على لسان رمز ضمنه معنى الحرية متمثلاً في المرأة الجندركية الباسلة، ثم في مشاركتها للرجل في تحمل الاخطار والنهوض بما تطلبه

واجبات حضارة العصر ودواعي التقدم المنشود . ولا يخفى أن الدب الذي هو رمز الاستعمار الروسي بالنسبة لأهل اليابان والمشرق الأقصى ، هو أيضا رمز للاستعمار البريطاني الجاثم على مصر ، إذ اليابانية هي الكناية عما في ضمير مصر الناهضة المشرّبة إلى تجديد مجدها القديم

ليتها تسمع مني قصة ذات شجر وحديثا عجبا
كنت أهوى في زماني عادة وهب الله لها ما وهبا
ذات وجه مزج الحسن به صفرة تنسي اليهود الذهبا

هل أراد حافظ هنا الإشارة إلى الآية : « إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » ؟ لماذا خص اليهود هنا بأن صفرة هذه الفتاة تنسيهم الذهب هنا بلا ريب مبالغة ذات لون من مفاكهة شعبية إذ لا ينسى اليهود صفرة الذهب مهما يبلغ جمال صفرة الحسناء اليابانية من البهجة . وهنا أسلوب صحفي ، وكأن شعور حافظ بصحفيته هو الذي دعا من بعد قوله :

حملت لي ذات يوم نبأ لا رعاك الله يا ذاك النبا
وإنما تحمل الأنباء الصحف . وفي القافية قلق . ولعلها كانت تكون أقوم لو قد قال : لا رعاك الله يا ذاك نبا من دون الألف واللام وتخفيف الهمزة فيه ما فيه ، إذ الألفات اللاتي سبقن كلهن ألفات إطلاق إلا أبى ونبا ورنتها مع ما تلاهما منسجمة .

وأنت تخطـــــر والليل فتى وهلال الأفق في الأفق حبا
ثم قالت لي بشعر باسم نظم الدر به والحبيبا

هذا البيت على بساطته وكثرة تداول الشعراء مثل لفظه ومعناه ، سلس الموقع ههنا . قوله نظم الدر به ، يعود الضمير فيه إلى معنى الابتسام ، فالدر الثايبا والأنياب اللاتي لهن وميض والحب هو اللمى ، إذ الشفتان خمر . والبيتان اختزلها حافظ من مغامرات عمر وأضرابه من شعراء الغزل اختزال إشارة حسنة الموقع .

نبشوني بـرحيل عاجل لا أرى لي بعده منقلبا
ودعاني وطني أن أغتدى علني أقضى له ما وجبا
نذبح الدب ونفري جلده أيظن الدب ألا يغلبا
قلت والآلام تفـرى مهجتي ويك ما تصنع في الحرب الظبا
ما عهدناها لظبي مسرحا يتغنى ملهى به أو ملعبا

ليست الحرب نفوسا تشتري بالتمنى وعقولا تستبى
أحسبت القـد من عدتها أم ظننت اللحظ فيها كالشبا
فسليني إننى مارستها وركبت الهول فيها مركبا
وتقحمت الردى فى غارة أسدل النقع عليها هيدبا
قطبت ما بين عينها لنا فرأيت الموت فيها قطبا
جال عزرائيل فى أنحائها تحت ذاك النقع يمشى الهيدبى
فدعيها للذى يعرفها والزمى ياظلية البان الحبا
أعلنت فتاة حافظ بينها إعلانا مفاجئا هي نفسها له . لم تسبقه بأمرها كما سبقت أم
عمرو الشنفرى . وما كانت فتاة حى ظعينة يعلق بها القلب ثم ما هو الا أن تروع المحب
حمولة أهلها وهي تسف الحب ، وركائبها قد زمت بليل . إنها فتاة عصرية يابانية ضربها
مثلا يستحث به مصر وأمتها التى تشد العز والتحرر . وقد أحسن حافظ إذ جعل
اليابانية التى تذبح الدب الروسى رمزا لما يأمله من نهضة أمته المصرية العربية المسلمة
لتذبح الاستعمار البريطانى وتغوله الصليبي ، ذلك بأن اليابان بدأت نهضتها فى وقت
مقارب لبداية محمد علي إلا أن محمد علي بدأ بالحربية والأسطول فى بلد عيون أعدائه
عليه مفتوحة أشد التفتح بالمراقبة والحذر ، والكراهية الدينية العميقة الجذور . فانتهزوا
أول فرصة فوثبوا على الأسطول المصرى فأغرقوه . وعلى تقدم الجيش المصرى فصدوه . ثم
دخلوا مصر بتاريخ " استعمارهم " المعروف . وقد كان محمد علي بجهله وغروره مطية
من مطاياهم تذرعوا به الى التوغل فى افريقية وإدخال التبشير من وراء ظهر الاسلام
ليطعنوه به . وكان أمر الله قدرا مقدورا .

هذا وقد تصرف حافظ فى نهج القصيدة . شاعر قصيدته يشكو إخفاقه ونبو سيفه
وعقوق الدهر له والخذلان الذى حاق به فى مكان نسيب الشعراء . ويأتى بنسيب رمزى
فتاته يابانية فارسة مقاتلة هى التى تعلن العزم على رحيل جد ، لا رحلة ظعينة على
هودج ، ولكن رحلة عزم كالتى زعمها طرفه لنفسه ولناقته حيث قال :

على مثلها أمضى إذا قال صاحبى ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى
وجاشت اليه النفس يوما وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد

وقد اصطنع حافظ حوارا خطابي الصيغة ، لا يقصد به إلى تمثيل ما يقع من حوار
غرامى ، ولكن جعله مذهبا من مذاهب التحضيض والموعظة الحسنة . وقد تلاحظ
جانب المبالغة الشعبية الصحفية الفكاهية الروح شيئا فى قوله :

قلت والآلام تفرى مهجتى ويك ما تصنع فى الحرب الظبا

النفس ههنا مصرى قاهرى خالص . ثم أتبعه حافظ عبارة ذات لون من تفخيم « ما عهدناها لظبي مسرحا » - ثم فرغ من هذا المعنى نوعا كأنه تعريض بـ « عليه حال النساء المحجبات النواعم

أحسبت القـد من عـدتها أم ظننت اللحظ فيها كالشبا

فسليني إننى مارستها . . .

والآيات التى تلى ، على أنها مذهب خطاب ، لا أكاد أشك أن حافظا انتزعها من ذكرى تجربة حرب خاضها حقا . أو شهدا تخاض . أو كأن قد فعل لقرب عهد بخوضها . وذلك أنه كان في جيش كتشنر الذى حارب الخليفة رحمه الله . وقد وصف قتالهم بخيلهم وحراهم الواصفون ، إذ هم تحصدهم نيران المكسيم ، ويقدمون ، رجاء الشهادة في «شأن الله» وفي «سبيل الله» . وما يدل على صدق المشاهدة ذكره النقع وهو غبار "كررى" . ووصف حافظ قريب في جوهره والصورة الخاطفة التى صورها من وصف المستر تشرشل في كتابه The River War وما ينبىء بخوف حافظ قوله : «جال عزرائيل في انحائها» وما كان مشيه الهيدى ، إذ الهيدى من مشى الإبل ، وإنما كان يشد شدا . وأحسب أن حافظا قصد إلى التجنيس حيث جاء بـ «هيدا» بـ «هيدا» بـ «هيدا» . وقد يكون استشعر في لفظ الهيدى نوعا من التهويل . ثم رجع إلى التعريض بحال الحجاب والتنعم مرة أخرى : «والزمي ياظبية البان الحبا» وفي هذا من روح الفكاهة المصرية بعض الأنفاس . وكذلك في قوله من بعد :

فأجابتنى بصوت راعنى وأرتنى الظبي ليشا أغلبا

وقد التزم شوقى في مبالغته "جنس النحلة إذ جعلها لبؤة . وحول حافظ نوع الظبية وجنسها معا فجعلها أسدا ذكرا . وفي كلتا الحالتين مذهب الشاعرين قريب من قريب ، إذ ما عدوا التصرف في تشبيه البسالة المعروف . ومثل هذا التصرف من طبيعة الأسلوب الخطابي أو الكتابي المبسط الصحفي المنحى إذ اللبؤة والأسد الأغلب ليسا هنا تصويرا ولكن عبارة لفظية بحتة ، كما لو قال شجاعة مع صفة تقويها نحو جد شجاع وحق شجاع وجد شجاعة وحق شجاعة وهلم جرا .

فأجابتنى بصوت راعنى	وأرتنى الظبي ليشا أغلبا
إن قومى استعذبوا ورد الردى	كيف تدعونى ألا أشربا
أنا يابانية لا أنثنى	عن مرادى أو أذوق العطشا

قوله راعني فيه تشبيه لصوتها بزئير الأسد الذي شبهها به . ثم رجع بها في ساحة الحرب
طبية مرة أخرى . وفي كل ذلك من أربه التنبيه على دور النساء الذي ينبغي أن يقمن به
في نضال العصر الحضاري الجديد . ولا يخفى أنه بذكره تضميد الجرحى وحصره عمل
مشاركة المرأة الحربية في هذا الباب ، يرمى إلى ما كان يعتقد هو وكثير من مثقفي عصره
من ضرورة التوسط في أمر تحرير المرأة والاعتدال الذي فيه إبقاء على كثير من محافظة
الحجاب والحشمة التي معه

أنا إن لم أحسن السرمى ولم تستطيع كفاى تقليب الطبـا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم وأواسى في الوغى من نكبا
وهذا منهج التمريض الحضاري الجديد الذى تنسب أوائله إلى «فلورنس نايتنجيل» -
وهو أقدم من ذلك بدهور.

هكذا الميكاد قد علمنا أن نرى الأوطان أما وأبا

«الميكاد» هنا رمز للمستبد العادل . أو الطاغية المصلح ، كما زعم مطران ولا يخفى
التناقض . أو رمسيس :

ملك يكفيك منه أنه أنهض الشرق فهز المغربا

وإنما أراد الغرب ، إذ المغرب لا يعرف علما إلا على بلاد المغرب الاسلامية ولكنها
القافية . ولا أحسبه واجدا غيرها .

وإذا مارسه ألفيته حولا في كل أمر قلبا

مثل سادة بني أمية - معاوية وعبد الملك والوليد

كان والتاج صغيرين معا وجلال الملك في مهد الصبا

المعنى هنا غير واضح واللفظ قريب وكأنه ضمن قوله هذا آخذا من الآية «ويكلم
الناس في المهد وكهلا» - «وءاتيناه الحكم صبيا» ولشوقي ولع بالمسيح أفاده من تعلقه

بالثقافة العصرية ومثل المسيحية الحضارية وكأن رشاشا من أمواج شوقي أصاب
حافظا فمسح من طريق تعبيره ههنا .

فغدا هذا سماء للعلا وغدا ذلك فيها كوكبا

ونظم البيت محذو على قول الخليل بن أحمد المشهور يذكر عيسى بن عمر، وكتابه
الإكمال والجامع

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

وطريقة المحاكاة في هذا - وذلك ، مع ذكر السماء والكوكب كما ترى .
بعث الأمة من مرقدتها ودعاها للعلی أن تدأبا

وما كانت أمة الميكاد راقدة . فهذا مثل ضربه حافظ وعودة منه إلى ماذكره أولا حيث
قال : « لا تلم كفى إذا السيف نبا » وحيث قال : « أنا لولا أن لی من أمتی خاذلا إلخ
» وحيث قال « أمة قد فت في ساعدها » - فالأمة هنا هي أمة حافظ ، وما تقدم من ذكر
الميكاد إنها هو مثل واستشارة ورمز :

فسمت للمجد تبغى شأوه وقضت من كل شيء مأربا

من الصناعة والتجارة وذبح الدب جميعا .
ولحافظ كلمات فيهن مثل هذا التصرف بمنهج القصيدة وإشراجه معاني العصر مع
وحدة الموضوع والأسلوب الذي يخاطب جمهور المثقفين - اقرأ مثلاً حريق ميت غمر

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

ورعاية الأطفال :

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا بل فتاة بالعراء حيال
ومدرسة البنات ببور سعيد وهى في موضوع تعليم المرأة :

حافظ وشوقي كلاهما قد أخذوا من القصيدة وزنها وقافيتها وتصرفا في وجوه من أساليبها وحرصا على سلامة الديباجة ورسائنها ما استطاعا . وتشوب ديباجة شوقي خشونة صناعة وعمل وكدرهما وتشوب ديباجة حافظ شعبية تقارب أن تنحرف إلى بعض الابتذال . كلاهما بعد قصيدته مقالة في التبويب و الترتيب والمذهب البياني الصحفي المعدن . إلا أن أسلوب شوقي صحفي كتابي . وأسلوب حافظ صحفي خطابي . شوقي مكب على طرس يكتب لمن سيكب على طرس . وحافظ ينشد ويلقى أمام جمهور ثم تطالع الصحافة من الغد قراءه من سمعه منهم ومن لم يسمعه . وقد ينشد شعر شوقي من ينوب فيه عنه ، ولكن سنخه ما ذكرنا .

هذا وشوقي وحافظ بعد يشتبهان في عنصر من عناصر التجديد ، ذكرنا من قبل أن السوربونى رحمه الله ، كأنه قد فطن له في معرض حديثه عن شاعرية اسماعيل صبرى ، وهو ما اصطلح له النقاد لفظ Lyrique - أى الغناء أو الشعر الغنائي . وقد بينا من قبل رأينا أننا لانعد القصيدة العربية من الشعر الغنائي بما أغنى عن إعادة ذلك ههنا ، ولكن حافظا وشوقيا أخذوا بوحدة الموضوع ، يديران القصيدة حول قطب ومحور من فكرة . ثم يتقمصان تلك الفكرة وذلك الموضوع تقمصا ذاتيا - أعنى أنهما يتمثلان الفكرة والموضوع أن ذلك امتداد من أنفسهما ثم يسبغان على الفكرة والموضوع من تقمص أنفسهما لذلك ، أو بسبب صيرورة ذلك امتدادا لأنفسهما ، معنى إنسانيا شاملا ، هذا المعنى الشامل ، وهو امتداد ذاتيتها الآن التي قد صارت إنسانية شاملة ، يتوخيان به أن يحاكيا ما تفعله هذه الانسانية الشاملة بقولهما . هناعنصر المحاكاة للطبيعة - تمثل شوقي ما يريده لأمته من دقة ونظام وتدبير وأمانة وهكذا من الأخلاق التي ينبغى أن تتصف بها حتى لا تذهب وحتى لا يصير بنيان قومها خرابا - تمثله مملكة النحل ، وحاكمي بلفظه ووصفه وتأمله حال النحل ويعسوبها الذى يريده حالا لقومه - إلى نحو من هذا الوجه ذهب مطران حيث قال :

أكبر برمسيس ميتا لايلم به	موت وأكبر به حيا إلى الآن
مازال بالقوم حتى صار بينهم	إله جند تحاييه وكهان
ورب سائمة بلهاء هائمة	تشقى وتهواه في سر وإعلان
يسومها كل خسف وهى صابرة	لاصبر عقل ولكن صبر إيمان
فبجلت تحت تاج الملك مدميها	وقبلت دمها في الممرر القاني

مخلدا دون من قاموا برفعته
مخالسا ذمة العلياء مضطجعا
من شوس حرب وصناع وأعوان
من مهد عصمتها في مضجع الزاني

وقد نبهنا إلى قبح هذا البيت - وإلى نحو هذه ذهب اسماعيل صبرى حيث قال

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني
لاتركوا مستحيلا في استحالتهم
مقالة قد هوت من عرش قائلها
لو غير فرعون ألقاها على ملأ
لكن فرعون إن نادى بها جبلا
وأزرتـــــــــــــــــه جماهير تسيل بها
برا بذى الأمر لا خوفا ولا طمعا

وازن بين جميع هذا وقول حافظ :

هكذا الميكاد قد علمنا
بعث الأمة من مرقدها
فسمت للمجد تبغى شأوه
أن نرى الأوطان أما وأبا
ودعاه للعلا أن تدأبا
وقضت من كل شىء مأربا

وقول شوقي :

مالكة عاملة
المال في أتباعها
لا يعرفون بينهم
مصلحة معمرة
لا تستين أثره
أصلا له من ثمره

يعنى أصل مال له قائم عليه يثمره .
لو عرووه عرووا
واتخذوا نقابـــــــــــــــــة
سبحان من نزهه عنـــــــــــــــــه
من البـــــــــــــــــلاء أكثـــــــــــــــــره
لأـــــــــــــــــمهم مسيرة
ملكهم وطهـــــــــــــــــره
الهدف في جميع هذه الكلمات واحد . وحافظ وشوقي أجود جرسا وافتنانا وفضل شوقي

على حافظ لا يخفى، مع ما قدمناه من احتباس .
شاعر القصيدة العربية الأصيلة لا يحاكي الطبيعة ملحميا أو «دراميا» أو «ليريكية» -
إنه يقول مكافحة مواجهة مثلما كان يفعل انبياء بنى اسرائيل . هكذا وصفهم الناقد
العربي القديم .

ونقول، استطرادا في الموضوع، إن الناقد العربي القديم لم يكن بدائيا فطريا ساذجا، هذا
قول يقوله من يقلد به دعاوى الافرنج في التفوق المنطلقة كلها أو جلها من نقطة ارتكاز
عرقية "Ethno - centric" كما يقول بعض علماء الاجتماع المعاصرين في اصطلاح اللغة
الانجليزية . وقد يحسن أن ننبه إلى أن كتاب الله العزيز فيه من أمر النقد المتمكن
الدقيق ما لو تنبه له أهل الفكر لكان لهم ناهيا عن اتهام قدمائنا بالفطرية والسذاجة في
النقد - قال تعالى (سورة المدثر) «إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم
نظر ثم عس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر»
- هذا الناقد البدائي الفطري الموصوف ههنا ينظر في قضية من أخطر قضايا النقد . هل
هذا وحى صادق من عند الله أو هو قول افتراه - هذا الناقد الساذج الفطري الموصوف
ههنا بأدق ما يوصف به ناقد متمرس، كان من ملأ قريش، شيخا من كبارهم، وما في
الآية إشارة إلى فطرية فيه أو سذاجة، ولكن إلى جبرية ودهاء . وما كان ملأ قريش أهل
سذاجة . وهم الذين فتحو الفتوح وعلموا الناس العلوم وآيات التحدى والنقد التي
تنبىء عن حال ما كان عليه القوم من معرفة البيان وتمحيصه كثرات، وليس ههنا
موضع الاستقصاء بله أخبار النقد التي رويت عن النابغة وطرفة وحسان وهلم جرا .
اعلم أيها القارئ الكريم أن حافظا وشوقيا (وقد يرى بعض الفضلاء ألا تنصب
شوقى بفتحة ظاهرة وبتنوين ولكن تحكى إذ هذا علم وتكون كقولهم بادی بدا وأیدی
سیا وكان السوربوني يقول بهذا لالتزامه حالة واحدة في اسم شوقي، وعندي أن هذا
اسم عربي يخضع أو ينبغي أن يخضع لما تخضع له أسماء العرب وإنما تصح الحكاية في
نحو شوكت ورفعت وعصمت ومدحت لأن هذه حكاية لوقف عاصم ونافع وبعض
القراء في تاء التأنيث التي رسمت في المصحف مفتوحة وهو مذهب للعرب حكاه
سيبويه عن أبي الخطاب) - رجع الحديث إلى ان شوقيا وحافظا ما كانا تقليديين
محافظين على عمود القصيدة، ولكنها أدخلت فيه تجديد شكل وطريقة أسلوب هي هذه
" الليريكية " ، مع ما أخذنا به من أسلوب المقالة ووحدة الفكرة والموضوع مما كانت تدور
حوله أحاديث أهل الفكر واصطراع آرائهم ومذاهب التماسهم سبل النهضة والحضارة
الجديدة والتحرر من المستعمر . . . ومن المحافظة التي عليها المسلمون إلى ذلك
الحين، مما جرى عند طلاب التقدم مجرى التخلف والتأخر والرجعية .

كان حافظ وشوقي وجيلهما في مصر وغيرها من بلاد العرب ، والمتأثرون بهم اولئك جميعا رواد نهضة . وكان شوقي أكثر تجديدا وأعظم افتنانا من حافظ بما نظم من المسرحيات والأقاصيص والسير . وكل هذا فارق به أسلوب القصيدة واستحدث به وجهها جديدا من مسالك الوزن والقافية غير أن أول مفارقتها الخطير الشأن كان هذا المذهب المثالي القصيدي الغنائي - وقد سبق في أوائله مذهبا ، ولكنه هو وحافظ خاصة قد جعلاه طريقا مهيعا . ولم يخل حافظ من نظم مسرحي في كلمته .

ليلاي ما أنا حي يـرجي ولا أنا ميت
ولا من نظم قصصي في عمريته :

حسب القوافي وحسبي حين ألقبها أني إلى ساحة الفاروق أهديها
وقد جرى بها وزن بعض مشهورات المدائح النبوية . غير أنه بجعله الفاروق قصد مدحته ، إنما ضرب بذلك مثلا من أمثال روح عصره ، التي كان المديح النبوي في أنظار مثقفيها من طابع المحافظة وحالها وكان ذكر عمر بن الخطاب بمنزلة الرمز لما يرغبون فيه من تجديد مجد الاسلام وفتوحه - فكان عمر في نظر رواد النهضة الاسلامية العصرية التي تمخضت من بعد عن حركة الاخوان المسلمين مثلا ، علم البطولة الذي يحركون به القلوب .

هذا وكما كان رأى شوقي وحافظ وجيلهما الاعتدال في قضية تحرير المرأة - قال حافظ :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا وسط الرجال يسرن في الاسواق
في دورهن شـ————ونهن كثيرة كشئون رب السيف والمخراق
وقال شوقي :

يا طير لولا أن يقولوا جن قلت تعقل

انت ابن رأي للطبيعة فيك غير مبدل

ابدا مروع بالإسار مهدد بالقتل

إن طرت عن كنفي وقعت على النسور الجهل

كذلك كان رأيهما في قضية تجديد الشعر وتحريره من قيوده القديمة أن يكون ذلك فيه اعتدال . وقد كان شوقي كثير الاتباع لشعراء الغرب . حاكي لافونتين وراسين وشكسبير في الأقاصيص والمسرحيات ، لا بل في بعض القصائد - مثلا : «ألا أجد صعبة المكتب» فهي على جودتها محدوة على كلمة شكسبير All the world is a stage (كل الدنيا كخشبة المسرح) «وقد عرضنا لأشياء من هذا المعنى في غير هذا الكتاب بتفصيل نحيل القارئ الكريم إليه إن شاء الله» .

كان شوقي يعلم من أمر حركات التجديد والتحرر من الأوزان التي كانت بأوروبا وربما كان يتحدث بها أدباء زمانه في مجالسهم . والمنظر الذي في مسرحية مجنون ليلي يتخلل فيه الأموى (شيطان الشعر) عن قيس فينظم هذا كلاما مسجوعا مضطربا غير موزون فيه وحي برأى شوقي في قضية وزن الشعر وقبوه وأن التطرف في طلب التحرر من ذلك غير حسن .

هذا والذي صنعه حافظ وشوقي من التجديد - على ما اعتدلا به فيه - كأن قد أدخل على عنصر دولة القصيدة الأصيلية كما أقامها البارودي ، جندا دخيلا كان على يديه من بدء انهيار هيئتها المؤذن بالضعف ثم الهلاك والدمار - كما جاء المعتصم بغلمانة وجنده الترك فقتلوا ابنه المتوكل من بعد وقوضوا أركان الخلافة ، فما لبث بها الضعف من حال إلى حال ، حتى أزالها كل الزوال ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وإليه المصير .

كان بعد حافظ وشوقي وعلى زمانها شعراء - ولكن ماء ولا كصداء (كصدعاع يافتي هكذا قال أبو العباس) ومرعى ولا كالسعدان . وأثر أهل البراعة الشر . كإيثار الجاحظ وجيله القادرين على الشعر له ، حتى صاروا بأغراض رسائلهم إلى مشابه من أغراضه . وبرز من بين أهل البراعة طه والرافعي والعقاد^(١) كل تبريز . أما طه فقد خلص بنفسه خلوصا إلى تجويد المحاضرة والمقالة والقصة والكتاب . وقد رزق السلامة مع الصفاء ونقاء اللغة وسحر إيقاع البيان . كان رحمه الله في هذا نسيج وحده . ولعل أدنى الأدباء - كان من بعده من مثل طريقته في النقاء الدكتور " زكي مبارك " رحمه الله . ثم قد كان للزيات إيقاع مهذب وازدواج ذو عذوبة ونغم ورنين . وكان الرافعي والعقاد شاعرين ناثرين ، واحسب أن الرافعي نحل عن نظم الشعر باخرة ، غير أن في المقالات التي كان يوافي بها الرسالة ثم صدرت معا في كتاب واحد باسم " وحي القلم " ما عسى أن يدل على أنه استمر ينظم الشعر من حين إلى حين ، ومن أعجب كلماته إلى في وحي القلم « بنته الصغيرة » وقد ضمنها قطعة بالدارجة ذات طعم حلو :

يــــاليل يــــاليل يــــاليل
مــــا تنجلي يــــاليل
القلب أهــــو راضى
من الهمم فــــراضى

(١) توفي الرافعي سنة ١٩٣٧ م والعقاد سنة ١٩٦٤ م وطه حسين ١٩٧٣ م رحمهم الله تعالى .

وللرافعي رسائل من النثر عمد فيها إلى اغراض الشعر وروحه ، على نحو ينظر بسلامة أسلوبه وقوة أسره إلى مقامات الزمخشري ورسائل قدماء البلغاء ، وبأنفاس وجدانه إلى «الرومنسية» التي منها أشياء في نظرات المنفلوطي وعبراته ، ولكن سائرهما من نفس الرافعي ووجدانه وتصوفه . وربما خلط بين الشعر والنثر على طريقة المقامة الحبرية أو البديعية — خذ هذه القطعة مثلاً من «زجاجة العطر» في أوراق الورد (الطبعة السابعة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م ص ٤٢) : «وأهدى إليها مرة زجاجة من العطر الثمين وكتب

معهما : يا زجاجة العطر ، اذهبي إليها ، وتعطري بمس يديها وكوني رسالة قلبي لديها . وهأنذا أنثر القبلات على جوانبك ، فمتى لمستك فضعي قبلتي على بنانها ، وألقيها خفية ظاهرة في مثل حنو نظرتها وحنانها ، وألمسيها من تلك القبلات معاني أفرحها في قلبي ومعاني أشجانها . وهأنذا أصافحك ، فمتى أخذتلك في يدها فكوني لمسة الأشواق . وهأنذا أضمك إلى قلبي ، فمتى فتحتك فانثري عليها في معاني العطر لمسات العناق . إنها الحبيبة يا زجاجة العطر . وما أنت كسواك من كل زجاجة ملئت سائلا ، ولا هي كسواها من كل امرأة ملئت حسنا ، وكما افتنت الصناعة في إبداعك واستخراجك ، افتنت الحياة في جمالها وفتنتها حتى لأحسب أسرار الحياة في غيرها من النساء تعمل بطبيعة وقانون ، وفيها وحدها تعمل بفن وظرف . وأنت سبيكة عطر كل موضع منك يأرج ويتوهج وهي سبيكة جمال كل موضع فيها يستبى ويتصبى » هنا عناء وكد أحلى منه عند انسياب طه وإسماح طبعه . ولكن حظه من الإحساس والتأمل وجودة التعبير وصحته عظيم . وللرافعي شعر هو فيه أسمح طبعاً ، ولكنه على جودته لا يضعه في مكان من التبريز كما يضعه نثره - مثلاً قوله^(٥٨) في أوراق الورد

وكم حار عشاق ولا مثل حيرتي	إذا شئت يوماً أن أسوء حبيبي
وهل لي قلب غير قلبي يسوءه	ويأخذ لي في الكبرياء نصيبي
ألا ليت لي قلين قلب يحبّه	مريض وقلب بعد ذاك طيبي
ويا ليت لي نفسين من رثم روضة	ألف ومن ذى لبدتين غضوب
وكيف بقلب واحد أحمل الهوى	عجيباً على طبعي وغير عجيب
فو الله إن الحب خير محاسني	ووالله إن الحب شر عيوبي

رنة الشعر وأسره كل ذلك جيد عربي . غير أن هذه المعاني مما قتله كثير وجمل

وأصحابها قتلا — فأحسب أن الرافعي قد فطن إلى هذا فالتمس سبيل النشر. وقد كان للرافعي بأسلوبه الجاد المرفف الإحساس الشاعري الروح، على كده فيه ونصبه، أثر كبير على عدد كبير من الأدباء — من بين هؤلاء مثلاً الشاعر «الرومسي» برومانسية شعراء العرب محمود حسن إسماعيل. هذا، وقد كان العقاد رحمه الله شاعراً ناثراً، وفي نثره وشعره كليهما خشونة، كما فيهما جد وصدق وأثر قراءة ونصب. وقد عرف العقاد بهجومه على شوقي في الديوان في باب التجديد الشعري أكثر مما عرف بشعره نفسه. ومن تأمل شعره لم يجد فيه غير سائر على نفس الطريق الذي ساره شوقي وحافظ. وكان يلح على قضايا الفكر بأشد من إلحاحها فيما يورده. وليس بمخطيء من يضعه في مقدمة شعراء الرومانسية العربية خطأ كبيراً. ولكنه أشبه به ما ذكرنا. ومن معاني الرومانسية في شعره أن حديثه عن الحب تحالطه مثالية من تقديس فهم منه خاص للجمال، شديد القرب من معاني صوفية الطبيعة وقدسيته، وخلود امتلاء الذات بتأثيرها. غير أن أمثال هذه المعاني قديمة في الشعر، وإطلاع العقاد الواسع، ولا سيما في آداب اللغة الانجليزية مما جعل طوع تعبيرة كثيراً مما يرد في كلام شعرائهم من رومانسيين وميتافيزيقيين وشكسبير ومعاصريه إلى زمان براوننغ وبيتس ووليم هاردي وغيرهم. وكانت له في بلادنا مدرسة من الأدباء شديدة التعلق بشعره مدمنة القراءة له. ونبت أن الشيخ الطيب السراج رحمه الله (توفي سنة ١٩٦٣م) كان إذا ذكروا له العقاد قال:

عقادهم هو كاسمه عقاد لا عقبـري لا ولا نقـاد

ومن تأثر به من شعراء بلادنا يوسف مصطفى التني رحمه الله وأثره ظاهر في ديوانه الصدى الأول، وما علق بالذهن من أبياته:

اعبسي لي ففى العبوس ابتسام لجمال منــــــــــــــــوع القسام

وكان يغلب على الظن أنه تأثر فيه بالعقاد، ولكنى أحسبه أخذه من كلمة للرافعي رحمه الله في أوراق الورد يقول فيها (ص ٤٦):

يا واصلًا بالمعاني وهـاجـري في الكلام
مخاصمــــــــــــــــى في نهاري مصــــــــــــــــالحى في منــــــــــــــــامي

من العَبْرُوس كــــلام معنــــاه معنــــى ابــــتــــسام
ولن يغير جسم الـــــــ ووداد ثــــوب الخــــصــــام

وكان صديقاى الأستاذ عبدالرحيم الأمين (توفى ١٩٦٨م) والدكتور أحمد الطيب (توفى ١٩٦٢م) وكانا واسعى الاطلاع في العربية والانجليزية، يقدمان العقاد في غير إفراط ويذكران له قصائد ربما تقدم بها عندهما على شوقى، منها رائيته في ديوانه الأول التي عنوانها " الدنيا الميتة " وما أشك أنه حذاها على رائية الإمام البرعى التي من رويها وبحرها ثم ألبس مواضع ضروبا من الزي الافرنجي كما قد جرى بلاريب رائية أبي نواس " أجارة بيتينا أبوك غيور " ورائية ابن دراج - إلا أن نفس البرعية في رائية العقاد هذه أظهر وأخذ منها عن معاصريه أخفى لمعرفة أكثر الأدباء الأفندية بأبي نواس وابن دراج وجهلهم البرعى، وما كان مكانه ليخفي على العقاد لعلمه ولأسوانيته معا. هذا وقد قدم لها في الديوان بكلمة متعمقة، مما جاء فيها قوله: «وقد ترى الرجلين يجلسان في حجرة واحدة أحدهما يود لو يبخل نفسه لقبح الدنيا في عينيه، والثاني يود لو يعمر أبد الأبد ليشنف جمالها وبهجتها، فهل يقال في هذين إن عالمها واحد؟ فمن هنا سأخبرك لنا أن نقول إن العالم تموت نسخة منه كلما مات إنسان . . . » ثم تحيى القصيدة وهي ستة وأربعون بيتا نوردها هنا كاملة، وقد مضى الاستشهاد بأبيات منها في الجزء الأول، ولعل ما قلناه هناك من تعليق ألا نحتاج إلى مزيد عليه ههنا:

أحبك حب الشمس فهي مضيئة وأنت مضيء بالجمال منير
أحبك حب الزهر فالزهر ناضر وأنت كما شاء الشباب نظير
هنا كما ترى تعلق الرومنسية بالطبيعة. والحب لا يحتاج صاحبه أن يعلله ويبرهن على صحته. وما من محبوب يرضيه أن يحب كحب الشمس. نعم يرضيه أن يقول له العاشق بلسان المقال أو الحال أنت شمس حياتى أما أن يقول له أحبك لأنك مضيء كما تضيء الشمس، فلعل آخر أن يكون هو أيضا مضيئا كما تضيء الشمس. واحسب أن العقاد إنما أتى من محاكاة كلمة شكسبير:

Shall I compare thee to a summer's day?

Thou art more lovely and more temperate:

Rough winds do shake the darling buds of may.

إلى آخر ما قاله فيها وهي الثامنة عشرة من قطعه التي يقال لها sonnets (أغنيات) وقد احترس شكسبير حيث ذكر الشمس والزهر ولم يحتس العقاد. وقد صدر شكسبير في

كلامه عن حب هو الذي جعله يشبه محبوبه بيوم شامس وزهر نضير غير أن اليوم
الشامس ليس له كاعتداله والزهر قد تطيح به وتصوحه الرياح ، والعقاد زعم أنه يحبه
كحبه للشمس ، فنزل بمقدار حبه كما ترى ، وكأن قد أحس ذلك فاستدرك بقوله :

أحبك حبي للحياة فإنها شعور وكم بالقرب منك شعور

أى أشعر فلذلك أنا موجود . فأنت تعلمنى أنى حى - هل هذا من كلام الصوفية :

أدبنتنى منك حتى حسبت أنك أنى
أو محض تعمق . ولعل بديع الذى قال :
أحبك يا ظالم وأنت عندى مكان الروح من جسد الجبان
ولو أنى أقول مكان روحى لحفت عليك بأدارة الطعان

أن يكون إلى كثير من القلوب أدنى مأخذاً وأقرب مأتى . ثم يقول العقاد :

فهل فى ابتغائى الشمس والزهر سبة وهل فى ولوعى بالحياة نكير
وهل فى الهوى معنى سوى أن مقلتى تراك وأن الحسن فىك طريق
هذا بعض الهوى - واستحسان المشتهى قد لا يكون أكثر أو أقل من هذا ،

وأنت تسبى الناظرين وأننى بإحباب ساهي الناظرين جدير

إحباب مصدر أحب الرباعي أغرب به العقاد ليصاحب به صيغة المحب بضم الميم
وفتح الحاء التي يقال إنه انفرد بها أخو بني عبس .

ألا لا تدعنا نلحظ الحسن أو أجز لنا الحب فاللحظ اليسير يجوز
وما من سبيل أن تراه عيوننا وتغمض عنه أنفس وصدور

صار الحب مقالة وقضية وجدلاً كما ترى

فأما وإعشاء النواظر مطلب عسير وقد يهوى الجمال ضرير

ولو قال وقد يهوى هواي ضرير لكان أصدق . وقد قال بشار ، «قد وصفت لنا
بحسن» فنسب معرفة الحسن المرتضى إلى غيره

فدع ما يقول الناس واعلم بأننا على غير ما سار الأنعام نسير

لنا عالم طلق وللناس عالم رهين بأغلال الظنون أسير
ووا أسفا ما أنت إلا نظيرهم وإن لم يكن للحسن فيك نظير
وحاكيهم ظنا فليتك مثلهم عياف فلا يأسى عليك ضمير

العقاد هنا أرفق بحبيبه من جميل إذ قال
رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح
ولكن جميلا كان أشد صباية

فيا عجباً منا نسائل أنفسنا إذا سئلت حارت وليس تحير
بضم التاء وعنى : تحير جواباً وهو ليس بجيد ، ولكن جواباً في قول النحاة
معمول فضلة وحذف الفضلة جائز . ومضارع حارت تحار ، وعن ابن جنى أن أبا
الطيب سمع أعرابياً أخطأ فقال تحير فأصلحه آخر من أصحابه ونعت ابن جنى أبا
الطيب ، إذ ذكر هذا الخبر ، بأنه صدق وكان صدوقاً . وعلى ذكر أبي الطيب فما أشك
أن أصل تشبيهه شكسير فتاته أو غلامه (على أحد القولين) بالشمس من قوله :
صحبتني على الفلاة فتاة عادة اللون عندها التبديل
مثلها أنت لوحدتنى وأضني ست وزادت أيها كما العطبول
ثم يحییء هذا التبرم بالجمال وما يصحبه من ضن كل جميل وصدده وتبهه :
أنشقى بدنينا لأن منعماً من الناس بسام الثغير غرير
كلمة الثغير جيدة معبرة .

أيذوي الصبا فينا لأنك ناشيء ربيع الصبا في وجتيه غضير
أتعشى مآقينا لأنك أحور بعينيه من ومض الملاحه نور

هذا البيت مصنوع مرهق . المآقى لا تعشى . ومن زعم أن ذلك قد يسوغ من
أجل مجاورة المآقى للعيون ، فلن يسوغ بعده «من ومض الملاحه نور» - ذلك بأن العينين
نور . وفي أناشيد المديح النبوي :

مرحبا يا نور عيني . . . مرحبا

مرحبا جد الحسين . . . مرحبا

وتعب الشاعر منشأه من أنه أراد أن يجعل الملاحه ببريق ابتسامتها في العين نورا ،
فجعل ذلك هو النور الذي في العينين ، ولو قال ذلك في عين عمياء بها بقية من ملاحه
بائسة لربما جاز .

ألا نتملى الحسن والحسن جمه مطالعاه إلا وأنت سمير

فيا ضيعة الدنيا إذا لم يكن بها غنى عنك للمحزون حين يثور
ويا ضيعة النفس التي لا يجيرها من البث والشكوى سواك مجير

لا يخفى أن الشاعر هاهنا تقمص شيئا من روح «الحسنة بلا رحمة» - منظومة
كيتس التي ترجمناها، ونبهننا القارئ الكريم إلى ما فيها من معاني الرومنسية التي تعطو
بيدها إلى ما لا ينال، والحسنة التي تمتص دم المحيين، وتعطيهم الحلم الذي يسلب
منهم من بعد كل منام.

إذا الشمس غابت لا نبالي غيابها وإن غبت أض العيش وهو كدور
ناقض الشاعر نفسه في كلمة واحدة، وهذا مما لم يجزه قدامة. وقد يعتذر له عاذره
بأن هذا إضراب أضرب به عما تقدم - أي أحبك حب الشمس كلا، بل لا نبالي غياب
الشمس، وتأمل ضمير الجمع للمتكلم ههنا. ويقوى هذا الوجه قوله من بعد:
وليتك مثل الشمس ما فيك مطمع فيهدأ قلب بالضلال نفور
نفور هاهنا شديدة القلق. كيف يكون القلب نفورا بسبب الضلال أو مع
الضلال وهل النفور هو المقابل للهدوء؟

قربت ولم يخطيء عطاش تلهفوا على جدول في السمع منه خريـر
وسرت على الأرض التي أنا سائر عليها ولم تضرب عليك ستور
ولو لم نول القلب شطرك لأمنا على الجهل كون بالجمال فخور

هنا أنفاس «رومنسية» الخالق على مظاهر الطبيعة عنصرا من الحيوية يستحق
التقديس لذاته. وهذه الأبيات الثلاثة لعلها غرة القصيدة:

لديك مقاليد السرور ودیعة وما لمحـب في سواك سرور
يعني ما لمحـب لك غنى عنك بسواك وسرور به، ولفظه مقصر عن معناه
فإن تأذن الدنيا أباحت شوارها وغنت عصفير وفاح عبير
فسر الشوار في الهامش [ديوان العقاد، المجلد الأول، لبنان ص ٢٠١] - «شوار
العروس جهازها». والشوار المتاع، قال عبدة بن الطبيب:

ومزجيات بأكوار محملة شوارهن خلال القوم محمول
قال الشارح وأصل الشوار متاع البيت. ولا يزال هكذا معناه في بعض الدارجة.
وقد يستعمل استعمالا مجازيا وفي خبر الزباء: «أشوار عروس ترى» قالتها لجذيمة لما

أرادت الغدر به وكانت مضمفورة الإشب أي شعر العانة . فقول العقاد ههنا «أباحث شوارها» ليس بجيد .

ولا النجم في عليا السماء يدور وإلا فما في الأرض حظ لناظر
خواء وأفراح الحياة كثير فيا خازن الأرواح ما لقلوبنا
لما ضاع منه بالعطاء نقيير وما لك ضنانا بها لو بذلتته

هذا من كلام المتأفزيقيين - وقد يذكر القارئ الكريم قول إمام العارفين
عبدالرحيم البرعي رحمه الله :

أحياب قلبي هل سواكم لمهجلي طيب بـداء العاشقين خبير
فجودوا بوصل فالزمان مفرق وأكثر عمر العاشقين قصير
وإني لمستغن عن الكون دونكم وأما إليكم ساداتي فقير

فلا مبالاة العقاد بغياب الشمس من هاهنا - ثم يقول العقاد :

تضمن بشيء لست تعلم قدره -

أي الجمال إذ نحن لا أنت ، يا جميلا وهو جاهل

- ونعلم ما نسخر به ونغير

نغير ضعيفة كما ترى .

نجدود بحبات القلوب وبالنهى

ولا أعلم كيف يجاد بالنهى إلا أن يكون تهتك

. وليس لنا في النائلين شكور

وما الشيء مزهودا وإن جل قدره لدى الناس كالمطلوب وهو يسير

وجليل القدر لا يزهد فيه . وأتي العقاد من جهة طلب الجدل بالمبالغة وفرض ما

لا يكون

عذيري وهل للتأقمين عذير وأين لمخذول الفؤاد نصير

هل جاء بمخذول الفؤاد من قول حافظ «أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا إلخ»؟

لقد ماتت الدنيا وقدما رأيتها عروسا حفافيتها عرائس حور

هنا شيء من اللغة الانجليزية وظلال من الحسنة بلا رحمة

نعم ماتت الدنيا بنفسي ومن يعيش وقد ماتت الدنيا فأين يصير؟

يعني الموت المجازي - أما موتها الحقيقي فهو قيام الساعة وذلك شامل

وأحنو على الدنيا ويأربها حنت على الميت الثاوى بهن قبور
ليست ضمة القبر حنوا - وهنا شيء من ظلال «الحسناء بلا رحمة» وفرسانها
الشاحين فاغرة أفواههم بالنذير الرهيب .
بكائي عليها يوم أن كان أفقها يضيء وكانت بالأنيس تمور
لا ريب أن الحسناء بلا رحمة هي الدنيا
وكان يتيه اللب كيف بناؤها فأمست يتيه اللب كيف تبور
«تبور» قافية قلقة إذ لا تقابل «تبور» قوله «بناؤها»

فما كان أسناها مداراة أنجم ومنبت ريحان يكــــاد ينير
وأخصب مرعى اللهور في جنباتها وما من جنى إلا منى وغرور
فهذا كما ترى فيه مشابه من قول جون كيتس وقد مر نصه ، ما تقرب تعريبه مما
تقدم ذكره أيضا :

ووجدت لي من عروق شهية سات وحلوات وقالت كل
والعسل البري جاءت به والمن يغشاه ندى السلسل
ثمت قالت بلسان غريب إنني أهواك يا ويح لي
ثمت صارت بي إلى كهفها المسحور . .
وهو القبر بلا شك :-

نعم ماتت الدنيا بنفسي فهل لها بعطفك من بعد المات نشور
فأحى بإحيائي فديتك عالما عييت بحمليه فأنت قدير
ولا تسألني كيف أحبك هازلا فأنت بإحياء النفوس خبير
ففي كل نفس عالم يرهب الردى ومن كل حسن حين يعطف صور

أي الصور الذي ينفخ فيه إسرافيل فتقبض كل الأرواح - أليس هذا برهانا على
صحة ما نقول به من أثر .

La Belle Dame Sans Merci

لك الحسن فامنعه ولكن من يغل . .
أي يغتال ، فتأمل

لكن من يغل من الناس دنياهم فذاك مغير

مغير هذه مترجمة من كلمة افرنجية تدل على العدوان وما أشبه نحو: trespasser - والصواب فذاك متعد أو عاد أو عدو، وما كل غارة بعيب يعاب ولا سيما ذو الحسن إن يقل له إنه يشن على قلوب الناس غارة شعواء فذلك داخل في باب المدح، ولا يخفى أن العقد يريد بمغير هنا ضرباً من خروج عن القانون .

فقد ترى أن الجند الغريب الذي كان عند شوقي وحافظ طريقة أداء ومحاكاة أساليب قد تسرب عند العقد إلى نفس متن اللغة - ولعله أن يعتذر معتذر للعقاد أن هذا نظم ثورة شبابه وأنه أقبل من بعد على تجويد المتن وحرص على نقاء العربية - وعسى بعض ذلك .

كانت بداية النهضة والتجديد البعيدة التأثير بمصر . ولا يدفع قولنا هذا ما كان من بوادر السبق في لبنان وغيرها . ولقد كان أحمد فارس الشدياق معاصراً للبارودي . وعاصر الرصافي والكاظمي والزهاوي شوقياً وحافظاً والعقاد . ولئن كانت في الرصافي من حافظ مشابه، كذلك كانت في الزهاوي مشابه من العقد - المقالة والليركية ونوع من كذ التفكير، موسوعي عند العقد، ذو معرية عند الزهاوي، من غير سلامة الأسر التي للمعري، وكبعض الخشونة التي عند العقد، وقد يضطرب به وزن العروض أحياناً .

وإنما وقفنا عند العقد من أجل الديوان وما زعم وزعموا له من التجديد بناء وهدماً - أما الهدم فلهجوم على شوقي وكان عند الناس أمير الشعراء . وأما البناء فديوان العقد، وديوان شكري وقد حاول الشعر المرسل ونظمه وسط وقد سبقت منا الإشارة إلى عمله في هذا المضمار . والمازني علم أنه ليس بشاعر حقاً، والعاقل من عرف قدر نفسه .

ثم جاءت أبولو على آثار الديوان، وكل الرومنسية والرومنسين ويذكر أن أبا شادي أهدى أبولو إلى أمير الشعراء شوقي، ولو قد كان البارودي في مكان شوقي هو المهدي إليه، لكان الأمر إذن كما قال أبو تمام:

وسرت أسواق غير اللؤم حتى أنخت الكفر في دار الجهاد
على أن اعتدال شوقي وأصحابه قد كان أقرب إلى معنى دار الجهاد، كما كان المعتصم وجنده الدخيل في باب الخلافة والدولة وتدبير السلطان . وتطرف أبي شادي وأصحابه أقرب إلى إنساخت الكفر وسوق غيره، كما كان شأن قتلة المتوكل وسملة عيون الخلفاء وزعزعة هيبتهم من بعده .

وكانت الرومنسية - ونوثر الآن استعمال هذا اللفظ على الترمس الذي إنما جئنا به

لتوضيح رأي في موضع دعا إلى ذلك - من أربعة أضرب ، نذكرها موجزين إن شاء الله
فيما يلي :

الضرب الأول :

«رومنسية» الدفاع عن القديم . وهذه يمثلها الرافعي ولها انعكاسات في الضرب
الرابع وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله . وقوامها أنها تعتقد أن معاني التصوف
وقدسية الجمال وحرارة الوجدان ورؤاه ، كل ذلك لا نحتاج إلى أن نستعيه من أوروبا .
هو أصيل في حضارتنا وفي تصوفنا .

وكان لونا من رفض التفرنج ، ونزوعا إلى إعادة المجد القديم كامن في هذا
الموقف . هو موقف قبول تحد ، وتحذ ودفاع . وهو في جوانب كثيرة منه صادق روح
التعبير عن غلبة المجتمعات العربية على عدوان الاستعمار ، وغلبة المجتمعات
الإسلامية على ما عرا أمة محمد صلى الله عليه وسلم من ضعف واستكانة وخول .

وإنما ندخل هذا الضرب في عداد الرومنسية لنخرجه منها . وفيه من معادن
أصالة البارودي ، حب اللغة العربية ، وتذوق رونق جزالتها وأسرها وصحة وجوه
التعبير بها ، ثم يفارقها في نوع خفي ملابس له من معاني عدم الثقة ، يلتمس أن يعتذر
لدى من لا يقبل له عذرا وأن يجد مكانا لدى من يعلم أنه ليس له بدار . وليس ذلك
بضائره حقا . إذ قد أصاب قدرا صالحا من مستوى الجودة والإبداع . إلا أن فيه فرط
إغراب وعمل .

الضرب الثاني :

الرومنسية المسيحية العربية

وهذه التي يمثلها جبران وميخائيل نعيمة والمهجريون من بعد - وقوامها أمران :
شعور قوي بالانتماء إلى دنيا الحضارة العصرية التي إنما هي حضارة مسيحية في غرب
أوروبا وشرقها بين رومها وروسها وصقالبها وبلغارها وفرنجنها وفروع ذلك اللاتينية
والسكسونية من وراء البحر الكبير - هذا الشعور بالانتماء المسيحي المتحضر القوي معه
شعور بواقع الانتماء المر إلى دولة السلطان ، وهى في مرحلة الغرغرة ، والقومية التركية
الناشئة إلى العرب بغیضة ، وسلطان الإسلام إلى القلب المسيحي أبغض .

وشعور قوي بالانتماء إلى العرب والقومية العربية الناشئة ، التي تبدو أنها هي
أقرب بحكم وحدة اللغة ووحدة الجوار وطول المعاشة والنفور من تعزز قومية الترك
الجديدة وتعا ليها وجبرية سلطانها والرغبة في التحرر والتقدم العصري ، الذي إنما يجاء
به بالأخذ من أوروبا ومحاكاتها وأنهم بحكم الصلة المشتركة بينهم وبين مسلمي العرب

وبينهم وبين مسيحية أوروبا ، سيكونون في ذلك الوساطة الكبرى والوسيلة الأولى .
ومن هذين الشعورين تولد شعور قوي بالتماس مثل أعلى مشترك ، يستمد من
القومية العربية ، ومن سماحة الدين الخفيف ، ومن روحانية دين عيسى ورقة قلوب
رهبانيته .

ولقد كان من المسلمين كما كان من المسيحيين دعاة لهذا اللقاء التسامح المعتدل
ويكفيك شاهدا ما تجده كثيرا عند شوقي - مثلاً - من لين القول ورقته عند ما يعرض
لأمر المسيحية والمسيح عليه السلام . وأحسب إحدى طبقات الديوان الأول (دار
الكتب ، ١٩٤٥) وقع فيها خطأ في بيت الهمزية التي في أوله :

ولد الـرفق يوم مولـد عيسى والمروءات والمـهـدى والحياء
إذ فيه موسى مكان عيسى وقد مر خبره عليه السلام ، فلينظر .

وقد خيل أن من مثل الانتماء المتبادل ، الحرية المنشودة ، ومعاني الانسانية العليا
في الحب والجمال ، واستشعار نزعة إلحادية لا تنكر قداسة الدين ولكن تنفر من
التعصب والقيود .

مد الأيدي إلى المجهول ، التماس ملاء الروح بين الأزهار والأشجار ووحدة الوجود
في شهود أسرار الطبيعة على النحو الذي عند وليم ورد زورث وشيلي وكيتس
والرومانسيين الإنجليز أول الأمر ، وعند أبي العلاء المعري الذي يقول :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

ويقول : اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

ويقول : إن الشرائع ألفت بيننا إحنا وأورثتنا أفانين العداوات .

من هذا المنطلق أو نحوه ، بدأ جبران . وتلاه ميخائيل نعيمة . وتبع من بعد
المهجريون . وصحب أدب الرومنسية المسيحية العربية جند دخیل جديد كثيف -
ضعف في أساليب اللغة إذ لم يكن لجبران والمهجريين من علم العربية ما كان
لليازجي ، وما كان للعلماء اليسوعيين ، إنما كان أكثرهم أولى ثقافة كسائر ما كانت
عليه ثقافة الأفندية ، ومنهم من كان حظه من اللغات الافرنجية والعربية معا ضئيلا ،
ومنهم من كان ذا حظ من الثقافة الافرنجية ، وخلوا من العربية أو ضعيفا . ولم
يكن لأكثر هؤلاء رادع من مثل بلاغة العرب الأعلى وهو القرآن ثم دياجة الشعر
الرصين والنثر الرصين ، فجسروا من استخدام جند التعبير الدخیل المهجين على شيء
كثير .

جبران نفسه كان يحترم بلاغة البيان العربي الأصيل . ولكن حظه منه كان ضئيلا . فكان يجتهد ويتعثر . ميخائيل نعيمة كان ذا حظ غير ضئيل من معرفة البيان العربي . ولكنه كان منطويا على ثورة نفس هدامة ، - " والرومنسية " الأوروبية كانت فيها عناصر هدامة ، من شواهدا مثلا قصيدة كلردج (1) Christabel وحسنا كيتس بلا رحمة ، وريح شيلي الغربية التي يقول لها : « كوني روحا لي يأتيها الروح الشرسة » :

... Be thou, spirit fierce,

My spirit

ومنظومة دون جوان ليرون فيها شر كثير نخبىء تحت برائن ثورة قلب وأنيابها : (مثلا)

I would to heaven that I were so much clay,

As I am blood, bone, marrow, passion, feeling-

Because at least the past were pass'd away-

And for the futur- (but I write this reeling,

Having got drunk exceedingly today,

So that I seem to stand upon the ceiling)

I say - the future is a serious matter-

And so for God's sake - hock and soda water

وددت بحق السماء أن لو كنت طينا بقدر

ما أنا دم وعظم ونقي وعاطفة وشعور،

لأنه على الأقل يكون الماضي قد مضى وتولى ،

أما المستقبل - (ولكني الآن إذ أكتب أترنح

إذ قد أسرفت في الشراب اليوم

حتى يخيّل لي أنني في السقف واقف)

أقول ، إن المستقبل أمر خطير

لذلك ، بالله ، هات كأسا من الصهباء والصودا

هذا وأكثر شعراء المهجر تعلقا بسلاسة الأسلوب إيليا أبو ماضي ، وأقربهم إلى المثل

الأعلى الذي كانت ترمى إليه طلاب الانتماء المتبادل ، واللقاء المتسامح المعتدل تحت

رفرفة أجنحة الدين والإلحاد العلائقي المذهب والتصوف المتعلق بالطبيعة والحرية

المنشودة في ظلال عزة الوطن العربي :

(١) من شخصيات الشعر الرومنسي الغربية ، امرأة بين مساحقة وقتل .

وطن النجوم أنا هنا	حـدق أتذكر من أنا
المحت في الماضي البعيد	د فته , غريرا أرعنا
جذلان يمرح في حقو	لك كالنسيم مدننا
المقتنى المملوك ملـ	عـبه وغير المقتنى
يتسلق الأشجار لا	ضجـرا يحس ولاونى
ويعود بالأغصان يـ	رـها سيفوا أو قنا
ويخوض في وحل الشتـ	متهلـلا متيمنـا
لا يتقى شر العـ	ن ولا يخاف الألسنـا
ولكم تشطين كى يقـ	ل الناس عنه تشيطنـا

أول هذه الكلمة مذكر بورد زورث - ولكن أولها فقط ، وسائر الوصف من تجربة وتذكر وصفات صواق

أنا ذلك الولد الذي	دنياه كانت هـنا
أنا من مياهاك قطرة	فاضت جداول من سـنا
أنا من تـرايك ذرة	ماجت مـواكب من عنى

لا يخفى ما ههنا من شعور القومية ، وقد مزجه الشاعر بذكرى الطفولة الوردزورثى ثم خلص من ذلك إلى التغنى بحسن الطبيعة :

حل الطلاقة والبشا	شة من ربوعك للـدي
-------------------	-------------------

أى أمريكا والعالم الذي تظن به الحضارة

كم عانقت روحى ربـا	ك وصفقت في المنحنى
والأرز يهزأ بالـريـا	ح وبالدهور وبالفنا

ولنعم الأرز لو أبقت عليه الأيدي السواطى - إذ ما أحسب الذى بقى منه الآن بجبال لبنان إلا قليلا

للبحر ينشره بنـو	ك حضارة وتمـدنا
------------------	-----------------

لعله يشير هنا إلى حضارة بنى كنعان القدماء في صيدا وصور ومن وراء البحر فى أرض تونس والأندلس على عهد حنبعل العظيم .

ليل فيه مصليـا	للصبح فيه مـؤذنا
للشمس تبطـىء في ودا	ع ذراك كيـلا تحزنـا

لم يتضح المعنى ههنا - كأننا عنى أن حمرة الشفق فيها معنى من حزن ، وما أستبعد أن يكون يشير إلى قول أبي العلاء ، وكان إلى «الرومنسية» حببها ، على بعده كل البعد عن كل جوانبها إلا الوجدان بعد الوجدان وذلك أمر عن الشعر عما لا ينقسم :

وعلى الدهر من دمء الشهيد — من علي ونجله شاهدان
فهما في أوائل الليل فجرا — ن وفي أخريات شفقان
أى تبطىء لكيلا تذكرنا بالمأساة التى ذكرها أبو العلاء

للبدر في نسيان يك — حل بالضياء الأعيان
ذكر الضياء هنا مناسب وحسن ، إذ الليل في العيون سواد يغم ضياءها ، فالبدر يحلوه - فهذا أجود من قول العقاد «بعينه من ومض الملاحه نور» من حيث حاق تدبير البيان .

فيذوب في حديق المها — سحرا لطيفا لينا
قوله «لينا» جيد ، ينم عن إحساس مرهف ، إذ لا يخفى أن في حديق الملاح لينا - وإنما يظن الفاطن للينه مع السفور الدائم لا حيناً بعد حين ، إذ ذلك ربما غلب فيه الزهو - [وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا] أو المرح [وتصدفت حتى استبتك - الحادرة]

للحقل يرتجل الروا — ن زنبقا أو سوسنا

كذلك يرتجل هنا جيدة لما فيه من تحويل الخطابة التى تنسب عادة من الشعراء إلى الطير في باب المجاز ، إلى النبات هنا ، وما يفاجئ به من النواوير والأزاهير مع تتابع أسابيع الدفء بعد برد الشتاء ، خصوصا في بلد يكون كلبنان ، يمتد ربيعته من عند سيف البحر الى حيث يدنو من قمم الثلوج - ولله در البوصيري إذ يقول في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

فرحت به البرية القصوى ومن — فيها وفاضلت الوعور سهولا
وزهت وضاهت حسن لبنان الذى — لولا كرامة أحمد ما نیلا

فقد ترى أنه أوشك أن يفضل حسن لبنان على حسن جميع البلاد، وهو بعد المحب
للليل القائل فيه من نفس الكلمة :-

إني لأورد ذكـــــــره لتعطشي
والنيل يذكرني كريم بنانه
وقال أبو الطيب :

بيني وبين أبي على مثله
وجبال لبنان وكيف بقطعها
فقد جعل رؤوس الجبال عليهن الثلوج تبدو كأنها عدد من أمثال أبي علي هبة وأمثال
رجائه هو الضخم في صور بشرية مشرفات ، تحفق عليهن عمام بيض من ثلج الشتاء -
ونرجع إلى نونية أبي ماضي

للعشب أثقله الندى للغصن أثقله الجنى

هذا من بوانية أبي الطيب :

عاش الجمال مشردا
حتى انكشفت له فآلــــ
واستعرض الفن الجبــــا
والخطاب لجبل لبنان كما سيفصح به بعد
لله سر فيك يــــا
خلق النجوم وخاف أن
فأعــــار أرزك مجده

الفكرة بعيدة المتصيد

زعموا سلــــوتك ليتهم
فالمرء قد ينسى المسى
جىء بالمفترى ليتم بها الوزن ، إذ المراد كل مسىء لا المسىء المفترى وحده ، اي الذي
إساءته أنه افترى وقد لا يكون أساء في غير ذلك .

والخمير والحسناء والــــ
ومــــرارة الفقــــر المذ
وتر المرنح والغنى
ل بلى ولــــذات الغنى

لكنَّه مهملٌ ————— هيهات يسلمو الوطناً
والمعنى هنا خطابي قومي، شبه بهما كان يصنعه حافظ، وفي القصيدة بعد مواضع
إحسان لا تخفى وعندى أن هذه النونية أنطق بشاعرية إيليا أبي ماضي من كلمته
الرائجة «الطلاسم».

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أيت
كيف جئت، كيف أبصرت طـــــــــــــــــريقى :-
لست أدري

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود
هل أنا حرر طليق أم أسير في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود
أتمنى أننى أدري ولكن ..
لست أدري

وهكذا وهلم جرا . . . نغم لين فيه عذوبة التزم ووضوح الوزن وحسن اختيار
لل كلمات - ولكن جملة البيان لا تصل بالقلب حقاً إلى كبير شيء . محاولة نزعة معرية
الإلحاد خياميته [نسبة إلى رباعيات الخيام التي ترجمها فتزجرالد فأحدث ذلك لها شهرة]
- ثم المعاني فقايع، مما هودائر في باب طلب التعمق الفلسفي وليس بعميق . - مع
هذا إيليا أبو ماضي من كبار شعراء عصر التجديد وقد حاول بجهد صادق أن ينفي
عن دولة الشعر التجديدي كثيراً مما احتشد فيها من الجند الدخيل الرهيب .

الضرب الثالث :

«رومنية» الأفندي

أصل معنى كلمة الأفندي فيما بلغنا السيد، وكانت تطلق على السلطان وعلى
خديوي مصر فيقال أفندينا ويقال لجيش الخديوي «عسكر أفندينا»، ثم صارت
الكلمة لقبا للسيد الجديد من المثقفين الذين تسنموا كبار الوظائف، وانعكس في
بهائهم بهاء «أفندينا» بهاء «الميري» (أي السلطان وكأنها الأميري بتخفيف الهمزة)
وجاهه .

كان لواء القيادة الفكرية بيد المشايخ والفقهاء . ثم انتقل من هؤلاء إلى كبار الأفندية ، علي مبارك ، اسمعيل صبري ، أحمد شوقي ، وهلم جرا - وجاء التعليم النظامي الخالي من أساس القرآن وعلوم الدين والنحو القديمات . القرآن واللغة الآن جزء من برنامج المدرسة مع اللغات الافرنجية والحساب والجغرافية . وحظ هؤلاء من الاهتمام بهم أكبر إذ تمهيدهم للوظائف ذات الجاه أشد وأؤكد . وهكذا أخذت المدارس النظامية تخرج أجيالا من الأفندية لا يلبسون زي الشيوخ الذي كان يتزيا به العلماء ولكن السترة والبنطلون والكرفطة - الزي الافرنجي المظهر ، لا يميزه في كثير من بلاد المسلمين عن زي الافرنج إلا الطربوش على الرأس . وقد ترك هذا من بعد ، في أكثر البلاد .

كان حظ الأفندي الجديد من علم العربية أول الأمر لا بأس به ، إذ كان لدروس تطبيق النحو والإنشاء فيه مكان . ولكن التنافس على الوظائف من بعد وزيادة عدد المتسابقين عليها جرت إلى ما قدمنا ذكره من تدهور العناية بالعربية وموادها وعلوم الدين ودرس القرآن .

وتصدى الأفندية المثقفون بثقافة الافرنج من أجل الوظائف لحمل ألوية القيادة الفكرية التي صارت إليهم من جيل أوائل النهضة . وعلى رأسها الأدب والشعر إن لم يكن أهم ابوابه فإن أهميته ما زالت بالغة .

وقد كان للعلماء العارفين باللغة نحوها وصرفها ميراث من سلطانهم القديم . إلا أنه الآن قد زعزعه أمران - حملة أوائل دعاة التجديد المتطرفين على شوقي وأصحابه الذين انتزعوا لواء دولة الشعر من المشايخ ، ثم ما جعل يغلب من جهل دقائق اللغة ، جهلا جعل يزين لكثير من جيل الأفندية الجديد التكرار لتقديمها والثورة على قواعدها . جيل الأفندية الجديد ، ولا سيما طبقة التي تغلغت فيما ظنته في صميم حضارة أوروبا من طريق المهن الكبرى كالطب والهندسة والقانون والتخصصات العالية المستوى في الإدارة والجيش والتدريس العصري ، جعل يعد نفسه طليعة التقدم ، والطرف اللاحق بأوروبا من هذا العالم الذي انتماؤه ، حق انتهائه ، إليه ، ولكنه متخلف يا للأسف .

ومن عند ههنا أجاز لنفسه من جسارة التعدي على أساليب الفصاحة ما لم يكن يميزه جيل من اقتدوا بشوقي وحافظ - أجاز ذلك باسم الثورة على القديم ، والتجديد

الذي يرمى إلى استعمال اللغة العامية السهلة ، لغة الصحافة ، لغة تفاهم المثقفين - لغة ثورة الرومنسيين التي عبر عنها «ورد زورث» وعبر عنها «الديوان» حين ثار على جهود شوقي ، وعبر عنها «ميخائيل نعيمة» في «الغربال» ، وعبر عنها المهجر ، - لغة القلب والوجدان .

أما أحمد زكي أبو شادي ، صاحب أبولو ، وقائد العير إلى دار الجهاد ، فكان أمراً شديد الطموح ، ضعيف الحظ من تذوق ديباجة الشعر العربي ، ضعيف الإحساس بزنة نغمات أوزانه القوية ما كان منها جزلاً أو ذارقة ، ذا حظ من «الأفكار» الرومنسية كبير ، ومن الأفكار التي قد تدور بها بعض خواطر مثقفي العلم الحديث ، ولكنه كان ذا حظ قليل من حاق وجدان القلوب الذي يكون في الشعر . واعلم أن وجدان القلوب الذي يكون في الشعر ليس ضربة لازم هو وجدان القلوب الذي يكون عند الانفعال الذي نحسه ساعة الغضب أو الحزن أو الفرح الطارئ وما أشبه . وقد مر من أمثلة نظم أحمد زكي أبي شادي شيء ذكرناه في أوائل الجزء الأول وهو قوله :

أهـلا أبـو قـردان يا منقـذ الفـلاح
كـلا كما قـد هـان واستمـرأ الأفرـاح

فتحيل القارئ الكريم إلى ما علقنا به عليه هناك .

وطبيب آخر ، ضعيف الحظ من العربية ، عظيم الحظ من وجدان القلوب الذي يكون في الشعر ، لو تعهده بما يتعهده الشاعر الحق فنه ، لكان بلا ريب سيجيد - لو حرف لما كان سيقع لوقوع غيره . رحم الله الدكتور ابراهيم ناجي^(١) ورحم الدكتور طه حسين إذ قال فيه «إنه من هؤلاء الشعراء الذين يحسن ان تستمتع بما في شعرهم من الجمال كما تستمتع بجمال الوردة الرقيقة النظرة دون أن تشتت عليها بالتقليب والتعذيب . هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت ، عذب النفس ، خفيف الروح ، قوي الجناح . شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقا الغرفة منه بهذه الموسيقا الكبرى التي تذهب بك كل مذهب وتقيم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء .» - ولا ريب أن الوردة التي كره طه رحمه الله تقليبها وتعذيبها قد قطفت - فهي ضعيفة «بالقوة» كل الضعف .

وهاك مثالا من تغنيه الذي هو موسيقا غرفة ، ووردة ستذبل مع التقليب .

١ - ولد بمصر في ٣١ ديسمبر ١٨٩٨ وتوفي ٢٣ مارس ١٩٥٣

يا غلة المتلهف الصادي يا آيتي وقصيدتي الكبرى
ماذا تركت لدي من زاد إلا استعادة هذه الذكرى

يا للمساء العبقري وما أبقي على الأيام في خلدي
شفتاك شفا لوعة وظما وجمالك الجبار طوع يدي
نمشي وقد طال الطريق بنا ونود لو نمشي إلى الأبد
ونود لو خلت الحياة لنا كطريقنا وغدت بلا أحد

نبي على أنقاض ماضينا قصرا من الأوهام عملاقا
ونظلم نسج من أمانينا وشيا من الأحلام براقا
وأظلم أسقيها وتملأ لي من مورد خلف الظنون خفي
حتى إذا سكرت من الأمل وترنحت مالت على كتفي

حلفت بأني مغتد معها حيث اغتدت وهواي في دمها
فمسحت بالقبلات أدمعها وطبعت ميثاقي على فمها
لولا ما نهى عنه الدكتور طه من التقليل والتعذيب لوقفنا عند مسائل من الصياغة في
هذه الأبيات - مثلا شفتاك شفا - وأحسب أن البيت الثاني قد كان :

زادي لقساؤك عز من زاد يحيا الوري ويعيش بالذكرى

ثم راجعها الشاعر ولعل الوضع الأول كان أجود .

ولا بد بعد من التنبيه على أخذ ناجي من حسناء كيتس من قوله وأظلم أسقيها وقوله
مالت على كتفي إلى آخر هذا التسميط قال كيتس :

I set her on my pacing steed
And nothing else saw I all day long
For sidelong would she bend and sing
A fairy song
She found me roots of relish sweet
And honey wild and manna-dew,
And sure in language she said
I love the true
She took me to her elfin grot
And there she wept and sigh'd full sore
And there I shut her wild wild eyes
With kisses four

(هذا النص نقلناه من Palgrave's Golden Treasury وفيه اختلاف أحرف يسير عن النص الذي أوردناه قبل نقلا عن كتاب الشعر الرومنسي كما بيناه في موضعه) .
وقد مرت الترجمة وهي (لتيسير الموازنة) :-

حملتها فوق جوادي بنا	يخطو ولا شيئا سواها أرى
طوال يومي حين مالت إلى	جنبي وتشدو اللحن من عبقرات
ووجدت لي من عروق شهية	وات وحلوات لدى المأكلات
والعسل البري جاءت به	والمن يغشاه ندى السلسل
ثمت قالت بلسان غريب	بب إنني أهواك يا ويح لي
ثمت صارت بي إلى كهفها	مسحور صارت بي إلى كهفها
وحدقت ثم ومقروحة	سفؤاد بالآهة من جوفها
عندئذ قبلتها أربعا	أغلقت جفن الوحش من طرفها

ولإبراهيم ناجي كلمة دون المسمطة التي مرت في سلامة الرصف ونغم القريض ، وفيها معنى حسناء كيتس ومعان من فتاة أدولف (بنيامين كنستنس) وغادة الكاميليا معا .
وها هي ذي ، عنوانها الحياة مع كلمات بين قوسين كالتقديم (استعراض للحياة في شارع) [ديوان إبراهيم ناجي ، دار العودة ، بيروت ، ص ٣٦] .

جلست يوما حين حل المساء	وقد مضى يومي بلا مؤنس
أريح أقداما وهت من عياء	وأرقب العالم في مجلسي
أرقبه يا كد هذا الرقيب	في طيب الكون وفي باطله
وما يبالي ذا الخضم العجيب	بناظر يرقب في ساحله

(أحسبه أخذ هذا من حيث لا يشعر من قول أخي تغلب :

ما ضر تغلب وائل أهجوتها أم بلت حيث تناطح البحران
وقال الآخر:

ما يضر البحر أضحى مزبدا أن رمى فيه غلام بحجر)

والمعنى كثير . وأحسب القارئ لم يرغب عنه بعض أسلوب ناجي هاهنا

سيان ما أجهل أو أعلم من غامض الليل ولغز النهار
«أو» بمعنى الواو هنا ضرورة

سيستمر المسرح الأعظم رواية طالت وأين الستار

هذا يشير به عمدا أو عن غير عمد إلى All the world is a stage أي كل الدنيا كخشبة المسرح أو خشبة مسرح

عيت بالدنيا وأسرارها وما احتيالي وصموت الرمال
أنشد في رائع أنوارها رشدا فما أغنم إلا الضلال
المعنى غير واضح . هل أراد أن الناس لا يهتمون بشعره .

أغمضت عيني دونها خائفا مبتغيا لي رحمة في الظلام
فصاح بي صائحها هاتفا كأنها يوقظني من منام
أنت امرؤ تزرع تحت الضني لم يبق منا الدهر إلا عناد
وكل ما تبصره من سنا يهزأ بالجدوة خلف الرماد
وكل ما تبصره من قوى تدوي دوي الريح عند الهبوب
يسخر من مبتش قد ثوى يرنو إلى الدنيا بعين الغروب
هذا البيت وهو في الحقيقة آخر هذه المنظومة وبعده اثنتا عشرة رباعية، كلهن زيادة لا طائل فيها، وكاد يخرج بها ناجي عن موضوعه، إذ أخذ في مواعظ من القول من الضرب الباهت المغسول وختم الكلمة بقوله:

يا رب غفرانك إنا صغار ندب في الدنيا ديب الغرور
نسحب في الأرض ذيول الصغار والشيب تأديب لنا والقبور

والخاتمة التي سبقت، لو قد اكتفى بها أجود
وفي الأبيات بعد أطياف «الحسنة بلا رحمة». وأطيافها في شعر ناجي كثيرة، مثلا في كلمته التي أولها مشهور:

هذه الكعبة كنا طائفها والمصلين صباحا ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء

وفي الأبيات: «أغمضت عيني دونها إلخ» شيء من رؤية الفارس الأشباح ومن استيقاظه ومن بعد «كتيبا يسير» وليرجع القاريء الكريم إلى ما ترجمناه عن نص كيتس أو إلى النص نفسه . وفارس الحسنة بلا رحمة جذوته بلا رماذ، وعناد لا ريب فيه، إذ هو

يسير بسفح الجبل الكثيب بعد أن جف نبات الغدير والطير لا يلفى له من هدير -
ورنو كل شيء في الدنيا بعين الغروب أسي على الكون الفاني - أليس ذلك هو عين
الكآبة؟

واقراً كلمته الخريف - ولكيتس كلمة مفعمة بتأمل الطبيعة وتلمظ طعمها بهذا
العنوان:

(1) To Autumn

Season of mists and mellow fruit fulness,
Close bosom- friend of the maturing sun
Conspiring with him how to load and bless
With fruit the vines that round the thatch- eves run;
To bend with apples the moss'd cottage trees,
And fill all fruit with ripeness to the core,
To swell the gourd, and plump the hazel shells
with a sweet kernel; to set budding more,
And still more, later flowers for the bees,
Until they think warm days will never cease
For summer has o'er brimm'd their clammy cells.

- كلمة ناجى ليس فيها هذا التلمظ للطبيعة المؤذنة ازدهار ألوانها بقرب الشتاء - فيها
من صدى صور كيتس قوله :

رب كرم مده الليل لنا فتواثبنا له نبغي اقتطافه
وعلى خيمته أسوده عري الجود شرقي الضيافة
هذا الشطر أسرقه من على محمود طه أم سرقه على محمود طه منه [ليالي كليوبطرة]؟
وجد العرس على بهجته وسناه دون ورد فأضافه
ثم وارت يسه جنيته وطوته في أساطير الخرافة
وقوله

أرج يعبق في انحائه حملته نحو عرشينا الرياح
لعله في قول كيتس :

The Penguin Book of Romantic Verse- D.wright- (1982)-282-3

(١) انظر

يقول كيتس ما معناه : يا فصل الضباب والينع والإثمار، - والخليل المقرب من الشمس المكتهلة، - تتواطأ معها على أن تثقل
بالثمر والبركة، - دولي الكرم التي تمتد على حافة سقف الشام، - وأن تحنو بالتفاح أغصان أشجار البيت الصغير، - وكل
ثمرة تملأها بالنضج إلى الصميم، - وتنفخ الدباء وتغعم قشر البندق، - بلباب حلو وتشرع في إخراج مزيد، - بعد مزيد
من الأزهار المتأخرة الموسم من أجل النحل، حتى يجيل إليهن أن أيام الدفء لن تنتهي، - لأن الصيف قد اترع خلاياهن
النديّة اتراعاً.

Thy hair soft- lifted by the winnowing wind (1)

وفي بعض أبيات « الخريف » على خفة وزن ، شئ من حلاوة روح ابراهيم ناجي
وحراة أنفاس وجدانه - سبب هذه الحراة مواجهته لنا بخطاب العاطفة ، فيشعر
القارئ أن له صدقا وإقداما على القول والإفصاح به من غير تكلف تقية أو رياء :

كل ما فيك من الأسرار يغري	أي سر فيك إنى لست أدري
فتنة تعصف من لفتة نحر	خطر ينساب من مفتر ثغر
زورق يسبح في موجة عطر	قدر ينسج من خصلة شعر
واصلا ما بين عينيك وعمري	في عباب غامض التيار يجري

* * * *

أترى تذكر إذ جزنا المدينة	ذات ليل والسدجى يغمرنا
حر ما يصلى تلمست جبينه	كلما روعت من نزار شج
بب تعيد النار بردا وسكنة	بيد شفافة مثل الندى الرطـ
ما الذي تصنع بالنار الدفينة	أيها الأسى لناري هذه

من تأمل كثيرا من شعر نزار قباني وجده يستعين بمثل هذا من كلام الدكتور ناجي رحمه
الله ويتوكأ عليه . خطابة ناجي عاطفية فيها من روح أسى انقطاع " الأوبرا " - هذا
جانبا " الرومانسي " ، أما نزار فقد انصرف من الخطابة بالذكرى الوجدانية ، الى نوع من
مباشرة الشباب ومغايرة حسانه بغزل مشاغب . وهنا أيضا " رومسية " . " رومسية "
تعتمد الخروج عن المألوف . ولكنها " رومسية " لا تخلو من رخص روح الشارع الذي
تجتهد أن ترتفع به الى مستوى الفن . الحق أنه شارع الصحافة اليومية التي لا يراد لها أن
تعيش الى الغد ، ولكن قد تبقى عند من يحرص على ذلك في الأضابير :

يا شعرها على يدي	شلال ضوء أسود
المه سنابابلا	سنابابلا لم تحصـد
لاتربطيه واجعلي	على المساء مقعدى
من عمرنا على مخـد	دات الشذى لم تـرقـد
وحـررتـه من شـريـد	ط أصفـر مغـرد
واستغـرقت أصـابعـي	في ملعب حـرر نـدى

الى آخر ما قاله ، وقد كتبت في الديوان أشطارا ، وهي من مجزوء الرجز كما ترى .

(1) شعرك يرفعه برفق مر ذوو الرياح - الضمير يعود على الخريف وجعله الشاعر إنسانة

هذا وعلى محمود طه كأنه أسلم متن أسلوب من ابراهيم ناجي غير أن أنفاسه أبرد . ذلك بأنه يبالغ في الرقة ويهندس عباراته بفرط صقل لها . وعلى أنه سمى ديوانا له بالملاح التائه ، نجد حسناء كيتس التي أثرت على ابراهيم ناجي ، أثرت أيضا على المهندس . وينبغي أن تنبه بعد الى أن كلا هذين الرومنسيين العربيين لا يريد لنفسه موت الحب الأعوج الذي عند La Belle Dame Sans Merci وعند Christabel الجنية الساحقة مصاصة الدم - يريد فقط موتا مجازيا^(١):

يا حبيب الروح يا روح الأماني	لست تدري عطش الروح اليكا
وحيني في أنين غير فـانـى	للردى أشربه من مقلتيكا
أيها الماضي الذي أودعته	حفرة قد خيم الموت بها (٢)
أيها الشعر الذي كفتته	مقسما لا قلت شعرا بعدها
أيها القلب الذي مزقته	صارخا عهدك يا قلب انتهى

فمن تأثيرها ، هذه الجنية العاشقة القاتلة (ذكر أبو العلاء في غفرانه عشق المردة البنات وقتلهن بذلك ، قرب السخ من بعض ما يقرأونه في صحف الجرائم الآن ، اقرأ مثلا في خبر جني المعري قوله دخلت مرة دار أناس أريد أن أصرع فتاة لهم إلخ ص ٢٩٣ وقوله ص ٢٩٤

وكنـت ألف من أتـراب قرطـبة	خودا وبالصين أخرى بنت يغبورا
أزور تلك وهـذي غير مكرث	في ليلة قبل أن أستوضح النورا
وفي ألف ليلة وليلة منه كثير) - :	
لا تفزعـى يا أرض لا تفرقـى	من شبح تحت الدجى عابر
ما هو إلا آدمى شقى	سموه بين الناس بالشاعر
هنا نبأه من أول حسناء كيتس :	

O, what can ail thee knight-at-arms?

وكذلك في قوله :	
حتى اذا ضاقت عليه السبل	وعز في الأرض عليه المقام
أوى الى كهف بسفح الجبل	عساه يقضي ليله في سلام
ما كان إلا حلما كاذبا	أفاق منه مستطار الجنان
البحر يرغى تحته صاخبا	والشهب نار والدجى من دخان

(٢) نفسه ٤٨٢

(١) ديوان ناجي : (١٣)

أيها الأحياء غنوا واطربوا وانهبوا من غفلات الدهر ساعا
 آه ما أروعها من ليلة فاض في أرجائها السحر وشاعا
 نفخ الحب بها من روحه ورمي عن سرها الخافي القناعا
 وجلا من صور الحسن لنا عبقريا لبق الفن صناعا
 ثم إذا بمعنى آخر يجيء - الهاجر والهجران والملاح التائه :

أيها الهاجر عزز الملتقى وأذبت القلب صدا وامتناعا
 أدرك التائه في بحر الهوى قبل أن يقتله الموج صراعا
 البحر هنا مجازي لفظي وبحر كلردج أيضا مجازي إلا أنه ليس منحصر المجازية في اللفظ

وارع في الدنيا طريدا شاردا عنه ضاقت رقعة الأرض اتساعا
 فقد صار البحر أرضا ، وقد يعتذر معتذر عن هذا بأن البحر في كوكب اسمه
 الأرض ، والشاعر مهندس علمي عقله - يذكر القارئ الكريم أصلحه الله قول أبي الطيب :

عربي لسانه فلسفي رأسه فارسية أعياده
 نعم الأرض هاهنا هي الكوكب الفلكي الجغرافي لا أرض الشعراء التراب
 ضل في الأرض سراه ومضى لا يرى في أفق منه شعاعا
 يجتوى اللافح من حررقه وعذاب يشعل الروح التياعا
 والأسى الخالد من ماض عفا والهوى الثائر في قلب تداعى
 فاجعل البحر أمانا حوله واملأ السهل سلاما واليفاعا
 وامسح الآن على آلامه بيد الرفق التي تمحو الدماعا
 وقد الفلك إلى بر الرضى وانشر الحب على الفلك شراعا
 صار البحر غير مجازي وله بر كما ترى - وصار ملاح المهندس التائه يتزنم بأصداء همزية أمير الشعراء :

رب إن شئت فالفضاء مضيق وإذا شئت فالمضيق فضاء
 فاجعل البحر عصمة وأبعث الرحمة ممة فيها الرياح والأنواء
 وهل العصمة والرحمة هنا لهما لون انجيلي مسيحي ؟ وهل في كلم المهندس شيء من
 نظر إلى القسيس المعدم فلم تجد روح ملاح كلردج من يصلي لها وهي في غرغرة النزاع ؟

يقول المهندس في «الله والشاعر» :-

وهذه الأعين نهب الغفاء
محدقات في نواحي السماء
وهذه الأيدي تحوط الصدور
لم تنس في نزع الحياة الغرور
هاهنا شيء من ملاح كلردج وأشباحه .

أشباح كلردج سباع شرسات ، وأعين المهندس التي يذكرهن وينعتهن محدقات
هاهنا ، إنما هن أعين سنابير أوالف ، أدركهن ما يدرك سنابير الدور من هذا الموت - خذ
مثلاً قول كلردج : (الفصل الرابع (١)) :

I fear thee ancient mariner!
I fear thy skinny hand!
And thou art long, and lank and brown,
As is the ribbed sea - sand.

I fear thee and thy glittering eye,
And thy skinny hand so brown.
Fear not fear not thou wedding guest
This body dropt not down.

Alone, alone, all, all alone,
Alone on a wide wide sea!
And never a saint took pity on
My soul in agony.

The many men so beautiful
And they all dead did lie,
And a thousand thousand slimy things
Lived on; and so did I.

I looked upon the rotting sea,
And drew my eyes away;
I looked upon the rotting deck,
And there the dead men lay,

I looked to heaven and tried to pray
But or ever a pray had gusht,
A wicked whisper came, and made
My heart as dry as dust

ترجم زميلي الفاضل الأستاذ عمران العاقب منظومة الملاح التائه كلها ، وأكتب
وليس من ذلك بيدي شيء فاستشهد منه في هذا الموضوع فحسب القاريء الكريم لهذه
الأسطر اللاتي مضيئ هذا التقريب ، وإنما هو لتوضيح ما يمكن توضيحه من اتجاه
معاني كلردج :

أنا خائف منك أيها الملاح القديم
أنا خائف من يدك المعروقة
وأنت طويل نحيل أسمر
مثل رمل البحر المضلع

أنا خائف منك ومن عينك ذات البريق
ومن يدك المعروقة الشديدة السمرة
لا تخف لا تخف يا ضيف العرس
هذا الجسم لم يسقط^(١)
وحدي وحدي لا أحد معي في انفرادي
وحدي في بحر واسع المدى عريض
ولم يرق قلب ولو من قديس واحد
على روعي التي في ألم النزاع

الرجال الكثيرون ما كان أجملهم
جميعهم راقدون أموات
وألف ألف شيء لزج
ما زال حيا ، وكذلك أنا

(١) يشير إلى قوله من قبل أن أصحابه سقطوا واحدا بعد الآخر هالكين .

نظرت الى البحر المتأسن
ثم صرفت نظري عنه بعيدا
ونظرت الى سطح السفينة المتعفن
وثم الرجال موتى رقودا

نظرت الى السماء وحاولت أصلي
ولكن لم تكد تنبعث صلاة واحدة
حتى أتى هاجس شرير وجعل
قلبي يابساً مثل التراب

I closed my lids and kept them close,
And the balls like pulses beat,
For the sky and the sea, and the sea and the sky
Lay like a load on my weary eye,
And the dead were at my feet.
The cold sweat melted from their limbs,
Nor rot nor reek did they:
The look with which they looked on me
Had never passed away.

أغمضت أجفاني وأبقيتها مغمضة
وجعلت الحدقات تدق مثل النبض
لأن السماء والبحر والبحر والسماء
جثما كالعبء على طرفي المضني
وعند قدمي جنائز الموتى

وقد ذاب العرق البارد من أعضائهم
ولكنهم لا تعفنوا ولا فاحوا
والنظرة التي كانوا ينظرون بها الي
لم تفارقهم قط .

هذا وقد ضربت الرومنسية التي من هذا الضرب بجران في أكثر البلاد العربية
وينبغي أن ننبه الى موضع اليمن والمغرب والسودان في جميع هذا وليس ههنا موضع

الاستقصاء والتفصيل . وقد سبقت الإشارة الى شيء من شعر يوسف مصطفى التني (١)
رحمه الله قلنا إنه نظر فيه الى بعض ما قاله الرافعي رحمه الله في أوراق الورد ، وهو قوله :
اعبسي لي ففي العبوس ابتسام

والكلمة من ديوانه الصدى الأول :

اعبسي لي ففي العبوس ابتسام
وادفعيني ففي الصددود اقتراب
ايه وادعي علي دون حنان
الجمال منــــــــــــــــوع القسمات
من معاني جمالك الأشــــــــــــــــات
فدعاء علي منك يــــــــــــــــواتي

أعزوفنا عن الجنان لأنني
أغناء عن الخلود أكيدا
أأعاف النعيم لو يتبدى
لا أنال الجنان دون تقاة
إن يكن مهيعي إليه مماني
في لبوس النحوس والحشرات

قد عهدت الجمال أنفذ سحرا
شوق الناس للبدور غياب
والورود الورود مطمح نفسي
وهو سر عنه الشفوف تشف
وغمام على الضياء يــــــــــــــــرف
وهي بالشائك الأليم تحف

مرحبا بالعبوس فهو ضياء
مرحبا بالدعا تشابه فيه
أنا اعطي لكي انال كثيرا
قد جلا من محاسن القسمات
أنة العود زنة الكلمات
وأصفي من الاسى فرحاتي

فاعبسي لي ففي العبوس ابتسام
وادفعيني ففي الصددود اقتراب
ايه وادعي علي دون حنان
الجمال منــــــــــــــــوع القسمات
من معاني جمالك الأشــــــــــــــــات
فدعاء علي منك يــــــــــــــــواتي

والتني كما تأثر بالرافعي تأثر أيضا بالعقاد - ثم بسائر روح زمانه " الرومسي " من
شواهد الرومسية الواضحة هنا هذا الاعجاب بالنفور والعبوس والغضب . هذا اللون

(١) ولد رحمه الله سنة ١٩٠٩ ، وتخرج من كلية غردون ، ثم التحق بالجيش ثم تركه فعمل في الصحافة
وشارك في الحركة الوطنية وعمل في السياسة وصار سفيرا للسودان في يوغسلافيا وتوفي رحمه الله
١٩٦٨ م .

النمري، [نسبة إلى النمر]. وقد لاحظ برتراند رسل " أن الرومنسيين يعجبهم الجمال الشرس كجمال النمر الذي أعجب وليم بليك ، ولا يفتنون للجمال النافع كجمال حقل القمح . وفي متن هذه الأبيات التي أوردنا بعض الوهي . وشعر التي رحمه الله في جملته لا بأس به وله ديوان في المدائح النبوية هو آخر ما نظمه ، خرج فيه من الرومنسية التي من هذا الضرب إلى نوع من التدين قريب معدنه من الضرب الأول . وأكثر نشأة رجال الفكر في بلادنا كانت في أوساط دينية - وقدima قال الشاعر :

كل امريء راجع يوما لشيئته ولو تخلق أخلاقا إلى حين

رحمه الله ووكفت على جدته شآبيب الغفران .

ما صنعه الأستاذ محمد المهدي مجذوب رحمه الله في كلمته « صل يا رب »^(١) على المدثر « مختلف عن هذا الذي صنعه التي رحمه الله إذ هو لم يرجع لتقيده قريش بأحساب الكرام وقيم . الإشارة هنا إلى قوله »^(٢) :

فليت في الزنوج ولي رباب تميل به خطاي وتستقيم
طليق لا تقيديني قريش بأحساب الكرام ولا تميم
فقله فليت شاهد بأن القيد ما زال معه . فليتأمل جوانب منه . ليفصح عن محافظته وثورة وجدانه وافتنانه ، افتنان المصور الدقيق عن كل ذلك معا ، وليظل بعد ذلك جامعا بين الرومنسية الثالثة وروح النهضة ثم متجاوزا من بعد إلى ضروب من النهج الجديد .

ولا يخفى أن جانب النهضة يصحبه كما تقدم وصفنا له تجويد في متن النظم وحرص على نقاء الديباجة ومذهب الجزالة وأن ذلك قل أن يتفق مثله في الرومنسيين الثانية والثالثة .

واعلم أيها القاريء الكريم اصلحك الله أن شأن الموجة التجديدية تخرج من بلاد العرب التي سبقت بالنهضة ومن مصر على الأخص إذ كانت حقا هي القائد في هذا الباب ، تتأثر بها بلاد العربية الأخرى ، وسرعان ما تلحق بها موجة تالية من

١ - من ديوانه نار المجاذيب ، طبع الخرطوم ١٩٦٩ .

٢ - من قصيدته « لزيم الجور من أسفى لزيم » في ديوانه نار المجاذيب .

التجديد فيكون من هم مازالوا تحت غمرة الموجة الاولى ، قد بلغهم فجعل يغمرهم دفاع الموجة الثانية وربما لحق بذلك ألسنة رشاش أو غمر كامل من موجة ثالثة وهلم جرا . فيلغى شاعر نهضي من أوائل المتأثرين بالنهضة قد اصابه رشاش من رومنسية الضرب الثالث كالشيخ البنا والشيخ عبدالله عبدالرحمن رحمه الله . ويلغى شاعر من الجيل الذي كان تحرر التعليم الحديث قوي الأثر فيه ، نهضيا بحكم ما درس من العربية وما كان فيه مجتمع بلاده من طور التأثر بشعراء النهضة وإيثار الجزالة ولا بد له من موقف إزاء الرومنسية وما جاء بعدها من اطوار بحكم ملابسة المعاصرة وتعذر الانقسام عن المشاركة فيها بسلب أو إيجاب .

محمد المهدي مجذوب جمع بنهضيته بين المتانة والسلاسة ومذهب الجزالة ثم مع رومنسيته أخذ بوجوه من التجديد الحديث . محمد عبده غانم حرص من رومنسيته على الصحة والتجويد النهضي وأثر أن يعيب مسائل من مستحدثات الهمس والرمز والخروج عن الوزن ، أو كما قال في كلمة له قالها في مهرجان شوقي وحافظ :

ما ان عهدنا الهمس من خاطب	أكسبه بكرا ولا ثيبا
ما للجماهير وللشعر إن	لم تفهم النجوى ولا المطلبا
فتارة يهمس في أذنها	كأنها قد هاب أن تغضبا
وتارة بالرمز ينتابها	والرمز للصفوة إن أعجبا
هامت به بين استعاراته	لا تنتشي إلا إذا أغربا
وقال ليل الفجر في أفقنا	أطبق والبوم به أطربا
وكأسنا في قاعها قطرة	ترفض أن تشرب أو تسكبا

ومن جيد شعر محمد المهدي ، ونموذج من شدة أسره قوله يصف امرأة تتدخن وهو ضرب من التزين ، ومن الحمام الساخن ، تقعد المرأة فوق مكان حفرة خاصة معد لتوقد فيه نار من خشب الطلح ، ثم تشمل المرأة وتستحم بدخان الطلح الخارج منها - قال والكلمة في ديوانه نار المجاذيب :

وحفرة بدخان الطلح فاغمة	تندي الروادف تلوينا وتعطيرا
لمحت فيه وما أمنت عارية	تحفي وتظهر مثل النجم مذعورا
مدت بنانا به الحسناء يانعة	ترد ثوبا إلى النهدين محسورا
قد لفها العطر لف الغيم منتشرا	بدر الدجى وروى عن نورها نورا
يزيد صفرتها لمعا وجدتها	صقلا وناهدها المشدود تدويرا

هذا وشعر المغرب العربي الأقصى وبلاد شنقيط وشعر الجزيرة العربية بأسرها نجدها وحجازها وعروضها وتهامتها ويمناها وأحقافها وعدنها وخليجها وعمانها

وهجرها وبلاد السودان والأطراف اللاحقة به من افريقية وبالعربية من بلاد باكستان
والهند والشرق الاوسط والأقصى وداغستان وما وراء النهر وما امتد من ذلك بالهجرة إلى
ما وراء البحر المحيط من هذه البلاد - وهذا سوى ما تقدم ذكره من هجرة مهجري
لبنان وسورية - كل ذلك مما مرت به وتمر في شعر العربية خاصة موجات النهضة
والتجديد على دفعات متتالية . وكل ذلك مما ينبغي أن يتنبه له ويحرص على درسه ، ولا
يتسع المجال هاهنا للاستقصاء والتحليل - وهاك مثلاً من ديوان الحرية لابن ثابت
أورده الدكتور الطريسي أحمد غراب في رسالة له للدكتوراه بعنوان الفن والشعر الحديث
بالمغرب ومن ثم أخذه :

لا تسلني كيف كان الأمر إني لست أعلم
كل ما أعلم أني بت في جوف جهنم
وقضيت الليل والليل سعي يتضرم
هائجاً يارب ماذا قد جنيت الليل فارحم
تقفز الأحرف من فيه شرارات تكلم
قال لي ربك أدري بك يا صاح وأحلم
أنت منه قد طلبت النار يوماً أنت أظلم
أولم تسمع إليها وتراها بك أكرم
فذق النار التي أبت إليها وتعلم
فلعل النار تهديك وهدي النار أقوم

أول هذه القطعة مهجري متأثر بطلاسم إيليا أبي ماضي ، ثم انتقل ابن ثابت ، صاحب
هذه الأبيات إلى الرمز وأسطورة برومئوس . وهذا في معنى ما قدمناه من تداخل دفعات
الأمواج . والأصل « رومئسي » ثالث لفق به غيره على نحو ما يقال له إكلكتكي -
Eclectic - أي يأخذ من المذاهب المختلفة ويترجمونها بتلفيقي ولا تعجبي إذ ليس
التلفيق مذهباً فيه إلى أخذ متعمد باستحسان واختيار من مواضع شتى قد لا تتلاءم ،
ولكن هو ما لفق فيه شق من ثوب بشق آخر أو من ثوبين مختلفين مع حسن الملاءمة
اللهم إلا أن نزع أن الاكلكتكي إنما يريد الملاءمة الحسنة وفيه بعد . والله تعالى أعلم .
هذا وقد مثلنا أكثر ما مثلنا لأخذ على محمود طه وناجي من رومئسية كيتس
وكلردج . وليس القصد إلى استقصاء في « الأدب المقارن » ، وإلا فغير محتاج إلى كبير
دليل أن أخذهم قد تجاوز هذين وغيرهما من رومئسي الانجليز وخاصة شيلي ، فقد
ظل محبوباً مقروءاً بين محبي الرومئسية من العرب ولا سيما منظومته Ode to the West

Wind (قصيدة للريح الغربية) و Ode to the SKylark (قصيدة للقبرة) ووردزورث شاعر الرومانسية الانجليزية الكبير إلى رومنسى الفرنسيين كلامرتين ودي موسيه ودي فينى وفكتور هوجو، وقد ترجم إلى العربية من جميع هؤلاء، كما كان لكثير من أدباء مصر والشام والمغرب بهم معرفة وإلمام واسع - على أن شعراء الرومانسية الانجليزية كانوا بسبقهم لهم أثر على الرومانسية الفرنسية كما قدمنا من قبل . قالت مدام دي ستايل في بعض تعميماتها : « الأمة الفرنسية التي هي أعظم الأمم اللاتينية حضارة وثقيفا تؤثر المذهب الكلاسيكي وتحاكي به اليونان والرومان . والأمة الانجليزية وهي أبهى الأمم الجرمانية مكانا ، تقصد إلى الشعر الرومانتيكي وشعر الفروسية وتجدها الكبرى في هذا الباب » فهذا من معنى ما تقدم ان شاء الله تعالى .

الضرب الرابع وهو رومنسية الفقير المفقود

أو قل الفقيه المفقود أو ما أشبهه ، وهو الذي أقبل على الثقافة الدينية وأحس بأن فوائد العصر من جاه وحضارة جديدة وما إلى هذا المعنى ، كل ذلك فائته إن هو لم يرم (١) مكان الشيخ الفقيه العالم القديم . كان التعليم الديني هو أصل التربية والتأديب في جميع بلاد المسلمين ، يبتدأ بالقرآن ثم يصار منه إلى الفقه والنحو وسائر علوم اللسان والدين . وكان يقال لمعلمي القرآن عندنا الفقراء وربما قيل لهم « المهاجرون » من قوله تعالى « للفقراء المهاجرين . . . » وهم الصحابة المهاجرون الأولون العلماء . وهذه التسمية قديمة . وفي شرح الأعلام الشتمري الملحق بهوامش طبعة بولاق للكتاب :

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أحرف متشابهات
وخطوا لي أبا جاد وقالوا تعلم سجعفنن وقريشيات
ويقال الفقيه ولها وجوه مختلفة في النطق العامي في شتى بلاد العرب : الفقى الفكى
الفنى (٢) . . .

ثم جاء التعليم الحكومي أو شبه الحكومي العصري مع الاستعمار المباشر وغير المباشر ، وكان سبيلا إلى الوظائف ومراتب الدولة وفي ذلك من السلطة والجاه ، وانحصر أمر الوظائف المتاحة « لفقراء » الدين في إقامة المساجد والقضاء الشرعي والوعظ . ولاريب

(١) لم يرم بكسر الراء أي لم يغادر سترام يريم (٢) بتصغير الفاف همزة

أن هذا كان يصاحبه غير قليل من الشعور بالمظلمة والسخط . وفي بلادنا ، أيام الحكم الثنائي ، كان للقضاء الشرعي قسم خاص به في كلية غوردن (٣) يكون للمتخرجين منه إمام باللغة الانجليزية مع ما تلقوه من علوم الشريعة على مذهب الإمام أبي حنيفة (٤) (رضي الله عنه) ، فكان هذا فيه تضيق من الفرص على خريجي التعليم الديني البحث غير المشوب بشوب من هذا النهج الجديد .

حرص كثير من الشبان المتخرجين من التعليم الديني على ألا يعدوا جانباً متخلفاً عن مسيرة روح العصر ، حرصوا على أن يتموا إلى العصر ، ويزيدوا على الانتماء بأن يكونوا فيه أولى صدر وقيادة ، ومن هذا المبدأ نشأ بين أصحاب الملكة من بينهم اتجاه يجمع بين الثورة على المحافظة «التقليدية» يرون أنها هي معدن التأخر ، وتطلع إلى الحرية - الحرية من قيود هذه المحافظة ، والحرية التي ينشدها جميع الوطن العربي من الاستعمار ، والحرية التي ينشدها الشباب في الجمال والهوى والطلاقة والصعود المخرج إلى الأحلام البعيدة ، أحلام الجاه ، أحلام العصر والانتماء المسحور .

أبو القاسم الشابي ، الشاعر التونسي ، ابن القاضي ، أديب مسجد الزيتونة وخريج من يعد رمزاً لهذا النوع من الرومنسية ، وقد تأثر بشعراء المهجر وأنفاسهم المعرية الإلحاد ، يشهد لذلك وبه قوله :

نحن نمشي وحولنا هذه الأكـ	— وان تمشي لكن لأية غاية
نحن نشدو مع العصافير للشمـ	س وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للمو	ت ولكن ماذا ختام الرواية

هنا أدركه بعض الإعياء وإنما حام حول معنى أبي الطيب :

تمتع من سهـاد أو رقـاد	ولا تأمل كرى تحت الرجـام
فإن لثـالـث الحالين معنى	سوى معنى انتباهك والمنـام

وقوله «ختام الرواية» ييدر منه إلى الذهن أن ختام الرواية هو الموت ، ولكن قوله إنه يتلوها للموت دليل على أن الموت غاية بهيمته وإشرافه ، إذ لا يعقل أن يكون هذا الموت الذي يتلو هو رواية الكون له شعراً مجرد سامع ومستمع كما نصنع نحن إذ نشهد

(١) أنشئ هذا القسم سنة ١٩١٢م

(٢) خلافاً لما عليه أهل بلدنا وذلك مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .

تمثيلية من المسرحيات . إذن يعني ما ختام روايتنا كلها؟ وتكون في هذه الحالة مثل رواية هامليت التي هي داخل المسرحية الكبيرة

.....the play's the thing

Wherein I'll catch the conscience of the King

« المسرحية هي الشيء »

الذي أمسك فيه ضمير الملك بيدي

والبيت الذي يلي فيه ضعف ، والحق أن قوة نفس الشاعر بلغت مداها عند قوله :

نحن نتلو رواية الكون للموت ثم أدركه بعد ذلك إعياء

هكذا قلت للرياح فقالت سل ضمير الوجود كيف البداية

والكلمة فيها بعد مع الشك المعري الرومسي « الجبراني » المنحى نظر الى بحر المعري

ورويه في الكلمة التي رثى بها أبا القاسم المغربي الوزير (ت ٤١٨ هـ) :-

يا أبا القاسم الوزير تغيب ————— ست وخلفتني ثقال رحايه

يشير الى قول زهير « فتعركم عرك الرحي بثقالها » أي معها ثقالها

إن نحتك المنــــــــــــــــون قبل فإني متحاهــــــــــــــــا وإنها متحايه

ولكن في نظم أبي القاسم الشابي من جودة الصياغة ما لا تجد نظيره عند ناجي وعند على محمود طه ، ذلك بأن أساسه في العربية جيد ، ولو أخلص له كل الإخلاص ، ولم تفتنه أضواء مدنية العصر الحديث فخف لكى يتأعصر لكان أسلوبه في النظم أمتن وأبعد مما نجده يعرفه حيننا بعد حين من الوهن نحو قوله : ولكن ماذا ختام الرواية؟ ونحو قوله : هكذا قلت للرياح فإنه ليس لها كبير معنى ههنا .

قولنا « يتأعصر » أي يكون من هذا العصر ، من قولك أعصر تقيسه على أنجد أي صار في نجد وأنهم أي صار في تهامة وأصبح أي صار في الصباح وأضحى أي صار في الضحى وأعصر أي صار في العصر . وربما قيل الآن تعصرن وتعقلن ولا يعجبني ذلك وله وجه بعيد وهو قولك ضيف وضيفن أي ضيف الضيف بزيادة نون عليه . وأشهر شعر الشابي أبوليته ، أي قصيدته التي ذاعت من طريق مجله أبولو .

عذبة أنت كالطفولة كالأحد سلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسما الضحوك كالليلة القم راء كالورد كابتسام الوليد
يالها من وداعة وجمال وشباب منعم أملود

هذا البيت ضعيف بالنسبة إلى تتابع التشبيهات من قبل المشعر بقوة الانفعال . وأتبع الشاعر " يالها " هذه الأولى باثنتين بعدها :

يالها من طهارة تبعث التق ديس في مهجة الشقى العنيد

هل الشقى العنيد هو الشاعر نفسه ؟ ثم ما هذه " التقديس " الكلمة المسيحية الظلال ؟ وهل الشقى أيضا كلمة مسيحية الظلال بمعنى صاحب الخطيئة المذنب ؟ أو هي قرآنية الأصل « فمنهم شقى وسعيد » تأعصرت بإشراب من ظلال مسيحية ؟

يالها رقة يكاد يرف ال ورد منها في الصخرة الجلمود

وهل الصخرة قلبه ؟ واليالهات الثلاث لم يزدن شيئا على قوة البيتين الأولين ، وكان الشاعر أحس هذا فعدل عنه إلى وجه آخر :

أى شئ تراك هل أنت فيني سن تهادت بين الورى من جديد

وفينيس هنا يتأعصر بها الزيتوني ، ولا بأش عليه من ذلك ، فهى كهذا الزي الافرنجي الذي جعل الناس يلبسونه

لتعيد الشباب والفرح المع سول للعالم التعيس العميد
أم ملاك الفردوس جاء إلى الأ ض ليحيى روح السلام العهد
ملاك " مسيحية " يتوهم العصرى فيها الرقة لأن " الملك " قد يتبادر منها معنى " ملك الموت " ومعنى يوم القيامة « وجاء ربك والملك صفا صفا » والعهد تبرز منها عمامة الفقير الفقيد ، إذ هى فاعل بمعنى مفعول ؛ هذا أمر لا يقدم عليه إقداما أمثال أبى شادى أو ناجى أو المهندس أو جبران .

ثم هذه الخطابة الرومنسية بالفصاحة والبيان القرآنى : « القارعة ما القارعة » الحاقة ما الحاقة « والسما والطارق وما أدراك ما الطارق »

أنت ما أنت . .

ثم يحى العصر الحديث والانتفاء إليه :

. . . أنت رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود

أى من جمال فنون الطبيعة . شئ من فلسفة وحدة الوجود . حتى هذه المعانى العميقة

عندنا يا معشر العصرين . كأن هنا نوعا من الملاقاة بين هذا الضرب الرابع المتأعصر
والأول المدافع المتحدي :

فيك مافيه من غموض وعمق وجمال مقــــــدس معبــــــود
أنت ما أنت أنت فجر من السحــــر ——— تجل لقلبي المعمــــود
وفجر هنا ترف عليها طيوف من الصلاة وصوت المؤذن " الصلاة خير من النوم " .
والفجر أول بدء الإسفار حق جميل . وأكثر ما يذكر الفرنجة " Dawn " يعنون به ضوء
الصباح ، وكذلك Aube الفرنسية ، والصلاة عند ذلك ليست بأداء ولكن قضاء - أعنى
صلاة الغداة المفروضة .

ثم تجيء أنواع من التكرار . وقد أدار الشابي معاني قصيدته كلها على خطابة لفظية
تعطو بيد ولا تستطيع التناول حقا من ثمرات ما يخيل إليه أنه هو التفكير المتحضر
الفنى العصرى . الغناء بالطبيعة المشبهة بها هذه الحسنة ينقصه التأمل . ليس فيه
حديث المعرفة بالطبيعة التي ينبعث منها الإيماء بالحب لها ، والاتحاد القلبي مع جمالها .
هذا واضح عند " كيتس " . وواضح أيضا فى ربح " شيلي " الغربية إذ هو لا يكتفى
بالخطابة اللفظية ولكن يتأمل الطبيعة نفسها ويضع أنامله على تفاصيلها -
الأوراق الميتة المتطايرة صفرا وسودا وشواحب وقانيات ، والحبوب المجنحة التي
تستطردا الريح فى مركباتها إلى مراقدها الشتوية المظلمة

Thou on whose stream, mid the steep sky's commotion,
Loose clouds like earth's decaying leaves are shed, ...
Shook from the tangled boughs of Heaven and Ocean,
Angels of rain and lightning (1) ...

واضح فى شعر " وردزورث " عن ضروب الأزهار وضروب مناظر الريف - الفتاة الجبلية
مثلا ، لا بل واضح فى شعر إيليا أبى ماضى على شح ما فيه بالنسبة إلى هؤلاء - ذكر
التراب والجدول والقطرة والأرز والزنبق والسوسن وحقل القمح والشمس والبدر
والنجوم والجبال والعشب والندى والجنى والشجر والربيع والوحل والشتاء . ولا
يزعم زاعم أن لبنان بحسنها هى التي أوحى جميع هذا الى شاعرها المشتاق الآتب ،
نعم حسنها لا ريب فيه . ولكن تونس الخضراء هى أيضا جميلة وفيها ضروب من

(١) أنت يا من فى بجزاها وسط جرف هيجان الجو السحيق - ترى هليلة أهداب السحاب كما يساقط الورق على الأرض
الدابل - تهم ملائكة الحيا والبروق هزا من أغصان السماء والبحر المتشابكة . « من الريح الغربية للشاعر شيلي » .

الشجر والتمر والزهر. ولكن شاعرها الرومسي برومنسية ابن المسجد المحنى الضلوع
على ألوان من الثورة على المسجد، هو أيضا ابن مدينة قليل التعلق بتفاصيل جمال
الريف. الطبيعة التي يعشقها هي طبيعة هذا التصوف الحضاري الجديد المنبعث من
روح التجديد. وروده وأزهاره على الورق المكتوب وأناشيده ليست من أغاني عرس
العرب ولا ليالات نشيد الأذكار الصوفية والمدائح النبوية، ولكن من توهم ترانيم كنيسة
في القلب. من العجب أن إيليا أبى ماضى ليس في نونيته من الكنسيات كما في دالية
الشابي هذه

على أن للشابي مقدرة الخطابة المسجدية ذات المترادفات والمتزاوجات الكثيرة. ثروة من
التدفق اللفظي. أما المعانى - بل تأمل هذه الأبيات :-

فأراه الحياة في مونتق الحسود	من وجلى له خفايا الخلود
أنت روح الربيع تحتال في الدنـ	يا فتهتز رائعات الورود
وتهب الحياة سكرى من العطـ	ر ويدوى الوجود بالتغريد
كلما أبصرتك عيناي تمشيـ	من بخطو موقع كالنشيـد
خفق القلب للحياة ورف الزـ	هر في حقل عمرى المجرود

في ذا البيت محاولة تعبير عن انفعال صحيح عبر عنه الشاعر بأمر لعله كان يراه ويعرفه
وهو هذا الحقل المجرود - هذا البيت من التفاصيل النادرة في القصيدة ولكن له أصلا
من مادته القراءانية كما لا يخفى وأحسب أن هذا هو أصل التعبير لا تجربة المشاهدة
والله تعالى أعلم.

وانتشت روحى الكثيرة بالـ	ب وغنت كالبلبل الغريد
أنت تحين في فؤادي ما قد	مات من أمسى السعيد الفقيد
وتشيدين في خرائب روحى	ما تلاشى من عهدى المجدود

هذا البيت تكرار للذى قبله.

من طمـوح الى الجمال الى الفـ	من إلى ذلك الفضاء البعيد
وتبين رقة الشوق والأحـ	لام والشدو والهوى في نشيدى
بعدمـا عانقت كآبة أيـا	مى فؤادى وأجمت تغريدي

معانقة الكآبة للفؤاد وإجماعها للتغريد فصاحة مسجدية الأصول (من أبى تمام مثلا)
عصرية الفروع. ثم تحيىء التأعصرات بالمعانى المسيحية والأساطير الرومية:

أنت أنشودة الأناشيد غنا لك إله الغناء رب القصيد
فبك شب الشباب وشحه السحر ر وشدو الهوى وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصا قدسيا على أغاني الوجود
وتهادت في أفق روحك أوزا ن الأغاني ورقة التغريد
فتمايلن في الوجود كلحن عبقرى الخيال حلو النشيد
خطوات أسكرنه بالأناشيد د وصوت كرجع ناي بعيد

هذا من مفضلية الحارثي : «نشيد الرعاء المعزبين المتاليا» فهذا رجع ناي بعيد كما ترى

وقوام يكاد ينطق بالألـ حان في كل وقفة وقعود
كل شيء مـوقع فيك حتى لفتة الجيد واهتزاز النهود
تفاصيل المنظر الجنسي المتمثل في مشية هذه الفتاة الافرنجية، الرومية، قولا
واحدا، وهي كما هي جنس هي أيضا كسر أو رمز لكسر قيود المسجد وحجاب البنات
وقساوة قلوب غيرة المحافظة العربية المسلمة المتمسكة خلافا لإسلامها ببعض روح
الوَاد الجاهلي المستول عنه يوم القيامة - هذه التفاصيل هي التي تملي على الشابي الدفعة
بعد الدفعة من التعبير القوي ثم يترنم بعده بالنشيد واللحن والتحب إلى ألفاظ
الأساليب العصرية بملكة مستفادة من خطابة أئمة الدين وبلغاء " الفقراء " ومحفوظ
قديما الأساليب ذوات البيان . " وشحه السحر " مع وشاح ثريا امرئ القيس وغيره
من الشعراء الأوائل . " سكرى من العطر " . . . عطر الند والعود وبخور حلقات
الصوفية مع فواح عطر فرنسة المنبعث من " البرومناد " وهو عطر الورود لأن الورود
ههنا هي الفتيات بلا ريب . ثم السكر بالخطوات نظر عارم . والأناشيد أناشيد
الكنيسة التي توهمها الشاعر . ثم جاء تداعي المعاني بقول عبد يغوث الحارثي :
أحقا عباد الله أن لست سامعا نشيد الرعاء المعزبين المتاليا

ولا شك كان رحمه الله يحفظه . " المعزبين المتاليا " أي الذاهبين بها بعيدا في
المرعى فالنابي البعيد، كما تقدمت الإشارة منا إلى ذلك من ههنا . ثم تعود الحان
الكنيسة المتوهمة وموسيقا أوروبا في نظرة عارمة مرة أخرى إلى القوام والجنس - القعود
كناية عن ثقل العجيزة واختلاج الوركين بالثياب . ثم أتم الصورة لفتة الجيد واهتزاز
النهود ، واحتفظ بتوقيع سحر الموسيقى : ناي عبد يغوث الذي في قلبه ؛ ترانيم ثالث

فالإله العظيم لا يرحم العبد إذا كان في جلال السجود
 هذا المعنى قرأني الأصل : وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون «[الأنفال] هذه
 الأبيات من "عذبة أنت" إلى «السجود» هي مختار القصيدة وسائرهما بعد إطناب
 وإسهاب، بعضه أفضى إليه اندفاع الشبهة وبعضه إرث الفقير المسجدي من المباهاة
 بطول النفس، وأكثره فرط إلحاح على قرع باب الانتفاء إلى دنيا التجديد وعالم رومنيستها
 المسحور: الطبيعة، الربيع، اللحون، الأحلام، تحطيم القيود، النور، تبديد الظلام، هذا
 الحشو الهوائي كأنه ضرورة للتعبير عن الضيعة التائهة والازدواجية المركبة، والجند
 الغريب الذي تغلغل في صميم دولة عرف الإسلام والعرب، والشاي به صيحة حيرة
 وطموح وإخفاق.

التجاني يوسف بشير رحمه الله (١٩١٢ - ١٩٣٦م) مما يقرن اسمه باسم الشاي
 ويقال إنها شاعران متشابهان^(١) - بينهما تشابه من حيث إنهما كليهما لم يتلقيا تعليمهما في
 مدارس العصر الافرنجية الرومية النظام، ولكن في "الخلوة" [أي كتاب القرآن] والجامع
 وعاصرا زمان دعوة التجديد ومجلة أبولو في مصر وحركة شعراء المهجر، وثقفا بأدب
 النهضة، وشهدا اوائل دعوة القومية والتحرر من ربة الاستعمار، وشاركا في ذلك بجهد
 ما استطاعا من انفعال القلب وبيان القلم.

ثم بينهما مع هذا التشابه اختلاف كبير. السودان بالنسبة إلى مصر وتونس والشام
 بادية وصحراء. "البقعة" (٢) التي كانت أكبر مدن السودان على زمان التجاني، ولا
 تزال، ما كانت حيثئذ إلا أحوية وجدرا من طين، لولا بقايا أنقاض من سور الخليفة

(١) للأستاذ أبي القاسم محمد بدرى كتاب عنهما بعنوان «الشاعران المتشابهان» طبعة دار

المعارف وللدكتور عبدالمجيد عابدين تأليف قريب من هذا المعنى.

(٢) "البقعة المباركة" هو الاسم الذي سمي به المهدي المكان الذي اختاره عاصمة للبلاد في سنة ١٨٨٥م. ثم لما غزا
 اللورد كتشتر الدولة المهدية باسم الخديوى فيها زعم وضرب الاستعمار بجران، غلب اسم أم درمان على اسم البقعة
 فصار لا يعرف لها اسم إلا أم درمان وكان اسم البقعة أشهر بين عامة الناس إلى سنوات الثلاثين، وكانوا أكثرهم
 أدنى إلى البداوة.

عبدالله وجانب من قبة المهدي المهذومة وبعض مباني الحكومة الرسمية من الأجر وطابق أرضي واحد . وشارع مرصوف واحد وسطها يسير عليه الترام وما بنيت قنطرة النيل الأبيض إلا وهو ابن خمس عشرة أو ست عشرة سنة .

في شعر التجاني رحمه الله تليين من حضارة ولكن أسر البداوة عليه أغلب . ثم حظه من التفصيل في الوصف والدقة في المعاني أوفر، مثلا وصفه الساقية وقواديسها [أى جزارها عندنا] : (١)

وهرب صوت النوايع	— وهو في الشجوة مر
إن الجرار وقد ضا	ق بالقلب الممر
تكسرت وهوى تهوى	فما تلاءم كسر
فتلك معصوبة الرأ	س كسم تنسي وتخمر
وتلك مرضى وهات	ك للخواطر قبر

ليت شعري هل كان يمكنه تجنب «النوايع» وهي كلمة مع وضوح دلالتها غير مستعملة في بلده وقد تعرف في بلاد أخرى؟ ألو تمسك بالسواقى وهو اسمها المعروف في بلده أما كان ذلك أقوى لأمره وإن اضطره إلى تشديد الياء مشعرا لها صنفا من نسبة . وكذلك الجرار فالجر - بفتح الجيم - في عامية قومه هو حب الماء الكبير [الزير] وجرة الساقية الصغيرة التى إنما هى دلو اسمها عندنا القادوس وقواديس الساقية جزارها كما مر بيان ذلك منذ حين قريب على أن استعمال الجرار هنا يشفع له أنها أوضح لقراء العربية . ثم قد آخى بين قاف " القلب " وقاف " ضاق " فاحتاجت راء " الممر " إلى ما يؤاخيها ولعل هذا ما جعله يؤثر " النوايع " على " السواقى " . وقد يرى القارئ بعد دقة الوصف وقوة ملكة اللغة - يعجبني قوله «فتلك معصوبة الرأس» وقوله «تنى وتخمر» إذ هكذا ترى كثيرا من قواديس الفخار والساقية بها تدور ولعل ما يخلص منها من مائها متشكلا سربا إلى قليبها بمقدار ما ينساب في الجدول أو أكثر وقوله " وتلك مرضى " أراد به عدة قواديس إذ " مرضى " جمع . ويجوز في قوله " فتلك

(١) سبقت الإشارة إلى مطلع هذه القصيدة:

يا درة حفها النيل واحتواها البر

بمعرض الحديث عن بحر المجنث في الجزء الأول من المرشد وكانت للمؤلف كلمة عنها في مؤتمر المجمع بالقاهرة سنة

١٩٨٤م

معصوبة الرأس " وقوله «وهاتيك إلخ» أن يكون اراد به الجمع أو المفرد وإرادة المفرد في المعصوبة أحب إلى وأقوى في التصوير.

ومن علامات الرومنسية والتأعصر قوله ، والأبيات من هذه القصيدة نفسها إذ يقول :

كـم ذـا تـمازج فـن
يخـور ثـور و تثغـو
والهـم تـرج والـزر
تجاوب الطحن واللحم

عـلـى يـديـك وسحـر
شـاة وتنهق حمـر
ع مـ ونق مخضـر
ن والثغـاء المسـر

وموضع الرومنسية مدح البداوة والتعلق بالطبيعة هاهنا. وجزيرة "توتى" الموصوفة في هذه القصيدة في وسط بحر النيل بين الخرطوم وأم درمان [البقعة] وكانت بادية محضة البداوة الى زمان قريب. وقوله رحمه الله «تجاوب الطحن والحن» أمر ينبغى أن يشرح وليس مشروحا في الديوان إذ كان - أيام طبعه - هذا المعنى معروفا، وذلك أن النساء كن يطحن الذرة على المراحيك، وطحن المرحاكة هو الموصوف في قول الحماسي:

تقول وصكت نحرها يمينها أبعلى هذا بالرحى المتقاعس

اذ الرحى التى تدور لا تقاعس معها ولكن الذى يبرك ليطنن بالمرحاكة يبرز صدره ويتقاعس.

وكانت البنات حين يطحن بالمراحيك (١) يتغنين بأراجيز هن وربما شكون فيهن
الأسى والعناء

ومن مواضع الرومنسية قوله الذي مر في جرار الساقية:

وتلك مرضى وهاتين ————— لك للخواطير قبر

(١) الذى فى القاموس رھك بالحاء (باب منع) - ولكن الحاء عما تصير حاء كما تصير الحاء هاء، من ذلك قولنا رھط بالحاء لإزار السيور الذى تلبسه البنت الصغيرة وفى المعجم بالحاء وفى العامية نقول رھك وهى ترھك للدلالة على كثرة الطحن وفى عاميتنا كثيراً ما تصير الضمة عينا كسعة، فى سأل وجعمر فى جأل.

ومـــــــــــــــــاج في الغيط نشء ملء النواظر خـزـر
الغيط كلمة مصرية لا تقال عندنا فأحسبه اضطر ليقم بها الوزن وهي بعد
عربية . وأما " خزر " فقد جلبتها القافية ، ولها بعد معنى صحيح في هذا الموضع لأنهم
يعملون مع آباتهم وينظرون من جانب ويتضيق للعين من الغبار ، وأراد أنهم حزاورة
لهم نشاط ، فهم ملء النواظر وهم بشيظتتهم خزر العيون

هناك فول وهذا ك في السنابل بـــــــــر

وله في صفة الغلام يسير الى " الخلوة " [كتاب القراءة] كارها :

هب من نومه يدغدغ عينهـــــــــــــــــ ه مشيحا بوجهه في الصباح

هنا مضغ للكلمات فيه حسن الترتم ، ولكن فيه لنا ، ذلك بأن قوله « هب من
نومه » كلام تام ، " يدغدغ عينيه " بعده نوع من استدراك ومضغ على ما فيه من زيادة
الوصف ، وكذلك قوله من بعده « مشيحا بوجهه » إذ من يدغدغ عينيه يشيح ضربة لازم

ساخطا يلعن السماء وما في الـــــــــــــــــ أرض من عالم ومن أشباح

هنا مبالغة أشبه بعقول سخط الكبار منها بعقول سخط الصغار . والأشباح ليلية لا
نهارية . وغير خاف أن الغلام هنا هو الشاعر ، يفكر أنا بالذكرى وأنا بالحال والحاضر
فيلعن السماء والأرض على لسان هذا الصغير الذي يتذكره . ولعنة السماء من لسان ابن
الجامع . أو قلمه . أبدة ، رومنسية ثالثة !

حنقت نفسه وضافت به الحيـــــــــــــــــ لة فاهتاجه بغيض الرواح

الرواح في اللغة الفصيحة يكون مساء وفي الدارجة مما يقع على الغدو والرواح جميعا .
ولكن في البيت طولا فيه تلمظ للكلمات ، هذا من التلين . وهذا البيت والذي قبله لو
جاء بهما أوجز لكان ذلك أفصح ، ولكن الإطناب أدخل في معنى التأمل الرومنسى .
والآيات التالية فيهن وصف متقن صادر من خيال خصب .

وأهابت به الظلال وقد نشـــــــــــــــــ رن في جلوة القرى والبطاح

كان في كلمة «البطاح» قلعا إذ البطاح لا تقابل القرى، إذ القرية قد تكون بالأبطح وغيره. وهل عنى بالقرى ما كان «بأم درمان» من حلل كالمفرقات، بينهن ضروب رواب وحفر وبطاح؟ أم ليت شعري هل رأي، هل اتفق له أن رأى ديار أصول أهله وعبر النيل من ناحية المحمية حيث المطمر والجبل والمباني على التل والظلال قد تنتشر من ثم الى الأبطح فعلمت هذه الصورة بذهنه؟ ويظهر من حديثنا مع من لقينا من أهله أنه لم يرم أم درمان.

ومشى بارما يدفع رجليه — — ويكسى بقلبه الملتاح

صورة الرجلين وقد يركل حجرا هنا وحجرا ثم، جيدة بالغة.

ضمخت ثوبه الدواة وروت رأسه من غيرها الفياح

كأنه كان يحمل الدواة على رأسه أو يمسح رأسه بالقلم. ومداد الدواة من السكن [بالتحريك] وهو في عاميتنا السواد الذي تتركه النار على الآنية مع الصمغ ولذلك فيح من تخمير الصمغ. ولعل الغلام كان يلبس خرقة واحدة فوق السراويل، وكانت تلك عادة قومنا حتى جاء تغيير هذا الزمان. روي عن الشيخ ود الشيخ الطاهر المجذوب رحمه الله أنه قدم «البقعة أى أم درمان» أول أيام الاستعمار بالثوب مخالفا بين طرفيه، كما جاء في السنة وكذلك كان لباس الناس عندنا عامة والفقراء [أعنى العلماء] خاصة. وإنما استقدم الشيخ رحمه الله تحت المراقبة لسابقة قتاله الكفرة مع عثمان دقته رحمه الله تعالى. وكان الشيخ البدوى، رحمه الله، شيخ الجامع وكبير العلماء آنئذ قد شفع فيه فلم يعدم، وأشار عليه بأن يتخذ زى العلماء وهو الجبة والقفطان والعممة ذات الطربوش الأحمر المغربي فأبى ذلك واحتج فيما ذكروا بأن الثوب الذي يلقي به ربه في الصلاة ليس أحد من البشر، حكام أو سواهم، بأكبر من أن يلقاه فيه، رحمه الله جميعا:

ورمى نظرة الى شيخه الجبى — — ار مستبطننا خفى المناحى

نظرة فست منسازع عيني — — ونمت عما به من جراح

الذي رمى نظرة غلام شيطان ناشئ وهذا الذي به جراح هو التجانى الشاب الذي يريد حطم القيد وقد ثقلت عليه قيود الحياة ويحس في أغوار صدره وجع المرض ثم

انظر أيها القارئ الكريم الى هذه الصورة من قراءة «حيران الخلوة» أي علمائها المفرد حوار بتشديد الواو وتخفيفها وضم الحاء المهملة

ونفوس سجا الكرى في حواشيه ————— ها ودب الفتور في الأرواح

هذه قد تكون نفوس ركب مسافرين . وهذا من التجانى فيه جمع بين إطناب بالكلمات كأنها هى المرادة لجرسها دون ما تدل عليه من صور، وبين محاولة التصوير فى نفس الوقت . هذا التلذذ والتصنيع هو من باب ما قدمناه أولاً من تلين فى صياغته هو بلا ريب جزء من نعومة «الرومنسية» الانتهاء الى رونق حضارة العصر وأناقته بتخير اللفظ الفصيح الحلو المتحضر ذى الظلال

فارجحنت مهمومات وما تبـ — روح مـركـوزة على الألواح

"ما تبرح إلخ" عربى فصيح . «فارجحت مهومات» الفاظ متخيرات لمن ظلال . ولو قد أراد التجانى أو سمحت نفسه لشدة الأسر لكان يؤثر الخلوص الى إنجاز الصورة واضحة على البدء بتزيينها قبل تمام الإنجاز، تأمل قوله :

كلما لفها النعاس وأضفى فوقها عالما ندى الجناح
قصف الرعد في المكان ودوى مرزما صاحبنا قوى الصياح

فهذا ما ترى من الاستعارة المرححة [لفها - أضفى] والتشبيه المشتمل على إشارة قرآنية (أضفى فوقها عالما ندى الجناح) من قوله تعالى «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» وفيه نظر الى قول ذي الرمة:

طراق الخوافي واقع فوق ربيعة ندى ليلة في ريشه يترقرق

وبعد قوله «قصف الرعد» إطناب ضخمة في قوله: دوى، مرزما، صاخبا قوى الصياح. ثم يقول من بعد:

فاستفاقت وهيئمت بعض أشياء...

وهذا نعت صلت مباشر وصورة حال الصغار إذ ينام منهم من ينام إعياء ويتناوم من يتناوم عفرتة، ثم يزجر الشيخ الجبار - كالحجاج بن يوسف - زجرته فيصحو النائم والمتناوم ويهينم الحوار إذ يكون قد نسي موضع ما يبدأ به. قوله «هينمت» على حسن

جرسه وجودة تصيد اختياره، هو اللفظ الدقيق المعبر حقاً في هذا الموضع ولكن تمام البيت «... وعادت وعاد قصف الرياح» جار على ما سبقه من أسلوب الاستعارة والروح الرومنسي التلمس للتعبير والتصوير، إذ ليس ههنا قصف ولا رياح، ولكن هذا تمثيل مثله الشاعر لزجر الشيخ وهوله واستعان عليه بطبيعيات الرومنسيين وزينه بها له من عناية ومعرفة بالألفاظ والتلذذ بنقائنها وحلاوتها.

هذه الزينة التي مردها إلى إشار الاستعارة والتشبيه والجرس اللذيذ هي عطاء «ومساهمة» متعمدة يجود بها التجاني من ثروته اللغوية البياينة ليزيد بها إنتاج التجديد العربى وفي طى ذلك تنبيه الى مكان نفسه ومكان الجامع من هذا العطاء

وهذه المساهمة تأمل قوله «دوى» بالتضعيف، قل من الرومنسيين من يحىء بهذا الفعل مضعفا وإنما يقال دوى (باب ضرب) بالتخفيف ولعل القياس يميزه ولكنه أى هذا الثلاثى المخفف ليس هو الفصيح الجيد على الأرجح إذ لم يرد في القاموس. وتأمل قوله «هينمت بعض أشياء» إيجازه وفصاحته. وتأمل جودة الاستعارة في «لفها النعاس» ومن شعر التجاني المشهور قوله في النيل:

أنت يا نيل يا سليل الفرادى	س نيل موفق فى مسابك
كم نيل بمجد ماضيك مفتو	ن وكم ساجد على أعتابك
وكان القلوب مما استمدت	منك سكرى مسحورة من شربك

قوله "كم نيل" هل عنى به "شوقى" وهل يعرض بأنه لم ير من جمال النيل إلا مجد الفراعنة؟ ويكون هو الرومنسي الساجد على الأعتاب، وقد صار النيل معبدا ذا أعتاب؟ قوله يا سليل الفراديس تعبير عصرى رقيق، أصله دينى إذ هو من حديث المعراج - أصله من الجامع وقد جعله التجاني بروح عصريته كأنه ليس أصله من الجامع. ومن الجامع، مع اعتداد بذلك خفى، أصله. هذا أمر آخر به التجاني يختلف عن الشابي: اعتزازه بالتحصيل الذى ناله من علوم العربية والدين. كأن التجاني بهذا الاعتزاز فيه أنفاس من الضرب الذى ذكرناه أولا من الرومنسية، ضرب الرافعى الذى أدخلناه فى الرومنسية لنخرجه منها، غير أن التجاني بها خالط نفسه من ثورة على المحافظة ورغبة شديدة فى التجديد وإيمان بضرورته مع الإحساس القوى بروح الحركة الوطنية ومناهضة الاستعمار، ثم يخالط ذلك كله نوع من فتنة بنعيم النصارى الذى تمثله الخرطوم وبيوت الحكام البريطانيين ذات البساتين، وصنوف الأجانب من تجار وحاشية أخلاط بينما «البقعة المباركة» - أى أم درمان، يسير السائر فى نصف

نهارها الأحمر الأغبر «وقد خبء آل الأمعر المتوقد» كما قال طرفه بن العبد في المعلقة .
قال التجاني رحمه الله يذكر "بروميناد" الخرطوم من ضروب نصاراها وأجانبها ونابتة
مظاهر نعمائها وسرائها [وقد مرت هذه الأبيات في معرض الحديث عن بحر المجتث في
الجزء الأول من المرشد ، وكان زميلنا الأستاذ حسن الطاهر زروق رحمه الله وجعل الجنة
مثواه يحسن الترنم بها بصوت عذب الشجي عميق] :-

أمنت بالحسن بردا وبالصبا بة نارا
وبالكنيسة عقدا منضدا من عذاري
وبالمسيح ومن طبا ف حوليه واستجارا
إيمان من يعبد الحسن من في عيون النصاري

وأبت هذه الأبيات إلا أن تعلن إسلاما - البرد والنار من سورة الأنبياء «قلنا يا نار كوني
بردا وسلاما على إبراهيم» ، والطواف بالبيت الحرام والجوار بالحرمين ، وركز الجامع
رايته وثبت ثباتا بالرغم من إيمان ابنه بعبادة الحسن في عيون بنات نصاري الخرطوم .
وللتجاني رحمه الله شعر ذكر فيه وحدة الوجود بشيء بين التأمل والتصوف :

الوجود الحق ما أو سع في النفس مــــــداه
والسكون المحض ما أو ثق بالروح عــــــراه
كل ما في الكون يمشى في حناياها الإله
هذه النملة في رقـــــها رجع صــــداه
هو يحيا في حواشيه ها وتحيا في ثــــراه
وهي إن أسلمت الـــــــرو ح تلقتهـــــــا يــــــداه

فهذه أفكار وحدة الوجود التي سهكتها كثرة الاستعمال . وللتجاني كما قدمنا حذق
وشغف باختيار اللفظ ورنين النغم ، فهذا مما تأعصر به ومما يباعده من نوع رومنسية
الدفاع عن القديم عن أخذه منها بنصيب . وطبع التجاني جيد . لعله لو كان مدله
في الأجل ، " لكل أجل كتاب " ، لكان أسمع به إسماحا .

أحسب أن مكان التجاني رحمه الله في مقدمة الإجادة الرومنسية ، غير أنه أجحف به
كونه من أم درمان ، بقعة المهدي المباركة ، القصية جدا عن مراكز التقدم والحضارة
العصرية العربية . صدق صاحب معجم البلدان يا قوت حيث زعم في حديثه عن
تلك البلاد أنها أشبه بلاد الله باليمن وأن في عيش أهلها شدة ، لعله منها ، أنه قلما
يفطن لى مكان المحسنين من أهلها مؤرخو الأدب وأصحاب التراجم . ولليمن ، وهي
أصل العرب ، وهي الغنية بذخائر الكتب وفطاحل العلماء وفحول الشعراء من الإهمال

قسط وافر. ولعل ذلك كله خير فليس كل الشهرة بسعادة.

هذا، ومن شعراء الرومنسية الذين ينبغي أن ننبه على مكانهم محمود حسن إسماعيل رحمه الله، لا من أجل مجرد أنه من أسماء الرومنسية من هذا الضرب الرابع على الأرجح ونماذجها، ولكن لأنه كأنما هو نموذج لضرب لو كان أصلاً قائماً بنفسه لجعلناه ضرباً خامساً. ذلك بأنه شاعر أخاذى تلفيقى.

أصل التلفيق فى الفلسفة ألا يلزم الفيلسوف مذهباً بعينه، ولكن يؤلف لنفسه مذهباً من مذاهب متعددة، ليس واحد منها له. يقال لذلك باللغة الإنجليزية Eclectic [إكلكتك] واشتقاقها من اليونانية التى من فلاسفتها أخذ هذا المعنى. ثم قيس على ذلك كل ما يذهب إليه من تلفيق المذاهب مفكر أو فنان على وجه الاستحسان فيجعله منهجاً أو كالمنهج لنفسه. انتبه محمود حسن إسماعيل رحمه الله الى صناعة من الشعر تنجح الى الضرب الرابع. وتستعين ما للرافعى رحمه الله من إغراب، وقد مرت منه أمثلة. وتأمل قوله فى "أوراق الورد" [ص ٤٤] «فالعاشق الرقيق على فرط رفته هو لفرط رفته وحش فى عالم الحب، ما منه فكر لو فتش إلا فتش عن معنى يفترس، إذ يشعر بالحياة فى نفسه لا غذاء لها إلا بمعانى حبيبته، فيأكلها حتى بالنظر، ويفترسها حتى بالخاطر»

ههنا عنصر ما يسميه "ماريو براز" ظلال "المركز دى صاد"، أى "السادية" التى تلتذ بنوع من افتراس المحبوب وإيجاعه. احترس الرافعى رحمه الله فجعل افتراسه بالنظر. وهو للمتأمل افتراس كما تفترس الضياغم. ومكان الإغراب اللغوى لا يخفى وهو المقصود الذى تعمد الرافعى، نضر الله ثراه، القصد إليه - "يأكل حتى بالنظر ويفترس حتى بالخاطر". وتأمل قوله أيضاً فى "أوراق الورد" يخاطب القمر [ص ١٧] «من شبك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم والدم فيها، فتكاد أشعتك تقطف منها القبله، ويكاد جوك يساقط من نواحيه تنهدات خافته، وتكاد تكون مثلها يا قمر، مخلوقاً من الزهر والندى وأنفاس الفجر» - ههنا إغراب ناعم كقول الرومنسيين الانجليز فى لغتهم honey-dew أى "ندى العسل".

كمثل عناء الرافعى، رحمه الله، وتصيده للمعانى وإغرابه تجده عند محمود حسن إسماعيل - مثلاً:

عابد النور جاء للنور يشكو	ظماً فى الحشا لسحر ضيائه
وعلى الجفن ضجة مات فيها	ألق النور والتماع سنائه
وخبت بهجة الحياة وأضفى	بؤسها لوعة على لألائه

حنت الأعين الظماء الى الحســــــــــــــــــــة ————— من وحتت دموعها لبهائه
وقشى الهوى بأهدابها السو د فكدات تضىء من كهربائه
" كادت تضىء من كهربائه " كأنها جىء بها اختلاسا من الرافعى - مصطفى صادق
الرافعى رحمه الله — من طريقة نثره التى قدمنا . ومن معانها ضجة الجفن وموت ألق
النور فيه وإضفاء اللوعة على اللائلاء .

على أن الرفاعي عناؤه الأكبر وتصيده للمعاني والصور في النثر، وطبعه أسمح بالشعر، وكان الإغراب في نثره حين يرومه شعرا يفلت من بين يديه ويرجع به الى مذاهب العذريين أو أصحاب البديع أو ما هو من مألوف طرائق النظم مثلا:

يَا أَفْقُ هَلْ خَفْتُ مِنْ شَرَارَةِ
تَحْتَ الضُّلُوعِ اسْمُهَا الْفَوَادُ

هذا لو وقع في نثر فيه صناعة المزوجة وتقعدها لكان إغرابا . وما جاء في الكلمة التي منها هذا البيت والضمير في قال يعود على الأفق :

فقال وجهه نرى خياله في قلبك الحامـل للضرر
ارجع فلو أن ذى الغزالة تغازل النجم لا نفجر
ومن معانى الغزالة الشمس أيضا. وقوله «لا نفجر» ذو روح عصرى علمي أو علماني
ولو كان قال "لأنكدر" لكان ذلك قرآنيًا أشبه به، وأحسبه لم يرد إلا المعنى العصرى
والله تعالى أعلم. قال البهاء زهير (ت ٦٥٦هـ):

ففضح الغزالة والغزال فتلك في وسط الساء وذاك في وسط الفئلا
عجبا لقلب ما خلا من لوعة
ورسوم جسم كاد يحرقه الجوى
أحسب أنه لو عاش البهاء زهر في بعض هذا العصر لعد من الرومنسيين بنحو قوله:

لى إلف أى إلف هـ و روحى هـ و حفى
غاب عن طرفى وقد كنـ ت أراه مثل طـ رفـ
قبل يـ ربح عنى راحتـ هـ ألف ألف

وما أَلَحَّ محمود حسن إسماعيل على الاستعانة به شعر أبى تمام . وأمثلة أخذه منه كثيرة . ليس ههنا موضع إكثار منها ونكتفى أن نشير مثلاً الى قوله :-

وتمشى الهوى بأهدابها السو
هجرت كوخى وهوى سحره

د فكات تضىء من كهريائه
وعشبه الزاهى ونواره

وجئت للقصر أنادى به معبودة غابت بأستاره
فأطرق القصر كجفن حزين وماتت الأصداء في وحشته
وضجت العذراء في ضمنه ضجتها الكبرى على غفلته
قوله «فأطرق القصر» من قول حبيب :

لقد أطرق الربع المحيل لفقدهم وبينهم إطراق ثكلان فاقد
وأبقوا لضيء الحزن مني بعدهم قرى من جوى سار وطيف مباعد
سفته ذعافا عادة الدهر فيهم وسم الليالي فوق سم الأساود

موضع الشاهد إطراق الربع الذي تحول إطراق قصر ماتت فيه الأصداء ، وهذا متفرع من «سفته ذعافا عادة الدهر» . وعذراء محمود حسن إسماعيل ذات الضجة من بكر أبي تمام التي ما «افتترعتها كف حادثة» ، بدليل قوله «الضجة الكبرى» مكان «الراحة الكبرى» في بيت حبيب :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
ثم مع هذا إشارات إلى أخبار قديمة . «وجئت للقصر» فيه ذرة من خبر المرقش وفاطمة بنت المنذر وابنة عجلان . ولا ريب قرأ محمود حسن إسماعيل مفضليات شاعر وعبد السلام هارون . وغفلة القصر أو الولي إن شئت وضجة العذراء ، في ذلك معنى من خبر همام بن مرة وبناته اللاتي احتججن على غفلته عن حاجة من يكن مثلهن إلى الزواج : «أهمام بن مرة إن هي» ، الأبيات وانظر القاموس مادة (قناب كغراب ، وكتاب) .

وقال في أول كلمة عنوانها «وقفه حيال القصر» في ديوانه أغاني الكوخ :

يا صرخة الأعصاب لا تهدني في مهجة المحروم عن مواده
فالنار ما زالت على مضجعي تذكى بخور القلب في معبده
ثم قال من بعد :

ظمان يا بؤسي ويا شقوتي والمنبع الصافي لثغري قريب
تروح روحي حول سلساله فيختفي عنها كأي غريب

فهنا إلهام أخذ من أبي تمام . الشاعر الروماني واقف عند القصر نحوا من وقفه أبي تمام في «أطرق الربع الخ» وجزع كجزع أبي تمام حيث قال :
ها إن هذا موقف الجانح أقوى وسور الزمن الفاجع
وبخور القلب من قبلة استعارات أبي تمام ، أي القلب الذي صار بخورا في

المعبد الذي هو الحبيب أو ما يمت إليه بسبب، والثغر والسلسال من :
عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب
وقوله «تروح روحي إلخ» و «تذكي بخور القلب» كلتا هاتين العبارتين ملفقة من
قول حبيب :-

أنبتت من قلبي لـوأيك مشرعا ظلت تحوم عليه طير رجائي
القلب هنا مشرع، مورد، ماء، وعند محمود حسن إسماعيل بخور، وعند الرافعي
شرارة، وتحوم وتروح وتذكي بمعناه المقلوب، كل ذلك قريب من قريب .
هذا والحسنة بلا رحمة وفارسها الكتيب

يأبها الفارس في الدرع ما تألم فلذا في شحوب تسير
من بعد ما جف نبات الغدير
وازن بين هذا من معنى أبيات «الحسنة بلا رحمة لكيتس» وبين قول محمود حسن
إسماعيل :

هجرت كوخى وهوى سحره وعشبه الزاهى ونـواره
وجئت للقصر أنادي به معبودة غابت بأستاره
يا قصر قد طال وقوفي ألا يشرق منك الحسن للهـاتف
أجب تكلم إن سحر الهوى طار برشد المدنف الواقف

هنا اتحاد بين فارس كيتس الكتيب ووقفه جازع أبي تمام عند الربع الذي هو
«سور الزمن الفاجع»

ولمحمود حسن إسماعيل كلمة عنوانها «أحزان الغروب» هل هذه ترجمة من شعر
بودلير المنشور L'ecre, puscul du soir «شفق الغروب» أو من أزهار
الشر Les Fleurs du Mal - انسجام موسيقى الغروب Harmonie du Soir

Le ciel est triste et beau comme un grand reposoir

السماء حزينة وجميلة مثل صلوات موكب كنسى كبير وأول كلمة محمود حسن
إسماعيل :

مات النهار وهذي الشمس جازعة عليه تخطـر في دامي الجلايب
كأنها نعيش خوفاً مال متكتها على سرير بذوب النور مخضوب
صار الموكب الكنسي فرعونياً كما ترى، والنظر إلى شوقي لا يخفى . ولا تستبعدن
الأخذ من بودلير Baudelaire ورجال رومانية فرنسية فكل ذلك قد ترجم منه كثير

والعارفون به المتحدثون عنه في مجالسهم كثيرون . وما فيه ظلال فارس حسناء كيتس
التي بلا رحمة "La Belle Dame Sans Merci" :-

وأي ما أي وما أمرها والقصر في إغفاءة الذاهل
والهـاتف المحروم لما يزل يشكو الهوى في ذلة السائل
وسؤال «أي» صدى من دروس النحو:

أي كما وأعربت ما لم تـضـف وصدر وصلها ضمير انحذف
وعارض في موصوليتها أبوالعباس أحمد بن يحيى ثعلب فيما نقلوا .
وفي «كنز الذهب الأبيض ، زهرة القطن» (ص ٢٢ من أغاني الكوخ الطبعة
الثانية ١٩٦٧) :

وبدت صفراء تحكى غادة ذبلت نضرتها يوم الوداع
هذا التشبيه غير جيد لأن نواراة القطن «فاقع» لونها تسر الناظرين» وقد رجع هو
نفسه من بعد إلى هذا المعنى :

تخفق النسمة في أهدابها خفقة العاشق في ليل الزماع
فسره بالسفر ، أحسبه ينظر إلى كلمة ابن زريق «إذا الزماع أراه في الرحيل غنى»
والزماع بفتح الزاي وكسرهما هو العزم فظن أنه السفر وما ظنه يحتمل أي العزم على
السفر :

فتراما في السرى راقصة زانها الضوء بزهو والتماع
فهذا رجوعه إلى «فاقع لونها» لا ذابلة نضرتها . ونريد أن نشير بعد إلى خفقة
النسمة ، فهل أخذها من إبراهيم ناجي «خفقة المصباح إذ يتضرب زيت» وهي مما عسى
أن يحسب من حسان كلماته ومرت في باب الرمل في جزئنا الأول .

ولحمود حسن إسماعيل مثل التجاني يوسف بشير ولع بصفة الريف والجرار
والسواقي . وعندني أنه ، حاكي التجاني ، إذ التجاني نشر عددا من قصائده في مجلة
الفجر وكانت غير مجهولة المكان بمصر . وقد دار نقاش لم يخل من حدة بين رئيس
تحرير الفجر عرفات محمد عبدالله والأمير عمر طوسون رحمهما الله ، كان من أسبابه أن
الأمير لم يرض بعض ما جاء في الفجر من الحديث عن تقرير المصير وما يشعر بروح
الانفصال عن مصر وإنما نشر ديوان محمود حسن إسماعيل عام ١٩٣٥ قريبا من زمان
انتهاء الفجر وموت عرفات محمد عبدالله وفجره التي ماتت بعيد موته .

وبلغني ولا أشك في صحته لتواتره أن التجاني رحمه الله كان قد بعث بنسخة من
ديوانه خطية إلى أحد الأدباء الشعراء بمصر ليتولى نشره والإشراف على ذلك من أمره ،
فيذكر أن الديوان كان يقرأ ولا يجد سييلا إلى نشره حتى استردت نسخته بعد عناء

الأنواء هنا كنجلة تمص من زهر أفواف ، وكقوله

أو تكن وردا فيـهـا هـفـة نفسـي لعبـيرك

جعل نفسه كنجلة وفي البيت قبله كفراشة وهو قوله :

إن تكن نارا فما أشـهـى خلودي في سعيرك
وقوله :

طوافه بالزهر تنشق عطره وتحيله في الطرس همس ذباب

لا يعنى به ذباب البيوت ولكن ذباب عنتره المترنم ، والطواف بالزهر عمل النحلة . . .
كأنه يرمز بالنحل لنفسه ، وهذا البيت الذي مر «طوافه بالزهر إلخ» مما يشهد بذلك .
أما قولنا إنه لم يشارك هذا الرمز الذي رمز به لنفسه إلا في العناء ، فذلك أنه قل شيء
ذكره التجاني إلا أفعمه هو تفصيلا . وقد أفرد قصائد لزهرة القطن ، كنز الذهب
الأبيض [ص ٢١ من أغاني الكوخ طبعة ١٩٣٥] .

حين ذاب الطل في كاساتها لؤلؤا يجري على كف الشعاع
لثمت خد الضحى وابتمت كابتنام الطفل في عهد الرضاع
وللساقية (ص ٧٥) وسماها القيثارة الحزينة

ناحت فلا الزهر على عوده ألقى عقود الظل في جيده
ولا مغنى الطير في وكـوره رق لها وازور عن عـوده
وللسنبلة (٨٩ سنبلة تغني) :

من لـه في الأرض ملك مثل ملكي في الكثيب
مـوردي النيل وزادي من ثرى النيل الخصب
وهل عنى «بالكثيب» ساكنيه من الناس ، إذ السنبلة تصلحه الأرض الخصبة والكثيب
رملي :

كلل الفجر جيبني بالندى الغض الرطيب
والأصيل البر ألقى تبره بين جيـوي

فسر البر بإلقاء التبر ، وإلا كان وصف الأصيل بالبر شيئا فيه غموض :

وشعاع الشمس حيا في شروق أو غروب
لو رأى الرهبان طهري وصلا في المغيب
هجروا الدير وخروا سجدا فوق كثيبي

وإذن فالكثيب للسنبلة، فينبغي أن تكون سنبلة دخن لا قمح ولا ذرة. ولماذا خص
الرهبان بالدير؟ أمن أجل تشبيه السنبلة بفتاة — كفتاة النابغة الواقف أصيلا عند ربع
مية والقائل:

ولو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الإله ضرورة متعبدا
فهذا داخل في الاكلكتية. ؟ أترأه أوقعه في هذا الإقحام ذكر التجاني له مع الغيط
والسنابل والفول والطحن في رائيته حيث قال:

وطاف حولك ركب من الكراكي غر
وراح ينفض عيني من بني الأيك حر
فماج بالأيك عش وقام في العش دير

وإنما جاء التجاني بالدير لأنه ذكر النواير. عدل إليها عن السواقي من أجل جرس
الراء كما قدمنا، وأيضا لأن ابن المعتز جعل رهبان دير «المطيرة ذات الظل والشجر»
«نعارين بالسحر» والسواقي نعارات بالسحر، ينهض إليها الزراع قبل آذان الفجر:
وللراعي (ص ١٤٠):

شجنتني رنة العصفو ر في فجر الربى الساجي
وهي ربي التجاني:

يادرة حفها النيب ل واحتواها البر
صحبا الدجى وتغشا ك في الأسرة فجبر
وصاح بين الربى الغر ر عبقري أغر

ثم يقول محمود حسن إسماعيل:

وعذب اللحن من شاد رخيم الصوت صداح
فرنمت مع المزمعا ر أغنيات أفراحي
نشيد الحقل والشاة ولحن الروح والراح

ولا أرى للراح حسن موضع هنا.

وللضفادع (ص ١٨٨):

هاجها في الليل صمت غمرت كل نفس فيه آلام الشجون
وضفاف غارقات في الكرى حالمات بأسى الريف الحزين
فغدت تصرخ في جوف الدجى صرخات هتكت ستر السكون

الغدو لا يكون مع الدجى ، ولكنه أراد معنى الصيرورة

ينا ابنة الطين لقد مل الدجى لغطا من فيك مجهول الرنين

ابنة الطين مأخوذة من «ابنة النور» التي للشابي على الأرجح

ونقيقا أزعجت ضوضاؤه أذن الكون وسمع النائمين
جاوبته في الدجى صافرة من بنات البوم صاحت في الوكون
وللبوم قصيدة [ص ١٨٤] :

وشيخة عابسة في الضحى غرباء تحكي سحنة الملحد
النور ضحاك على وجهها ضاف بوهد الأرض والأنجد
لكنها عمياء في حالك من غيها ممتقع أربد
وللفراشة وسماها راهبة الضحى (ص ٢١٢)

وراهبة في الضحى أوقدت من الزهر مجمرة ذاكية
إذا فاح منها العبير الندى وطوف في الأيكة الضاحية
وقد ذكر في قصيدة الضفادع العشب والقثاء والبطيخ وعباد الشمس وذكر الناعورة
وثورها وسوط سائقه في " فم الريح " :

وكم ناعورة ناحت على مستعبد فيها
أسير السوط كم ضجت له يوما أغانيها
وثغاء الشاة تهليل وتسييح (ص ١٤٣) . وقد بعثر النور وذوبه مرارا ولم ينس من النيل
دومه وسدره وزوارقه ونخيله ، ولم ينس من الرومنسية زورقها وملاحها - يقول في خصلة
شعر حسناء (١٤٧ / ١٤٨) - :

يا غديرا ذهيبا رق عن نفح الأصائل
صفرت سلساله للصد ب غيداء الانامل
قد تهادى فيك مني زورق الروح الحزينة
وبكى الملاح شجوا هل سمعت أنينه
غنوتي الحيرى لكم طا رت هياما فوق موجك

ضلت الخلد فجاءت ترنجيه بين لحك
كلما يمت شططا منك لماح السمات
غامت الأجواء في عي نني وضاعت أمنيائي

ولعله أن يقال إن تذويب النور وسكبه وهددهته وذكر الطير والاماني والتغني بالطبيعة جملة وتفصيلا كل ذلك مادة مشاعة للشعراء رومنيين وغير رومنيين ، وليس بعض الرومنيين ، إن خصصنا الرومنسية بهذه المعاني بأولى أن تنسب إليهم دون بعض محمود حسن اسماعيل إذن يغرف من بحر الرومنسية العربية الجديدة الواسع ، ويقطف إن يك كنجلة من زهرها الكثير اليانع ، وما شابه فيه التجاني يوسف بشير - على تقدير سبق التجاني له كما يزعم من يزعم ذلك مثلما نزعمه - فهو من توارد الخواطر على المعاني المشتركة المشاعة .

ليس غريبا أن يتفق لهذين الشاعرين المتعاصرين توارد الخواطر في نظمهما على ذكر سنبل النيل وفوله وسدره وسواقيه . هذه حجة بينة قاطعة .

ولكن ما رأي القارئ الكريم أصلحنا الله جل جلاله وإياه في قول محمود حسن إسماعيل في قصيدة القرية الهاجعة في ظل القمر (ص ٦٠)

لفها الليل فاستراحت من الأي من على حضنه الرقيق الهني
وسدتها الأضواء من لمحها الضا في وساد الطبيعة العبقري
كان ينبغي هنا نصب العبقري لأنها نعت (وساد) وهذه منصوبة ولا تصلح نعتا للطبيعة لأنها مؤنثة - وهل نجعل هذا من باب الاتباع ؟ اللحن عند أظهر

وحبتها المهاد موجه نور
لمعات من جنة القمر الزا
غرقت في جلاله الروح سكري
تنهل الحلم من رؤى تتجلى
رائعات الأطياف لماحة الوم
نسجته يد الشقاء من العد
بائس شفه القنوع فأغفى
صدف الحظ عن حظائره السو
حضنته على الضنى قرية نا
لاح فيه نخيلها خافض الرأ
وصغى السدر للسكون كرهبا

أشرقت في ترابها القرمزي
هي وفيض من ثغره العسجدي
من طلا جامه الوضيء السني
هامسات بكل معنى خفي
ض تهادي على مهاد رضي
ش فراشا لمستضام شقي
في حمى كوخه القنوع الأبي
دالى ساحة الركاب الغني
مت على شط جدول ريفي
س كطيف في خاطر الصوفي
ن أصاخوا في معبد قدسي^(١).

(١) صَغَا كَسَمَا وَسَعَى صَغَوَا أَي مَال

لفعته الأنوار من بردها السا
ورنا الدوم للشعاع كملهو
فاستطالت سيقانه تطلب النجـ
كعداري سبحن في لجة النو
وحسبنا هذا القدر من القصيدة ولا يخفى أن هذا البيت من قول شوقي :

كعداري أخفين في الماء بضاً سابحات به وأبدن بضاً

ومحمود حسن اسماعيل كثير الأخذ من شوقي ، وقد كان شوقي رحمه الله كثير الأخذ كثير التوليد ، وكم غيره منه كثير الأخذ والسرقة قليل التوليد .
ومما يستطرد إليه في هذا الباب أن له قصيدة اسمها «العدراء الشهيدة» [ص ١٨٠] في غريقة مغلوله الساعدين سابحة بفتنتها المقتولة على أكفان الموج صاغها على وزن "هـ لا هـ لا هـ" [مجنون ليلي لأحمد شوقي الفصل الثاني ، أنشودة الحادي] :-

كأنها موجة في صمتها تخفق لحنا بلا ناي
أنشودة اللجة تقول يا جاني
هزأت بالموت وأنت لا تدري فصغست الحاني

[وهلم جرا]

وقد افتن في القوافي بأكثر مما افتن شوقي ولكنه لم يبلغ حلاوة نغم شوقي هذا وإليك هذه الكلمة من نفس البحر والروي من شعر التجاني :

املاً الروح من سنا قدسي مبهم كالرؤى وديع رضى
قمري كأنها سكب البـد ر عليه من فيضه القمري
واغمر القلب في مفاض من الفجـ ر وضيء جم الندى عبقرى
يثب الحلم حول مشرعه السا جي ويجري مع الضحى في أتى
كم تطل الرؤى به شارعـات في ينابيع من جلال ندى
يتلففن في جوانح بيضـا ء ويسبحن من رداء وضي
ويحومن سومـا باسـات يتخففن من هموم العشى
«هموم العشى» هنا ليست صدى من Le Crépuscule du Soir ولكن تشير الى قول النابغة «وصدر أراح الليل عازب هم» الأبيات المشهورة وذكر الكنهزور في البيت التالي وفيه مذهب من الإشارة يشهد لصحة ما نذهب إليه هنا .

(٢) هكذا في الديوان ويستقيم الوزن إن قلت «صبا نحو نهره» ولعله كذلك في أصله والله أعلم

ساحبات على الكنهور أصبا
 ناسجات شفاف الأفق الزا
 ذاب في الأفق رافقا فوق هام الـ
 يغسل النوم من مضاجع رعا
 عجب للجلال والحسن ماجا
 ينسجان الهوى من الفجر بردا
 صاح من روحه وكبر في أعـ
 أفهذا الجمال يا رب هذا السـ
 هنا ذروة من ذرا التأمل الفكري - لله در المعري إذ يقول

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

قصيدة التجاني أصفى دياجة من قصيدة محمود حسن إسماعيل وأجود تشبيها
 واستعارة وأكثر معاني . والقصيدتان من نفس البحر والروى ، قصيدة محمود إسماعيل
 في الليل المقمر على القرية وقصيدة التجاني يوسف بشير في قرية تستيقظ من قرى النيل
 الضاربة حولها الصحراء بجران - هل رأى جبيل أم على وسقادي؟ - لا بل هذه البقعة
 المباركة نفسها - أم درمان ، يدلك على ذلك قوله « رعيان الصحاري ومضرب القروي »
 وكذلك كانت أم درمان ولا يزال كذلك قدر منها كبير . وذكره المؤذن حيث جعل
 الحسن والجلال يتحدان في لحن شاعر علوي (أو علوي) هو المؤذن « صاح من روحه
 وكبر إلخ » ومن عجب أن لمحمود حسن إسماعيل قصيدة في أغاني الكوخ اسمها شاعر
 الفجر المؤذن وقدم لها بقوله (ص ١٦٦) : « في ذلك الصوت العميق الذي يهتف في
 صمت السحر من القباب والمآذن تتدفق روحية الشرق ، ويهتز الجو بأشباح وطيوف
 شعرية هفافة » - لا يعجبني قوله « روحية الشرق » في معراض الحديث عن الأذان ، ولو
 قال « روحية الإسلام أو الدين الحنيف » لكان أجود وذكر الشرق كأنه ينظر الى الأمر من
 عين صليبية مستشرقة تضع الإسلام والبوذية والهندكية معا في رفرف اسمه الشرق وعند
 الإسلام أن هؤلاء مع أهل الصليبية كلهن شرك - ثم يقول محمود حسن إسماعيل :

وشاعر في الفجر يسبى النهى بسـورة جلّت عن المأثم
 خياله من سدة المنتهى ولحنه من وتر الأنجم

فهذا كأنه ترجمة وشرح لقول التجاني « علويا لشاعر علوي » ومع هذا فالتجاني أتم
 استيعابا لوصف الأذان : (ماجا في إطارين فاتر وقوي) - أي نحو صياح المؤذن حي

على الصلاة في المرة الأولى بنغم واحد وفي المرة الثانية بنغم مختلف بعضهم يطيله ويموجه وبعضهم يقصره ويبتره - حي على الصلاة . . . - كما يعلم القارئ أصلحه الله من أداء المؤذن على ترنيمتين أيا وجه من وجوه أداء الأذان اتخذ، أمبالغا في تحكيك التزم وترجيعة أم غير محكك في ذلك ولا مبالغ. قول. التجاني «ساحبات على الكنهور» أي على السحاب الذي في الأفق وهي في رائيه أبي الطيب (باد هواك صبرت أم لم تصبرا) حيث قال:

الشمس تشرق والسحاب كنهورا

وقد سبق منا التنبيه على جرى التجاني في هذا على مذهب له في الإشارة، مع أن كلمة التجاني الياثية هذه في الفجر تراه قد استهلها بفيض ضوء القمر، وهذا المعنى واللفظ أيضا كلاهما في قول محمود حسن إسماعيل:

لمعات من وجنة القمر الزا هي ومن فيض ثغره العسجدي

وكلمة فيض ههنا نامة. ومكان «واغمر القلب» عنده - أي محمود حسن إسماعيل «غرقت في جلاله الروح». وكأن قول التجاني «جم الندى» نتجت منه «من طلا جامه» و «الوضيء السني» كأنهما ترجمة وتفسير ومحاكاة «لجم الندى عبقرى» وقول التجاني «يثب الحلم» يقابله عند محمود حسن إسماعيل «تنهل الحلم إلخ» وجاءت كلمة «الرؤى» في هذا البيت وهي في بيت التجاني الذي يلي «كم تظل الرؤى به شارات إلخ» «ولفها الليل» التي في أول كلام محمود حسن إسماعيل هي في قول التجاني «يتلفن في جوانح بيضاء» وللقارئ بعد هذا أن يتتبع الأبيات ويوازن بين ألفاظها ومعانيها فإنه واجد من شدة التشابه عجبا. فلا بد من القول بأن أحد الشاعرين أغار على الآخر. ولقد مات التجاني وهو ابن خمس وعشرين وديوانه الذي خطه بيده يقرأ عند من أودع عنده في مدينة القاهرة وبعض شعر التجاني قد كان صدر في الفجر شيء

منه قبل صدور الطبعة الأولى من أغاني الكوخ، فالأمر يحتاج الى تدبر ونظر - والله تعالى أعلم. لا يخفى أن كلام التجاني أصيل من عند نفسه ليس بتلفيقى. ومع ما يظهر من زيادة محمود حسن إسماعيل على التجاني في التفاصيل نزع أن المتأمل ربما وجد أن التجاني أكثر استيعابا لمناظر القرية. الصبي - تلميذ الخلوة ودواته وأثوابه - غسل النوم ودغدغة العينين أول الاستيقاظ عند الصباح. ثم أخذ الصور البيانية من حياة القرية المسلمة - الدير مأخوذ من كلام ابن المعتز.

إنما وقفنا هذه الوقفة عندما نرى ترجيحه من تلفيقية محمود حسن إسماعيل وتعمده معاني التجاني وتفصيله لها لأن محمود حسن إسماعيل قد أوشك أن يكون مكانه في

الشعر المعاصر مغموراً مجهولاً بين الكثرة الكاثرة من الأسماء هذا مع أنه رحمه الله من عصر غير بعيد من زمان أبولو، ومن أدباء مصر وشعرائها ومصر بلا ريب هي مركز العربية، علومها وآدابها من شعر ونثر. ولعل من أسباب هذا الذي ضرب على اسمه من الحمل أنه قد أغير على شعره إغارة أكبر وأشد مما أغاره هو - إن كان حقاً قد أغاره - على شعر التجاني. وإذن فعلى النقد أن يتتبع بالدرس معاني هذا الشاعر الكادح وألفاظه المثقلة بالاستعارات والأخيلة البعيدة المتصيد والتفاصيل الدقيقة في نعت الريف وغيره من أحوال الحياة في بيئته الحقيقية والمتوهمة وما أشك أنه رحمه الله لو كان أنصع ديباجة وأقل عناء عمل لكان يجد من الاهتمام به قريباً مما وجد غيره كعلی محمود طه وأبى شادى مثلاً. أتى محمود حسن إسماعيل رحمه الله، فيما أحسب، من جهة شعوره بمكان «الفقير الضائع» الذي بين جنبي نفسه ذات الشعر والحظ من العربية، فضمن ذلك من ضروب التلفيق مازاد فقيره الضائع ضيعه. وهذا بعد لا ينقص من أهميته في باب الدرس الذي نحن بصدد، وقد سبقت الإشارة إلى رأى الجاحظ أن السرقة للشعراء ديدن. وزعم الأصمعي أن تسعة أعشار الفرزدق سرقة، وقال المرزبانى إن هذا تحامل منه شديد، فنعوذ بالله من خطئ القول ومن فرط زلات القلم.

ومما يحسن التنبيه عليه في نطاق ما كنا فيه من الحديث عن التجاني أنه واضح صدق الانفعال وحرارة الوجدان إذا وصف الريف والقرية، فإذا أخذ في وصف الخرطوم نفسها على ما كان يفتنه من بهرج فيها خالط حرارته فتور، بالرغم من تحيره للفظ الحلو وتجويده للنغم:

مدينة كالزهرة المونقة	تنفح بالطيب على قطرها
ضفافها السحرية المورقة	يخفق قلب النيل في صدرها
تحسبها أغنية مطرقة	نغمها الحسن على نهرها
مبهمة ألحانها مطلقـة	رجعها الصيدح من طيرها
وشمسها الخمرية المشرقة	تفرغ كأس الضوء من بدرها

البيت الثاني وحده هو الذي فيه نبأ من روح، وذلك لأنه جرد النيل وضفتيه من المدينة الأجنبية التي دونها. النيل وخضرتة ذلك من صميم طبيعة الريف الذي نشأ فيه وملاً جمال فجرها قلبه

فهو دفق من عالم كله قلـ	ب خفوق ولوعة خفاقة
ظل يهفو إلى السماء ويشكو	لوعة الروح ههنا واحتراقه

كلمة محمود حسن إسماعيل التي ذكرنا أن لها لونا بودليريا (نسبة الى الشاعر الفرنسي الغامض بودلير ١٨٢١ - ١٨٦٧ م Baudelaire) في عنوانها وهي أحزان الغروب (ص ١٥٢) ما كاد يترك فيها من الريف شيئا ، الثور والساقية والنيل

تحكي سفائه في الليل سائرة عرائس الحلم في مهد الرعايب

القافية قلقة وأحسب أن بعض سبب ذلك كونها صفة لم تعتمد على موصوف قبلها .
والشفق الباكي ودخان الكوخ وكدح الفلاح .

طعامه لقمة عفراء يابسة والماء من أكدر في النزر مربوب
ومهمده لا تسل إن لفه وسن عش الهوام ومهد للعنايب

ثم ضجة الضفدع وإنشاد الرعاة والحذاء ، والبومة في وحشة الليل والجندب الذي يصير في النخاريب (أي شقوق البيوت كما فسرهما ولذلك وجه وأصل معنى النخاريب فتحات شمع الشهدة وفي القاموس النخروب بوزن فعلول بضم أوله الشق في الحجر فشه الشاعر شقوق الجدار بذلك) -

ثم النوم ذو الاحلام - الصحو الى الشقاء - صوت الساقية :

يانغمة في المساطارت مولهة
كأنها خفقت من قلب محتضر
ماذا شجاك فرتلت الأسى نغما
النور حين ذوى في الحقل ناضره
ونام في حضن زنجي قد اتشحت
محمود حسن إسماعيل مجتهد معتمل . ولكنه قلما يتنبه للملاءمة التشبيه حقا لموضوع الوصف أو المعنى الموصوف ، كجعله صفرة نوار القطن ذبولا ، وكوضفه جنازة البنت الطافية بالفتنة وجنائز الغرق يضرب بها المثل في سحابة المنظر ، وكتشبيه صوت الساقية بغرغرة المحتضر وسياقه ولو قد لزم التشبيه بالناي لكان ذلك أصوب وأدق من القيشارة ، وتهدج صوت الساقية وتهزمه أشبه بالناي في الشجو وجمال الإيقاع منه بالسياق والغرغرة وما فيه من قوة الحيوية يصل الى أعماق القلوب . وكجعله الليل - الذي هو في البديع زنجي أو زنجية - ضجيجا للنور مثل زنجي الف ليلة وليلة الضخم المشافر ومعشوقته البيضاء التي خانت أميرها وحولت نصفه الأسفل حجرا بسحرها - أم كل هذا نفس بودليري كتشبيه تساقط أوراق الخريف بإعداد ألواح صندوق جنازة

الإعدام؟ هذه الكلمة البائسة المجارية في الوزن والقافية «من الجاذر في زي الأعراب»
على تعسف أسلوبها مادة لكثير مما نقرأ اليوم من إنتاج الشعراء — من أجل ذلك ما لزم
التنبه على مكان هذا الشاعر الروماني التلفيقي الكدود المفقود .

كثير من الشعراء الذين أخذوا من بعد هذه الأضراب التي ذكرنا بسبيل مزيد من
التجديد إن هم في الحقيقة إلا فرع منها . مثلاً البياتي إن هو في كثير من الأخيصة والبيان
إلا امتداد للرومسية الثالثة داخله أخذ من الرومسية الثانية المسيحية مثلاً :

الصحف الصفراء

توزع الألقاب

تلثم أيدي القاتلين

تمسح الأعتاب

تمنح أشباه الرجال العور والأذنان

صكوك غفران بلا حساب . . . إلخ

وما لنا نحن المسلمين ولصكوك غفران بلا حساب

ومثلاً :

الشمس والفارس فوق المدخنة

ينازل اللصوص والمشوهين

بالحروف المزمنة

يذرع صيف الأزمنة

يثأر للحقيقة الممتحنة

يحمل في ضلوعه صليبه ووطنه .

وما صلة الحروف المؤمنة والوطن المسلم بحمل الصليب؟

وأى شيء تكون دلالة «يحمل صليبه» عند قارئ مسلم لم ينتصر فكره بعد؟

وهل وصل التعبير المجازي عند أهل ملته أن يحمل الصليب على الضلوع أو على الظهر

والكتف؟

مثلاً قصيدة انتظار من الأباريق المهشمة .

صلى لأجلى -

هذه عبارة مترجمة من Pray for me وهي انجليزية والعربية تقول ادع لي وصل على ، إلا
أنك لو قلت «صل على» جعلت نفسك جنازة تنتظر التكبيرات الأربع ، لعل هذا هو

الذي جعل الشاعر يفر الى Pray for me

«صلى لأجلي»

عبر أسوار

وطني الحزين الجائع العاري»

ولك أن تكتب هذا البيت كما ينبغي أن يكتب ، هكذا :

وطني الحزين الجائع العاري	صلى لأجلي عبر أسوار
يا كوكبي وحديث سمائي	وعلى رصيف المرفأ انتظري
تفاحة حمرا كتذكاري	قلبي مياه البحر تحمله
ورفأق أسفاري	وعبر آذار
ورسائي وأبي وأزهاري	يتلمسون طريق عودتهم
.....	وكلبنا الضماري
مصلوبتان على لظى النار	يعوى وعينا شيخ حارتنا
مهما تعالت صيحة الجار	وشجرة الليمون يسرقها
.....	وكقبرات الصبح هائمة
ستطل أفكاري	والموت والثمار
وتعلو عبر أسوار	
.....	وطني الحزين الجائع العاري
في غربة الدار	وأنا وأطاري
	وحدي بلا حب وتذكاري

وزن هذه الرائية من الكامل الأحذ المضممر وجزء منه إنما جيء به بنوع من دعوى «التنويح التجديدي» . تلفيق كأنه ملائم لتلفيق ما بين النصرانية والأوربية والإسلام في «مصلوبتان على لظى النار» ومن قبل ما مرت بنا «صلى لأجلي» وقوله «وصكوك غفران بلا حساب» - «بلا حساب» فيها نفس إسلامي .

ونهج هذه الرائية رومني محض ينظر الى مذهب محمود حسن إسماعيل إن لا إليه مباشرة ، نظرا شديدا .

يدر شاكر السياب رومني تشهد لرومنسيته أنشودة المطر :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أوشرفتان راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالآقمار في نهر
يرجه المجذاف وهنا ساعة السحر
كأنما تنبض في غورها النجوم
يوشك الشاعر أن يكون قد أخلى من عند قوله «يرجه المجذاف»، وفي الكلمة طول
والأصل رومني والافتتان في الوزن فرع من التوشيدات التي دعت إليها أبولو.
ومحمد مفتاح الفيتوري شاعر رومني عربي، أقرب إلى الضرب الرابع وداخله ما داخل
أصناف التجديد المعاصر من الروح المسيحي أحيانا. وقد أشرب شعره قضية اضطهاد
الزنج الذي في أمريكا وجنوب إفريقيا وغيرها وهذا من صميم روح الرومنسية:
كإفريقيا في ظلام العصور
عجوز ملفعة بالبخور
وحفرة نار عظيمة
لعل الفيتوري أخذ هذا من صفة الدخان التي مر وصفها في شعر محمد المهدي مجذوب
وجاء بعده بما يشعر بأن هذا ليس مراده - ولكن السحر:
ومنقار بومة
وقرن بهيمة
وتعويذة من صلاة قديمة
وليل كثير المرايا
ورقصة سود عرايا
يغنون في فرح أسود
وغيبوبة من خطايا
الفيتوري ممتلك لناصية النغم جيد عبارات البيان سليم متن اللغة، ولكن أكثر هذا
من تجربة الأفلام
وسفن معبأة بالجوارى
وبالمسك والعاج والزعفران
هدايا بلا مهرجان
المسك هنا مسك التمساح لا الذي هو «بعض دم الغزال» بدليل ذكر
العاج، و"الزعفران" مع حسن انسيابها مع ما تقدم قافية جلية لأن تجار الرقيق الذين
كانوا بنيل القرن الماضي كانوا إنما يجلبون المسك والعاج وقرن الخرتيت مع الرقيق.
كبدر شاكر السياب والبياتي وآخرين ركب الفيتوري في مركبة تجديد التفعيلة وخلط

رومنسيته بألوان من أقوال الواقعية وغضب اليسار السياسي . وللفيتوري إيقاع مطبوع
وحذق في تنويع التفعيلات ولكن عمود الوزن المعروف المألوف مركز له يفرع عنه ويدور
حوله وربما لزمه وأظهر توزيعاً للبيت على أسطار على نحو نجد مثله عند البياتي وعند
نزار قباني - مثلاً

كان ليل وكان صبح
وكانت قصة آدمية محتومة
قصة تعرفينها . . .

فلقد مثلت أدوارها معي يا أثيمة
ومضينا أنا وأنت

فقد تمت فصول الرواية المرسومة إلخ

فهذا بحر الخفيف ، وزع الشاعر بيته على مواقف اختارها جعل لكل موقف منها
سطراً ، وينبغي أن يلتزم في كتابة الشعر ما يعين على بيان إيقاعه ، على النحو المألوف :

كان ليل وكان صبح وكانت قصة آدمية محتومة
قصة تعرفينها فلقد مثلت أدوارها معي يا أثيمة
ومضينا أنا وأنت فقد تمت فصول الرواية المرسومة
ومضينا كل إلى حيث يبنى من جديد أيامه المهدومة
واقراً الأفعى (ديوانه ، المجلد الأول ٩٥) فهي من بحر المجتث والشك (١٠١) فهي من
السريع ولقاء (٩٨) فهي من المتقارب والضعف (١٢٧) من الرجز القصير وبعض
هؤلاء وزعت أبياته على أنصاف كل منهن في سطر وما بذلك كبير بأس .

ورومنسية " نازك الملائكة " من ضرب الرومنسية الثالثة ، وقد يذكر أنها سابقة إلى
تحرير الوزن من قيود أعاريض الخليل وقوافيه ، وأوائل هذا النوع من التجديد في عصرنا
هذا يجب أن ترد إلى مسرحيات شوقي وقد مرت الإشارة إلى أصحاب الديوان وإلى محمد
فريد أبي حديد رحمه الله وكانت لديابجته مسحة رونق وفي كتاب الباقلاني ما يدل على
أن ترك القافية والافتتان في مخالفة مألوف الأوزان أمر قديم ، وشيء من هذا المعنى في
" الصاهل والشاحج " للمعري وأعداد أوزان الموشحات لا تكاد تحصى .

وفي نفس شعر نازك الملائكة تلفيق من الأشياء المخيفة وأوصاف الطبيعة - شيء
من " كولردج " وشيء من " وردزورث " وإضافات أخريات - من حسناء كيتس ومن
إدغار آلان بو وهلم جرا :
« وعدوي المخيف

مقلته تخرج الخريف
فوق روح تريد الربيع
خريف العراق قد وصفه أبو عبادة حيث قال :
لاحت تباشير الخريف وأعرضت قطع الغمام وشارفت أن تهطلا
فترو من شعبــــــــــــــــان إن وراءه شهرا يمانعنا الرحيق السلسلا
خريف نازك أوربي لاصلة له بخريف العراق . خريف من قراءة الرومنسيين :
« وراء الضباب الشفيق »
ذلك الأفعوان الفطيع
ذلك الغول أي انعتاق
من ظلل يديه على جبهتي الباردة
أين أنجو وأهدابه الحاقدة
في طريقي تصب غدا ميتا لا يطاق
أين أمشي
ومن قبل هذا :-
« وعدوي الخفي العنيد
صامد كجبال الجليد
في الشمال البعيد
صامد كصمود النجوم »
ويجيء من بعد :
« أسمع الصوت
سيرى فهذا طريق عميق
يتخطى حدود المكان
لن تعي فيه صوتا لغممة الأفعوان
إنه لا برنث سحيق »
هذا من أساطير يونان من طريق الأدب الإنجليزي أو غيره ومن بعد :-
« إنه جاء يا لضياح رجاء المسير
في دجى اللابرنث الضرير
وأحس اليد الماردة
تضغط البرد والرعب فوق هدوئي الغرير
بأصابعها الجامدة

إنه جاء فيم المسير
ساودع حلمي القصير
وأعود بعجته الباردة

القطعة طويلة بعنوان " الأفعوان " وهو كالرمز^(١):

"أين أمشي مللت الدروب
وسئمت المروج"

الدروب واقع والمروج خيال رومسي وفي القطعة تلفيق للأخيلة والصور. وهذا البرد والضباب، كل ذلك أوربي السنخ. فيه بدليزية: اقرأ مثلاً^(٢)

CHANT D'Automne

Bientot nous plongerons dans les froides tenebres,
Adieu, vive clarte de nos etes drop courts!
J'entends deja tomber avec des chocs funebres
Le bois rentissant sur le pave des cours.

Tout l'hiver va rentrer dans mon etre: colere,
Haine, frissons, horreur, labeur dur et force,
Et comme le soleil dans son enfer polaire,
Mon coeur me sera plus qu'un bloc rouge at glace.

J'ecoute en fremissant chaque buche qui tombe;
Le'echafaud quon batit na pas d'echo plus sourd.
Mon esprit est pareil a la tour qui succombe
Sous les coups du belier infatigable et lourd.
Il me semble, berce par ce choc monotone,
Qu'on cloue en grande hate un cercueil quelque part.
Pour qui?- C'etait hier l'ete voici l'automne!
Ce bruit mysterieux sonne comme un depart.

هذا الجزء الأول من "نشيد الخريف" ترجمته لو كان الشعر يترجم وإنما يقرب حين نرومه أن يعرب:

عما قليل سنلقى بأنفسنا في الظلمات الباردة

(١) انظر نصيدة Le Serpent Qui Danse في أزهار الشر فهنا عنها تلفيق

(٢) أزهار الشر Les Fleurs du Mal لبودلير طبعة ١٩٧٢ ص ١٩٣

وداعا أيها الإشراق الحى من صيفنا الشديد القصر
هأنذا أسمع السقوط ذا الصوت الجنائزي
من ألواح الخشب المرتجة على بلاط الحوش

الشتاء كل الشتاء سيدخل في كينونتى ؛ المرارة
البغضاء ، الرجفة ، الرعب ، المشقة والإكراه
ومثل الشمس في جحيمها القطبى
سيكون قلبي ما هو إلا كتلة حمراء من جليد

أسمع كل خشبة إذ تسقط بارتعاد
الأعواد التي تنصب للإعدام ليس صداها بأصم من ذلك
روحى مثل صومعة تنهار
تحت دقات دكاكة ثقيلة دائبة بلا لغوب

كأنما أنا على مهد يهددنى هذا الدوى الرتيب
ومسمار يدق على عجل في صندوق جنازة بمكان ما
من أجل من ؟ الصيف كان أمس - جاء الشتاء .

هذا الدوى الغامض مؤذن بفراق .

هذا الجزء الأول من قصيدة غرامية الموضوع بدليزية السهاجة - رحم الله أبا تمام حيث
قال :

سهاجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا أو منظر عجب

كأنما قد نظر بعين الكشف والغيب وضرب من أجزاء النبوة الحدسية الى هذا الإغراب
ثم يقول بودلير في الجزء الثانى من القصيدة

J'aime de vos longs yeux le lumiere verdatre
Douce beaute, mais tout aujourd'hui m'est amer,
Et rien ni votre amour, ni le boudoir, ni l'atre,
Ne me vaut le soleil rayonnant sur la mer.
Et pourtant aimez,- moi, tendre coeur! soyez mere,
Meme pour un ingrat, meme pour un mechant;

Amante ou soeur, soyez la douceur ephemere
D'un glorieux automne ou d'un soleil couchant

Courte tache! La tombe attend; elle est avide!
Ah! laissez-moi, mon front pose sur vos genoux,
Gouter, en regrettant l'ete blanc et torride,
De l'arriere-saison le rayon jaune et doux!

أحب من عينيك الطويلتى الأهداب ضوءهما المخضر
أيها الجمال الحلو الذى صار اليوم قد أمر
لا حبك ولا الفراش ولا الصلاء ، لا شئ من هؤلاء
يعادل تلك الشمس منك المشعة على الدأماء

على أية حال كونى بقلبك الرقيق كأم حنون
على هذا الولد العاق على هذا الخبيث الملعون

كونى لى خلية أو أختا مثل بقية الخلاوة الزائلة عما قليل
من فصل الخريف الجيد أو شمس الأصيل

ايها المسعى القصير الأمد القبر وهو نهم ينتظرك منذ حين
أوه ، دعيني أضع على ركبتيك هذا الجبين
ذوقى بعد الأسف على فوت الصيف ذى النضوع والحر
من الفصل الأخير شعاعه الحلو الأصفر
ما قدمه بودلير من معان قائمة فى الجزء الأول لم يعد فيها بساطة قول من شبه الفراق
بالموت - قال أبو الطيب

بقائى شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر زمو لا الجمالا
وما أسرف فيه من ذكر صندوق الجنائز والمسامير وسقوط ألواح الخشب وأعواد
منصة الإعدام كل ذلك ظلام مشنوم وكدح لاغب .
ويشفع له بعد هذا الجزء الثانى على بعد التصيد فى طريقة الربط .
وأحسب أن نزار قبائى فى قوله :

لا تسألينى هل أحبها عيناك إنسى منهما لهما
وجميع أخبرارى مصورة يومافىوما فى اخضرارهما

وستارتان إذا تحركتا أبصرت وجه الله خلفهما
كوخان عند البحر هل سنة إلا قضيت الصيف عندهما
الشمس منذ رحلت مظأة والأرض غير الأرض بعدهما

نظر نظرا شديدا بل أخذ وسرق من هذا الجزء الثاني من نشيد خريف بودلير
قلنا في أخريات الجزء الثالث من المرشد بمعرض الحديث عن هذه الأبيات إن
فيها أصلا جاهليا يمكن رد بعضه الى متجردة زياد- ثم أضفنا: [ص ١٢٧٥ طبعة
١٩٧٠م]:

"ثم إن صورة العينين واضحة حية والإيحاء المنبعث منهما قوى - قوى في هذه
الخطرة الشاملة ذات العمق التي كالبحر، وفي هذا الإشراق البهج الدافئ، كالمأوى
عند البحر حين تهب الرياح، أو كالرمل عند البحر، أو كالبحر نفسه حين يفيض
ضوء الشمس، وفي هذا السجو سجو الأهداب، وأحسب أن هذا الوضوح مع ما
حوله وما ينبعث منه من إيحاء، مزيج من الاشتواء واللوعة، يغفر لهذه الأبيات بعض
ركاكها وأوزارها. ولا ريب أن هذا الوضوح فيه رجعة الى المذهب الجاهلي كما ترى.
وعسى هذا ونحوه من نزار وغيره من المعاصرين، أن يكون بادرة نهضة، كما كان العثور
بالصبايا الثلاث والحذو عليهن بادرة النهضة في الفن الأوربي والله تعالى أعلم وبه
التوفيق. ١. هـ."

فيضاف الى هذا أن معنى فتنة العينين وسحرهما قديم، قال غيلان

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وتسمية العين عينا فيه معنى الماء والعمق. وقالوا في تفسير: «قل رأيتم إن أصبح
ماؤكم غورا فمن يأتيكم بهاء معين» أن أحد الزنادقة قال تأتينا به المعاول والفتوس
فأصبح لزندقته أعمى قد ذهب ماء عينيه.

مع هذا قلما نجد شعراء العرب القدماء يشبهون العين بالبحر أو يذكرون عمقا في
ذلك أو سباحة، كأن قد اكتفوا بأن ذلك مضمن في قولهم عين ومحاجر العين كما
يقولون عين الماء وحجرة البحر فنزار قباني، في الرجعة الجاهلية التي رجع به إليها، إنما
أصاب ذلك من طريق محاكاة لبودلير. قوله "عينك إنى منها لها" تعبير صحفي لا
طائل وراءه وهو ما أشرنا إليه من قبل من معنى الركاكة. وقوله "يوما فيوما في
اخضرارهما" فهذا قول بودلير: "أحب من عينيك الطويلتين نورهما المخضر" عنى
بالطويلتين طول أهدابها ولو قلنا من "عينيك السلهبتين" كان أجود في الترجمة ولكن

هذا غريب والترجمة نشر وابن الأثير أجاز الغريب في الشعر لا النشر. وقوله «وجميع أخباري مصورة» يؤكد ما زعمناه من صحفية التعبير إذ الصحف صناعتها نقل الأخبار. وقوله : «وستارتان إذا تحركتا» مأخوذ من طول العينين أى طول أهدابها الذي ذكره بودلير وإنما هي أمثال هذه العبارات التي تبين لنا الأخذ ومواقفه. و «تحركتا» ترشيح لقوله «وستارتان» ولكنه غير مناسب لصفة العينين والهدب المغدف - ذكرنا المغدف هنا نشر به إلى قول عنتره :

إن تغدق دوني القنّاع فإنني طب بأخذ الفارس المستلم

وما ذكر عنزة إغداق القناع إلا وهو مشربه ظلالة من إغداق العينين أهداهاها. وقال امرؤ القيس:

.....كمراة الصنّاع تديرها لمحجرها من النصف المتقب

في قوله «تحركتا» ثقل وأنفاس صحفية. وقوله «أبصرت وجهه الله» فيه نظر — عبارة البخاري حين يرتاب، وقوله: «خلفهما» آية فان وجه الله سبحانه وتعالى، على معنى سلفى أو شعري أو صوفى أو حتى على مذهب من وحدة الوجود، أو على محض التوسع في التعبير والمجاز، لا يمكن أن يوصف «بخلف كذا أو كذا» وإن يكن ذلك عيني فينوس نفسها التى زعم لها كفارهم أنها ربة. لو قال فيهما لشعر على ما فى ذلك من نظر، ولكن القافية لم توات. وقوله:

كوخان عند البحر هل سنة إلا قضيت الصيف عندهما

فهذا بودليري من بودلير مأخوذ أخذاً، بحره وصيفه وقضاء الصيف عنده ألا يقول بودلير ما عسى معناه: «بعد الأسف على فوت الصيف ذى الدفء والنصوع؟» وقوله "كوخان" ليس بمليح. وهل ألمعت به "كورت تاش" "Courte tache" برنة نطقها المقاربة لـ "كوخ" ثم معناها ليس عن معنى الكوخ ببعيد اذ الكوخ واجب قصير، كدح قصير، فسر المعجم "تاش" بأنها العمل المعين الذى يلزم أدائه، وما أراد بودلير إلا أن هذه الحياة واجب قصير وفى هذا التعبير غرابة وبراعة إذ الواجب يراد قصره والحياة يراد طولها ولكن المعرى يقول:

تعب هذه الحياة فما أعـ _____ جب إلا من راغب في ازدياد

ويقول أبو الطيب

وإذا الشيخ قـال أف فما مل حـياة وإنما الضعف مـلا

وقد أخذنا على الشاعر من قبل جعله العينين كوخين وأراد كما لا يخفى معنى الخصوصية ولكنها خصوصية من نوع سياحي قصير الأمد، عينا الجميلة ولو لمحة أبد طويل ولله در كيتس إذ يقول

A thing of beauty is a joy for ever

" الشيء الجميل سرور خالد أبدا " - هذا تقريب وتعريب لمعنى ما قاله

ولكن شدة تقصى نزار لاتباع معانى بودلير ألجأه الى جعل عيني جميلته شيئا صحفيا خبريا عابريا يكون مع عطلة الصيف كبعض هذه الأكواخ التى تستأجر لتكون سترة رحلة متعة محدودة الأمد. وقوله: " الشمس منذ رحلت مطفاة " مأخوذ من موضعين من كلمة بودلير - من موضع ذكر الوداع فى الجزء الأول فى آخره ومن موضع ذكر الشمس الآفلة فى الأربعة الثانية من الجزء الثانى فى آخرها - «والأرض غير الأرض» من سورة إبراهيم، من آخرها.

أزال نزار العبوس اللاغب البودليرى وبدله صحافة تتجمل بالمبالغة «إنى منهما لهما» وروم الاقتباس «والأرض غير الأرض» - وانطفاء الشمس وتبديل الأرض غير الأرض، ذلك قيام الساعة والفرع الأكبر ولا يناسب موضوع الفراق أو الوداع الذى للغرام - فرط المبالغة فى هذا الباب ليس بمليح، وإنما تكون معه الرقة هى المعنى المليح، قال البحتري رحمه الله :

دنت عند الوداع لوشك بين	دنو الشمس تجنح للأصيل
وصدت لا الوصال لما يقصد	ولا الإصعاف منها بالمخيل
وذكرنيك والذكرى عناء	مشابه فيك بينة الشكول
نسيم الـروض فى ريسح شمال	وصوب المزن فى راح شمـول

أين هذا الضرب من الذكرى من ذلك الذى يقرن شاعره تساقط أوراق خريفه
بخشبات تساقط ليسمرها نجار صناديق جنائز الإعدام

عذيرى من عذول فيك يلحى على ألا عذير من عذول

ثم ماذا؟ كما كان يقول الدكتور زكى مبارك رحمه الله الرحمة الواسعة .

ثم بعد هذا الجند الغريب اجتاحت القصيدة العربية غارة كغارة هولاكو وكما دخل التار. ليس لنا ولا لغيرنا أن ينكر التجديد فإنه من سنن التطور والرغبة في التغيير من ظواهر الحياة وبواطنها ومكملاتها وشواهد كينونتها ووجودها. ومن التجديد صادق ومنه إفك وافتراء. والافك والافتراء زبد يذهب جفاء. والصدق وكل ما هو صادق يبقى ويتنفع به قال تعالى: «وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» [سورة الرعد]. وما يختبر به الافتراء أن المجيء بأمثاله سهل، وما ليس بافتراء تعسر محاكاته بما يكون مثله.

ضروب التجديد التي نراها الآن أكثرها غثاء وزبد جفاء. مما يدل على أنها افتراء كثرة امتلاء الطروس والصحف السيارة بأمثالها، ثم خروجها كل الخروج عن عرف اللغة الفصيحة وهي لغة ميراث لا يجوز التلاعب به ولا التفريط فيه إذ ذلك يفسد الطريق إلى معرفة أسرار وفهمه — هي لغة القرآن، وعن عرف اللغة الدارجة، وهذا دليل فساد حجة من يدعى أن هذه الضروب التجديدية تطور وانعكاس لحال البيئة وبيان عنها. ذلك بأن طبقات الناس في المدن والبوادي في جميع أقطار العربية تتغنى في أعراسها وأفراحها ومناحاتها ومواكبها بين الفلاحين والجنود والعمال والطلبة، وفي احتفالات سمرها وابتهاجها ذوات الصبغة الخاصة أو العامة، في جميع ذلك تتغنى بالكلام الموزون المقفى بحسب ما عليه طريقة الوزن والتقفية في الكلام الدارج، فلماذا إذن هذا التعدي على اللسان الفصيح؟ لم يكن حافظ وشوقي وجيلهما جيل تقليديين، كان جيل التقليديين جيل من نظموا في ضروب أصناف الشعر نظم علماء من غير انفعال ولا تجويد إيقاع. وكان بعض مرد ذلك إلى ضعف التحصيل وانشغال أكثر أهل العلم بمتون الفقه، حتى إن المعلقات السبع والعشر نفسها كانت تقرأ وتنسخ على أنها متون، لا على أنها من الشعر عيون.

وقد اقتدى عصر كامل بجيل شوقي وحافظ وكان كل أولئك أهل تجديد، إلا أنه كان يخالطه عنصر الإعذار والاعتذار إلى الغرب، المنبعثين عن إقرار بتفوق حضارته، فكان التجديد مع صدوره عن رغبة صادقة وعن حسن نية أخذًا بسبيل أدت آخر الأمر إلى تيهاء وخراب وضياع.

كانت حركة الديوان وأكثر الحركة الرومنطيقية أو الرومنسية محاولة زيادة في التجديد مشتملة على اتهام لجيل شوقي بالتقليد — ولم يكن الحسد الخفى لشوقي عن ذلك بالأمر البعيد — والله تعالى أعلم؛ .

تداخلت عناصر التجديد والثورة والصراع المذهبي "الايدولوجي" ، بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥ م) وبعد سنوات الخمسين من هذا القرن الميلادي العشرين .

ظل البارودي رحمه الله هو فارس القصيدة العربية الأصيلة حقاً ، مشرفاً بأصالتها وجزالتها وقوة أسرها وصفاء دياباجتها على جميع ضروب التجديد وجنده الدخيل .

ولكن بلاد العربية لم تخل في الجزيرة العربية ولا في العراق ولا الشام ولا مصر ولا المغرب كله إلى بلاد شنقيط ولا في بلاد سنار والسودان العربية كلا ولا في سائر بلاد الإسلام من أنفاس فحوللة ومحافظة على الجزالة وإتقان . إليك مثلاً شعر الشاعر النجدي محمد بن عثيمين رحمه الله (١٢٧٠ - ١٣٦٣ هـ) وفيه من الجزالة وجودة الديباجة ورين القصيدة القديمة أنفاس جيدات . قال رحمه الله :

نعم هذه أطلال سلمى فسلم وأرخ بها سيل الشئون وأسجم
أقول لصحبي والمراسيل ترمي بنا سهما ترمى الفياقي بسهم

كان هذا قبل السيارات والطائرات ، على أن هذه ربما وجدت هي أيضاً سهما ترمى الفياقي بسهم - وطريقة تجهيزات أبي تمام كما ترى أيها القارئ الكريم :
ألا عوجة منكم على الربع ربما شفيت الذي بي أو قضيت تلومي
فهذا نحو من قول غيلان : " خليلي عوجاً من صدور الرواحل "

فعاوجوا فغطت ناظر العين عبرة فلم أتين شاخصاً من مهدم
أجدكما أن لا أمر بمنزل لمية إلا أمزج الدمع بالدم
ولا أستين البرق يفرى وميضه جلايب مسدول من الجنح مظلم

و "جلايب" هاهنا من قول حبيب :

حتى كأن جلايب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
وقوله «إلا أمزج بالدمع» من مبالغات الشعر المعروفة المألوفة ولم يخل من أخذ الرنة واللفظ من البوصيري رحمه الله :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
واسم مية فيه ظلال غيلان بلا ريب . . . وقوله " فلم أتين شاخصاً من مهدم "

حذاء على نهج أبي الطيب :

وأجياذ غزلان كجيدك زرنني فلم أتبن عاطلا من مطوق
يجوز أن يكون أراد معنى العفة وغيض البصر ويجوز أن يكون أراد أنه بهر الجمال
حتى حار فلم يتبين عاطلا من مطوق . وأحسب أن ابن عثيمين لو قال : " لم أتبن
قائما من مهدم " كان أجود - « جدارا يريد أن ينقض فأقامه الآية » - ولا بأس بما قال
وكقوله رحمه الله في قصيدة قافية تقترى بحر غيلان ورويه في كلمته : " أداراً
بحزوى إلخ " :-

أرقت لبرق ناصب يتألق إذا ماهفا ظليت بالدمع أشرق
ظليت أي ظلمت وهي عربية فصيحة ويقال ظلت وظلت بكسر الظاء وبفتحتها
أيضا وأحسب أن الشاعر فر إلى الباء ليتجنب زحاف القبض في ثاني أجزاء العجز ولو
أقدم عليه ما ضره

إذا فاض لم أملك سوابق عبدة تحم لها الأحشاء والقلب يخفق
أمد له طرفي ومن دون ومضه خبوت وأحقاف ويبداء سملق
ومجهلة للجن في عرصاتها عزيف يراع الذئب منه ويفرق

هاهنا روح من غيلان وهو القائل « للجن بالليل في حافاتها زجل البيت » ،
وكقوله :

تسمع في تيهاته الأفلال فنين من لهاله الأغوال
ولا عجب أن يتبع عثيمين رحمه الله نهج غيلان رحمه الله ففي ترجمته التي في
صدر ديوانه أنه ولد بالخرج وفي الخرج قول غيلان يصف مية في بعض ما وصفها به في
بعض تشبيهاته :-

مهطولة من خزامي الخرج هيجها من صوب غادية لوثاء تهميم (١)
وقد مرت الأبيات . وقال ابن عثيمين رحمه الله من كلمة أخرى :

خليلي مرا بي على الدار وأربعا لنشعب قلبا بالفراق تصدعا
وإن أنتما لم تسعداني على الأسى فلا تعدماني وقفة وتوجعا
بمستوحش من شبه آرام عينه تناوح فيه الهوج بدءا ورجعا
أي تتناوح فيه الرياح الهوج

(١) أو خرقاء ويقال إن خرقاء هي مية والله تعالى أعلم .

أما إنه لو يوم جرعاء مالك غداة التقينا ظاعنا ومشيعا
تبيتنا عينا تجود بهائها ومحجوبة تومي بطرف وإصبعها
أي تبيتنا عينا ومحجوبة وإصبعها يشار به .

أكثر شعر ابن عثيمين في مدح رجال من رؤساء العرب على زمانه وراثتهم . فمما
سلك فيه من ذلك نمطا حبيبا البائية التي في أول ديوانه :

العز والمجد في الهندية القضب لا في الرسائل والتنميق والخطب
تقضي المواضي فيمضي حكمها أما إن خالج الشك رأي الحاذق الأرب

وفيهما بعد من روح النظر إلى أبي الطيب كقوله :
لكن شمس ملوك الأرض قاطبة عبدالعزيز بلا مين ولا كذب
يعني الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود مؤسس المملكة السعودية رحمه
الله ولا تخفى الإشارة النابغة " بأنك شمس والملوك كواكب البيت " ، ثم يقول

قاد المقانب يكسو الجو عثيها سماء مـرتكم في نقع مـرتكب
حتى إذا وردت ماء الصراة وقد صارت لـواحق أقراب من السغب

أي حتى ضمرت فلحقت أقرابها " جمع قرب " أي جنوب خواصرها بظهورها

قال النزال لنا في الحرب شنشنة نمشي إليها ولو جثيا على الركب
فسار من نفسه في جحفل حرد وسار من جيشه في عسكر لجب
فقوله " قاد المقانب " كقول أبي الطيب من حيث الخذو والإيقاع :

قاد المقانب أقصى شربها نهل على الشكيم وأدنى سيرها سرع
هذا في الصدر وإيقاع عجز البيت من أبي تمام مثلاً قوله :
هيهات زعرت الأرض الوقور به من غزو محتسب لا غزو مكتسب
وصدر البيت التالي محذو على أبي الطيب :

حتى وردن بسمنين بحيرتها

تنش بالماء في أشداقها اللجم

والعجز يذكر بغيلان وبقافية رؤية :

لواحق الأقرباب فيها كالمفق

أي كالطول . والبيت الثالث أوله من الأعشى وعجزه من أبي تمام والبيت الرابع
مخدو على قوله :

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب
نحو هذا الخدو لما فيه من قصد الإشارة إلى أقوال من سبقوه (تأمل قوله " ولو
جثيا على الركب " ألا يذكر بقول حبيب : " تجثو الكفاة به صغرا على الركب " ؟) نحو
هذا الخدو منبئ . بتلذذ الشاعر بجيد أقوال هؤلاء الفحول يومئذ إليهم أو يشير ، لا
مجرد السرق .

وأثر قصيدة المدح النبوي جد جلي في صياغة ابن عثيمين رحمه الله وديباجته .
تأمل هذه الخاتمات ، قوله :

وخذ شوارد أبيات مثقفة كأنها درر فصلن بالذهب
زهت بمدحك حتى قال سامعها " الله أكبر كل الحسن في العرب "

يشير كما ذكر محقق ديوانه إلى قول ابن النيه :

الله أكبر ليس الحسن في العرب كم تحت لمة ذا التركي من عجب

إلى هنا نظر شوقي رحمه الله في قوله :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

وكان شوقي رحمه الله كثير الأخذ والشعراء من أفعل شيء لذلك كما تقدم ذكره ،
وأحسب أن ابن عثيمين أخذ من شوقي في الخدو وطريقة الصياغة ولأريب أنه تأثر
بديوانه وقرأه وأثر شوقي على شعراء النصف الأول من هذا المائة الميلادية كبير . هذا
ويقول ابن عثيمين بعده ، وهذا بمعرض ما قدمناه من أثر القصيدة النبوية عليه :

ثم الصلاة وتسليم الإله على من خصه الله بالأسنى من الكتب
المصطفى من أروم طاب عنصرها محمد الطاهر ابن الطاهر النسب
والآل والصحب ماناحت مطوقة وما حدا الرعد بألهامي من السحب

وقلت قصيدة لا يَحْتَمِلُهَا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وما يصحب من ذلك من مديح ينبيء عن التقوى وصدق روح العبادة والتقرب إلى المولى سبحانه وتعالى بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وقوله في آخر النونية التي مطلعها "عج بى على الربيع حيث الرند والبان إلخ" ومدح بها الملك عبدالعزيز رحمه الله، قال:

ثم الصلاة على الهادى الذى خمدت فى يوم مولده للفرس نيران
والآل والصحب ماناحت مطوقة خطبا تميد بها فى الدوح أغصان
خطبا أى خطباء بقصر المدود وهو جائز كثير والخطبة لون الورقاء أى الحمامة قال المعرى:

ترى كل خطباء الجناح كأنها خطيب تنمى فى الغضيف من الينع
ومن هنا أخذ ابن عثيمين . وقال آخر الرائية التي أولها "تلاأت بك فى الإسلام أنوار إلخ":

ثم الصلاة على الهادى وشيعته وصحبه ماشدا فى الأيك أطيّار
وفى أخرى

وصلى إله العالمين على الذى بأنواره الأكوان تزمو وتشرق
كذا الآل والأصحاب ملاح بارق وماناح فى الدوح الحمام المطوق
وفى أخرى

وصل إلهى كلما ناض بارق وما طلعت شمس وملاح مرزم
على سيد السادات نفسى فداؤه أصلى عليه مدتنى وأسلم
كذا آله الفر الكرام وصحبه هم صفوة الرحمن مناهم هم
وفى أخرى

وصل إلهي كلما حزن راعى
على خير مبعوث إلى خير أمة
ومانا ض برق في خلال السحاب
كذا آله الأظهار مع كل صاحب

والشواهد بعد كثيرة . ومن أعجب شعر ابن عثيمين إلى قوله في نسيب نونية مدح بها
الملك عبدالعزيز رحمهما الله تعالى :

ربع تأبد من شبه المها العين
إن الذين برغمى عنه قد رحلوا
نأديتهم والنوى بى عنهم قذف
يا غائين وفي قلبى تصورهم
وقفت دمعى على أطلاله الجون
حفظت عهدهم لكن أضاعونى
نداء ملتهب الأحشاء محزون
ونازحين وذكرهم تناجينى

وهنا حذو على قول الشيخ عبدالرحيم رحمه الله :

ياراحلين بقلبي أينما رحلوا
ترفقوا بفؤادى فى هوادجكم
ونازلين بقلبي حيثما نزلوا
راحت به يوم راحت بالهوى الإبل

ثم يقول

مالى وللبرق يشجيني تألقه
وللصبا بشذاكم لا تداوينى

وهذا فيه نفس من محمود غنيم فى كلمته التى نشرت فى عدد الهجرة من رسالة الزيات
ومطلعها " مالى وللنجم يرعانى وأرعاه إلخ "

ليت الريح التى تجرى مسخرة
وجد مقيم وصبر ظاعن وهوى
من لى بعهد وصال كنت أحسبه
لم يبق من حسنه إلا تذكره
تلك الليالى التى أعددت من عمرى
أيام أسقى بكاسات السرور على
تنبيكم ما ألقىه وتنينى
مشتت وحييب لا يأتينى
لا ينقضى وشباب كان يصينى
أو الأمانى تدنيه وتقصينى
أيام روض الصبا غرض الرياحين
رغم الوشاة بحظ غير مغبون

فهذا شعر سلس وفيه روح رقيق من عاطفة وذكرى . بحر الأبيات ورويا على قري : " يامن لقلب طويل البث محزون " وفيه من ألفاظها وضرب صياغتها كقوله " وللصبا بشذاكم لا تداويني " فهذا فيه حذو من قول العدواني " ولا دماؤكم جمعا ترويني " وكقوله " مشتت وحبيب لا يواتيني " فهذا فيه من قول العدواني " وأصبح الوأى منها لا يواتيني " وفي القصيدة بعد من أنفاس ابن زيدون في النونية وبعض طريقة لفظها كهذه الأبيات الأخيرة من عند قوله " من لى بعهد وصال إلخ " وكقوله من بعد :

يحنك من خده وردا بنسرين

وفي هذه القصيدة من المدح الجيد قوله :

إني أويت من العليا إلى حرم يتابه الناس أفواجا كأنهم
قبل الإناخة بالبشرى يحيني جاءوا لنسك على صهب العشانين
يعنى الإبل

ترى الملوك قياما عند سده ذا يطلب العفو عن عقبى جريته
وتنظر ابن سبيل وابن مسكين وإذا يؤمل فضلا غير ممنون
نزلت منه إلى جم فواضله عبد العزيز ثمال المستمحين

بكسر نون الجمع وهى لغة صحيحة وروى القافية يسيغها هاهنا كما قال ذو الإصبع :

إني أبي أبو ذو محافظة وابن أبي أبي من أبيين

ثم يقول ابن عثيمين بعد أبيات :

فدم سليما قريير العين مبتهجا بالآل والحال في عز وتمكين،
واشدد عرى الدين والدنيا بمنتجب من عنصر السادة الغر الميامين،

يعنى ابنه الملك سعود وكان آتذ ولى عهده، رحمهم الله جميعا :

فرع الأئمة والأذواء من يمن أهل القباب المطاعيم المطاعين،
غمر الندى نجلك الميمون طائره سعود أهل التقى نحس المناوين

بتنوين دال سعود ونقل حركة الهمزة ولك منع سعود من الصرف وقطع الهمزة والأول.
أحب إلى وكسر نون الجمع كما ترى

تلتك في خلقك السامى خلأثقه تلو المصلى المجلى في الميادين

هكذا وأحسبه " يتلو المصلى المجلى " والمعنى المستقيم بهذا ومصدر تلا، تلو بضم التاء،
واللام لا بفتح وسكون إلا لمن زعم العموم قياسا للثلاثى المتعدى كقول ابن مالك

فعل قياس مصدر المعدى من ذى ثلاثة كرد ردا

وفي الذى قدمناه مندوحة عن الضرورة ومخالفة المنقول، هذا ثم ختم بقوله :

ثم الصلاة وتسليم الإله على من خص بالخلق المحمود فى نون
وآله الغر والأصحاب كلهم ماناح ورق بملثف البساتين
وتأمل بعد هذه الأبيات العينية من حيث رصانة سبكها وزنة حرف الروى،
والخروج بعده وفحولة النفس :

أهاج له ذكر الحمى ومرابعه لجابة شوق ساعدتها مدامعه
فبات بليل الجيب مضطرم الحشى كأن بسفا البهمى فرشن مضاجعه
يمد الى البرق اليماني طرفه لعل الحمى والخبت جادت مراتعه
منازل خالت السرور بربعها ليالي يدعوني الهوى فأطاعه
أرب عليها كل محلوك الدجى أحم الرجى مستعجمات مطالعه

هذا البيت خاصة قوى الرنة شديد الأسر غيلاني المعدن . الرجى الناحية ، عنى
أن السحاب المحلولك النواحي سوادا قد ألح عليها بالهطول ، وجعله أحم الرجى
لسواده ودوى رعوده كأن ذلك صوت الرجى ، وإذا الرعد يحدو المطر والحداء ضرب
من الغناء والغناء سليل القريض ، فقد نسب الى الرعد مطالع كما للقصيد مطالع وهن
ابتداءات هديره ، وجعلهن مطالع مستعجمات ، وكأن هاهنا توليدا خفيا من قول حميد
المشهور:

فلم أر مثلى شاقه صوت مثلها ولا عريبا شاقه صوت أعجا
وقد مر في صفة الحمامة في الجزء الثالث من المرشد :

إذا ما بكت فيه السحائب جهدها ضحك بنوار النبات أجارعه
وقفت بها والصحب شتى سيلهم عذول ومعذول وآخر سامعه
فكأتمتهم ما بي وبالقلب لوعة إذا اضطمرت تنقد منها أضالعه

وهكذا وهلم جرا . والبحر والروى يشعران بمجاراة خفية لحبيب وأبي الطيب معا
في كلمتيهما :

من عوادي يوسفف وصواحيبه فعزما فقدما أدرك النجح طالبه
وفأوكما كالربع أشجاء طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجه
وكان عين رويه صدى من عين روى البحري في :

منى النفس من أسماء لو تستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها
وقد تعلم أيها القارئ الكريم أصلحك الله كيف سمج المتوكل إذا زعم أن عينها تثير
القيء والتهوع في خبر ذكره وما أحسبه خفى عن ابن عثيمين رحمه الله فقد كان واسع
الاطلاع ضليعا في علم العربية . ومن جيد شعره في المدح والحكمة قوله للملك
عبد العزيز رحمه الله تعالى :

يأيها الملك الميمون طائره
اجعل مشيرك في أمر تحاوله
وقدم الشرع ثم السيف إنهما
هما الدواء لأقوام إذا صعرت
واستعمل العفو عمن لا نصير له
واعقد مع الله عزما للجهاد فقد
وأكرم العلماء العاملين وكن
واحذر أناسا أصاروا العلم مدرجة
هذا وفي علمك المكنون جوهره
اسمع هديت مقال الناصح الحذب
مهذب الرأي ذا علم وذا أدب
قوام ذا الخلق في بدء وفي عقب
خدودهم واستحقوا صولة الغضب
إلا الإله فذاك العز فاحتسب
أوتيت نصرا عزيزا فاستقم وثب
بهم رحيمًا تجده خير منقلب
لما يرجون من جاء ومن نشب
ما كان يغنيك عن تذكير محتسب

وخذ شوارد البيت ، ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من بعد كما قد مر ذكره ولا يخلو ابن عثيمين رحمه الله مع رصانته وجودة ديباجته من بعض الكلال والسرد أحيانا ، وقل كاتب أو ناظم يسلم مما يؤخذ عليه ، والسرد أهون خطبا من الركافة واللين ، وربما قصد أحيانا قصد عمد إلى بعض ما شذ ومثل هذا من مذاهب العلماء معروف كقوله :

فقلدوا أمركم من فيه رشدكمو يا المسلمون وشدوا منه بالعضد
 أم لعله لم يقل إلا «يا مسلمون» وبها الوزن مستقيم وأرجح والله أعلم أنه تعمد
 هذا حذوا على «فيا الغلامان اللذان فرا» ، والخطأ النسخي لا يستبعد^(١)
 ومن أمثلة الديباجة الرصينة الشيخ محمد سعيد العباسي رحمه الله ، وإليك هذه
 الدالية من شعره وكان رحمه الله مما يواتيه طبع سمح في هذا الضرب والعروض من
 البسيط .

باتت تبالغ في عذلي وتغنيدي وتقتضيني عهدود الخرد الغيد
 وقد نضوت الصبا عني فما أنا في إसार سعدي ولا ألحاظها السود
 سئمت من شرعة الحب اثنتين هما هجر الدلال وإخلاف المواعيد
 لاتعذليني فلاني اليوم منصرف يا هذه لهوى المهرية القود

هنا محاولة فيها رقة لمكافأة صدهن بصد مثله ، وقد كره أبو السائب المخزومي
 التخشين في هذا الباب في قول من قال :

وكنت إذا حبيب رام هجري وجدت وراي منفسحا عريضا
 وهو مذهب لبيد : «فاقطع لبانة من تعرض وصله» في الميمية المعلقة ، وكان
 العباسي رحمه الله ربما سافر السفر الطويل في بادية غرب السودان وكان السفر إلى حين
 قريب بالجمال . وقوله «المهرية» أراد الإبل النجائب ومن أنجب الإبل البجاوية
 الصهب وما أشبه أن يكون العباسي كانت له راحلة منها :

لم يبق غير السرى مما تسرر له نفسى وغير بنات العيد من عيد
 وبنات العيد الإبل النجائب ينسبن إلى العيد فحل مشهور وأصل كلام العباسي
 رحمه الله بيت حبيب :

(١) وراجع ديوان الشاعر، العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين الطبعة الثالثة
 الرياض، سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م (ص ١٩٧) (راجعوه وصححه وأعد معجمه

وأشرف على طباعته السيد أحمد أبوا الفضل عوض الله)
 (٢) ديوان الاستاذ الشيخ محمد سعيد العباسي رحمه الله ، ديوان العباسي ، الطبعة
 الثالثة ، الدار السعدانية طبعة سنة ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م

حتى أغادر كل يوم بالفلا
ثم قول العباسي رحمه الله :
المدنياتي من رهطي ومن نفري
أثرتها وهي بالخرطوم فانتبذت
تؤم تلقاء من نهوى وكم قطعت
للطير عيداً من بنات العيد .
والمبعداي من أسرى وتقييدي
تكاد تقذف جلموداً بجلمود .
بنا بطاحاً وكم جابت لصيخود .

عدى جابت باللام وأحسبه بذلك فصيحاً في هذا الموضع لما في اللام من مناسبة .
لقول تؤم تلقاء من نهوى فلم يجعل «من» يتسلط عليها الفعل «تؤم» من غير حاجز :

نجد يرفعنا آل ويخفضنا
وشد ما عانقت بالليل من عنق
حتى تراءت لحاديينا النهود وقد
آل وتلفظنا بيد إلى بيد
يضى ومن حيف أخذود فأخذود
جننا على قدر حتم وموعود

النهود بلد بغرب السودان كان منها نهود - أي نهوض - القوافل وقاصدي الموارد
والمراعى في حر الصيف وهي في إقليم كردفان غرب مدينة الأبيض في طريق دارفور .

معالم قد أثارت في جوانحننا
ثم كأنه استحيا من هذا الغزل فقال :
استغفر الله لي شـوق يجده
وتلك فضلة كأس ما دمت لها
شوق الغوير لمهضوم الحشى رود
ذكر الصبا والمغاني أي تجديد
طعماً على كبر برح وتأويد

وفي هذا البيت حرارة من عاطفة وجانب من رقة وكبعض مذهب الشريف
الرضي شيئاً ما . وكان أبوه رحمه الله تعالى ، شيخاً معتقداً وكان هو خليفته من بعده ،
تلاميذه وتلاميذ أبيه يكرمونه ويتلقاه من يتلقاه منهم بالحفاوة البالغة والاحترام
والترحيب . وكان رحمه الله قد درس العربية والقرآن في صباه ، ثم نال حظاً من الحياة
العصرية والتدريب العصري في الحربية بمصر حين ألحق بها ، ثم تخلى عن ذلك
وانصرف إلى سبيل آبائه في العلم والتصوف .

مذهب الشريف مع سباحة ذات ظرف ساذج سهل أظهر في هذه الأبيات :

درس العربية والقرآن في صباه، ثم نال حظاً من الحياة العصرية والتدريب العصري في الحربية بمصر حين ألحق بها، ثم تخلّى عن ذلك وانصرف إلى سبيل آبائه في العلم والتصوف

مذهب الشريف مع سباحة ذات ظرف ساذج سهل أظهر في هذه الأبيات :

وكم برزن إلى لقيائى فى مرج وكم ثنين إلى نجواى من جيد
لو استطعن وهن السافحات دمي رشفتنى رشف معسول العناقيد
يا دار لهوى على النأى اسلمى وعمى ويا لذاذة أيامى بهم عودى
ثم سلا عن هذا إلى غناء الحماسة :

وذاط طوق نزلنا تحت دوحته وقد تغنت بأهزاج على عود

وأحسبه على كثرة ما ورد في غناء الحماسة لم يخل هنا من نظر إلى قول المعرى

إذا لمست عودا برجل حسبتها ثقيلة حجل تلمس العود ذا الشرع

أى تلمس العود ذا الأوتار - واحد الشرع بكسر الشين شرعة - وقد أخذ المعرى من شاعره الكبير أبى الطيب حيث يقول :-

إذا غنى الحمام الورق فيها أجابته أغاني القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام إذا غنى ونجاح إلى البيان
وقد يتشابه الوصفان جدا وموصوفاهما متباعدان
وقد مر حديث فيه طول عن هذه الأبيات النونية

فقلت حيث هل تدرين ما فعلت بنا التباريح من وجد وتسويد
حتى أجدت لنا لحن القريض قرى وما بخلت على ضيف بموجود (١)

هذا مأخوذ من المثل المعروف في عاميتنا : " الجود من الموجود ولو من قطع الجلود "

أنت الجواد على العلات فاتخذى فينا جيلا ومن هذا القرى زيدي

وسائر الكلمة جيد .

وللبعاسى بسيطة أخرى يذكر " مليط " بفتح الميم وتشديد اللام المكسورة، وهى بلدة على واد خصيب في غرب السودان غير جد بعيدة البعد عن الفاشر، موقعها شمالى

(١) وهل أراد لحن الغريض بالعين وهو من أهل الإنقاذ في الغناء .

بالنسبة إلى الفاشر:

حيالك مليط صوب الرائح الغادى وجاد واديك ذا الجنات من وادى
فكم جلوت لنا من منظر عجب يشجى الخلى ويروى غلة الصادى
أنسىنى برح آلامى وما أخذت منا المطايا بإيجاف وإيخاد
كثبانك العفر ما أبهى مناظرها أنس لدى وحشة رزق لمرتاد
وذلك أنها تحتفظ بالماء فى جوف تربة رمالها فتزرع وما حولها مجذب

فباسق النخل ملء الطرف يلثم من ذيل السحاب بلا كد وإجهاد
هل يعنى بلا كد من الزارعين ولا إجهاد؟ المعروف فى النخل أنه على شدة حاجته إلى
الماء لا يصلحه كثرة هطول المطر عليه ورد الكد والإجهاد إلى اللثم يجعل العبارة ذات،
ضعف، فالعنى الأول كأنه هو الوجه الأفضل على ما فيه مما ذكرنا من أمر إفساد المطر
النخل إن كثر عليه.

والسورق تهتف والأطلال وارفة والريح تدفع مياذا لمياد
سياق هذا البيت وسلاسته تقوى رد نفى الكد والإجهاد الى لثم فروع النخل أذيال
السحاب - على هذا التأويل قوله " بلا كد وإجهاد " مع كونه لا يخلو من ضعف لا
يخلو أيضا من وجه يسوغه على تعب ما
لو استطعت لأهديت الخلود لها لو كان شىء من الدنيا لإخلاق

أحسبه حمل الإخلاق معنى التخليد وفيه نظر

أنت المطيرة فى ظل وفى شجر فقدت أصوات رهبان وعباد
أعيد حسنك بالرحمن مبدعه ياقرة العين من عين وحساد
هذا بيت فيه عذوبة

وضعت رحلى منها بالكرامة فى دار ابن بجادتها نصر بن شداد
فاقتادت اللب منى قود ذى رسن ورقاء أهدت لنا لحنا بترداد
هاتى الحديث رعاك الله مسعفة وأسعدى فكلانا ذو هوى بادی
فحركت لهوى الأوطان أفئدة وأحرقت نضو أحشاء وأكبادة

هوى إلى النيل يصبيني وساكنه
وحاجة ما يعينني تطلبها
أجله اليوم عن حصر وتعداد
لولا زمانى ولولا ضيق أصفادى
ياسعد سعدبنى وهب أرى ثمرا
فجد فديتك للعافى بعنقاد

قوله "نضو أحشاء وأكباد" وقوله "عن حصر وتعداد" فيها بعض الوهى وما بعد قوله
"حاجة" ليست للنفى ولكن للإبهام وهى جيدة والبيت ممهد للذى بعده وفيه ما ترى
من الإشارة إلى قول سيدنا عمر "يا سعد سعدبنى هيب" رضى الله عنهما، وجعل
الشاعر ذلك رمزا كنى به عن بعض حاجات نفسه وفيه روح من صباية وعاطفة.
وووجدان وقوله "بعنقاد" حسن الموقع فى هذا الموضع - قال تأبط شرا وأورده أبو العلاء
فى رسالة الغفران :

وقد لهوت بمصقول عوارضها بكر تنازعى كأسا وعنقادا
ثم انقضى عصرها عنى وأعقبه عصر الشباب فقل فى صالح بادا
وفى هذه الدالية أبيات خاطب بها الحمامة جعلها خاتمة لها

ورقاء إنك قد أسمعتنى حسنا هيا اسمعى فضل إنشائي وإنشادى
إننا نديان فى شرع الهوى فخذى يا بنت ذى الطوق لحنا من بنى الضاد
فربما تجمع الآلام إن نزلت ضدين فى الشكل والأخلاق والعباد
لا تنكرينى فحالى كلها كرم ولا يريك إتهامى وإنجادى

أحسبه أراد هنا معنى مجازيا، أى الافتتان فى ضروب القول مما يقع فيه التعبير العاطفى
المنحى فربما ظن ظان أنه لا يلائم وقار الشيوخ . وفى قوله "فربما تجمع الآلام" نظر إلى
قول شوقى :

إن المصائب يجمعن المصائبنا

وإلى أبى الطيب

وقد يتشابه الوصفان جدا موصوفاهما متباعدان

ورحم الله العباسى فقد كان رقيق الإحساس فصيحاً يغرف بساحة طبعه من بحر
ولإيقاعه رنين وعذوية

هذا وقد كنت جعلت هذا آخر أبواب الكتاب وقلت إنه لا يتسع المجال للخوض في ضروب تجديد العصر، فأقل ما يقال في ذلك إن المعاصرة حجاب . وكان الفراغ من ذلك كله في مدينة فاس حرسها الله تعالى لليلتين بقيتا من شعبان سنة ١٤٠٣ هـ . وذلك يوافق ٩ من شهر يونيه سنة ١٩٨٣ م

ثم بدا لي الآن بعد أن حيل دون خروج الكتاب كله منشورا مطبوعا أن استدرك شيئا مما فاتني ذكره . من ذلك الإلماع إلى مكان شاعر العراق محمد مهدي الجواهري بين الأخذين بمذهب الجزالة في هذا العصر وله طول نفس وقوة أداء ولكن تشقيق الجدل، والسياسة ربما كدر من صفاء ديباجته - وهو بعد يحسن أن يترنم ترنما بحترى الإيقاع؛ كقوله :

في قصيدة بعنوان ساعة مع البحترى في سامراء

أكبرت شاعر جعفر وشعوره يستوجب الإكبار والترفيعا
ولست في أبياته دعة الصبا ولداته والخاطر المجموعا
ولا أدري معنى المجموع ههنا إلا أن تكون روياء مقحما إذ وصف الخاطر بالمجموع يحتاج إلى تأويل كقولك أمر مجموع أى يجمع عليه وقد لا يخلو ذلك من تكلف

ولئن تشابهت المناسب أو حكى مطبوع شعري شعره المطبوعا

فلو قد قال : مطبوع نظمى لكان ذلك أصح

فلكم تحالف في المسيل جداول فاضت معا وتفجرت ينبوعا

وهذا توليد من أبى الطيب في بيته الذى كثر التوليد منه والأخذ :

وقد يتشابه الوصفان جدا وموصوفاهما متباعدان
ثم يقول :-

عبث الوليد بشرخ دهر عابث وصبا فنال من الصبا ما اسطيعا

يشير هنا كما ذكر في الهامش (ديوانه الطبعة الخامسة ص ٤٢١) إلى كتاب المعرى عن نقد بعض ما وقع في شعر البحترى الذى سماه «عبث الوليد» واسم البحترى الوليد بن

ونما ربيعاً في ظلال خلائف في ظلهم عاش القريض ربيعاً
لا عن بيوت المال كان إذا انتمى يقصى ولا عن باهم مدفوعاً
قدروا له قدر الشعور وأسرجوا أبياته وسط البيوت شموعاً

وهذا غناء سلس ذو عذوبة، ثم التوى بالجواهرى الطريق إلى مقالة السياسة وشعور
القومية الحديثة الأوربية المعدن، تحاكيه وتباريه، وهذا ديدن قد غلب:

ضيف العراق نعمت من خيراته وحمدت فيه قرارة وهجوعاً
إن تعة الحفلات كنت مقدماً أو تنبر الأمراء كنت قريعاً

ضبطت تنبر بضم التاء وما أخرى هذا أن يكون خطأ مطبعة إذ نبر (باب ضرب) ثلاثي
ويجوز أنه مضارع من "انبرى له" أى اعترض. هذا ولعل قولنا «التوى بالجواهرى»
شعور القومية الحديثة وهو ديدن قد غلب» حيث قال يخاطب البحرى:

ضيف العراق نعمت من خيراته وحمدت فيه قرارة وهجوعاً

أن يكون على خلاف وجه آخر أراده الجواهرى وهو أشبه بمذهبه وعلمه بالشعر وذلك،
أن يكون قصد إلى الإشارة إلى قول البحرى المشهور:

حنت قلوصى بالعراق وشاقها فى ناجر برد الشام وريفه
ومدافع الساجور حيث تقابلت بالضيفتين تلاعه وكهوفه

فهل أراد عتابه على هذا الحنين إلى برد الشام وريفه؟ فإن يكن شيئاً من ذلك أراد فقد
جعل المعرى من قبله عتاب البحرى وملامته مركباً قال:

وقال الوليد النبع ليس بمثمر وأخطأ سرب الوحوش من ثمر النبع
وقال:

ذم الوليد ولم أذمم دياركم فقال ما أنصفت بغداد حوشيتا
فإن لقيت وليدا والنوى قذف يوم القيامة لم أعدمه تبكيتا

ثم رجع الجواهرى إلى معانى الثورة المحتدمة فى نفسه فقال يخاطب البحرى ويذكره
بأن العراق أحسن ضيافته إذ لم يكن عراقياً مولداً وداراً

ولا تمنع جلادة صاحبها أن يموت جوعاً أو عطشاً إن لم يجد من ذلك أدنى حاجته .
وهل عنى بالرفقة أولى الجلد ابن الرومي إذ عاصر البحرى ولم يصب من الخطوة كما
أصاب ؛ أو هل عنى نفسه وفي قوله " فى التى راشت جناحك " يعنى العراق ولعل
الكاف ها هنا عنى بها غير البحرى وجعله رمزاً ، وما أقرب هذا من مذهب ابن الرومى
إذا حسد الغصون المجازية وذمها فى قوله :

ومن غضبات الجواهرى التى قد يخال أنهم مدنيات له من يسار مركس وقل شاعر -
فحل يكون من يسار مركس قريبا ، قوله

خبت للشعر أنفاس
 أم الحي وقد أغفى
 كأن لم يعترف ناسا
 ويارب المقاييس
 أكفرا بالقياسات
 أم الخير شك النادر
 أم الثروة للقباح
 أم العبد على الأحرا
 أم الفكر بأظلاف الـ

أم اشتط بك اليأس
 أت إبلاس وإخراس
 فهل أنت به الناس
 ترى أعياك مقياس
 وما قيس ومن قاسوا
 حيث الشر أكره الناس
 وعند الحسن إفلاس
 رقوم ونخاس
 وحوش الغريناس

أحسبه لو جعل مكان الوحوش كلمة أخرى لربما كان أصح إذ ليس للوحوش، إن أريد بها السباع أظلاف، وغير السباع يقال لمن الوحش كالوعول والظباء وما أشبهه، وقد أراد أمثال الدواب من البشر فهذا مقالنا لو جعل كلمة أخرى وذلك كثير وما جاء به له وجه وفوق كل ذي علم عليم.

أم الأَصْنَامَ أرباب أم الأَرُوسَ أعجاس
جمع عَجَس بفتح فضم كعجز
أم الموت غشَى الحى فما فى الدار أحلاس

غشى كسعى لهجة طيء وما فى الدار أحلاس أراد به ما فى الدار أحد وهو جلس داره
أى لا يفارقها لكبر سن أو نحو ذلك فأحسبه تصرف فى استعمال هذا اللفظ وعسى أن
يصلح

أدر كاسك باخوس فقد صوحت الكاس
فى الهامش (ص ٣٥٧) (١): باخوس إله الخمر عند الإغريق ويريد به الشاعر هنا
نفسه - ولا يخفى أن باخوس هنا من الجند الغريب
واسمع قرعة الغضبة واقرا قوله

عدا على كما يستكلب الذيب خلق ببغداد أنماط أعاجيب
خلق ببغداد منفوخ ومطرح والطلب للناس منفوخ ومطلوب
خلق ببغداد ممسوخ يفيض به تأريخ ببغداد لا عرب ولا نوب
لا الأريحي الذى ضمت ملاعبها ولا التقى الذى ضمت محاريب
هذا من مر الهجاء ، أن يكون صاحب الملاعب واللهو غير ذي أريحية فيه بل ذو
سماجة وأن يكون مظهر الدين يصلي به فى المحاريب غير ذي تقوى ولكن من أهل
النفاق

لو شئت مزقت أستارا مهلهلة فراح سيان مهتوك ومحجوب

أي فراح الشان - سيان خبر مقدم والجملة خبر راح واسمها ضمير الشأن

إني لأعذر أحرارا إذا برموا بالحر يلويه ترغيب وترهيب
والصابرين على البلوى إذا عصفوا بالصابر الشهم أدته المطالب
فما لعبدان أهواء وعندهم فى كل يوم من التغيرير أسلوب

وما لهذا الجبان النكس قد هزئت منه ومن صحبه الغيد الرعايب
 منافقون يرون الناس أنهمو شم أباة أماجيد مصاحب
 وأنهم قادة صيد وأنهمو غر المصاييح والسدنيا غرايب
 ما أغرب الجلف لم يعلق به أدب وعنده للكريم الحر تأديب^(١)

هذا، ومن عسى أن يحسن الإلماع إلى حسن ديباجته الأستاذ أحمد محرم رحمه الله . وقد
 أورد الأستاذ محمد إبراهيم الجيوشي في كتابه عنه ، (شاعر العروبة والإسلام)^(٢) اختياراً
 حسناً من شعره ما نوره ان شاء الله هنا منه ، مثلاً قوله

إليك دموعي في الصحيفة فاقربي رسالة أشواقني إليك وأشجاني
 فان تطلبي مني دليلاً على الهوى فهذا دليلي في هواك وبرهاني
 فيا هند عذرا إن جزعت فإن لي تباريح من شوقي إليك وتحناني
 ولا تنكري هذي الدموع تذكري عصارة قلبي في هواك ووجداني
 ويا هند إن جئت الشهيد تذكري شهيد هوى مادان يوما بسلوان

زعم الأستاذ الجيوشي ان اسم الفتاة «رفقة» ومكانه في نص الديوان فراغ وأن الوزن
 يستقيم بـ «رفق» مناداة مرخمة . وقد وضعنا اسم «هند» لأن رمزيتها واضحة كلياً ولبنى
 وسعدى وسلمى وما أشبه وكرهنا أن نضع «رفق» لما فيه من الظن والقول بما لا نعلم إذ
 ما ذكروا من عشق محرم لرفقة هذه لا دليل عليه . ولقد أحسن أبو الطيب رحمه الله إذ
 قال في رثائه لحولة أخت سيف الدولة رحمهما الله تعالى :

كان «فعلة» لم تملأ مكارمها ديار بكر ولم تخلع ولم تهب
 وقال :

أجل قدرك أن تسمى مؤبنة ومن يصفك فقد سماك للعرب

(١) ديوانه ٣٥١ / ٢

(٢) شاعر العروبة والاسلام ، أحمد محرم محمد إبراهيم الجيوشي الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م
 ص ٩٤ .

فإنه لم يرد «بفعلة» إلا «خولة» ولم يكتف اسمها لدفع حرج ولكن أدبا وإجلالا
لقدرها .

ويعجبني من أبيات له في قصة تحرير المرأة^(١)

أغرك يا أسماء ما قال قاسم	أقيمي وراء الخدر فالمرء واهم
ذكرتك إني إن تجلت غيابتني	على ما نمت من ذكرك اليوم نادم
تضييق ذرعا بالحجاب وما به	سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم
سلام على الأخلاق في الشرق كله	إذا ما استبيحت في الخدور الكرائم
أقاسم لا تقذف بعجيشك تبتغي	بقومك والإسلام ما الله عالم
لنا من بناء الأولين بقية	تلوذ بها أعراضنا والمحارم
أسائل نفسي إذ دلفت تريدها	أأنت مع البانين أم أنت هادم

ليس جمال هذه الأبيات من قوة الحجة والجدل ولكنه من صدق العاطفة وسلامة
الديباجة ولا يعجبني قوله «في الشرق كله» إذ فيه كالتسليم بأن أوروبا مركز الدنيا تنسب
إليها الجهات . ويقولون الآن الشرق الأدنى والشرق الأوسط - الأدنى إلى ماذا والأوسط
عماذا؟

وذكر صاحب كتاب شاعر العروبة والإسلام أن أحمد محرم رحمه الله كان له رأي حسن
في «قاسم أمين» الرجل المصري على ما كان يأخذه عليه من قوله في تحرير المرأة وقد رثاه
فذكر من ذلك في رثائه له ، قال :

إذا رأى الرأي لم تنكص عزمته	خوف الملام ولم يقعد به اللدد
رمى الحجاب فلولاً الله يمسكه	لا نشق أوخار أوخرت به العمد

قوله «فلولا الله يمسكه» كأنه يشير به الى قول المعري «فلولا الغمد يمسكه لسالا» وذلك
أن لولا بعدها غالبا حذف الخبر كما ذكر ابن مالك .

الذهب إلى اسم قديم ادعاه لبلده هو «غانا» كما فر هيلاسلاسي من اسم الحبش إلى اسم «اثيوبيا» وكان هذا يطلقه اليونان القدماء بكبريائهم ، ينزون به سواد الواننا ، على بلادنا دون بلاده وقيل إن «اثيوبيا» اشتقاقها من الطيب إذا كان يجلب من بلاد كوش وما وراءها ، وفيه نظر ، وكان يقال لبلادنا السودان الانجليزي المصري بعد أن شارك الانجليز أسرة محمد على في إدارته وتولى أمره . وإنما كان اسم بلادنا سنار على اسم عاصمة السلطنة التي كانت قائمة على أمرها فيما بين ١٥٠٠ إلى ١٨٢١ م . وقيل إن الملك عمارة مؤسس سلطنة الفنج لقي فتاة اسمها سنار فتفاهل بحسن طلعتها فسمى بلده باسمها ويجوز أن يكون الاسم اختزل من سنهار «أي القمر» ويجوز غير ذلك وكان قومنا يقال لهم السنارية وعلى ذلك رواق السنارية بالأزهر الشريف هذا ثم أخذ الشيخ رفاعه في ذم الناس والبلاد وبعض ما ذكره ملاحظات قيمة تدخل فيها يقال له الآن علوم الاجتماع أو «اثيوبولوجيا» ، قال : وليس هذا بموضع عتب عليه كما سأذكر من بعد إن شاء الله تعالى :

فلا تعجب إذا طبخوا خليطا بمخ العظم مع صافي الرماد

أحسب هذا ما يسمى «ملاح المرس» وكان يصنع فيها بلغني من قصب يحرق وعظم يترك حيناً ثم يطبخ وهو طعام عام مسنت ولا يخفى أن الرماد يستعان به على هواء البطن

ولطخ الدهن في بدن وشعر كدهن الإبل من جرب القراد

أحسبه أصاب في الصدر وأخطأ في عجز البيت وبلاد السودان جنوب مصر حارة جافة ولأهلها بجفافها وعلاج ما ينشأ من ذلك من أثر على البشرة دراية وقد كان الصغار في جيل مضى والكبار لايبست أحدهم إلا بعد أن يمسح بزيت السمسم جسمه وكان البداة يضعون على رؤوسهم الودك وكان للنساء خبرة بصناعة أدهان ذات طيب فائق من الودك بعد أن يسلاً ثم يخلط بالصندل والعطور الهندية ولا أشك أنه عطر النجاشي المذكور في السيرة وتمكن به عمرو بن العاص أن يشي بعمارة بن الوليد ويوقعه فيما وقع فيه من أبدة وكانت في وادي النيل عندنا حضارة لم يكلف رفاعه رحمه الله نفسه عناء تتبعها ، ولا يلومته على ذلك أحد لما كان من غيظه من شبه النفى الذي وقع ثم كأنه صادف عام وباء فدخل عليه مع الغيظ خوف شديد .

ويضرب بالسياط الزوج حتى يقال أخو بنات في الجلال

يُضرب مبنى للمعلوم وذلك أن «العريس» يقف أمامه صف من الشبان يضرب كلا منهن على جلد ظهره سوطاً أو سوطين أو يزيد، حسب ما يتفق عليه أنه ثمن الشبال - أو شر الشبال «والشبال» أن تدنو الفتاة التي ترقص بعد أن كشفت رأسها، ولا تفعل ذلك في هذا الموقف الفارح المحتفل به، إلا الحرائر، من الشاب الذي يحجل أمامها فتشير بشعرها ثم تغطيه بجفلة، هذا هو الشبال ولا ترقص البنات إلا بعد أن يحدد «شر» الشبال، «ولابد دون الشهد من إبر النحل» - وإنما كان يتقدم للسوط الشبان تعريزا «للعريس» وتأيداً له. ومن أدب الوقوف للسوط أن يكون الفتى ثابتاً كأنه -جدار، ولا يختلج منه خد أو طرف أو ما يبدل على ألم. وقد يداخل الشبان تنافس فيرفعون «شر الشبال» وإنما يقدم على ذلك الباسلون الذين يقال لهم «إخوان البنات» أي حماةهن. والسوط مصنوع من جلد فرس البحر (العنيسيت) - الكلمة مقاربة لقولهم «عنس في العربية».

وما السودان قط مقام مثلي ولا سلماي فيه ولا سعادي
 بها ريح السموم يشم منه زفير لظى فلا يطفئه وادي
 قوله «فلا يطفئه وادي» كقوله من قبل «وفضلى من سواها في المزاد» ولا يخلو من نفس عامي.

فلا تعجب إذا طبخوا خليطاً بمخ العظم مع صافي الرماد
 ولطخ الدهن في بدن وشعر كدهن الإبل من جرب القراد
 قولنا من قبل إن ما ذكره في عجز البيت غير صحيح فقد بينا أمر دهن الجلد، وقال الشنفري:

بعيد بمس الدهن والفلى عهده له عبس عاف من الغسل محول

فافتخر بصعلكته وجعل منها ألا يدهن رأسه. وقال يزيد بن الطثيرة وهو إسلامي:

فيسلك مدرى العاج في مدلهمة إذا لم تفرج مات غما صوابها

«والصواب صغار أولاد القمل وإنما احتاج إلى تفرج لما به من دهن وفي خبر كعب بن عجرة أنه جهده ترك الدهن من أجل عبادة الحج فيما يبدو حتى جعل القمل يتناثر من لته فأمر بالهدى ونزلت فيه «فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه الآية ١٩٦ من البقرة» والعجب للطهطاوي أن يكون خفى عنه مثل هذا مع وافر علمه ونسبه الشريف.

ويضرب بالسياط الزوج حتى يقال أخو بنات في الجلال
ويرتق ما بزوجته زمانا ويصعب فتق ذاك الإنسان
يشير بهذا إلى عادة خفض النساء وأعياء النظم هنا فزعم أن الرتق للزوجة وإنما تختن
الفتاة وهي صغيرة فقد تبالغ الخاتنة فينشأ من ذلك ضرر عظيم كأن تصير الفتاة رتقاء
لايستطاع جماعها، والختانة قديمة في العرب وفي حديث أم عطية ذكره ابن الأثير في
أخريات مادة خفض. «إذا خفضت فأسمى» قال الخفض للنساء كالختان للرجال وفي
مادة «نك» وفي حديث الخافضة قال لها أسمى ولا تنهكي أي لا تباليغي في استقصاء
الختان اهـ؟»

فاستقصاء الختان كان للعرب عادة قال جرير

والتغليية في ثنبي عباءتها بظر طويل وفي باع ابنها قصر
لأنها من قوم نصارى ذمهم جرير بأن نساءهم لا يخفضن فجعله سبة :
وقال الفرزدق :

وما وجعت ازدية من ختانة ولا شربت في جلد حوب معلب
يجعل الختانة الموجهة كشرب اللبن من اناء الجلد أمرا خصت به العرب . والحوب عنى
به البعير لأنه يزجر بحوب . والختانة الموجهة استقصاء ولكنه لا يبلغ به من الفساد ما
زعم الطهطاوي إلا في حالات تشد وليس الشذوذ بما يصح تعميمه وما منعت ختانة
من افتضاض طبيعي ولا منعت من نفاس ، وليس في هذا تركية لها فالوجه ما أمر به
صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وما أمر إلا بالإشمام . وقد يبالغ في بعض
البلاد، (وليس قطرنا ولا أحسبه في قطر افريقي) في ختانة الرجال وفي الكتاب المقدس
في خبر غيرة أبناء يعقوب على سباء وقع لنسائهم أن ختانة بني اسرائيل لرجالهم كانت
يبالغ فيها حتى يلزم المختون الفراش من وجع الجراح .
ومن تعب النظم في هذا البيت قطع همزة الانسداد .

وإكراه الفتاة على بغاء مع النهى ارتضوه بالاتحاد

هذا باطل . ولعله أنكر أن يكون لبعضهم مملوكات وأن يهدي المملوكة فهذا قبل أن
يمنع الافرنج بيع الرقيق وملك المملوكين بدعوى التحرير، وإنما منعوا ضربا وأبقوا
ضروبا لعلها شر مما منعوا ، وفي قول الله تعالى «فك رقبة» مذهب واضح لمن كان يرغب
في محض التقوى ، وما سوى ذلك فما يعتذر به بعض من يدعون التفكير من معاصرينا

إلى مطاعن الافرنج ليس بكبير شيء فتأمل . وقال أبو الطيب في مدحته للملوك :

من كل موهوبة مولولة كاسرة زيرها ومشاها

فلعل من أهدي مملوكة عن عسى أن يكون رفاة شهد ذلك منه ما خرج به عن مذاهب العلية وأهل الشراء . وقد كان أخذ الرقيق من مراتب الموظفين أول أيام حكم محمد علي باشا ثم نهى عنه احتراماً لفرنسة وبريطانيا ذكر ذلك الدكتور مكى شيكة رحمه الله في تأريخه ، وقول الطهطاوي «ارتضوه باتحاد» لا يخفى ضعف القافية منه .

لهم شغف بتعليم الجواري على شبق مجاذبة السفاد

وهذا أمر خاص بالنساء ومعروف عند العرب منه شكوى الذي شكى إلى على أنه كلما دنا إلى امرأته قالت قتلتنى وما كان أغنى رفاة عن ذكره . قال أحد المادحين يذكر الصوفية وإقامتهم الليلي يذكرون الله ويسبحون بسبحات خرزها من ثمر «اللالوب» في كل سبعة ألف حبة يعد بها المسيح مثلاً ١٢٩X١٢٩ من عدد «الطيف» ، فهذا قد يقضى فيه ليلة بأكملها :

يــــــــالــــــــي النــــــــوم تــــــــــــــــركــــــــوه

يــــــــالــــــــي الــــــــلالــــــــوب بــــــــكــــــــوه

«ليلي» اسم الحضرة العلوية الصوفية النبوية ، جعل «اللالوب» كالعرائس يبيكين تغنجا ودلالا فافهم حفظك الله :

قوله رحمه الله " لهم شغف " أبدية ، إذ كثير من الشبان ربها فاجأهم هذا من تدبير اللواتي وصفهن الكتاب المحكم بالكيد العظيم في ليلة الدخلة ويذكر أن الشيخ الدردير رضي الله عنه أهدي له بعض مريديه مملوكة لقنت هذا العلم ففزع من امرها أول الأمر ثم أحبه حبا فالله أعلم أي ذلك كان من خبر الرواة .

ولا يلام الشيخ رفاة على انكاره ما أنكر وتفرنجه بالزعم أن اهداء الجواري من البغاء المنهي عنه في قوله تعالى : " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا " وكانت قريش في جاهليتها تفعله . فقد بلغ من رقة التأثير بها فتته من حضارة مبلغا ، ولعل ما أصابه من ذلك في زمانه دون ما أصابنا من ذلك في هذا الزمان .

وقال الحارث بن أبي ربيعة وكان في وجه الحرب عاملا لابن الزبير رضي الله عنهما يزجر أخاه عمر إذ بعث إليه يطلب منه جارية :

بعثت لي تستهدي الجواري لقد انعطت من بلد بعيد

ثم يقول الشيخ رفاعه :

وشرح الحال عنه يضيق صدري ولا يحصيه طرسي أو مدادي
وضبط القول بالأخبار يزري وشر الناس منتشر الجراد
أي هذا قليل من كثير وليس الخبر كالعيان والشر الذي رأيناه كالجراد المنتشر

ولولا البعض من عرب لكانوا سوادا في سواد في سواد

أي سواد وجوه وقلوب وعيون فالعياذ بالله من ذلك . وهذا البعض الذي أشار إليه كثير
قديم يرجع زمان أوائله إلى ما قبل الجاهلية والله اعلم
وحسبي فتكها بنصيف صحي كأن وظيفتي لبس الحداد

وسخطته ههنا لا تخفى وتداخل ذلك مع الأسى روح النكتة القاهرية

وقد فارقت اطفالا صغارا بطنطا دون عودي واعتيادي
افكر فيهم سرا وجهرا ولا سمري يطيب ولا رقادي
وطالت مدة التغريب عنهم ولا غنم لدى سوى الكساد

وهل تجارة اكسد من أن يغادر القاهرة إلى خرطوم ذلك الزمان

وما خلت العزيز يريد ذلى ولا يصغي لأخصام لداد

فصرح هنا بما كان يحسه قلبه من أن بعثه للسودان ضرب من النفي ومنبيء عن سخط
عليه من الخديوي عزيز مصر أو جفوة «وتلك التي يهتم منها وينصب» كما قال النابغة
وفي الابيات التي ذكر فيها أطفاله وأسرتة صدق حنين واسباح أسلوب . وعلى طول
القصيدة لم تجده عند العزيز . فعدل إلى الإستغاثة فنظم تخميسا لقصيدة الشيخ
عبدالرحيم البرعي :

خل الغرام لصب دمعته دمه حيران توجده الذكرى وتعدمه

وعسى أن يكون توسل بالسيد البدوي حامي طنطا قدس الله سره . فكان ذلك أجدي
عليه من :

وما السودان فيه مقام مثلي ولا سلماي فيه ولا سعادي

فاستجيب له وعاد رحمه الله إلى مصر .

وفي معجم البلدان لياقوت حيث ذكر بلاد النوبة شبهها ببلاد اليمن وذكر أن في عيش
أهلها شدة .

وقال العباسي رحمه الله :

ع بعـــــــــــــــــدكم غيـث همي	أحبتي هـذي الـدمـو
ودان لي نـخـيـا	صيرت عن كـره قـري السـ
أجـري الـدمـوع عـندما	ولي بمصر شـجـن
أرجـاءها والهرمـا	فأرقت مصر ذاكـرا
فيحـاء والمقطـا	والنيل والجزيرة الـ
أسـدت لي أنـعـا	ربـوع خـير طـالما
ب الغـض مـن لي بهـا	مصر وأيام الشـبـا
حبـة قلبي فـرمـى	للـه مـحبـوب رأـي
حكمتـه فـاحـتكمـا	أعـيـذه مـن جـائـر
أروض مـهـرا أدما	مررت بـالحـي ضحـى
ب ضـافـيـا مـنمـا	مرتديـا مـن الشـبـا
بيض كأمـثال الـدمـى	لقيتـه فـي أربـع
ع وحـكين الأنـجـا	شـابـهـن ازهار الـرـيـ

قوله " صيرت عن كره " أي غير اختيار لا يعني عن بغض ، وقد عرضت في " ذكرى ،
صديقين " ^(١) لهذه الأبيات ثم قلت : " ورب آخذ على العباسي قوله :

صيرت عن كره قري الســـــــــــــــــ

ولا آخذه عليه فان قلب الشعر كما وصفه أبو الطيب - وهذا من آيات الصدق ،
والصفاء . الإشارة إلى قوله :

وبي ما يذود الشعر عني أقله ولكن قلبي يابنة القوم قلب

هذا ، والاستاذ محمد عبد القادر كرف (١٩١٢-١٩٨٩م) ممن ينبغي التنبيه على مكانه ،
في الرصانة وكان معاصرا للتجاني يوسف بشير رحمه الله من أدبيين كبيرين وقرينا له ،

(١) ذكرى صديقين ، صدر سنة ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧ م ، الطليعة ، الكويت انظر ص ١٤

في درس جامع أم درمان وصديقا وشاعرا موهوبا مثله مؤثرا للجزالة شديد الأسر وكان عالما ومعلما محسنا متقنا وجميل الخط اريحى النفس كريم الخلق جوادا برا بالاقربين والإخوان نزيها محبوبا عز فقده وقل في الناس نده توفي رحمه الله يوم ١٣ من المحرم سنة ١٤١٠هـ = ١٥ من أغسطس ١٩٨٩ م .

كتب الى منذ تسعة عشر عاما قصيدة من المتقارب إخوانية نونية علانية رنة الروى أثبتها ههنا كما جاءني نصها البديع البارع منه الى الأخ الفذ حامل لواء الفصحى وصاحب المرشد الدكتور عبد الله الطيب أقدم هذه القافية العسية له ولن أحبه وعرف قدره .

عطفك فلم ألو عنك الأعنة	وكم لى من حنة بعد حنة
وعجت ومن لوعتي مزهر	له نبرات القوافي المزنة
وهشت لي السدار واستبشرت	مقاصيرها والرياض المغنة
واذ جتتها خلتنى مذبنا	صليت بنار وبدلت حنة
وكائن دلفت الى ظلمة	لديها وروض أنيق وكنة
وقد وشت الجدر المشرقات	بنان قريز لدا وهي المنة
وقد اشربت من ضروب الوفا	ء حتى غدت وهي أخت وحنة
تبادر ما أوجبه الحقوق	عليها وتلزم ما العرف سنه
ولم نلق الا الندى عندها	والا فتى آثر الدهر فنه
اقام على الجد لا يتثنى	ومن قدم جنب اللهو سنه
وشتان ما واهن عزمه	وذو ثقة واعتزام ومنه
وأتحفنا وهو طلق الجين	بما ليس تلفيه إلا لندنه ^(١)
وعندي لك الود أخلصته	نقيا وناهيك ما القلب كنه

(١) بضم الدال وتشديد النون لغة في لدنه بتسكينها كما يجوز تسكين الدال واعراب النون في غير هذا الموضع .

وانك دهقان هذا القريض
لصدرك زمزمة تستجيب
وكالشفري اذ يرود الشفاف
وفي النفس شنشنة من عكاظ
نشرت فجاوزت شأو اليان
وجاهدت في الله لا في الطماع
وطاعت حتى انزوى الأذلون
وأرزمت تخطف ألبابهم
وظن امرؤ السوء أن يدعى
لى أن غدت وأنت الفرند
وأنت المجلى اذا أخبرت
وما إن ينوشك سهم الدعي
ألا حى بالشاطيء الدامرى
بني نقر اذ هم المتقون
اذا أطفأ الدهر نار القرى
وما ضنكت أو عفا قدرها
وتالين من حو لها يجأرون
وحي أخا الرشد واصدح له
وقل للفتى العبقري السما
تولت سني الصبا الحافلات
فليتني في النعف نعف الرباب

سبقت الندامى وافرغت دنة
لى جرسه أو بغام وغنة
واذ هو حلس لكهف اجنه
ومن ذى المجاز ومن ذى المجنة
ولم تأت قافية ذات ظنة
وذلك فضل جباه ومنه
وبوأتهم من بوار أكنة
كما ترزم الغيمة المرجنة
عليك الشنار فكذبت ظنه
له فوق هام الأعادي دنة
هوادى الفحول الخنايذ عنه^(١)
ودونك من عصمة الله جنة
ربوعا على حجره مطمئنة^(٢)
واذ دأبهم في كتاب وسنة^(٣)
فناز المجاذيب نار مينة
اذا ألف النكس لوما وضنة
لهم أرج مستطاب وبننة
بقافية ذات ردف ضفنة
ت وابن الثقات وعلق المضنه
ولم تبق الا العجاف المسنة^(٤)
وفي كاهلي فضل حبل وشنة^(٥)

(١) بتشديد النون - لغة

(٢) نسبة الى الدامر بلدنا

(٣) بنو نقر من قبيلة المجاذيب ومنهم الشاعر محمد المهدي مجذوب رحمه الله نصب بني نقر بفعل محذوف أي اذكروهم
والإشارة الى الشاعر محمد المهدي رحمه الله وديوان شعره الأول نار المجاذيب .

(٤) سني بتشديد الياء مفتوحة أي سنوات عمري أنا والصبا عطف بيان وقال أيضا (سنين الصبا) مضاف ومضاف اليه
والنون ثابتة ، كلاهما قاله رحمه الله .

(٥) الرباب بكسر الراء قبائل من العرب معروفة ونعف الرباب موضع النعف أصله جزء من الجبل .

أصادي النجوم فإما خبت
 طليق الجناحين أغشى الوهاد
 وألقاك في زمر الأولين
 وتختال تحتي ذات البغام
 ونضرب في التيه لا نرعوي
 أو أني ذو صولة فاتك
 ودوني من خثعم فيلق
 فذري والمقرفين الغواة
 عسى الدهر يحسر من كيدهم
 فأوجههم كالخات قباح
 وإنهم مذ أصابوا الحياة
 وأنهم قذر لودنت

غمست لها أعيني في الدجنة
 وأعلو الذرى قنة بعد قنة
 على شارف أو قلوص زفنة^(١)
 لها خطرات وللنسع أنفة
 جموحا ونصحب في الدو جنة^(٢)
 أغير وحولي الطبول المطنة
 يغمغم تحت الظبا والأسنة
 أولى الضغن و الفتكات المجنة^(٣)
 ويفلق هام العبدى الأفتة
 وأبدانهم منتتات مصنفة
 خساس النفوس ومذ هم أجنة
 أكفهم من طعام تسنه

محمد عبدالقادر كرف

العاشر من ذي الحجة ١٣٩١ هـ

السادس والعشرين من يناير ١٩٧٢ م

هذا والعلامات المشروح عليها الهامش من صنع مؤلف هذا الكتاب

وجلي واضح ما في هذه القصيدة من برهان واضح على ما أوتى صاحبها من الفصاحة وقوة الشاعرية وسحر البيان . قوله « وقد وشت الجدر المشرقات » يمدح به لوحات رسم السيدة قريزelda زوج المؤلف ، وقوله « ودوني من خثعم فيلق » يشير به إلى أصول نسبه في شرق السودان بأقطار جبال البحر الأحمر وسواكن وما بين شاطئ البحر الأحمر الغربي والشرقي من شوايك الأرحام والنسب نبه عليه من قبل الرحالة ابن بطوطة في صفة رحلته إذ زار ذلك الإقليم في المائة التاسعة . وصفة الشنفرى التى وصف بها نفسه فيها شبه شديد بما عليه مظهر فتیان البنجة أهل الحروب ، قال :

ويوم من الشعري يذوب لوابه
 نصبت له وجهى ولا كن دونه
 وضاف إذا هبت له الريح طيرت
 بعيد بمس الدهن والفلى عهده

أفاعيمه في رمضائه تتململ
 ولا ستر إلا الأتحمى المرعبل
 لبائد من أعطافه ما ترجل
 له عبس عاف من الغسل محول

(١) الشارف من الأبل كبيرة والقلوص شابة .

(٢) الدو: الصحراء .

(٣) المجنة بضم الميم وفتح الجيم أي الخفية .

هذا وكنت وعدت نفسي أن أجيب الأستاذ كرفا رحمه الله بكلمة على روى كلمته ووزنها . أردت شيئاً شبيهاً بما صنعه أبو العلاء حين وافته قصيدة لأحد معاصريه الشرفاء أهداها إليه مطلعها :

غير مستحسن وداد الغواني بعد سبعين حجة وثبات
فأجاب أبو العلاء بالكلمة السقطية المشهورة :

عللاني فإن بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفاني
عنى ظلام عينيه وظلام الزمان حوله بالفتن والحروب وقال فيها :

قد أجبنا لفظ الشريف بلفظ وأثبنا الحصى من المرجان

أى بدلا من المرجان وفي مكانه . ولعمري لقد كانت أبيات المعري من نفس المرجان لا بدلا منه ، ولم أكن أشك أن نونية كرف رحمه الله عطفتم فلم ألو عنك الأعنة وكم لى من حنة بعد حنة

هى المرجان . وكأن قد خشيت أن تكون الإجابة عنها بمعارضة لها في البحر والروى إنما ذلك حصى . فأخرنى هذا التهييب عن المسارعة بجوابها . ثم إن السنين تعاقبت وتعرضت للنونية المذكورة بلالماع وحسن ثناء في ذكرى صديقين^(١) وتحدثت عنها من مذياع أم درمان وعلمت أن ذلك وقع من الأستاذ كرف رحمه الله موقعا حسنا وكنت أزوره من حين إلى حين فعقدت العزم أن أنظم نونية جوابه حصى أو مرجانا وإذا بالنونية تبادر إليه . ناداني أستاذ العربية الدكتور بأكبر دشين وأنا أجتاز بعض الطريق فقص على النبأ الحزين . لكل أجل كتاب ، وإذا بهذه المراثية تشال على مع الدموع :-

سقت قبرك الديمة المرجحنة	يا كرف الخير والموت سنة
وأسكنك الله دار المقام	ة ترضى بها نفسك المطمئنة
كما لغة للكتاب العزيز	عراها بدرسك وثقتنه
وتصبر حتى عقول التلاميذ	ذ بالفهم تلقى إليها ركنه
وقد كنت في الشعر تعطى الغريب	معانيه واضحا شرحهنة
وتشده عربي السليق	ة والصوت ذو نبرات وغنة
بهيا به وشجيا به	وأشجاناه عن سواه شجنه ^(٢)

(١) نفسه ص ٢١

(٢) أي أحزان الشعر قد حبسته عن كل شيء سواه - شجته عنه (من باب نصر)

وتكتبه مثل خط ابن مقلد
وللنحو عندك إتقان
وتحفظ أي الكتاب الحكيم
وفقه المشايخ أحرزته
ومع عزة النفس فيك القناع
وذاك بلا كلفة منك تأتي
ومن تحذ الكبر سمتا فرب
وكنت امرأ صدره قد حوى الـ
وصنو التجاني دياجـة
وشرفت قـومنا بالـيـا
وخلدتا معهدا سـوحـه
وهبت الفصاحة ثم البديـ
وأغراض شعر الزمان الحديث
أسيت لفقـدك كنت امرأ
وكم من سـجـيـة بر له
وقد ذقت في دارك الطـيـبات
وألفيت فيك الأديب الـليـ
ومن قلبه فيه ضوء البصير
عرفتك في عنفوان الشـبـا
إذ الحرب نيرانها مشـعـرات
وإذ وضعت حرب أهل الصليـ
وأعجبنى منك حب الأصيل
كان العنطنطة العنس بالـد

ة تشرق أسطار نسخ ضمنه
إذا ما البدييات فيه امتحنه
وفيك مع الحفظ تجويدهنه
وتلك المتون تدبرتهن^(٣)
ة إن القناعة كنز وجنة
ه إن التكلف لا أحمدنه^(٤)
عزيز بكبر خطوب أهـه
علوم وحاز من الشعر فته
معا لكما القول مرخي الأعنة
ن الذي ليس فيه عيوب يشنه
بذكر كما خالد ذكرهنه^(٥)
ع أبياته الغر حبرتهن
تناولتها بضروب رصنه^(٦)
صحيح المودة ما فيه ظنة
وكم من عطاء له لم يمنه
وشاهدت من فضلك الجم قنة^(٧)
ب الذي ليس كالضعفاء الأظنة^(٨)
ة ذرهم قلوبهم في أكننة
ب والضاد عندي علق المضنة
وهتـلـر غاراته شـنـه
ب أوزارها المشرعات الأسنة^(٩)
وعبك من منطق العرب دنه
و تحتك بارت زفـوفـا زفنة^(١٠)

(٣) أي متون العلوم كآلفية ابن مالك ومختصر خليل والشاطبية وجوهرة التوحيد والخريدة

(٤) أي لا أحمدنه والنون للتوكيد قال تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أي لا تصيبهم

(٥) هو المعهد العلمي بأم درمان ومنه تخرج الأستاذ كرف وفيه درس الأستاذ التجاني يوسف بشير رحمهما الله تعالى . ولدا

كلهما في سنة ١٩١٢ وتوفي التجاني سنة ١٩٣٧ م .

(٦) أي بأنواع ذات رصانة ولها للسكت .

(٧) قنه أي ذروة وقمة عالية .

(٨) الأظنة جمع الظنين أي المتهم .

(٩) كان ذلك سنة ١٩٤٥ م لما استسلمت ألمانيا بلا قيد ولا شرط .

(١٠) العنطنطة من غريب الحديث أي الناقة الشابة الجيدة الخلق وتوصف المرأة الشابة كذلك ، العنس القوية . والدو

الصغراء . الزفوف الناقة التي تبخر في مشيها وكذلك الزفنة وزفوف من كلمات معلقة الحارث يشكري .

كأنك بالنعف نعف الرباب
 ولم تفد رجلك يوم الكلاب
 نبذت جوار الدنية نبذا
 ونبذ ابن مطعون ابن المغير
 وجنات روض السهيلي ردت
 ورمت الوجادات في الخرد العير
 وشيخ أبي روف الطيب الفير
 أجلك قد كان دأباله
 تذكرت لما دعانا معا
 تهلل منبلجا كالغماما
 وكان جميل المحييا نبلا
 ولحيته كثرة زانت الخ
 وما كان بعد بنى قصره
 وكل المساكن في أم درما

ولم تلف ثم الضعيف الضفنة^(١١)
 بأميك والجرى حاذى حذنة^(١٢)
 كنبذ أبي بكر ابن الدغنة^(١٣)
 ة لا يتغى لسوى الله منة^(١٤)
 وروضات جنات اخرى كهنة^(١٥)
 من أي عين نشوان إذ هن عنه^(١٦)
 لذ والشرد الحوش مما فتنه^(١٧)
 ويقرع غيرك إن زار سنه^(١٨)
 ومجلسه ذاك لا أنسينه
 ت برق الخريف سرى بينهنه
 له لم كيزيد يزنه^(١٩)
 سد والأنف ياشؤم يوم أطنه
 ولكن لله دار طين زونة
 ن كن مداميك طين يطنه^(٢٠)

(١١) الضفنة بوزن فعلة : أي الضعيف الاعمى - هو ضفن بكسر الصاد وفتح الفاء وتشديد النون مفتوحة وهى صمته وهنا للمبالغة .

(١٢) هنا إشارة لقول الحارث بن ولة الجرمى :

ففدى لكما رجل أمي وخـالتي
 غداة الكلاب إذ تمز السداير
 كأننا وقد حالت حذنة دوننا
 نعام تلاء فارس متواتر

وانظر القصيدة (٣٢) من المفضليات البيت الأول والبيت الرابع وخبر القصيدة في الشرح .

(١٣) بتوين راء أبي بكر وهو الصديق رضي الله عنه رد على ابن الدغنة بضم الدال والغين مضمومة مشددة ونون مفتوحة مشددة .

(١٤) هو عثمان بن مطعون رضي الله عنه رد جوار الوليد بن المغيرة وصبر للأذى .

(١٥) الروض الأنف للسهيلي كهنة أي مثلته والهاء للسكت وتاء جنات متونة وهمزة أخرى منقولة .

(١٦) الوجادات العلوم والنفائس منها ، الخرد العين الكتب ولنشوان بن سعيد كتاب اسمه الحور العين أراد الكتب ، عنه من عانه يعينه اذا نظر اليه .

(١٧) هو الشيخ الطيب السراج رحمه الله وأبوروف حي بأم درمان .

(١٨) سنه مفعول ليقرع الرباعي .

(١٩) هو يزيد بن الطثيرة الشاعر .

(٢٠) أي يصنعن طينا من مداميك طين جمع مدامك والكلمة معروفة فصيحة بكسر الميم وفي العامية بضمها . زونة بكسر ففتح فتون مشددة مفتوحة أي قصيرة حسنة .

وفي جانب الحوش كانت له
ويا ربما ارتبط الصافنات
وقد كان يلبس زيا سريا
ومدت ساطا لنا أريحي
وأنشدنا كلمات حسانا
ولحن طويس بما بال هم
وجاذبنا من كلام الأواء
وأمر الخلافة والأمر من بعد
وأنشدته أنا بائية
وعندك نصر لما قلت له
ويا نعم ساعات ذاك اللقاء
ظللنا نساق سلاف القري
لذن غدوة ذاك حتى دنا الـ
وما زالت الناس عند السداج
ولم تكن اللغة المجتباة
وكيد الشعوية المحدثين

من الشعر خيمة بدو وشنة^(٢١)
وسيف له وسان أسنة^(٢٢)
يسر العيون اذا ما شفته^(٢٣)
سته بجفان ملاء مفنة
رسانا بوشي بديع وزنه^(٢٤)
لك أنشده يا طويس تغنه^(٢٥)
ل أخبار إنس وأخبار جنة
د حين العصائب للملك دنة^(٢٦)
فسر وهم ليت بزنة^(٢٧)
شواهد في ابن عقيل مينة
ويا طيبهن ويا حسنهنه
ضم صفا وكاساته ما صبه^(٢٨)
عشاء واذان بر أذنه^(٢٩)
ة عاداتها فيهم لم يخنه
تصدت لها شبهات رطنه
أولاك أولو عتكات مصنة^(٣٠)

(٢١) شنة : قربة بفتح الشين .

(٢٢) كان له فرسان مائتا فرثاها فقال :

من شدة الإكسار والادلاج
سكن السموال شامخ الأبراج

فرسان مائتا للفتى السراج
كان له حصنا حصينا مثلها

(٢٣) شفته أي نظرون بطرف العين والهاء للسكت .

(٢٤) بديع بالتثوين وبالإضافة اذ كان رحمه الله يحب البديع .

(٢٥) إشارة الى خبر الأغاني لطويس حيث تغنى :

يمري سوابق دمعك المشاكب

ما بال همك ليس عنك بعازب

يا طويس لك تنوينها

(٢٦) دنة : أي خضعت - دانت

(٢٧) بزنة باتهام وعيب وذلك أنني أنشدت : لهم شرف عالي الذرا والمناكب فذكر الشيخ الطيب أن المناكب ضخمة لا عالية وقال كرف (رحمهما الله) هذا مثل وزججن الحواجب والعيونا وهو من الشواهد قبل الشيخ ذلك .

(٢٨) لم تصرف عنا .

(٢٩) أذنه أي أذنت اليه أي سمعته

(٣٠) عتكات : أرجاس وسخ ذات صنان .

أولئك هم المقرفون الغواة
وتلك لقاءات فكرر وذكر
عرفتك في فتية كالنجوم
نعاك لي صديق حبيب
رءائي أبادر عرض الطريق
نعــــــــــــــــاه لي فللنبيل المد
لقد كنت أنسوي زيارته أمـ
سبقت إليه . قضاء المهيمـ
وفي عالم الذر كان الكتا
تذكرت إنشاده الشعر حتى
إذا أنشد الشعر ألفيته
لمعرفة عنده بالبيان
أسيت على فقدده إنـــــــــه
ومات وما قدرته بلاد
وكم من نفوس وهن النفيسا

أولو الضغن والفتكات المجنة^(٣١)
سعدت بها في فؤادي خزنه
وكان سناك يضىء الدجنة
درى أن قلبي لك الحب كنه^(٣٢)
مغذا فالع لي أن تأنـــــــــه
ر أحسست أغوار قلبي حزنه
س حنت إليه من النفس حنة
من يمضي ونحن العبيد الأتنة^(٣٣)
ب من قبل أن في البطون الأجنة
له في الشغاف من القلب رنة
تكشف أسرار المستكنة^(٣٤)
إذا ما خفأياه لم يستبينه
لقد كان ربحانة ذات بنة^(٣٥)
كم العقريات فيها دفنه
ت فيها لعمري غبنا غبنه

١١ (٣١) مجنة بضم الميم أي مستورة مخفية للاغتيال وهذا من نصف بيت للفقيه رحمه الله بل أكثر من نصفه وهو قوله :
فـذرني والمقـرفين الغـواة أولي الضغن والفتكات المجنـــــــــــــــــه

(٣٢) كنه وأكنه أي أخفاه وحفظه .

(٣٣) الأتنة أي لهم قدم في العبودية ، وعبد قن أي قديم العبودية ورثه عن آباءه .

(٣٤) تكشف : أي تتكشف بحذف التاء الأولى .

(٣٥) بنة أي رائحة فائحة والكلمة معروفة في عاميتنا واشتقاق لفظ البن الذي يصنع منه القهوة من هذا الأصل لأن رائحته تفوح .

أخي هاك مني هذى الدموع
لمثلك فلتتح الباقيات
وكم لك عندي من عهد ود
ونونية لك طوقتيها
فهذا جوابي ولكن عدت
سقت قبرك الديمة المرجحة

دموعي هذى القوافي المزنة
بأدمعهن غزارا هتته
وكم لك من ذكريات يصنه
لشدتها الجزلة الأسرطنة
سماحك أفضية قد أحنه (٣٦)
وأسكنك الله في الخلد جنة (٣٧)*

(٣٦) أي أحانها الله وقضاها .

(٣٧) المرجحة : الثقيلة المطرة .

* العلامات والشرح من عمل المؤلف .

رحم الله كرفا فقد كان شاعرا فحلا

ولمحمد المهدي مجذوب رحمه الله تعالى (١٩١٨ - ١٩٨٢) قصيدة بعنوان "اللغة حجاب"^(١) نوردها هنا كاملة لأنها تتناول موقفا له بما نال من ثقافة عصرية من درسه الانجليزية والمنهج الحديث في المدارس العصرية إلى كلية غوردون وقد كان والده الأستاذ محمد مجذوب جلال الدين من كبار أساتذة العربية فيها، وبما نشأ عليه من ثقافة دينية عربية عريقة في أهل بيته - قال :

(٢)
فيها بياني من حفظ وإملاء
تذري المدامع في أطلال أسماء^(٣)
لا في الجزيرة أو في تيه سيناء
إطلاق نفسي من أمسي وإبرائي
من صوت غيري لا يدري بأنبائي^(٤)
ولا تبال بأفعال وأسماء
كما تبسم وجه البدر في الماء
مقلدون بلا وحي وإصغاء
أوزانه الآن مثلي غير أكفاء^(٥)
وعن قواف تحاكي عى فأفاء
وكيف أعقد آفاقا بإرشاء
لا أستقر على أحضان ظلماء

سئمت من لغة الإعراب قيدي
لم يشفها الزيت غرافا وما برحت
أرح قوافلها الحسرى بمنزلة
جرحي ينوح وراء الروح منتظرا
أشتاق صوتي لا ما كنت أخذه
اجهر بنفسك وانفض ما شعرت به
واسمع بسمك صوتا تستريح له
هل يمسك الشعر ميزان يكيل به
مضى ابن أحمد محمودا ومن ورثوا
سمى البحور تعالي البحر عن صفة
حاتم أذهل في آثار شاردة
إني وثبت مع العميان أحسبني

(١) ديوانه «تلك الأشياء»، بيروت، ١٩٨١ ص ٢٨٢.

(٢) الإعراب بكسر الهمزة وفي الديوان الهمزة فوق الألف وهو خطأ مطبعي.

(٣) غرافا بالعين المعجمة ولو كانت بالمهملة لكان المعنى أيضا مستقيا كقول عروة بن حزام.

جعلت لعراف اليامة حكمه وعراف نجد ان هما شقيان

ولو كان الشاعر رحمه الله أراد المهمل لكان قد جعل القافية عفرأ مكان أسماء لأنها صاحبة عروة.

(٤) أشتاق لازم ومتعد، اشتقت الشيء وللى الشيء.

(٥) أكفاء أي نظراء أهل لأن يكونوا أزواجا للأرزان وإيقاعها وكفاء مثلثة الكاف وبضمها وكأمر وسفينة وكساء، ذكر

ذلك في هامش القاموس وقريب منه في تفسير سورة الانخلاص عند الطبري.

ناد العبيد عبيد الشعر هل حصدوا
يلقى الربيع روايات وعننة
هومير ينشد مسحورا ملاحه
من مغرب الشمس جاء الصبح منطلقا
يحيا به الناس أفراحا سواسية
يعبرون كما شاؤوا وما عرفوا
أتعرف الشرق كان الشرق في بلد
خان الحضارة في صفين من بخلوا
أم أنت تسخر مني ليس في وتري
هون عليك جزاك الله صالحة
أزريت بالشعر والفصحى مقدسة
أما سمعت بعبدان العصا طربوا
أصابر اللوم أحيانا وأغفره
هاتوا ابن أحمد ترضيني حكومته
يطوى الموازين في بغداد متجععا
تنسيه صيحته في البئر قيدها

إلا ندامة مداح وهجاء^(١)
عمياء تسأل في آثار عنقاء^(٢)
وينشدون مديح الإبل والشاء
يمسى مضيئا وما يسعى لإمساء
كأسا بكأس وإغراء بإغراء
متنا يعالج أدواء بأدواء
قد استراح إلى يأس وإرجاء
على ابن فاطمة الزهراء بالماء
إلا قوافل أوزان وضوضاء
إن بت أتبع إقصاء بإيطاء
فاحمل على وما يعدوك إزراني^(٣)
لما أخل عبيد الشيخ بالبلاء
ولا أنام على هون وإغضاء
إذا تملأ من نقلي وصهبيائي^(٤)
باريس عالم إيقاع وأزياء
في دفتر ندب الأطلال بكاء

(١) عبيد الشعر زهير والناطقة والحطيئة ومن تبع طريقهم وله أيضا دلالة عامة .

(٢) العنقاء طائر خرافي ، ويشير الشاعر هنا إلى سؤال الشعراء الأطلال ، يسألونها عن أمر مبهم مستحيل كالعنقاء .

(٣) لك أن تجعل والفصحى مقدمة جملة معترضة أو تعطف وتجعل مقدمة حالا منصوبة وأزريت الضمير تاء الفاعل ، أي احمل على أيها المعتقد أنني أسأت إلى الفصحى وتكون قد أنتقمتم لها ولم يقع الإزراء عليها ولكن عليك .

(٤) ابن أحمد عنى به الخليل (١٦٠هـ) .

بيكاس جرد أشكالا حقيقته
 يرزو ويخرج في عينيه من أبد
 كم شق نفسا كساها لحم لذته
 إن كانت اللغة الفصحى فهل سمعت
 ضحكت منطلق الأنفاس مبهيجا
 سكرت حبا على صحو يلازمي
 أصارع الشعر كي تبدو حقيقته
 قيد بنفسه لا أنفك أضربه
 نشأت في اللغة الفصحى مقدسة
 أتعرف العرب الأجداد في بلد
 لم يخفها بين أطلال وأضواء (١)
 كالموميات بألوان وأصداء
 بها يعود إلى بسوح وإفضاء
 سحر الطبيعة من صمت وإيماء
 مع الحياة أحببني وأهوائي
 في ظلمة الخمر حب غير نساء
 فيها حقيقة ميلادي وإنشائي
 حتى أسالم في جنبى أعدائي
 حتى اكتهلت وما فارقت صحرائي
 فيه تحطم معراجي وإسرائي

نسج هذه القصيدة متين محكم ، وقال شاعرها يخاطب نفسه بثورة العصر على قيود اللغة وإعراها " ولا تبال بأفعال وأساء " وقد بالى هو بذلك فقله «أشتاق صوتي» أدق تعبيرا مما لو قال «أشتاق إلى صوتي» وكلا الوجهين صحيح والتمييز بين الصحيحين أدخل في ملكة البيان . ولله المثل الأعلى ، جاء بالفعلين مضارعا وماضيا في سورة الكهف (استطاع واستطاع) قال تعالى : «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا» وهذا يتضمن معنى إشارة الخضر عليه السلام إلى ما كان من عجلة موسى عليه السلام - لم تسطع تتضمن معنى العجلة عن تراث للصبر حتى يتبين ما هناك . وقال تعالى : «فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا» فالظهور ومحاوله الصعود ، في ذلك تعجل يتضمنه معنى التعبير بـ (استطاعوا) والنقب وما فيه من أداة وعمل فيه بطاء يتضمنه معنى التعبير بـ (استطاعوا) - والله تعالى أعلم نعوذ به أن نقول في كتابه بها لا نعلم .

وقال شاعرنا «وعن قواف تحاكي عى فأفاء» يعتذر عن التزامه القافية وكأن تكرار الروى يرتابته فيها فأفاءة من غير فصيح اللسان . وهذا النعت صحيح حين تكون القافية مغتصبة متكلفة وإيقاع الشعر غير رنان . وهنا تواضع تواضع به كالمعتذر للخليل أن نظامه المحكم نعجز عنه الآن ونضعف عنه . سمى الوزن بحرا لأنه عنده ذو سعة ممتدة النغم ، ونحن إنها ندركه الآن بتضييق مجاله في حدود وصفنا له بالأوتاد

(١) أي بيكاسو الفنان المعروف .

والأسباب والفواصل والأعاريض والضروب . ونحن الذين ورثنا أوزانه غير أكفاء لهم ، ومن شواهد انعدام الكفاءة^(١) بيننا وبينها أننا نتصيد القوافي ، نذهل عن المعنى وعن أنفسنا في طلب قافية شاردة شرود — شاردة إذ كلما طلبناها أمعنت في الفرار ، شرود أي جيدة ، إذ كذلك نريدها ، فلا نظفر بها إلا ضعيفة ، ذلك بأن إيقاع بحر الشعر واسع كالبحر وآفاقه ونحن نمد بحبال تصيدنا نريد أن نعقد الأفق البعيد بقافية . الكلمة التي في آخر البيت «نعقد آفاقا بإرشاء» كلمة إرشاء ، مصدر بكسر أولها الرباعي أرشى الدلو يرشها أي جعل لها رشاء بكسر الراء وهو حبل البئر والجمع أرشية وفي طبع الديوان خطأ ، إذ الهمزة تحت الألف دالة على الكسرة وقد طبعت فوق الألف في الديوان .

وزعم شاعرنا لنفسه أنه يتبع " إقواء بإيطاء " وقد مر تعريف الإقواء والإيطاء في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وليس في هذه القصيدة إيطاء أو إقواء . قوله " في أطلال أسماء " وبعده بثلاثة أبيات «بأفعال وأسماء» ليس بإيطاء لاختلاف الكلمتين معنى وللفظا ، الأولى علم مؤنث أصله " وساء " أي جميلة قلبت واوه ألفا والثانية جمع «اسم» وليس في القصيدة إقواء . قوله :
إلا قوافل أوزان وضوضاء

ان عطفت ضوضاء على قوافل رفعتها فكان هذا إقواء ولكن ضوضاء معطوفة على أوزان ، وتوهم الشاعر الإقواء لأن ههنا إشارة إلى الحارث بن حلزة حيث قال :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تص — هال خيل خلال ذاك رغاء

وفي القصيدة بيت الإقواء المشهور الذي آخره «ملك المنذر بن ماء السماء» والروى كله مرفوع .

قول محمد المهدي رحمه الله : " أما سمعت بعبدان العصا البيت " — منع " عيد " من الصرف جائز ويجوز أن يكون الشاعر قد نون اسم عيد [هو عبيد بن الأبرص]

(١) أي الشبه والمناظرة والمكافأة التي تكون في الزواج مثلا .

وأدغم التنوين في الشين المشددة تبعا لقراءة أبي عمرو في «أهلك عادا الأولى» [عاد أولا]^(١) وبها قرأ المهدي رحمه الله في صباه .

المهدي في هذه القصيدة صاحب ثورة ومحافضة معا ، وقد اجتهد في معاني الثورة ولكنه كأنه غير مقتنع بصحتها كما هو مقتنع بالقيد والمحافضة . من أجل هذا في أداء الأجزاء الشائرة من القصيدة نوع من عناء فكري وغموض مع جهارة المنحى الخطابي ووضوحه . الشاعر مقدم جرىء على التعبير الثوري ، ولكنه في نفس الوقت فزع الروح من هذه الجراءة نفسها غير مقتنع حقا بها - خذ مثلا قوله :-

ناد العبيد عبيد الشعر هل حصدوا	إلا ندامة مداح وهجاء
يلقى الربيع روايات وعننة	عمياء تسأل في آثار عنقاء
هومير ينشد مسحورا ملاحه	وينشدون مديح الإبل والشاء

هنا شيء من روح «عاج الشقى على رسم يسائله» وقد بينا أن هذا من مذهب الشعراء فديم ضجر قريب الأمد .

من مغرب الشمس جاء الصبح منطلقا	يمسي مضيفا وما يسعى لإمساء
يحيا به الناس أفراحا سواسية	كأسا بكأس وإغراء بإغراء

هل هنا إعجاب مفرط بأساليب الأدب وبالمدينة الحديثة والحضارة الغربية؟ نعم ولكنه إعجاب مشوب بخوف فقراء "الدامر" وعلماء الإسلام المغروس في النفوس منذ النشأة الأولى .

قال الفكى ود دوليب من علماء السودان في القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) (٢)

واختلفوا في رابع القرون هل ناقص أو كامل التكوين
أي هل تقوم الساعة في أوله وقبل أن يكتمل

(١) عاد الأولى قوم هود عليه السلام والأخرة قوم صالح عليه السلام ذكره في الجلالين وهذا مرتب على أنهم خلفوا عادا كما في سورة الأعراف . والله تعالى أعلم .

(٢) قصيدة "ود دوليب" مشهورة ، والذي قرأناه منها على أنه هو هي في الصغر لم يبلغ عشرين بيتا ، ثم قد وجدنا منها ما تجاوز المائة - وذاخلته تنبؤات سياسية ، فهل ذلك من الأصل أو زيد فيه؟ بعضه زيد بلا ريب إذ ليست فيه روح أسلوب الشيخ وسمته رحمه الله تعالى .

ثم خروج الدابة الغربية من الصفا بهيئة عجيبة وهي المذكورة في سورة النمل «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم»

ثم طلوع الشمس من مغربها صاعدة قاصدة مشرقها

وقالوا في تفسير قوله تعالى: «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك» [في آخر سورة الأنعام] - قيل طلوع الشمس من مغربها وحين ذلك لا تقبل التوبة ممن لم يكن تاب من قبل.

كانت قصيدة "ود دوليب" يعرفها فقراء الدامر وغيرهم ويحفظها من يعقل من الصغار وتكتب في الألواح أحياناً. وفي وصف علامات الساعة أن القرآن يرفع من السطور ومن الصدور وأن الناس يعيشون كالأنعام يأكلون ويشربون ويتسافدون. أم ليس في قول الشاعر:-

يحيا به الناس أفراحا سواسية كأسا بكأس وإغراء بإغراء

بعض الإشارة إلى هذا المعنى. هذه القبلات العلانية في السينما. هذه المادية التي لا تهاب

يعبرون كما شأؤوا وما عرفوا متنا يعالج أدواء بأدواء

داء الأنانية والمادية بخوف المجهول،

ثم خروج الدابة الغربية من الصفا بهيئة عجيبة

هذا أحد المتون مما كان وما زالت تتداوى به البقية الباقية من تراث الفقراء.

هاهنا عند شاعرنا مع الإعجاب (يعبرون كما شأؤوا خوف الساعة وعلاماتها - تأمل قوله (وما يسعى لإمساء) لكفر هذا الغرب لا ينتظر ظلام «إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت» وتأمل قوله «وإغراء بإغراء». هل الدابة الغربية هي هذا الناس بعد أن تمسخهم المادية قردة وخنازير ثم يقع بهم الخسف، خسف بالشرق وخسف بالمغرب؟ حتى الغربيون أنفسهم منهم من فزع من مادية حضارة عصره وسماها الدابة

The Animal

والذي يدلنا على فزع شاعرنا من جرائته وثورته التي كأنها شعوبية يسارية الظاهر التجاؤه إلى تراث العقيدة السنية القديم العميق:

أتعرف الشرق كان الشرق في بلد قد استراح إلى يأس وإرجاء

الشرق الأولى هي العبارة المعاصرة التي يراد بها دار الإسلام كما مر في شعر أحمد محرم والشرق الثانية بمعنى الشروق والضوء . جاء الصبح الآن من الغرب ولكنه من قبل كان هاهنا ونحن صرفناه عن دارنا يوم استرحنا إلى اليأس وفرضنا التحكيم على على وهو له كاره ، ثم داهنا وأدهنا من بعده وصرنا مرجئين وأطلق العنان للدهاة وللملوك وللجبارين .

خان الحضارة في صفين إلخ
أى صلة بين هذا وبين قضايا اللغة والشعر الحديث والثورة الجريئة اللسان - نعم الشك
والفزع وجذور الإيمان التي في الجنان

أم أنت تسخر مني إلخ

الشاعر يخاطب محافظه ثائره، الذى نسى العصر ودابته وثار مع عمار بن ياسر ومع الحسين بن على رضى الله عنهم - نعم "أنا" المحافظ أسخر منى أنا الشاعر، والثائر المعترف فى محافظته يسخر من ذلك أيضا - وترى ما هو إلا تكرار للغناء القديم، قوافل الأوزان الخليلية التى تقف على الأطلال وتسائلها

هل غادر الشعراء من متمد
وعبدان العصا هم هذه الشراذم التي تطرب لتهديم الأوزان واضطرابها، هؤلاء هم
عييد العصا. " عييد الشيخ " رمز به الشاعر لنفسه حين حاول التحرر من الوزن،
مضطربا به عن عمد، كاضطراب عييد بن الأبرص في:

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مُلْحَبٌ

هذا وفي الثلث الأخير من القصيدة يعرض الشاعر لثلاثة أغراض ، أحدها بقية ثورة وتهيب ولا يخلو من غموض وهو قوله :

هاتوا ابن أحمد ترضيني حكومته
يطوى الموازين في بغداد متجععا
تسنيه صيحه في البئر قيدها

إذا تملأ من نقلى وصهبــــــــــــاني
باريس عالم إيقاع وأزياء
في دفتر ندب الأطلال بكاء

وفي هذا نفس من مقاربة الشعوبية والثورة على قديم التراث باسم العصر الحديث .
وفي قوله " حكومته " صدى من صفين وتحكيمها وفي خطب على وردت «الحكومة»
بمعنى التحكيم وأراد شاعرنا : «يرضيني حكمه» ولكن بشرط أن يمتلأ من فتنه العصر

الحديث ويطوى موازين عصر بغداد - إذ كان الخليل بالبصرة وكانت بغداد قسبة الدنيا آنشد - منتجعا بباريس بما فيها من فن وموسيقا وأوبرا وترف مادي وأدبي . إذن لأنسته فتنتها عمل العروض واستعانت به سماع صدى صيحته في البئر وتقييده ذلك في الأعاريض

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
ماذا وقوفى على رسم عفا مخلص لوق دارس مستعجم
وهلم جرا

الغرض الثانى الاستدلال بثورة بيكاسو الفنان وتجديده ، وزعم شاعرنا أنه كان ينظر ثم لا يجعل فنه بعد ذلك مستعبدا لقوانين الظلال والرؤية والضوء ، بل مجرد انفعاله إزاء ما يرى فى هيئة أشكال ، يحنط فيها أشباح لذته كما تحنط الموميات فهو بدلا من أن يرسم الجميلة بظلال وأضواء تبين ظاهرها ملاحظها ، يشق هذا المنظر الجميل بمبضع تشرىحى ، فلا يبقى إلا الهيكل العظمى ، فيكسو هذا الهيكل لحما موميائيا معبرا عما أصاب هو من لذة . عمل وتعب تأوله الشاعر الرسام أنه هو مذهب بيكاسو . ولعل أمر ما صنعه بيكاسو لم يكن أكثر من محاولة يائسة للتجديد ، إذ مع ما كان له من مهارة ، قد سبقه الفنانون الأولون واللاحقون بهم من بعدهم ، وكان يعلم فى نفسه تقصير ما يستطيعه من إبداع ، أقصى ما كان يستطيعه من إبداع ، عن مدي غوية (١٧٤٦ - ١٨٢٨ م) والغريكو من فنانى قطره ، بله من سبقوه فى عصر قريب من التأثيرين ومن إليهم ومن تقدمهم وهلم جرا .

ثم يقول المهدي رحمه الله :

إن كانت اللغة الفصحى فهل سمعت سحر الطبيعة من صمت وإيماء
هل ههنا يوازن الفنان المهدي بين مقدرة صاحب الريشة المصورة وصاحب القلم
الممين ، هل هو ثائر على أن ضحى الأول من نفسه هو من أجل الإخلاد إلى الثانى -
التصوير حرام ، والبيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة ، إلا أن يكون شىء غير
ذى حيوية أو بمنزلة اللعب للأطفال كالخيل المجنحة التى ذكر بعض رواة الحديث أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم رآها عند عائشة رضى الله عنها مرجعه من تبوك
فقال إنها خيل الملائكة ؟

والغرض الثالث وهو ختام القصيدة وزبدة معناها ، اعتراف صريح بتمرد على ما أحاط به من بيئة محافظة من نفسه ونشأته ولغته وثقافة آبائه الفقراء فقراء الدامر المجاذيب ومجدهم وأورادهم واحتفالهم بالمولد :

صلينا مشتاقين لسيّد الكونين
صلينا مشتاقين لقرة العينين
وبرجية المعراج :

ردف السـلام للنبي الإـمام
صاحب المقـام يوم الازدحام
وجهه كـالسراج نـوره وهـجـاج
ليلـة المعـراج كبروا لـه التـعـاج
ومن أخريات نماذجهم وكبرياتها والده الأستاذ العلامة الحافظ الشاعر المثقف أستاذ العربية بكلية غوردون وقد تخرج منها من قبل في أول دفعة كما تخرج ابنه هذا الشاعر من بعد ، بارعا في معارفها وفي اللغة الانجليزية وآدابها وأفنديا مبطلا من صميم الجيل المتحرر الواعد الحديث .

ومع التمرد انتماء عميق وقيد بالانتماء عتيق :

ضحكت منطلق الأنفاس مبتهجا مع الحياة أحبتني وأهـوائـي
سكرت حبا على صحو يلازمي في ظلمة الخمر حبا غير نساء
في التعبير هنا عناء حبيبي المعدن . سكر الشاعر بحب العصر وفتنته ومع هذا السكر صحو ملازم هو الشعور بالانتماء والقديم - ولأمر ما حين شبه الشاعر افتنانه بحب التحرر الحديث بسكر الخمر ولذتها ، جعل الخمر والسكر ظلمة - ولا يخفى أن الصحو الذي هو نور هو هذه المحافظة وهذا الانتماء .

أصارع الشعر كي تبدو حقيقته فيها حقيقة ميلادي وإنشائي

الرسم ذوبان في فتنة العصر الحديث . الشعر يتيح لي عرض الصراع الذي في نفسي بين الثورة والمحافظة . عدوى هذه الثورة وهى أنا . لا بد من القيد لترويضها وتذليلها . أنا ابن اللغة الفصحى وقيدوها . لعنة على هذه الحركات العربية الثورية التى تمزق عنى ثوب مجدى القديم . مجد فقرائى علماء السيرة أهل الأوراد والأذكار والإسراء والمعراج

قيـد بنفسى لا أنفك أضربـه حتى أسالم فى جنبى أعدائى
نشأت فى اللغة الفصحى مقدسة حتى اكتهلت وما فارقت صحرائى
مقدسة ، لبدئها بحفظ القرآن وحرصها على قيم بلاغته . وما فارقت صحرائى أى
بلدى الدامر التى وصفها بوركهاردت وبروس وأعجبوا بها فيها من سخاء وعلم وفضل
وشيم نبيلات

أتعرف العرب الأجداد فى بلد به تحطم معراجى وإسرائى
الأجداد صفة للعرب أى هل تحس من عربى ماجد فى هذه العاصمة الكافرة ، فى هذا
العصر الحديث ؟

القصيدة رصينة ولكن انفعال عاطفة الشاعر فيها غير شاف لما خالطه من شك وتهيب
وجسارة بخالطها غموض . بهذا هذه القصيدة من أجود أنواع التعبير عن مشكلة
العارف بهذه اللغة المتذوق لروائعها إزاء ما يحيط به من فتنه محاربتها والتكر لأساليبها -
هذا الذى قارب شاعرنا المهدي التصريح به فى قوله :

(أتعرف العرب الأجداد إلخ) قد صرح به تصريحاً فيه حمية أهله الجعلين حيث قال فى
قصيدة عنوانها «يوم الماهية» : (١)

وقفت إلى الصراف والدين واقف بكشف كجبل البئر أهوى إلى الورد

(كان الناس إلى عهد قريب لا يعرفون الماء عندنا إلا من الآبار)

سلام على الصراف أضحى أصابعا تراقص بين الخضر والحمرة والربرد
كان المهدي محاسبا فنظره إلى الصراف عن مراقبة عارفة والخضر أوراق الجنية والحمرة
والربرد ما دونها إلى قطع البرونز

أوقع فى كشف المواهى فليتهم وقد نقدوا صانوا حيائى من النقد

أى وقد أعطونى النقد ، والنقد الثانية أى الطعن والوخز والعيب لأن فى فرض التوقيع
نوعا من إذلال

أقلب أوراقا وصفرا وفضة أعد فلوسى كم خسرنا على العد
صكوك بلوناها طويلا وضيعت هداى وسانى أولو الرشد بالمهدى
أكل غنى بات فى الناس أمرا يجوز له أكل الجهود بلا جهد
ورب جنيته بات عندى أصره يطير إلى البنيان طاروا إلى الهند
البنيان طائفة من الهندوس كان منهم بالسودان تجار كثيرون وما زالت منهم بقية ويظهر
أن صلتهم بهذه البلاد ضاربة فى القدم .

(١) تلك الأشياء من ١٦٨ - ١٧١ .

أجور ألفناها وورد مكدّر وحمد لرب الناس أشبه بالجد
فليت بعث المش في الحى كاسباً وأعليت من أطباقه شرف المجد
لأن الطبق له حافة ناتئة تظلل رأس من يحمله وتبدو كأنها شرفة بالنسبة إلى جسم حاملها - فليتني بتخفيف كسرة نون الوقاية بلا إتباع لها بياء المتكلم
عجبت لنفسى كيف أصبحت جالسا إلى مكتب أبلى حياتى بالجد
وصاحوا أتى الصراف أهلاً بطائف يزور على طول الترقب والوعد
وأمسى أبو حيان عندى مقلبا كتاباً وأقلاماً حرثن بلا حصد
وقد أحرق أبو حيان كتبه واعتذر عن ذلك فى رسالة له حزينة

تجرت إلا من خلال كريمة خشيت عليها الصبر فقدا على فقد
يعلمنى الإيثار قومى ثراؤهم من الدين والأحساب والكرم العد
أى الغزير الكثير كعد الماء الذى لا ينقطع مدد عينه
ومرت ضحى سياره ذات غيرة وزهو على الدنيا مصعرة الخد

أى صاحبها يصعر خده زهوا وغرورا
من الحلب الأشرار فيها مغامر رآنى فحيانى حريصا على ردى
وأعرض عنه حاقرا منه نفخة ألم يدر أن الزيف محتقر عندى
الحلب أصل معناها الأخلاط من الناس لا أصل لهم وتطلق فى العامية على الغجر
ومن هم كالغجر من نابتة العصر الطارئى على البلاد .
هذه الأبيات من قصيدة طويلة أثر الشاعر فيها كما قدمنا البيان الصارح مع حرارة
نفس وانفعالة ثورة أصالة ليس معها شك أو تردد - ومع ذلك تصوير بليغ وأنفاس
سخرية وفكاهة .

وشعر المهديّ الجيد كثير لا تتسع له صفحات هذا المجال المحدود ودونك نموذجا
أخيرا هذه الأبيات من قصيدة له بعنوان " غارة طليانية " يصف بعض تجاربه إذ تطوع
فى الجندية الإضافية بالعاصمة سنة ١٩٤١م إلى حين :

يقول البريطانى دافع ولا أرى دفاعا ومالى فى بلادى موطن
وراطته حينا وأصغيت معجبا لصوتى كأنى كافر متمدن
يقول تطوع قلت لا ثم ردى أخ ضيق العينين كالتيس أرعن
يخوفنى مكر الخواجة حاقدا على وسجنى إن تمردت ممكن

ولى إن تعلمت السلاح وسيلة بها يشتفى حقد أعانيه مزمّن
وأصبحت جندياً فجاءت مغيرة وزامرة صاحت فقر المؤذن^(١)
الزامرة صفارة الإنذار - وأغارت طائرة طليانية

أمد جبّالا من شواظ متينة وأمسك أقطار السماء وأطعن
هذا وصف جيد وكان المهدي رحمه الله يطلق النار من مدفعه الرشاش بالخرطوم
البحرية حين أغارت الطائرات الطليانية ذات عشاء
عجبت لهذا الإنجليزى لأبدا بخندقه والطير فوقى تدندن
لبد يلبد من بابى نصر وفرح

وألقت رعوداً قاصفات ولذنى من الخوف موت فيه من خاف يأمن
لذ من باب فرح لذنى الشئ ولذذته ، وجهان

ومالى إلا موطن ليس حكمه إلى ولكنى أسير مسجّن
ومن فوق رأسى خوذة مستديرة وكمامة بلعومها ليس يؤمن
الخوذة بضم الخاء لا فتحها كما ضبط خطأ في الديوان . وكانت الكمامة للوقاية من
الغاز السام ولم يستعمل في معارك الحرب الثانية ، وقوله " ليس يؤمن " لأن الكمامات
التي صرفت للمطوعة كانت قديمة يخشى ألا تقى مما جعلت وقاية منه

وأطلق نيراناً تعاوى وترتقى لها شعل بالليل تهذى وترطن
هى الحرب جاءتنا ونصلى أوارها وما بلدى روما ولا هى لندن
والطائرات المغيرة بأمر روما والمدافع ترميها بأمر لندن وضلع الشاعر مع الألمان غيظاً
على الاستعمار البريطاني ، وكذلك كان كثير من العرب
سلام على الألمان ذقنا هزيمة معا وأتى روميل فالثار ممكن

وصف الشاعر لحبال الذخيرة حى دقيق .

وتعجب الشاعر من نفسه كيف تطوع ليدافع كما قيل وزعم عن الوطن والوطن ما زال
تحت المستعمر ، وذلك قصر السردار ، الحاكم العام البريطانى يشرف على النيل ببياضه
من شاطئ الخرطوم المقابل ، إذ كان هو عند مدفعه بالخرطوم البحرية على الشاطئ
الشمالى من النيل الأزرق ، ألا يوجه مدفعه إليه فيدكه دكا - نسى الشاعر رحمه الله أنه

(١) ديوان الشرافة والهجرة للشاعر السوداني محمد المهدي المجذوب ببيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ ص ١٨ .

مدفع رشاش لن يصنع في الجدران الضخمة كبير شيء ولكن عسى أن تصيب طلقة منه السردار نفسه . وفي الصباح جاء الضابط المسئول وهو برتبة ميجر ^(١) فطلب عهدة الذخيرة وعدها كما يتطلب ذلك نظام الفرنجة الدقيق ، فغضب الشاعر على الصاغ البريطاني غضبه مضرية - قال وهو قصص جيد ذو حيوية وروح فكاهة ساخرة مع النمط العربي الرصين .

عجبت لنفسي في قيودي محاربا على النيل والسردار في القصر يكمن
ويا مدفعي الصخاب لو درت دورة عليه شفاني قصره وهو مثخن
ألم نحتمل غوردون رأسا بحربة لها صيحة بالنصر والفخر تعلن
ويا كسلا صبرا ولا بأس إنها حروب وإنى بالمقادير مؤمن
وقعت كسلا في قبضة الطليان ، فقله " ولا فرق " أى كله استعمار ،

ولا بأس أن نشقى بحرب لعلها تدك بلاد الانجليز وتدفن
وصبحنى في أول الصباح ميجر يعد رصاصى وهو للعد محسن
هذه شهادة المحاسب والشاعر المراقب

فصحت به حاربت عنك فهل ترى أبيع رصاصى وهو صنف مدون
وهذه غضبه وطنى وحجة مدنى إدارى ، وما حارب هو عن البريطاني حقا ولكن عن وطنه

فقام ولم يغضب وسلمت عهدتى إليه وحيانى الكدوس المدخن
كان رئيس المصلحة التي كان يعمل فيها المهدي الميجر «فلى» فيجوز أنه كان الميجر الذي عد الرصاصات المائة وخمسين رصاصة كما بين الشاعر من بعد ، ويجوز أنه يكون قد جاء «ميجر» حربي وعدها بحضرة الميجر «فلى» ولكن السياق يدل على أن الذي تولى ذلك هو «فلى» وكان إداريا حازما ووصفه الشاعر هنا ببرود وتعال ومظهر تهذيب - حياه ، ولكن بنزع غليونه من فمه حينما يسيرا

ليسقط «فلى» وليعمل في الحرب هتلر فقوموا بني السودان فادعوا وأمنوا
كما كان يدعو فقراء الدامر ويؤمنون كلما حزبهم أمر يخشونه ، يقرأون يسّ أربعين ومائة وألفا - آمين آمين آمين كل منهم يؤمن بعدد ما قرأ ثم إذا اكتمل العدد أذن «الفكى» الكبير آمين

(١) أى صاغ أورائد كما يقال الآن .

ومن يـرد شرا لنا يـقود فكـيـده في نحـره يـعـود
ومن يـرد شرا لنا يـجر فسـقـفه من فـوقـه يـخر
حيـاه فـلـي بالغـليـون المدخـن وأعـفاه من التـطـوع ، أنف أن يـكون دفاـعا عنه هو ، وأعـطاه
مكافأة وبرر تصـرف إعـفائه له بـتقـرير إـداري
وأبعـدني من خـدـمة الجـيش صـارفا مكافأه عن خـدمـتي لـيس تـسـمـن
جـنـيه ونـصف كل قـرش بـطـلقـة ومـالحـياتي عـنـده من يـثـمـن
لا يـخـفى ما مـهـنا من مـراة

وسجل في التقرير أني مشاغب وأسعدني أني طليق ملجن

التلجـين هو أن تجتمع لـجـنة وتصدر تـقـريرا بالـاسـتـغـناء عـن كـذا وكـذا واكثر ما كان يـطـلـق
التـلـجـين عـلى الأـشـياء والمـعـدات الـتي يـسـتـغـنى عـنها ، فالـمـلـجـن كـأنه غـير صـالـح لـيـسـتـفاد
منه .

وهذا وقد طال هذا الكتاب ولا أريد أن أخرج به عن جادة ما وضع له من تتبع قضايا
الوزن والجرس والبيان وأشكال تقصيد القصيدة وأطوارها وما طرأ عليها من معاني
العصر الحديث وهزاته وتحدياته وهي عبارة لا تعجبني ، أعدها من هذا الجند الغريب
الذي طرأ على لغتنا وأساليبنا . لا أريد أن أخرج إلى باب من التراجم والاختيار فذلك
يصير بنا إلى بحر لا ساحل له . والمحسنون ممن لا يزال يؤثر مذهب الجزالة قد جعلوا
بحمد الله يكثر في بلدنا وفي سائر البلاد العربية ، كما أن بدعة الشعر الذي يقال له
حر قد جعلت كبرى غمراتها توشك أن تنحسر والله المستعان وبه التوفيق .

وقد كان الشيخ مصطفى السقا رحمه الله أشار على حين تولت شركة مصطفى البابي
الحلبي طبع الجزئين الأول والثاني ونشرهما سنة ١٩٥٥م ١٩٥٦م ذكر لي أنه يستحسن أن
أكتب عن الموشحات ، وحسن ما أشار به رحمه الله وجزاه خيرا عن كل ما أسدى إلى
من خير ولكن الموشحات باب قائم بنفسه ، تدخل فيه مع عامة الأندلس أساليب
المورسكين وما يصل ذلك بما تطور منه في بروفنس وأقاليم فرنسة وأوربا في العصور
التي يقال لها الوسطى ، فهذا يطلب تخصصا وانصرافا جديدا إلى بابيه من البحث ،
ولعل غيري أن يكون أجدى كفاية وأدري دراية بذلك مني في هذا المضمار ، وكل ميسر
لما خلق له وليس من الحكمة أن يقدم المرء على ما عسى ألا يكون له محسنا - إن الله
يحب المتقن عمله .

وفي النفس شيء من باب من أبواب الشعر الحديث لايسمح الطول الذي طاله هذا
الكتاب والجهد الذي كلّفنيه من الإقبال على شيء منه الآن - وذلك هو الجانب

المسرحى فإن نساء الله في العمر سبحانه عز وجل ، وأعان بمدد منه من صبر وصحة
وعمل وتوفيق فأمل أن أفرد لذلك بحثا . رحم الله أحمد شوقي فهو أول من جود
المسرحية العربية وروض الأوزان والديباجة الناصعة عليها . ونظرت عرضا في أوائل
مسرحية مجنون ليلي :

وأنت إذا ما ذكرنا الحسين تصاممت
«بشر هامسا ومتلفتا كأنها يخشى أن يسمعه أحد»

لا جاهلا موضعه
ولكن أخاف امراً أن يرى
على التشيع أو يسمعه
حبست لساني عن مدحه
حذار أمية أن تقطعه
إذا الفتنة اضطرمت في البلاد
ورمت النجاة فكن إمعة
«ليلي»

ابن ذريح نحن في عزلة
فهل على مستفهم منك بباس
دار النبي كيف خلفتها
كيف تركت الأمر فيها يساس
«ابن ذريح»

تركتها ياليل مضبوطة
يحكمها وال شديد المراس
إن حديث الناس في يشرب
حمس وخطو الناس فيها احتراس
«ليلي»

ابن ذريح لا تجر واقتصد
أحلام مروان جبال رواس
يؤسسون الملك في بيتهم
والعنف والشدة عند الأساس
«تضاحك الفتيات وتقول إحداهن للأخرى»
«فتاة»

ليلي على ديسن قيس
فحيث ممال تميل
وكل ماسر قيس
فعند ليلي جميل
«ابن ذريح»

ما الذي اضحك مني الظ
بيات العامرية
ألأنى أنسا شيعي
لى ولى أموية
اختلاف الرأي لا يفسد
سدد للود قضية

«الخ إلخ . ١٠ هـ

أحسن أبو العباس محمد بن يزيد المبرد إذ يقول في الكامل في معرض تقديمه أبياتا دالية لابن مناذر رثى بها عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي قال : « فله في شعره شدة كلام العرب بروايته وأدبه وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته ، ولا يزال قد رمى في شعره بالمثل السائر والمعنى اللطيف واللفظ الفخم الجليل والقول المتسق النبل وقصيدته لها امتداد وطول - وكذلك مسرحية مجنون ليلى وما جمع شوقي رحمه الله من تجديد إلى حسن صياغة وصفاء ديباجة ومحافظة على الوزن والفصاحة وتعبير عن معانٍ عصرية بروح حضرية - هذا ولنجعل ما ألمعنا إليه وما نسأل الله أن يعيننا على أن نفى ببعض ما وعدنا فيه خاتمة لصفحات هذا الكتاب

والمرء مظنة الزلل ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونسأله القبول وله الحمد أولا وأخيرا وكان الفراغ منه في الليلة الخامسة عشرة من ربيع الأول سنة ١٤١١ هـ (أي مساء ٣ من نوفمبر سنة ١٩٩٠ م) في مدينة الخرطوم أعني الفراغ من الفصل الأخير بعد مراجعته كما تقدم من ذكر ذلك وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

**مؤلفه عبدالله بن الشيخ الطيب بن عبدالله بن الطيب بن محمد بن
أحمد بن الفقيه محمد المجذوب
رضي الله عنه**

فهرست الجزء الرابع - القسم الثاني

الموضوع :	الصفحة
مدح الرسول صلى الله عليه وسلم	٥
أطوار المدحة النبوية وبعض أمرها	٢٩
طور الدعوة .	
طور السياسة	٣٤
الطور الثالث	٤٢
طور التضج	٧٦
(ابن الخطيب وابن خلدون وغيرهما)	
الصرصري والبرعي والبوصيري	
الصرصري	
البرعي	
شيء عن ابن الفارض	
البوصيري	
الشهاب محمود	
عن شنقيط	
الشيخ حرازم الكشناوي	
حاشية	
العنصر الرابع وهو نفس الشاعر	٢٢٠
أولا التسلسل	٢٢٢
ثانيا التدرج	٢٥٤
ثالثا تداعي المعاني	٢٨٠
رابعا المقابلة	٢٨٨
فصل فيما يقع من تشابه أشكال القصائد	٣٥٦
أسلوب المقالة - تمهيد	٤٥٠
ثم جاء محمود سامي البارودي	
قصيدة جون كيتس (النص والترجمة)	
شعر البارودي	

الموضوع :	الصفحة
أسلوب المقالة أوائله ثانيا	٤٨٨
المقالة والقصيدة عند شوقي وحافظ ومن بعد قليلا	٥٠٠
الضرب الأول	٥٣٠
الضرب الثاني - الرومنسية المسيحية العربية	٥٣٠
الضرب الثالث : رومنسية الأفندي	٥٣٦
الضرب الرابع : وهو رومنسية الفقير المفقود	٥٥٤
أبو القاسم الشابي	
التجاني يوسف بشير	
محمود حسن اسماعيل	
البياتي	
بدر شاكر السياب	
محمد مفتاح الفيتوري	
نازك الملائكة	
نزار قباني	
محمد بن عثيمين	
العباسي	
محمد مهدي الجواهري	
أحمد محرم	
رفاعة الطهطاوي	
العباسي	
محمد عبد القادر كرف	
محمد المهدي مجذوب	
الجانب المسرحي	٦٤٨

**وزارة الاعلام
مطبعة حكومة الكويت**